الرّسائل الأدبيّة النّثريّة

في القرن الرّابع للهجرة

العراق والمشرق الإسلامي

الدكتور غانم جواد رضا الحسن

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

الرسائل الأدبية النثرية

في القرن الرابع للهجرة

العراق والمشرق الإسلامي

الدكتور غانم جواد رضا الحسن

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : THE PROSAIC LITERARY PAPERS IN THE FOURTH CENTURY OF THE HEGIRA In Iraq and The Islamic Neareast		الكتاب	الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة العراق والمشرق الإسلامي
Classification:	Literary studies	التصنيف	: دراسات أدبية
Author	: Dr. Ǧānim Jawād Riḍā al-Ḥasan	المؤلف	: د.غانم جواد رضا الحسن
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah	الناشر	: دار الكتب العلميـــة - بيروت
Pages	: 544	عدد الصفحات	: 544
Size	: 17* 24	قياس الصفحات	: 24 *17
Year	: 2011	سنة الطباعة	: 2011
Printed in	: Lebanon	بلد الطباعة	: لبنـــان
Edition	: 1st	الطبعة	: الأولى

هذا الكتاب بالأصل أطروحة تقدّم بها المؤلف
إلى مجلس كلية الآداب في جامعة بغداد، وهي جزء
من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها
بإشراف الأستاذ الدكتور يونس أحمد السامرائي

الآراء والاجتهادات الواردة في هذا الكتاب
تعبّر عن رأي المؤلف وحده
ولا تُلزم الناشر بأي حال من الأحوال

ISBN 978-2-7451-6254-0
ISBN 2-7451-6254-3

جميع الحقوق محفوظة
2011

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟
رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا
مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾

صدق الله العلي العظيم

سورة الكهف (١٠)

مَكْتَبَةُ لِسَانِ العَرَب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا)

الحمد لله تعالى الذي دان لعظمته كلُّ شيء، وذلَّ لقدرته وسطوته كلُّ شيء، والصلاة والسلام على رسوله محمد الأمين، خاتم النبيين، المرسل بالنور المبين، والكتاب المستبين، وعلى آله الطاهرين، وسلّم تسليماً كثيرا..

أمّا بعد، فلقد تبوأ النثر الفني في القرن الرابع مكانة رفيعة سامية، إذْ بلغ شأواً بعيداً من الجودة والغزارة والتنوع حتى طفق يداني فنَّ الشعر، ويسابقه في أغراضه وخصائصه، ووقف فنّاً شامخا يصوّر آفاق الحياة المختلفة، ويعبّر عن نوازع الأدباء الكتّاب في شتى الأمور، إذْ إنَّ النثر الفني - بحكم طبيعته الخاصة - أكثر من الشعر مرونة وطواعية في حمل الأفكار على تنوعها، والتعبير عن المعاني على اختلافها، والتي قد يعجز الشعر أحياناً في التعبير عنها.

وفي هذا القرن - الذي يُعَد بحق أزهى عصور الإسلام حضارة وثقافة - أيضاً، أصبح للرسائل الأدبية بخاصة، القدح المعلى على سائر الأجناس الأدبية الأخرى، بما هيّأ لها جهابذة الكتّاب من لمسات فنية ساحرة، تجلَّتْ في رقة الألفاظ وتواؤمها في الجرس، وائتلافها في تراكيب لغوية رصينة، ضمّت أقداراً موسيقية متناغمة، إلى جانب ما عرفوا به من قدرة عالية في تفتيق أكمام المعاني الجديدة، فضلاً عن براعتهم الفائقة في الوصف وتحليل أدقّ المعاني والأفكار، وتصوير أرقّ المشاعر الإنسانية، وتجسيد النوازع الوجدانية بكلّ عمق ووضوح، بما أُتيح لكثير من أولئك الكتّاب البلغاء من ثقافة واسعة متنوعة، وبلاغة ثاقبة نادرة فضلا عن امتلاكهم ناصية اللغة والبيان..

وهكذا أصبحت صناعة الترسل في هذا القرن - كما ذكر القلقشندي - "لا تلتفت الملوك إلاّ إليها، ولا تعوّل في المهمات إلاّ عليها، يعظّمون أصحابها، ويقرّبون كتّابها، فحليفها أبداً خليق بالتقديم، جدير بالتبجيل... "[١].

وهكذا شهد هذا القرن بزوغ نجم هؤلاء الكتّاب الأفذاذ الذين قادوا حركة التطور الأدبي، واستطاعوا بملكاتهم الفنية المتميّزة، أن يعبّروا عن تلك النهضة الأدبية الرائدة، ويرسموا أبعادها ويخلّدوا نتائجها.

لقد كانت شخصيات أولئك الكتّاب الأفذاذ، كأبي حيّان، والصابي والرضيّ والوزير المهلبّي وأضرابهم في بغداد، وأبي الفضل ابن العميد، والصاحب والخوارزميّ، والهمذانيّ، والأمير قابوس، والميكالي، وأضرابهم في أقاليم المشرق الإسلامي، أكبر الشخصيات الأدبية التي أثرت الحياة الأدبية، وأوقدت وميض حركة تطور واضحة في النثر العربي، ظل صداها مشّعاً في الأدب العربيّ إلى يومنا هذا.

ولعل هذه الحقيقة الناصعة تقف في مقدمة الدوافع التي حفزتنا على اقتحام هذا الموضوع المتشعب والخوض في دراسته، فكان هذا البحث الذي أقدّمه لقرّاء العربية، وفضلاً عن ذلك، فإن أغلب البحوث والدراسات الأدبية التي انصبَّتْ على دراسة النثر الفنّي في هذا القرن - على سموّ موقعها، وجلال قدرها - لم تعن كثيراً بنصوص الرسائل الأدبية، وإنما أفاضت في دراسة تراجم الكتّاب، ووقفتْ عند أشهر نتاجهم الأدبي، وقد اكتفتْ، غالبا، بالإشارة إلى بعض تلك النصوص الأدبية الشهيرة، أو أحالتْ لدراستها، أو حثَّت على الوقوف عليها، والولوج إلى عوالمها الفنية الزاخرة...

* * *

أما ميزةُ هذا البحث فتتجلّى في الطريقة التي سلكها، وفي الغاية التي يهدف إليها..

أمّا طريقة البحث فهي ذات طابع علمي ترتكز أساساً على الوصف والتحليل، وتنتهج الاستقراء والمقارنة والاستنتاج، أي أنّها تقوم على تتبع الخصائص الفنية

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١ / ٦.

لفصول الرسائل الأدبية، كما تقوم على التعليل لها، والحكم عليها، حكماً لم يَشُبْهُ أدنى تحامل عليها، أو تعصب لها، نزوعاً إلى البحث العلميّ الصادق الرزين.

كما ترتكز هذه الدراسة أيضاً على الوقوف على المصادر القديمة التي عاصرت موضوع البحث، أو القريبة منه، فضلاً عن المراجع العلمية الرصينة التي أضاءت السبيل إلى شتات تلك الرسائل الأدبية، مع الحرص على دقة الاستنباط، في حيدة تامة، بعيداً عن الأهواء الشخصية والنزعات الذاتية الضّيقة.

وطبقاً لهذا المنزع في البحث، فإننا غالباً ما نورد الآراء المتباينة، أو الاتجاهات المتعارضة في مكانها المناسب، وكثيراً ما يستوقفنا بعضها، فنبيّن قيمتها أو دقتها، وقد نوحي أحياناً برأينا معقّبين أو محلّلين، وقد نكتفي أحياناً أخرى بعرض تلك الآراء، دون التعقيب عليها، ليحيط بها القارئ، وليختار أيها شاء..

وأما الغاية التي توخاها الباحث، فهي بلوغ الحقيقة التي هي ضالة كلّ بحث علمي قويم، أيّا كانت تلك الحقيقة، من غير أن نجعل من الرسائل الأدبية التي ندرسها، أو كتّابها الذين نقف عند تحليل شخصياتهم وأساليبهم، نماذج مثاليّة، أو نضفي عليهم بحقّ أو من غير حقّ، مزايا مصطنعة، أو ثناءً متكلّفا، يطمس معالم الحقيقة التي ننشدها.

* * *

ونظراً لخصب نصوص الرسائل الأدبية، وحيويتها وثراء مضامينها في هذا القرن، ولِما تميّزت به أيضاً من نضج التجربة، وثراء الصياغة، والحرص الدائب على التجديد في المعاني، والابتكار في صور الخيال، فقد تحتَّم على الباحث أن يفيد من أكثر من منهج نقدي، وأن يستثمر أقرب النظريات لاستجلاء ما في تلك النصوص من قيم جمالية، ومزايا فنية..

لقد أفاد الباحث أولاً مما طرحه المنهج التاريخي (الاستردادي) - إلى جانب مناهج علمية أخرى - فاعتمدناه في كتابة بعض فصول هذه الدراسة ومباحثها، إذ إنَّ جميع ملابسات الزمان والمكان (البيئة)، والأحوال العامة للمجتمع، وتداعياتها المتباينة، فضلاً عن المؤثرات الحضارية الطارئة، كلّها وشائج عميقة انعكست على

حياة الأدباء الكتّاب وغيرهم في هذا القرن، وكان لها تأثيرها المباشر والفاعل في نتاجهم الأدبي.

لقد أفاد البحث مما طرحه المنهج التاريخي في التوثق من صحة النصوص الأدبية، والحكم عليها، ليتجنّب ما قد يقع فيه من مزالق، وليطمئنّ على ما يصدره من أحكام نقدية عليها، كما أفاد من أسس هذا المنهج العلميّ أيضاً في البحث عن الوثائق، (نصوص الرسائل الأدبية)، وعن مقدارها ومظانها، إذْ إنَّ تلك الوثائق الأدبية هي أساس منطلق الباحث العلميّ في رصد أيّة ظاهرة أدبية، ودراستها أو تحليلها..

وقد حاول الباحث - وفقاً لقواعد هذا المنهج ومبادئه أيضاً - بعدَ جمع تلك الوثائق الأدبية وفرزها وترتيبها تبعاً لأسس فنية وموضوعية، أن يجري عليها بعض ما يستوجبه النقد الخارجي - وهو ما يعرف بنقد التحصيل - فعمد إلى الاعتماد على النصوص الموثوقة التي قد تمّ استقاؤها من المصدر الأقدم والأوثق، فضلاً عن التثبّت من صحة طائفةٍ من الأخبار والروايات أو الوقائع التاريخية المتصلة بتلك النصوص..

كما أفاد الباحث أيضاً من (المنهج الفنّي) إذْ إنَّ هذا المنهج يرتبط بالنصوص، ويعنى بدراستها وتحليلها أكثر مما يهتم بأيّ شيء سواها، وعلى هذا فإنَّ تحليل تلك الوثائق الأدبية وفق قواعد هذا المنهج، سوف تتيح لنا أنْ نتعمّقها من الداخل ونتحسّس ما انطوت عليه من جهد فنّي، ونستشفّ الشيات والظلال التي خالطتها، والصور وأفانين الخيال التي مازجتها، والأساليب التي طغت عليها..

على أننّا يمكن أنْ نجوز هذا المنهج الفنّي عند دراسة بعض الومضات الفنية التي تخلّلت نصوص تلك الوثائق الأدبية إلى مناهج نقدية أخرى، كالمنهج النفسيّ مثلا، وما أفادهُ من حقائق أو مفاهيم تتعلق بالنفس البشرية، وتفسير سلوك الإنسان، أو ما يصدر عنه من أفعال أو انفعالات، أو انعكاس ذلك كلّه على العمل الأدبي، إذْ إنَّ كثيراً من الصيغ وخفقات الرؤى أو المعاني الدقيقة، وغير ذلك مما تخلّل فصول تلك الرسائل، يمكن اتخاذها مفاتيح مهمة للكشف عن خفايا نفسية أولئك الأدباء، ويمكن عدّها رموزا نستجلي من وحيها كثيراً مما كان يرين على دخائلهم من أفراح وأتراح، أو تفاؤل وقنوط، وما إلى ذلك. على أننا احترزنا كثيراً من إقحام نصوص تلك الرسائل

القديمة في متاهات غريبة عن طبيعتها الفنية، إذ إنّنا لا نرمي من وراء تحليل بعض تلك النصوص في ضوء معالم هذا المنهج، أن نوغل - كما فعل بعض الدارسين - في خفاياه، فنجعل مثلاً، بعض الخواطر أو الانفعالات التي وردت في ثنايا بعض فصول الرسائل تنفيساً عن رغبات مكبوتة في اللاشعور أو نفسر بعض ومضاتها الإنسانية النادرة، على أنها خفقات جنسية مكبوتة، كُبتتْ منذ عهد الطفولة في اللاشعور، أو أنها خواطر قمعت قمعاً شديداً، وأنَّ هذه الرؤى والخواطر التي انبثّتْ في فصولها إنْ هي إلاّ تعبير عن كلّ ذلك الكبت المكظوم..

غير أنّنا آثرنا التركيز كثيراً على جوانب مهمة من أسس المنهج الفني، لأنه أقرب من سواه من المناهج الأخرى إلى طبيعة هذه الدراسة الفنية.

وهكذا أفردت لدراسة الخصائص الفنية للرسائل الأدبية في هذا القرن، وفق أسس هذا المنهج النقدي، مبحثين متصلين، تكفّل الأول بدراسة الخصائص البنائية والشكلية، بينما اشتمل المبحث الثاني دراسة وتحليل المحتوى أو المضمون لنصوص تلك الرسائل..

* * *

لقد حرصت في هذه الرسالة - ما وسعني الجهد والوقت - على أن أجلو من خلالها كثيراً من الملامح الفنية والموضوعية للرسائل الأدبية في هذا القرن، معتمدا على نصوص كثيرة مما دبَّجتهُ أقلام بلغاء الكتّاب، وكان ذلك من خلال ما تناولته في تمهيد وخمسة فصول وخاتمة..

تناولت في (التمهيد)دراسة الأحوال العامة (السياسية والاجتماعية والثقافية) في المجتمع الإسلامي، وأثرها البالغ في توجيه الأدب ولا سيما الرسائل الأدبية، انطلاقاً من أنَّ تلك النصوص الإبداعية التي أنشأها الأدباء الكتّاب في هذا القرن، لم تكن منبتة الجذور عمّا يكتنفها من مؤثرات البيئة المعروفة، وصولا لربط النص الأدبي بجذوره الاجتماعية، ووضعه في أجوائه التاريخية المناسبة.

وقد أكّد الباحث في التمهيد حقيقة مهمة تلك هي أنَّ النصوص الأدبية التي يبدعها الأدباء، تتأثر بمقومات ذاتية تتصلُ بذات الأديب وبالأدب نفسه، ومقومات

خارجية (موضوعية)، تحيط بها وبالأديب المنشئ، وفي مقدمة تلك المقومات الخارجية، البيئة التي يستلهم منها الأديب صورهُ ودعائم وجوده وأحاسيسه، فضلاً عن الزمن، أي الأطوار الفنية التي تتعاصر أو تتعاقب، مكونة تاريخ الأدب، وما تتميز به كلّ مرحلة من خصائص فنية، أو شائج أسلوبية متقاربة.

ومن هنا، فقد أصبحت تلك النصوص الأدبية ثمرة ذلك التفاعل بين مزاج الأديب المنشئ وأحاسيسه المرهفة، وبين كلّ المؤثرات الخارجية (الموضوعية)، والمكانية (البيئة) والزمانية، والروحية التي يصدر عنها الأدب، مما يؤثر في تنوع موضوعاته، وتشكيل بنائه وتلوين أساليبه..

أمّا الفصل الأول: فقد انصبَّ على (ضياع الرسائل الأدبية وانتحالها، ومجاميع الرسائل الأدبية وتوثيقها).

وقد جاء هذا الفصل جديداً في طرحه ونتائجه، إذْ قلّما تناولتْ أقلام الباحثين تحليل هذا الجانب واستقصائه.. وقد اشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث هي كما يأتي:

المبحث الأول: وقد ضمَّ دراسة ضياع الرسائل الأدبية في هذا القرن، وأهمَّ مظاهر ذلك الضياع وأسبابه..

المبحث الثاني: وقد شمل دراسة ظاهرة الانتحال (أو الوضع الفني) في الرسائل الأدبية في هذا القرن.

المبحث الثالث: وقد انصبّ على دراسة مجاميع الرسائل الأدبية التي سلمت من الضياع، وسبل توثيقها، وصحة نسبتها إلى أدباء وكتّاب هذا القرن.

وجاء الفصل الثاني بعنوان (ازدهار الرسائل الأدبية وطبقات الكتّاب في القرن الرابع) وقد ضمَّ هذا الفصل مبحثين متصلين، اشتمل المبحث الأول منهما على محورين مهمين: ضمَّ الأول؛ شيوع الرسائل الأدبية وازدهارها في هذا القرن بينما ضمَّ المحور الثاني؛ دراسة أسباب ازدهار الرسائل ودواعي ذلك في هذا القرن أيضاً..

أمّا المبحث الثاني فقد انصبَّ على دراسة طبقات كتّاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، وأثرهم في ازدهار هذا الفن الأدبي، وقد ضمَّ هذا المبحث ثلاثة محاور هي:

(أولا): طبقة الكتّاب من الأمراء والوزراء. (ثانيا) طبقة المترسلين من كتّاب الدواوين. (ثالثا) طبقة الكتّاب الجوّالين المتكسبين.

وقد ضمَّ هذا الفصل بمبحثيه، طرحاً جديداً لقضايا أدبية مهمة، ولا سيما ما يتصل بأعلام الكتّاب من الرواد، وما تميّزت به كلّ طبقة من مزايا فنية أثرت النثر العربي في هذا القرن، وأثرهم جميعا في ازدهار الحياة الثقافية والأدبية خاصةً، واثرائها، وجهودهم الحثيثة في اتساع قاعدة الكتّاب البلغاء الذين تتلمذوا عليهم، وتلقّفوا طرائقهم في الترسل وصناعة الرسائل الأدبية والديوانية..

وانصبَّ الفصل الثالث على دراسة مصادر ثقافة الكتّاب وأصول الرسائل الأدبية ومنابعها في القرن الرابع، وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين أيضاً، تناول المبحث الأول منهما: دراسة الثقافة العربية الإسلامية، ومدى استلهامها من لدن كتّاب هذا القرن، وقد كشف البحث عن أهمّ مفردات تلك الثقافة، وأثرها في الرسائل الأدبية، وقد توّزعت على أربعة محاور هي:

(أولاً): تضمين الشعر القديم والمحدث وحلّه في الرسائل الأدبية.

(ثانيا): الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي وتوظيف القصص القرآني في الرسائل.

(ثالثا): تضمين الأمثال القديمة، وتوظيف الحكاية الشعبية في الرسائل.

(رابعا): الإلمام بالأحداث التاريخية، والإشارة إلى الأعلام والشخصيات الشهيرة المهمة، وتوظيفها في الرسائل الأدبية.

في حين رصد المبحث الثاني من هذا الفصل الثقافات الأجنبية وأثرها في رسائل هذا القرن، وقد جاءت في محورين، تناول الأول الثقافة اليونانية وأهمّ أصولها وآثارها الواضحة على ثقافة الكتّاب، في حين رصد المحور الثاني منابع الثقافة الفارسية والهندية وأصولهما، وأثرهما على ثقافة الأدباء الكتّاب في هذا القرن.

وقد توصل البحث إلى أنَّ آثار هذه الثقافات مجتمعة كانت واضحة على نتاج الأدباء الكتّاب في هذا القرن، مما كان لها تأثيرها الواضح على أساليب الكتّاب، وطرائقهم في التعبير، فضلاً عما تميّزت به مضامين رسائلهم من العمق والثراء، ودقة

التفكير على الرغم من اتشاح الرسائل الأدبية بأفانين البديع وألوان الزخارف اللفظية الأخرى..

أمّا الفصل الرابع فقد انصبّ على (موضوعات الرسائل الأدبية وأغراضها في القرن الرابع). وقد جاء كثير من مسالك هذا الفصل جديدا في العرض، وطرح الأفكار، فضلا عن الوقوف على طائفة كبيرة من نصوص الرسائل الأدبية التي لم تقع عليها أقلام الباحثين بالدراسة والتحليل..

لقد اشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث مهمة هي:

(المبحث الأول): وقد ضمَّ دراسة الرسائل الإخوانية في هذا القرن.

وقد رصد البحث تطور هذا اللون من الرسائل الأدبية على الرغم من ظهوره وشيوعه في العصور السابقة، وقد وقف عند ثمانية أغراض من الإخوانيات، حلَّل في كلّ منها فلسفة كلّ غرض منها، ثم شرع يحلّل نماذج فنية نادرة لم تطل كثيراً منها أقلام الباحثين أيضا، وهي: الشكوى، والعتاب، والتعازي، والتهاني، والاعتذار، والثناء والشكر، والاستزارة وأخيراً التوصية وطلب الشفاعة.

(المبحث الثاني): وقد شمل دراسة الرسائل الوصفية في هذا القرن.

وقد كشف هذا المبحث عن شغف كتاب الرسائل الأدبية في وصف المحسوسات والمعنويات، واندفاعهم في تصوير كلّ ما يلمّون به في ترسلهم، واستقصاء جوانبه المختلفة، وتحليل أطرافه وجزئياته، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالأمور المادية (المحسوسة) أم فيما يتصل بأمور الوجدان والخواطر، وسواهما من الأمور المعنوية المجرّدة..

ثم استقصى البحث أهمّ موضوعات الرسائل الوصفية في هذا القرن، فتوصل إلى أنَّ هذا اللون من الرسائل كان وثائق أدبية وتاريخية مهمة، إذ إنّها سجلّت بدقة متناهية كلّ ما عرض لطبقة الكتّاب في مجتمعاتهم وبيئاتهم الفسيحة من أحداث ومشاهد ومفارقات.. ومن جانب آخر، فإنَّ هذا الضرب من الرسائل الأدبية جسّدت بوضوح براعة بلغاء الكتّاب في وصف ما وقعت عليه حواسهم، وتشخيص ما تلّمسوه في خواطرهم وعقولهم، وكشف أيضاً عن مقدرتهم في التصوير وتشخيص المعنويات

وتصوير المحسوسات في إطار المعاني الذهنية المجرّدة، لخلق صور جديدة، ومعان مبتكرة..

(المبحث الثالث) وقد شمل دراسة الرسائل الهزْلية والمفاكهات الأدبية في هذا القرن. وقد خلص البحث إلى أنَّ نزوع الكتّاب إلى الفكاهة والمرح أو السخرية والتندر في ترسلهم، انما كان مظهرا من مظاهر نزعتهم الفنية التي خامرت طبيعتهم المرحة، وانبثقت عن رغبتهم في الجنوح إلى هذا اللون من النثر الفني الفكه..

وقد عرض الباحث أخيراً إلى دواعي شيوع هذا اللون من الرسائل الفكهة الساخرة، فأرجعها إلى ثلاثة أسباب هي: العامل الحضاري، ثم ترديّ الأوضاع الاقتصادية، ثم ميل الكتاب إلى الهزل والفكاهة، ثم تناول البحث بعد ذلك أهمّ مضامين رسائل الهزل والسخرية، فأرجعها إلى ثلاثة محاور هي:

أ- المداعبة والتفكه.

ب - التندر ببعض الظواهر الاجتماعية ونقدها.

ج-التهكم والسخرية اللاذعة.

وشمل الفصل الخامس، الدراسة الفنية وقد انصبَّ على دراسة الخصائص الفنية والأسلوبية للرسائل الأدبية في هذا القرن.

وعلى وفق أسس المنهج الفني الذي اتبعه الباحث، فقد اشتمل هذا الفصل على توطئة ومبحثين كبيرين متصلين..

أما توطئة الفصل فقد انصبَّتْ على بيان أبرز الملامح العامة للنثر الفني في هذا القرن، وكان كما يأتي:

١) الصنعة الفنية والالتزام بالزخارف البديعية.

٢) حرص الكتّاب على التناسب بين المبنى والمعنى.

٣) البراعة في التصوير الفني، والإغراب في الخيال.

٤) نزوع الكتّاب إلى الإفاضة والإطناب.

٥) مزج المنظوم والمنثور في الترسل والمراسلات الأدبية.

أما المبحث الأول من هذا الفصل فقد انصبَّ على دراسة الخصائص البنائية

والشكلية للرسائل الأدبية في هذا القرن، وقد استهلّ هذا المبحث بنبذه مركزة في قضية (الشكل والمضمون) وتواؤمهما في العمل الأدبي،، فبدأ أولاً ببحث قضية (الهيولي والصورة) عند أرسطو، ثم عرض لقضية اللفظ والمعنى في النقد القديم، وصولاً إلى موقف النظرية النقدية المعاصرة من قضية الشكل والمضمون في العمل الأدبي..

وقد تناول هذا المبحث محورين مهمين: (الأول) الخصائص البنائية للرسائل الأدبية. وقد تناول البحث دراسة عدّة قضايا مهمة منها:

أ - الاستهلال وقيمته الفنية، وأنواعه في الرسائل الأدبية.

ب - عرض الرسالة وحسن الانتقال.

ج - الخاتمة أو الانتهاء، وأنواع الخواتيم في الرسائل الأدبية..

أما المحور الثاني من هذا المبحث فقد انصبَّ على دراسة الخصائص الشكلية، وقد اشتمل على دراسة القضايا المهمة الآتية:

أ - الألفاظ ولغة الرسائل الأدبية.

ب - التراكيب.

ج - الموسيقى والإيقاع، وقد عرض البحث في هذا الجانب إلى أهمّ الطرق التي تحقق الموسيقى والإيقاع في الرسائل الأدبية فكانت:

١) السجع. ٢) الازدواج. ٣) الموازنة. ٤) التجنيس..

أمّا المبحث الثاني من هذا الفصل فجاء على عنوان: (خصائص المحتوى والمضمون في الرسائل الأدبية). وقد اشتمل هذا المبحث أيضاً على ثلاثة محاور مهمة هي:

(المحور الأول): المعاني والأفكار، وقد عرض البحث إلى أهميّة المعنى في العمل الأدبي، وأهمّ ملامحه الفنية، فشخّص البحث ثلاثة منازع مهمة هي:

١) الإبانة والوضوح: وقد عرض البحث إلى ما يحقّق ذلك الوضوح، فأرجعها إلى الأساليب الفنية الآتية: الطباق أوالتضاد، الإيضاح بعد الإبهام، ثم المبالغة والغلو..

ثم عرض البحث إلى قضية: ٢) الإفاضة والاستقصاء في المعنى، فعالج البحث

عدة قضايا مهمة منها: الترادف، ثم التكرار، ووقف أخيراً عند الاعتراض وأنواعه..

وعرض البحث بعد ذلك إلى: ٣) الابتكار والتجديد في المعاني، فحلّل أولاً دواعي الابتكار والتجديد في المعاني، ثم وقف عند ضربي المعاني المبتكرة، وقد عزز الباحث ذلك كلّه بشواهد بليغة من فصول الرسائل الأدبية، ممّا لم يطل أكثرها الباحثون بالدرس والتحليل.

(المحور الثاني): وقد انصبَّ على دراسة الأخيلة والصور، فعرض البحث أولاً لمصطلح (الخيال)، وتطور مدلوله، وأهميته في العمل الأدبي، ثم بحث عقب ذلك (الصورة الفنية) وصلتها بالخيال، فتناول أساليب بناء الصورة في الرسائل الأدبية، ثم عرض إلى دراسة تصوير المحسوسات والمعنويات في الرسائل الأدبية، ثم وقف البحث أخيراً عند دراسة أنواع الصورة الفنية في رسائل هذا القرن، مسلّطاً الضوء على الصورة البلاغية، فوقف عند:

أ - التشبيه: فتناول دلالته الفنية وأنواعه..

ب - المجاز الاستعاري: فعرض البحث إلى المجاز الاستعاري، ودلالته الفنية، وأنواعه..

ج - الكناية أو الإرداف: وقد وقف البحث عند الكناية ودلالتها الفنية، وتنوع أساليبها..

وقد عزز البحث تلك الومضات النقدية بشواهد بليغة من نصوص الرسائل الأدبية لبلغاء هذا القرن...

(المحور الثالث): وقد اشتمل على دراسة العاطفة أو الانفعال في رسائل هذا القرن، وقد ضمّ هذا المبحث عدة محاور مهمة، فتناول أولاً: أهمية العاطفة أو الانفعال في العمل الأدبي، ثم تناول المحور الثاني دراسة الانفعالات الحسية والمعنوية في فصول الرسائل ثم تناول المحور الأخير مقومات العاطفة وقيمتها في الرسائل الأدبية، وهي: (أ) صدق الانفعالات والمشاعر (ب) قوة الانفعالات وثباتها في العمل الأدبي (ج) تنوع الانفعالات وسموها.

وأخيراً اختتمتُ هذه الدراسة بخاتمة مركزّة ضمَّتْ خلاصة بأهمّ ماجاء في

فصولها ومباحثها، ثم أوجزتُ أهمَّ النتائج التي توصل إليها البحث عبرَ تطوافه المضني في أعنةِ المصادر، وشتات الروايات المبثوثة في ثنايا المراجع التي كانت منهلاً سائغاً للباحث في مسيرة بحثهِ المتشعب الطويل...

****

وبعدُ، فما خضتُ في شيء من مسارب هذا البحث إلاّ على غاية ما كان في النفس، وما نزعتُ فيما جمعتُ عن هوى وتكلّف، وكان وكدي أنْ يسلم هذا البحثُ من التطويل الممل، والإيجاز المخل، " ومن العناء رياضة الهرم"، ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وإذ أختتمُ تقديمي المسهب لدراستي هذه، أتوجَّهُ بكلمةِ امتنانٍ صادق، وعرفانٍ بالجميل لأستاذي المشرف الدكتور يونس أحمد السامرائي، هي أقلُّ ما أسديهِ، لرعايتهِ العلمية المخلصة، وتوجيهاته الدقيقة الصائبة، داعياً الله العزيز القدير أن يمُنَّ عليهِ بنعمةِ العافية، شاكراً لهُ الشكر كلّه، ما غمرني بهِ من رعاية وحسن توجيه، جزاهُ الله تعالى عني وعن طلبة العلم خير الجزاء، وجعلني ممن يديمون لهُ الوفاء.

والله تعالى المؤيِّد والمسدِّد، وهو حسبُنا ونعم الوكيل.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

تمهيد

الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية في القرن الرابع وأثرها في المكاتبات الأدبية

ما من شك في أن النصوص الأدبية التي يبدعها الأدباء - بوصفها نماذج فنية راقية - تتأثر بعناصر أو مقومات عديدة؛ داخلية (ذاتية)، تتصل بالأدب نفسه، وخارجية (موضوعية) تحيط به، وبالأديب (الفنان المبدع) الذي أبدع تلك النصوص الأدبية.

ولعل في مقدمة تلك المقومات الخارجية المهمة التي يتأثر بها الأدب (البيئة) التي يترعرع فيها الأديب المبدع، ويستلهم منها صوره، ومرتكزات وجوده، ودعائم أحاسيسه. فضلا عن (الزمن)، وأعني به هنا، الأطوار الفنية التي تتعاصر أو تتعاقب، مكونة تاريخ الأدب العام، وما تتميز به كل مرحلة من خصائص، فنية، أو وشائج أسلوبية متقاربة، فضلا عن المؤثرات الخارجية الأخرى ...

ومن هنا فقد أصبحت تلك النصوص الأدبية ثمرة ذلك التفاعل بين مزاج الأديب (الفنان) وأحاسيسه، وبين كل المؤثرات الموضوعية الأخرى، المكانية (البيئة)، والزمانية، والروحية التي يصدر عنها الأدب، مما يؤثر في تنوع موضوعاته، وتشكيل بنائه، وتكوين أساليبه.

ومن جانب آخر، فإن هذا الأدب - ولا سيما الرسائل الأدبية النثرية - بوصفه تعبيرا دقيقا وصادقا عن انفعالات الأديب الفنان، وانعكاسا عن جميع الظروف والملابسات الخارجية المحيطة به، يؤثر بدوره تأثيرا فاعلا وكبيرا في توجيه الحياة العامة، وتصويرها، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم فكرية أم غيرها من مفاصل الحياة الأخرى.

ومن هنا، كان لزاما على الباحث، وهو يدرس هذه النصوص الفنية ويحللها، ويكشف عن أغوارها، أن يردها إلى عناصرها الذاتية والموضوعية تلك، وصولا إلى إدراك جمال هذه الرسائل الفنية، ورصد قيمتها الأدبية والتاريخية بوصفها وثائق مهمة لاستكناه ملابسات زمانها ومكانها (بيئاتها المكانية) التي عبرت عنها، وصورتها

خير تصوير.

وفضلا عن ذلك كله، فإن الإلمام بدراسة الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية، وغيرها، في هذا القرن، يمكن أن يعين الباحث على تحليل أو تفسير كثير من الظواهر الأدبية التي استجدت في بيئة العراق والمشرق الإسلامي في هذا القرن المضطرب.

أولا: الحالة السياسية في القرن الرابع وأثرها في الرسائل الأدبية:

كانت الحياة السياسية في القرن الرابع حياة قلقة مضطربة، تموج بالدسائس والفتن، وتمور بالنزعات والمحن، وتسودها الاضطرابات الداخلية العنيفة التي تمثلت بالانتفاضات أو الثورات الداخلية في بقاع عديدة من أقاليم الدولة الإسلامية، فضلا عن استمرار المعارك، وتجدد الوقائع العنيفة بين أمراء الممالك وحكام الدويلات المستقلة، والحروب الخارجية المبيرة على الحصون والثغور الإسلامية النائية، مما كان لكل تلك الأحداث الخطيرة، وتداعياتها المؤثرة، أصداؤها الواضحة على الأدب العربي شعرا ونثرا.

ولقد كان للأدباء في هذا القرن - ولا سيما كتاب الرسائل - ارتباط كبير بتلك الأحداث السياسية الخطيرة، إذ إن أكثرهم شارك في صنع كثير من تلك الأحداث، أو أثر فيها، لكون أن بعض أولئك الكتاب كانوا إما رؤساء أو أمراء أو وزراء، فأسهموا أحيانا كثيرة في قيادة تلك الحروب، كالوزير المهلبي، وأبي الفضل ابن العميد، والصاحب بن عباد واضرابهم، أو كانوا من كبار كتاب الدواوين الرسمية، كأبي إسحاق الصابي، وعبد العزيز بن يوسف، وأبي القاسم الإسكافي، وأبي الفتح البستي وغيرهم، أو لأن كثيرا من أولئك الأدباء كانت له صلات وثيقة بأولئك الرؤساء والوزراء؛ كأبي بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، وأبي الفرج الببغاء، وغيرهم.

وقبل أن أشرع في دراسة الحالة السياسية المتردية، ومدى تأثيرها في أدب الرسائل في هذا القرن، لا بد لي من وقفة سريعة ومركزة عند أهم الأحداث السياسية للحقبة الزمنية التي سبقت هذا القرن، وهي المرحلة التي اصطلح كثير من مؤرخي

الأدب العربي على تسميتها بالعصر العباسي الثاني، بوصف هذه الحقبة الزمنية المهمة رحلة ممهدة لأحداث القرن الرابع السياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها.

تسلط الأتراك على مقاليد الحكم وضعف الخلافة العباسية:

لعل أخطر تلك الأحداث والتطورات السياسية في هذه المرحلة؛ سيطرة القادة الأتراك على أمور الدولة الإسلامية، والتحكم بمقدرات الخلافة العباسية(١)، فمنذ استفحال أمرهم في عهد الخليفة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) الذي أعتمد عليهم في بناء جيشه(٢)، ثم انتقاله معهم إلى عاصمته الجديدة (سر من رأى)(٣) بدأ نفوذهم يتسع، وعندما حاول الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) التخلص من سيطرتهم، تآمروا عليه(٤)، وقتلوه دون تحقيق غايته تلك.

لقد استولى القادة الأتراك، منذ مقتل المتوكل، على أمور الدولة، واستضعفوا الخلفاء العباسيين، فكان الخليفة ألعوبة في أيديهم، يتصرفون به كيفما شاءوا! يقول ابن الطقطقى، مصورا الحالة السياسية المزرية، وضعف الخلافة العباسية(٥): (من تلك الأيام اضطهدت الخلافة العباسية، وخرجت الأمور منها، واستولى الأعاجم والأمراء وأرباب السيوف على الدولة، وجبوا الأموال، وكفوا يد الخليفة، وقرروا له شيئا يسيرا، وبلغةً قاصرة، ووهن يومئذ أمر الخلافة).

ولم تجد نفعا محاولات بعض الخلفاء كالمهتدي مثلا - ولي عام ٢٥٥هـ لاسترجاع نفوذ الخلافة، ومحاولته القضاء على تسلط القادة الأتراك، إلا أنه فشل

---

(١) يراجع في ذلك: تاريخ اليعقوبي ٤٩٣/٢، حيث ذكر أنهم مثلا نصبوا خمسة من الخلفاء في مدة تسعة أعوام بصورة مزرية من القتل والاضطهاد، ويراجع أيضاً: دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ٥٩ ومابعدها.

(٢) تراجع التفاصيل في كتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤٦٥/٣، ويراجع اصطناعه للأتراك في المصدر نفسه ٥٣/٤.

(٣) يراجع بناؤه لمدينة سامراء: مروج الذهب أيضاً ٥٤/٤.

(٤) تراجع التفاصيل في تآمر الأتراك على قتل المتوكل: مروج الذهب ١١٥/٤ - ١١٧.

(٥) الفخري في الآداب السلطانية: ٢٣٥، ويراجع أيضاً عن استيلاء الأتراك: العصر العباسي الثاني - د. شوقي ضيف: ٩ - ٢٦.

في ذلك[١].

وتزداد الأمور سوءا في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ)، إذ بدأت السلطة المركزية في الحاضرة بغداد تفقد سيطرتها من الداخل؛ بسبب الضعف السياسي، وتدهور الأوضاع الإدارية، فضلا عن سيطرة الأتراك وعلو نفوذهم.

ونتيجة لهذا كله بدأت الفتن والاضطرابات الداخلية تعصف بالخلافة؛ فكانت ثورة الزنج[٢] التي بدأت منذ عهد المهتدي، واستمرت أكثر من أربعة عشر عاما (٢٥٥هـ - ٢٧٠هـ) أقلقت الدولة العباسية، ثم كانت غارات القرامطة في العراق (البطائح) والبحرين والشام التي عاثت فسادا في تلك الأقاليم وغيرها، حتى تم القضاء على آخر فلولهم عام ٣٣٠هـ[٣]، ومن هنا: فقد بدأت في عهد هذا الخليفة أيضاً ترجح عوامل التجزئة والتفكك على ظروف الوحدة والتماسك، فبدأت حركات الانفصال عن جسم الدولة العباسية، وبدأت تظهر الإمارات المستقلة، كإمارة الصفاريين في سجستان (٢٥٤ - ٢٨٩)[٤] وغيرها.

غير أن سلطة الخلافة استنفرت قواها في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) لهذا التحدي، وتمكن من إعادة هيبة الخلافة وسطوتها الفعلية حتى على كثير من الثغور[٥]، ومن ثم تم في عهد المعتصد أيضاً التخلص من الصفاريين[٦]، وغيرهم، فنتج عن ذلك

---

(١) تراجع التفاصيل في: مروج الذهب ١٨٦/٤.

(٢) ينظر في أحداث هذه الثورة وأسبابها ونتائجها: تاريخ الطبري ٤١٠/٩ وما بعدها، مروج الذهب (خروج صاحب الزنج وعقيدته) ١٩٤/٤، ويراجع المرجعان: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص٧٩ وما بعدها، ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد - أحمد علي: ٧٨ - ٨٣ (دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦١).

(٣) تراجع التفاصيل في أحداث حركة القرامطة: تاريخ الطبري ٢٣/١٠ - ٢٧، تاريخ الشعوب الإسلامية (الطبعة العربية): ٢٢٩، كتاب القرامطة: أصلهم تاريخهم حروبهم - عارف ثامر: ٦٣ وما بعدها.

(٤) ينظر: مروج الذهب (خروج يعقوب الصفار) ١٩٤/٤، المنتظم - ابن الجوزي ٣٢/٥ وتراجع التفاصيل عن هذه الإمارة في كتاب: تاريخ إيران: ١٢١ - ١٢٧.

(٥) ينظر: تاريخ الطبري ٣٢/١٠، مروج الذهب ١٤٣/٤.

(٦) تراجع تفاصيل ما دار بين إسماعيل بن أحمد السامائي وعمرو بن الليث الصفاري:

=

كله استقرار الوضع السياسي، وازدهار أمور الخلافة سياسيا واقتصاديا.

إلا أن هذا الاستقرار السياسي لم يدم طويلا، إذ سرعان ما تمكنت القوى المتنفذة في الدولة من تنصيب المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)، فتلاشت في عهده أمور الخلافة، وخضع الخليفة لنفوذ هذه القوى حتى لم يكن له حل ولا عقد[١]!

وقد بلغت الأوضاع السياسية ذروتها سوءا حين سيطر القائد التركي (مؤنس الخادم) على أمور الخلافة، لا سيما بعد نجاحه في استخلاف المقتدر بعد المحاولة الثانية لخلعه[٢].

وفي عهد الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)، وكذا في عهد خلفيه المتقي والمستكفي، وصلت أمور الخلافة إلى الدرك الأسفل؛ فقد ألجأت الحاجة الخليفة الراضي إلى استحداث منصب (أمير الأمراء) فقلد أمور الدولة كلها إلى (ابن رائق)، بعد إفلاس خزينة الدولة، لقاء تعهده بدفع الالتزامات المالية للخليفة وموظفي الدولة[٣].

ويستمر تسلط القادة الأتراك على مقاليد الحكم، وشؤون الخلافة: حتى دخول البويهيين حاضرة الخلافة بغداد، واستيلاء معز الدولة البويهي على جميع أمور الدولة عام ٣٣٤هـ[٤].

تجزؤ الدولة الإسلامية وظهور الإمارات المستقلة:

طفقت المحاولات الأولى للانفصال عن سلطة الخلافة المركزية في بغداد تظهر بوضوح منذ مطلع القرن الثالث للهجرة، إذ أحس الخليفة المأمون

=

تاريخ إيران: ١٢٦ .

(١) يراجع تاريخ الطبري وما ساقه عن أم المقتدر ونفوذها في عهده ١٠/١٤٠ وما بعدها.

(٢) يراجع في ازدياد نفوذ هذا القائد التركي، ومحاصرته بغداد، ثم خلع المقتدر وقتله: تجارب الأمم وتعاقب الهمم ٥/١٣٢ وما بعدها. وينظر أيضاً: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/٣٤.

(٣) يراجع: أخبار الراضي والمتقي: ٦٩ - ٧٠، تاريخ مختصر الدول: ١٦٣، وينظر تاريخ أبي الفداء ١/٤١٥ (أحداث سنة ٣٢٤ هـ).

(٤) يراجع في غلبة معز الدولة ودخوله بغداد، والإشارة إلى غلبة أخويه على الأقاليم الأخرى: مروج الذهب ٤/٣٨٥.

(١٩٨ - ٢١٨هـ) بميول العناصر الأعجمية، وتطلعها إلى الاستقلال أو الانفصال عن سلطة الخلافة الإسلامية.

وبدأ المأمون، وبعض من جاء بعده من خلفاء بني العباس، بمعالجة هذا الأمر الخطير باللامركزية الإدارية، أو إعطاء درجة من الحكم الذاتي لبعض الأقاليم النائية، للحد من النزاعات الانفصالية، وما تهدف إليه من تقويض الحكم العربي الإسلامي.

ومن هنا ظهرت الإمارة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩هـ) في خراسان؛ كما هيأت الخلافة العباسية للسامانيين، منذ وقت مبكر أيضاً، فرصة إدارة إقليم (ما وراء النهر) في حدود عام ٢٠٥هـ / ٨٢٠م[١].

وفي منتصف القرن الثالث للهجرة أيضاً، وتحديدا بعد مصرع المتوكل (ت ٢٤٧ هـ)، بدأت سلطة الخلافة المركزية تفقد سيطرتها من الداخل، بسبب تدهور الأوضاع السياسية والإدارية، وسيطرة القادة الأتراك على مقاليد الأمور، فكان ذلك إيذانا بظهور تحديات بعض العناصر الطامعة المتمردة، ولا سيما في الولايات النائية.

وهكذا كانت الإمارة الصفارية (٢٥٤ - ٢٨٩هـ) التي قامت على أنقاض الإمارة الطاهرية في سجستان، والتي أظهرت ميولاً معادية وصريحة لسلطة الخلافة المركزية في بغداد[٢].

وفي أواخر القرن الثالث والربع الأول من القرن الرابع للهجرة[٣]، جابهت الخلافة العباسية تحديات خطيرة وجديدة، تمثلت بتنامي قوة العناصر المتمردة المناوئة لسلطة الخلافة، وقد تمثل ذلك جليا بتمرد بعض الولاة وأرباب الأسر[٤] الطامعين في

---

(١) ينظر: كتاب: تاريخ إيران: ١١٥ - ١١٧، ويراجع أيضاً: العصور العباسية المتأخرة: ١٠٧ ومابعدها.

(٢) تراجع التفاصيل عن نشاط الصفاريين، ومحاولاتهم للانفصال عن الخلافة، ومحاولة يعقوب الصفار وغزوه بغداد والسيطرة عليها: مروج الذهب ١٩٤/٤، وينظر أيضاً: تاريخ الإسلام السياسي د. حسن إبراهيم حسن ١٤٢/٣ -١٦٠، تاريخ إيران: ١٢٠ - ١٢٧.

(٣) حدد أبو الفداء في تاريخه: ٤١٥/١ - ٤١٦ ظهور تلك الدويلات ضمن أحداث سنة ٣٢٤هـ، كما تابعه في ذلك أيضاً الأستاذ متز في كتابه: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١٩/١.

(٤) يراجع الفصل الثاني من المرجع المذكور أعلاه (الأمراء ٤٥/١ وما بعدها)، حيث أشار المؤلف =

عدد من المدن والثغور والاصقاع النائية، فضلا عن تصاعد القوى السياسية الأجنبية الطامعة، فكان ذلك كله إيذانا بخضوع الخلافة العباسية لسيطرة تلك القوى المتصارعة؛ مما هيأ لحركات الانفصال، وتجزؤ أوصال الدولة الإسلاميةالمترامية، ولتتمكن، بعد ذلك كما أشرنا، إحدى تلك الإمارات الأعجمية المستقلة في المشرق الإسلامي وهي الإمارة البويهية - من السيطرة والاستحواذ على حاضرة الخلافة الإسلامية عام ٣٣٤هـ، ذكر الأستاذ آدم متز، مشيرا إلى تلك الإمارات المستقلة، ومحددا أقاليمها[١]: (تغلب كل رئيس على ناحيته وانفرد بها؛ فصارت فارس والري وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه، وكرمان في يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر في أيدي بني حمدان، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طغج الاخشيد، والمغرب وأفريقية في يد الفاطميين، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريديين، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي وطبرستان وجرجان في يد الديلم، ولم يبق في يد الخليفة إلا بغداد وأعمالها.).

على أن نفوذ أمراء وحكام تلك الدويلات المستقلة، لم يكن محصورا في إقليم معين، أو رقعة مكانية محددة، وإنما كان يمتد، في أحيان كثيرة، إلى ما وراء تلك الأقاليم التي بحوزتهم، نتيجة لكثرة الوقائع والحروب بينهم، وتبعا لازدياد قوتهم العسكرية، وتمكنهم من خصومهم السياسيين في الأقاليم أو الأصقاع المجاورة لهم، أو المدن والبقاع النائية عنهم.

وهكذا كان اضطراب الأحوال السياسية في القرن الرابع، وما نتج عنه من تجزؤ

= إلى نفوذ تلك الأسر والقادة، كالبريديين والحمدانيين وغيرهم، ويراجع عن أخبار البريديين ونشاطهم في البصرة وغيرها: مروج الذهب ٣٤٠/٤ وما بعدها.

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ١٩، ويراجع عن ظهور هذه الإمارات المستقلة: تاريخ الطبري ١٠/ في مواضع متفرقة، تجارب الأمم: ٥ / ١٩٩ ومواضع متفرقة أخرى، المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء) ٤١٥/١ - ٤١٦، النجوم الزاهرة، ٣/ في مواضع متفرقة، الكامل في التاريخ: ٢٤٠/٨ - ٢٤٢.

أوصال الدولة الإسلامية الواسعة، وظهور الإمارات المستقلة في أقاليم عديدة، وأصقاع بعيدة، عاملا مهما في التنافس بين أولئك الأمراء والرؤساء، لاجتذاب العلماء والأدباء إلى مراكز ممالكهم الجديدة؛ للإفادة منهم في بناء حياتهم السياسية والاجتماعية، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار الحياة الأدبية والعلمية في هذا القرن.

لقد اتخذ هؤلاء الرؤساء وأمراء الممالك الإسلامية المستقلة - وبخاصة الأمراء البويهيون - كبار الأدباء البلغاء ومشاهير الكتاب الإجلاء، من ذوي الكفاءة النادرة؛ للاضطلاع بالمهام الجسيمة التي كانت تنوء بها ممالكهم الفتية، فكان من هؤلاء القادة العسكريون في سوح المعارك، ومنهم أيضاً الساسة المحنكون في تصريف النوازل، والوزراء والمستشارون المؤتمنون في المهام الخطيرة، وهم أيضاً الكتاب الذين يحررون الرقع والمعاهدات السياسية الخطيرة، ويدبجون المنشورات الرسمية المهمة، ويوثقون الأحداث والوقائع العسكرية الطارئة ....

ولعل في طليعة مشاهير هؤلاء الأدباء الكتاب الموهوبين: أبا الفضل ابن العميد، والوزير أبا محمد المهلبي، والصاحب بن عباد، وأضرابهم ممن برعوا في تحبير الرسائل البليغة النادرة، وفتقوا أكمام المعاني الجديدة، بأوصاف رائقة سابقة، وجسدوا الخواطر الإنسانية بأعذب الألفاظ وأرقها، فملكوا المشاعر وأسروا القلوب إعجابا ...

وهكذا كانت الرسائل الأدبية البليغة في لجة تلك الصراعات المحتدمة والاضطرابات السياسية المستمرة، خير أداة يتخذها الحكام والأمراء السياسيون أو القادة العسكريون، فضلا عن الثوار والخصوم السياسيين، للإعلان أو للترويج لقضاياهم السياسية الخطيرة، أو للتعبير عن أهوائهم ونوازعهم المتشعبة ووسيلة مهمة لتأييد السلطة الحاكمة ومؤازرتها، أو لتقريع خصومها والخارجين عليها.

وانطلاقا من هذا كله، فقد راح أولئك الأدباء الكتاب البلغاء - وبخاصة كتاب الرسائل الرسمية أو الديوانية - ينشئون رسائلهم الأنيقة التي كانت بمثابة المنشورات السياسية، أو الصحافة الحزبية اليومية التي لاتفتأ تعلن الولاء، والتأييد للسلطة الحاكمة، وتندد بالخصوم السياسيين المناوئين، فضلا عن المهام السياسية والإدارية والعسكرية الكثيرة التي كانت تنوء بحملها تلك المكاتبات في تلك المرحلة الخطيرة من حياة

الأمة الإسلامية وواقعها الخطير.

ثانيا: الحالة الاجتماعية والاقتصادية وأثرها في الرسائل الأدبية:

لا بد من التنويه أولا، بأن تردي الأوضاع السياسية والإدارية في هذا القرن، كان أحد أهم الأسباب التي أدت إلى اضطراب الحياة الاجتماعية، واختلال النظام الاقتصادي والمالي في الدولة الإسلامية، مما تسبب في خلق فجوة سحيقة بين فئات المجتمع الإسلامي، وتأجج الصراع بينها.

ولقد تأثر المجتمع العربي الإسلامي- من جانب آخر - منذ مرحلة مبكرة من قيام الدولة العباسية، ونتيجة لاختلاط العرب بالأجناس الأجنبية، لا سيما الفرس، الذين أسهموا بشكل كبير ومؤثر في إدارة شؤون الدولة؛ نظرا لجهودهم المخلصة في دعم الخلافة العباسية ومؤازرتها - تأثر بتيارات اجتماعية خطيرة، ومؤثرات حضارية جارفة، إذ كان العراق والمشرق الإسلامي ملتقى أجناس وشعوب مختلفة، وموطن حضارات قديمة متباينة[١]، فكان لتلك الشعوب الأجنبية التي اعتنقت الإسلام، تراثها الحضاري العريق، وإرثها الإنساني العميق وكان لا بد أن يثمر هذا التمازج بين هذه الشعوب والأقوام المختلفة عن تسرب الكثير من عاداتها وطقوسها الاجتماعية، ونظمها الاقتصادية، فضلا عن الأفكار والعقائد الدينية[٢] التي كان لها آثارها الخطيرة في حياة المجتمع العربي الإسلامي وتوجيه مساره الجديد، وقد كان لكل ذلك، دون أي شك، أثره الفاعل في الأدب العربي وتطوره، وتنوع فنونه وموضوعاته وأساليبه.

وهكذا طفقت تظهر في آفاق المجتمع العباسي - نتيجة لانتشار تلك العقائد والآراء القديمة، والتقاء تلك التقاليد والأعراف المختلفة - كثير من البدع الغريبة

---

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: الأدب في ظل بني بويه: ٣٦ وما بعدها.

(٢) يراجع كتاب: (في أدب الفرس وحضارتهم) للدكتور محمد عبد السلام كفافي: ١٧٥ - ٢١٣ (دار النهضة العربية للطباعة والنشر ١٩٧١)، حيث فصل المؤلف في أديان الفرس القديمة، بدءا من الحقبة التي سبقت (زرادشت)، ثم تعاليم زرادشت، ثم ظهور المانوية فالمزدكية، حتى الفتح الإسلامي، وينظر أيضاً: الجزء الأول من كتاب: تاريخ الأدب في إيران - للأستاذ إدوارد براون، في مواضع كثيرة متفرقة من هذا الجزء.

والرسوم الاجتماعية الجديدة، منذ العصر العباسي الأول، والتي تعمقت جذورها في هذا القرن.

ولعل أبرز تلك الأمور: إضفاء مظاهر التبجيل والتقديس للخلفاء العباسيين[١] وشيوع النظم الفارسية في المأكل والملبس والمسكن، ولا سيما بين أوساط الطبقة الخاصة كالخلفاء والوزراء وغيرهم، مما نتج عن ذلك شيوع مظاهر البذخ والترف، والإسراف في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية.

ومن المظاهر الاجتماعية الجديدة التي راجت في هذا القرن أيضاً: الإسراف في اتخاذ الألقاب الفخمة، والاحتفاء بالأعياد الفارسية القديمة كالنوروز والمهرجان، والسذق (عيد ليلة الوقود)، واتخاذها أعيادا رسمية للدولة، وكثير من شرائح المجتمع الإسلامي، وكثرة مجالس اللهو والشراب والغناء، وانتشارها وما تبع ذلك من شيوع المجون والعادات البذيئة بين مختلف طبقات المجتمع وغير ذلك ...

لقد شهد هذا القرن تعمق التفاوت الاجتماعي والاقتصادي بين فئات المجتمع الإسلامي، وتعمق الفوارق الطبقية أيضاً، ولعل مردّ ذلك إلى الاضطراب السياسي والانهيار الاقتصادي، فضلا عن إفرازات الحياة الجديدة، وما بثته فيها تلك التقاليد والمعتقدات الدينية القديمة التي تسربت عن طريق الأجناس الأجنبية التي تمازجت مع غيرها في هذا القرن.

فمنذ مرحلة مبكرة من هذا العصر، راحت رموز الطبقة الخاصة تحظى في مجالسهم ومنتدياتهم الأدبية بالاحترام والتبجيل، ومن صور ذلك ما شاع في بيئاتهم من ظاهرة تقبيل الأيدي والأرجل والانحناء، وتقبيل الأرض في حضرتهم أو السجود في مقامهم، وغير ذلك من المظاهر الغريبة.

---

(١) شاع عند أكثر الباحثين أن ذلك ناجم عن ترسبات عبادة الملوك الفرس في العهود القديمة، وقد أضاف المستشرق فأن فلوتن إلى ذلك أيضاً: ما خالطها أو سقط إليها من بعض العقائد (الإشراقية) التي لا يستبعد هذا الباحث أن تكون قد انتقلت إليهم عن طريق الديانة البابلية القديمة. تراجع التفاصيل في كتاب: السيادة العربية: ٧٥ - ١٠٦.

ذكر الأستاذ متز مؤكدا هذه الحقيقة يقول[١]: "وفي هذا العصر، ارتفعت صور الأدب في حضرة الخلفاء. وحتى صارت على رسم بقي في جوهره مستمرا طول العصور ...".

وقد صورت الرسائل الرسمية التي كانت تكتب على لسان الخليفة أو غيره، جوانب واضحة من تلك المظاهر، وجسدت أيضاً آيات التبجيل أو التعظيم التي كان يسبغها الكتاب عليهم، حتى لتصل في كثير من الأحيان، إلى درجة التكلف والملق والرياء[٢]، وكذا في بعض الرسائل الإخوانية أيضاً[٣].

وقد انعكست هذه الظاهرة أيضاً في مجالس الأمراء والوزراء، وقد روى ياقوت الحموي[٤] أخبارا عديدة تؤكد مكانة الوزير الصاحب، وعظم منزلته، وتقبيل الأرض في حضرته ....

أما شيوع النظم والرسوم الفارسية في هذا القرن، لا سيما في المأكل والملبس، وبناء القصور الفارهة، واتخاذ صنوف الزينة، فقد كان لذلك آثاره الواضحة على الحياة الاجتماعية[٥]؛ بما شاع في أوساط الطبقة الخاصة وغيرهم من مظاهر البذخ والمبالغة في الأبهة، والإسراف الشديد في الترف. وقد كان لكل ذلك آثاره الواضحة على

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١ / ٢٦٣.

(٢) ينظر مثلا: رسائل الصاحب بن عباد الديوانية إلى الأمير عضد الدولة، وبعض كتبه في العهود والفتوح: رسائل الصاحب بن عباد (الباب الثاني (في العهود)): ٣٤ وما بعدها.

(٣) تراجع مثلا رسالة الصاحب بن عباد أيضاً إلى بعض الأمراء، ورسالة أخرى له إلى بعض الوجهاء، يهنئه بالوزارة: ديوان المعاني: ٩٦ - ٩٧.

(٤) معجم الأدباء ٢٤٤/٦، ومواضع أخرى، حيث ذكر ما عرف عن الصاحب بن عباد من مكانة عظيمة عند البويهيين، حتى أن عضد الدولة - على تجبره وهيبته - خرج لاستقباله عندما زاره في همذان عام ٣٧٠هـ، وينظر في هذا أيضاً: الكامل في التاريخ ٤/٩، والنجوم الزاهرة ١٣٨/٤.

(٥) يراجع في هذا الجانب ما ساقه المسعودي في وصف الأطعمة والأشربة وغيرها مما كان يقدم على موائد الخلفاء وغيرهم: مروج الذهب ٣٦٢/٤ - ٣٧٤، ويراجع ما فصله المؤرخون، ومنهم هلال الصابي، في نفقات دار الخلافة؛ ومنها نفقات المطابخ والمخابز وغيرها: رسوم دار الخلافة: ٢٢ - ٢٧، وينظر في ذلك أيضاً: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١ / ٢٧٥ - ٢٧٦، ويراجع ما ذكره المقدسي عن بذخ عضد الدولة وإسرافه في بناء داره بشيراز: أحسن التقاسيم ٤٤٩/٢ - ٤٥٠.

الأدب العربي، ولا سيما الرسائل الأدبية، كما سيأتي إيضاحه وتحليله في فصول هذا البحث..

ومما يدلل على إمعان الطبقة الخاصة، في هذا القرن، في الترف، وغرقها في النعيم؛ كثرة مجالس اللهو والغناء، والشراب؛ فقد شاعت في تلك البيئات والمنتديات الاجتماعية الخاصة، تلك المجالس اللاهية التي شاع فيها الأنس والقصف والشراب والغناء، وقد أصبح لهذه المجالس المنتشرة في قصور الخاصة وغيرهم، طقوس وقواعد ورسوم متبعة(١).

ومن تلك الرسوم الجديدة أيضاً: الإسراف في ميلهم إلى مظاهر الأبهة، وإحاطة أنفسهم بمظاهر التبجيل والعظمة، ولعل هذا ما يفسر لنا إسراف أمراء بني بويه بخاصة في اتخاذ الألقاب الفخمة(٢)، وبذل الأموال والهدايا في سبيل الحصول عليها، أو في إسباغها على أعوانهم، حتى أن بعض تلك الألقاب كانت أحيانا لتشعر بالتجرؤ على الذات الإلهية.

ذكر الأستاذ متز في هذا الجانب يقول(٣): "ثم ظهرت ألقاب كاذبة فيها معارضة لروح الإسلام، وتجرؤ على مقام الألوهية، وكان البويهيون أول من سموا وزراءهم بأسماء مما ينبغي أن يطلق على الله، مثل: الأوحد، وكافي الكفاة وجاوز نفر هذا الحد، فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء .....)).

ولعل هذا المظهر الاجتماعي ناتج عن الميل إلى إحياء الطقوس الفارسية القديمة في الحكم، ومن أبرز تلك الطقوس أو الرسوم؛ تقديس الملوك، وتبجيلهم،

---

(١) يراجع وصف الثعالبي لأحد مجالس الوزير أبي محمد المهلبي، وما غرق فيه من اللهو والمرح وأطراح الحشمة: يتيمة الدهر ٢/٣٩٤.

(٢) ينظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/٢٦٠ - ٢٦١، وما ذكره عن اتخاذ أمير بغداد سنة ٤٢٣ هـ لقب (السلطان المعظم مالك الأمم)، ومعارضة القاضي الماوردي له في ذلك وكذلك ما ذكره عن منع الماوردي أيضاً جواز لقب فخر الدولة لقبه الجديد (شاهنشاه الأعظم ملك الملوك)، وينظر أيضاً: كنوز الأجداد: ٢٤٣..

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/٢٦٠.

وتأليههم؛ للاعتقاد السائد آنذاك بأن (الملك ملهم يستمد أحكامه من الإله ....)[١].

ومن المظاهر الاجتماعية الجديدة التي راجت في هذا القرن أيضاً: الاحتفاء بالأعياد الفارسية القديمة، كالنوروز والمهرجان، وإحياء ليلة الوقود (السذق)، واتخاذها أعياداً رسمية، إذ كان المسلمون يحتفلون بهذه الأعياد، ويتهادون فيها الهدايا، ويمارسون طقوساً معروفة متبعة[٢].

ولقد كان لهذه المظاهر الاجتماعية - الاحتفاء بالأعياد الفارسية القديمة - التي شاعت في هذا القرن، آثارها الواضحة، وانعكاساتها في أدب هذا العصر، ولا سيما أدب الرسائل، إذ تضمنت كثير من رسائل هذا القرن التهاني بهذه الأعياد المذكورة، وقد كانت تلك الرسائل - سواء أكانت الديوانية أم الأدبية - كثيرا ما تنطوي على الغلو والمبالغة في تقديم التهاني، والمجاملات المتكلفة[٣].

لقد تأثرت المكاتبات الأدبية في هذا القرن - بوصفها لونا مهما من ألوان الأدب، وصدى أمينا للحياة العامة بكل أصنافها - بهذه التطورات الاجتماعية الخطيرة، فصورت مظاهرها المختلفة، وراحت ترصد تلك الأجواء المترفة الناعمة في حياة الطبقة الخاصة، فصورت جوانب من تأنقهم في أساليب العيش وإسرافهم في اللهو والتسلية، كما وثقت جوانب دقيقة من تلك المجالس اللاهية وما انطوت عليه من أنس وقصف ومتع حسية، وجسدت أدق الميول والنزعات الخاصة، فضلاً عن وصف تلك المظاهر الخارجية المحيطة بتلك الأجواء، وما في أكنافها من مظاهر الترف والأبهة والنعيم ...

---

(١) قصة الحضارة الفارسية: ٢٩، بدلالة كتاب الأدب في ظل بني بويه: ٩١.

(٢) كان الملوك والأمراء الأعاجم من الديلم يمارسون طقوسا خاصة في الاحتفاء بعيد السذق مثلا. وهو من الأعياد الفارسية القديمة - تتمثل بإيقاد النيران وتأجيجها، وإرسال الوحوش فيها، ثم تطيير الطيور في لهبها، والتلهي حولها. ينظر ما قام به مرداويج في الاحتفاء بهذا العيد عام ٣٢٣ هـ: تاريخ أبي الفداء ٤١٣/١. أحداث سنة ٣٢٣هـ)، والآثار الباقية - للبيروني: ٢٢٦، تجارب الأمم: ٥ / ١٧٦ - ١٧٩ (أحداث سنة ٣٢٣هـ).

(٣) ينظر مثلا: رسالة الصاحب إلى ابن العميد يهنئه بمقدم النيروز: ديوان المعاني ٩٧/١، ورسالة أبي بكر الخوارزمي إلى صاحب الديوان يهنئه بيوم المهرجان: رسائل أبي بكر الخوارزمي ص٩٣.

وكان لا بد أن تتأثر هذه المكاتبات الأدبية في هذا القرن، بتلك الظواهر الاجتماعية، وما رصدته من صور التأنق والترف لكون أن كبار أولئك الكتاب قد نشأوا في بيئات خاصة مترفة، أو في قصور الخلفاء والأمراء، أو كان منهم من تسنم منصب الوزارة، أو رئاسة الديوان الرسمي، وفي طليعة أولئك الأدباء الكتاب؛ أبو الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد، وأبو إسحاق الصابي وغيرهم.

كما رصدت مكاتبات هذا القرن أيضاً، جوانب أخرى، عكست الجانب الآخر لهذه الحياة الاجتماعية المتطورة، وتداعياتها الخطيرة، وأعني بذلك؛ جوانب البؤس والشقاء والحرمان لفئات المجتمع الكثيرة، كما وثقت، من جانب آخر طرفا من حياة الخلاعة أو المجون الذي ساد في بعض تلك الأوساط الخاصة كما سيأتي إيضاحه وتحليله في فصول هذه الدراسة.

ولقد نتج عن سوء الحالة السياسية، واضطراب أمور الإدارة في الدولة الإسلاميةأيضاً: اختلال النظام الاقتصادي، وما ترتب عليه من خلل واضح في توزيع الثروات، وانهيار النظام المالي في هذا القرن[١].

ونتيجة لهذا كله، فقد شهد المجتمع الإسلامي عمق التفاوت الاجتماعي، والتمايز الطبقي بين فئات المجتمع، وقد كان من نتائج هذا الانهيار الاقتصادي إبان هذا القرن؛ انتشار الفوضى، وكثرة الفتن، وقيام الثورات، وكان لهذا آثاره السيئة والخطيرة على الحياة الاجتماعية، وانهيار الكثير من القيم والأعراف القويمة، وشيوع العادات البذيئة والأمراض الاجتماعية الخطيرة التي سنجد أصداءها الواضحة في أدب هذا القرن شعرا ونثرا، وبخاصة في الرسائل الأدبية.

ونظرا لاضطراب الأوضاع الاقتصادية في هذا القرن، وكثرة الأعباء المالية للدولة؛ فقد كان جل اعتماد الخزينة على أموال الخراج وما تفرضه الدولة على رعاياها من ضرائب، ولم يكن نظام الضرائب منظما؛ بسبب سوء الأوضاع الإدارية، ولذلك

---

(١) ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أن الثروة لم تكن موزعة توزيعا عادلا، ولا متقاربا، وهذا أدى إلى فساد النظام المالي في كثير من أقاليم الدول الإسلامية. تراجع التفاصيل في ظهر الإسلام ١/٩٧ وما بعدها.

شهد نظام الضرائب خللا كبيرا انعكس صداه على الحياة العامة والطبقات الدنيا والفقيرة من رعايا المجتمع؛ إذ كانوا عرضة للظلم والمصادرة وتعسف عمال الخراج وجباة الضرائب[١] ...

وبسبب حاجة الدولة لاستحصال الأموال، فقد لجأت إلى تضمين جباية الخراج وغيرها من الضرائب أيضاً، فكانت تباع لأشخاص معينين، وُتضمّن لهم على سبيل الالتزام لقاء دفع مبالغ محددة للدولة[٢]! وقد ترتب على ذلك قيام هؤلاء العمال أو المضمنين بابتزاز الأموال من الرعية، بفرض الرسوم والضرائب الفادحة أضعاف ما دفعوه للدولة، وقد كان لهذا كله أثر السيئ على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، إذ نتج عنه عدم نماء الأموال أو استثمارها، وانحسار العمران وفساده في هذا القرن، فضلا عن ظهور بعض الأمراض الاجتماعية وانتشار البدع والمظاهر الرديئة لا سيما في بعض الأقاليم النائية في المشرق الإسلامي ويمكن تسليط الضوء في أخطر هذه المظاهر والأمراض الاجتماعية بما يأتي:

١ - ظاهرة التسول أو الكدية:

لقد كان من تلك الأمراض الاجتماعية، والمظاهر السيئة التي انتشرت في بغداد، وبعض أقاليم المشرق الإسلامي في هذا القرن، ظاهرة التسول أو الكدية[٣]، وانتشار المكدين وانتظامهم في شريحة اجتماعية كبيرة، اتخذت التسول

(١) يراجع: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١٩٢/٢ وما بعدها، حيث ذكر المؤلف صنوف التعذيب التي كان يتبعها هؤلاء العمال وغيرهم مع الرعية لاستحصال الضرائب وإخراج الأموال منهم.

(٢) ينظر كتاب: تجارب الأمم ٣٣٢/٥، وإشارة المؤلف مسكويه إلى تضمين قضاء بغداد عام ٣٥٠هـ لأبي العباس بن أبي الشوارب، ويراجع أيضاً في تضمين عضد الدولة وفرضه للضرائب على الراقصات في فارس لبعض تجار المال، لقاء مبالغ مالية تسدد سنويا للدولة: أحسن التقاسيم ٢/ ٤٤١.

(٣) من الشائع أن ظاهرة الكدية ظهرت قبل هذا القرن، وإن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) من السباقين إلى الكشف عن ظاهرة الكدية والمكدين واسمائهم وطبقاتهم، وما سلكوا من حيل عجيبة لاستدرار عطف الناس وابتزاز اموالهم. (يراجع في طبقات المكدين واصنافهم: كتاب البخلاء (تحقيق الحاجري) في مواضع عدة).

وحرفة الأدب وسيلة للعيش، والتحايل من أجل كسب قوتها اليومي.

ومما يلفت الانتباه، إن كبار من احترف هذه المهنة (الكدية) في هذا القرن، كالاحنف العكبري، وأبي دلف الخزرجي[١] وغيرهما، كانوا يلقون تشجيعا كبيرا، ويحظون برعاية غامرة من لدن الأدباء، وكبار رجال الطبقة الخاصة، وينعمون بعطفهم وتقريبهم[٢].

ومما يثير العجب أيضاً: إن بعض كبار الأدباء في هذا القرن، كان لا يأنف من أن ينتسب إلى هذه الطائفة (اهل الكدية): فبديع الزمان الهمذاني مثلا في أكثر من موضع من رسائله القيمة، كان يشير إلى انضوائة لهذه الشريحة، ويصرح باحترافه لهذه المهنة[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه، إن هذه الحرفة (الكدية): وتعلق هذا الأديب الكبير بها، واختلاطه بأربابها، هي التي ألهمت الهمذاني أن يبتدع في النثر الفني العربي لونا جديدا لم يسبق إليه، ذلك هو (فن المقامات) الذي يقوم في جوهره على حكاية نوادر هذه الطائفة من المكدين في هذا العصر، وقص مُلحهم الطريفة النادرة بأسلوب قصصي فني ساخر.

٢ - ظاهرة التلصص والسطو على أموال الناس:

وإلى جانب ظاهرة التسول أو الكدية، انتشرت في أقاليم العراق والمشرق الإسلامي في هذا القرن أيضاً: ظاهرة التلصص، واستشراء السرقة، وقطع الطرق،

=

وممن تأثر بالجاحظ في هذا الباب البيهقي في كتابه الشهير (المحاسن والمساوئي) في مطلع هذا القرن حيث توسع في الحديث عن هذه الطبقة. وطرف نوادرهم: كتاب المحاسن والمساوئي: ٦٢٢ وما بعدها.

(١) تراجع ترجمة الاحنف العكبري (ابو الحسن عقيل بن محمد) شاعر المكدين وظريفهم في يتيمة الدهر ٣/١٣٧ - ١٣٩، وتراجع ترجمة أبي دلف الخزرجي (مسعر بن مهلهل) وقصيدته الساسانية المشهورة في: اليتيمة أيضاً ٣/٤١٢ - ٤١٦ وما بعدها.

(٢) تراجع أخبار المكدين، وبخاصة الاحنف العكبري وأبي دلف الخزرجي مع الوزير الصاحب وتقريبه لهم، وحفظه العجيب لمناكاة آل ساسان في: يتيمة الدهر ٣/٤١٤.

(٣) ينظر: رسائل بديع الزمان الهمذاني (رسالة رقم ٤٠) ص١٦١ - ١٦٢.

والسطو على أموال الناس، فانتشر قطاع الطرق الذين اتخذوا السلب والسرقة مهنة لهم، يرتزقون منها، لكسب قوتهم، وسد رمقهم(١).

وقد أشار الرحالة المقدسي(٢) إلى ما كانت تعانيه العامة في اقليم العراق وبعض أقاليم المشرق الإسلامي في هذا القرن، من طبقة العيارين واللصوص والشطار وقطاع الطرق، وقد كان لهذه الظاهرة الخطيرة آثارها الفادحة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في هذا القرن، إذ إنها أدت إلى شيوع الفوضى وعدم الاستقرار، وانتشار البطالة، وركود الحياة الاقتصادية، وما تبع ذلك من انخفاض مستوى المعيشة(٣).

لقد انعكست آثار هذه الظاهرة الخطيرة وتداعياتها في نتاج بعض أدباء هذا القرن، كأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وغيرهما، إذ اظهر هؤلاء الأدباء تبرمهم مما تعرضوا له من سلب أموالهم، وما عانوه من قطاع الطرق ومغيرة الإعراب(٤).

ومما تجدر الإشارة إليه، إن هذه الظاهرة قد شاعت في هذا القرن حتى في حاضرة الخلافة الإسلامية ببغداد، فكثيرا ما كانت تتعرض دار الخلافة للسرقة والسلب والنهب عقب عزل أي خليفة أو وزير، أو قتله أو سمله(٥)!!

٣ - تفشي ظاهرة الخلاعة أو المجون:

وهي من الظواهر الاجتماعية الخطيرة التي استشرت في المجتمعات الإسلامية قبل هذا القرن، إلا أن هذه الظاهرة شاعت شيوعا ظاهرا في القرن الرابع، نتيجة لتردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وشيوع الفقر والحرمان بين فئات الطبقة العامة، ولا سيما في الأقاليم النائية من المشرق الإسلامي.

ولم يقتصر تفشي هذه الظاهرة بين الطبقة العامة، وإنما تعداه إلى وجوه الطبقة

---

(١) ينظر كتاب: حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي - د. محمد رجب النجار: ٨٥ - ٨٦ (ط الكويت ١٩٨١).

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١/١٣٣، ٢/٤٤٨، ٤٥١.

(٣) تراجع التفاصيل في كتاب: ظهر الإسلام ١/١٠٧ وما بعدها.

(٤) ينظر مجموع رسائل بديع الزمان الهمذاني (رسالة رقم ١٨٩) ص٤٦٣.

(٥) تراجع التفاصيل في: الكامل في التاريخ ٧/٢٥٤ وما بعدها.

الخاصة ورموزها، فاستشرى في مجالسهم العامرة، وقصورهم الفارهة ومنتدياتهم الساحرة التي بالغوا في إعدادها للشراب والغناء، وتهيئتها للهو والقصف واجترار اللذات الفانية.

وقد صورت بعض مصادر الأدب القديمة(١)، التي واكبت تلك الأحداث أو عاصرتها في هذا القرن، تلك المظاهر الاجتماعية الخطيرة، والحياة الماجنة التي أمست سافرة دون حجاب أو مواربة، فصورتها بشكل واضح، ورسمت لها صورة حية ودقيقة.

لقد سلكت بعض فئات الطبقة العامة من رعايا الدولة الإسلامية، نتيجة للفقر المدقع، وعدم قدرتهم في الحصول على المال بالطرق المشروعة، سلكت طرقا شائنة، ومارست أفعالاً بذيئة، تتنافى مع القيم الرفيعة والخلق القويم(٢).

وقد رصد أدب المكاتبات في هذا القرن، هذه الجوانب الاجتماعية الخطيرة وصورها خير تصوير، ولعل أدق ما وصل إلينا من ذلك، ما نقله أبو منصور الثعالبي في بعض تصانيفه القيمة، من غرر ألفاظ اهل هذا العصر في أوصاف (المرد من الغلمان)، وما يشاكه ذلك من جوانب أخرى(٣).

---

(١) في طليعة تلك المظان المهمة، كتب الثعالبي، وأهمها: يتيمة الدهر، والفصول الكثيرة التي دونها في هذا السفر النفيس، والنصوص الأدبية التي انفرد أحياناً كثيرة، بتسجيلها وإيرادها، والتي صورت تلك الجوانب الاجتماعية المهمة. فضلا عن كتابي المحسن التنوخي الشهيرين: (نشوار المحاضرة)، (الفرج بعد الشدة)، اللذين جسد فيهما ما يدل على اخلاق اهل تلك الأزمنة، وسننهم وطرائقهم وعاداتهم، ليحث القارئ على أن يقايس - كما قال في مقدمة كتابه - بين ما نحن فيه، وما مضى، ليعلم كيف ماتت الدنيا، وانقلبت الأهواء، وانعكست الآراء، وفقدت المكارم. ومن تلك المظان المهمة أيضاً: كتب التوحيدي، وأهمها: الإمتاع والمؤانسة، ينظر على سبيل المثال ما صوره واحصاه عن المغنين والمغنيات في بغداد إبان هذا القرن ١/١٨٣، فضلا عن كتبه الأخرى. وهذه المصادر وغيرها تعد وثائق مهمة جسدت أحداث هذا القرن في أقاليم المشرق الإسلامي وما سواها.

(٢) يراجع ما وثقه المقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم عن انتشار الفسق في مدينة (السوس) ٢/٤٠٧، وما ساقه عن مدينة (سيراف) وكيف كان يضرب المثل بفسقهم ٢/٤٣٦، ويراجع ما ذكره عن (شيراز وأهلها) ٢/٤٢٩. وينظر أيضاً: الحضارة الإسلامية - متز ٢/١٦٨.

(٣) من غاب عنه المطرب: ١٤٥ - ١٤٦.

ومن صور المجون الأخرى التي استشرت في هذا القرن أيضاً:

المجاهرة بشرب الخمرة، ومعاقرة كؤوسها، ووصف سقاتها وندمانها(١).

وهكذا يتضح بجلاء، إن الأدب العربي، وبخاصة الرسائل الأدبية في هذا القرن المضطرب، قد تأثر بهذه المظاهر الاجتماعية، وانعكاساتها المؤثرة، فصورها بدقة متناهية، وجسدها بأمانة ووضوح، ومن هنا فقد اصبحت نصوص هذه الرسائل الأدبية وثائق تاريخية وأدبية مهمة، كشفت عن أدق أحداث المجتمع الإسلامي في هذا القرن، والصراع الدائب بين طبقاته المختلفة ....

ثالثا: الحالة الثقافية في القرن الرابع وأثرها في الرسائل الأدبية:

لقد شهد هذا القرن ازدهار الثقافة، والحياة العلمية والأدبية ازدهارا كبيرا في سائر الامارات والممالك الإسلامية المستقلة(٢). كما شهد تطور الحياة العقلية ونضجها على الرغم مما مني به هذا العصر من تدهور الأمور السياسية واضطرابها، وما تبع ذلك من تجزئ أوصال الدولة الإسلامية، وسوء الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وتداعياتها الخطيرة، كما سبقت الإشارة إليه آنفا، وفضلا عما كان عليه كثير من العلماء والأدباء، في هذا القرن، من بؤس وحرمان واضطهاد ...

وهكذا، فقد تزدهر العلوم والآداب، وتتطور الحياة الفكرية، في عصور الضعف السياسي، والانهيار الاجتماعي والاقتصادي - كما حدث في هذا القرن - وعلى النقيض من ذلك، فقد يخبو الفكر، ويذوي عطاء العلم، وتذبل دوحة الأدب، وتنكمش

---

(١) يراجع الفصل الذي عقده الثعالبي في ذكر " وصف الخمر من كلام البلغاء " في هذا القرن: من غاب عنه المطرب: ١٦١ وما بعدها، وينظر أيضاً: الفصل الآخر الذي عقده الثعالبي أيضاً في الكتاب المذكور (في اوصاف الندماء) ص١٦٥ - ١٦٦، ويراجع أيضاً ما ذكره في يتيمة الدهر ٣٩٣/٢، عن صفة الندماء في هذا القرن.

(٢) على الرغم من ازدهار الثقافة وخصب الحياة العلمية والأدبية في هذا القرن، إلا أن بعض العلماء والمؤرخين شكا تقهقر زمانه، وكساد العلم فيه، وقد تجلى هذا واضحا فيما نفث به المؤرخ الشهير المسعودي (ت ٣٤٥هـ) إذ قال: "إن العلم قد بادت آثاره، وطمس مناره، وكثر فيه الغباء، وقل الفهماء فلا تعاين إلا مموها جاهلا، ومتعاطيا ناقصا". ينظر: كنوز الاجداد: ١١٢.

معالم الثقافة، وتنحسر ملامح الإبداع والتجديد في عهود الاستقرار السياسي والاجتماعي.

وقد اكد هذه الحقيقة العلمية بعض مؤرخي الأدب والثقافة حين ذهب إلى أن الحركة الثقافية، والحياة العلمية والأدبية لا تتبع الحالة السياسية، قوة وضعفا، فقد تسوء الحالة السياسية، وتزدهر إلى جانبها الحياة العلمية والأدبية[١].

وانطلاقا من رحب هذه الحقيقة، فإننا يمكن أن نقرر باطمئنان تام، مع بعض الباحثين ومؤرخي الأدب الذين سبقونا إلى ذلك[٢]، بأن القرن الرابع الهجري، يعد من الناحية العلمية، ونشاط الحركة الثقافية، عصر النضج الفكري وازدهار الحضارة الإسلامية، وهو بحق ازهى العصور الإسلامية. على الرغم مما انتشر فيه من مظاهر الفساد الاجتماعي، وما ران عليه من حالات الضعف السياسي، والانهيار الاقتصادي، ففي هذا القرن قد تأصلت العديد من العلوم والمعارف المتنوعة، وأرسيت دعائمها، بعد أن اجتازت عبر القرون الثلاثة السابقة مرحلة الاقتباس والتأثر والنشوء، فأتت في هذا القرن قطوفها اليانعة، وجناها الناضج الرغيد.

ولقد شهد هذا القرن أيضاً: بروز أعلام متميزين في حقول المعرفة المختلفة كالفلسفة والطب والرياضيات والفلك وغيرها، فكانوا بمثابة مدارس علمية جامعة وإضافة نوعية إلى حقول المعرفة الإنسانية الخالدة.

فضلا عما شهده هذا القرن أيضاً من نشاط حركة التأليف والتصنيف وهضم ما تم ترجمته أو نقله عن الامم الأجنبية الأخرى في القرنين السابقين فكان بعض ثمار ذلك ما ظهر في هذا العصر من تصانيف نادرة، وموسوعات علمية مستفيضة في العديد من فروع العلوم والمعرفة الإنسانية المختلفة[٣]، او ما تجلى في اعادة ترجمة أو شرح

---

(١) تراجع التفاصيل في: ظهر الإسلام ٩٦/١.

(٢) يراجع ما ذهب إليه في هذا الجانب: الأستاذ متز: الحضارة الإسلامية في مواضع كثيرة متفرقة من فصول الكتاب التاسعة والعشرين، وينظر أيضاً: ظهر الإسلام ٩٢/١، الأدب في ظل بني بويه: ٣٩.

(٣) تراجع مثلا: جهود الكندي في الفلسفة والمنطق والعلوم الأخرى. (ينظر: تاريخ الأدب العربي -
=

وتحليل كثير من مؤلفات علماء الاغريق وفلاسفتهم في علوم الطب والرياضيات والفلسفة والمنطق، وسواها من العلوم والمعارف الأخرى[١].

وفضلا عن هذا كله: اتساع نطاق الدراسات المستفيضة عن القرآن والحديث وعلوم الفقه والقراءات والتفسير، وسواها من المؤلفات النادرة في حقول التاريخ والجغرافية، وعلوم اللغة والنحو، ولم تتخلف الدراسات الأدبية والنقدية في هذا القرن أيضاً عن ركب هذه الظاهرة الحضارية المتميزة، فقد شهد هذا القرن ظهور أجل الدراسات الأدبية والنقدية التي اضحت فيما بعد، منهلا ثرا لأدباء ونقاد العرب والغرب وغيرهم في العصور اللاحقة ...

وهكذا كان نشاط حركة التأليف في مختلف آفاق المعرفة في هذا القرن، أدق شاهد على خصب الحياة العقلية، وازدهار الحركة الثقافية، ونضج سبل المعرفة بجميع

بروكلمان ١٢٧/١)، وقد احصى ابن النديم في الفهرست، وابن أبي اصيبعة في طبقات الأطباء، رسائله في حدود (٢٤٠ - ٢٨٠) رسالة ومصنف، وينظر أيضاً: رسائل الكندي الفلسفية، نشر أبو ريدة (طبع مطبعة الاعتماد - القاهرة)، وكتاب: الكندي فيلسوف العرب - للأهواني (ط المؤسسة المصرية للتأليف).

وتراجع أيضاً جهود أبي بكر الرازي (ت ٣٢٠ هـ) في الطب والكيمياء والإلهيات وغيرها، تراجع قائمة مصنفاته ورسائله في: أخبار العلماء للقفطي: ١٧٨ - ١٨٢ الفهرست: ٥١٨، وينظر أيضاً رسائل فلسفية - د. ناجي التكريتي ود. صالح الشماع: ١٢ وما بعدها، وقد نشر في باريس عام ١٩٣٣م فهرس كتبه الذي احتوى على جميع مصنفاته ورسائله، وقد ذكر له في الطب أكثر من ٥٦ مصنفا أشهرها: المنصوري في الطب (عشر مجلدات) وقد أهداه للأمير الساماني المنصور بن إسحاق في خراسان والحاوي في الطب، وهو دائرة معارف طبية يقع في اثني عشر قسما، وقد ترجم الكتابان إلى لغات عديدة.

(١) تراجع مثلا جهود الفارابي (ت٣٣٩هـ) وتلاميذه في الرياضيات والإلهيات والطبيعيات فضلا عن الفلسفة والمنطق، وعنايته بشرح كتب ارسطو. ينظر: القفطي: ١٨٢ تاريخ بروكمان ١٣٨/٤، وينظر أيضاً جهود تلاميذه (يحيى بن عدي وتلميذه أبي سليمان السجستاني وجهودهما في نفوذ الافلاطونية الجديدة - القفطي: ١٢٦، تاريخ بروكلمان ١٣٨/٤ وما بعدها. وينظر أيضاً: جهود اخوان الصفاء ورسائلهم في هذا المجال: تاريخ بروكلمان ١٥٤/٤، رسائل فلسفية: ٦١ وما بعدها. ويراجع تحليل لآرائهم وفلسفتهم في الامتاع والمؤانسة ٤/٢ وما بعدها (الليلة السابعة عشرة).

فروعها، ومن هنا فقد كانت تلك المصنفات الغزيرة وثائق تاريخية مهمة، تكفلت بالكشف عن أدق مجريات هذا العصر، وآفاق المعارف المختلفة، والوان الثقافات فيه.

دواعي ازدهار الحركة الثقافية وخصب الحياة العقلية:

لقد تهيأت عوامل عديدة في هذا القرن، أسهمت مجتمعة في خلق هذه النهضة العلمية الرائدة، وايقاد جذوتها، كما هيأت لخصب الحياة العقلية، وانطلاق الفكر في آفاق رحبة من الحرية والتسامح، بعيدا عن التزمت المقيت، فكان ذلك كله حافزا قويا لفتح باب النقاش والجدل، وعقد المناظرات والمساجلات في المحافل والمنتديات في مختلف العلوم التي كان يشتد فيها الجدل والخلاف، لاحتواء هذا الفيض العلمي المتنامي، والتعبير عما آل إليه الفكر الإسلامي من نضج واستيعاب لأدق القضايا العلمية والمسائل الدينية أو الفلسفية العميقة.

اما أهم العوامل التي هيأت لازدهار الثقافة وخصب الحياة العقلية فهي:

١ - اهتمام أمراء الممالك الإسلامية بالعلم ورعاية العلماء، والاغداق عليهم[١]، فكانت تلك الأمارات المستقلة تتنافس فيما بينها لجذبهم، وشد الرحال إلى ممالكهم لتحوز قصب السبق في هذا الميدان، لبناء حياتها المادية والعلمية بشكل تتميز به عن غيرها من الممالك أو الامارات المستقلة الأخرى. فالسامانيون مثلا، حرصوا منذ قيام ملكهم على بعث نهضة علمية عظيمة، وذلك بتشجيعهم للعلماء والأدباء، والاكثار من صلاتهم[٢]. وقد اكد الرحالة المقدسي - وهو أحد من عاصر ملكهم - مشيرا إلى سيرة ملوكهم وعدلهم فقال[٣]: "...... وهم من أحسن الملوك سيرة ونظرا، وإجلالاً للعلم وأهله ...... ومن رسومهم انهم لا يكلفون اهل العلم تقبيل الأرض.".

---

(١) يراجع ما ذكره السبكي في طبقات الشافعية ١١٥/٢ عن اغداق الصفاريين في سجستان على أبي عبد الله البوشنجي - أحد علماء الحديث بنيسابور - وتحوله بعد ذلك عنهم إلى السامانيين ببخارى، وفرضهم له راتبا شهريا مجزيا.

(٢) يراجع ما ذكره السبكي أيضاً عن الأمير اسماعيل بن أحمد الساماني من أنه كان يصل محمد بن نصر المروزي، امام المحدثين، بأربعة آلاف درهم كل سنة. (طبقات الشافعية ١٩٢/٢).

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٣٣٨/٢ - ٣٣٩.

واما الأمراء العرب الحمدانيون في حلب، فقد بلغوا الغاية في احياء العلم والأدب، وإكرامهم للعلماء والأدباء والفلاسفة في أمارتهم، وكان واسطة عقدهم في ذلك الأمير سيف الدولة، الذي نجح في تحقيق نهضة علمية كادت تعيد عهد الرشيد والمأمون، إذ جمع بلاطه اعاظم الأدباء والعلماء والفلاسفة، ولعل أشهر فلاسفة الإسلام الذين استقروا في كنفه، أبو نصر الفارابي[١] (ت٣٣٩هـ).

ويشيد الثعالبي كثيرا بسيف الدولة، ويصف حضرته بأنها: "مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرجال ... ويقال: إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر "[٢]".

ولعل عهد الأمراء البويهيين في هذا القرن يمثل ازهى مراحل الثقافة، وخصب الحياة العقلية، إذ تعددت في عهدهم مراكزهم الأدبية والعلمية، تبعا لاتساع نفوذهم، وتعدد حواضرهم، فكانت الري واصبهان وشيراز ثم بغداد، مقصد الأدباء والعلماء والفلاسفة، حيث الأمراء ووزراؤهم الذين عظمت هيبتهم وبلغوا الغاية في العلم والأدب، وبرعوا في تدبير أمور الدولة والإدارة وشؤون الحرب ...

ولقد كان عهد الأمير عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢هـ) - على قصره - ازهى عصر الإمارة البويهية من الناحية العلمية في هذا القرن، وقد اشاد المقدسي بعناية عضد الدولة البويهي بالعلوم والكتب، ونوه بتبحره بالعلوم، ولا سيما علم النجوم[٣].

ولم تكن الأمارة الغزنوية اقل اهتماما من لداتها الأمارات المستقلة الأخرى أو لتند عنها في الاهتمام بالعلوم والآداب، ورعاية الحركة الثقافية والعلمية في هذا القرن، لا سيما بعد اتساع أطراف هذه الأمارة الإسلامية في عهد السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١هـ)، وكذا في عهد ابنه السلطان مسعود الذي لم يختلف عن ابيه في

(١) تراجع التفاصيل في ملازمة الفارابي لسيف الدولة وإقامته في حضرته: أخبار العلماء: ١٨٣.
(٢) يتيمة الدهر ٣٧/١ - ٣٨.
(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٤٤٩/٢ - ٤٥٠، وينظر أيضاً إشارة أبي الفداء في تاريخه إلى هذا الجانب: المختصر في أخبار البشر ٤٦٥/١ - ٤٦٦.

تشجيع العلم والأدب، يقول أبو الفداء في تأريخه[١]:

"وكان - أي السلطان مسعود الغزنوي - كثير الاحسان إلى العلماء، فقصدوه، وصنفوا له التصانيف الكثيرة، وكان يكتب خطا حسنا، وكان ملكه عظيما فسيحا ...".

وهنالك ممالك ودويلات اعجمية أخرى لم تكن اقل اهتماما بالعلوم والآداب وتشجيع العلماء والأدباء، والإغداق عليهم من الامارات المارة الذكر، ومن تلك الامارات المستقلة الإمارة الزيارية في طبرستان وجرجان، وإمارة خوارزم وغيرها.

٢ - كثرة المجالس والمنتديات العلمية والأدبية:

تعد المجالس والمنتديات العلمية والأدبية التي كانت تعقد باستمرار في بغداد وكثير من حواضر الامارات المستقلة في هذا القرن، من البواعث المهمة التي ادت إلى ازدهار الحركة الثقافية، وخصب الحياة العقلية، إذ كانت تلك المجالس العلمية مجالا رحبا للمناقشة والبحث، أو المناظرة والمساجلة في كثير من فروع العلم والأدب، وأفانين المعرفة، وكانت تلك المجالس كثيرا ما تحفل باساطين الفكر والثقافة، وجهابذة الأدب والعلم والفلسفة، أو أعلام السياسة والكلام وغيرهم.

وكانت تلك المجالس كثيرا ما تعقد في المساجد أو الأسواق المخصصة للوراقة، ونسخ الكتب[٢]، وهذه هي المجالس العامة. وهناك مجالس أو منتديات علمية أو أدبية خاصة، كانت تعقد في حضرة الخلفاء والرؤساء والوزراء، أو في قصورهم أو في منتجعاتهم الخاصة، ومنها ما كان يعقد أيضاً في منازل العلماء مع تلاميذهم، أو من يقصدهم من طالبي العلم والمعرفة، أو غيرهم.

لقد كانت مجالس الخلفاء والأمراء التي حفلت بالأمور العلمية والمسائل الفلسفية أو قضايا اللغة والأدب والفقه وغيرها، مشهورة وشائعة منذ القرنين الثاني

---

(١) تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر) ٥١٨/١.

(٢) لقد كانت بعض محال نسخ الكتب والوراقة في هذا القرن كثيرا ما تتحول في مواسم معينة إلى مجالس علمية أو أدبية تشع بالمعرفة وأريج الثقافة، يراجع مثلا ما أشار إليه صاحب طبقات الشافعية ١٦٨/٣، عن محل وراقة أبي بكر الصبغي الفقيه، ويراجع ما ذكره ياقوت: معجم الأدباء ٢١٣/١٨، عن أبي عبد الله الكرماني النحوي الوراق.

والثالث للهجرة، وتطفح كتب الأدب واللغة والأمالي والفقه وغيرها، بسرد ما كان يقع في تلك المجالس أو المحافل الخاصة من مناظرات ومحاورات بين العلماء والأدباء وغيرهم[١].

وفي القرن الرابع كثرت تلك المجالس والمنتديات العلمية والأدبية، وبخاصة في حاضرة الخلافة بغداد[٢]، فضلا عن حواضر الامارات والممالك الإسلامية المستقلة.

وممن اشتهر بكثرة مجالسه في بغداد من وزراء هذا القرن: أبو الفتح الفضل ابن جعفر بن الفرات. ولعل المناظرة[٣] المسهبة التي جرت في مجلسه بين أبي سعيد السيرافي، وأبي بشر متى بن يونس، عام ٣٢٦ هـ، في المفاضلة بين النحو والمنطق، خير دليل على ما بلغته تلك المناظرات والمساجلات التي كانت تنتظم تلك المجالس العلمية من نضج عقلي، واوضح شاهد على ازدهار الحركة الثقافية والعلمية في هذا القرن.

اما مجالس العلم والأدب والمناظرة في حواضر الامارات والممالك الإسلامية المستقلة في هذا القرن، فهي كثيرة ومتنوعة، ولعل أشهرها ما كان يعقد في حواضر

---

(١) يراجع مثلا ما أورده الزجاجي (ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق ت ٣٣٧هـ) في أماليه من مناظرات ومساجلات مما دار في مجالس أولئك الخلفاء كالمهدي والرشيد والمأمون وغيرهم: أمالي الزجاجي: ٥٨ - ٥٩، ٥٩ - ٦٢ وغيرها. ويراجع أيضاً: ما أورده في (مجالس العلماء) من مناظرات نحوية ولغوية بين علماء النحو واللغة. ويراجع ما أورده المسعودي من مناظرات عديدة في مجلس المأمون: مروج الذهب ١٩/٤، ٢٠، ٢٤ - ٢٥، ٢٥ - ٢٦، ويراجع ما ساقه المسعودي عن مجلس الخليفة الواثق: مروج الذهب ٧٧/٤ - ٨١، وما أورده عن مجلس المنتصر ١٣٩/٤ وغيرها.

(٢) لعل أشهر من عرف من خلفاء بني العباس في هذا القرن، بعقد تلك المجالس، الخليفة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)، ينظر: أخبار الراضي والمتقي: ٩ وما بعدها، وتراجع أخبار أخرى عن مجالس الراضي والمستكفي في كتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣٢٨/٤، ٣٦٢، ٣٥٨.

(٣) تراجع هذه المناظرة في: الامتاع والمؤانسة (الليلة الثانية) ١٠٩/١ - ١٢٨، وقد رواها التوحيدي نقلا عما دونه استاذه علي بن عيسى الرماني بإملائه، وتراجع هذه المناظرة أيضاً في: معجم الأدباء ١٩٠/٨ وما بعدها.

ومدن الإمارة البويهية، كالري وشيراز واصبهان وغيرها.

ولعل الأمير البويهي عضد الدولة أشهر أمراء بني بويه الذين وسعوا باب الحوار والجدل والمناظرة في مجالسه[١].

اما أشهر وزراء البويهيين الذين عرفوا بكثرة مجالسهم العلمية ومنتدياتهم الأدبية، وما كان يجري فيها من مساجلات ومناظرات متنوعة، فلعل في طليعتهم: ابا الفضل ابن العميد[٢]، وأبا القاسم الصاحب بن عباد، وأبا عبد الله العارض ابن سعدان[٣]، وغيرهم.

ولعل ما اشتهر من صلة أبي حيان التوحيدي بهذا الوزير، ومنادمته له، وما كان يحدثه به في لياليه من الوان الاحاديث العلمية والفلسفية والأدبية، وهي التي ضمها كتابه النفيس (الامتاع والمؤانسة)، خير ما يوضح طبيعة مثل هذه المجالس العلمية، التي كانت منارا للعلم والأدب، وينبوعا ثرا للفكر والثقافة، اسهمت بعمق في رفد الحياة الثقافية والعقلية في هذا القرن.

ولم يتخلف الأمراء السامانيون ووزراؤهم في خراسان إبان هذا القرن عن أمراء بني بويه ووزرائهم في تشجيع العلوم والآداب، أو في عقد المجالس العلمية ومنتديات الأدب في هذا القرن.

فالرحالة المقدسي - وهو من اهل هذا القرن ومعاصريهم - يشير إلى أمراء آل

(١) ينظر ما كان يعقده الأمير عضد الدولة من مناظرات ومساجلات في مجالسه بشيراز، وسماحه للناس جميعا بالجدل والمناقشات، ويراجع أيضاً خبر استدعائه لأبي بكر الباقلاني، لمناظرة المعتزلة في مجلسه: مروج الذهب ٨٦/٤، كنوز الاجداد ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) يراجع عن قيمه مجالس ابن العميد: معجم الأدباء ١٩١/١٤، وينظر عن اثر مجلس ابن العميد واشعاعه في ثقافة العصر، ما حكاه الصاحب بن عباد في كتابه: (الإبانة عن سرقات المتنبي: ٢٢٢، ط دار المعارف - القاهرة)، وما سجله عن أبي الفضل وسمو ذوقه في مجالسه، ومما ذكره الصاحب قوله: "وعن مجلسه - اعلاه الله - اخذت ما اتعاطى من هذا الفن."، وتراجع تفاصيل مهمة أخرى عن مجلس ابن العميد في: النثر الفني في القرن الرابع ٢٣٨/٢ وما بعدها.

(٣) يراجع في ذكر مجالس الوزير ابن سعدان، وندمائه، والطارئين على حضرته: رسالة الصداقة والصديق للتوحيدي: ٣٠، وتراجع تفاصيل مهمة أخرى عن مجلسه في: الأدب في ظل بني بويه: ١٣٤ وما بعدها.

سامان، وما كانوا يعقدونه من مناظرات علمية في مجالسهم العامرة فيقول[١]:

" ولهم - أي أمراء بني سامان - مجالس عشيات جمع شهر رمضان للمناظرة، بين يدي السلطان، فيبدأ هو فيسأل (مسئلة) ثم يتكلمون عليها".

ومما يؤكد أيضاً، عناية أمراء السامانيين، في هذا القرن، بمجالس المناظرة، ما أشار إليه التوحيدي من أن الملك السعيد - يعني الأمير نصر بن أحمد الساماني الذي خلف أباه بعد مقتله - هم بالجمع بين أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي للمناظرة في مجلسه، إلا أن ذلك لم يتحقق له بسبب موت أبي سعيد السيرافي في رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة[٢].

ولم يقف الأمراء السامانيون ووزراؤهم في هذا القرن عند عقد هذه المجالس والمنتديات العلمية والأدبية، أو الجمع بين العلماء والأدباء والفلاسفة للمناظرة في حضرتهم فحسب، وإنما دأبوا أيضاً على الاتصال باولئك العلماء عن طريق مراسلتهم، وتوجيه الأسئلة إليهم، طلبا للعلم، أو دفعاً لما يواجههم من معضلات، أو مشاكل دينية أو لغوية أو غير ذلك[٣].

ومن المجالس أو المنتديات العلمية الخاصة في هذا القرن أيضاً، ما كان يعقد في بيوت العلماء. أو في منتجعاتهم الخاصة مع تلاميذهم، أو مع من يقصدهم من طالبي المعرفة، أو غيرهم.

وقد كانت هذه المجالس الخاصة تحفل غالبا بالمناقشات والمحاروات، أو المناظرات والمساجلات في مختلف العلوم والموضوعات، وكانت غالبا تمثل خلاصة تجارب العلماء، وذوب عقولهم التي تفصح عن خبء عطائها الثر ...

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٣٣٩/١.

(٢) تراجع التفاصيل في: الامتاع والمؤانسة ١٣١/١.

(٣) يراجع ما أشار إليه التوحيدي في الامتاع والمؤانسة ١٢٩/١ - ١٣٠، من أن الأمير نوح بن نصر الساماني كاتب أبا سعيد السيرافي، وسأله عن مسائل تزيد على اربعمائة مسألة الغالب عليها الحروف وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب، شك فيها، فسأل عنها وأشار التوحيدي أيضاً، إلى أن هذا الكتاب كان مقرونا بكتاب الوزير الساماني (البلعمي) وقد ضمنه مسائل في القرآن وأمثالا للعرب مشكلة، فسأله عنها أيضاً.

وممن اشتهر من أولئك العلماء الذين كانوا مقصد طلبة العلم، بمنتجعاتهم الخاصة في هذا القرن: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن ادريس الرازي (ت ٣٢٧ هـ[١])، وأبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطقي، وغيرهما[٢].

٣ - كثرة المكتبات ودور العلم وانتشارها:

كان من البواعث المهمة التي عملت على نشاط الحركة العلمية والأدبية، ونشر الثقافة، ونضج الحياة العقلية في القرن الرابع أيضاً: كثرة المكتبات الخاصة والعامة، وانتشارها، وإنشاء خزائن الكتب الضخمة[٣] في أقاليم عديدة من بلاد الإسلام، فضلا عن إنشاء دور العلم وانتشارها في هذا القرن أيضاً، فكانت تلك المكتبات الضخمة، ودور العلم المنظمة، بمثابة جامعات أو مؤسسات علمية عامة ينهل من فيضها الدافق طلبة العلم كل اصناف العلوم والوان المعرفة ...

وقد اسهم بعض الخلفاء - منذ عصر الرشيد والمأمون[٤] وأمراء الممالك الإسلامية الذين عنوا بالثقافة، وعملوا على نشر العلوم والآداب، أسهموا في إنشاء

---

(١) ينظر: النجوم الزاهرة ٢٦٥/٧.

(٢) ينظر: أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٨٦.

(٣) أنشأ الخليفة الرشيد (ت١٩٣هـ) خزانة الحكمة في بغداد، ثم تطورت في عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ) إلى ما يشبه معهدا علميا كبيرا، إذ ألحق بها مرصدا ضخما، ووظف فيها كثيرين للترجمة. (ينظر التفاصيل في: بيت الحكمة - سعيد الديوه جي: ٣٢ وما بعدها). وقد عد نواة بيت الحكمة قد انشئ منذ عهد المنصور، وقد تأسست منذ ذلك العصر مكتبات كثيرة، عامة وخاصة. (تراجع التفاصيل في: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٣٢٥/١ وما بعدها). وذكر ياقوت في معجم الأدباء ١٩١/٧، إن جعفر بن محمد الموصلي الشافعي، أحد أدباء العصر، أسس مكتبة حوت جميع العلوم والفنون، وقد وقفها على كل طالب علم. اما المكتبات الخاصة فكانت كثيرة، إذ كان كثير من العلماء والسراة يمتلكون مكتبات خاصة تموج بالكتب النادرة (ينظر: العصر العباسي الثاني: ١٢٥).

(٤) ذكر القلقشندي (صبيح الأعشى ٤٦٦/١) إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن: أحدها، خزانة الخلفاء العباسيين في بغداد، والثانية: خزانة الخلفاء الفاطميين في مصر، والثالثة: خزانة خلفاء بني امية بالاندلس. وينظر أيضاً: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٣٢٢/١ وما بعدها.

المكتبات ونموها، ورفد خزائنها الضخمة بالكتب النادرة، وعملوا على جمع المخطوطات النفيسة النادرة، واقتنائها، أو جلبها من البلدان النائية، فكان لذلك كله أثره الكبير في اتساع دور الكتب وخزائنها، وانتشارها في هذا القرن.

ولم تقتصر العناية بالمكتبات وخزائن الكتب في هذا القرن على الخلفاء وحدهم، وإنما شمل ذلك أيضاً كثيرا من الرؤساء وأمراء الممالك المستقلة، وشمل أيضاً كثيرا ممن تسنم منصب الوزارة أو رئاسة الديوان الرسمي.

ولعل ولع الأمراء البويهيين، ومن تسنم لهم منصب الوزارة من أتباعهم في هذا القرن، بالكتب والمخطوطات النادرة، وجمعها، وتنظيم خزائنها، فضلا عن حبهم للعلوم والآداب، يفوق اهتمام غيرهم من حكام الممالك المستقلة الأخرى في هذا القرن.

فالأستاذ متز[1] يذكر - نقلا عن بعض المظان القديمة - "أنه في سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م صودر (حبشي بن معز الدولة)، لأنه أراد عصيان اخيه. أمير بغداد، فكان من جملة ما اخذ منه خمسة عشر ألف مجلد، سوى الأجزاء، وما ليس بمجلد".

وهذا دليل واضح على اهتمام أمراء بني بويه - وحتى المغمورين منهم - بالثقافة والعلوم، وما يتعلق بها من الكتب والمخطوطات النادرة وخزائنها.

ولعل الأمير عضد الدولة البويهي (ت ٣٧٢هـ) أشهر من عني من آل بويه بالكتب وجمعها، وجلبها من الآفاق المختلفة، وتنتظم خزائنها الكثيرة[2].

وربما فاق اهتمام بعض وزراء بني بويه، عناية أسيادهم من الأمراء، بالعلوم والآداب، وجمع مصادرها، واجتلاب الكتب ونفائس المخطوطات من الأنحاء النائية المختلفة، وتنظيم خزائنها، وتنصيب أجل العلماء الأكفاء للإشراف عليها.

فقد طبقت الأفاق شهرة الوزير الأديب أبي الفضل ابن العميد، وعنايته الفائقة بالكتب والمخطوطات النادرة، وحرصه عليها، وجمعها، وتنظيم خزائنها وما كانت

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/٣٢٥.

(٢) يراجع وصف الرحالة المقدسي دار عضد الدولة التي ابتناها بشيراز، ووصفه لخزانة كتبه العجيبة التي تدلل على عنايته واهتمامه بخزائن الكتب ونفائس المخطوطات، أحسن التقاسيم ٢/٤٤٩.

تحويه من نفائس الكتب المتنوعة، إذ كانت تقدر أعدادها بما يحمل على مائة وقر، حتى إن خازنها المؤرخ الأديب ابن مسكويه - الذي يعد واحدا من كبار المفكرين والأدباء في هذا القرن - قد افاد منها كثيرا، وعدت منبعا ثرا من مصادر ثقافته الغزيرة، لما حوته تلك المظان من كل جليل من متون المعرفة[١].

وربما لا تقل شهرة أبي القاسم الصاحب بن عباد عن شهرة أستاذه ابن العميد في هذا الجانب، بل ربما تزيد عليها! فقد اشتهر الصاحب بولعه بالعلوم والآداب، وكثرة جمع الكتب، وتنوع فنونها ومعارفها[٢]، والعناية بتجليدها، والمبالغة بزخرفتها، وتنظيم خزائنها، حتى إن فهرس كتبه كان يقع في عشرة مجلدات[٣].

ومن طرف ما يروى عن هذا الوزير الأديب في هذا الجانب، إن السلطان نوح ابن منصور الساماني استدعاه، ليوليه الوزارة في امارته بخراسان، فكان مما اعتذر به الصاحب انه لا يستطيع حمل أمواله، وإن عنده من كتب العلم خاصة، ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر[٤].

اما أبو نصر سابور بن اردشير، وزير بهاء الدولة البويهي، فلعل أجل مأثرة اسداها في هذا الجانب هي إنشاؤه مكتبة في الكرخ ببغداد عام ٣٨٣هـ، وقد كانت تحتوي على أكثر من عشرة الآف مجلد، وقد ظلت قائمة إلى أن احترقت حين دخل السلاجقة بغداد عام ٤٥٠هـ[٥].

وهكذا نخلص إلى حقيقة مهمة تلك هي أن الأمراء البويهيين، وكثيرا من وزرائهم، وكبار كتابهم، كانوا يرعون العلم، ويعنون بالأدب، ويشجعون التأليف والتصنيف في بلادهم، على نحو لم يكن له نظير في الأمارات والممالك

(١) تراجع التفاصيل في: معالم الحضارة الإسلامية: ٢٠١ وما بعدها.

(٢) يراجع ما ذكره ياقوت (معجم الأدباء ٢/٣١٥)، عن خبر دخول محمود الغزنوي الري واستخراج ما كان في بيت كتب الصاحب بن عباد في علم الكلام واحراقه.

(٣) ينظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/٣٢٦.

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/٣٢٦.

(٥) ينظر: الكامل في التاريخ ٩/٢٤٦ - ٢٤٧.

الإسلامية الأخرى.

وكان ما عمل على ازدهار الحركة الثقافية، فضلا عن إنشاء المكتبات، ودور الكتب في العراق والممالك الإسلامية المستقلة في هذا القرن، إنشاء دور العلم وانتشار المؤسسات العلمية العامرة أيضاً[1].

لقد قامت هذه المؤسسات العلمية الجديدة - إلى جانب ما تحويه من خزائن الكتب النفيسة القيمة - بنشر العلم، وتقديمه لمن يريده من طالبيه في تلك المراكز وكانت هذه المؤسسات العلمية تتولى إجراء الارزاق، والصلات المالية إليهم أيضاً، فكان ذلك كله حافزا مهما لنشر الثقافة، وطلب العلم، ونضج الحياة العقلية في العراق ومختلف الأقاليم الإسلامية في القرن الرابع.

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٣٢٩/١ وما بعدها حيث افاض المؤلف في ذكر تلك المؤسسات العلمية، ومن قام بإنشائها في العراق وأقاليم المشرق الإسلامي، وأشار المؤلف أيضاً، إلى دور الخلفاء الفاطميين في مصر بهذا الجانب.

الفصل الأول

ضياع الرسائل وانتحالها، ومجاميع الرسائل الأدبية وتوثيقها في القرن الرابع للهجرة

توطـئة:

إن ضياع أكثر مجاميع الرسائل لأدباء وكتاب هذا القرن، وعدم وصولها إلينا لسقوطها من يد الزمن، واضطراب أكثر ما بأيدينا من (دواوين الرسائل) التي وصلت إلينا، لما يعوزها من دقة في الضبط، فضلا عما تفتقر إليه من التنظيم في العرض والشرح والتبويب، وتفرق ما وصل إلينا من شتات بعضها الآخر في بطون كتب التاريخ والتراجم، ومظان الأدب، فضلا عما يكتنف بعض الأخبار والروايات التاريخية والأدبية التي تتصل بنصوص تلك الرسائل، أو أعلام المترسلين في هذا القرن، من اضطراب وتناقض - كل هذه الأمور وغيرها، تقتضي من الباحث: بل تلزمه - قبل اعتماد تلك الوثائق الأدبية، وما يتصل بها من أخبار أو روايات تاريخية مادة للدراسة - أن يتوثق من صحتها. والحكم عليها، ليتجنب ما قد يقع فيه من مزالق، وليطمئن على ما يصدره من احكام نقدية على تلك النصوص الأدبية، وما يحيط بها من روايات متباينة، ولتكون تلك الاحكام دقيقة وسليمة، وغير مبنية على أساس واه أو هش وضعيف.

إن الباحث العلمي أو مؤرخ الأدب مثله مثل المؤرخ أو مدون التاريخ، فمثلما تبدأ مهمة المؤرخ أولا بالحصول على (الوثائق) التي هي الوسيلة الأولى للكشف عن الأحداث والوقائع التاريخية، فكذلك مهمة مؤرخ الأدب في اعتماده على (النصوص الإنشائية)، شعرا كانت أو نثرا.

وكما أن فقدان (الوثائق التاريخية) بالنسبة لعمل المؤرخ أو مدون التاريخ تجعل عصورا متطاولة من ماضي الإنسانية مجهولا، وكأنها لم تكن البتة[1]، فكذلك مؤرخ الأدب، إذ أن ضياع (النصوص الإنشائية) يعني انقطاع الصلة عن تراث الإنسانية لتلك الحقب الزمنية التي رصدتها تلك النصوص، أو (الوثائق الأدبية) الضائعة.

---

(١) يراجع ما ذكره البيروني في مقدمة كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة - ص١) عن اهمية الخبر وقيمته بالنسبة للعيان، وفيها يقول في فضيلته: "ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان". تراجع التفاصيل في: المدخل إلى الدراسات التاريخية - لانجلوا وسنيوبوس، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ص٥ وما بعدها.

وكما يبدأ مدون التاريخ - وصولا للكشف عن الحادثة التاريخية، أو استكناه الوقائع والأحداث المهمة - بالبحث عن (الوثائق)، وعن مقدارها، ومظانها، فكذلك الباحث أو مؤرخ الأدب، فإنه - إذا ما أراد أن يحلل آية ظاهرة أدبية، أو يعالج نوعا من الأنواع الأدبية - يجدر به أولا أن يبحث عن (النصوص الإنشائية) لتلك الظاهرة الأدبية، والمظان التي توجد فيها تلك (النصوص) أو (الوثائق) الضرورية لبحث أو تحليل تلك الظاهرة الأدبية.

وكما يحط من قيمة اعظم (الأعمال التاريخية) التي كتبت وفقا لقواعد منهجية منظمة، إلا أن كاتبها لم يقف على (وثائق) كافية، كان من شأنها أن توضح ما يريد المؤرخ تناوله في تاريخه، فكذلك مؤرخ الأدب، إذ أن حاجته إلى (النصوص الإنشائية) الموثقة هي أساس منطلقه العلمي الرصين في رصد آية ظاهرة أدبية، ودراستها وتحليلها.

وانطلاقا من تلك الحقائق الآنفة الذكر، فسيحاول الباحث في هذه الدراسة العلمية أن يفيد مما طرحه المنهج التاريخي (الاستردادي[١]) - إلى جانب مناهج أخرى - في البحث عن (الوثائق) - الهورسطيقا - أي البحث عن النصوص الإنشائية (الرسائل)، وفي توثيق تلك النصوص النثرية، ومدى الاطمئنان إلى صحتها، بوصفها (الوثائق) الحقيقية التي تكشف لنا عن مسار هذا (النوع الأدبي)، وتكشف عن عمقه وتطوره، أو ازدهاره في هذا القرن.

وسيحاول الباحث - وفقا لقواعد هذا المنهج ومبادئه - بعد جمع تلك الوثائق (النصوص الأدبية) وفرزها وترتيبها، تبعا لاسس فنية وموضوعية، إن يجري عليها بعض

---

(١) لقد افاد الباحث الفرنسي الأستاذ (لانسون) كثيرا من (المنهج التاريخي)، وحاول تطبيقه في ابحاثه ودراساته الأدبية، انطلاقا من حقيقة مهمة تلك هي أن التاريخ الأدبي يحاول أن يصل إلى الوقائع العامة، وأن يميز الوقائع الدالة، ثم يوضح العلاقة بين الوقائع العامة والوقائع الدالة.

يقول الأستاذ لانسون: (منهج البحث في تاريخ الآداب: ص٣٩٧).

"واذن فمنهجنا هو في صميمه المنهج التاريخي، وخير اعداد لطالب الآداب هو أن يطيل التفكير في الـ (مقدمة للدراسات التاريخية) التي وضعها (لانجلوا) و(سينيبوس) ...ومع هذا فثمة فروق هامة بين المادة العادية للتاريخ بمعناه الدقيق ومادتنا، وعن تلك الفروق تنشأ فروق في المنهج...".

ما يستوجبه (النقد الخارجي) أو الظاهري، وهو ما يعرف بنقد التحصيل[1] لتلك النصوص، وسيعمد الباحث أيضاً إلى الاعتماد على النصوص الأدبية الموثقة التي يتم استقاؤها من (المصدر) الأقدم والأوثق، بعد الاطمئنان إلى ذلك المصدر، ومعرفة تاريخ تأليفه، ويمكن الاستعانة على التحقق لدراسة المصدر الذي ورد فيه النص بدراسة الوقائع الواردة في مصادر أخرى لمؤلفين آخرين، وسيلتزم الباحث أيضاً - تبعا لذلك - بمحاولة تصحيح بعض تلك (النصوص) النثرية - التي سيعتمدها البحث - بمقارنتها مع ما ورد منها في المظان القديمة، أو المصادر الأخرى المحققه تحقيقا علميا، والتي يقترب زمن تأليفها من عصر تلك الوثائق الأدبية، أو بعيد رحيل منشئيها بأمد غير طويل فضلا عن التثبت من صحة بعض الأخبار والوقائع التاريخية المتصلة بتلك النصوص الأدبية، ومنشئيها، أو امتحانها بالرجوع إلى أكثر من مصدر، وصولا إلى الكشف عما في تلك (الوقائع التاريخية) من تناقض أو اضطراب، أو أخطاء علمية سافرة[2].

وهكذا ينبغي على الباحث أو مؤرخ الأدب - وهذا ما سنعتمده في دراسة الرسائل الأدبية في هذا القرن - أن يستبعد الروايات أو الأخبار الضعيفة أو المتضاربة، ويستبعد أيضاً نصوص الرسائل الأدبية غير الصحيحة، بعد أن نخضع تلك النصوص أو الروايات للفحص والتدقيق، لنصل إلى حقيقة مهمة تلك هي: هل أن نصوص هذه الرسائل وصلت إلينا كما أنشأها كاتبها دون زيادة أو نقصان، أو تحريف أو اختلاف؟ إذ أن كثيرا من تلك المكاتبات - وهذا ما كان شائعا في هذا القرن - كان يتم تبادلها بين الأدباء والتلاميذ، اعجابا بأسلوب تلك الرسائل، أو حفظا لها من الضياع، أو اعتزازا بمنشئيها[3]، أو لغير ذلك من أسباب.

---

(١) ينظر التفاصيل في: المدخل إلى الدراسات التاريخية ص٥١، وما بعدها، ٦٥ وما بعدها، منهج البحث الأدبي: ١١٠ وما بعدها، (الطبعة السابعة ١٩٨٦ بغداد).

(٢) من ذلك مثلا ما أورده صاحب كتاب (جهار مقالة - المقالة الأولى) عن صلة الإسكافي بالأمير الساماني نوح بن منصور، الذي تسنم إمارة السامانيين بعد وفاة الإسكافي بثلاثة عقود ونيف، وما أورده أيضا عن صلة ابن سينا بالأمير الزياري قابوس، وغير ذلك ...

(٣) تراجع رسالة أبي بكر الخوارزمي الجوابية إلى أبي محمد العلوي، إذ افصح الكاتب فيها عما نحن بصدده، قال "......وها انا بعد اليوم، اقرع باب الكتابة، واتسلق على حيطان البلاغة، واجمع ما اقدر عليه من رسائل السيد، فاحفظها صدرا صدرا، بل سطراً سطراً، واردد كل واحدة =

وقد نستعين على التحقق من صحة كثير من نصوص تلك الرسائل اعتمادا على معرفتنا الدقيقة لأسلوب الكاتب ومعجمه اللغوي، وهذا الأمر بطبيعة الحال يتطلب من الباحث خبرة ومراسا ودقة ملاحظة ناجمة عن كثرة صلة الباحث بأساليب أولئك الأدباء الكتاب، وهناك وسيلة أخرى سنلجأ إليها في التوثق من صحة تلك النصوص الإنشائية والروايات، تلك هي (المقارنة) أو (الموازنة) بين النصوص الأدبية كما وردت في المظان القديمة الأخرى، مستضيئا بهدي ما ذهب إليه كبار منظري المنهج التاريخي (الاستردادي)[1].

وبعد، فاننا سنلم في هذا الفصل، بدراسة ثلاث قضايا مهمة وخطيرة في ثلاثة مباحث وهي كما يأتي:

- **المبحث الأول**: ضياع الرسائل في هذا القرن، وسوف اعرض أولاً إلى دراسة أهم مظاهر ضياع تلك الرسائل، ثم احلل بعد ذلك أهم الأسباب أو العوامل التي أدت إلى ضياعها ...
- **المبحث الثاني**: ظاهرة الانتحال (او الوضع الفني) في مكاتبات هذا القرن.
- **المبحث الثالث**: ظاهرة تدوين الرسائل وجمعها، وسوف اعرض في هذا الجانب إلى دراسة أهم مجاميع أو دواوين الرسائل التي وصلت إلينا، وسأقف عند توثيقها وتصويرها لأحداث العصر ...

=

منها خمس مرات، بل عشرا ...... " رسائل الخوارزمي: ٨١.

(١) يراجع ما ذهب إليه لانكلوا وسينوبوس ٥٣.

المبحث الأول

ضياع الرسائل في هذا القرن ... مظاهره وأسبابه:

لقد عني كثير من أدباء هذا القرن، سواء أكانوا من الشعراء أم من الكتاب بنتاجهم الأدبي، فحرص كثير منهم على جمعه وتبويبه، كما سنوضحه في الصفحات التالية، وانصرفت طائفة أخرى إلى تدوينه ونسخه[1]، للاحتفاظ به، أو لتداوله وإهدائه للأمراء أو التلاميذ وغيرهم، وعكفت طائفة من أولئك الأدباء على تنقيح لباب نتاجها الأدبي، وتشذيبه مما علق به من الشوائب واوضار الخاطر[2].

وممن اشتهر بالجمع بين التنقيح والنخل، وبين سرعة البديهة واتقاد الخاطر من أدباء هذا القرن، أبو بكر الخوارزمي، يقول في إحدى رسائله التي حملها إلى حاجب الوزير الصاحب بن عباد[3]:

"وقد حملت إليك نسخة كاملة قلتها، فرضيت بها عن شيطاني ... ولعمري لقد اكلتها من جراب الدق، وورثتها من كيس اللب ... وقلبت لها جريدة التصفح والتخير، ونشرت فيها صحيفة التدبر ... وصقلتها بمدوس النظر، وجلوتها بكف الفكر، ووكلت بها من التمييز جفنا ساهرا، ولمحا باصرا ...".

وممن عرف بكثرة التنقيح، والتسويد والاجالة من أدباء وكتاب هذا القرن أيضاً، أبو اسحاق الصابي، ذكر أبو حيان التوحيدي يقول[4]:

"وسمعت أبا إسحاق الصابي يقول: ما حررت كتابا قط عقيب التسويد، إلا ورأيت التنافر في خطي، والتطاير من قلمي، والتثاقل في يدي، فأما إذا جممت بعده جمة، أو نمت بعده نومة فأنا على صواب ما اريد منه جريء، ومن الخطأ فيه بريئ".

---

(١) يراجع الخبر الذي ساقه ياقوت (معجم الأدباء ٣٩٦/٥) نقلا عن التوحيدي في (مثالب الوزيرين)، من طلب(نجاح بن سلمة) ناظر خزانة كتب الوزير الصاحب، انه قدم للتوحيدي (ثلاثين مجلدة) من رسائل الصاحب، وطلب إليه نسخها، ورفض التوحيدي ذلك وخوفه على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال، وينظر أيضاً: النثر الفني في القرن الرابع ١٦٢/٢.

(٢) لعل اوضح ما يدلل على اهتمام أدباء هذا القرن بجمع نتاجهم الأدبي وتنقيحه ونخله، ما ساقه المحسن التنوخي في (النشوار ٢٢٥/١) من أن أبا الفرج الببغاء قد شارك أبا فراس الحمداني في نخل ديوانه الكبير قبل موته، ونقل عن الببغاء قوله: "وافقني على نفيه، لأنه عرضه علي، فكل ما استضعفناه نفاه، وما اجتمعنا على استجادته أقرّهُ، وحرره في نسخة تداولها الناس ...".

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي ٥٢.

(٤) ثلاث رسائل للتوحيدي (رسالة في علم الكتابة) - تحقيق د. ابراهيم الكيلاني: ٣٥.

وفضلا عما تقدم، فقد دفع التنافس الحاد بين الأمراء وحكام الممالك الإسلامية المستقلة في هذا القرن - وهذا ما سنعرض لتحليله في الفصل الثاني من هذه الدراسة - ولا سيما أولئك الأمراء والوزراء والأدباء الذين اشتهروا بشغفهم بالأدب، وتمكنهم من قرض الشعر، وتدبيج الرسائل، دفعهم ذلك إلى جمع كثير من نتاج الأدباء وتدوينه وبخاصة، ما مدحوا به منه، أو ما تعلق بالإشادة بملكهم، وعلو شأنهم، وبناء أمجادهم.

يقول أحد الباحثين مشيرا إلى هذا التنافس بين أولئك الرؤساء على اجتذاب الأدباء واصطناعهم في خدمتهم(١):

"واذن فقد كان يقوم هؤلاء الكتاب والشعراء للدول التي ترعاهم، بخدمات خطيرة تتصل بحياتها، وحياة القائمين عليها، فهي من النوع الذي تقدمه مؤسسات الدعاية لحكوماتها في العصر الحاضر، فاذا عرفنا هذا استطعنا أن نفهم الدافع الذي كان يحرك الملوك ووزراءهم، ويدعوهم إلى أن يملأوا قصورهم بالكتاب والشعراء ويغمروهم بالعطايا والهبات".

وقد ذكر أبو منصور الثعالبي، وهو يؤكد ما كان يقوم به أولئك الرؤساء من جمع وتدوين ذلك التراث الأدبي الذي يشيد بأمجادهم، قال(٢):

"وكان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب، وأبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت ...".

فضلا عما قام به بعض الأمراء السامانيين، كالأمير نوح بن نصر، والأمير نوح ابن منصور، وبعض مشاهير وزرائهم كأبي علي البلعمي وغيره، من تدوين وجمع كثير من تراث الأدب العربي والفارسي الذي يشيد بأمجادهم القومية، وجهودهم في بعث تراثهم القديم(٣)، مما سوف نعرض لتفصيله في الفصلين الثاني والثالث من هذه الدراسة.

وإلى جانب ما ذكرنا، فقد كان الباعث لصنيع بعض أولئك الحكام أو وزرائهم

---

(١) الأدب في ظل بني بويه: ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) يتيمة الدهر ٣٨/١.

(٣) تراجع التفاصيل في: أحسن التقاسيم للمقدسي: ٣٣٨/١ - ٣٣٩، تاريخ الأدب في إيران - ادوارد براون: ١٠٧/٢.

في العناية بالتراث الأدبي، ونتاج الشعراء والكتاب، وجمعه وتدوينه في هذا القرن، هو الجانب الفني، والإعجاب بتلك الشذرات الفنية التي صدرت عن قرائح الأدباء المبدعين، ولعل ما أشار إليه الثعالبي من إعجاب الوزير الصاحب بن عباد بشعر الشعراء الشاميين وكلفه الواضح بنتاجهم، وما قام به من جمعه، وكسر دفتر ضم ما صدر عنهم من شوارد فنهم، لخير شاهد على ذلك.

يقول الثعالبي مشيرا إلى طريقة شعراء الشام، وما يقاربها، وإعجاب الوزير الصاحب بن عباد بطرائقهم[١]:

"واخبرني جماعة من أصحاب الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد أنه كان يعجب بطريقتهم المثلى، التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة، والفصاحة والسلاسة، ويحرص على تحصيل الجديد من اشعارهم، ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف، حتى كسر دفترا ضخم الحجم عليها، وكان لا يفارق مجلسه، ولا يملأ أحد منه عينه غيره، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه وفي سن قلمه، فطورا يحاضر به في مخاطباته، ومحاوراته، وتارة يحله أو يورده كما هو، في رسائله".

إن هذه الشواهد الآنفة الذكر، وغيرها، معلم واضح يقودنا إلى حقيقة مهمة، تلك هي غزارة ما دون أو جمع ونسخ من التراث الأدبي - شعرا ونثرا - لشوامخ الأدباء والمفكرين في هذا القرن، وإن كثيرا من هذا التراث الأدبي قد ضاع، وسقط من يد الزمن، ولم يسلم من الضياع منه إلا ما وصل إلينا من شتاته المبثوث في ثنايا مظان التاريخ ومصنفات الأدب والتراجم، فضلا عن بعض المجاميع النثرية غير المنشورة، المركونة في أدراج الخزائن ودور الكتب العامة في ارجاء متفرقة من العالم[٢].

ومن هذا المنطلق، فسوف اعرض أولا إلى الإلمام السريع بأهم مظاهر ضياع هذا النتاج الأدبي - وبخاصة المكاتبات والرسائل الأدبية - بعد امعان الأدباء، وتنافس الأمراء والرؤسا وعكوف الوراقين والنساخ وغيرهم على تدوين هذا التراث الأدبي وجمعه إبان هذا القرن.

---

(١) يتيمة الدهر: ١/٣٤.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي - كارل بروكمان - ج٢، في مواضع متفرقة من تراجم الأدباء الكتاب الذين وقف عند دراستهم.

١ - مظاهر ضياع الرسائل الأدبية في القرن الرابع:

ولعل في مقدمة تلك المظاهر التي تومئ بوضوح إلى ضياع فصول تلك المكاتبات والرسائل الأدبية ما يأتي:

١ - ضياع (دواوين) أو مجاميع الرسائل لكتاب مبرزين في هذا القرن:

لعل أبرز مظهر يدلل بجلاء على ضياع الكثير من المكاتبات الأدبية في هذا القرن ضياع كثير من (دواوين) أو مجاميع الرسائل لمشاهير الكتاب المبرزين، وعدم وصولها إلينا، وعلى الرغم من شهرة أكثرهم، ورفعة منزلتهم - ولا سيما جهابذة الكتاب من الطبقة الخاصة، الأمراء والوزراء وغيرهم - وأثرهم الكبير في الحياة الأدبية والثقافية، إذ يبدو جليا إن ما بقي بأيدينا من نتاجهم الأدبي، أو ما نشر منه وحقق لا يتناسب مع ما بلغه أكثرهم من شهرة عريضة، ومكانة أدبية مرموقة ...

وحتى ما وصل إلينا من تلك (الدواوين)، أو المجاميع النثرية - وهو ما سنلم بدراسته وتحليله في المبحث الثالث من هذا الفصل - فإن أكثرها يشوبها الاضطراب أو النقص، وسوء العرض أو التبويب والشرح، أو التعليق، وما إلى ذلك، فضلا عن أن القسم الأعظم من تلك المجاميع النثرية لما يزل مخطوطا لم ير النور بعد، وموزعا بين مجامع المخطوطات والوثائق العالمية، ودور الكتب في ارجاء متفرقة من العالم ...

إن أديباً كبيراً، وكاتبا بارعا، كأبي الفضل ابن العميد، على ما بلغه من شهرة واسعة، ومكانة سامية بين أدباء عصره - حتى عد امام مدرسة في صناعة الترسل في هذا القرن - لم يصل إلينا (ديوان رسائله)! وما أبقت عليه الأيام من نتاجه الأدبي لا يتناسب مع شهرته وسمو منزلته[١].

وكذا يقال أيضاً عن أبي محمد الحسن بن محمد المهلبي، وزير معز الدولة البويهي، الذي قال فيه أبو منصور الثعالبي[٢]: "وكان يترسل ترسلا مليحا، ويقول الشعر

---

(١) يراجع ما ذكره المستشرق (كارل بركمان) عن فصول رسائله المخطوطة في (بوهار /٤١٢) و(امبروز يانا /١٢٥)، وأشار إلى وجود بعض رسائله في مكتبة سيلان، فضلا عن وجود طائفة من توقيعاته في مكتبة(عليجره /١٣٤ رقم ١).. (تاريخ الأدب العربي ١١٩/٢).

(٢) يتيمة الدهر ٢٦٥/٢. وقال أبو الفرج الاصبهاني يصف رقة نظمه ونثره، وايجازه - وكان من خواصه ومنقطعا إليه (اليتيمة ١٢٨/٣) [من الطويل]:

رأيت نظام الدر من نظم قوله ... ومنثوره الرقراق في ذلك النثر
ويقتضب المعنى الكثير بلفظه ... ويأتي بما تحوي الطوامير في سطر

قولا لطيفا ..." حتى غدا مضرب المثل برقته وحسنه، فقال بعض اهل عصره: [من الخفيف]

وله خلق كنيل الأماني أو كشعر المهلبي الوزير!

وعلى الرغم من سمو مكانته بين أدباء عصره، واثره الكبير في الحياة الثقافية وازدهارها، فإن صروف الدهر قطفت جنى ترسله، ولم يصل إلينا (ديوانه) أو (مجموع رسائله).

ونظير الوزير المهلبي من وزراء آل بويه، وكبار كتابهم الذين عدا الزمن على (مجموع رسائله)، واخترم لباب ترسله، أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الشيرازي، الذي وصفه الثعالبي بأنه " أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق ... والمقدمين في الأداب والكتابة، والبراعة والكفاية "[١].

ونقل ياقوت عن صاحب اليتيمة، باسناد عن بعض ثقات عصره، إن الوزير الصاحب كان يعده أحد اربعة من كتاب الدنيا وبلغاء العصر[٢].

وأشار المستشرق كارل بركلمان[٣] الى قطعة من رسائله في برلين (٨٨٢٥)، وذكر أن رسائله تتضمن أخبارا طريفة - ولعل هذا أحد اسباب ضياع مجموعة رسائله، كما سنعرض لذلك في الصفحات التالية - عن دولة البويهيين في السنوات ٣٣٥ هـ - ٣٨٠هـ / ٩٤٦م - ٩٩٠م.

ولم يكن مشاهير الأدباء الكتاب في خراسان على عهد الأمارة السامانية أفضل حالا من اقرانهم وزراء وكتاب بني بويه في العراق وشيراز والري وفارس، فأبو عبد الله الحسين بن محمد العميد، المعروف بـ (كلّه)[٤] - وهو والد أبي الفضل ابن العميد المشهور - وهو أحد من استقر في الذروة العليا من الوزارة ورئاسة ديوان الرسائل على عهد الأمير الحميد (نوح بن نصر الساماني)، وعلى الرغم من أنه كان " في الرتبة الكبرى من الكتابة، ورسائله مدونة بخراسان " كما قرر ذلك الثعالبي[٥] إلا أن الأيام

---

(١) يتيمة الدهر ٣٦٩/٢.
(٢) ينظر معجم الأدباء ٣٣٨/١، ويراجع النص أيضاً في اليتيمة ٢٩٢/٢.
(٣) تاريخ الأدب العربي ١١٨/٢.
(٤) كله: لقب أبي عبد الله العميد وهو يدل على الشهرة، والكلة، الصوفة الحمراء في رأس الهودج.
(٥) يتيمة الدهر ١٨٤/٣.

عصفت أيضاً بمجموع رسائله، ولم يقع في أيدينا من تلك الرسائل - التي وصفها أبو اسحاق الصابي في كتابه الشهير " التاجي " بأنها لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه أبي الفضل(١) - ما يطفئ أوار ظمأ الباحث.

ويشاكه أبا عبد الله العميد في ضياع نتاجه الأدبي، وانخرام " مجموع رسائله " غريمه وخليفته الذي تولى ديوان الرسائل، في خراسان على عهد الأمير الحميد، فسبق من قبله، واتعب من بعده(٢)، أبو القاسم الإسكافي الذي وصفه أبو منصور الثعالبي بأنه: "لسان خراسان وغرتها، وعينها وواحدها، واوحدها في الكتابة والبلاغة، ومن لم يخرج مثله في البراعة والصناعة(٣)".

وعلى الرغم مما اكده الثعالبي من علو امره، وبعد صيته في خراسان، وما جمعته رسائله من اقسام الحسن والجودة، حتى ازداد على الانام تبحرا في الصناعة، وقدرة على الإنشاءات التي يؤنس مسمعها، ويؤيس مصنعها(٤)"، فقد حكم الدهر على (مجموعة رسائله)، التي وصفها الثعالبي أيضاً بأنها: "كثيرة مدونة سائرة في الآفاق(٥)..."، بالفناء والعفاء.

وممن اسدل الزمن أستاره على (مجموع رسائله) أيضاً، الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي الذي اختار بنفسه من مجموع رسائله ما وسمه بـ"المخزون" وهو نماذج اسلوبية " مستخرجة من مجموع ترسله "(٦)، وقد احتفظ الثعالبي بنصوص نادرة من فصوله أفصحت عن طبيعة ترسله، ومكانته بين أدباء وكتاب عصره(٧).

٢- ضآلة ما وصل إلينا من الرسائل لمشاهير الكتاب في هذا القرن:

وهذا مظهر مهم اخر من مظاهر ضياع المكاتبات الأدبية والديوانية في القرن الرابع، إذ أن كثيرا من كتاب هذا القرن، وعلى الرغم من إسهامهم الفاعل في ازدهار

---

(١) المصدر نفسه، ٣/ ١٨٤.
(٢) المصدر نفسه، ٣/ ١٨٥.
(٣) المصدر نفسه، ٤/ ١٠٨.
(٤) يتيمة الدهر، ٤/ ١١٠، وتراجع أخباره في المقالة الأولى /الحكاية الأولى والثانية من كتاب (جهار مقالة) للنظامي السمرقندي.
(٥) يتيمة الدهر ٤/ ١١٠.
(٦) ينظر: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ٥/ ١٩٨.
(٧) يتيمة الدهر: ٤/ ٤١٠ وما بعدها.

الحركة الثقافية، وتفاعلهم الواسع في الحياة الأدبية، وما حظي به بعضهم من قصب السبق والريادة في صناعة الترسل في عصره، كأبي الفضل ابن العميد مثلا - لم يصل إلينا من سواد رسائلهم إلا قدر محدود وضئيل، لا يوازي الحقبة الزمنية التي امضاها بعضهم في الدواوين الرسمية، ولا يتناسب أيضاً مع ما حظي به أكثرهم من منزلة سامية وشهرة واسعة.

فأسرة (آل العميد) مثلا، وعلى الرغم من امتداد صلتهم في أقاليم المشرق الإسلامي بالأمراء السامانيين فالبويهيين، بدءا من صلة أبي عبد الله العميد بالأمير الساماني الحميد (نوح بن نصر) في خراسان، حتى وفاته، ثم تواصل صلة ابنه أبي الفضل ابن العميد، ثم ابنه أبي الفتح ذي الكفايتين بالأمارة البويهية لأكثر من ثلاثين عاما متصلة، فضلا عن علو منزلتهم، وندرة كفاءتهم، وحدة مواهبهم، وامتلاكهم لأزمَّة البلاغة، وناصية البيان، وسعة الثقافة، على الرغم من كل هذا، لم يحفظ لنا الزمن في وعائه من ثمرات عقولهم، وأزاهير بيانهم، ما يوازي أدنى حدود الكفاية من رسائلهم الرسمية والإخوانية!

وعلى الرغم مما مر بنا انفا من وصف الثعالبي[١] لأبي عبد الله العميد بعلو الرتبة في الكتابة، وما ذكره من أن رسائله كانت مدونة بخراسان، إلا اننا لم نحظ لأبي عبد الله العميد بنص واحد يطفئ ظمأ شوقنا إلى معرفة مزايا اسلوبه وفنه في صناعة الترسل.

وهكذا يقال عن حفيده أبي الفتح ذي الكفايتين، فإن ما تناقلته المظان القديمة[٢]، وكتب التراجم والأدب من فصول رسائله، لم تتعد شذرات قليلة مكررة، لا توازي مكانته الأدبية، ولا تكافئ ما وصفه الثعالبي لمنزلته إذ قال[٣]:

"حتى تخرج وخرج حسن الترسل، متقدم القدم في النظم، آخذا من محاسن الآداب بأوفر الحظ ..."

ويمكن أن يستشف الباحث أيضاً من سياق ما ذكره الثعالبي في ترجمته لأبي الفتح ابن العميد، ما يدلل على غزارة ترسله، وكثرة مكاتباته، لنصل إلى ما نريد تأكيده

(١) يتيمة الدهر: ١٨٤/٣.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٤/٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٥/٣.

من ضياع نتاجه الأدبي، لما احاط بحياة هذا الأديب من ظروف قاسية، ونهاية محزنة كانت سببا فيما اصاب نتاجه الأدبي من طمس وضياع ...

أ - في خبر أورده الثعالبي، روى فيه حكاية طويلة لأبي الحسين ابن فارس مع أبي الفضل ابن العميد، يقول ابن فارس في خاتمتها: "...ثم أخذت اتحفه بنكت نثره، ... يعني أبا الفتح ابن العميد - وملح نظمه[١]".

وهذا الخبر يشير بوضوح إلى كثرة ما كان يحفظه (ابن فارس) من جواهر نثر أبي الفتح، وما يستطرفه منه، وما يناسب المقام لروايته في مجلس أبي الفضل.

ب - ذكر الثعالبي أيضاً إن من أسباب موجدة الأمير عضد الدولة البويهي عليه، وما حل به من نكبة فظيعة، أدت إلى تلك النهاية المحزنة، قال[٢]:

"...ومنها ترفعه - يعني أبا الفتح - عن التواضع له في مكاتباته ..."

وهذا الخبر فيه دلالة ضمنية مهمة، وإشارة واضحة أيضاً إلى امتداد صلة أبي الفتح ذي الكفايتين بالأمير عضد الدولة - فضلا عن صلته بالأمير ركن الدولة، بعد وفاة ابيه أبي الفضل، واستيزاره له، ثم صلته عقب ذلك بالأمير مؤيد الدولة - وكثرة مكاتباته له قبل أن تقع الجفوة بينهما.

****

أما ما وصل إلينا من رسائل أبي الفضل ابن العميد، فهو أوفر حظا من سابقيه، إلا أنها، مع ذلك، ضئيلة العدد قياسا على مكانته الأدبية، وشهرته الواسعة التي طبقت الخافقين.

ولعل ما أورده الثعالبي في بعض مصنفاته، ولا سيما في يتيمة الدهر[٣]، فضلا

(١) المصدر نفسه: ٢١٦/٣.

(٢) يتيمة الدهر ٢٢٢/٣.

(٣) ينظر يتيمة الدهر ١٨٣/٣ وما بعدها، حيث أورد الثعالبي له فصولا مقتضبة من ثلاث رسائل: الأولى فصل من رسالة إلى أبي العلاء السروي، في شهر رمضان، وهو مما لم يسبق إليه ١٩٠/٣ - ١٩٢، والثانية: وتضم ثلاثة فصول قصيرة من رسالته الديوانية الشهيرة إلى (ابن بلكا) ١٩٣/٣ - ١٩٥، وقد أشار الثعالبي إلى أن هذه الرسالة هي غرة كلامه، وواسطة عقده والثالثة: فصل قصير من رسالة له إلى الأمير عضد الدولة ١٩٥/٣ - ١٩٦ (وسنلم بدراسة هذه الرسائل بإيجاز في المبحث الثاني من الفصل الثالث)، واخرج له الثعالبي أيضا تسعة فصول قصيرة مما يجري مجرى الأمثال: اليتيمة ١٩٦/٣ - ١٩٧.

عما ذكره الحُصْريّ في كتابه " زهر الآداب وثمر الألباب[١]"، من فصول رسائل أبي الفضل ابن العميد - وهما اوعب المظان القديمة التي اشتملت على رسائله - ما يؤكد بجلاء ضياع رسائل هذا الأديب الكاتب، وضآلة ما احتفظت به الأيام من ثمار أدبه وازاهير رسائله.

ويستشف الباحث مما ساقه الثعالبي من أخبار عن صلات أبي الفضل ابن العميد الخاصة، وما كان يتكاتب به مع بعض خلطائه ولداته المقربين، وبعض ندمائه، وما كانوا يكاتبونه ويجاوبونه، وما كان يهاديه أبو العلاء السروي بخاصة، نثرا ونظماً نستدل من كل هذا على كثرة ترسل أبي الفضل ابن العميد، وكثرة تحبيره للرسائل الإخوانية، إلى جانب رسائله السلطانية التي اشتهر ببراعته الكبيرة في تدبيجها في هذا القرن.

****

اما الأديب الوزير أبو محمد المهلبي فقد سبقت الإشارة إلى ضياع (مجموع رسائله) على الرغم مما ذكره الثعالبي[٢]من أنه كان يترسل ترسلا مليحا، وما أشار إليه الباخرزي[٣]من أن الغالب على المهلبي الوزير الكتابة والترسل، فإن ما بقي بأيدينا من ازاهير ترسله غيض لا يبل غلة الدارس لنثره الفني[٤].

(١) يراجع زهر الآداب حيث أورد له الحصري عشر رسائل هي: رسالة له لمن تزوجت امه ٤٠٢/٢، رسالة له اجتلب منها بديع الزمان وعدل عليها ٥٨٠/٢، رسالة له إلى بعض اخوانه ٦٠١/٢ - ٦٠٢، فصل من رسالة له في فتح ٦٠٢/٢، من رسالة له إلى أبي عبد الله الطبري ٨٧٥/٣ - ٨٧٦، ثلاثة فصول من رسالة له إلى أبي عبد الله الطبري أيضا ٨٧٧/٣ - ٨٨٠، من رسالة له إلى أبي عبد الله الطبري أيضا ١٠٦٢/٤ - ١٠٦٣، من رسالة له إلى أبي عبد الله الطبري أيضا ٤/ ١٠٦٣ - ١٠٦٤، من رسالة له إلى أبي عبد الله الطبري أيضا ١١١٩/٤ - ١١٢٠ من رسالة له إلى الأمير عضد الدولة البويهي ١١٢٠/٤ - ١١٢١.

(٢) ينظر: يتيمة الدهر ٢٦٥/٢.

(٣) دمية القصر وعصره أهل العصر ٢٢٣/١.

(٤) عقد الثعالبي في اليتيمة ٢٧٥/٢ - ٢٧٧ فصلا لما اخرج من فصول ترسله المردفة بأبيات الشعر، وعقد له فصلا اخر اشتمل على ما اخرج من فصول رسائله المجردة من ابيات الشعر: اليتيمة ٢/ ٢٧٨ - ٢٧٩. وأورد له الباخرزي في الدمية ٢٢٣/١ فصلا قصيرا من رسالة للمهلبي إلى الصاحب بن عباد في العتاب، وهذه الفصول القصيرة لا تتناسب وشهرة الوزير المهلبي، وعلو كعبه في صناعة الترسل.

ومن الأدباء الكتاب الذين مني أكثر نتاجهم الأدبي - على تنوعه وتعدد اتجاهاته - بالضياع والإهمال في هذا القرن: الأديب الكاتب أبو الفرج الببغاء، لقد كان الببغاء متعدد المواهب الأدبية، فالى جانب كونه شاعرا مجيدا، وقاصا بارعا، ألف مصنفا في القصص، فإنه كان كاتبا بليغا مترسلا.

وعلى الرغم من أن بعض الباحثين[١] عده من أركان الحياة الأدبية في زمانه، إلا أن هذا الأديب الكاتب لم يحظ باهتمام المصنفين ومؤرخي الأدب القدامى، وقد كان ذلك سببا في ضياع أكثر نتاجه الأدبي[٢].

لقد ضاعت أكثر رسائل الببغاء[٣]، ولم يصل إلينا من رسائله الإخوانية التي اشتهر بكثرة تبادلها مع بعض الوزراء والأمراء، وأدباء عصره، إلا نزر يسير، فقد كانت له - أثناء إقامته في كنف الأمير سيف الدولة - مراسلات مع الوزير المهلبي (ت ٣٥٢هـ)، والأمير جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني (ت ٣٥٢هـ)، ومما يؤسف له أن جميع تلك الرسائل قد ضاعت، ولم يصل إلينا منها سوى رسالتين أوردهما صاحب اليتيمة[٤].

وكان للببغاء أيضاً مكاتبات ورسائل إخوانية - شعرا ونثرا - مع بعض أدباء عصره، لعل أشهرهم: أبو إسحاق الصابي، والمحسن التنوخي، والأديب يحيى بن محمد بن سليمان الازدي، وقد وصلت إلينا بعضها، وضاع القسم الاعظم منها[٥].

اما رسائله السلطانية التي دبجها على لسان الأمير سيف الدولة الحمداني، أثناء صحبته له، وإقامته في بلاطة بحلب، أو ما حرره على لسان الأمير أبي تغلب الحمداني

---

(١) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع ٢٧٥/٢.

(٢) لقد ضاع ديوان شعر الببغاء، على الرغم من إشارة ابن النديم (الفهرست ص١٩٥) إلى أن شعره ثلثمائة ورقة، كما ضاع أيضا مصنفه الذي الفه في القصص، على الرغم من إشارة بعض معاصريه إليه، واقتباسهم بعض القصص منه (ينظر كتاب الفرج بعد الشدة في مواضع متفرقة).

(٣) أشار ابن النديم في الفهرست ص١٩٥ إلى (مجموع رسائل الببغاء)، إلا انه لم يحدد عدد اوراق رسائله.

(٤) تنظر رسالة أبي الفرج الببغاء إلى الوزير المهلبي: (يتيمة الدهر ٣٠٥/١)، ورسالته إلى أبي محمد جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني (اليتيمة ٣٠٦/١).

(٥) تراجع تلك المراسلات في (يتيمة الدهر ٣٠٩/١ وما بعدها)، نشوار المحاضرة ٥٢/٢، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج٩/ في مواضع كثيرة متفرقة.

أثناء إقامته في كنفه في الموصل، بعد رحيل سيف الدولة، منذ عام ٣٥٨هـ، فقد ضاعت هي الأخرى، ولم يبق منها سوى عدد يسير، أورد أبو منصور الثعالبي بعضها[١]، وساق القلقشندي فصولا قصيرة من بعضها[٢].

ولم يكن حظ كثير من الأدباء الكتاب الذين عملوا في بعض الدواوين الرسمية في أقاليم المشرق الإسلامي النائية، كإقليم خوارزم وغزنة وطبرستان وغيرها، ولم يكن نصيبهم من الشهرة أيضاً، بأوفر من اقرانهم الأدباء الكتاب في الأقاليم الأخرى، ممن اتى الزمان على صفوة نتاجهم الأدبي، ولباب ترسلهم ...

فالأديب الكاتب علي بن محمد المشهور بأبي الفتح البستي، الذي يصفه معاصره وخليطه الثعالبي - وقد التقاه في نيسابور - ويصف أسلوبه فيقول:

" ورأيته يغرف في الأدب من البحر، وكأنما يوحى إليه في النظم والنثر، مع ضربه في سائر العلوم بالسهم الفائز، وأخذه منها بالحظ الأوفر ..."[٣].

هذا الأديب الذي يغرف في ترسله من البحر، والذي كان أيضاً - كما وصفه الثعالبي في الموضع نفسه[٤] - " صاحب الطريقة الانيقة في التجنيس الأنيس، البديع التأسيس ..."، هذا الأديب الموهوب، لم يفقد مجموع رسائله فحسب، وإنما لم نحظ بجرعة سائغة من ثمالة ترسله[٥]، على الرغم من خطورة موقعه في بلاط الأمير الغزنوي ناصر الدولة سبكتكين، وابنه الأمير محمود الغزنوي، وغيرهما ممن سبقهما

---

(١) تراجع بعض هذه الرسائل في يتيمة الدهر ٣٠٢/١ - ٣٠٤ (رسالته إلى الأمير سيف الدولة الحمداني يذكر منصرفه من بعض الغزوات؛ ورجوعه إلى حلب، وينظر فصل من رسالة أخرى ٣٠٤/١، ورسالة ثالثة في الشكر والثناء ٣٠٤/١ - ٣٠٥، وله رسالة أخرى إليه يلتمس رسمه من الكسوة ٣٠٥/١، وينظر رسالته على لسان أبي تغلب ناصر الدولة جوابا عن رسالة الصابي اليتيمة ٣١٤/١ - ٣١٥.

(٢) تراجع الفصول القصيرة التي اجتزأها القلقشندي من رسائله الإخوانية والسلطانية - بعد أن حذف ما فيها من تذييل بالشعر، صبح الأعشى ٩/في مواضع كثيرة متفرقة من ص٢٢ - ١٨٤، وتجدر الإشارة هنا، إلى أن كتاب صبح الأعشى هو اثرى المصادر التي احتفظت بالكثير من رسائل أبي الفرج الببغاء - ولا سيما رسائله الإخوانية..

(٣) يتيمة الدهر ٣٤٥/٤.

(٤) المصدر نفسه ٣٤٥/٤.

(٥) لم يحتفظ الثعالبي في اليتيمة، ولم يرو له إلا نصا واحدا في فتح السلطان الغزنوي ينظر اليتيمة ٤ /٣٤٧.

من حكام تلك الأقاليم النائية. يقول الثعالبي مشيرا إلى انخراطه في ديوان رسائل سبكتكين وابنه(١):

"وصار من بعد ينظم باقلامه، منثور الآثار عن حسامه، وينسج بعباراته، وشي فتوحه ومقاماته، وهلم جرا إلى زمان السلطان المعظم يمين الدولة وأمين الملة ...".

فضلا عن غزارة مراسلاته الإخوانية مع بعض من لم تغب نسائم مراسلاته وافاويح كتبه عنهم، فهذا أبو منصور الثعالبي - وهو واحد من لداته وخلانه - يقول(٢): "ولم يكن تغنبي كتبه في غيبته، ولا اكاد أخلو من آثار وده، وكرم عهده".

٣ - ورود إشارات مهمة تدلل على وجود (رسائل مفردة)، أو (مجاميع رسائل) مفقودة أو مراسلات متبادلة بين الأمراء والعلماء، أو بين العلماء، والمفكرين مع بعضهم:

وهذا مظهر واضح، ودليل مهم اخر على ضياع قسم كبير وخطير من رسائل هذا القرن لقد وردت في بعض مظان التاريخ والأدب القديمة، إشارات دقيقة، وأخبار مهمة يمكن أن يستشف الباحث من خلالها على وجود مجاميع رسائل مفقودة، لكتاب مغمورين أو غيرهم، ودللت بعضها أيضاً على وجود مكاتبات ورسائل متبادلة بين بعض أمراء وحكام الممالك الإسلامية ووزرائهم، مع بعض الفلاسفة والعلماء وغيرهم، أو بين العلماء والمفكرين مع بعضهم، في مسائل وأمور علمية ودينية دقيقة ومتنوعة، إلا أن معظم هذه المكاتبات أو الرسائل المتبادلة قد ضاعت، ولم تحوها ذاكرة الأيام، ولم يصل إلينا منها إلا تلك الإشارات والجذور الراسخة في بطون تلك المصادر النفيسة النادرة ...

من بين تلك الإشارات الثرة النادرة مثلا، ما أورده الثعالبي في ترجمته للأديب الكاتب أبي محمد الحسن بن أحمد اليروجرديّ، قال مشيرا إلى فضله ومنزلته:

" كاتب بحقه وصدقه، متبحر في ترسله، منقطع القرين في كتاب عصره، اخذ بأزمة الكلام البارع، يقودها كيف أراد، ويجذبها كيف شاء ..."(٣).

---

(١) يتيمة الدهر: ٣٤٧/٤.

(٢) المصدر نفسه ٣٤٥/٤، وينظر أيضا: تتمة صوان الحكمة: ٣٤ - ٣٨.

(٣) يتيمة الدهر ٤٥٥/٤.

ثم اردف الثعالبي يقول، مشيرا إلى رسائله[١]:

"ولعل ما قد ارتفع من سواد رسائله إلى هذه الغاية يقع في اربعة الاف ورقة، وتزيد أبوابها على خمسة وعشرين ...".

وهذا النص الذي ساقه الثعالبي يشير إلى كثرة ما دبجه هذا الكاتب البليغ من رسائل، إلا أن الثعالبي لم يثبت في ترجمته له، فصلا واحدا من نصوص تلك الرسائل؟

ومن تلك الإشارات الدقيقة التي يستشف منها الباحث على ضخامة حجم الرسائل المدونة في هذا القرن، ما ذكره ياقوت نقلا عن أبي حيان، ملمحا إلى ضخامة ديوان رسائل ابن عباد، إذ قال[٢]:

" وقد حدثنا في كتابه (مثالب الوزيرين) انه لما قدم على الصاحب، قدم إليه نجاح بن سلمة، ناظر خزانة كتبه، ثلاثين مجلدة من رسائله، وقال: يقول لك مولانا: انسخ هذا، فإنه قد طلب منه بخراسان. فارتاع التوحيدي، وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال".

وهذا الخبر ربما يحمل بصمات من المبالغة، وإن العدد (ثلاثين مجلدة) أيضاً ربما لا يكون دقيقا في دلالته على مجموع رسائل الصاحب، إلا أن الخبر يحمل في تضاعيفه ما يومئ إلى أن (ديوان رسائل) الصاحب كان من ضخامة الحجم، بحيث يصعب نسخه على وراق محترف النسخ والوراقة كأبي حيان ...

ومن هنا نصل إلى قناعة تامة بأن (ديوان رسائل الصاحب بن عباد) الذي بأيدينا الان، هو لا يمثل إلا جزءاً ضئيلا من طيف تلك الرسائل البليغة، وإن الجزء الأعظم منها قد ضاع وفقد، ولم يصل إلينا.

وقد دللت بعض تلك الإشارات المهمة التي أوردها مصنفو كتب التراجم والأدب والعلوم على وجود مكاتبات ورسائل مهمة، تم تبادلها بين بعض الأمراء أو رؤساء الممالك الإسلامية المستقلة، ممن عني بالعلوم والآداب وتشجيع روادها، وبين بعض العلماء والمفكرين، من ذلك مثلا، ما أورده القفطي في ترجمته للفيلسوف محمد بن طاهر بن بهرام) المعروف بأبي سليمان السجستاني المنطقي، وما كان بينه

---

(١) يتيمة الدهر: ٤٥٥/٤.

(٢) معجم الأدباء ٣٩٦/٥، وينظر أيضا: النثر الفني في القرن الرابع ١٦٢/٢.

وبين الأمير عضد الدولة البويهي (٣٦٧هـ - ٣٧٢هـ) من رسائل ومجاوبات، إذ قال[١]:

"وكان منزله مقيلا لاهل العلوم القديمة، وله أخبار وحكايات وسؤالات واجوبة في هذا الشأن. وكان عضد الدولة، فناخسرو شاهنشاه، يكرمه ويفخمه، وله كتب صنفها منها: رسالة في مراتب قوى الإنسان، ورسائل إلى عضد الدولة عدة في فنون مختلفة من الحكمة ...".

ومن تلك المكاتبات التي دارت بين بعض أمراء الممالك الإسلامية وبعض علماء المسلمين أيضاً، ما أورده أبو حيان[٢]، من مكاتبات بين (الأمير الحميد)، نوح بن نصر الساماني - وكان من أدباء ملوك آل سامان - ووزيره البلعمي، وبين أبي سعيد السيرافي، سنة أربعين وثلاثمائة للهجرة، إذ كتب إليه كتابا سأله فيه عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة، الغالب عليها الحروف، وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب شك فيها، فسأل عنها، وكان هذا الكتاب مقرونا بكتاب الوزير البلعمي، ضمنه أيضاً مسائل في القرآن، وأمثالا للعرب مشكلة.

ونظير هذا أيضاً، ما كتب به إليه (أبو جعفر) - ملك سجستان - على يد أبي سليمان المنطقي، سأله فيه عن سبعين مسألة في القرآن، ومائة كلمة في العربية، وثلاثمائة بيت من الشعر، وأربعين مسألة في الأحكام، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين[٣].

ويقرب من هذا الضرب من المكاتبات أيضاً، ما كتبه أبو بكر الباقلاني إلى ملك الروم - وقد ندبه الأمير عضد الدولة البويهي عنه في جواب رسالة إليه[٤].

وقد أشارت بعض تلك الأخبار التي نستشف منها على ضياع مكاتبات مهمة في هذا القرن، إلى وجود مراسلات أو إنشاء رسائل مهمة بين العلماء والمفكرين والأدباء مع بعضهم، في موضوعات كثيرة متنوعة مختلفة، من ذلك مثلا، ما أشار إليه القفطي

---

(١) أخبار العلماء باخباء الحكماء: ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) الامتاع والمؤانسة ١/١٢٩ - ١٣٠.

(٣) المصدر نفسه ١/١٣٠. وقد أشار أبو حيان عقب إيراد تلك النصوص: إلى أن الوزير - يعني ابن العارض - سأله عن تلك الرسائل، "قال لي الوزير: وهذه المسائل والجواب عنها، عندك؟ قلت: نعم، قال: في كم تقع؟ قلت: لعلها تقع في ألف وخمسمائة ورقة ...قال: ما احوجنا إلى النظر فيها، والاستمتاع بها، والاستفادة منها".

(٤) ينظر: كنوز الاجداد ٢٠٨.

من تدبيج أبي اسحاق الصابي لرسائل عديدة إلى بعض اهل العلم، إذ قال[١]:

"وله مصنف رأيته بخطه في المثلثات، وله عدة رسائل في اجوبة مخاطبات لأهل العلم بهذا النوع".

ونظير ذلك أيضاً ما دار من مراسلات بين أبي الريحان البيروني والحكيم أبي علي ابن سينا، وقد كانت حصيلة هذه المكاتبات أن ألف البيروني كتابه الشهير " الآثار الباقية عن القرون الخالية[٢]"، الذي اهداه فيما بعد للأمير الزياري شمس المعالي قابوس بن وشمكير.

ولعل أشهر هذا الضرب من الرسائل التي انطوت على تلك الأسئلة العلمية والأدبية والرسائل الجوابية عنها في هذا القرن، ما دار بين الأديبين المفكرين أبي حيان التوحيدي، وأبي علي ابن مسكويه من أسئلة متنوعة وجهها أبو حيان، واجوبة موجزة شافية، أجاب عنها ابن مسكويه، وقد جمعت في كتاب " الهوامل والشوامل[٣]".

أسباب ضياع الرسائل في القرن الرابع:

لقد تضافرت عوامل عديدة ادت إلى ضياع كثير من المكاتبات والرسائل الأدبية والديوانية في هذا القرن. ولعل أبرز تلك العوامل والأسباب ما ياتي:

١ - الصراع السياسي والفكري بين حكام الامارات والممالك المستقلة:

لقد اشتد التنافس بين رؤساء الأمارات والممالك المستقلة إبان هذا القرن، نتيجة لاتساع هوة الخلافات السياسية والفكرية بينهم، على اجتذاب العلماء والأدباء، وبخاصة جهابذة الكتاب وبلغائهم، إلى حواضرهم، لازدياد الحاجة إليهم، ولبناء قاعدة

---

(١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٥٤.

(٢) ينظر: كنوز الاجداد ٢٣٩ - ٢٤٠، ويراجع أيضا: تتمة صوان الحكمة: ٦٢ - ٦٥.

(٣) كتاب " الهوامل والشوامل " كتاب يتضمن مسائلات ومجاوبات بين الاديبين المفكرين أبي حيان التوحيدي، وأبي علي ابن مسكويه، وهي أسئلة (مبعثرة) صاغها أبو حيان - وهي الهوامل - وبعثها إلى ابن مسكويه يطلب إجابات عنها، والإجابات هي - الشوامل - وقد بلغ عدد هذه المسائل (١٧٥) مسألة، وموضوعات هذه الأسئلة وأجوبتها تتناول القضايا العقلية التي كانت شائعة في هذا القرن، وأهمها: العدالة الاجتماعية، والعادات، والفلسفة، والفقه وقضايا لغوية وجغرافية وغيرها. وقد نشر هذا الكتاب وطبع في القاهرة بتحقيق الأستاذين أحمد امين، وأحمد صقر وطبع بإشراف لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ممالكهم الجديدة.

ذكر الثعالبي، مؤكدا حاجة هؤلاء الحكام المتنافسين على اصطناع الكتاب بخاصة، واجتذابهم، ووجوه ذلك وأسبابه، قال(١):

"إن الكتاب، وهم السنة الملوك، انما يتراسلون في جباية خراج، أو سد ثغر أو عمارة بلاد، أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة، أو دعاء إلى إلفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنية بعطيّة، أو تعزية برزية، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعاظم الشؤون... وقد وسمتهم خدمة الملوك بشرفها، وبوأتهم منازل رياستها.... "

ولعل هذا ما يفسر لنا سمو مكانة الكتاب البلغاء، وتعاظم منزلتهم لدى الأمراء ورؤساء الممالك المستقلة وغيرهم في هذا القرن.

ولقد ادى هذا التنافس بين أولئك الحكام على اجتذابهم وإكرامهم والإغداق عليهم - فضلا عن إدراك الكتاب النابهين لخطورة موقعهم - إلى حرص كثير من الكتاب البلغاء وتزاحمهم في هذا العصر، على خدمتهم، وانتجاع حواضرهم، لنيل الحظوة لديهم، وفجر بينهم التنافس أو الصراع أيضاً، لبلوغ اعلى المراتب، وتبوؤ اسنى المناصب، وقد تجلى تأثير هذا الصراع - الذي هو نبض الإبداع، ومنطلق الإلهام والتجديد - واضحا في تلك الخصومات التي استعر لظاها بين كثير من أولئك الأدباء والكتاب في هذا القرن(٢)، وهو ما سنقف عند تحليل بعض جوانبه في الصفحات الآتية...

ونتيجة لهذا الدور الخطير الذي بدأ كثير من أولئك الأدباء الكتاب يتبوأه في تنظيم أمور الملك، وتدبير شؤون الإدارة، وما اضطلع به بعضهم أيضاً - كالوزير أبي محمد المهلبي، وأبي الفضل ابن العميد، وأبي القاسم الصاحب بن عباد، وأبي القاسم الإسكافي وغيرهم - في قيادة الجيوش، وخوض المعارك، فضلا عما كانوا يحبرونه من تلك الرسائل البليغة، والعهود السياسية الخطيرة التي كانت تغني كثيرا عن الكتائب المجحفلة في عرك اديم الجموح فيثني، أو ترده عن شق عصا الطاعة فيعنق(٣)، نتيجة

---

(١) نثر النظم وحل العقد: ٦.

(٢) ينظر: مقدمة زهر الآداب وثمر الألباب - د. زكي مبارك ١/ ٣٠ - ٣١.

(٣) لعل ادل شاهد على هذا الجانب: رسالة أبي الفضل ابن العميد التي كتبها إلى ابن بلكا، عند =

لكل هذا، فقد كان أولئك الأدباء الكتاب - وبسبب تقلب ظروف السياسة، أو تبدل الأهواء السياسية - عرضة للمحن والخطوب، أو الحبس والأسر والقتل[١]، وكان نتاجهم الأدبي تبعا لذلك - ولا سيما ما صدر عنهم من تلك الرسائل البليغة، والوثائق الخطيرة - هدفا للحرق والطمس والضياع.

ولعل هذا التنافس أو الصراع السياسي العنيف الذي احتدم بين الامارات والممالك المستقلة في هذا القرن: هو أحد أهم الأسباب التي تفسر لنا ضياع كثير من الرسائل الأدبية والديوانية، وضياع العديد من المصنفات المشهورة التي ضمت في ثناياها كثيرا من المكاتبات المختلفة، والأخبار المهمة التي تتصل بسير أعلام الكتاب في هذا القرن:

أ - **ضياع كثير من رسائل أبي بكر الخوارزمي**، فضلا عن ضياع ديوان شعره، وكثير من قصائد عديدة قالها في الحقبة التي اتصل فيها بالإمارة الحمدانية والأمير سيف الدولة، وقد أشار الثعالبي إلى عدم وصول رسائله التي كتبها في تلك الحقبة، وربما ضاعت[٢]، وربما كان انقطاع الخوارزمي - فيما بعد - إلى البويهيين، قد اسهم أيضاً في طمس معالم نتاجه الأدبي الذي صدر عنه في مديح آل حمدان، والثناء عليهم.

ب - **وصول اجزاء من رسائل إخوانية لأبي إسحاق الصابي** فقدت اصولها.

استعصائه على ركن الدولة البويهي، فقد ذكر الثعالبي عن ابن بلكا نفسه أنه كان يقول - بعد أن بلغته تلك الرسالة - " والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار الأستاذ الرئيس ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك اديمي واستصلاحي، وردي إلى طاعة صاحبه " (يتيمة الدهر ١٩٥/٣).

(١) يراجع تراجم الكتاب وتفاصيل ما حصل لهم: (الوزير المهلبي وما حصل له بعد وفاته من مصادرة معز الدولة لأمواله وضياعه! وكذا ما حدث للصاحب بعد وفاته! وتراجع نهاية أبي الفتح ابن العميد ونكبته، وما وقع للإسكافي وحكاية اسره، وكذا خبر الصابي مع عضد الدولة ومحنته وحبسه ومصادرة أمواله، وكذا ما تعرض له الخوارزمي من حبس ومطاردة، ومصادرة امواله وضياعه، وغيرهم كثير ...

(٢) ينظر كتاب: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٨٢، تاريخ بروكلمان ١١١/٢، حيث اكد أيضا ضياع شعر الخوارزمي فقال: "ولم يبق لنا من شعر الخوارزمي إلا نماذج رواها صاحب اليتيمة".

وقد أشار أحد الباحثين[١]، إلى وجود قطع نثرية قليلة من نثر الصابي مبثوثة في المصادر، وهي تتناول في الأكثر غرضي الحكمة والوصف، وهي اجزاء منفصمة عن رسائل إخوانية فقدت أصولها، وأرى أن هذه الأصول المفقودة ربما كانت مما لا تتفق مع أهواء السياسة ولا سيما أن الصابي كان من المقربين إلى الأمير (عز الدولة بختيار) الذي قتل على يدي ابن عمه (عضد الدولة) بعد الحرب الطاحنة بينهما عام ٣٦٧ هـ.

جـ - ضياع عدد كبير من المصنفات المهمة لكتاب ومفكرين في هذا القرن: كانوا على صلة وثيقة بأمراء وحكام تلك الامارات والممالك المستقلة، وربما كان ضياع تلك المصنفات مرتبطا بالصراع السياسي والفكري بين تلك الممالك الإسلامية المتنازعة، إذ كان بعضها تسجيلا لمآثر بعض الحكام، وتمجيدا لأسرهم وتأريخهم ...

ومن تلك المصنفات المهمة المفقودة:

- **كتاب (التاجي) في أخبار الدولة الديلمية:** لأبي اسحاق الصابي، وقد الفه استجابة لطلب الأمير عضد الدولة، يقول الثعالبي[٢]:

"فاشتغل في منزله به، واخذ يتأنق في تصنيفه وترصيفه، وينفق من روحه على تقريظه وتشنيفه ..."

وقد نقل الثعالبي في كتابه اليتيمة فصولا عديدة منه في مواضع متفرقة.

- **كتاب (الروزنامجة): للصاحب بن عباد،** وهو اقرب إلى أدب المذكرات، وقد كتبه إلى أستاذه أبي الفضل ابن العميد يصف له فيه حاضرة الخلافة بغداد، عند زيارته لها ووصف ما يتعلق بملح الوزير المهلبي ومجالسه، وقد نقل الثعالبي في اليتيمة أيضاً نقولاً طريفة من هذا الكتاب[٣].

- **ضياع كثير من المصنفات والآثار الأدبية وغيرها،** لعدد من الأدباء والمفكرين

---

(١) أبو اسحاق الصابي حياته وأدبه - مهدي صالح البدري ص ١٣١، وقد أشار التوحيدي في (المقابسات) ص٢٦١ إلى واحدة من تلك الرسائل للصابي، وذكر أنها رسالة كتبها أبو اسحاق في تفضيل النثر والنظم.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٩١/٢.

(٣) ينظر: يتيمة الدهر ٢٦٩/٢ - ٢٧٣.

في هذا القرن، ضمت آثارهم كثيرا من المكاتبات والرسائل الأدبية، وأخباراً منوعة تتصل بأعلام الكتاب، وكان ضياع تلك المصنفات يعود لأسباب عديدة(١)، إلى جانب العامل السياسي الذي اسهم كثيرا في ضياع تلك المصنفات والآثار النفيسة ...

ولعل أبرز هؤلاء الأدباء والمفكرين الذين فقدت مصنفاتهم:

١-أحمد بن يوسف (ابن الداية) الذي اشتهر بكتابه (المكافأة)(٢).

٢-أبو علي ابن مسكويه، وقد فقد كثير من مصنفاته، وما زال بعضها مخطوطا لم ينشر بعد(٣).

٣-أبو الريحان البيروني(٤).

٤-أبو علي ابن سينا(٥).

٥-أبو الفرج ابن هندو(٦)، وغيرهم.

وهكذا كان لهذا الصراع السياسي والفكري بين أمراء وحكام الممالك المستقلة، والتنافس بينهم على اجتذاب العلماء والأدباء آثاره الايجابية في ازدهار الحركة الأدبية والثقافية، وكان أيضاً مصدر الهام وابداع للأدباء في هذا القرن - وهذا امر لا شك فيه - إلا أنه كان له، من جانب اخر، آثاره السلبية، واضراره الواضحة على الأدب أيضاً! وهذا ما تجلى في ضياع كثير من نتاج أولئك الأدباء - وبخاصة جهابذة الكتاب -

---

(١) ينظر: تاريخ الأدب في إيران - ادوارد براون ١٣٢/٢ - ١٣٣، حيث أشار إلى طائفة من المصنفات لكتاب فرس الفوا بالفارسية، فضلا عن ضياع جملة من كتب في التواريخ المحلية التي الفت بالفارسية، وبقيت ترجماتها العربية فقط.

(٢) ينظر: كنوز الاجداد ص١٣٤، وقد أشار محمد كرد علي إلى عدم شهرة ابن الداية، وضياع أكثر نتاجه الأدبي قال: "وكيف تتأتى الشهرة لأحمد بن يوسف في دولة ضعيفة لم تعترف بها دولة الخلافة، وتعدها خارجة عليها؟".

(٣) ينظر: معالم الحضارة الإسلامية: ص ٢٠٦ - ٢٠٧، حيث أشار الأستاذ مصطفى الشكعة إلى أن لمسكويه عددا من المصنفات المخطوطة تقدر بخمس عشرة مخطوطة، فضلا عن تسعة عشر كتابا مفقودا.

(٤) ينظر: براون ١٢١/٢، حيث أشار إلى أنه ألف مصنفات كثيرة زادت على حمل بعير، وهي في النجوم والرياضيات والمنطق والحكمة والتاريخ وغيرها.

(٥) يراجع عن ضياع مصنفاته ما ذكره ابن الأثير / الكانل في التاريخ (أحداث سنة ٤٢٨هـ)، تاريخ الأدب في إيران ١٢١/٢ - ١٢٢، وتتمة صوان الحكمة ٦٢ - ٦٤.

(٦) ينظر: تتمة صوان الحكمة ٨٥ - ٨٨، حيث أشار إلى طائفة من مصنفاته المفقودة.

وطمس معالم الكثير من شذرات رسائلهم، ولا سيما تلك التي لا تتفق منها مع الأهواء الخاصة، والمطامح الذاتية.

ومن جانب اخر، فقد كان هذا الصراع السياسي دافعا قويا للتزييف، ونحل الأدب - كما سنفصل هذا الامر في المبحث الثاني من هذا الفصل - ومجانبة الحقيقة، فلقد انطق ذلك الصراع السياسي والفكري بعض الأدباء الكتاب بغير الحقيقة، حين راح يكتب على لسان خصمه السياسي، أو ينطقه بما لم يصدر عن سن قلمه ...

ولعل ما شهر عن أبي حيان التوحيدي في هذا الجانب، وما سجّله في بعض كتبه كمثالب الوزيرين، والامتاع والمؤانسة وغيرهما عن أبي الفضل ابن العميد والصاحب ابن عباد، شائع ومعروف، ولا يحتاج إلى تفصيل أو إثبات ...

وهكذا كان هذا الصراع، والتنافس بين الأمراء والوزراء من جانب، وبين الكتاب والأدباء والعلماء من جانب اخر، سببا مهما فيما اصاب الأدب - ولا سيما الرسائل الأدبية - من ضياع وتشويه وتزييف، على الرغم مما حققه من نهضة الأدب، وازدهار الكتابة، وظهور أعظم أعلامها، وابلغ روادها في هذا القرن ...

٢ - كثرة الوقائع العسكرية والحروب الطاحنة:

من الاسباب المهمة التي عملت على ضياع كثير من تراث الحضارة الإسلامية وبخاصة الوثائق والمكاتبات السلطانية، والرسائل الأدبية، فضلا عن المخطوطات النادرة والمصادر المهمة وغيرها، لأدباء هذا القرن، كثرة الوقائع العسكرية المبيرة، والحروب الطاحنة التي شهدها هذا القرن المضطرب.

وقد كان طبيعيا أن يرافق ذلك الصراع السياسي والفكري العنيف الذي استعر لهيبه بين أمراء وحكام الممالك الإسلامية المستقلة، أو يتمخض عنه، الكثير من الوقائع والحروب التي كان لها آثارها السيئة على جميع مفاصل الحياة العامة، وشرائح المجتمعات الإسلامية المختلفة ...

لقد بدأت صفحات تلك الحروب منذ ظهور بعض الامارات التي اخذت تستقل عن سلطة الخلافة المركزية في مطلع القرن الثالث للهجرة، ثم طفقت تلك الحروب تتسع جنباتها في نهاية هذا القرن بين السامانيين وخصومهم من الزياريين وغيرهم[١].

(١) ينظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (مواضع متفرقة لأحداث السنوات المذكورة، تاريخ إيران: ٥٤).

ولقد اتسع نطاق تلك الوقائع والحروب العنيفة، في هذا القرن، ولا سيما بعد سيطرة الأمراء البويهيين على حاضرة الخلافة بغداد، فبدأ الصراع بينهم وبين خصومهم من السامانيين والزياريين والحمدانيين وغيرهم[١]، وقد بلغ ذلك الصراع العسكري اوجه على عهد الأمير البويهي عضد الدولة (ت ٣٧٢ هـ)، إذ امتد ليشمل الالتحام مع جميع خصومه السياسيين، والقضاء عليهم، بما في ذلك صراعه مع ابناء البيت البويهي نفسه[٢].

وتتعمق تلك الحروب في اواخر هذا القرن، باتساع نفوذ الغزنويين، وصراعهم المتواصل مع خصومهم السياسيين، ومد نفوذهم وسيطرتهم على ارجاء واسعة من أقاليم الشرق، حتى شملت أقاليم الهند وافغانستان وتركستان[٣].

وكانت غزوات السلطان محمود بن سيكتكين - ولا سيما لبلاد الهند - مستمرة ومتواصلة، فضلا عن مد سيطرته على أكثر أقاليم خصومه من السامانيين والبويهيين، وإمارة خوارزم، وغيرها من الامارات الإسلامية الصغيرة المجاورة لحاضرته غزنة[٤].

وقد امتدت هذه الوقائع والحروب الطاحنة إلى ما بعد القرن الرابع الذي شهد ظهور السلاجقة، وتصاعد حروبهم العنيفة مع الغزنويين والبويهيين، ومن تبقى من فلول خصومهم السياسيين[٥].

ونتيجة لامتداد هذا الصراع السياسي والعسكري، وتواصل تلك الحروب العنيفة طيلة هذا القرن، فقد كان أكثر أولئك الأدباء الكتاب عرضة للمحن، وويلات الحروب،

---

(١) ينظر: تجارب الامم ج٥، (مواضع متفرقة)، تاريخ أبي الفداء ج١/مواضع متفرقة (أحداث السنوات المذكورة)

(٢) تراجع حروب عضد الدولة مع الأمير عز الدولة بختيار (أحداث سنة ٣٦٧هـ) في: الكامل في التاريخ، تجارب الامم، تاريخ أبي الفداء، وتراجع حروبه أيضا مع اخيه فخر الدولة الذي تحالف مع الأمير الزياري قابوس: (تجارب الامم، تاريخ أبي الفداء)، وينظر أيضا: ما دار من حروب وصراع عسكري بين (قوام الدولة أبو الفوارس بن بهاء الدولة)، وبين ابن اخيه (أبو كاليجار) بن سلطان الدولة، وتغلب الاخير على عمه بعد حروب مريرة، واستيلائه على شيراز، واستقراره بها. (ينظر بايجاز: تاريخ أبي الفداء ١/٥٠٦).

(٣) يراجع: التاريخ اليميني - العتبي ج٢ (مواضع متفرقة)، تاريخ أبي الفداء ج١ /أحداث السنوات المذكورة، الكامل في التاريخ ج٩/مواضع متفرقة لأحداث السنوات.

(٤) ينظر بايجاز: تاريخ أبي الفداء ج١ /حوادث السنوات المذكورة.

(٥) تراجع التفاصيل في: التاريخ اليميني ج٢، تاريخ أبي الفداء ج١، تاريخ إيران: ٧٦.

لا سيما إذا ما تعرضت امارتهم لصروف الدهر ومحنه، أو تمكن منهم اعداؤهم، أو تعرض سيدهم وولي نعمتهم للهزيمة أو العزل، أو وقع تحت انياب الردى في سوح الوغى ...

وكثيرا ما كان يتعرض نتاجهم الأدبي أيضاً، وبخاصة طوامير الكتب الرسمية، ورسائلهم وعهودهم السياسية التي كانت بمثابة الوثائق أو الصحائف النفيسة التي تحوي أخبار أولئك الأمراء والحكام، وتسجل محاسنهم وانتصاراتهم، وتوثق أخبارهم، كثيرا ما كان يتعرض للضياع أو الطمس والتلف أو الحرق، فويل للمغلوب من الغالب! فكم من رسائل فنية محبرة خطتها انامل مبدعة قد طويت وطمست، وكم من وثائق أدبية اتلفت واحرقت، ذلك لأنه يشق على الخصوم السياسيين - وقد حققوا الظفر على خصومهم - نشر تلك الصحائف أو الرسائل التي تؤرخ الانتصارات، وتسجل الامجاد، وتخلد ذكر القادة والأمراء الذين كانوا امس - قبل أن تحل بهم المحن، ونكبات الدهر - رموزا شامخة، وشموسا ساطعة، ومن هنا، فقد عمد الغالب المنتصر على طمس كل معالم خصمه السياسي المغلوب، كي لا يكون بثها دعاية له، وبقاؤها سجلا لمآثره، إذ أن " أبغض ما يكون إلى المنافس الإشدة بفضائل منافسه "[(١)].

وهكذا كانت تلك الحروب الداخلية الطاحنة، والوقائع العسكرية الخارجية على الثغور الإسلامية النائية، وغيرها، والغزو الأجنبي وغيره الذي تعرضت له أقاليم المشرق الإسلامي في هذا القرن - لا سيما تلك الغارات المبيرة التي شنها على بلاد إيران المغول والغز وغيرهم - كان كل ذلك سببا مهما في ضياع كثير من الرسائل الأدبية والديوانية، فضلا عن ضياع كثير من المصنفات والآثار الأدبية[(٢)] التي كتبت باللغتين العربية والفارسية، وربما كان ما سلم من الضياع من تلك المصنفات والآثار الأدبية، هو اقل بكثير مما ضاع، أو طمس واحرق من ذلك التراث الإسلامي النفيس.

---

(١) كنوز الاجداد ص١٣٣.

(٢) أشار الأستاذ (ادوارد براون) في كتابه: (تاريخ الأدب في إيران ١٣١/٢ وما بعدها، إلى ضياع كثير من المصنفات والآثار الأدبية وغيرها، ولا سيما ما ألف منها على عهد الإمارة السامانية والزيارية والطاهرية باللغتين الفارسية والعربية، ومن ضمنها مجموعة من كتب التاريخ المحلية التي كتبت بالفارسية، ومن المصادر المهمة التي سلمت من الضياع: كتاب (جهار مقالة) للنظامي السمرقندي العروضي، ويراجع مقدمة مترجم هذا الكتاب - العلامة القزويني - وما أشار به إلى هذا الجانب التوثيقي الخطير.

ويمكن أن نستدل من بعض الأخبار التي أوردتها بعض مصنفات التراجم ومظان الأدب والتاريخ على ضياع الكثير من المكاتبات والرسائل الأدبية، ومصادر التراث العربي والفارسي النادرة:

أ-ذكر ياقوت الحموي[١]: إن السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي، لما ورد الري، استخرج من بيت كتب الصاحب بن عباد كل ما كان في علم الكلام، وامر بحرقه، وقد اكد (أبو الفداء[٢]) في أحداث عام ٤٢٠هـ إن يمين الدولة محمود الغزنوي استولى على الري، وقبض على مجد الدولة بن فخر الدولة لاشتغاله عن تدبير المملكة بأمور أخرى، وشغب الجيش عليه في ذلك.

ويمكن أن يستشف الباحث مما حول هذا النص، ضياع الكثير من تراث الوزير الصاحب بن عباد الأدبي والفكري، ولا سيما رسائله وعهوده السياسية، فضلا عن الكثير من الكتب النفيسة التي تتعلق بالفلسفة وعلم الكلام، وما إلى ذلك.

ب-ذكر المستشرق (ادوارد براون[٣]) - في معرض تأكيده على ضياع الكثير من تراث أبي علي ابن سينا (ت ٤٢٩هـ) - إن كتب ابن سينا كانت من بين الأسلاب التي حملها الجيش الغزنوي إلى مدينة غزنة، حين اصابت الهزيمة علاء الدين بن كاكوية البويهي، وقد حفظوها في مكتباتها، حتى احرقت المدينة - غزنة - جيوش الملك (حسين الغوري) الذي لقب بـ (جهان سور)، أي محرق الدنيا.

وقد أكد ابن الأثير[٤] في نهاية حوادث عام (٤٢٨هـ) إن (علاء الدولة) كان متهما في دينه. ومن أجل ذلك فقد التحق (ابن سينا) بخدمته حتى يستطيع أن يكمل مؤلفاته المليئة بالالحاد، دون أن يصيبه شيء من الاذى.

ويمكن أن نستدل من فحوى الخبر الذي أورده ابن الأثير - على الرغم من عدم قناعتنا بصحة ما زعمه عن إلحاد أبي علي ابن سينا - على غزارة تآليف ابن سينا في الحقبة التي سبقت وفاته عام ٤٢٩هـ، أثناء إقامته في كنف الوالي علاء الدولة البويهي،

---

(١) معجم الأدباء ٢/٣١٥، وينظر أيضا: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/٣٢٦.

(٢) تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر) أحداث عام ٤٢٠هـ، ١/٥٠٨.

(٣) تاريخ الأدب في إيران ٢/١٢٣ وما بعدها، وينظر: تتمة صوان الحكمة: ٣٨ وما بعدها.

(٤) الكامل في التاريخ. (أحداث عام ٤٢٨هـ).

وتسنمه اسنى المناصب لديه.

٣ - ضياع نتاج بعض الأدباء ومصنفاتهم لخمول ذكرهم وعدم تدوين ثمار افكارهم:

ومن الاسباب المهمة التي عملت على ضياع الكثير من النتاج الأدبي والفكري أو المصنفات التي تحوي في ثناياها فصوصا نادرة من المكاتبات، وفصول الرسائل، لعدد غير قليل من الأدباء والمفكرين في هذا القرن، خمول ذكرهم، لانصراف المدونين ومصنفي كتب التراجم، ومؤرخي الأدب عن تدوين مصنفاتهم ونتاجهم الأدبي أو الفكري على الرغم مما عرف به بعضهم من كثرة التاليف وغزارة الإنتاج، إذ أن عددا من هؤلاء الأدباء الكتاب والمفكرين، قضوا الشطر الأكبر من حياتهم يجوبون الافاق، ويضربون في آفاق الأرض، وينتقلون بين الحواضر الإسلامية النائية، بينما اطال بعضهم المكوث والاستقرار في ممالك نائية أو في إمارات ضعيفة لم تستطيع البقاء طويلاً إزاء الممالك القوية المجاورة، ولم تستطع أيضاً صد الأطماع الخارجية، وغزو الأمراء أو الحكام الاقوياء الذين كانوا يطمحون دوما لتوسيع دائرة ملكهم على حساب الأمارات الضعيفة المجاورة، والتي لم تكتسب شرعية البقاء، كالأمارة الطولونية مثلا ...

أ - اتصال الأدباء الكتاب بامارات وممالك نائية أو ضعيفة:

وهكذا كان عكوف بعض العلماء أو الأدباء الكتاب في أقاليم نائية، بعيدا عن متناول المدونين ونقاد الأدب ومؤرخيه، عاملا مهما لعدم شهرة بعض أولئك الأدباء، وقلة ما وصل إلينا من نتاجهم، أو ضياع جل آثارهم احيانا.

فصلة أبي الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ) مثلا، بأمراء خوارزم، وانقطاعه إليهم في ريعان عمره، وهي إمارة نائية وضعيفة، ثم انتقاله إلى (طبرستان) ومكوثه في كنف الأمير قابوس بن وشمكير الزياري، وهي أيضاً إمارة نائية ووعرة، فضلا عن أنها لم تستطع الصمود بوجه الخصوم السياسيين في هذا القرن، كل ذلك أسهم في ضياع الكثير من نتاج هذا الأديب المفكر، وفضلا عن ذلك، فإن مكوث البيروني في بلاد الهند[1]، بعد فتحها على يدي السلطان محمود الغزنوي الذي تحول إلى خدمته -

---

(١) أشار الباحث محمد كرد علي إلى أن البيروني سافر إلى بلاد الهند اربعين سنة، وزادت تصانيفه على حمل بعير وهي في النجوم والرياضيات والمنطق والحكمة وغيرها، وقد طبع العلماء =

وانقطاعه هناك للعلم والتأليف، ردحا طويلا من الزمن، بلغ عدة عقود من السنين، قد ابعده عن اهتمام المصنفين، ومؤرخي الأدب المسلمين، مما ادى إلى خمول ذكره وضياع أكثر مصنفاته، على الرغم من شهرته وما عرف عنه من كثرة التأليف، وميله الكبير إلى تصنيف الكتب.

يقول الباحث محمد كرد علي[١]:

"... وكان مكبا على تحصيل العلوم، منصبا إلى تصنيف الكتب ... ومن تصفح كتاب الهند والآثار الباقية، يدرك مكانة هذا العالم الذي لم يترجم له مترجموه بما يستحقه من التوسع".

والاديب الكاتب أحمد بن يوسف المعروف (بابن الداية) هو الاخر، وعلى كثرة فضائله، واتساعه في أدبه[٢]، ونضجه في علمه، لم يشتهر الشهرة التي هو قمينٌ بها، وقد عزا الأستاذ محمد كرد علي خمول ذكره، وضياع آثاره إلى صلته الوثيقة بالأمراء الطولونيين. يقول[٣]:

" وكيف تتأتى الشهرة لأحمد بن يوسف في دولة ضعيفة لم تعترف بها دولة الخلافة، وتعدها خارجة عليها؟ "

وهكذا كان لنكبة الطولونيين[٤]، وزوال ملكهم عام ٢٩٢هـ، على يدي العباسيين، صلة كبيرة ووثيقة بضياع نتاج هذا الأديب الكاتب، وما من شك في أن العامل السياسي - كما المحنا إلى ذلك آنفا - يقف في المصاف الأول بين أسباب خمول هذا الأديب، وضياع أكثر آثاره، ونتاجه الأدبي.

وهكذا يقال أيضاً عن الأديب الكاتب الشاعر أبي الفتح البستي[٥]، وخمول

=

الالمان ثلاثة منها. تراجع التفاصيل في: كنوز الاجداد: ٢٣٨ - ٢٤٠.

(١) كنوز الاجداد ص١٣٩ - ١٤٠.

(٢) كتب ابن الداية سيرة أحمد بن طولون، وسيرة ابنه (خمارويه)، وسيرة هارون بن خمارويه وغيرها، ومن تصانيفه أيضا: أخبار الأطباء، وأخبار المنجمين، ومختصر المنطق - وقد الفه للوزير علي بن عيسى - وله شرح كتاب (الثمرة) لبطليموس وقد فقدت جميع هذه المصنفات والسير، ولم يصلنا من نتاجه إلا كتاب(المكافأة) وهو متداول.

(٣) كنوز الاجداد ص ١٣٤.

(٤) يراجع مروج الذهب (أحداث عام ٢٩٢هـ، تاريخ أبي الفداء أحداث عام ٢٩٢هـ).

(٥) تراجع ترجمته وأخباره في يتيمة الدهر ٤/٣٤٥ وما بعدها.

ذكره، وضياع أكثر رسائله وعهوده السلطانية وغيرها، بسبب إقامته الدائمة في أقاليم نائية (تركستان)، وانقطاعه لخدمة (الباتيور)، ثم انقطاعه لخدمة الغزنويين، وما انتهى إليه مصيره البائس من نبذه في بلاد الترك، وموته منفيا هناك.

ب - كثرة ترحال الأدباء الكتاب بين الممالك الإسلامية وعدم استقرارهم:

سبقت الإشارة إلى أن كثيرا من أولئك الأدباء الكتاب وغيرهم، امضوا حياتهم منذ ريعان عمرهم، يجوبون الآفاق، وما أن يحطوا عصا ترحالهم في حاضرة إسلامية حتى يغذوا السير إلى ربوع حاضرة أخرى، دفعا للأذى، وتجنبا لحسد الحساد[١]، ونكالهم، أو لجفوة تقع لبعضهم مع هذا الأمير أو ذاك، أو لغير ذلك من اسباب ...

وقد كان هذا الأمر - على الرغم من آثاره الايجابية على الأدب والثقافة - سببا في خمول ذكر بعض الأدباء، وضياع كثير من رسائلهم أو نتاجهم الأدبي، فضلا عن تعرض بعضهم للمحن، ونكبات الزمن وصروفه.

ولعل ما يمكن أن نتمثل به على ذلك، ضياع أكثر نتاج الحكيم الفيلسوف ابن سينا وأبي الفرج ابن هندو وغيرهما ...

فالحكيم ابن سينا مثلا، قد تشتت أكثر نتاجه الفكري والأدبي، وسقط من يد الزمن ولم يصل إلينا من ركام تصانيفه، التي أوصلها بروكلمان إلى أكثر من مائة مصنف ورسالة، إلا نزر يسير، وذلك لانتجاعه كثيرا من حواضر الأمراء في اواخر هذا القرن والربع الأول من القرن الذي تلاه، وتطوافه في كثير من أقاليم المشرق الإسلامي[٢].

وهكذا يمكن أن يقال عن خمول ذكر الأديب أبي الفرج ابن هندو، وضياع آثاره الأدبية ومصنفاته الغزيرة التي شملت علوما عديدة[٣]، فقد اشتهر ابن هندو بكثرة تطوافه بين حواضر الممالك الإسلامية، وعمله في خدمة أكثر من أمير أو حاكم في هذا

(١) يراجع ما ذكره الثعالبي في ترجمته لأبي الفتح البستي (اليتيمة ٣٤٦/٤ - ٣٤٧)، واستئذانه للأمير سبكتكين للاعتزال إلى بعض اطراف مملكته - ناحية الرخج - اتقاء من التهمة، ومن كيد الحساد.

(٢) تراجع التفاصيل في: تاريخ الأدب في إيران - ادوارد براون ١١٢/٢ - ١١٣.

(٣) تراجع التفاصيل في: كنوز الأجداد، ص٢١٣.

القرن[١].

وفضلا عما تقدم، فإن ضياع بعض مكاتبات الأدباء الكتاب في هذا القرن، كان بسبب خمول ذكرهم، لأنهم في ريعان عمرهم، ولم تطبق شهرتهم الآفاق بعد، ولعل هذا ما يفسر لنا ضياع كثير من رسائل أبي الفرج الببغاء، فضلا عن ضياع شعره الرقيق، لا سيما في لا مستهل حياته الأدبية أثناء إقامته في بلاط الأمير سيف الدولة[٢].

وقد تقدمت الإشارة إلى ما ذكره الثعالبي عن ضياع رسائل الخوارزمي[٣]، أثناء اتصاله بالحمدانيين أيضاً، وما ذكره عن ضياع شعره في مديحه، وضياع رسائله التي كتبها في تلك الحقبة، وقد يكون خمول ذكره لأنه في ريعان عمره، فضلا عن العامل السياسي الذي ربما كان سببا مهما في ضياع آثاره الأدبية آنذاك.

---

(١) تراجع ترجمته في يتيمة الدهر ٣/٤٥٩ وما بعدها.

(٢) يراجع ما فصله د. زكي مبارك في خمول ذكر الببغاء، وضياع نتاجه الأدبي، النثر الفني ٢/٢٩٤ - ٢٩٥.

(٣) ينظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص٨٢.

المبحث الثاني

الانتحال (الوضع الفني) والتزوير في المكاتبات والرسائل الأدبية:

شيوع ظاهرة الانتحال في الرسائل وتزوير الخطوط وأسباب ذلك:

سبق لنا آنفا الوقوف عند ظاهرة (ضياع الرسائل الأدبية والسلطانية) في هذا القرن، وقد أوجزنا القول في تحليل مظاهر هذه الظاهرة، وحللنا أهم أسبابها أو دواعيها ووقفنا على تداعيات هذه الظاهرة الخطيرة، وما لها من نتائج سيئة على الأدب، لعل أخطرها طمس الكثير من تلك النصوص الفنية والوثائق الأدبية المهمة، وعدم وصولها إلينا. ونتيجة لذلك فإننا فقدنا ثروة أدبية قيمة، يمكن أن تفيد الباحث ومؤرخ الأدب في الكشف عن مسار هذا الفن الأدبي، وتحليل الكثير من الجوانب المادية والفنية لأعلام الأدباء والكتاب، واماطة اللثام عن كثير من الحقائق التي لم تفصل فيها مظان الأدب والتاريخ، أو أسدلت الستار عليها.

وظاهرة الانتحال أو الوضع الفني، وتزوير المكاتبات أو الرقع والتوقيعات ظاهرة خطيرة أخرى، يتلمس الباحث ومؤرخ الأدب ظلالها وأوضارها في هذا القرن من خلال ما تناقلته مظان الأدب والتاريخ وكتب السير والتراجم من بعض النصوص الأدبية المضطربة، وما أوردته بعض تلك المصادر أيضاً من نصوص أو رسائل أدبية أو أخبار وروايات، يطغى عليها طابع الاختلاق أو النحل والتزييف أو التحوير، فضلا عما ورد في بعض تلك المظان القديمة[1] من إشارات أو أخبار وحكايات تنبئ بوضوح عن شيوع هذه الظاهرة، وقيام بعض الكتاب والوراقين، أو بعض الناس من أوساط العامة وغيرهم، بتزوير على الخطوط، أو تحوير في المكاتبات، أو العهود، والرقع السلطانية، وغيرها، لأسباب ودواع عديدة متباينة، سنلم بدراسة أهمها في الصفحات التالية.

وما من شك في أن ظاهرة نحل الرسائل أو اختلاقها وادعائها على لسان الغير

---

(١) يراجع ما أورده المحسن التنوخي من حكايات ونوادر طريقة، تتصل بتزوير الكتب، والخطوط على بعض الوزراء والقضاة وغيرهم ...(نشوار المحاضرة وأخبارالمذاكرة ١/٥٧ - ٥٩، ٦٤)، وغيرها، وينظر أيضاً: تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبارالبشر ١/٤٦٤) (أحداث عام ٣٧٠ هـ) وغيرها من المظان التي سنلم بها.

أو ما يعرف عند النقاد بـ (الوضع الفني)، سواء اكان ذلك على لسان امم أم اجناس قديمة أم على لسان كتاب قدامى مشهورين، لأسباب عديدة، قد تكون سياسية أو دينية أو فنية، أو لغير ذلك، لم يقتصر شيوعها على هذا القرن فحسب، وإنما عرفت قبل هذا العصر أيضاً.

فأبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) نراه مثلا قد شكك في الرسائل القديمة المنسوبة للفرس، والتي حظيت برواج واسع، وشهرة عريضة بين الناس شكك في صحتها على الرغم مما كسبته من ذيوع في الآفاق، كما شكك أيضاً في قدمها. يقول(١):

" ونحن لا نستطيع أن نعلم إن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس، إنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذ كان مثل ابن المقفع، وسهل بن هارون، وأبي عبد الله، وعبد الحميد، وغيلان، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السير.".

على أن الجاحظ نفسه لم يسلم من تهمة الانتحال أو الوضع الفني، فقد أشار المسعودي(٢) قديما إلى أن الجاحظ كان في أول أمره إذا كتب كتابا، وأراد أن يذيعه في الناس نسبه لسهل أو لزميله ابن المقفع، فيشيع الكتاب، ويحمله الناس مع الحمد والثناء.

وقد شكك بعض الباحثين المعاصرين أيضاً في بعض القصص أو الروايات التي أوردها الجاحظ في بعض كتبه ورسائله - ولا سيما كتاب البخلاء - والتي نسبها إلى شخوص ابطاله، فضلا عن بعض الرسائل التي نسبها إلى كتاب مشهورين(٣).

ولعل أشهر تلك الرسائل التي شكك فيها بعض الباحثين المعاصرين، ما ساقه الجاحظ في صدر كتاب البخلاء(٤)، وهي رسالة سهل بن هارون في الدفاع عن مذهبه في ذم الإسراف ومدح التقتير.

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران ١٣٧٤

---

(١) البيان والتبيين ٢٩/٣.

(٢) التنبيه والأشراف: ٧٦.

(٣) تراجع التفاصيل في كتاب (سهل بن هارون حياته وآثاره) -كتاب مخطوط للباحث ص٦٧-٧٥.

(٤) ينظر: كتاب البخلاء تحقيق الدكتور طه الحاجري: ص٩ وما بعدها، وأورد الرسالة أيضاً صاحب العقد الفريد ١٥٦/٦ وما بعدها، ووردت أيضاً في: نهاية الأرب للنويري: ٣١٧/٣ وما بعدها.

وعلى الرغم من عدم تشكيك النقاد ومؤرخي الأدب القدامى بصحة نسبة هذه الرسالة لسهل بن هارون الكاتب، وعلى الرغم من تأكيد بعض[١] مصنفي كتب الأدب والتراجم المتأخرين أيضاً على إثبات هذه الرسالة لسهل بن هارون، فإن بعض الباحثين المعاصرين[٢] قد أثار ظلالا من الشك في صحة نسبتها لهذا الأديب الكاتب، بينما ذهب محقق كتاب البخلاء - الدكتور طه الحاجري[٣] - إلى نفي صحة نسبه هذه الرسالة لسهل وراح يسوق ادلة علمية خارجية وداخلية، تدلل كلها على أن هذه الرسالة هي من آثار الجاحظ، وانه نحلها سهلا لأسباب فنية وغيرها ...

لقد شاعت ظاهرة الانتحال في المكاتبات والرسائل [*] الأدبية والسلطانية شيوعا ظاهرا في هذا القرن، وربما يستشف الباحث من سياق ما رواه بعض المؤرخين ومصنفي كتب التراجم والأدب، إن طائفة واسعة من الكتاب، وممن امتهن صناعة الوراقة ونسخ الكتب وغيرهم في هذا القرن، كانوا يفتنون بحذق ومهارة عالية في تزوير الخطوط، ونحل الرسائل والعهود أو الرقع وبعض التوقيعات المهمة لمشاهير الوزراء أو الولاة والقضاة والعمال وغيرهم ...

ذكر أبو الفداء في تاريخه[٤] - في معرض إشارته إلى وفاة الاحدب المزور في أحداث عام ٣٧٠هـ - ذكر انه: "كان يكتب على خط كل أحد، فلا يشك المكتوب إليه انه خطه ...".

ومن الشواهد الطريفة التي تؤكد براعة بعض الكتاب أو غيرهم في تزوير الخطوط، وحذقهم أو فطنتهم في ذلك، ما رواه المحسن التنوخي، عن أبي الحسين ابن عياش القاضي، عن محاولة صديق له تزوير كتاب على رجل مرتعش اليد. يقول[٥]:

---

(١) يراجع ما ذكره ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ٢٦٦/١١.

(٢) يراجع ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف في كتابه: الفن ومذاهبه في النثر العربي ص٥٤.

(٣) تراجع التفاصيل في: البخلاء - تحقيق الحاجري ص٢٦٨ وما بعدها.

(*) يراجع ما ذكره جامع ديوان رسائل الهمذاني، من أن بديع الزمان كان يكتب عن لسان ابيه كتبا ورقعا ليقرأها الافاضل من الكتاب فيستدلوا بها على فضل والده! واثبت جامع الرسائل بعض تلك الرسائل المنسوبة إلى والد الهمذاني، ينظر رسالة الهمذاني ص٤٤٥ - ٤٤٦، ورسالة أخرى ص ٤٤٧، ورسالة ثالثة ص٤٤٩.

(٤) تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبارالبشر) - أحداث عام ٣٧٠ هـ - ٤٦٤/١.

(٥) نشوار المحاضرة وأخبارالمذاكرة ٦٣/١.

"... رأيت صديقا لي على بعض زواريق الجسر ببغداد، جالسا في يوم ريح شديد وهو يكتب، فقلت: ويحك! في مثل هذا الموضع، ومثل هذا الوقت؟! فقال: اريد أن أزور على رجل مرتعش، ويدي لا تساعدني، فتعمدت الجلوس ها هنا، لتحرك الزورق بالموج في هذه الريح، فيجئ خطي مرتعشا، فيشبه خطه".

ولعل ما يبعث على الغرابة والطرافة أيضاً، أن يبرع الأمير البويهي عضد الدولة فناخسرو (ت ٣٧٢هـ) في تزوير الكتب، والتوقيع بخطه للإيقاع بين أعدائه وخصومه السياسيين! ذكر أبو الفداء يقول[١]:

" وكان عضد الدولة يوقع بخطه بين الملوك الذين يريد الإيقاع بهم، بما يقتضيه الحال، والإفساد بينهم!".

وقد استشرت ظاهرة (الانتحال) في هذا القرن كثيرا، حتى إن بعض الكتاب [*] أو متعاطي الأدب كان لا يتورع عن الاغارة على كلام مشاهير الأدباء وأعلام الكتاب ولعل ما يؤكد ذلك ما ذكره أبو منصور الثعالبي، إذ قال[٢]: ": كتب إنسان إلى الصاحب رقعة، وقد اغار فيها على رسائله، وسرق جملة من ألفاظه، فوقع فيها: (هذه بضاعتنا ردت الينا)".

ولعل ما يؤكد شيوع هذه الظاهرة في هذا القرن أيضاً، خشية بعض الأدباء والكتاب على نتاجهم ورسائلهم من الادعاء والسرقة أو الانتحال، ولعل خير ما يوضح هذا الامر، ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي الاعتذارية إلى (أبي الحسين علي بن دايه)، إذ أشار فيها إلى خشية أبي الحسين على كتابه من الادعاء أو الانتحال، يقول الخوارزمي[٣]:

" لم ينقطع عن كتاب سيدي، مع ضني به، وعشقي له، إلا انه يبخل علي بأن أحفظه وأرويه، ويخشى علي أن أنتحله أو أدعيه ...".

وربما استشرت عدوى هذه الظاهرة، ظاهرة نحل الرسائل في هذا القرن، لتشمل

---

(١) تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبارالبشر) ١/٤٦٤.

(*) يراجع، مثلا، ما ورد في رسالة الخوارزمي إلى تلميذ له طلب نسخة شعره، حيث يصرح الخوارزمي بشكه بالرسالة التي كتبها إليه تلميذه، ويتهمه بسرقتها من كلام الغير! ينظر رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٩٥ - ٩٦.

(٢) يتيمة الدهر ٣/٢٣٤.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي ص٣٦.

فن الشعر أيضاً، فقد وردت أخبار وإشارات عديدة في ثنايا كتب الأدب تدلل بوضوح على امعان بعض الشعراء غير المغمورين إبان هذا القرن على الاغارة على شعر الغير ونحله، فقد أشار الثعالبي مثلا، في ترجمته لأبي طاهر بن الخبزارزي إلى كثرة انتحاله من شعراء عصره! إذ قال(١):

" قد تقدم ذكره، عند ذكر أبيه وعمه، وكان - على انتحاله كثيرا من أشعار اهل عصره - شاعرا لا بأس بكلامه ..."

ولعل أطرف ما وصل إلينا من روايات في هذا الجانب، ما ذكره الثعالبي أيضاً عن أبي الحسن الدلفي المصيصي من انتحال أحد المتشاعرين شعرا للوزير الصاحب بن عباد. ذكر يقول(٢):

"انتحل فلان (يعني أحد المتشاعرين بحضرة الصاحب شعرا له، وبلغه ذلك، فقال: ابلغوه عني: [من المجتث]

سرقت شعري، وغيري ... يضام فيه ويخدع
فسوف اجزيك صفعا ... يكد رأسا واخدع
فسارق المال يقطع ... وسارق الشعر يصفع

قال: فاتخذ الليل جملا، وهرب من الري.".

وبسبب ما شاع في أروقة الأمراء، ومجالس الوزراء، إبان هذا القرن، من دسائس وتحاسد بين رجال الحاشية والمقربين من الأدباء أو من قد تطأ قدماه تلك المنتديات من اهل الأدب الطارئين، فقد دأب بعض الأدباء وغيرهم على نحل الشعر لأسباب شخصية، بغية اتخاذه اداة للايقاع بالخصوم والنيل منهم.

ولعل خير ما يجلي هذا الجانب، ما ذكره أبو منصور الثعالبي من كثرة ما وضع من شعر على (أبي طالب عبد السلام بن الحسين المأموني)، للايقاع به، بعد أن ارتفعت مكانته عند الوزير الصاحب، قال الثعالبي(٣):

" ... وتارة ينحلونه هجاء في الصاحب يعرب عن فحش القدح، ويحلفون على انتحاله ما أصدر من شعره في المدح، حتى تكامل لهم اسقاط منزلته لديه - أي

(١) يتيمة الدهر: ٤٤٢/٤.
(٢) المصدر نفسه: ٢٣٣/٣ - ٢٣٤.
(٣) يتيمة الدهر: ١٨٤/٤.

الصاحب - وتكدر ماؤه عنده وعليه ..."

****

اما اسباب هذا النحل والتزييف ودوافعه في هذا القرن فقد كانت عديدة لعل في مقدمتها ما يأتي:

أولا: تصاعد حدة الصراع السياسي والمذهبي:

لقد كان هذا الصراع السياسي والمذهبي - الذي ألممنا بالوقوف عنده انفا - حافزا قويا دفع كثيرا من الأمراء والحكام المتنافسين وخصومهم السياسيين على النحل والتزييف ومجانبة الحقيقة أحياناً كثيرة، لتحقيق مآربهم أو مطامحهم السياسية وغير ذلك، وكثيرا ما انطق ذلك الصراع السياسي والفكري بعض الأدباء والكتاب بغير الحقيقة، حين طفق يكتب على لسان خصمه بما يتلاءم مع أهوائه وأهواء ورغبات أسياده من الأمراء والسياسيين المتنافسين، وهكذا راح ينطقهم أو يكتب على لسانهم بما ليس لهم، أو لم يصدر عنهم، ويلفق عليهم ما ليس من ثمرات نثرهم وأدبهم!

وقد مر بنا انفا، إن الأمير عضد الدولة البويهي " كان يوقع بخطه بين الملوك الذين يريد الايقاع بينهم، بما يقتضيه الحال في الإفساد بينهم "[(١)].

وقد اشتهر أبو حيان التوحيدي بمنابذته وعداوته للوزيرين الأديبين أبي الفضل ابن العميد، وأبي القاسم الصاحب بن عباد، وربما كان ما عرفا به من تشيعهما ما اذكى جذوة العداوة والخلاف الشخصي بينهم.

ذكر الأستاذ زكي مبارك يقول[(٢)]:

" ... لقد انطق التوحيدي الصاحب بن عباد بعبارات مخجلة يندى لها وجه القارئ وينفر منها الطبع والذوق، وإن كانت وضعت باسلوب شائق خلاب".

وربما كانت رسالة (السقيفة)[(٣)]، لأبي حيان التوحيدي، أدق شاهد على علاقة هذا الصراع السياسي والمذهبي بإيقاظ جذوة الحسد والعداوة والحقد، وما يتمخض عن كل ذلك من دوافع تأخذ بيد بعض الأدباء وغيرهم إلى التزييف والانتحال أو

---

(١) تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر): ٤٦٤/١.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب - مقدمة الناشر (د. مبارك) ٣١/١.

(٣) تراجع هذه الرسالة في (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد ٥٩٧/٢، كما أوردها النويري في كتابه (نهاية الأرب ٢٢٣/٧ - ٢٢٤، واثبتها القلقشندي في صبح الأعشى ٢٣٧/١.

(الوضع الفني).

لقد شكك بعض الأدباء والنقاد القدامى بصحة هذه الرسالة - رسالة السقيفة - وذهب إلى أنها (موضوعة) لأسباب سياسية ومذهبية، فابن أبي الحديد (ت ٦٥٥هـ) مثلا، عقب على هذه الرسالة - بعد أن أوردها في النهج - بما يؤكد أنها منحولة، وإنها من وضع أبي حيان التوحيدي، وإنها بأسلوبه اشبه، ذكر في خاتمة تعليقه على هذه الرسالة يقول[١]:

" والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده ادنى معرفة بعلم السير واقل انس بالتواريخ".

وقد شكك بصحة نسبة هذه الرسالة أيضاً عدد من الباحثين المعاصرين[٢] فالأستاذ الباحث (إبراهيم الكيلاني)[٣] - الذي حقق هذه الرسالة ونشرها - عد رسالة "السقيفة" نموذجا للأدب الذي يصور الصراع المذهبي بين السنة والشيعة في عصر بني بويه أبان هذا القرن الذي اشتدت فيه الصراعات السياسية والمنازعات المذهبية والفكرية، وشارك فيها أكثر شرائح المجتمع الإسلامي على اختلاف عقائدهم، وتفاوت حظوظهم من الثقافة والمعرفة ...

ورأى الباحث أيضاً أن أحد أهم الأسباب التي دفعت أبا حيان لتأليف هذه الرسالة، فضلا عما تقدم، هي العداوة الشخصية التي تأججت نارها بين أبي حيان من

---

(١) شرح نهج البلاغة ٥٩٧/٢ ويراجع أيضاً: ميزان الاعتدال للذهبي ج٣ ترجمة التوحيدي رقم (١٠١٣٧).

(٢) ممن شكك بصحتها: د. زكي مبارك (النثر الفني ٦٩/١ (ط. مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٥٢ هـ / ١٩٤٣ م)، وينظر كتاب: أبو حيان التوحيدي د. إحسان عباس: ١٤)، فقد ذهب إلى القول: "وكان أبو حيان ساذجاً من الناحية التاريخية، لأنه لم يفطن أن اسلوبه دال عليه " بينما شكك الحوفي أيضاً في صحة نسبتها، وفرض فرضين مهمين، (يراجع كتابه: أبو حيان التوحيدي ط٢ القاهرة ١٩٦٤) وذهب باحثون أخرون إلى صحة الرسالة وأن التوحيدي رواها ولم يضعها، ينظر: أمراء البيان - محمد كرد علي ٢/ ٥٣٦؛ أبو حيان التوحيدي سيرته وآثاره - د. عبد الرزاق محيي الدين: ١٠٩، وينظر أيضاً كتاب: أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيان: ٦٠ - ٧١، حيث فصل في صحة هذه الرسالة وساق عدة أدلة على ذلك..

(٣) نشر هذه الرسالة الأستاذ ابراهيم الكيلاني في كتاب (ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي): ٥ - ٢٦. (نشر المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية - دمشق ١٩٥١) ونشرت رسالة السقيفة بمعية رسالتي(في علم الكتابة) و(رسالة الحياة).

جهة، وبين ابن العميد والصاحب بن عباد من جهة أخرى، ولذلك قصد التوحيدي في تأليف رسالته هذه إلى اغاظتهما - لكونهما كانا من أكابر الشيعة في زمانهما - فعمد إلى الانتقام منهما لأنهما اساءا إليه، وحرماه رفدهما[١].

ثم أشار الباحث المحقق إلى ما طرأ على هذه الرسالة، على مر العصور، من نحل وتحريفات كثيرة، فذكر يقول[٢]:

" وقد كانت الرسالة عرضة، على مر العصور، لزيادات وتحريفات كثيرة، حتى ليشعر القارئ عند مقابلة نصوصها المطبوعة بثقل الإضافات التي كادت تضيع معالمها الأصلية. ولعل الناس فتنوا بروعتها الإنشائية وأسلوبها البلاغي أكثر من الأفكار التي تضمنتها، والغاية التي قصد إليها مؤلفها، فكان ذلك حافزا لهم على التصرف في شكلها الخارجي زيادة ونقصا، دون مساس الفكرة الأساسية وهي الدفاع عن خصوم علي وهدم احقيته بالخلافة".

وعلل باحثون آخرون بروز ظاهرة (الوضع الفني) في نثر أبي حيان، وولعه بوضع الأحاديث والاسمار، ووقائع التاريخ، إلى تأثره الشديد بأسلوب الجاحظ، وانه قد اتخذ أبا عثمان الجاحظ قدوته وإمامه، وتأثر به وسلك مسلكه[٣].

وإلى هذا أيضاً ذهب الأستاذ (حسن السندوبي)، إذ رأى أن من خصائص أبي حيان البارزة احتذاء الجاحظ في التفنن في كل شيء، مع تفرده بخصوصية فنية ميزت ترسله بطابعه الخاص. يقول السندوبي مشيرا إلى ظاهرة (الوضع الفني) في نثره[٤]:

" ... غير انه أولع بوضع الأحاديث والاسمار ووقائع التاريخ في الصورة الروائية فلا يكتفي بإيراد الحادث على ما عرف، وتناقله الرواة، بل يعرض له، ويرسل صيِّباً مدراراً من فائض بلاغته، وزاخر بيانه، فاذا هو قصة ذات وقائع وأشخاص وابطال تروع إذا مثلت، وتروق إذا قرئت، وتملك المشاعر والقلوب إذا استمعت، ومع ما يدخله عليها من إصباغ، وما يطليها به من ألوان، فهو لا يعدو في النتيجة أن يمثل الحقيقة في اصا . مظاهرها ..."

---

(١) ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي (رسالة السقيفة) - المقدمة: ٨.

(٢) المرجع السابق - المقدمة: ٨.

(٣) تراجع التفاصيل في: النثر الفني واثر الجاحظ فيه - د. عبد الحكيم بلبع: ٢٨١.

(٤) المقابسات - تحقيق السندوبي: ١٧.

وهكذا يبدو جليا أن أبا حيان التوحيدي كان متأثرا بالجاحظ في وضع الأحاديث والقصص، وكان كالجاحظ أيضاً وضاعا، ومولدا، وكان كأستاذه يصدر في هذا كله عن طبيعته الفنية، ونزعته الأدبية.

وهكذا أيضاً كان هذا الصراع السياسي والمذهبي، الذي شهده هذا القرن، وعلى الرغم من أنه كان أحد أهم أسباب النهضة العلمية والأدبية في هذا القرن، إلا أنه كان من جهة أخرى سببا مهما فيما أصاب الأدب - ولا سيما المكاتبات والرسائل الأدبية والسلطانية - من ضياع وتزييف وانتحال.

ثانيا: الخصومات الشخصية بين الأدباء الكتاب:

ولعل من البواعث المهمة التي كانت وراء شيوع ظاهرة الانتحال أو (الوضع الفني)، وتوليد الأخبار والروايات والقصص، واختلاقها في هذا القرن - فضلا عن ضياع كثير من النصوص الأدبية - ما شاع بين كثير من أدباء هذا العصر من خصومات شخصية، وما وقع بينهم، تبعا لذلك، من تباغض وتحاسد.

ولعل من شواهد هذا التباغض والتحاسد المبكرة التي كانت لها آثارها الواضحة في نحل المكاتبات والرسائل الأدبية وضياعها في هذا القرن، ما وقع لأبي عبد الله العميد لما تقلد ديوان الرسائل للأمير الساماني نوح بن نصر(١)، من حسد الوزير أبي جعفر محمد بن العباس له، فضلا عن حسد كاتبه أبي القاسم الإسكافي، وتواصل هذا التباغض بينهم حتى وفاة أبي عبد الله!!

وما من شك في أن حسد هذا الوزير وأعوانه - على ما كان لهم من نفوذ واسع في إمارة السامانيين انذاك - لأبي عبد الله العميد أو لغيره أيضاً، لم يكن ليسهم في الوضع والتزييف على مكاتبات هذا الأديب الكاتب وغيره، فحسب، وإنما كان كفيلا أيضاً بضياع جميع شذرات ترسله وأدبه!

وهكذا يقال عن عزلة (أبي الفتح البستي) بناحية (الرخج) - كما مر بنا انفا - اتقاء من حسد الحساد في بلاط الأمير سبكتكين، وايقاعهم به، لما تقلد ديوان الرسائل، واحله هذا الأمير محل الثقة في أمارته(٢).

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ما مني به كثير من نتاج الأديب المفكر أبي علي بن

---

(١) ينظر: يتيمة الدهر ٣/١٨٤ - ١٨٥.

(٢) ينظر: يتيمة الدهر ٤/٣٤٦، تتمة صوان الحكمة: ٣٤ وما بعدها.

مسكويه من تشويه ونحل واضطراب وضياع، بسبب الحسد والحقد على نبوغه، فقد اتهمه بعض خصومه وبعض من ارخ له[١]، أنه كان مجوسيا واسلم! وما من شك في أن ما تعرض له ابن مسكويه من تجريح، وما وقع له، حتى في حلقة دروسه، من تطاول وهجوم[٢]من ابن سينا وغيره - طمعا في نيل الشهرة - قد اسهم أيضاً في طمس وضياع كثير من نتاج هذا الأديب المفكر، وتشويه بعضه الاخر. بما اختلقوه عليه من تهم، أو ما وضعوا عليه من آراء مضللة، ونحلوه من روايات وأخبار للحط من شأنه، والغض من منزلته.

ويتضح اثر تلك الخصومات، والتباغض والتحاسد بين الأدباء في نحل تراثهم، أو الاختلاق والتزييف عليهم، يتضح في أجلى صوره إبان هذا القرن، بما وقع بين أبي حيان وخصميه اللدودين أبي الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد.

ولعل ما سجله أبو حيان عنهما - كما أشرت انفا - في كتابيه الشهيرين، مثالب الوزيرين، والإمتاع والمؤانسة، يكشف بوضوح خطورة ما تعرض له الأدب في هذا القرن، من نحل واختلاق وتزييف، فقد كان أبو حيان كثيرا ما يختلق الحوادث والإشارات، وينطق خصميه الوزيرين ابن العميد وابن عباد برسائل ومقطوعات ورقع موضوعة تهوي بهما إلى الحضيض[٣].

وقد تنبه بعض مؤرخي الأدب، منذ القدم، إلى تحامل أبي حيان التوحيدي، واسرافه في التعصب والتحامل على ابن العميد والصاحب[٤].

ولعل ما تقدم ذكره، يجعلنا نشكك في بعض ما روي عن هذين الاديبين من أخبار وروايات تتصل بسوء تصرفهما، أو بذاءة ما صدر عنهما في مجالسهما، أو ما تفوها به من عبارات مخجلة يندى لها جبين المتلقي، ومن جانب اخر فاننا نشكك أيضاً في بعض ما نسب للصاحب بن عباد بخاصة، من رسائل أو رقع تتصل بمهاداة

---

(١) يراجع: معالم الحضارة الإسلامية ص٢٠٢، النثر الفني في القرن الرابع ١٧٧/٢ وما بعدها.

(٢) ينظر: تتمة صوان الحكمة: ٣٨ وما بعدها.

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب - المقدمة (الناشر: د. زكي مبارك ٣١/١).

(٤) ذكر ياقوت الحموي يقول: "إن أبا حيان كان قد قصد ابن عباد في الري، فلم يرزق منه، فرجع عنه ذاما له، وكان أبو حيان مجبولا على الغرام بثلب الكرام، فاجتهد في الغض من ابن عباد." معجم الأدباء: ١٨٦/٦ ومواضع اخر.

الخمرة أو الاعتذار لبعض خلطائه عن هفوة الكأس وغير ذلك[١].

ولعل ما يدفعنا إلى دحض مثل تلك الروايات، والنصوص الأدبية التي نسبت للصاحب بخاصة، والتشكيك بصحتها، إن بعض مصنفي الأدب القدامى - كالنظامي السمرقندي مثلا - قد اكد فضل الصاحب وكماله، وأنه كان معتزليا من أصحاب العدل والتوحيد، وانه عرف عنهم تشددهم في التقوى. يقول النظامي السمرقندي[٢]:

" ... وكان فاضلا كاملا، وترسله وشعره، على هذه الدعوى، شاهدا عدل، وقاضيا صدق، وكان الصاحب عدلي المذهب، وأصحاب العدل يتشددون في التقوى والتنسك، ويجيزون أن يخلد المؤمن في جهنم في شعيرة، وكان أكثر عماله وخدمه وحشمه على مذهبه".

وفضلا عما تقدم، فقد ذكر ياقوت أخبارا وروايات تشير إلى حسن سيرة الصاحب، ورفعة خلقه[٣]، وذكر أيضاً أن الصاحب كان محدثا، وأشار إلى أنه خرج يوما - وهو وزير - متطلسا متحنكا، بزي اهل العلم، لرواية الحديث، واملائه على الناس[٤].

على أن رواة آخرين، رووا أنه كان في الصاحب رقة ودماثة، ونقل عنه صاحب اليتيمة أنه كان يقول " نحن بالنهار سلطان، وبالليل اخوان "[٥].

ويستشف الباحث مما رواه ياقوت من أخباره، أنه كانت في الصاحب - ولا سيما في أيام ريعان عمره - فكاهة[٦].

وهكذا يمكن أن يصل الباحث - بعد تمحيص تلك الأخبار والروايات - وهي

---

(١) ينظر: يتيمة الدهر: ٢٨٨/٣، وينظر أيضاً: فصول له ورقاع في الملاطفة والمداعبة ٢٨٤/٣ وما بعدها.

(٢) كتاب جهار مقالة: ٢٧.

(٣) يراجع ما رواه ياقوت (معجم الأدباء ١٨٥/٦) عن حكاية كأس السكر المسموم، وتأثم الصاحب من اعطائه إلى من جلبه إليه، وقوله: "لا استجيز ذلك ولا استحله". ورفضه أيضاً أن يجرب كأس السم على دجاجة! وقوله " فالتمثيل بالحيوان لا يجوز". وأخبارأخرى تدلل على شدة تقواه، وحسن سيرته.

(٤) ينظر: معجم الأدباء ٢٥١/٦، وذكر ياقوت في موضع اخر انه اخذ الحديث عن ابيه - الذي كان من الراسخين في العلوم الدينية - ينظر معجم الأدباء ٧٢/٦، ١٧٢.

(٥) يتيمة الدهر ٢٣٣/٣. (وكان يقول ذلك لجلسائه إذا أراد أن يبسطهم ويؤنسهم).

(٦) معجم الأدباء ٢٦٨/٦. (تراجع حكايته في شبابه ببغداد مع ابن شمعون).

كثيرة - إلى أن تحامل أبي حيان التوحيدي، وغيره أيضاً، ممن قصد مجلس الصاحب في الري وأصفهان، ولم يجد عنده بغيته، كان مرده إلى عداء شخصي، فضلا عن تحامله عليه، لاعتناقه التشيع، إذ أن التوحيدي روى عن الصاحب أنه كان يقول بمقالة الزيدية(١).

ولعل ذلك كله كان دافعا قويا للتوحيدي - الذي عرف عنه بالميل إلى الوضع الفني، واختلاق الروايات والقصص - لينتقص من الصاحب وغيره من خصومه، وينحلهم ما لم يصدر عنهم من أدب ماجن وخليع ...

ثالثا: أسباب أخرى أدت إلى تزوير المكاتبات واضطراب الرسائل:

وهناك أسباب أخرى دفعت بعض الكتاب أو الوراقين وغيرهم إلى نحل الكتب أو الرسائل، أو تزوير الخطوط، ولعل في مقدمة هذه الأسباب، (العامل الاقتصادي) فقد لجأ بعض الكتاب أو غيرهم إلى نحل الرسائل، أو تزوير الخطوط، للارتفاق عليها أي اخذ الرشوة، وتحقيق المنفعة المادية - أو طلب التصرف - أي الانتفاع بجاه من يزور عليه - أو لغير ذلك، وغالبا ما يكون الدافع إلى هذا النحل أو التزوير هو الفقر والحاجة أو طلب المال والسعي للحصول عليه ...

ومن نماذج تزوير الخطوط في الرقع والرسائل، للارتفاق عليها، ما ذكره المحسن التنوخي عن أبي عبد الله اخ الوزير (ابن مقلة)، إذ قال(٢): نقلا عن أبي الحسن بن عياش القاضي:

"حضرت أبا علي بن مقلة، وقد عرضت عليه - وهو وزير - عدة تسبيبات وتوقيعات، قد زورها عليه اخوه أبو عبد الله، وارتفق عليها، وكان أبو عبد الله حاضرا فاستقبح أن يفضحه، فلما كثرت عليه، التفت إليه، فقال: يا أبا عبد الله، قد خففت عنا حتى ثقلت، وخشينا أن نثقل عليك، فاحب أن تخفف عن نفسك هذا التعب.

قال: فضحك أبو عبد الله، وقال: السمع والطاعة للوزير".

ومن نماذج التزوير ونحل الكتب، طلبا للتصرف، ما ذكره المحسن التنوخي أيضاً عن شخص متعطل زور كتبا على لسان الوزير علي بن محمد بن الفرات إلى

---

(١) ينظر: معجم الأدباء ١٧٥/٦.

(٢) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٦٤/١.

عامل مصر أبي زنبور[١]، وما ذكره أيضاً عن رجل اخر زور على لسان أبي عمر القاضي إلى أبي القاسم ابن الحواري، يسأله تصريفه واعانته[٢].

وهذه الأخبار والنوادر تدلل بوضوح على موجة النحل والتدليس، وتزوير الكتب والرسائل التي راجت في هذا القرن، وهي ظاهرة خطيرة لها آثارها السيئة وانعكاساتها الخطيرة على الأدب، ولا سيما في الأقاليم النائية في المشرق الإسلامي.

وقد يكون مبعث النحل في نصوص المكاتبات، أو الاضطراب فيها، يعود إلى التضارب في بعض الأخبار أو الروايات التاريخية التي تتصل بنص الرسالة، أو أعلام الكتاب.

I- ومن النماذج المشهورة على ذلك: رسالة أبي اسحاق الصابي[٣] إلى الأمير عضد الدولة البويهي، يهنئه بانتصاره وفتحه (ميافارقين) عام ٣٦٨هـ[٤].

وهذه الرسالة هي واحدة من رسائل التهاني التي وصلت إلينا ضمن مجموعة (المختار من رسائل الصابي)، وقد حررها أبو إسحاق الصابي على لسان بعض الرؤساء إلى الأمير عضد الدولة البويهي بعد فتحه لهذه المدينة.

وعند دراسة الظروف المحيطة بإنشاء هذه الرسالة، نرى أن شكا قويا يحوم حول صحة نسبتها إلى أبي اسحاق، إذ أن الرجل كان قد اودع السجن في أواخر عام ٣٦٧ هـ، عقب انتصار عضد الدولة على ابن عمه عز الدولة بختيار، وظل الصابي قيد الحبس حتى افرج عنه عام ٣٧١هـ.

وعلى هذا تسقط دعوى كتابة أبي إسحاق الصابي لهذه الرسالة، وتهنئته للأمير عضد الدولة بفتح هذه المدينة.

II- ويتصل بظاهرة اضطراب بعض الروايات، وتداعيات تلك الظاهرة على صحة الرسائل، ودقة نسبتها إلى منشئيها في هذا القرن، نحل بعض الرسائل واختلاف

---

(١) المصدر نفسه ١/٥٧ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ١/٦٠ - ٦١.

(٣) تراجع الرسالة في: المختار من رسائل الصابي: ١١٦ (طبعة بيروت).

(٤) ينظر: تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبارالبشر) أحداث سنة ٣٦٨ هـ، إذ ذكر يقول: "وفيها فتح أبو الوفا مقدم عسكر عضد الدولة (ميافارقين) بالأمان. (تاريخ أبي الفداء ١/٤٦٢)

نسبتها لأكثر من كاتب ... من ذلك مثلا ما ذكره الحصري في زهر الآداب[١] من نسبة رسالة هزلية طريفة في صفة حمل إلى الكاتب أبي الخطاب الصابي، بينما نسبها المحسن التنوخي في النشوار[٢] إلى أبي إسحاق الصابي، ولعله اقرب إلى الدقة والصواب، لقرب عهده بأبي إسحاق الصابي إذ انه معاصر له.

III- وهناك شاهد اخر على اضطراب الروايات التاريخية التي تتصل بأعلام الكتاب في هذا العصر، وهو ما تناقلته بعض مصادر التاريخ والأدب عن صلة الأديب الكاتب أبي القاسم الإسكافي بالسامانيين، واطلاقه من الاسر، ثم اعتلائه ديوان الرسائل في امارتهم.

لقد اختلفت المصادر القديمة في هذا الامر، فالنظامي السمرقندي[٣]، جعل صلته أولا (بالبتكين)، ثم انتقل بعد اسره إلى خدمة الأمير (نوح بن منصور) الساماني، بينما جعل العلامة القزويني[٤]، في حواشيه على كتاب السمرقندي، بداية عمل الإسكافي في الدواوين، مع الأمير أبي علي بن محتاج الجفاني، ثم اختص عقب ذلك بالأمير الحميد نوح بن نصر الساماني.

اما الثعالبي فقد ذهب إلى أن بداية الإسكافي في الدواوين كانت مع أبي علي الصاغاني، وبعد هزيمته في واقعة (جرجيل) واسر الإسكافي، اختص بخدمة الأمير نوح بن نصر[٥].

والصواب عندي هو ما ذهب إليه الثعالبي، لأن الإسكافي توفي - كما تشير الروايات الموثوقة - في أول عهد الأمير الساماني عبد الملك بن نوح بن نصر، في

---

(١) تراجع هذه الرسالة ونسبتها لأبي الخطاب الصابي في زهر الآداب ٥٨٨/٢ - ٥٨٩.

(٢) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٢١١/٣، حيث نسبها المحسن التنوخي (ت ٣٨٤هـ) لأبي اسحاق الصابي، وما يعزز صحة هذه النسبة أيضاً، ما ذكره صلاح الدين الصفدي في الغيث المسجم في شرح لامية العجم ٦٠/٢ إذ نسبها إلى أبي اسحاق أيضاً. وممن نسبها إلى أبي إسحاق الصابي أيضاً: ابن حجة الحموي، ينظر: ثمرات الأوراق: ٣٤٠، (تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مصر، القاهرة، ١٩٧١).

(٣) جهار مقاله ص٢٣ - ٢٤.

(٤) حواشي القزويني على كتاب السمرقندي ص١٠٣ - ١٠٤.

(٥) تراجع التفاصيل في: يتيمة الدهر ١٠٨/٤.

حدود عام ٣٤٣ هـ، وانه لم يدرك عهد الأمير نوح بن منصور الذي تسنم الإمارة بعد وفاة الإسكافي بأكثر من ثلاثين عاما.

وهكذا يتضح أن هذا الاضطراب والخلط في الروايات التاريخية، وما يتمخض عن ذلك من تداعيات خطيرة في نسبة النص الأدبي إلى غير منشئه، أو اضطراب الخبر ونسبته - بشكل غير موثق أو دقيق - إلى أعلام الكتاب بشكل مشوه، أو غير سليم يعود إلى وهم بعض الرواة، أو المؤرخين، أو سهوهم في نسخ بعض اسماء الأعلام المتشابهة أو المتقاربة، كالخلط مثلا بين اسمي الأمير نوح بن نصر والأمير نوح بن منصور، أو الخلط الذي وقع فيه بعض الرواة أيضاً بين شخصيتي (أبي الفضل البلعمي) وزير السامانيين على عهد الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني وبين ابنه (أبي علي البلعمي) الذي وزر للسامانيين على عهد الأمير نوح بن منصور والذي ينسب إليه ترجمة كتاب الطبري إلى اللغة الفارسية.

المبحث الثالث

مجاميع الرسائل الأدبية وتوثيقها في القرن الرابع:

توطـــئة:

نشاط حركة التدوين وجمع النتاج الأدبي في هذا القرن:

لقد دفع التنافس الحاد بين الأمراء وحكام الممالك الإسلامية المستقلة في هذا القرن - ولا سيما أولئك الأمراء والوزراء من الأدباء الذين شهروا بتذوقهم للأدب، وشغفهم به، وقدرتهم على قرض الشعر، وتدبيج الرسائل البليغة، دفعهم ذلك على جمع نتاجهم، ونتاج كثير من الأدباء - من المنظوم والمنثور - وتدوينه، وبخاصة، ما مدحوا به من ذلك التراث الأدبي، أو ما تعلق بالإشادة بملكهم، وعلو شأنهم، وبناء امجادهم.

ولا يخفى ما كان يقوم به أولئك الأدباء الكتاب من دور خطير في تلك الممالك الجديدة في هذا القرن، ولعل هذا ما أوقد جذوة التنافس بين أولئك الرؤساء على اجتذابهم إلى حواضرهم، واصطناعهم في خدمتهم.

يقول أحد الباحثين مشيرا إلى ذلك:(١)

"واذن فقد كان يقوم هؤلاء الكتاب والشعراء للدول التي ترعاهم، بخدمات خطيرة تتصل بحياتها، وحياة القائمين عليها، فهي من النوع الذي تقدمه مؤسسات الدعاية لحكوماتها في العصر الحاضر، فاذا عرفنا هذا، استطعنا أن نفهم الدافع الذي كان يحرك الملوك ووزراءهم، ويدعوهم إلى أن يملأوا قصورهم بالكتاب والشعراء، ويغمروهم بالعطايا والهبات ..."

ولعل هذا ما حفز أولئك الحكام أو الرؤساء على تدوين نتاج الأدباء والكتاب، وجمعه وتبويبه، والعناية بنسخه وإخراجه، لأنه وثائق مهمة تؤرخ امجادهم، وتعلي شأنهم بين منافسيهم.

ذكر أبو منصور الثعالبي - وهو يؤكد ما كان يقوم به أولئك الرؤساء وبعض وزرائهم، من تدوين أو نسخ وجمع ذلك التراث الأدبي - يقول(٢):

" وكان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب، وأبي الحسن علي بن

---

(١) الأدب في ظل بني بويه: ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) يتيمة الدهر: ٣٨/١.

محمد الشمشاطي، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت ...".

ونظير هذا ما كان يقوم به بعض الأمراء السامانيين في هذا القرن، كالأمير الحميد نوح بن نصر، والأمير نوح بن منصور، وبعض مشاهير وزرائهم كأبي علي البلعمي وغيره، من تدوين ونسخ أو جمع الكثير من تراث الأدب العربي والفارسي، فضلا عن العناية بمفردات ورموز الحضارة الفارسية التي تشيد بأمجادهم القومية، وتعضد جهودهم في بعث تراثهم القومي القديم[١]، وهذا ما سنعرض لتفصيله في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

وإلى جانب ما ذكرنا، فقد كان الباعث لصنيع كثير من أولئك الحكام ووزرائهم في العناية بالتراث الأدبي، ونتاج الشعراء والكتاب، وتدوينه ونسخه وجمعه، في هذا القرن هو الجانب الفني، أو الاعجاب بتلك الشذرات الفنية التي صدرت عن قرائح الأدباء المبدعين الذين جاد بهم هذا القرن، ولعل ما أشار إليه أبو منصور الثعالبي عن اعجاب الوزير الصاحب بن عباد بشعر الشعراء الشاميين، وكلفه بنتاجهم، وما قام به من جمعه وكسر دفتر ضم فيه ما صدر عنهم من شوارد فنهم، لخير شاهد على ذلك.

يقول الثعالبي مشيرا إلى طريقة شعراء الشام، وما يقاربها، واعجاب الوزير الصاحب بن عباد بطريقتهم المثلى[٢]:

" واخبرني جماعة من أصحاب الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد، أنه كان يعجب بطريقتهم المثلى، التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة، والفصاحة والسلاسة، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم، ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف، حتى كسر دفترا ضخم الحجم عليها، وكان لا يفارق مجلسه، ولا يملأ أحد منه عينه غيره، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه، وفي سن قلمه، فطورا يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته، وتارة يحله أو يورده كما هو في رسائله".

ويشاكه هذا أيضاً ما كان من اعجاب الوزير الصاحب بمناكاة بني ساسان،

---

(١) تراجع التفاصيل في: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٣٣٨/١ - ٣٣٩، تاريخ الأدب في إيران ادوارد براون ١٠٧/٢ وما بعدها، وقد أشار بروكلمان (تاريخ الأدب العربي ٢٧٠/٢) إلى أن للصاحب بن عباد كتابا يسمى "السفينة " جمع فيه ما اعجبه من الشعر.

(٢) يتيمة الدهر ٣٤/١.

وحفظه العجيب لاشعارهم، ولا سيما شاعرهم أبا دلف، يقول الثعالبي[١]:

" وكان الصاحب يحفظ مناكاة[٢] بني ساسان حفظا عجيبا، ويعجبه من أبي دلف وفور حظه منها، وكانا يتجاذبان اهدابها، ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما ولما اتحفه أبو دلف بقصيدته التي عارض بها دالية الاحنف العكبري في المناكاة، وذكر المكدين، والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم ...اهتز ونشط لها - يعني الصاحب - وتبجح بها، وتحفظ كلها، واجزل صلته عليها ...".

ونظير الوزير الصاحب بن عباد في العناية بالعلق من شذرات المنظوم والمنثور والحرص على حفظه وتدوينه وجمعه، كثير من أعلام الطبقة الخاصة من الأمراء وكبار الأدباء في هذا القرن.

فالأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي مثلا - كما أشار الثعالبي في اليتيمة[٣] - كانت في خزانته مجلدة ضخمة الحجم من شعر أبي الحسين الغويري بخطه وذكر الثعالبي انه استعارها واستعان بأبي نصر سهل بن المرزبان على إخراج ما هو شرط كتابه - اليتيمة - من شعر الغويري منها.

وذكر الثعالبي أيضاً في موضع اخر من اليتيمة[٤]، وقد ساق فصولا قصارا لأبي الفضل ابن العميد تجري مجرى الأمثال، انه أخرجها مما جمعه واخرجه الأمير أبو الفضل الميكالي.

لقد عني كثير من أدباء هذا القرن - فضلا عن أدباء الطبقة الخاصة من الأمراء والوزراء كما ذكرنا انفا - سواء أكانوا من الشعراء أم من الكتاب، بنتاجهم الأدبي، كما عنوا أيضاً بنتاج اقرانهم من الأدباء[٥].

---

(١) يتيمة الدهر ٣/٤١٤ وما بعدها.

(٢) مناكاة بني ساسان: أي الاشعار التي تجمع حيل المكدين والاعيبهم.

(٣) يتيمة الدهر ٣/٣٩٥.

(٤) المصدر السابق ٣/١٩٦.

(٥) أشار الثعالبي في ترجمته (لابي أحمد بن أبي بكر الكاتب) - أحد أدباء خراسان - (اليتيمة ٤/٧٤ - ٧٥) إلى أنه: "كان مولعا بشعر العطوي، حافظا لديوانه، مقدما على نظرائه، كثير المحاضرة بأمثاله وغرره في مخاطبته ومكاتباته، فلقب بالعطواني". وأشار الثعالبي أيضاً إلى قيامه بجمع ديوان اللحام، فقال: "قال مؤلف الكتاب: لم ار للحام ديوان شعر مجموعا، فعنيت بجمع تفاريقه، وضم منتشره، ثم اخذت منه ما يصلح لكتابي هذا". /يتيمة الدهر، ٤/١١٦. وأشار =

فحرص كثير منهم على جمعه وتدوينه بخطه، أو نسخه[١] بوساطة النساخ والوراقين، حفاظا عليه من الضياع، أو لتداوله أو اهدائه للأمراء أو للتلاميذ أو غيرهم من المقربين ...

فأبو بكر الخوارزمي مثلا - وقد وردت إشارات عديدة في ديوان رسائله، تؤكد جمع ديوان رسائله وتدوينه في حياته[٢] - من الأدباء الكتاب الذين عنوا كثيرا بنتاجهم الأدبي في هذا القرن، ولا سيما ديوان رسائله، ومما يدلل على ذلك، رسالته التي كتبها إلى أحد تلاميذه، وقد استعار نسخة الرسائل لينسخها: فحبسها عنده، فكتب إليه برد ديوان رسائله، ليتسنى لغيره نسخها وتدوينها، يقول[٣]:

"أنت مشغول بنسخ ما استعرته من الرسائل، ولا يسع القلب الواحد لكل هذه الشواغل، وغيرك من أصحابنا حريص على نسخها ولو كان القلم يمينه: والقرطاس جبينه، والثمن دنياه ودينه، فاعرهم - اعزك الله تعالى - فإلى أن تتفرغ لها، قد فرغ غيرك منها ... واجعل تعجيل ردها إلينا، كفارة لما جنيته من حبسها علينا".

ولقد عكفت طائفة من أولئك الأدباء في هذا القرن - فضلا عن جمع نتاجها وتدوينه - على تنقيح لباب نتاجها الأدبي، وتشذيبه مما علق به من الشوائب، وادران الخاطر.

ولعل أوضح ما يدلل على اهتمام الأدباء في هذا القرن بجمع نتاجهم وتنقيحه ونخله، ما ساقه المحسن التنوخي من أن أبا الفرج الببغاء قد شارك أبا فراس الحمداني في نخل ديوانه الكبير قبل موته، ونقل عن أبي الفرج الببغاء قوله[٤]:

= الثعالبي أيضاً في موضع اخر (اليتيمة، ١٤٧/٤)، إلى أبي النصر الهزيمي، المعافى بن هزيم، فقال: "وله كتاب محاسن الشعر، واحاسن المحاسن ...وقد دون شعره ببخارى وابيورد".

(١) يراجع الخبر الذي ساقه ياقوت (معجم الأدباء، ٣٩٦/٥) نقلا عن التوحيدي في (مثالب الوزيرين) من طلب ناظر خزانة مكتبة الصاحب إلى أبي حيان نسخ رسائل الصاحب، وينظر أيضاً: النثر الفني في القرن الرابع ١٦٢/٢.

(٢) تراجع رسالة الخوارزمي الجوابية إلى أبي العباس كاتب محمد بن ابراهيم، وقد طلب منه نسخة رسائله (ص ١٣١ - ١٣٢)، ورسالة الخوارزمي أيضاً إلى أبي بكر بن شيمرد (رسائل الخوارزمي، ص١٨٨ - ١٨٩)، ومواضع غيرها.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي (رقم ١٣٨) ص٢٢١.

(٤) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ٢٢٥/١.

" واقفني على نفيه، لأنه عرضه علي، فكل ما استضعفناه نفاه، وما اجتمعنا على استحسانه اقره، وحرره في نسخة تداولها الناس".

وممن اشتهر بالجمع بين التنقيح والنخل، وبين سرعة البديهة واتقاد الخاطر من الأدباء الكتاب في هذا القرن: أبو بكر الخوارزمي، وأبو إسحاق الصابي.

اما الخوارزمي فيقول في إحدى رسائله التي حملها إلى حاجب الوزير ابن عباد، مفصحا عن هذا الجانب(١):

" وقد حملت اليك نسخة كاملة قلتها، فرضيت بها عن شيطاني ... ولعمري لقد اكلتها من جراب الدق، وورثتها من كيس اللب ... وقلبت لها جريدة التصفح والتخير، ونشرت فيها صحيفة التدبر ... وصقلتها بمدوس النظر، وجلوتها بكف الفكر، ووكلت بها من التمييز جفنا ساهرا، ولمحا باصرا".

وممن عرف بكثرة التنقيح والتسويد والاجالة من أدباء هذا القرن أيضاً: أبو إسحاق الصابي، فقد ذكر أبو حيان التوحيدي يقول(٢):

" وسمعت أبا إسحاق الصابي يقول: ما حررت كتابا قط عقب التسويد، إلا ورأيت التنافر في خطي، والتطاير من قلمي، والتثاقل في يدي، فأما إذا جممت بعده جمة، أو نمت بعده نومة، فانا على صواب ما اريد منه جرئ، ومن الخطأ فيه بريء".

وهناك جانب اخر - فضلا عن تدوين الرسائل وجمعها وتنقيحها - اسهم كثيرا في توثيق صحة نسبة بعض النصوص الأدبية إلى منشئيها، فقد كان بعض الأدباء الكتاب في هذا القرن يحفظون عن ظهر قلب، رسائل بعض أقرانهم من الكتاب، أو الأمراء والوزراء الذين عرفوا ببراعتهم الأدبية، وبلاغتهم النادرة، إعجابا بصياغتها وديباجتها وفنها، أو تعظيما لمنشئيها، وما من شك في أن هذا الامر هو وجه اخر سهل حفظ جانب مهم من تراث الرسائل الأدبية في هذا القرن.

ولعل أبرز أعلام الأدباء الكتاب الذين اشتهروا بكثرة الرواية، وسعة الحفظ، في هذا القرن، أبو بكر الخوارزمي، فقد ذكر تلميذه - الثعالبي - عند إيراده فصلا من كتاب الوزير الصاحب بن عباد إلى أبي الفضل ابن العميد، صدر جوابا عن كتابه إليه

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٥٢.

(٢) ثلاث رسائل للتوحيدي (رسالة في علم الكتابة: ص٣٥) تحقيق ونشر: الدكتور إبراهيم الكيلاني.

في وصف البحر، ذكر يقول[١]:

"وكان أبو بكر الخوارزمي يحفظه، وكثيرا ما كان يقرؤه، ويعجب السامعون من فصاحته، ولم اره يحفظ من الرسائل غيره ...".

على أن ما ذهب إليه الثعالبي في قوله: "ولم اره يحفظ من الرسائل غيره " لا يتعارض مع ما قررناه انفا من كثرة رواية الخوارزمي، وسعة حفظه فطالما وقف الثعالبي، في مواضع عديدة من كتاب اليتيمة يشير إلى قلة ما في جعبته من نصوص أدبية لبعض تراجم الأدباء، ويعتذر للقارئ أو يعده برأب صدع هذا الجانب حين يفرغ من شواغل الزمان، فضلا عن أن أبا بكر الخوارزمي نفسه، أشار في إحدى رسائله إلى أبي محمد العلوي، جوابا عن رسالته إليه يقول[٢]:

" ... وها انا بعد اليوم - اقرع باب الكتابة، واتسلق على حيطان البلاغة، واجمع ما اقدر عليه من رسائل السيد، فاحفظها صدرا صدرا، بل سطرا سطرا، وأردد كل واحدة منها خمس مرات بل عشرا ...".

وهذا شاهد صدق يؤكد سعة باع أبي بكر الخوارزمي في حفظ التراث الأدبي، وروايته، فضلا عن أدباء عصره الآخرين الذين عرفوا بكثرة الحفظ للتراث، واجتلاب بعض معانيه الرائعة في رسائلهم، وحل بعض المنظوم - لنفاسة معانيه وسمو صوره - في ترسلهم.

ولعل من مشاهير الأمراء الأدباء الذين عرفوا بغزارة الرواية، وحفظ الرسائل في هذا القرن: أبا الفضل الميكالي، فقد ذكر الثعالبي عند ادراجه رسالة الوزير الصاحب ابن عباد التي كتبها إلى أبي علي الحسن بن أحمد في شأن أبي عبد الله محمد بن حامد، يقول[٣]:

" وسمعت الأمير أبا الفضل عبيد الله بن أحمد يسردها، فزادني جريها على لسانه وصدورها عن فمه إعجاباً بها ..."

وهكذا تجلى لنا من خلال هذا العرض السريع، نشاط حركة تدوين النتاج الأدبي من المنظوم والمنثور، وجمعه وتنقيحه في هذا القرن، وعناية كثير من الأدباء

---

(١) يتيمة الدهر: ٢٩٥/٣ - ٢٩٦.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٨١.

(٣) يتيمة الدهر ٢٩٢/٣ - ٢٩٣.

والكتاب بحفظه وروايته، وقد كان لهذا الامر اثره الخطير والمهم في حفظ قدر غير قليل من تراثنا الأدبي، ووصوله إلينا، على الرغم من ضياع قسم كبير منه - كما مر بنا انفا - وانتحال أو تزوير قسم اخر منه.

مجاميع الرسائل التي وصلت إلينا وتوثيقها:

لقد كان أكثر أعلام الكتاب في هذا القرن - ولا سيما كتاب الرسائل الإخوانية والسلطانية - يحرصون كثيرا على جمع دواوين رسائلهم في حياتهم، ويعنون عناية بالغة بتشذيب فصوص فصولها، ويدققون في تبويبها وترتيبها وإخراجها. فيحذفون[١] أحياناً من متونها ما لا يتلاءم ورفعة مكانتهم الاجتماعية، أو سمو منزلتهم السياسية.

يقول الثعالبي مثلا - وهو يشير إلى إحدى رسائل الوزير الصاحب بن عباد المشهورة في الطب - مؤكدا جمعها وحسن تأليفها وتبويبها[٢]:

" وسمعت أبا جعفر الطبري، الطبيب المعروف بالبلاذري، يقول: إن للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكرياء لما زادا عليها، فسأله أن يعيرنيها إن كانت عنده، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه ... إلى أن ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر، ووجدتها تجمع إلى ملاحة البلاغة، ورشاقة العبارة، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه وتدل على التبحر في علمه، وقوة المعرفة بدقائقه".

ولعل هذا الخبر المستفيض الذي أورده الثعالبي - وهو معاصر للصاحب - أدق شاهد على عناية جهابذة الكتاب في هذا العصر بجمع فصول رسائلهم، وتدوينها في حياتهم، من جانب، وحرص الأدباء ومؤرخي الأدب أيضاً على تداول تلك الرسائل وتبادلها، واجالة النظر فيها من جانب اخر.

وفي موضع اخر أشار الثعالبي أيضاً إلى عناية الأمير أبي الفضل الميكالي بجمع رسائله، وحرصه على حسن إخراجها وتبويبها. قال[٣]:

---

(١) أشار الباحث (محمود الضمور) مثلا إلى خلو ديوان رسائل الخوارزمي من رسائله الخاصة التي بعثها إلى اسرته واقاربه، وعلل ذلك بحرجه - أي الخوارزمي - من إخراجها مع فصول رسائله الأخرى التي حرص على اظهارها، والتي كانت تبرز مكانته الاجتماعية. (ينظر: أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه: ٢٦٢ - ٢٦٣).

(٢) يتيمة الدهر ٢٣٧/٣ - ٢٣٨.

(٣) يتيمة الدهر ٤١٠/٤ وما بعدها.

" وقد أوردت في هذا الباب من فصوص فصوله التي أخرجها من رسائله، وبوبها في كتاب له وسمه بالمخزون، ما يؤرخ به محاسن الكلام، ويزيد في مفاخر الأقلام، ويستحق أن يدعى لفظ الدر، وخدع الدهر، وعقد السحر".

ولعل ما يفسر عناية أولئك الكتاب الأفذاذ بجمع شذرات رسائلهم في حياتهم، وحرصهم الواضح على تدوينها وجمعها، وحسن إخراجها وتبويبها، وتواصلهم على إهدائها أنها كانت سجل أدبهم وفخرهم وإبداعهم، وشاهد صدق على بلاغتهم وسمو مكانتهم الأدبية والاجتماعية، فضلا عن أنها - أي تلك المجاميع المدونة - كانت واجهة سياسية وأعلامية مهمة لتلك الامارات والممالك المستقلة المتنازعة التي عمل في ظلها، ولبناء أركانها أولئك الأعلام النابهون من صدور الكتاب في هذا القرن، فهي اذن معلم صريح تدلل على عمق انتمائهم السياسي والفكري، وإخلاصهم الموثق لرؤسائهم الذين بالغوا في اكرامهم، والاحتفاء بهم، ورفع منزلتهم.

ومن هنا فقد كانت رسائل أبي إسحاق الصابي في حاضرة بغداد، ورسائل أبي الفضل ابن العميد في الري وكور الجبل وسواها من بلاد المشرق الإسلامي مثلا، سجلا حافلا بامجاد الأمراء البويهيين، وبخاصة في صدر مرحلة تسلطهم على حاضرة الخلافة الإسلامية، واتساع نفوذهم في أقاليم المشرق الإسلامي.

ذكر الثعالبي يقول، منوهاً بالصابي ورسائله[1]:

" ... وسار ذكره في الآفاق، ودون له من الكلام البهي النقي ما تتناثر درره، وتتكاثر غرره".

وقد اكد ابن النديم[2] أيضاً وجود تلك الرسائل في عصره، وحددها بأنها تضم نحو ألف ورقة.

بينما كانت رسائل عبد العزيز بن يوسف في شيراز، ورسائل الصاحب وعهوده في أصفهان والري، وثائق غراء، وصحائف منارٍ لانتصارات الأمير البويهي عضد الدولة وامجاده السياسية والعسكرية الحافلة، فضلا عن عهد اخويه من بعده (مؤيد

(١) يتيمة الدهر: ٢٨٧/٢.

(٢) الفهرست ص١٣٤، وقد اكد ذلك ياقوت (معجم الأدباء ٩٤/٢)، وينظر أيضاً القفطي ص ٥٤، حيث ذكر يقول: "وديوان رسائله مجموع".

الدولة) و(فخر الدولة)[١].

وهكذا يقال أيضاً عن رسائل جهابذة الكتاب في الامارات والممالك الأخرى كالإمارة السامانية في خراسان، والإمارة الغزنوية في غزنة، وغيرهما، إذ لم يكن مصادفة أن يحظى (أبو عبد الله العميد)، كاتب الأمير نوح بن نصر الساماني، بالرتبة الكبرى من الكتابة، وأن تغدو رسائله مدونة بخراسان، كما أشار أبو منصور الثعالبي[٢]، لولا الدور الخطير الذي خطته صحائف رسائله في سجل الزمان لأسياده الأمراء السامانيين، وتوثيق سيرهم، وتدوين امجادهم ...

وهكذا يقال أيضاً عن رسائل خصمه وخليفته أبي القاسم الإسكافي، ذكر الثعالبي يقول[٣]: "ورسائله كثيرة مدونة سائرة في الآفاق، لا يسع هذا الكتاب إلا الأنموذج مما يجري مجرى الأمثال منها ..."

وما سجلناه عن صدور كتاب الإمارة البويهية، والإمارة السامانية، في هذا القرن، يقال عن غيرهم أيضاً في حواضر الممالك الإسلامية الأخرى.

****

وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين نصوص هذه المكاتبات والرسائل المدونة من جهة، وبين تواصل نفوذ أمراء تلك الممالك المتصارعة من جهة أخرى، وعلى الرغم مما تعرضت له تلك الرسائل - تبعا لذلك - من عوامل الضياع والانتحال والطمس والتزييف - كما مر بنا في المبحثين المتقدمين - بسبب استمرار تلك الحروب الطاحنة والصراع السياسي والفكري والمذهبي بين حكام تلك الممالك المتخاصمة، فضلا عن العوامل الأخرى التي تقدم ذكرها، فقد حفظ لنا الزمن من قناع النسيان غيضا نفيسا عذبا من تلك المجاميع النثرية المدونة، نشر وحقق بعضا منها لفيف من الأساتذة والباحثين بينما بقي البعض الاخر منها رهين الأركان العالية من دور المخطوطات والمجامع العامة في بقاع العالم.

ولعل أهم تلك المجاميع النثرية ودواوين الرسائل التي وصلت إلينا هي:

---

(١) يراجع في هذا الجانب الباب الأول (باب الفتوح)، رسائل الصاحب بن عباد: ٣ - ٣٣، وتراجع رسائل عبد العزيز بن يوسف (يتيمة الدهر ٢ - ٣٦٩ - وما بعدها).

(٢) يتيمة الدهر ٣/١٨٤.

(٣) يتيمة الدهر: ٤/١١٠.

١ - رسائل أبي إسحاق الصابي:

سبق أن أشرت إلى أن رسائل الصابي تعد جزءاً مهما من ارث الإمارة البويهية وتاريخها السياسي والفكري والعسكري الحافل إبان هذا القرن، ومما زاد في أهميتها أيضاً أن أكثرها قد صدر عن ديوان الرسائل في حاضرة الخلافة الإسلامية، الذي تسنم الصابي رئاسته منذ عام ٣٤٩هـ وحتى وفاته عام ٣٨٤هـ.

ومن هذا المنطلق فقد حرر الصابي رسائل كثيرة جدا وصفها الثعالبي وعبر عنها بقوله[١]:

" ودون له من الكلام البهي النقي ما تتناثر درره، وتتكاثر غرره".

وقد سبقت الإشارة إلى ما حدده (ابن النديم[٢]) من سواد رسائله التي كانت تضم نحو ألف ورقة، وايد ذلك ياقوت الحموي[٣].

وعلى الرغم مما تعرض له تراثنا الأدبي النفيس، في هذا القرن، من ضياع وطمس وانتحال - كما مر بنا انفا - فربما وصل إلينا لأبي إسحاق الصابي من مجموعات المخطوطات النادرة التي حوت فصول رسائله الانيقة، ما لم يصل إلينا مثله لغيره من كتاب وبلغاء عصره! إلاّ أنَّ ما يؤسف له أن معظم هذا الفيض من نسخ المخطوطات لم تر النور، ولم يحقق أو ينشر منها إلا غيض يسير.

لقد وصلت إلينا من رسائل أبي إسحاق الصابي ثلاث مجموعات[٤]، بنسخ متعددة لكل مجموعة منها وهي كما يأتي:

- المجموعة الأولى: وتحمل عنوان: "المختار من رسائل الصابي"

ونسخ المخطوطات من هذه المجموعة كثيرة جدا[٥]، وهي موزعة بين (استنبول)، و (القاهرة)، دار الكتب المصرية، حيث تضم منها اربع نسخ من هذه

---

(١) المصدر نفسه: ٢/٢٨٧.

(٢) الفهرست: ص١٣٤.

(٣) معجم الأدباء: ٢/٩٤.

(٤) لقد استقصى الباحث (مهدي البدري) تلك المجاميع وفصل في ذكر اماكنها وارقام مخطوطاتها في رسالته: (أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه / الباب الثاني، الفصل الأول ص١٣٢ - ١٣٦ وينظر أيضاً ما ذكره المستشرق بروكلمان من مخطوطات ضمت رسائل الصابي في بلاد الغرب. (تاريخ الأدب العربي ٢/١٢٠).

(٥) تراجع رسالة الباحث مهدي البدري ص ١٣٣ - ١٣٤.

المجموعة، ومعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية.

ومن ضمن نسخ (دار الكتب المصرية) الاربع، مخطوط " منشآت الصابي " التي أشار إليها المستشرق كارل بروكلمان[١]، ولعل هذه المجموعة أهم من سواها - مما سيرد ذكره - بسبب نشر أو تحقيق جزء كبير منها، وتداولها بين الباحثين والدارسين.

نشر الأمير شكيب ارسلان[٢]الجزء الأول من هذه المجموعة القيمة التي تضم (خمسا وثلاثين ومائة) رسالة، نشر منها وحقق (اثنتين وأربعين) رسالة طويلة، تشكل نحو نصف هذه المجموعة، وبقيت منها نحو (ثلاث وتسعون) رسالة لم تنشر، ولم تر النور بعد، على أنها تؤلف النصف الأصغر من هذه المجموعة. وقد ضمت هذه النشرة في حواشيها شروحا قيمة للحوادث التاريخية التي ورد ذكرها في الرسائل، كما حوت شروحا مستفيضة لمفردات الرسائل.

ولعل ما يؤخذ على المحقق انه قد اعتمد في نشر هذه المجموعة على نسخة واحدة، ولم يقابلها على نسخ أخرى غيرها، وقد اعتمدت في دراستي لرسائل الصابي على هذه النشرة لأهميتها، وقدم نشرها.

- المجموعة الثانية: وتحمل عنوان (رسائل أبي إسحاق الصابي)

وقد وصل إلينا من هذه المجموعة أيضاً نسخ عديدة[٣]، لعل أهمها نسختا دار الكتب المصرية بالقاهرة[٤]، ونسخة مكتبة الأزهر[٥]بالقاهرة أيضاً.

اما ما تضمُّهُ هذه المجموعة النفيسة في ثناياها من رسائل للصابي، فيقدر بثماني عشرة ومائة رسالة، وقد تضمنت أربعين رسالة منها موضوع التعزية، والتأبين، وهي مما تفردت به عن سواها من مجاميع ورسائل الصابي الأخرى، بينما شملت الرسائل المتبقية من هذه المجموعة، وقدرها (٧٨) رسالة: موضوعات إخوانية وديوانية

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٢/١٢٠.

(٢) تم طبع ونشر هذا الجزء من هذه المجموعة في باعبده - لبنان عام ١٨٩٨ م.

(٣) تراجع المعلومات عن نسخ هذه المخطوطات وارقامها واماكنها في رسالة: أبي إسحاق الصابي حياته وأدبه: ص ١٣٥.

(٤) تحمل هذه النسخة رقم ١٥٢٧/أدب، وتضم ٢٠٤ ورقة من القطع المتوسط، وقد كتبتْ بخط جيد وواضح.

(٥) وهذه المخطوطة تحت رقم (خصوصي) ٥٦١ اباضة، و(عمومي) ٧١٥٦، وتضم ١٨٨ ورقة من القطع المتوسط أيضاً، وكتبت بخط جيد، واسم ناسخها أحمد العجماوي عام ١٢٩١ هـ.

متنوعة أخرى.

المجموعة الثالثة: وتحمل عنوان " رسائل إبراهيم بن هلال "

ويطلق عليها في بعض نسخ هذه المجموعة أيضاً: رسائل أبي إسحاق الصابي وتضم هذه المجموعة تسعا وستين ومائة رسالة، وقد أشار الباحث مهدي البدري إلى وجود اربع نسخ من هذه المجموعة محفوظ أكثرها من خزائن متفرقة في إيران[١].

ويمكن تقدير عدد الرسائل التي حوتها هذه المجموعات الثلاثة بأكثر من مائتي رسالة، وقد تكرر بعضها في نسخ هذه المجاميع، وربما تكون هذه الرسائل قد نسخت عن (ديوان رسائل الصابي) الذي جمعه في حياته، كما أشار إلى ذلك ابن النديم، وأكده القفطي وياقوت الحموي كما ذكرنا.

****

إن رسائل هذه المجموعات الثلاث تمثِّل جانبا مهما من سيرة هذا الأديب الكاتب وصلته بالإمارة البويهية وتاريخها، وأحداثها المهمة، وهي فضلا عن ذلك تؤرخ لكثير من أمراء البيت البويهي وأعلامهم المشهورين وترصد نزعاتهم وأهواءهم، وتوثق حروبهم وانتصاراتهم أو إخفاقاتهم، ومن هنا، عدت هذه الرسائل وثائق مهمة للكشف عن تاريخ هذه الإمارة الإسلامية، إذ أنها وثقت وسجلت كثيرا من الأحداث والوقائع المهمة، ورصدت أموراً دقيقة ربما ندتْ عن تفاصيلها، أو أغفلت جوانب كثيرة منها مصادر التاريخ المعاصرة لها آنذاك.

ولما كان الأدب - ولا سيما النثر الفني - ضربا مهما من ضروب الفنون الراقية، فإنه لا بد أن يتأثر بالظروف السياسية والاجتماعية المتقلبة، ويستجيب لتداعياتها، ويتلون بألوانها.

ومن هنا فقد كانت رسائل (الصابي) بخاصة في هذه الإمارة، إبان هذا القرن، مرآة واضحة رصدت الأحداث المهمة، وصوّرت تداعياتها، وكان لها أيضاً دورها الخطير في حسم كثير من المواقف الحرجة[٢].

---

(١) أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه: ١٣٦.

(٢) تنظر مثلا الرسائل التي كتبها الصابي عقب ثورة الاتراك ببغداد، وما اعقبها من خلع المطيع، وتنصيب الطائع سنة ٣٦٣ هـ، فقد كتب الصابي على لسان (عز الدولة) رسائل عديدة لعبت دورا مهما في تلك الأحداث، منها رسالته على لسان بختيار إلى القاضي ابن معروف، المختار من =

وهكذا فقد رصدت أكثر رسائل الصابي جوانب مهمة من الحياة السياسية القلقة، وصورت كثيرا من النزاعات الداخلية في حاضرة الخلافة على عهد البويهين (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ).

كما وثقت رسائله الديوانية أيضاً كثيرا من الحروب العنيفة التي نشبتْ بين الأمراء البويهيين وخصومهم في الامارات المجاورة وبخاصة مع الحمدانيين والسامانيين وغيرهم(١).

٢ - رسائل الصابي والشريف الرضي(*):

لقد ضمت هذه المجموعة ما دار بين الأديبين الكبيرين أبي إسحاق الصابي، والشريف الرضي من مكاتبات شعرية ونثرية بين سنتي ٣٧٦هـ - ٣٨٤هـ، وهي السنة التي توفي فيها الصابي.

ويمكن تقسيم رسائل هذه المجموعة على قسمين:

القسم الأول: المكاتبات بالشعر: وقد ضمت هذه المجموعة ما دار بين الأديبين من مكاتبات شعرية، وقد اشتملت على اربع مكاتبات شعرية للصابي، واربع مكاتبات شعرية للرضي جوابا عنها.

وقد الحق بهذه المجموعة الشعرية القيمة ثلاث قصائد للرضي هي من عيون مراثيهِ الشعرية للصابي.

القسم الثاني: المكاتبات بالنثر: وقد أشتمل هذا القسم على ما دار بينهما من مكاتبات نثرية وهي كما يأتي:

١- نسخة رسالة للشريف الرضي إلى الصابي يعزيه فيها عن ابنه أبي سعيد

=

رسائل الصابي ص٣٤٨ - ٣٥٤، ورسالة أخرى كتبها على لسان بختيار إلى القرامطة (المختار من رسائل الصابي ص ٣٦٥ - ٣٦٦).

(١) ينظر رسالة الصابي عن الخليفة المطيع إلى ركن الدولة يصور فيها انتصار الجيوش البويهية على الحمدانيين وجيوش الروم (المختار من رسائل الصابي ص ٨٠ وما بعدها)، وتراجع أيضاً رسالته في أحداث الفتنة عام ٣٦٤ هـ، إذ كتب منها نسخا كثيرة وجهها إلى الأمراء البويهيين لنصرة عز الدولة.

(*) صدرت هذه المجموعة عن: منشورات التراث العربي (وهي سلسلة تصدرها دائرة المطبوعات والنشر في الكويت) بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم. الكويت ١٩٦١، وقد حوت هذه النسخة مجموعة رسائل الكاتبين الشريف الرضي وأبي إسحاق الصابي، جرى تبادلها بالشعر والنثر بين سنتي ٣٧٦هـ - ٣٨٤هـ، وقد زيد عليها ما قاله الرضي شعرا في رثاء صديقه الصابي.

سنان، وقد انفذها إليه في شهر ربيع الثاني سنة ثمانين وثلاثمائة للهجرة، والرسالة نموذج عال للإنشاء الفني، وهي رسالة طويلة تقع في سبع صفحات من القطع المتوسط[١].

٢- نسخة جواب الصابي، وهي رسالة جوابية قصيرة تقع في اقل من صفحتين من القطع المتوسط[٢].

٣- رقعة للشريف الرضي، وهي نسخة (تذكرة) أنفذها إلى الصابي في سنة ٣٨٠هـ وقد رسم له من حضرة الخليفة الطائع لله، أن يكتب له عهدا بافراده بتقليد نقابة نقباء الطالبيين، والنظر في أمور المساجد بمدينة السلام، واستخلافه لوالده على النظر في المظالم، والحج في الناس[٣]، ومعها نسخة جواب الصابي على رقعة الشريف الرضي[٤].

٤- نسخة من رقعة أخرى كتبها الرضي إلى الصابي، يسأله فيها إنشاء عهد ثان إليه عن الخليفة الطائع لله، بتقليد عمل آخر، وكان شرع له في تقلده في سنة ٣٨١هـ[٥]، وبعدها نسخة الجواب من أبي إسحاق عن رقعة الرضي[٦].

٥- نسخة رسالة للصابي تضمنت أبياتاً أنفذها إلى الرضي - وهي في حفظ السر - يسأله فيها أن يحكم ويختار الأفضل منها موازنة مع مقطوعات أخرى لشعراء آخرين ونسخة الجواب عنها، وذلك من سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة للهجرة[٧].

ورسالة الشريف الرضي (الجوابية) هي من الرسائل الأدبية النادرة، وتتضمن تعليقات وتحليلات نقدية ثاقبة، تدور حول الموازنة بين مقطعات

(١) تراجع الرسالة في: رسائل الصابي والشريف الرضي ص ٦٣ - ٧٠.
(٢) رسائل الصابي والشريف الرضي ص٧١ - ٧٢.
(٣) رسائل الصابي والشريف الرضي: ص٧٣ - ٧٥.
(٤) المصدر نفسه: ص٧٥ - ٧٦.
(٥) رسائل الصابي والشريف الرضي: ص ٧٧ - ٧٩.
(٦) المصدر نفسه: ص٨٠ - ٨١.
(٧) المصدر نفسه: ص٨٢ - ٩٣.

شعرية عديدة لشعراء مختلفين، تنصب حول معنى واحد هو (كتمان السر)، والرسالة أيضاً وقفة مهمة في الترجيح بين المعاني الشعرية، وصورة واضحة للبديهة النقدية بعيدا عن الصنعة واعمال الخاطر. يقول الرضي:

" ...وقد اجبت - ايد الله مولاي ورئيسي الشيخ ... بما سمح به خاطر البديهة ولم انتظر به خواطر الروية ..."[١].

٦- نسخة جواب الصابي على رسالة الرضي الأدبية[٢]، كتبها إليه وهو عليل والرسالة موجزة جدا، وفيها يتضح رأي ثابت للصابي، وحكم واضح على أدب الرضي - شعره ونثره - فضلا عن نقده وصواب أحكامه.

٧- نسخة (رقعة) كتبها الصابي[٣]، إلى الرضي، يهنئه فيها بعيد الفطر من سنة أربع وثمانين وثلاثمائة للهجرة، ويعتذر من تأخره عنه بالعلة التي به، ويشكو حاله.

٨- نسخة الرسالة الجوابية على رسالة الصابي الأنفة الذكر، وهي رسالة بليغة تقع في أكثر من اربع صفحات من القطع المتوسط[٤].

٩- نسخة كتاب للشريف الرضي[٥] إلى بعض أصدقائه من الرؤساء عقب وفاة الصابي يعاتبه فيها على تأخير مكاتبته، ويصف له ما لحقه على أبي إسحاق من القلق والارتماض، لما كان بينهما من وكيد المودة، ولطيف الالفة، ويذكر محاسنه، ويندب فضائله.

والرسالة طويلة تقع في حدود عشر صفحات من القطع المتوسط، هي بمثابة (مرثاة نثرية) لصديقه الصابي، كما رثاه شعرا.

****

وهكذا يمكن أن تعد رسائل هذه المجموعة - على قلتها وصغر حجمها - وثائق أدبية وتاريخية مهمة، كشفت لنا عن كثير من الأمور السياسية والاجتماعية في

---

(١) رسائل الصابي والشريف الرضي: ص٩٣.

(٢) المصدر نفسه: ص٩٤.

(٣) المصدر نفسه: ص٩٥ - ٩٧.

(٤) المصدر نفسه: ص٩٨ - ١٠٢.

(٥) المصدر نفسه: ص١٠٣ - ١١٢.

هذا القرن وأماطت اللثام عن صلات الخلفاء العباسيين، فضلا عن الأمراء البويهيين الحميمة بالعلويين إبان هذا القرن: وما أسبغوه عليهم من هالة التقدير والاحترام، فضلا عما جلته بعض رسائل هذه المجموعة أيضاً عن بعض آيات التسامح الديني بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى في ظل الحكم البويهي إبان هذا القرن ...

٣ - مجموع رسائل الصاحب بن عباد [*]:

سبقت الإشارة إلى أن ديوان رسائل أبي القاسم الصاحب بن عباد قد تم جمعه وتدوينه في حياته، وقد استدللنا على ذلك بخبرين مهمين أوردهما علمان مبرزان من أدباء ومصنفي هذا القرن، وهما:

أ- ما ذكره (ياقوت) نقلا عن أبي حيان في (مثالب الوزيرين) من أن (نجاح بن سلمة) ناظر خزانة كتب الصاحب، قدم للتوحيدي - عند وفادته على الصاحب - ثلاثين مجلدة من رسائل الصاحب، وطلب إليه نسخها، فاعتذر التوحيدي عن ذلك خوفا على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال[١].

ب- الخبر الذي ساقه الثعالبي بخصوص إحدى رسائل الصاحب المشهورة في (الطب) إذ يمكن أن يستشف الباحث من قول الثعالبي:

" إلى أن ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ..."[٢].

إن مجموع رسائل الصاحب بن عباد، أو (ديوان رسائله)، قد جمع ودون في حياته، وأنه كان - على ضخامة حجمه - متداولا بين الأمراء والطبقة الخاصة من الأدباء وغيرهم آنذاك.

ويبدو بوضوح أن ما مني به تراث الرسائل في هذا القرن من طمس وضياع، أو حرق واتلاف وانتحال - لأسباب عديدة سبق أن عرضنا لتحليلها - قد شمل في

(*) هذه النشرة هي مختارات من مجموع ديوان رسائل الصاحب بن عباد، وقد قام بتحقيقها الأستاذان الباحثان: عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف، عن نسخة مصورة بدار الكتب الملكية المصرية رقم (٤٨٨٠ / أدب)، وهي مصورة عن مخطوطة في المكتبة الاهلية بباريس، كتبت في القرن السادس للهجرة، ونشرت عن دار الفكر العربي، (الطبعة الأولى) في القاهرة عام ١٣٦٦ للهجرة.

(١) معجم الأدباء ٣٩٦/٥، وينظر أيضاً: النثر الفني في القرن الرابع ١٦٢/٢.

(٢) يتيمة الدهر ٢٣٧/٣ - ٢٣٨.

جملته ديوان رسائل الصاحب بن عباد أيضاً، فهو أحد أبرز الوزراء البويهيين في حقبة زمنية امتدت لأكثر من عقدين، فضلا عن أنه كان أحد دعاة الاعتزال في عصره، وكان أيضاً ممن عرف باعتناقه وتحمسه لمذهب التشيع، ولعل كل هذه الأمور وغيرها كانت أسباباً كفيلة لطمس كثير من نتاج هذا الوزير الأديب، وضياع معالم أدبه وتشويهه، أو نحله وتزييفه!

وهكذا لم يصل إلينا ما نعتمد عليه في الكشف عن بلاغة هذا الأديب الكبير - على الرغم من رفعة منزلته السياسية، وسمو مكانته بين أدباء عصره - إلا نزر يسير من شذرات ترسله، تمثل فيما ذكر جانبا منه المستشرق كارل بروكلمان(١)، فضلا عما تناثر للصاحب من نصوص أدبية بليغة، مبثوثة في العديد من مظان الأدب والتاريخ والتراجم(٢) ونبذ قصيرة من آراء متناثرة عن طريقته في الكتابة، أو أسلوبه في صناعة الإنشاء أو الترسل ...

اما النشرة المتداولة بعنوان (رسائل الصاحب بن عباد) فهي جزء من ديوان رسائله، ومختارات من مجموع ذلك الديوان، وقد قام بنشرها وتحقيقها الأستاذان عبد الوهاب عزام، وشوقي ضيف، وقد أشار المحققان في المقدمة إلى أن هذه النسخة المنشورة من رسائل الصاحب هي " مختارات منها، مرتبة على أبواب ديوان الرسائل".

وقد اثبت المحققان في بداية هذه الرسائل المنشورة إشارة موجزة ومهمة لجامع هذه (المختارات)، ذكر فيها صنيعه ومنهجه في هذه المجموعة، إذ قال(٣):

"ذكرت - اطال الله بقاءك - شديد حرصك على تحفظ بعض رسائل الصاحب كافي الكفاة (رضي الله عنه)، واحتياجك إلى من تستعين به على جمع ذلك مبوبا، مختارا الاشف فالاشف منه، فوعدتك القيام لك به، وجردت له عنايتي، وخرجت من كل باب من أبواب ديوان رسائله العشرين(٤)عشر رسالات، ليخف حجم هذا

---

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربي ٢/٢٧٠، إذ أشار بروكلمان إلى مخطوط يشتمل على مختار من رسائل الوزير الصاحب: القاهرة / ثاني ٣/٣٣٨، كما أشار إلى وجود منتخب من رسائله في باريس / أول ٣٣١٤ رقم (٢) وغيرها.

(٢) تراجع فصول الرسائل التي أوردها الثعالبي في اليتيمة ٣/(ترجمة الصاحب)، فضلا عما أورده له في كتبه الأخرى ولا سيما (خاص الخاص)، و(من غاب عنه المطرب).

(٣) مقدمة مجموع رسائل الصاحب بن عباد ص١.

(٤) تضم هذه (المختارات) عشرين بابا، ينظر فهرس هذا المجموع ص٢٥٤ - ٢٦٠.

المجموع، ولا يعتاص تحفظه ...".

غير أن جامع هذه (المختارات) لم يف بما وعد به في تخريج هذه الرسائل إذ اننا نجد في الباب التاسع والباب العاشر والباب الخامس عشر إحدى عشرة رسالة لا كما الزم نفسه في المقدمة بعشر رسائل لكل باب من أبواب المجموعة.

****

لقد وثقت رسائل الصاحب بن عباد - إلى جانب رسائل الصابي - ازهى عصور الإمارة البويهية - بوصفه أحد مشاهير وزرائهم - وقد تمثل ذلك بعهد الأمير ركن الدولة البويهي، وعهود أولاده الثلاثة من بعده، عضد الدولة، ومؤيد الدولة، وفخر الدولة.

وقد جاءت رسائل الوزير الصاحب التي ضمتها هذه (المختارات) موافقة أو متطابقة مع كثير من الأحوال والأحداث التي وقعت إبان هذا القرن على عهد هذه الإمارة الإسلامية، وجاء بعض تلك الرسائل أيضاً - ولا سيما الباب الأول، وهو باب "في البشائر والفتوح" - موافقا لرواية الثقات من المؤرخين القدماء عن حروب البويهيين ووقائعهم العسكرية التي استعرت مع خصومهم السياسيين في هذا القرن، كما المت بعض رسائل الصاحب أيضاً بأحداث وأمور خطيرة جرت في اصقاع نائية من بلاد المشرق الإسلامي، لم توثقها، أو تقف عند جزئياتها أدق كتب التاريخ المعاصرة لتلك الأحداث أو القريبة منها، ولا سيما حروب الأمير عضد الدولة مع خصومه من السامانيين ومن تحالف معهم من الزياريين، فضلا عن حروبه مع الحمدانيين في الموصل، وحروبه مع بعض اقاربه من البويهيين وحروبه الخارجية الأخرى، وبخاصة مع الروم[1].

---

(١) تراجع فصول رسائل الصاحب في الباب الأول (في البشائر والفتوح) ص٣ - ٣٣، فقد تضمنت الرسالة الأولى - على سبيل المثال - وصفا تحليليا دقيقا لانتصار جيوش عضد الدولة وهزيمة اعدائه على باب (استرباذ)(ص٣ - ٨)، وينظر أيضاً: الرسالة الثامنة من هذا الباب في الفتح الأكبر، ص٢٢ - ٣٠. وينظر أيضاً: الرسالة السابعة من هذا الباب ص١٨ - ٢٢ التي انصبت على وصف الحرب مع عز الدولة بختيار. وتراجع أيضاً الرسالة الرابعة في هذا الباب ص١١ - ١٣ التي انصبت على تصوير حرب عضد الدولة مع أبي تغلب الحمداني، فضلا عن الالمام بأحداث أخرى مهمة، وتراجع الرسالة الجوابية الثالثة من هذا الباب ص١٠ - ١١، التي تضمنت الجواب على البشارة بتذلل الروم وطلبها الهدنة. وغيرها من الرسائل الأخرى.

ولعل خير ما نختتم به هذه الإلمامة السريعة، عن هذه المجموعة من مختارات رسائل كافي الكفاة الصاحب بن عباد، ما نوه به (محققا) هذه المجموعة عن توثيق صحة هذه الرسائل المنشورة، وصحة نسبتها للوزير الصاحب. إذ ذكرا[١]:

" ... بل عرضناها - أي الرسائل المنشورة - على التاريخ. فوافق ما تضمنته من الأحداث والأحوال، ما رواه الثقات من المؤرخين عن دولة بني بويه، ففيها من أحوال دولتهم وأخبارها، وذكر رجالها، ما لا يدع شكا في أنها لوزير من وزرائهم وفيها من الأمور الأخرى التي تخص الصاحب، كاستقبال عضد الدولة إياه، واهتمامه بالمعتزلة ومذهبهم، ما لا يترك ريبة في أن كاتبها هو الصاحب إسماعيل بن عباد الوزير البويهي، الذي عرف بدعوته إلى الاعتزال، ولو لم تنسب هذه الرسائل إليه، ما صعب على القارئ أن يثبت أنها له ...".

وهكذا يمكن أن نطمئن أيضاً، مع محققي هذه المجموعة من رسائل الوزير الصاحب بن عباد، بأن جل رسائل هذه المجموعة - على الرغم من أنها لا تمثل جميع ترسل كافي الكفاة الصاحب، ولا تصور إلا جوانب من مكاتباته الرسمية وعهوده الخاصة، فضلا عن بعض رسائله الإخوانية والأدبية - تسجل أحداثا ووقائع مهمة في هذا القرن، ومن هنا فقد غدت هذه الرسائل بمثابة وثائق أدبية وتاريخية مهمة تجلي الكثير من الأحداث التي ربما أغفلت بعضها مظان التاريخ المتخصصة، كما كشفت هذه الرسائل أيضاً عن جوانب أخرى مهمة لشخصية الصاحب بن عباد، تمثلت بورعه وتقواه من خلال ما صدر عنه من رسائل وعهود مثلت جانبا مهما من التزامه بالعدل في الأحكام والميل عن الجور، وأنصاف الرعية، وما إلى ذلك من أمور مهمة أخرى لم تكشف عنها رسائله الإخوانية الخاصة ...

٤ - رسائل أبي بكر الخوارزمي:

لقد مر بنا في غير هذا الموضع، عناية أبي بكر الخوارزمي بنتاجه الأدبي - ولا سيما ديوان رسائله - وحرصه الكبير على جمعه وتدوينه في حياته، وأشرنا أيضاً إلى أنه كان يتهاداه مع تلاميذه وغيرهم، أو مع بعض أمراء الممالك في عصره.

وقد اكد أبو منصور الثعالبي - وهو من معاصريه واحد تلاميذه - ذلك إذ قال[٢]:

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد - مقدمة المحققين (ب).

(٢) يتيمة الدهر ٤/٢٢٣، وينظر أيضاً: وفيات الاعيان ٤/٤٠١.

" وديوان رسائله مخلد سائر ..."

إلا أن قناع النسيان قد أسدل على هذا السفر النفيس استاره، كنظائره النادرة من مجاميع أو دواوين الرسائل التي عفا عليها الزمن، فلم يصل إلينا منه إلا أشتات متناثرة من مخطوطاته(١) التي دونها النساخ والوراقون عبر عصور متلاحقة.

وعلى هدي هذه (الاشتات) المتناثرة التي سلمت من الضياع، ومن نسخها الثر تم طبع ديوان رسائل أبي بكر الخوارزمي طبعات عديدة في بقاع مختلفة، منها:

- طبعة (كوبريلي) في سنة ١٢٧٤ هـ، وهي اقدم نشرة لهذا الديوان.
- ثم طبعت بعدها بخمس سنوات في بولاق عام ١٢٧٩ هـ، وقد عرفت هذه النشرة بالطبعة العثمانية(٢).
- ثم طبعت في (استانبول)، بمطبعة الجوائب عام ١٢٩٧ هـ.
- ثم طبعت في (بومباي) بالهند عام ١٣٠١هـ / ١٨٩١م(٣).
- ثم نشرت أخيرا (دار مكتبة الحياة) ببيروت عام ١٩٧٠ م بإشراف المحقق الأستاذ نسيب وهيبة الخازن عن نشرة (استانبول) بمطبعة الجوائب، مجموع (رسائل أبي بكر الخوارزمي).

ومما يؤسف له، إن هذه النشرة الأخيرة لديوان رسائل الخوارزمي لم تختلف كثيرا عن مثيلاتها من الطبعات أو النشرات السابقة، إذ أنها لم تحقق تحقيقا علميا شافيا، وظلت تماثل قريناتها السابقة في ترتيب الرسائل، وافتقرت إلى التبويب والتنظيم، وافتقرت أيضاً إلى التدرج الزمني في أدراجها أو إخراجها، كما إنها لم ترتب وفق الموضوعات الكثيرة التي عالجتها ...

وقد ضمت هذه النشرة من مجموع رسائل أبي بكر الخوارزمي زهاء ست وخمسين ومائة رسالة، افتقرت في عرضها إلى الضبط والشرح أو التعليق، وهذه النشرة بحاجة ملحة إلى تحقيق علمي جديد تقابل فيه على ما يتيسر من نسخ المخطوطات الموزعة في خزائن دور المخطوطات العالمية المعروفة ...

---

(١) أشار المستشرق الالماني (كارل بروكلمان) إلى بعض مخطوطات ديوان رسائل الخوارزمي واماكنها وارقامها. ينظر: تاريخ الأدب العربي ١١١/٢.

(٢) تراجع رسالة الباحث محمود صالح الضمور: أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه ص١٤٤.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ١١١/٢.

٥ - مجموع رسائل بديع الزمان الهمذاني:

لقد حظيت رسائل بديع الزمان الهمذاني، منذ القدم، بعناية كثير من النساخ وأهل الأدب، فعكف كثير منهم على جمعها وتدوينها وتداولها، نظرا لما تمتعت به تلك الرسائل من جمال الأسلوب، وحسن المعاني، وتشعب الفنون.

وعلى الرغم من أن أكثر رسائل بديع الزمان قد انصبت على علاقاته الخاصة، أو على مسائل أدبية محضة - باستثناء رسائل معدودة، وصلت إلينا، تصور جانبا من صلاته أو علاقاته السياسية، وصلاته مع بعض أمراء الممالك المستقلة أو وزرائهم آنذاك - إلا أن بعض الرؤساء ووزرائهم قد عنوا بجمعها وتدوينها، لا لغايات سياسية أو مذهبية، وإنما للإفادة من طرزها، وبزها، وحسن معانيها.

ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه، إن جامع رسائل بديع الزمان - وهو الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست - قد جمعها بتكليف أو بايعاز من بعض الرؤساء أو الوزراء في عصره.

يقول الحاكم أبو سعيد في ديباجة مجموع رسائل بديع الزمان، مشيرا إلى سبب جمعها، واذعانه لتلبية امر من كلفه بجمع هذا الديوان[١].

"... سألت - أدام الله توفيقك، وسهل إلى نفائس الخيرات طريقك - أن أجمع لك آثار أبي الفضل أحمد بن الحسين البديع نظمها ونثرها، واؤلف شواردها قلها وكثرها، ليكون متفكها لخاطرك، اوان فراغك من دواعي اشغالك، ومتنزها لناظرك وقت انتفاضك من عوارض احوالك ... وقد اجبت إلى مسؤولك، وجعلت بعض اوقاتي مصروفة لتحصيل مأمولك، وجمعت لك ما وجدته من الرسائل والرقاع لتنظر فيها وتستفيد، ويقرب اليك منها ما تريد، والله الموفق للصواب".

وهكذا يتضح جليا أن الحاكم أبا سعيد إنما قام بجمع رسائل الهمذاني بتكليف من بعض الرؤساء أو الحكام في عصره، وإن الغاية الأساسية من هذا الصنيع، هو السبب الفني، أو الإعجاب بهذه النصوص الأدبية النفيسة، وما تحويه من حلل فنية نادرة، وما تحققه لمتلقيها من متعة جمالية، وغايات تهذيبية وغيرها.

ولعل هذا ما حفز بعض النساخ[٢]، والأدباء وغيرهم على تدوينها وجمعها،

---

(١) كشف المعاني والبيان من رسائل بديع الزمان - المقدمة ص٦.

(٢) أشار المستشرق كارل بروكلمان: (تاريخ الأدب العربي ١١٥/٢) إلى بعض رسائل بديع الزمان =

وتداولها، ودفع الناشرين على اعادة نشرها وطبعها مرارا[١].

لقد نشرت رسائل الهمذاني وطبعت طبعات عديدة له أهمها:

- طبعت طبعة قديمة على هامش (بديعية ابن حجة الحموي) في بولاق عام ١٢٩١ هـ، ولعلها اقدم نشرة حديثة لهذا المجموع من رسائل بديع الزمان.
- أعيد نشر الطبعة الآنفة الذكر، بصورة مستقلة، عقب النشرة الأولى بسبع سنوات في (استانبول) عام ١٢٩٨ هـ.
- ثم طبعت في بيروت، اعتمادا على النسخة التي جمعها الحاكم أبو سعيد - بشرح الشيخ إبراهيم الاحدب الطرابلسي عام ١٨٩٠م، وقد نشرت بعنوان (كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان) وقد ضمت هذه النشرة نحو ثلاثاً وثلاثين ومائتي رسالة، وهي نشرة جيدة ذات شروح وتعليقات مفيدة جدا.
- ثم أعاد نشرها في بيروت الأستاذ حنا الفاخوري بعد نحو أكثر من ثلاثين عاما على نشرة (الشيخ الاحدب). وكان ذلك عام ١٩٢١م. وقد اعتمد الناشر على شروح الشيخ إبراهيم الاحدب في نشرته هذه.

****

ومما يجدر ذكره هنا، إن رسائل هذه المجموعة - على الرغم من عدم تسلسلها تاريخيا وفق صدورها، أو وفق إنشائها وصدورها عن كاتبها بصورة متدرجة مع مراحل

=

الهمذاني المخطوطة، والموجودة في بعض خزائن المخطوطات في بقاع متفرقة من العالم، وهي:

- (اسكوريال): ثاني ٥٣٦.
- (القاهرة): ثاني ١٥٩: ٣.
- وتوجد أيضاً بعنوان: (منشآت المعاني ومفردات المباني) في: (ليبزج) بالمانيا، أول ٥٩٢.
- ويوجد شرح منشآت رسائل البديع في (آياصوفيا) ٣٩٩٦، ٤١٩٤.

وقد جمع بعض النساخ رسائل الهمذاني الموجهة إلى أبي بكر الخوارزمي ودونها وحدها مجموعة في نسخة مستقلة، وهي مخطوطة موجودة في المتحف البريطاني. ٦٢٨٥ Or رقم ٣ (المتحف البريطاني ثالث ٥٩). ينظر: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ١١٥/٢.

(١) ينظر طبعات مجموع (رسائل الهمذاني) المرجع السابق ١١٥/٢.

حياته، وتنقله عبر أسفاره الكثيرة المعروفة في أقاليم المشرق الإسلامي - عند مقابلتها على أحداث التاريخ المعروفة، وما مر بمنشئها من احوال واطوار، نجدها تمثل خطا واضحا لسيرة هذا الأديب الكاتب، وما صادفه في حياته المتقلبة من بؤس ونعيم، وظعن واستقرار وانتصار واخفاق، وما إلى ذلك من أمور متباينة، وفضلا عن ذلك فإن رسائله الأدبية والإخوانية تجسد نموذجا آخر - إلى جانب مقاماته المشهورة - لأسلوب الصنعة الفنية التي بدأت تطغى على الإنشاء العربي، وصناعة الترسل في القرن الرابع للهجرة.

٦ - مجموع رسائل الأمير قابوس بن وشمكير (كمال البلاغة):

من الأمراء الكتاب، واعيان الطبقة الخاصة، الذين حظوا بعناية عدد من المؤرخين، ومصنفي كتب التراجم والأدب في هذا القرن: الأمير شمس المعالي قابوس ابن وشمكير الزياري، الذي " جمع الله له إلى عزة الملك بسطة العلم، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم "[١].

ولعل ما حفز هؤلاء الأدباء والمصنفين على الاهتمام بترسل الأمير قابوس، وعكوفهم على تدوين أدبه وترسله بخاصة، وجمع ما تناثر منه في الآفاق، ما تلمسوه في نثره من أنه كان رقيق حواشي الكلام، عذب ينابيع اللسان، وما شهر به أيضاً من أنه كان إذا حاور سدد سهم الصواب إلى غرض المعنى[٢].

وربما كان هذا أيضاً هو الذي جعل بعض مؤرخي الأدب القدامى يقرنون ترسل الأمير قابوس في البلاغة، وعلو الرتبة، بترسل الوزير الصاحب، وأبي إسحاق والصابي.

فالنظامي السمرقندي مثلا، جعل الأمير قابوس بن وشمكير مع قرينيه مضرب المثل في البلاغة، وجعل اطلاع الكتاب على صحفهم وترسلهم من شأنه أن يبلغ الكاتب إلى مصاف الأدباء المبدعين، يقول[٣]:

"ولا يبلغ كلام الكاتب هذه الدرجة حتى ينال من كل علم نصيبا ... والاضطلاع من صحف الخلف، مثل: ترسل الصاحب والصابي وقابوس ... فكل واحد ممن عددت نسيج وحده في صناعته، ورصد وقته".

---

(١) يتيمة الدهر ٦٧/٤.

(٢) ينظر: زهر الآداب ١٥٩/١، وما نظره الجاحظ في وصف الكاتب، وما ينبغي أن يكون عليه.

(٣) جهار مقالة ص٢٣.

ويصرح الثعالبي بأنه سيتوج كتابه " اليتيمة " بلمع من ثمار بلاغة الأمير قابوس التي هي اقل محاسنه ومآثره، ويعد بأنه سيصنف كتابا خاصا في ترسله وخصائصه ومآثره التي تفرد بها عن ملوك عصره(١).

وهكذا كان دأب المؤرخ العتبي الذي قال - مشيرا إلى رسائله، مشيدا ببلاغة ترسله(٢):

"إن رسائله موجودة في البلاد، عند الأفراد، لكني اكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه، وزهرة من حدائق إحسانه ...".

وممن تجرد للعناية بتدوين غرر مكاتبات الأمير قابوس، وجمع ترسلاته، وتحليل ما انطوت عليه من لمع البلاغة، وافانين الصنعة، والابتكار في ألوان البديع، أبو الحسن عبد الرحمن بن علي اليزدادي(٣)، وقد سمى ما جمعه من مكاتباته، ومتون ترسله " كمال البلاغة". ذكر اليزدادي معللا هذه التسمية لمجموع رسائل الأمير قابوس(٤): "ولهذا سميت الكتاب (كمال البلاغة) لأن هذا الكلام قد بلغ النهاية في الكمال، فمن أنكر قولي فليبرز إلى ميدان الامتحان، وليأت على دعواه بالبرهان".

ويمكن تقسيم كتاب (كمال البلاغة) إلى أربعة اقسام متميزة وهي:

القسم الأول: مقدمة الكتاب وصدره: وقد انطوت المقدمة على بيان هدف المؤلف اليزدادي من تأليف الكتاب، وصنيعه في ترتيبه وتبويبه(٥)، وبيان بدائع ترسل الأمير قابوس، وتفسير هذه البدائع، وقد اشاد اليزدادي في هذه المقدمة كثيرا ببلاغة الأمير قابوس، وأشار إلى دقة صنعته، وحلل افانين ابتكاره(٦).

---

(١) ينظر: يتيمة الدهر ٦٧/٤.

(٢) التاريخ اليميني ١٧/٢.

(٣) أشار العلامة القزويني في حواشيه على كتاب (جهار مقالة) ص٩٩، أشار إلى أن الذي جمع ترسلات الأمير قابوس: هو الامام أبو الحسن علي بن محمد اليزدادي، وما ذهبنا إليه في متن البحث - نقلا عن صدر مقدمة كتاب كمال البلاغة ص١٦ - هو الأشهر، والأقرب إلى الصواب

(٤) كتاب كمال البلاغة ص١٨.

(٥) لعل أهم ما يجدر أن نشير إليه في هذا الجانب هو إشارته الدقيقة إلى عدد القرائن لكل رسالة يوردها، حرصا على الدقة العلمية، واحترازا من حذف بعض اجزائها، يقول اليزدادي (ص١٩): "وذكرت عند مفتتح كل رسالة عدد قرائن الاسجاع الواقعة فيها، لئلا يزاد في الرسالة، ولا ينقص منها".

(٦) تراجع التفاصيل فيما ابتكره الأمير قابوس من الوان البديع - بدائع إنشائه - وبخاصة حلي =

القسم الثاني: ويضم منتقيات من مكاتيات الأمير قابوس وترسله مع بعض صدور معاصريه من الأمراء والوزراء والأعيان في عصره، باستثناء الوزير الصاحب بن عباد. وتشمل هذه المنتقيات من ترسل الأمير قابوس ما يأتي(١):

أ- ثماني رسائل للأمير قابوس إلى ابن العتبي - وزير والي خراسان في عصره - وقد وردت هذه الرسائل في هذا القسم من الكتاب في ثلاثة مواضع متفرقة منه(٢).

ب- اربع رسائل لقابوس إلى أبي الفضل ابن العميد ص٣٨ - ص٤٤، وقد انصبت ثلاث رسائل منها على موضوعات إخوانية، هي التعزية والاستشفاع بينما كانت الرسالة الرابعة رسالة أدبية رائعة في وصف نثر ابن العميد ونظمه.

ت- رسالة قابوس إلى أبي محمد عبد الله بن إسماعيل بن ميكال ص٤٩ - ٥٠، وهي رسالة إخوانية موضوعها التعزية والتأبين.

ث- رسالة الأمير قابوس إلى الشيخ الامين علي بن الفضل ص٥١ - ٥٢، وهي أيضاً رسالة إخوانية موضوعها التعزية والاعتبار.

ج- رسالة الأمير قابوس إلى خاله الاصبهبذ ص٥٣ - ٥٧، وهي رسالة

-

الجناس واصنافه، التي عجز عن الوصول إليها من تقدمه من بلغاء العربية - كما رأى اليزدادي (ينظر المقدمةص١٩ - ٣٢ من كمال البلاغة).

ومما يجدر ذكره هنا، إن اليزدادي كان مغاليا كثيرا في وصف بلاغة الأمير قابوس، وربما كان ذلك صورة واضحة لتحمس بعض الكتاب وتعصبهم لابناء جنسهم، وتقديمه على بلغاء العربية، واستنباطه ما عجزوا عنه (ص١٧ - ١٨)، وربما جاوز الحد في غلوه أيضاً حين وصف كلامه بالاعجاز، وانه ليس من كلام البشر! قال اليزدادي (ص٣٢): "وأنا إن رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عييت به، لاعجازها ... فأقول بلسان طويل: ليس ذا من كلام البشر، ولا من المعرفة البشرية، والإدراك الطباعي، بل هو افاضة القوة العلوية ...".

(١) ينظر: كمال البلاغة ص٣٤ - ص٦٢.

(٢) وردت الرسالتان الأولى والثانية إلى ابن العتبي ص٣٤ - ٣٦، بينما وردت الرسالة الثالثة، والرابعة، والخامسة والرسالتان السادسة والسابعة إليه أيضاً ص٤٤ - ٤٩، بينما وردت الرسالة الثامنة والأخيرة إلى الوزير ابن العتبي ص٦١ - ٦٢، وقد تناولت موضوعات إخوانية عديدة.

طويلة تقع في أربع وخمسين قرينة، وموضوع الرسالة العتاب والفخر والاستمالة، وقد ذكرها أيضاً أبو هلال العسكري في كتابه الشهير (ديوان المعاني)[١].

ح- رسالة الأمير شمس المعالي قابوس إلى أبي الفتح ذي الكفايتين ابن العميد ص٦٢. وهي رسالة إخوانية موضوعها التعزية.

القسم الثالث: ويشتمل على منتقيات من رسائل الأمير قابوس مع الوزير الصاحب ابن عباد، وقد أوردها اليزدادي مع اجوبة الصاحب عنها، ومجموع الرسائل التي أوردها المؤلف للأمير قابوس، إحدى عشرة رسالة مع تسع رسائل جوابية لكافي الكفاة الصاحب بن عباد[٢]. قال اليزدادي يشرح منهجه في الاختيار في هذا القسم من الكتاب[٣].

"وتركت كتب الاجوبة العائدة من أبي الفضل ابن العميد وابنه وغيرهما، إلا اجوبة الصاحب بن عباد، فانني كتبتها اخر هذه الرسائل لخليتين: (إحداهما): لدعواه العريضة كانت في هذه الصناعة، وكونه عند نفسه إن درجته في البلاغة والبراعة فوق درجة كل من تقدمه من بلغاء الكتاب، (والثانية): لأن محاسن الكلام، وغرائب الصنعة لا تظهر إلا إذا قوبل كلام بكلام، وعرض معنى على معنى مثله".

القسم الرابع: ويشتمل هذا القسم على مختارات اليزدادي من رسائل الأمير قابوس وهي رسائل أدبية (فلسفية) خاصة، تعكس علمه وفضله، وبلاغة اسلوبه في شرح قضايا الفلسفة والعلم.

ذكر اليزدادي في مقدمة كتابه يشير إلى هذه الرسائل[٤]: "وله أربع رسائل أخرى منها ثلاث في علم الاوائل، وواحدة في ذكر النبي - عليه السلام - وصحابته، وقد ختمت الكتاب بها ليتعجب الناس منها، فانها موضع التعجب لمن انصف واعترف

---

(١) تراجع رسالة قابوس إلى خاله الاصبهبذ في ديوان المعاني ٨٦/١ - ٨٨.

(٢) أشار الأستاذ محب الدين الخطيب في مقدمة نشرته للكتاب (ص١٠) إلى أن تلك المكاتبات بين الأمير قابوس والوزير الصاحب، ربما كانت في المدة التي خرج فيها الملك من يدي الأمير قابوس، واستيلاء الأمير فخر الدولة البويهي عليه، وكان الصاحب وزيرا له آنذاك.

(٣) كمال البلاغة ص١٨.

(٤) كمال البلاغة - المقدمة ص٣٢ - ٣٣، وينظر أيضاً: إشارة المؤلف إلى هذه الرسائل (الخاصة) الاربع في متن الكتاب أيضاً ص٨٤.

بالحق، فمن اصعب الأمور استعمال الكلام الرسائلي في شرح المعاني الفلسفية، بتلك الفصاحة والعذوبة التي يعجز عنها الخلق قاطبة".

وهذه الرسائل التي انتقاها المؤلف اليزدادي لشمس المعالي الأمير قابوس هي كما يأتي:

أ- رسالة الأمير قابوس في وصف العالم، وذكر تكونه، وهي رسالة فلسفية طويلة، تقع في اثنتي عشرة صفحة، وقد صدرها قابوس بمقدمة قصيرة تقع في اثنتي عشرة قرينة[١].

ب- رسالة الأمير قابوس في الإنسان والحيوان، وهي رسالة فلسفية في ذكر النفس الناطقة، وإنها موجودة في سائر الحيوان، لا في الإنسان وحده، وهي رسالة قصيرة تقع في ثلاث صفحات من القطع الصغير[٢].

ت- رسالة الأمير قابوس في بطلان التنجيم: وهي رسالة علمية فلسفية في بطلان احكام النجوم، وذكر السبب الذي دعا الأوائل إلى وضع هذه الوساوس والترهات البسابس.

وهي رسالة طويلة تقع في سبع صفحات من القطع الصغير[٣].

ث- رسالة الأمير قابوس في ذكر النبي - عليه السلام - وصحابته (ر)، وهي رسالة أدبية تاريخية قصيرة، تقع في ثلاث صفحات من القطع الصغير، وتضم هذه الرسالة إحدى وأربعين قرينة[٤].

ج- وادرج اليزدادي أيضاً، رسالة أدبية قصيرة خامسة، لم يشر إليها في مقدمة كتاب (كمال البلاغة)، وهي في ذكر التكنية، وما فيها من النقص والزرية. وهي رسالة قصيرة تقع في خمس عشرة قرينة، تعالج موضوعا طريفا، يخالف ما تجري عليه الطبائع في تزيين الكنية، وما ألفه العرب، بخاصة في استخدام الكنية للتعظيم[٥].

---

(١) ينظر كتاب كمال البلاغة ص٨٤ - ٩٥.

(٢) ينظر كتاب كمال البلاغة ص٨٤ - ٩٥.

(٣) كمال البلاغة ص٩٩ - ١٠٥.

(٤) المصدر نفسه ص١٠٦ - ١٠٩.

(٥) المصدر نفسه ص١٠٩ - ١١٠.

٧ - المستخرج من مجموع رسائل أبي الفضل الميكالي:

لقد مر بنا آنفا أن أكثر أعلام الأدباء والكتاب في هذا القرن، كانوا يحرصون على جمع شذرات تراثهم الأدبي - ولا سيما دواوين رسائلهم - في حياتهم، كما عنوا أيضاً بجمع تراث معاصريهم من مشاهير الأعلام، وصدور الكتاب، لأسباب عديدة الممنا بذكرها وتحليلها.

وكان الأمير الأديب أبو الفضل الميكالي أحد أشهر من عنوا بجمع التراث الأدبي وتدوينه وإخراجه، فضلا عن حفظ فصول الرسائل البليغة لجهابذة الكتاب وصدورهم في هذا القرن، وروايتها أو سردها في محاضراته، أو معارضتها في ترسله وأدبه، كما سبق أن أشرت آنفا.

لقد حرص الأمير أبو الفضل الميكالي كثيرا على جمع ديوان رسائله في حياته - إلى جانب عنايته بجمع تراث معاصريه من صدور الأدباء وروايته وحفظه - وعمل على حسن إخراجه وتبويبه، ومن هنا فقد عمد إلى انتقاء نماذج اسلوبية استخرجها من فيض رسائله الكثيرة الزاخرة بالموضوعات المتنوعة، وأخرجها إخراجا انيقا، وبوبها تبويبا شيقا، يتلاءم وطبيعة الموضوعات التي عالجتها رسائله. وقد سمى هذا المنتقى من فيض رسائله بـ (المخزون).

وعلى الرغم من ضياع هذا السفر النفيس من ذخائر هذا القرن، فإن ما نقله أبو منصور الثعالبي من نصوص فصوله، وغرر بلاغته، ما جلى لنا الكثير من قسمات هذا الكنز النفيس المفقود، وأبان لنا عن ملحه وأسلوبه وطريقة تبويبه. ذكر الثعالبي، مشيرا إلى جهود الأمير الميكالي في تأليفه لكتاب المخزون، والثناء عليه[١]:

"وقد أوردت في هذا الباب من فصوص فصوله التي اخرجها من رسائله، وبوبها في كتاب له وسمه بالمخزون ما يؤرخ به محاسن الكلام، ويزيد في مفاخر الأقلام ويستحق أن يدعى لفظ الدر، وخدع الدهر، وعقد السحر ...".

ويبدو من خلال فصول الرسائل التي ساقها أبو منصور الثعالبي[٢] لأبي الفضل الميكالي من كتاب "المخزون" إن هذا الكتاب - كما بوبه أبو الفضل الميكالي نفسه - كان مقسما على موضوعات عديدة، تقع تحديدا في ثمانية أبواب هي:

---

(١) يتيمة الدهر ٤/٤١٠.

(٢) ينظر: يتيمة الدهر ٤/٤١٠ - ٤٢٥.

١- باب وصف الكتب بالحسن والبلاغة ولطف الموقع.
٢- باب الإخوانيات.
٣- باب الشكر والثناء.
٤- باب العتاب والذم وشكوى الحال.
٥- باب التهاني.
٦- باب العيادة.
٧- باب التعازي.
٨- باب السلطانيات.

وهكذا حظي هذا السفر النفيس بإعجاب الأدباء ومصنفي كتب التراجم منذ تاليفه وإخراجه، وطبقت شهرته الآفاق، وشاع تداوله بين أدباء هذا القرن، ومن أعقبهم في العصور اللاحقة.

يقول صاحب كتاب " الدمية " وهو يثني على هذا الكتاب، وسحر اسلوبه، وقوة تأثيره في الباب متلقيه[١]:

" ... ومن تأمل منثوره في (المخزون) علم انه فرحة المحزون، وشفاء القلب السقيم، وعقلة المستوفز، وانس المقيم".

***

مجاميع رسائل مخطوطة:

وهناك دواوين أو مجاميع رسائل - أو اجزاء واقسام من مجاميع رسائل - وصلت إلينا، إلا أنها لما تزل مخطوطة لم تر النور بعد، ومتناثرة في خزائن المكتبات، ودور المخطوطات العالمية.

ولعل من هذه المجاميع المخطوطة المهمة ما يأتي:

أ - غرر البلاغة:

وهو كتاب نفيس مخطوط في الرسائل، وهو لأبي الحسين هلال[٢] بن المحسن

(١) دمية القصر وعصرة أهل العصر ٨٩/٢.

(٢) كان هلال بن المحسن كاتب اسرار فخر الملك - وهو أبو غالب محمد بن علي بن خلف - وزير بهاء الدولة البويهي، ثم وزر بعد وفاة بهاء الدولة لابنه سلطان الدولة، فحبسه وقتله سنة ٤٠٧هـ. وقد اشتهر هلال الصابي بتاريخه كما اشتهر جده برسائله. ولهلال الصابي أيضاً: (كتاب -

ابن أبي إسحاق ابراهيم بن هلال الصابي (٣٥٩هـ - ٤٤٨هـ).

يقع هذا الكتاب المخطوط في واحد وعشرين بابا، يتضمن فصولا في الكتابة وأساليبها، مع جملة رسائل من كلامه[١].

وقد نجا هذا السفر النفيس من قوارع الدهر، ومنه نسخة مخطوطة في خزانة كتب (Chester Beatty - Dub.)، وتقع في (١٥٣ ورقة)، كتبت في المئة الخامسة للهجرة[٢].

وتوجد نسخة أخرى منه في دار الكتب المصرية[٣]، وقد ذكر الاب لويس شيخو اليسوعي إن من هذا الكتاب نسخة في لنينغراد[٤].

ب - منية الراضي برسائل القاضي:

من الأدباء الكتاب الذين عني مؤرخو الأدب ومصنفو كتب التراجم القدامى بلباب أدبه، وعكفوا على جمع رسائله، ودرر نظمه، أبو أحمد منصور بن محمد الازدي الهروي[٥].

جمع الثعالبي طرفا من ملح أدبه، وغرر ترسله، قال[٦]:

=

الرسائل) / وهو مجموع رسائله الديوانية التي انشأها عن الملوك والوزراء: و هي على غرار رسائل جده أبي إسحاق الصابي.

(١) نقل عنه القلقشندي عدة نسخ في المبايعات والأيمان والامان، ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٢٨٠/٩ - ٢٨٢، ٢٨٥ - ٢٨٦. ٢١١/١٣ - ٢١٣، ٣٣٩.

وينظر أيضاً: رسوم دار الخلافة - لهلال الصابي - تحقيق الأستاذ ميخائيل عواد ص٣٢ - ٣٣.

(٢) Arberry (Arthur J), A and list of the Arabic Manuscripts in the chester Beatty Library. (Vol. II, Dublin ١٩٥٦ ; No. ٣٣٣٣, P. ٣٨).

(٣) ينظر فهرست المخطوطات التي اقتنتها دار الكتب المصرية من سنة ١٩٣٦ - ١٩٥٥، فؤاد سيد - القاهرة ١٩٦٢ ص١٥١.

(٤) مجلة المشرق ٦ (بيروت ١٩٠٣) ص٤٦٩. (بدلالة كتاب رسوم دار الخلافة - تحقيق الباحث ميخائيل عواد ص٣٣).

(٥) ينظر في ترجمته وأخباره: طبقات الشافعية ٢٦/٤، معجم الأدباء ١٩١/١٩، الأعلام ٣٠٣/٧، وكان اديبا شاعرا مغرى بالشراب والغزل الرقيق وله فيه شعر كثير. ذكر الباخرزي في الدمية (٢/ ٩٣) إن ديوانه يبلغ اربعين ألف بيت، وكانت وفاته عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م (ينظر: تاريخ بروكلمان ١٢٢/٢).

(٦) تتمة اليتيمة: ٢٣٣/٥.

" وجمعت يدي من غرر كلامه، ودرر نظامه على ما يميز له الليل المظلم، ويتصف به الدهر الظالم، وقد اودعت الان كتابي هذا لمعا من نثره ونظمه تتلافى الغائب وتجبر الكسر ..."

وقد اشاد الباخرزي كثيرا بفضله، ورفعة منزلته في الترسل، حتى قرنه في رقة أدبه وعذوبه كلامه، برقة كلام الصادين: الصاحب والصابي! ذكر يقول[١]:

" ورسائله الذ في الاسماع من عهود التصابي، واصيد للقلوب من كلام الصادين: الصاحب والصابي".

ويبدو أن هذه المكانة السامية، والشهرة الواسعة التي حظي بها الهروي بين أدباء عصره، ولداته من اهل الظرف والأدب، هي التي حفزت أبا الفضل أحمد بن محمد الميداني على العكوف على جمع رسائله وتدوينها، والعناية بإخراجها.

جمع أبو الفضل الميداني رسائل القاضي الهروي ووسمها بعنوان: (منية الراضي برسائل القاضي)، وقد رتبها حسب الموضوعات التي عالجتها، وأخرجها وبوبها في تسعة أبواب هي:

١ - الشكر، ٢ - المدح، ٣ - الشوق، ٤ - اللوم، ٥ - الشكوى والاعتذار، ٦ - الزيارة والعزاء، ٧ - الفكاهة، ٨ - الوصف والتشبيب، ٩ - الدعوات[٢].

ومما يؤسف له أن ديوان رسائل الهروي، على الرغم من سمو مكانته بين مجاميع النثر الفني فضلا عن شهرة جامعة، لم يحظ بعناية المحققين أو أصحاب دور النشر والباحثين، وظل رهين أدراج مجامع المخطوطات ورفوفها المنزوية[٣].

ج - وتحتفظ خزائن المخطوطات في العديد من أقطار العالم بذخائر نفيسة من مجاميع الرسائل لكتاب مشاهير من أعلام هذا القرن، وهي لما تزل ترزخ تحت قناع النسيان والإهمال، بعيدا عن اكف العلماء والمحققين لتنفض ما تراكم عليها من غبار الزمن.

ومن هذه المجاميع والوثائق غير المنشورة:

---

(١) دمية القصر وعصرة اهل العصر: ٩٣/٢.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان: ١٢٢/٢.

(٣) توجد نسخة مخطوطة من مجموع رسائل القاضي الهروي في: برلين رقم (٨٦٤٧)، القاهرة ثاني ٣٩٧/٣. يراجع: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١٢٢/٢.

- كتاب الغرر والدرر: للاديب الكاتب أبي الحسين محمد بن الحسين الأهوازي[(١)] (ت٣٣٠هـ)، والكتاب يضم مجموع رسائله إلى طائفة من أمراء وعظماء عصره.

لقد ضم هذا الاثر النفيس - الذي تحتفظ به خزائن المخطوطات في ليدن ٢٤٦ - ٢٤٧ - مجموعة كبيرة من الرسائل رتبها المصنف حسب الموضوعات والأغراض التي تناولتها[(٢)].

- **مجموع رسائل أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الشيرازي:**

وهي رسائله الديوانية والإخوانية التي كتبها إلى أمراء وعظماء عصره، وتؤرخ حقبة مهمة من إمارة البويهيين تمتد من حدود عام ٣٣٨هـ - ٣٨٠هـ. ومن هنا فقد تضمنت هذه المكاتبات المهمة أخباراً طريفة وخطيرة عن هذه الإمارة الإسلامية.

وقد أشار المستشرق كارل بروكلمان[(٣)]، إلى وجود هذه المجموعة من رسائل أبي القاسم الشيرازي في خزائن المخطوطات ببرلين تحت رقم (٨٨٢٥).

---

(١) يراجع كتاب: الكامل في التاريخ: ١٠٣/٩.

(٢) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١١٨/٢.

(٣) ينظر المرجع السابق: ١١٨/٢.

الفصل الثاني
ازدهار الرسائل الأدبية وطبقات الكتّاب

المبحث الأول

شيوع الرسائل الأدبية وازدهارها، وأسباب ذلك:

أولاً: شيوع الرسائل الأدبية وازدهارها:

لقد تبوأ النثر الفني - منذ القرن الثالث الهجري - وفي القرن الرابع أيضاً مكانة سامية، ربما طغت على مكانة الشعر[1] ودوره في تصوير الحياة العامة فضلا عن التعبير عن نوازع الأديب في مختلف الأغراض إذ إنَّ النثر الفني بحكم طبيعته الخاصة أكثر من الشعر مرونة وطواعية، لحمل الأفكار على اختلافها وتنوعها، والتعبير عن كثير من المعاني التي يعجز الشعر في التعبير عنها. ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة بوضوح أن الشعراء[2] أنفسهم، في كثير من الأحيان، كانوا يتخذون النثر الفني وسيلة لتصوير خواطرهم، وتجسيد مشاعرهم وأفكارهم[3].

ذكر أبو بكر الخوارزمي في إحدى رسائله الأدبية يصف الكتابة، ويشير إلى الجمع بينها وبين صناعة الشعر فقال[4]:

" والكتابة آلة عجيبة، وهي من الشاعر أعجب، كما أن الشعر صناعة غريبة، وهو من الكاتب أغرب ...".

---

(١) تراجع في مراتب النظم والنثر: (الليلة الخامسة والعشرون) من كتاب: الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ٢/١٣٠ - ١٤٧: فقد جمع المؤلف اراء طريفة في الموازنة بين المنظوم والمنثور والمفاضلة بينهما.

(٢) ممن اشتهر بالترسل من هؤلاء الشعراء - منذ القرن الثالث - مثلا: أبو علي البصير، فقد كان - كما ذكر ابن المعتز في كتابه (طبقات الشعراء، ص٣٩٨) - كاتباً رساليا (صاحب رسائل) ليس له في زمانهِ ثانٍ. (تراجع نماذج من رسائله الفنية في: زهر الآداب وثمر الألباب ١/٢٤١ ومواضع أخرى) وأشار ابن المعتز في الموضع نفسه إلى العتابي، وذكر أنه كان شاعرا كاتبا، وذكر: "أن هذا قلما يتفق للرجل الواحد: لأن الشعر الذي للكتاب ضعيف جدا، فاذا اجتمعا في الواحد فهذا المنقطع القرين".

(٣) ينظر: العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف: ٥٦٣.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٥٤.

وقد أشار القلقشندي أيضا إلى فضل الكتابة فقال(١): "... والكتابة قطب الأدب، وملاك الحكمة: ولسان ناطق بالفضل، وميزان يدل على رجاحة العقل، والكتابة نور العلم، وفدامة العقول(٢)، وميدان الفضل والعدل، والكتابة حلية وزينة ولبوس وجمال وهيبة، وروح جارية في أقسام متفرقة ... وبالكتابة والكتّاب قامت السياسة والرياسة".

وفي هذا القرن أيضاً، أصبح للنثر الفني - ولا سيما الرسائل الأدبية والديوانية - القدح المعلى على الشعر وسواه من ألوان الأدب الأخرى؛ بما هيّأ له جهابذة الكتاب البلغاء من لمسات فنية ساحرة، تمثلت في رقة الألفاظ مع جزالتها ورصانتها، فضلا عن تواؤمها في الجرس وجمال النغم، وائتلافها في تراكيب لغوية ضمت أقداراً موسيقية متناسبة. إلى جانب ما عرفوا به من قدرة عالية في تفتيق المعاني الجديدة، وبراعتهم في التصوير، فضلا عن قدرتهم على الخوض في أدق الأمور العقلية والفلسفية، بما اتيح لكثير من أولئك الكتاب من ثقافة واسعة وبلاغة نادرة، مما سنأتي إلى تفصيله في المبحث الثاني من هذا الفصل.

ونظرا لما تضطلع به صناعة الكتابة، وما يقوم به الكتّاب من دور مهم في تسيير أمور الملك والسياسة، واستجابة للتطورات السياسية الخطيرة التي بدأت تظهر في آفاق الدولة الإسلامية - منذ القرن الثالث - ولا سيما بعد تجزؤ الدولة الإسلامية، وظهور الإمارات والممالك المستقلة، وما رافق ذلك كله من كثرة الدواوين الرسمية، وتنوعها وانتشارها(٣) في هذا القرن، فقد ازدادت الحاجة إلى الكتابة، واتخاذ الكتاب النابهين؛ للقيام بأعباء الدولة الكثيرة، وضبط أمور الإدارة المتشعبة.

وهكذا أصبحت الكتابة - ولا سيما كتابة الإنشاء - كما يقول القلقشندي(٤):

" ... لا تلتفت الملوك إلا إليها، ولا تعول في المهمات إلا عليها يعظمون أصحابها، ويقربون كنابها، فحليفها ابدا خليق بالتقديم، جدير بالتبجيل والتكريم "

وتأسيسا على هذا الأمر، فقد اخذ التنافس الحاد يدب بين الكتاب الناشئين -

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١/٣٧.

(٢) فدامة العقول: أي مصفاة لها.

(٣) تراجع إشارة أبي حيان التوحيدي المهمة في الامتاع والمؤانسة (الليلة السابعة) ١ / ٩٦ - ١٠٤، حيث أشار إلى أهمية كتاب الحساب، وما ذكره أيضا عن أنواع الدواوين التي راجت في ذلك القرن، وينظر أيضا: العصر العباسي الثاني - ضيف: ٥٥٠.

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١/٦.

منذ منتصف القرن الثالث للهجرة - للوصول إلى أعتاب تلك الدواوين[١] وليتبوّأوا، بعد ذلك، موقعا سامقا بين كتاب الدواوين، وصولاً لتسنم منصب رفيع في الدولة، كرئاسة الديوان الرسمي أو الولاية أو الوزارة، أو غير ذلك.

وهكذا كان لهذا التنافس بين أولئك الكتاب الناشئين أثره الفاعل في تطوير الكتابة، وازدهارها، وشيوعها في العراق ومختلف الأقاليم والممالك الإسلامية في المشرق، إذ طفق أولئك الكتاب يعنون بألوان الثقافات المختلفة، ويتزودون بضروب المعارف؛ لبلوغ أعلى المراتب في تلك الدواوين الرسمية.

ومن هذا المنطلق فقد انصرف لفيف من علماء العربية، وكبار الأدباء - منذ القرن الثالث للهجرة - يصنفون الكتب[٢]، ويؤلفون الرسائل الخاصة التي عنيت بثقافة

---

(١) ممن اشتهر من هؤلاء الكتاب مثلا (ابن مقلة)؛ فقد كان في أول أمره يكتب في ديوان وزير المقتدر أبي الحسن ابن الفرات، ثم علا نجمه حتى تسنم الوزارة، وأصبح يضرب به المثل في جودة الخط (يراجع ما قاله الصولي عن ابن مقلة في النجوم الزاهرة ٣/٢٦٨)، ومنهم أيضا: (محمد بن جعفر بن ثوابة)، وكان في أول أمره يكتب في ديوان عبيد الله بن سليمان بن وهب (ت ٢٧٨ هـ)، ثم ترأس ديوان الرسائل على عهد الخليفة المقتدر، وظل حتى وفاته عام (٣١٢ هـ)، ومنهم أيضا: (ابراهيم بن المدبر) صاحب الرسالة العذراء المشهورة، الذي ترقت حاله حتى ولي مدينة البصرة. وغيرهم كثير (ينظر: العصر العباسي الثاني - د. ضيف: ٥٥٠).

(٢) لقد استهدفت هذه المصنفات - الاتي ذكرها - جميع معارف العصر، ولا سيما اللغة والشعر والأخبار وغيرها، وجعلها في متناول طبقة الكتاب الذين بدأ شأنهم يعلو، بما كان لهم من مكانة مهمة في تصريف أمور الدولة، بدءاً من القرن الثالث فالقرن الرابع من الهجرة. وأهم هذه المصنفات: (١) أدب الكاتب - لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، وكان غرض الكاتب أن يقدم إلى طبقة الكتاب في عصره، وأصحاب الدواوين، ما يسد حاجتهم من عدد الثقافة اللغوية والأدبية، (٢) الرسالة العذراء - لإبراهيم بن المدبر الكاتب (ت ٢٧٨ هـ)، وهي في موازين البلاغة وأدوات الكتابة. (تراجع هذه الرسالة في كتاب جمهرة رسائل العرب - أحمد زكي صفوت ٣/١٩٩ وما بعدها، (٣) كتاب الألفاظ الكتابية - لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (ت ٣٢٠ هـ) وكان هدف المؤلف خدمة الكتاب الناشئين وتزويدهم بما يحتاجون إليه في صناعتهم من مختارات جيدة (عبارات وتراكيب) بأغراض الكلام. طبع الكتاب عدة طبعات أفضلها طبعة بيروت ١٨٨٥ بتحقيق لويس شيخو. (تراجع دراسة تحليلية لهذا الكتاب في: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب للدكتور امجد الطرابلسي ص٥٩)، (٤) كتاب أدب الكتاب: لأبي بكر الصولي (ت ٣٣٥ هـ) أشار الصولي إلى غايته من الكتاب فقال (ص٢١): "وقد اختصرت كتابي هذا جهدي، غير تارك ما يحتاج إليه فيه، ولكن أخرجت المعاني في أقواتها من الألفاظ ... ليقرب على طالبيه ..."، وقد طبع الكتاب في القاهرة عام ١٣٤١ هـ بتحقيق محمد بهجة الأثري، (٥) كتاب =

الكتاب، وتوجيههم، وإسداء ألوان المعارف المتنوعة إليهم وبخاصة ما يتصل بصناعة الكتابة وأدواتها، والخط وصوره وأنواعه، وما إلى ذلك مما يقود إلى تقويم ثقافة الكتاب، والأخذ بأيديهم إلى أعلى المراتب في صنعة الكتابة.

وهكذا بدأت صناعة الكتابة في هذا القرن تسمو على كل صناعة، وراح الكتاب - ولا سيما المبرزون منهم - يحظون بمنزلة رفيعة عند الخلفاء والأمراء وحكام الامارات والممالك المستقلة.

يقول القلقشندي مشيرا إلى فضل أبي إسحاق الصابي[١]: "وابلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابي، صاحب الرسائل المشهورة، كان على دين الصابئة، مشددا في دينه، وبلغت به الكتابة إلى أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع والمطيع ومعز الدولة البويهي، وعندما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة، فلامه الناس لكونه شريفا يرثي صابئياً، فقال: إنما رثيت فضله".

وقد علل بعض الباحثين سمو منزلة الكتاب، ورفعة منزلتهم في هذا القرن، وتنافس أصحاب الملك في اجتذابهم فقال[٢]: "على أن هؤلاء الكتاب لم يكونوا ليبلغوا هذه المنزلة الرفيعة في الدولة إلا إذا كانوا أكفاء، ذوي عقل وافر، ورأي سديد، وإطلاع واسع على ثقافة العصر، ليتمكنوا من القيام بواجباتهم على الوجه الأكمل، فيضعوا الأشياء في مكاتباتهم ومخاطباتهم في مواضعها، ويأتوا بالكلام من وجهه، ويخاطبوا كل واحد عن سلاطينهم بما يقتضيه الحال التي يكون عليها".

ولقد أدرك الأدباء من كتاب الرسائل في هذا القرن سمو موقعهم، وعلو مكانتهم عند الخلفاء والوزراء وغيرهم، فراح بعضهم يفصح عن خطورة موقعه السياسي لدى

= الكتاب لابن درستويه (ت ٣٤٧ هـ) وهذا الكتاب مخصص لتوجيه الكتاب وتثقيفهم أيضا، وقد اختتم المؤلف كتابه بعبارة توضح الغاية من تصنيف الكتاب، وهي قوله: "وما يكثر استعمال الأدباء والكتاب له في ألفاظهم وكتبهم أوسع من أن يؤتى عليه في مثل هذا الكتاب، وسنفرد لذلك كتابا نستقصيه فيه، ونميز فصيحه من عيبه، ومختاره من رديئه " وقد طبع الكتاب في مؤسسة دار الكتب الثقافية بالكويت بتحقيق الأستاذين إبراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي: ١٩٧٧/١٣٩٧.

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٤١/١.

(٢) الأدب في ظل بني بويه: ١٢٥.

أولئك الحكام، ويفخر بفضله، وسمو قدره، فالصابي مثلا يعبر عن ذلك كله فيقول مفتخرا[١] [من الطويل]

وقد علم السلطان أني لسانه ... وكاتبه الكافي السديد الموفق
أوازره فيما عرى وأمده ... برأي يريه الشمس والليل اغسق

****

فيمناي يمناه ولفظي لفظه ... وعيني له عين بها الدهر يرمق
ولي فقر تضحي الملوك فقيرة ... إليها لدى أحداثها حين تطرق
أرد بها رأس الجموح فينثني ... واجعلها سوط الحرون فيعنق

****

ومن هنا رأينا أن كبار الأدباء الكتاب كأبي عبد الله العميد، وأبي القاسم الإسكافي، وأبي الفضل الميكالي، وغيره من أعيان أسرته، يتبوّأون ارفع المناصب السياسية والإدارية عند الأمراء السامانيين في خراسان. وهذا الأمر نفسه - اعني سمو منزلة الكتاب، وعلو كعبهم في الأدب والثقافة - هو الذي حدا بأمراء بني بويه في هذا القرن إلى أن يسندوا أرفع المناصب السياسية والإدارية إلى أبي الفضل ابن العميد وأبي محمد المهلبي، وأبي القاسم الصاحب بن عباد وغيرهم، وهذا الأمر نفسه هو الذي حفزهم لإسناد ارفع المناصب الإدارية وأخطرها - وهو ديوان الرسائل - إلى أبي إسحاق الصابي وعبد العزيز بن يوسف وغيرهما من الكتاب المبرزين. وما يقال عن السامانيين والبويهيين، واهتمامهم بالكتابة وإنشاء الرسائل، واحتفائهم بأعلام الكتاب وبلغائهم، يقال أيضا عن أمراء وحكام الولايات والممالك الإسلامية الأخرى كالزياريين والغزنويين وغيرهم.

ولعل شهرة أبي الفتح البستي[٢]، ومكانته عند السلطان محمود الغزنوي، وتسنمه ارفع المناصب الإدارية ورئاسة ديوان الرسائل في غزنة، لدليل واضح على سمو منزلة الكتاب، وصناعة الكتابة في تلك الممالك الإسلامية في هذا القرن.

يقول القلقشندي مشيرا إلى فضل الأدب والكتابة بخاصة، وأهميتها في الوصول

(١) يتيمة الدهر: ٣٢١/٢ - ٣٢٢.

(٢) تراجع ترجمته وأخباره ونبذ من فصول رسائله وغرر شعره وتجنيساته البديعة في يتيمة الدهر للثعالبي: ٣٤٥/٤ - ٣٨٢.

إلى المناصب الرفيعة في الدولة، والارتقاء بها من الضعة والخمول إلى الشرف والجاه[١]: "ولو اعتبرنا من شرف بالكتابة، وارتفع قدره بها، لفاتوا الحصر، وخرجوا عن الحد، وهذا الوزير المهلبي، كان أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والضائقة حتى قال:

الا موت يباع فاشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه

... الخ الأبيات

ثم ترقى بالكتابة حتى وزر لمعز الدولة بن بويه الديلمي في جلالة قدره". ولم يقف الأمر في أهمية صناعة الكتابة، وسمو منزلة أعلامها المبرزين عند مشاركتهم في أمور السياسة والحرب، أو في إدارة شؤون الدواوين الرسمية فحسب، وإنما بدأت الكتابة الفنية - بوصفها ضربا فنيا راقيا من ضروب الأدب - تعنى بتصوير الحياة العامة لشرائح المجتمع الإسلامي، فطفقت في هذا القرن تنزل إلى مستوى الحياة العامة، والطبقات الشعبية، فضلا عن تصويرها لحياة الطبقة الخاصة، وبيئاتهم المترفة الراقية.

ومن هذا المنطلق فقد راح أدب الرسائل في هذا القرن يصور بصدق أساليب العيش لشرائح الطبقة العامة، أو الدنيا في المجتمع الإسلامي، وراح أيضا يجسّد معاناتهم وعوزهم، وما تعرضوا له من هموم ومحن وأمراض أو ما وقع لهم من نكبات وإخفاق ومصادرات، كما سنلحظ ذلك بوضوح في كثير من رسائل الخوارزمي وبديع الزمان وغيرهما من كتاب هذا القرن.

يقول الأستاذ متز، وهو يرصد دور الأدب - وبخاصة النثر الفني - في الكشف عن جوانب الحياة العامة، وتشعباتها المختلفة[٢]؛ ودور الطبقة العامة في هذا الرصد: "وعاد الأدب، مرة أخرى، إلى كشف ما يحيط بالإنسان، في حاضره وأصبح يلذ له البحث فيما حوله من حياة متشعبة النواحي، وإن لم تكن حياة بطولة وروح سامية، وبدأ العامة - وخصوصا عامة المدن غير المتعلمين - يدخلون في الأدب العربي، وهم لم يقتصروا على تعلم العقائد ... بل إن الكلام المرسل أيضا أصبح عندهم يستعمل في التعبير عن كل ماجدٍّ في الحياة من نواح متنوعة".

وهكذا بدأ أدب الرسائل في هذا القرن يخوض معترك الحياة العامة، بكل ألوانها

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١/٣٧ - ٤١.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١/٤٤.

وصنوفها؛ في بؤسها وقنوطها والآمها، وفي مرحها وهزلها وسرورها ومن هنا بدأ أدب الرسائل يطرق موضوعات لم يكن ليخوض في غمارها كتاب الرسائل في العصور السابقة، وبدأ كتاب الرسائل يعالجون أغراضاً ربما كانت بمنأى عن متناول أقلام الأدباء والكتاب، أو بتعبير أدق، لم تكن لتصلح أن تكون موضوعا سائغا للأدب الراقي، وهذا ما سوف نلمحه ونشخصه بوضوح في رسائل الفكاهة والسخرية والتندر التي شاعت في هذا القرن.

ومن جانب آخر فقد طفقت هذه الرسائل - ولا سيما الإخوانية منها - تصور علاقات الأدباء مع بعضهم، وعلاقة الأديب بمجتمعه، ومن هنا فقد انصبت جل تلك الرسائل الإخوانية في هذا القرن على تصوير معاني الاعتذار والشكر والعتاب والاستعطاف والتهنئة والتعزية، وغير ذلك من هذه المعاني التي جسدت في أكثر نماذجها الصادقة الوشائج الإنسانية بكل ألوانها، ووثقت طبيعة العلاقات الاجتماعية بين مختلف شرائح وطبقات المجتمع الإسلامي، كما تجلى ذلك بوضوح في رسائل مشاهير المترسلين كالصابي والخوارزمي وبديع الزمان والتوحيدي وغيرهم من قمم الكتاب في القرن الرابع.

وهكذا استطاع جهابذة كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن أن يبثوا في النثر الفني طاقات جديدة، تمثلت في طرافة التفكير ودقته، ورقة التعبير وروعته فضلا عن براعتهم الفائقة في الوصف، وقدرتهم العالية على تحليل أدق المعاني والأفكار، وتصوير المشاعر الإنسانية وتجسيدها بكل رشاقة وعمق وإبداع.

ومن هنا يمكن القول: إنه على الرغم مما شاع عن كتاب هذا القرن من عنايتهم الفائقة - منذ مطلع هذا القرن - بالوشي، وزخارف الألفاظ، وحلي البديع اللفظي والمعنوي، وعنايتهم الواضحة بجرس الألفاظ، حتى غدا ذلك كله يعد نموذجا أو مثالا لذوق أهل هذا العصر في الكتابة الأدبية والديوانية على حد سواء، إلا أن أولئك الكتاب البلغاء، مع ذلك كله، استطاعوا - لسعة ثقافتهم، وقوة ملكتهم، وندرة مواهبهم - أن يبثوا في النثر الفني - ولا سيما الرسائل الأدبية الخالصة والإخوانية - قيما فنية جديدة، ويفتقوا معاني مبتكرة، ويخلقوا صورا نادرة، تميزت بالعمق والقوة والوضوح.

ومن رحب هذه الحقيقة، فقد راح بعض النقاد المعاصرين يرصد الدور الرائد الذي وقفه أعلام الكتاب المتميزين في أحداث هذا القرن وملابساته المتشابكة، ويحلل ما وثقته نصوص تلك المكاتبات من ألوان الصراع العقلي، والتناحر الحزبي

أو السياسي في هذا القرن المضطرب.

يقول الأستاذ زكي مبارك مثلا[(١)]: "أن الكتّاب المشاهير الذين تولوا قيادة النثر الفني في القرن الرابع قد اهتموا اهتماما عظيما بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التي شملت ذلك العصر، فمن الخطأ أن يظن أنهم وقفوا عند زخرفة الألفاظ والتعابير، ولم يشتركوا في الازمات العقلية والمجادلات الحزبية والدينية في الحدود التي سمحت بها قوتهم الأدبية ....".

وهكذا كان هذا التنافس، وما تمخض عنه من الصراع الذي هو مصدر العبقرية والإلهام، بين الأمراء والحكام ووزرائهم من جهة، وبين الأدباء والكتاب من جهة أخرى، سببا مهما، وباعثا قويا فيما أصاب الأدب - ولا سيما الرسائل الأدبية والديوانية - من تطور ورقي وازدهار، وظهور أعظم أعلام الإنشاء الفني وابلغ رواده في القرن الرابع.

ثانيا: أسباب ازدهار الرسائل الأدبية في القرن الرابع:

لقد تضافرت عوامل عديدة، ومتشابكة في هذا القرن، عملت مجتمعة على ازدهار الحياة الأدبية، وإيقاد جذوة الثقافة، وقد كان لهذه العوامل أثرها الكبير أيضا في ازدهار النثر الفني - ولا سيما المكاتبات الأدبية والديوانية - وخاصة بعدما اتيح لهذه الشريحة الكبيرة من الأدباء الكتاب أن ينهلوا من فيض الثقافات الغزيرة والمتنوعة التي تهيأت لهم في هذا القرن. فضلا عن الدور الخطير الذي بدأ يضطلع به أولئك الأدباء الكتاب في تسيير أمور الدولة السياسية والإدارية وغيرها؛ نظرا للحاجة الماسة لصناعة الكتابة، بوصفها الأداة الأولى والوسيلة المباشرة في تنظيم أمور الملك، وتلبية متطلبات السياسة.

ولعل في طليعة تلك العوامل المهمة التي عملت على شيوع الرسائل الأدبية وازدهارها في هذا القرن ما يأتي:

-١ - التنافس الحاد بين الأمراء وحكام الممالك المستقلة في اجتذاب الكتاب:

لقد سبقت الإشارة في مدخل هذا البحث إلى أن بغداد - حاضرة الخلافة الإسلامية - لم تعد في هذا القرن وحدها، معقد آمال العلماء والأدباء، ومحط تطلعهم

(١) النثر الفني في القرن الرابع ١/١٥٤.

إلى بلوغ مطامحهم، وبناء أمجادهم الأدبية فحسب، وإنما ظهرت - بعد تجزؤ الدولة الإسلامية - امارات وممالك مستقلة، ضمت حواضر أدبية وعلمية عديدة، أصبحت تتنافس مع بعضها تنافسا عظيما في اجتذاب العلماء والأدباء؛ لبناء قاعدة ملكهم، ولتزدان بهم حواضرهم، بعدما شعروا بحاجتهم الماسة لأولئك العلماء والكتاب وغيرهم.

وعلى هذا فقد أضحت تلك الحواضر الجديدة منتجعا خصبا لتلك المواهب العلمية والأدبية، ومعينا عذبا ينهل من فيضه أولئك العلماء والأدباء الوافدون وفي طليعتهم الكتاب والمترسلون، وكثيرا ما كان لذلك الترحال، أو تنقل الأدباء الكتاب بين حواضر تلك الممالك النائية آثارهُ الايجابية الواضحة في الثقافة ورقي الحياة الأدبية وازدهارها، وصقل مواهب الأدباء، وبناء شخصياتهم الأدبية، ونضج تجاربهم، وشحذ مواهبهم[١].

ولعل من الشواهد الكثيرة والدقيقة على ذلك، ما رواه الثعالبي عن أستاذه الخوارزمي، في ترجمته لأبي سعيد الشبيبي - أحد أدباء خوارزم في هذا القرن - من أنه كان " في أيام شبابه بخوارزم يقول شعرا غليظا جاسياً كأشعار المؤدبين فلما عاشر الناس، ولقي الأفاضل لطف طبعه، ورق شعره "[٢].

ومن جانب آخر، فقد كان لانتجاع هؤلاء الأدباء والعلماء الطارئين تلك الحواضر الجديدة - ولا سيما الحواضر النائية في المشرق الإسلامي - وإقامتهم فيها، وما نتج عن ذلك من اختلاطهم وتمازجهم مع أهالي تلك الحواضر، كان له آثاره المهمة والخطيرة في ازدهار الحركة الأدبية والعلمية، ورقيها في تلك البقاع النائية، وصقل مواهب شعوبها، ورقة السنتهم، وصفاء أذهانهم، ودقة أفكارهم.

ذكر أبو بكر الخوارزمي في رسالته إلى أبي محمد العلوي[٣]، يصف فيها اهل (أصفهان) ويعلل علوَّ كعبهم في الفضل والأدب، وتفتق مواهبهم فقال[٤]:

---

(١) لعل أوضح دليل على ذلك، ما صرح به أبو بكر الخوارزمي من اثر تلك الطوائف الشامية، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظه، وامتزجت باجزاء نفسه، في شحذ فهمه، وصقل ذهنه، وإرهاف حد لسانه. ينظر: يتيمة الدهر: ١/٣٥ - ٣٦.

(٢) يتيمة الدهر ٤/٢٧٧.

(٣) تراجع هذه الرسالة الأدبية في: مجموع رسائل أبي بكر الخوارزمي: ص١٢٨ - ١٣١.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٣٠.

" ولم لا تخرج اهل تلك البلدة في قالب الكمال، ولا يستوفون شرائط الرجال ... وهم يرون كل يوم واردا، ويشهدون وافدا، ويسمعون نغمه ويطالعون نعمه؛ لأن فيهم مثابة الجود، وقرارة الوفود، وكعبة الآمال، ومحط رحال الرجال، وهم يلتقون على باب الوزير مع كل كاتب وحاسب، ويجلسون في سدته مع كل ناثر وشاعر، ولا يعدمهم أن ينظروا إلى ذي صناعة معاشية أو معادية، وإلى ذي آلة رياضية أو عقلية؛ فترق ألسنتهم، وتصفو أذهانهم وتتنزه أبصارهم، وتدق أفكارهم؛ لاقتباسهم علم كل مكان، واستماعهم تبيان كل لسان، ولترددهم بين اللغات المختلفة ...".

وهكذا طفقت هذه الحواضر الفتيّة النائية تتنافس مع بعضها في اجتذاب العلماء والأدباء[١]، وبدأ حكام تلك الامارات والممالك المستقلة يتنافسون مع بعضهم، وينافسون حاضرة الخلافة وغيرها في اجتذاب أهل الفضل والعلم ولا سيما جهابذة الكتاب، وأساطين الأدب؛ لتزدان بهم مجالسهم العامرة ومنتدياتهم الساحرة؛ إعلاء لمجدهم السياسي، والتنويه بذكرهم، فضلا عن الإفادة منهم في بناء قاعدة ملكهم[٢]، فهم - كما يقول القلقشندي: "عيونهم المبصرة، وآذانهم الواعية، والسنتهم الناطقة..."[٣]، وهم الذين يصلح بهم تشييد ملكهم، وإقامة طموحهم السياسي، ومقارعة خصومهم ومنافسيهم في الامارات والممالك المستقلة الأخرى.

يقول الأستاذ زكي مبارك[٤]: "فلم يكن بد من أن يتنافس أصحاب الملك في تقريبهم، ولم يكن بد كذلك من أن يتنافس هؤلاء في الاستئثار بالحظوة عند الوزراء والرؤساء والملوك".

ولعل هذا ما يفسر لنا تنازع أولئك الأمراء وحكام الممالك المستقلة - بلا

---

(١) يراجع ما ذكره أبو منصور الثعالبي عن (أبي سعيد الشبيبي) الذي اختص أولاً بخدمة الدولة السامانية، ثم انتقل إلى رحاب الدولة البويهية، فلقب بصاحب الجيشين، وشيخ الدولتين، وكان جامعا بين أدب القلم والسيف.
(تراجع ترجمته في: يتيمة الدهر ٤/٢٧٧ - ٢٧٨).

(٢) ذكر الأستاذ الزهيري سببا وجيها لتنافس أولئك الحكام في اجتذابهم لكتاب الرسائل؛ فأرجعه إلى كونهم: "أداة مهمة يستعينون بها لتهدئة الخواطر المضطربة، والنفوس القلقة، ويستخدمونها في إقامة الهيبة، وبث الدعوة، وتثبيت السلطان ...". (الأدب في ظل بني بويه ص١٢٢).

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١/٤٣.

(٤) مقدمة كتاب (زهر الآداب وثمر الألباب تحقيق الأستاذ زكي مبارك: ١/٢٩.

استثناء - في هذا القرن، وتهالكهم[١]، في اجتذاب أكبر قدر من العلماء والأدباء - لا سيما من المترسلين وأعلام الكتاب - وضمهم إلى خدمتهم، وتصريف شؤون دواوين ممالكهم المتنامية.

ذكر الأستاذ (ادوارد براون) مشيرا إلى كثرة رعاة العلوم والآداب من الأمراء والرؤساء في هذا القرن، ثم ذكر بعد ذلك، أبرز تلك الحواضر النائية في تلك الممالك الإسلامية المستقلة، فقال[٢]:

" وقد امتاز هذا الزمان بتقدير الأمراء لرجال الأدب، والسعي إلى إرضائهم وخطب ودهم؛ فقد كان كل أمير يريد أن يتفوق على أقرانه وخصومه في كثرة من يحوطه من رجال العلوم والفنون".

وهكذا لم يقتصر تشجيع العلوم والآداب، ورعاية أهلها في هذا القرن على أمير أو حاكم بعينه، أو إمارة دون سواها، وإنما شمل ذلك جميع الامارات والممالك الإسلامية المستقلة.

فالسامانيون، الذين اشتهروا بعكوفهم على إحياء آدابهم القومية، وبعث اللغة والحضارة الفارسية القديمة[٣]، في خراسان، قد عرفوا - كما أشار بعض المصنفين القدماء[٤]، بحسن سيرتهم، وحبهم للعلوم والآداب، وتشجيعهم لأهلهما. وقد عد أبو منصور الثعالبي حاضرتهم (بخارى): "مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر "[٥].

---

(١) تراجع تفاصيل ما ذكره (السمرقندي) في الحكاية الأولى / المقالة الأولى، عن جهود الأمير الساماني (نوح بن منصور) - كما ذكر المؤلف في النص الذي أورده، والصواب هو (نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني) - في اجتذاب الكاتب الشهير أبي القاسم الإسكافي، وضمه إلى خدمته، وإلحاقه بديوان رسائله.. " ينظر كتاب: جهار مقالة - الحكاية الأولى ص٢٣ - ٢٤".

(٢) تاريخ الأدب في إيران: ٢/١٠٥.

(٣) المرجع السابق: ٢/١٠٦ - ١٠٧.

(٤) ينظر أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ١ / ٣٣٨ - ٣٣٩؛ ويراجع أيضاً الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ /٤٨، حيث وصفهم بحسن السيرة في الحكم، وأنهم أشبه بآباء لرعيتهم.

(٥) يتيمة الدهر ٤/١١٥ / القسم الرابع - الباب الثاني: أدباء بخارى من المقيمين والطارئين عليها. وقد أشار الثعالبي إلى طائفة كبيرة من الأدباء والكتاب ممن تولى ديوان الرسائل، ومارس صناعة الترسل، وهذا دليل على تشجيع الأمراء السامانيين للأدب وتكريمهم لأهله.

ولا أدل على تنافس ال سامان لأمراء الممالك المستقلة في اجتذاب أهل الفضل من العلماء والأدباء؛ من الخبر المستفيض عن محاولة الأمير نوح بن منصور الساماني اجتذاب الوزير الصاحب، واستدراجه إلى امارته ليوليه وزارته واعتذار الصاحب عن ذلك[١].

وهناك أخبار وشواهد تاريخية أخرى[٢]، تؤكد حرص الأمراء السامانيين على اجتذاب كبار الأدباء والكتاب إلى حاضرتهم، وتشجيعهم للعلوم والآداب وإكرامهم لاهلهما، اضرب صفحا عن ذكرها؛ توخيا للإيجاز.

* * *

اما الزياريون، في جرجان وطبرستان - ولا سيما في عهد الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير، الذي تولى الإمارة عام ٣٦٦ هـ بعد وفاة اخيه بهستون[٣] - فقد كانت امارتهم في هذا القرن تزدهر فيها ثقافة أدبية رفيعة تدل عليها تلك النبذ الكثيرة التي وردت في اسبق تواريخها الذي ألفه (ابن اسفنديار) في حوالي منتصف القرن السابع الهجري[٤].

لقد اشتهر الأمير الأديب شمس المعالي بإكرامه للعلماء والأدباء، وتشجيعه لهم[٥]، وقد نقل عنه المؤرخ أبو نصر العتبي - الذي كانت له مع قابوس مراسلات ومكاتبات خاصة - في مصنفه الشهير[٦] ما يدلل على فضله وسمو علمه.

---

(١) يراجع: معجم الأدباء ٣١٥/٢، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٣٢٦/١.

(٢) يراجع خبر استدعاء صاحب خراسان (لأبي زيد البلخي) للكتابة في ديوانه: معالم الحضارة الإسلامية - الأستاذ مصطفى الشكعة ص١٦٠، ويراجع أيضا تفاصيل صلة (ابن دريد) بالأمير عبد الله بن ميكال وابنه إسماعيل، وتقلده ديوان الرسائل في فارس: كنور الأجداد: ٢٤ وينظر مصنفاته في: تتمة صوان الحكمة: ٢٦.

(٣) ينظر تاريخ أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر (أحداث عام ٣٦٦ هـ) ٤٦٠/١.

(٤) تاريخ الأدب في إيران - ادوارد براون ١٠٨/٢.

(٥) يراجع عن صلة الفيلسوف (ابن سينا " ت ٤٢٩ هـ ") بالأمير قابوس، ولجوئه إلى جرجان بعد فراره من قبضة السلطان محمود الغزنوي وينظر تتمة صوان الحكمة: ٤٥، وينظر أيضا إكرام قابوس للبيروني، وإكرامه أيضا للشعراء الفرس ومديحهم له، وأشهرهم: الخسروي، وقمري الجرجاني، براون: ١١٢/٢ - ١١٣.

(٦) ينظر: تاريخ العتبي: ١٧/٢ وما بعدها (ط القاهرة ١٢٨٦ هـ)، حيث اثبت رسالة قابوس الأدبية المهمة، وهي تتعلق فيما امتاز به كل واحد من الصحابة الكرام.

ولعل أدق شاهد يفصح بجلاء عن إكرامه للأدباء، وتنافسه مع أمراء الممالك المستقلة الأخرى في اجتذابهم إلى حاضرته؛ ما ذكره الثعالبي في ترجمته لأبي عبد الله محمد بن حامد - أحد أدباء خوارزم، وكان من خواص ابن عباد - وكان قد ورد رسولا على قابوس بن وشمكير. يقول الثعالبي - رواية عن أبي سعيد محمد بن منصور(١):

" أعجب به شمس المعالي إعجاباً شديداً، وأفضل عليه إفضالاً كثيرا ورغب في جذبه إلى حضرته واستخلاصه لنفسه، فأمرني بمجاراته في ذلك ورسم لي أن ابلغ كل مبلغ في حسن الضمان له، واركب الصعب والذلول في تحريصه وتحريضه على الانتقال إلى جنبته، فامتثلت الأمر، وجهدت جهدي وأظهرت جدي في إرادته عليه، وإدارته بكل حيلة، وتمنية جميلة، فلم يجب ولم يوجب، وقال: معاذ الله من لبس ثوب الغدر، والانحراف عن طريق حسن العهد، وانصرف راشدا إلى أوطانه، وحضرة سلطانه.".

والإمارة البويهية هي الأخرى كانت من المراكز العلمية والأدبية المهمة في هذا القرن، إذ شهدت حواضرها العديدة، كشيراز والري وأصفهان وغيرها على مدى أكثر من قرن من الزمان، ازدهار الثقافة، ورقي الحركة العلمية والأدبية.

وقد عد المستشرق الإنكليزي (ادوارد براون) المدن المختلفة في جنوب وجنوب غرب إيران التي كانت تحت أيدي الويهيين، عدها من مراكز العلم المهمة أبان هذا القرن(٢).

لقد عمل أكثر الأمراء البويهيين - وفي مقدمتهم عضد الدولة البويهي (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ)على تشجيع العلوم والآداب(٣)، وكانوا يتنافسون بشدة مع الأمراء وحكام الممالك المستقلة المجاورة في جذب العلماء والأدباء، وقد بالغوا في إكرامهم

---

(١) يتيمة الدهر ٢٨٦/٤. وقد ذكر الثعالبي أن أبا عبد الله كان في عنفوان شبابه يكتب لأبي سعيد الشبيبي، ثم انتقل إلى خدمة الصاحب واختص به، وقد وصفه الثعالبي بأنه كان يجمع بين قول فصل وأدب جزل، وذكر أن له خطا يستوفي أقسام الحسن، ونثرا كنثر الورد، ونظما كنظم الدر. (تراجع ترجمته في اليتيمة ٢٨٤/٤ وما بعدها).

(٢) ينظر: تاريخ الأدب في إيران ١١٥/٢.

(٣) يراجع كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٤٤٩/٢ - ٤٥٠، حيث أشار المقدسي إلى عناية الأمير عضد الدولة البويهي (ت ٣٧٢ هـ) بالكتب وجمعها، وتبحره بالعلوم.

والإغداق عليهم حتى غدت حواضرهم العديدة منتجعا لأهل الفضل من العلماء والأدباء في هذا القرن(١).

ولقد سرى هذا التنافس في تشجيع العلوم والفنون، إلى أكثر وزرائهم، إذ عملوا بدأب متواصل على استقطاب مشاهير الأدباء والعلماء، وجذبهم إلى قصورهم، فأصبحوا معالم مهمة، ووسائل دعاية سياسية لأمرائهم بعد أن غمروهم بالوفر الجزيل.

لقد كانت مجالس أبي الفضل ابن العميد، وأبي محمد المهلبي، وابن عباد وابن سعدان، وغيرهم من مشاهير وزراء ال بويه، منتديات أدبية رائعة أسهمت كثيرا في رفد الحركة الثقافية، والحياة العلمية والأدبية في هذا القرن.

وهكذا غدت شيراز والري وأصفهان، فضلا عن بغداد، حاضرة الخلافة التي أصبحت في قبضتهم منذ عام ٣٣٤ هـ، غدت مراكز إشعاع علمي وأدبي وملتقى لكثير من العلماء والأدباء، وأهل الفضل من قادة الفكر والثقافة في القرن الرابع.

وهكذا شهد العهد البويهي في العراق والمشرق الإسلامي، ازدهار النثر الفني، ولا سيما الرسائل الأدبية، ونمو الشعر الفارسي - إلى جانب الشعر العربي - وظهور شعراء فرس متميزين، مدحوا الأمراء والوزراء بالشعر الفارسي، ولعل أشهرهم المنطقي والخسروي، وقمري الجرجاني وغيرهم من أدباء الفرس المشهورين(٢).

ومن موائل العلوم والآداب في المشرق الإسلامي أبان هذا القرن؛ قصور ملوك خوارزم في مدينة (خيوة)، وهم المعرفون باسم (مأمون)(٣).

وقد اشتهر أبو العباس مأمون بن مأمون، أمير خوارزم، بحفاوته الغامرة للعلماء والأدباء، وإكرامهم، وكانت حاضرته ملتقى لكثير من أولئك الأدباء والمفكرين الأفذاذ، أمثال ابن سينا (ت ٤٢٩ هـ)، والبيروني (ت ٤٤٠ هـ) والثعالبي (ت ٤٢٩ هـ)، وغيرهم من أساطين العلم والأدب والفلسفة.

ولعل أدق ما يدلل على انتجاع أولئك الأدباء والعلماء في حاضرة خوارزم رسالة السلطان محمود الغزنوي إلى الأمير مأمون بن مأمون - قبل استيلائه على املاك إمارة خوارزم عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م - يطالبه فيها بإرسال العلماء المقيمين في بلاطه

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: الأدب في ظل بني بويه: ١٣٢ وما بعدها.

(٢) تاريخ الأدب في إيران: ١٠٩/٢.

(٣) ينظر: تتمة صوان الحكمة: ٤٥، براون ١١٥/٢.

إلى غزنة[١]. فضلا عن قيام بعض أولئك الأدباء والمفكرين بإهداء بعض مصنفاتهم إلى أمراء خوارزم المشهورين[٢].

ومما يؤكد قيام الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون، وغيره من أمراء خوارزم، باستدعاء الأدباء والعلماء، إلى امارته، ومنافسته لأمراء الممالك المستقلة في ذلك، ما أشار إليه الثعالبي من استدعاء الأمير أبي العباس مأمون له من جرجان إلى حضرته[٣].

ولم تكن الإمارة الغزنوية في أواخر هذا القرن - ولا سيما في عهد السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨ هـ - ٤٢١ م) بأقل من سواها من الامارات المستقلة الأخرى في رعاية الآداب والعلوم، وتشجيعها، والتنافس مع خصومها من البويهيين والسامانيين والزياريين وغيرهم، في جذب العلماء والأدباء إلى غزنة وغيرها.

يقول المستشرق براون مؤكدا هذه الحقيقة[٤]: "وبعد فترة وجيزة من الزمن ضم السلطان محمود الغزنوي إلى بلاطه أكثر رجال الأدب والعلم الذين كانوا يحوطون خصومه من الأمراء السابقين".

ولعل رسالة السلطان محمود الغزنوي إلى أمير خوارزم التي طلب فيها إرسال من بحضرته من رجال العلم، خير شاهد على ما ذهبنا إليه. ومما ورد فيها[٥]:

" لقد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم، مثل فلان وفلان، وكل واحد منهم قد أصبح نسيج وحده، وبرز في علمه، ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعا إلى قصري حتى يتشرفوا بلقائي، فنحن نرجو أن ننتفع بعلمهم وفنهم، ونرجو أن يحقق لنا أمير خوارزم هذه الرغبة التي أبديناها ".

---

(١) تراجع هذه الرسالة في المرجع السابق ١١٢/٢ - ١١٣.

(٢) يراجع: تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان ١٨٥/٤ وما بعدها، وقد أشار المؤلف إلى أن الثعالبي قام بإهداء مجموعة من مصنفاته إلى الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون ومنها: كتاب الكناية والتعريض، ويسمى الكفاية في الكناية، وكتاب نثر النظم وحل العقد، ألفه بأمر خوارزم شاه، وكتاب اللطائف والظرائف، وغيرها.

(٣) تتمة يتيمة الدهر ١٦٦/٥.

(٤) تاريخ الأدب في إيران ١١٧/٢ - ١١٨، وقد تحفظ الأستاذ ادوارد براون في موضع آخر من كتابه (١١١/٢)، إذ أشار إلى أن السلطان محمودا لم يكن نصيرا للآداب والفنون، ولكنه " اقرب إلى أن يوصف بأنه من كبار (الخاطفين) لرجال الآداب والفنون، وكثيرا ما كان يعاملهم في النهاية معاملة تنطوي على كثير من الازدراء والامتهان".

(٥) تاريخ الأدب في إيران: ١١١/٢ - ١١٢.

ومما يدلل على خصب الحياة الثقافية والأدبية في الإمارة الغزنوية في أواخر هذا القرن؛ كثرة الأدباء والشعراء - ولا سيما الفرس - الذين ازدحمت بهم غزنة.

ولعل في طليعة أولئك الشعراء الأعاجم الذين ازدهرت على أيديهم الآداب الفارسية؛ (الفردوسي)، صاحب ملحمة " الشاهنامة " الخالدة التي ضمنها مجمل الأساطير المتعلقة بوطنه[1]. وإلى جانب هذا الرعيل الكبير من الشعراء الأعاجم فقد ضمت دواوين الإمارة الغزنوية مجموعة كبيرة من الأدباء الكتاب، والمترسلين البلغاء[2]، الذين عكفوا على خدمة السلطنة الغزنوية وتسيير أمورها فضلا عن الأدباء والكتاب الوافدين - وفي مقدمتهم بديع الزمان والثعالبي وغيرهما - الذين ازدهرت بأدبهم ورسائلهم آفاق الحياة الأدبية والثقافية في تلك الإمارة النائية أبان هذه القرن.

وفضلا عن ذلك كله فإن أكثر أولئك الأمراء وحكام الممالك الإسلامية المستقلة كانوا هم أنفسهم، ممن برع بالأدب وقرض الشعر[3]، وكان كثير منهم أيضا على حظ عظيم من البلاغة، وتدبيج الكلام، فضلا عن شغف بعضهم بعلوم الفلسفة والنجوم وغير ذلك. ومن هنا، كان لا بد أن يدفعه شغفه بالأدب والعلم إلى تشجيع

---

(١) المرجع السابق: ٢/١٣٣ - ١٣٤، ثم تابع براون ذكر الشعراء الفرس الذين ازدهت بهم حاضرة غزنة، وأشهرهم (عنصري) شاعر السلطان محمود الغزنوي، و(اسدي) و(عسجدي) و(فرخي)، و(منوجهري) وغيرهم كثير.

(٢) يراجع الفصل الذي عقده الثعالبي لأدباء الحضرة الغزنوية، حيث ذكر مشاهير أولئك الأدباء، ولعل أبرزهم: أبو الفتح البستي (يتيمة الدهر: ٤/٣٤٥ وما بعدها)، وأبو العلاء صفي الحضرتين (تتمة اليتيمة: ٥/١٢٦ - ١٢٧)، وأبو القاسم إبراهيم الطائي (٥/ ١٥١) وأبو القاسم عبد الواحد بن محمد الأصفهاني: ٥/ ١٣٢. وأبو الفتح محمد ابن أحمد الدباوندي (٥/١٥٣ - ١٥٤)، وأبو العباس محمد بن إبراهيم الباخرزي (٥/٢١٨ - ٢١٩)، وغيرهم.

(٣) تراجع الفصول التي ذكرها الثعالبي في (يتيمة الدهر) عن بلاغة أولئك الأمراء وبراعتهم في قرض الشعر. ينظر ما ساقه مثلا عن ملح أشعار (سيف الدولة الحمداني) ١/٣٧ وما بعدها، وينظر أيضا الفصل الذي عقده لملوك (ال بويه) الذين قرضوا الشعر، ورويت أشعارهم، (اليتيمة: ٢/٢٥٧ وما بعدها)، ويراجع أيضا الباب الثامن من القسم الرابع في محاسن اهل خراسان، وما ساقه من ملح أشعار وفصول رسائل أبي الفضل الميكالي: ٤/٥٣٣ وما بعدها، ويراجع أيضا ما ذكره الثعالبي في مقدمة (معجم فقه اللغة وسر العربية) عن الأمير أبي الفضل الميكالي، وما سجله عن غزارة علمه، ومليح أدبه، وتشجيعه للعلم والأدب، وإغداقه على روادهما والمبرزين منهم فيهما وغير هؤلاء من الأمراء والحكام كثير في هذا القرن، فضلا عن وزرائهم وولاتهم المشهورين الذين سنعرض لدراسة بعضهم في المبحث الثاني من هذا الفصل.

اهل تلك الصناعة، وروادها، والمبرزين فيها.

ذكر الأستاذ براون، نقلا عن (ابن اسفنديار) في تاريخ طبرستان يقول[١]:

"إن قابوساً كان مبرزا في علوم البلاغة العربية ... متفوقا بالفلسفة والنجوم، وقد كتب بالعربية رسالة عن (الاسطرلاب) أعجب بها كثيرا أبو إسحاق الصابي".

كما اثبت أبو نصر العتبي، بإعجاب شديد، للأمير قابوس - وكانت له معه مراسلات متبادلة - رسالة عربية قصيرة، من تاليفه، في بيان ما امتاز به كل واحد من الصحابة[٢].

وأشار الأستاذ براون[٣] إلى أن السلطان محموداً الغزنوي كان شاعرا وذكر أن (عوفي) في كتابه (لباب الألباب) قد ذكره تاليا للأمير (إسماعيل بن نوح) آخر السامانيين، وجعله ثاني من وردت أسماؤهم بين الملوك والأمراء الذين اثر عنهم قول الشعر أحياناً.

وهكذا أصبحت حواضر الري وشيراز وأصفهان وبخارى ونيسابور وجرجان، وسواها من حواضر أقاليم المشرق الإسلامي، فضلا عن بغداد حاضرة الخلافة الإسلامية، وحلب والموصل حاضرتي الحمدانيين، وحاضرة الأمويين في الأندلس، وغيرها، أصبحت كل تلك الحواضر الإسلامية الكثيرة قبلة آمال أولئك الأدباء والعلماء والفلاسفة وغيرهم في القرن الرابع للهجرة.

وانطلاقا من هذا كله، فقد تهيأت امام الأدباء - ولا سيما كتاب الرسائل - في هذا القرن، كل السبل التي تحفزهم للارتقاء بقدراتهم الفنية، وصقل ملكتهم الأدبية، وشحذ طاقاتهم الإبداعية في صناعتهم التي أصبحت مطلب جميع الأمراء، وحكام الممالك المستقلة، وغيرهم؛ بلوغا لأسمى المراتب في الدولة، فضلا عن نيل وسام الشهرة والخلود.

وهكذا كانت منتديات أولئك الأمراء والحكام، ومجالسهم العلمية والأدبية في هذا القرن، من جانب آخر، موردا سائغا للأدباء والكتاب الناشئين، أو الذين هم في ريعان العمر والحداثة، فكان تمازجهم واختلاطهم في تلك المجالس بتلك القمم

(١) تاريخ الأدب في إيران: ١١٩/٢.

(٢) ينظر تاريخ العتبي: ١٧/٢ وما بعدها.

(٣) تاريخ الأدب في إيران: ١٣٥/٢ - ١٣٦.

الشامخة من الأدباء والعلماء، باعثا مهما لرقي ملكتهم الأدبية، ورفدهم بنسغ الثقافة الوارف العميم.

وفضلا عما تقدم، فكثيرا ما كان أولئك الأمراء أو الوزراء الأدباء - ممن كان يعرف للأدب (منظومهُ ومنثوره) قدره وقيمته - مصدر الهام وإبداع وتألق لأولئك الأدباء الذين يحلون في كنفهم، ويقيمون في حماهم، وكثيرا ما كان يتراجع طبع بعضهم، أو تخف مؤونة عطائه الإبداعي حين ينأى عن حضرة ذلك الأمير الذي اختص به، أو كان محط إعجابه، ومصدر رفده، ومبعث رغده، وهناء عيشه، كالذي ذكره الثعالبي[١]، مثلا، عن تراجع طبع الشاعر أبي الطيب المتنبي بعد رحيله عن بلاط سيف الدولة في حلب، ورقة حال أبي الحسن السلامي، وتراجع طبعه بعد وفاة الأمير عضد الدولة البويهي الذي كان يلازمه في حله وترحاله، ويؤثره على سواه[٢].

وهكذا كانت حاجة أولئك الأمراء وحكام الممالك الإسلامية لمشاهير العلماء والأدباء، وأعلام الكتاب، هي التي حدت بهم إلى اجتذابهم للإقامة في كنفهم وإسناد المناصب الرفيعة إليهم؛ لأنهم أدركوا ما (لبضاعتهم) من قيمة عالية وما تحققه رسائلهم الأدبية المحبرة من رد رأس الجموح فيثني، أو جعلها سوط الحرون فتعنق، وإن تلك الرسائل الأنيقة، كثيرا ما تغني عن الكتائب المجحفلة في عرك أديم العصاة، والمنابذين الجفاة، وهكذا فإنها تنوب عن الحسام المهند في استصلاحهم، وردهم إلى سبيل الطاعة، وألفة الجماعة.

- ٢ - امتداد حركة الترجمة ونشاطها: -

لقد تأثر النثر الفني منذ العصر العباسي الأول بألوان المعارف والثقافات الأجنبية - ولا سيما الثقافة والتراث الفارسي - بفعل الاختلاط والتمازج مع تلك الشعوب والأجناس الأعجمية، والإطلاع على ما تم نقله أو تعريبه من شذرات تراثهم الأدبي، إذ بدأت تلك الثقافات وألوان المعارف الأجنبية تصب فيه، وتعمل على تشكيله وتطوره.

ولعل ابن المقفع[٣] يقف في طليعة أولئك الأدباء الأعاجم الذين قاموا بنقل أو

---

(١) يتيمة الدهر: ١/١١٥.

(٢) تراجع التفاصيل في يتيمة الدهر: ٢/٤٧٣ - ٤٧٤.

(٣) لقد ترجم ابن المقفع عن الفهلوية القديمة - فضلا عن تصانيفه المشهورة - كثيرا من أصول التراث الفارسي لعل أشهرها: (كليلة ودمنة)، و(خدا ينامه)، و(ابين نامة)، و(مزدك)، و(التاج)، =

ترجمة كثير من شذرات التراث والأدب الفارسي إلى العربية، فأضافوا إلى الأدب العربي - ولا سيما النثر الفني - مضامين جديدة، نهل المصنفون والأدباء العرب من فيضها الزاخر كثيرا من المعاني الغزيرة، والأفكار الجديدة، والموضوعات الطريفة.

ويتفق جل الباحثين المعاصرين[١] على اثر المترجمين في ازدهار الحركة الثقافية في العصر العباسي، وما قدموه من كتب أساسية في علوم الفلسفة والمنطق والطب وغيرها، واثر ذلك الكبير في إثراء الحياة الثقافية والنهضة العلمية التي شهدها هذا العصر.

ولقد كان لامتداد حركة الترجمة، واستمرار نشاطها في القرنين الثالث والرابع للهجرة، اثر كبير في رقي الحياة العقلية، والنهضة العلمية والأدبية، واتساع حركة التأليف التي راجت في القرن الرابع بصورة خاصة، إذ عمل كثير من مشاهير التراجمة السريان[٢]، منذ القرن الثالث، وبدعم وتشجيع كبيرين من بعض الخلفاء ووزرائهم، على شرح وترجمة كثير من أصول المعارف والثقافة والعلوم الأجنبية - ولا سيما أصول الفلسفة وكتب الحكمة والمعارف اليونانية - وإعادة ترجمة كثير من تلك الأصول الأجنبية التي سبق ترجمتها وتعريبها منذ العصر العباسي الأول.

لقد عكف كبار أعلام التراجمة السريان بخاصة، منذ القرن الثالث للهجرة على ترجمة الكثير من أصول المعارف والعلوم اليونانية، وإعادة ترجمة كثير من تلك المظان

=

وكتاب الكيكيين في سير ملوك الفرس وغيرها، وقد ضاعت أكثر تلك المصنفات المترجمة، عدا (كليلة ودمنة)، وبعض النقول من كتاب (خدا ينامه) التي وردت في تضاعيف كتاب (رسل الملوك) لابن الفراء الذي حققه الأستاذ صلاح الدين المنجد. (ينظر كتاب كنوز الأجداد: ص٥٨)، وكانت هذه الأصول المترجمة مما اعتمد عليها الشاعر الدقيقي ثم الفردوسي في وضع ملحمة الفرس الشهيرة (الشاهنامة) في أواخر القرن الرابع للهجرة.

(١) ينظر تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ٤/١٢٦ - ١٢٧، العصر العباسي الثاني ٥١٤ وما بعدها.

(٢) لقد صرح التوحيدي - على لسان أبي سعيد السيرافي في مناظرته المشهورة مع متى بن يونس - بأن أهل عصره كانوا ينقلون فلسفة اليونان ومعارفهم الأخرى عن اللغة السريانية، وإن أكثر المترجمين السريان - ومنهم متى بن يونس - كانوا يجهلون لغة اليونان القديمة. ينظر: الإمتاع والمؤانسة: ١ /١١١ وينظر: تتمة صوان الحكمة: ١٤ - ١٥، النثر الفني في القرن الرابع: ١/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

التي سبق نقلها إلى العربية أيضا. ولعل في طليعة أولئك المترجمين[١] السريان: (حنين بن إسحاق) المتوفى عام ٢٦٤ ومدرسته، إذ قام هؤلاء التراجمة مثلا بنقل عشرات الكتب في الطب لجالينوس وغيره إلى العربية، فضلا عما قاموا بترجمته من كتب الفلسفة والحكمة لارسطو واقليدس وبطليموس وغيرهم[٢].

وكان مما ساعد على ازدهار حركة الترجمة في هذا القرن أيضا: تطور الفكر الفلسفي عند المسلمين، وبروز قمم المفكرين والفلاسفة إبّان هذا القرن وفي طليعتهم (أبو بكر الرازي (ت ٣٢٠ هـ)، و (ابو نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ)، وغيرهما ممن تتلمذ عليهما، أو اطلع على نتاجهما العلمي والفلسفي مما قاما بتصنيفه أو ترجمته.

أما أبو بكر الرازي، الذي وصفه ابن النديم[٣] بأنه أوحد دهره، وفريد عصره، فقد كان لجهوده الكبيرة في التصنيف والترجمة أعظم الأثر في النهضة العلمية والثقافية التي شهدها هذا القرن. فقد اشتهر الرازي بعلوم الطب والفلسفة والمنطق، وقد صنف وترجم كثيرا من الكتب المهمة في تلك العلوم، فضلا عن المعارف الطبيعية والإلهية، وغيرها[٤].

وقد كان لجهود الفارابي أيضا أعظم الأثر في النهضة العلمية وازدهار حركة التأليف والترجمة في هذا القرن، إذ عكف الفارابي على شرح الكتب المنطقية، وإظهار غامضها، وبيان ما أغفله الفلاسفة المسلمون الذين سبقوه فبدأ بدراسة فلسفة افلاطون وتحليلها، ثم اتبع ذلك بدراسة فلسفة أرسطو، فشرع يدرس متونها، ويشرح تفاصيلها، ويبسط جزئياتها. وقد عده القفطي، مثلا من الفلاسفة الذين برزوا على أقرانهم، وأشار

(١) وقف إلى جانب (حنين بن إسحاق) مجموعة من المترجمين السريان لعل أشهرهم: (ثابت بن قرة ت ٢٨٨ هـ)، يراجع ثبت مصنفاته وترجماته في كتاب؛ إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي: ٨٠ - ٨٤، و(قسطا بن لوقا البعلبكي ت ٣٠٠ هـ) و(متى بن يونس ت ٣٣٠ هـ) الذي عني بترجمة جميع أثار ارسطو المشهورة في الفلسفة والمنطق وعلم الطبيعة وغيرها. (ينظر: الفهرست: ٢٩٤، تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١٢٦/٤ وما بعدها، العصر العباسي الثاني - د. ضيف: ١٣٠ وما بعدها). وينظر: تتمة صوان الحكمة (أعلام المترجمين).

(٢) ينظر: تتمة صوان الحكمة: ٣ - ٧ وما بعدها (أعلام المترجمين)، وتراجع التفاصيل في: العصر العباسي الثاني: ٥١٤ وما بعدها.

(٣) الفهرست: ص٥١٨.

(٤) تراجع تصانيف الرازي في: أخبار العلماء بإخبار الحكماء: ١١٩ - ١٨٢؛ وينظر أيضاً تتمة صوان الحكمة: ٥ - ٦.

أيضا إلى أنه أربى عليهم " في التحقيق وشرح الكتب المنطقية، واظهر غامضها، وكشف سرها، وقرّب متناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة "[١].

وتتبلور جهود الفارابي في ترسيخ أسس ترجمة التراث الفلسفي اليوناني بما أسداه بعض تلاميذه الذين تخرجوا عليه، وفي طليعتهم يحيى بن عدي ومن شايعه من تلاميذه، ومنهم (ابن الخمار) و (ابو سليمان المنطقي) وغيرهما، إذ كان لهم دور كبير في نقل مصنفات فلسفية كثيرة من السريانية إلى العربية، فضلا عما قاموا بترجمته من العلوم اليونانية فيما يتصل بالفلسفة والمنطق وعلوم الحكمة الأخرى[٢].

لقد كان كثير من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، ينهلون في ترسلهم أقباساً مضيئة من تراث الأمم الأجنبية، ومعارفها التي اطلعوا عليها بعد تعريبها أو ترجمتها إلى العربية، فضلا عما تلقفوه عن الأجناس الأعجمية أو السريان وغيرهم، ممن اختلطوا بهم، أو تمازجوا معهم، وكان في طليعة تلك المعارف التي قبسوها، وتجلت ملامحها في مكاتباتهم الأدبية؛ علوم الفلسفة والمنطق وعلم الأخلاق والطب والرياضيات وغيرها من المعارف الأخرى.

لقد بدأ كثير من الأدباء الكتاب الذين كانوا ينحدرون من أصول أعجمية في أقاليم المشرق الإسلامي، وبسبب نزوع أكثر أولئك الأمراء الأعاجم، أو حكام الممالك المستقلة إلى إحياء تراثهم الحضاري، وآدابهم القومية، وبعث اللغة الفارسية، بدأوا يضعون تصانيفهم، ويصوغون أشعارهم باللغة الفارسية إلى جانب العربية، وطفقوا أيضا يترجمون من الفارسية وإليها بالعربية[٣].

وهكذا أصبحت بخارى - حاضرة السامانيين - والري وشيراز وأصفهان - حواضر البويهيين - وجرجان وطبرستان - منتجع الزياريين وغيرهم - فضلا عن غزنة - حاضرة الغزنويين - واقليم خوارزم وغيرها من الأقاليم الشرقية الأخرى، أصبحت مستقرا لكثير من الأدباء والكتاب الذين كانوا يصنفون كتبهم، ويصوغون أشعارهم، ويدبجون رسائلهم وأدبهم باللغة الفارسية إلى جانب حذقهم التأليف والإبداع باللغة

(١) المصدر نفسه: ١٨٢، وينظر: تتمة صوان الحكمة: ١٦ - ٢٠.
(٢) تراجع التفاصيل في تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١٥٢/٤ وما بعدها.
(٣) تراجع التفاصيل في كتاب تاريخ الأدب في إيران: ١٠٧/٢ وما بعدها.

العربية.

فأبو علي البلعمي - وزير السامانيين المشهور - مثلا، قام بترجمة تاريخ الطبري إلى الفارسية حوالي ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م، كما قام أيضا بترجمة تفسير الطبري إلى الفارسية حوالي سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م[١].

ويرى الأستاذ براون أن إقليم فارس - الذي كان تحت سيطرة الأمراء البويهيين - هو مهد العظمة الفارسية الحقيقية، وإن هذا الإقليم شهد نشاط وشيوع الأدب الفارسي، وظهور أدباء وشعراء فرس مدحوا الأمراء والوزراء بالشعر الفارسي، ولعل أشهر أولئك الشعراء هم المنطقي، والخسروي، وقمري الجرجاني وغيرهم[٢].

وقد كان بعض العلماء المسلمين الفرس يصنفون بعض كتبهم بالفارسية ويهدونها إلى الأمراء البويهيين أو أتباعهم، فابن سينا مثلا، ألف كتاب (دانش نامه علائي)، وأهداه للأمير عضد الدولة البويهي[٣].

وأشار الأستاذ براون إلى بعض التواريخ المحلية التي كتبت بالفارسية والعربية، ومن بينها؛ (تاريخ قم) الذي تم تأليفه للوزير الصاحب بن عباد حوالي سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م[٤].

وعلى الرغم مما شهر عن أبي الريحان البيروني من حبه للعربية[٥] وانقطاعه إلى التأليف بها، إلا انه ألف كتابه المشهور (التفهيم في صناعة التنجيم) بالفارسية[٦]. ولأبي علي بن مسكويه أيضا، أكثر من كتاب ألفه بالفارسية، منها: كتابه (جا ويذان خرد)، الذي جمع فيه حكم الأمم الأربعة الكبيرة وهم الفرس والهند والعرب والروم، والكتاب يبحث في الأخلاق العملية[٧]. ومنها أيضا كتابه: (نزهت نامه علائي)

---

(١) تاريخ الأدب في إيران: ١٣٢/٢.

(٢) تاريخ الأدب في إيران: ١٠٧/٢ - ١٠٨.

(٣) المرجع نفسه: ١٣٢/٢ - ١٣٣.

(٤) المرجع نفسه ١٣١/٢.

(٥) شهر عن البيروني قوله: "إن الهجو بالعربية أحب إليه من المدح بالفارسية " ينظر كنوز الأجداد: ٢٣٩.

(٦) تاريخ الأدب في إيران: ١٢٠/٢ - ١٢١.

(٧) ينظر: معالم الحضارة الإسلامية: ٢٠٤.

بالفارسية، وقد أهداه إلى الأمير علاء الدولة البويهي[١].

وأشار الثعالبي، في معرض حديثه عن بديع الزمان الهمذاني، وما عرف عنه من حضور البديهة والارتجال، فقال[٢]: "... وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة، بالأبيات العربية، فيجمع فيها بين الإبداع الإسراع".

وقد أشار (محمد عوفي) إلى ما مُدح به الوزير الصاحب بن عباد من الشعر الفارسي، وذكر انه طلب من الهمذاني ترجمة بعض الأبيات التي مدح بها بالفارسية إلى الشعر العربي على البديهة[٣].

وهكذا شأن أكثر أقاليم المشرق الإسلامي في هذا القرن، فإقليم طبرستان مثلا، كانت تزدهر فيه ثقافة أدبية رفيعة، تدل عليها هذه النبذ الكثيرة التي وردت في اسبق تواريخها الذي الفه (ابن اسفنديار) في النصف الأول من القرن السابع للهجرة، وقد أشار الأستاذ ادوارد براون، نقلا عن ابن اسفنديار إلى كثرة التآليف العربية، والأشعار التي نظمت بالعربية، فضلا عن تأليف طائفة من الكتب الفارسية، ومن بينها الكتب التي الفت باللهجة الطبرية الخاصة[٤].

اما الأدباء الفرس[٥] الذين ازدحمت بهم القصور الغزنوية في أواخر هذا القرن وحتى الربع الأول من القرن الخامس للهجرة، فلعل ذلك ابلغ شاهد على خصب الحياة الثقافية في الإمارة الغزنوية، وازدهار النقل والترجمة بين اللغتين العربية والفارسية.

وهكذا نصل إلى حقيقة مهمة، تلك هي أن اللغة الفارسية - بعد أن عادت إلى الظهور منذ منتصف القرن الرابع، بفعل نزوع حكام الممالك الأعجمية المستقلة إلى إحياء تلك اللغة، وبعث الآداب القومية، والثقافة الفهلوية القديمة - أصبحت شريكة للعربية في التعبير عن الحضارة الإسلامية، وواجهة مهمة للثقافة الإسلامية في هذا

(١) المرجع نفسه: ٢٠٧.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٩٣/٤ - ٢٩٤.

(٣) كتاب لباب الألباب: ١٦/٢ - ١٩ (بدلالة كتاب ادوارد براون: ١٠٩/٢).

(٤) ينظر تاريخ الأدب في إيران: ١٠٨/٢.

(٥) تراجع التفاصيل وذكر اسماء أولئك الأدباء والشعراء وصلتهم بالسلطان محمود الغزنوي في: تاريخ الأدب في إيران: ١٣٣/٢ وما بعدها.

القرن، فضلا عن ذلك، فقد أضحت هذه اللغة وسيلة مهمة للتعبير عن نوازع إنسانية؛ ذلك إنها تمكنت بعد مدة وجيزة من بعثها، من إبداع أنواع أدبية مهمة، تمثلت بالملاحم والمنظومات القصصية المطولة، ويكفي شاهدا على ذلك، ابداع (الفردوسي) للشاهنامة، التي جسدت أساطير الفرس وسير ملوكهم، فضلا عن تبلور ألوان جديدة من الأدب، كالغزل الفارسي، وفن الرباعيات، وغيرها من الألوان التقليدية.

وهكذا أصبحت هذه اللغة في تلك الأقاليم النائية، شريكة للعربية في تجسيد معالم النهضة الحضارية التي شهدها القرن الرابع، الذي يعد بحق من أزهى عصور الإسلام في الحضارة، وازدهار الثقافة، وحركة التأليف.

- ٣ - ظهور طبقات من الأدباء الكتاب الموهوبين:

لقد ظهر في القرن الرابع للهجرة طبقات من كبار الأدباء والكتاب، كانوا نموذجاً نادراً في البلاغة وصناعة الترسل، كما كانوا بمثابة قمماً شامخةً، ومدارس أدبية رائدة في فن الإنشاء، وصناعة الترسل، خرجت أجيالا متعاقبة من الأدباء والكتاب[١].

ولعل في طليعة أولئك الأدباء الأعلام: أبا الفضل ابن العميد، والصاحب ابن

---

(١) يراجع في مجالس ابن العميد مثلاً، ومكانته الأدبية، وأثرهُ في أدباء عصره، ومن تتلمذ عليه: يتيمة الدهر: ١٨٤/٣ - ١٨٥، ومواضع أخر، ويراجع أيضا النثر الفني في القرن الرابع - مبارك: ٢/ ٢٣٥ وما بعدها، الأدب في ظل بني بويه: ص١٢٨ وما بعدها. ويراجع في منتديات الصاحب بن عباد ومدرسته وأثره في أدباء وكتاب عصره الذين تخرجوا عليه: يتيمة الدهر: ٣/ ٢٢٥ وما بعدها، والنثر الفني في القرن الرابع: ٢٩٦/٢ وما بعدها. وينظر في أبي بكر الخوارزمي وصلته الحميمة بتلاميذه، وتخرجهم عليه، واقتفائهم طريقته في الترسل: (مجموع رسائل الخوارزمي مع تلاميذه (في مواضع متفرقة)، وينظر: يتيمة الدهر: ٢٢٣/٤ وما بعدها، وتراجع رسالة محمود الضمور. (أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه) في مواضع متفرقة. وكذا التوحيدي الذي عده كثير من الباحثين ومنهم الأستاذ ادم متز: استاذ طريقة خاصة في الكتابة، وأنه كان على ذروة من ذراها. ينظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٤٦٥/١. أما أبو إسحاق الصابي: فقد كان - كما وصفه الثعالبي - " أوحد العراق في البلاغة، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة". يتيمة الدهر ٢٨٧/٢ وما بعدها، وكان أثره كبيرا في كتاب الديوان الرسمي الذي تبوأ رئاسته منذ عام (٣٤٩ هـ وحتى وفاته عام ٣٨٤ هـ). ينظر: إخبار العلماء للقفطي: ص٥٤ - ٥٥، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٤٤٨/١ حيث عده أكبر المنشئين في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. وتراجع مجالس أبي الفضل الميكالي، وأشهر كتاب مدرسته الذين تخرجوا عليه؛ ومنهم المطوعي، وأبو منصور يحيى بن يحيى الكاتب، وأبو سلمة ابنه وغيرهم، تراجع: تتمة اليتيمة: ١٩٤/٥، ١٩٧، ومواضع أخر.

عباد، وأبا إسحاق الصابي، وأبا بكر الخوارزمي، وبديع الزمان، وأبا القاسم الإسكافي، وأبا حيان التوحيدي، وأبا الفضل الميكالي وغيرهم كثير من الأدباء الشوامخ ممن سنقف عند دراسة مبرزيهم في المبحث الثاني من هذا الفصل

وهكذا كان ظهور هؤلاء الكتاب الرواد، في هذا القرن، عاملا مهما في ازدهار الحياة الثقافية والأدبية، وإثرائها، واتساع قاعدة الأدباء الكتاب الذين تتلمذوا عليهم، وتلقفوا طرائقهم في صناعة الإنشاء والرسائل الأدبية والديوانية.

المبحث الثاني

طبقات كتاب الرسائل الأدبية وأثرهم في ازدهار الرسائل

لقد كان من البواعث المهمة التي عملت على ازدهار النثر العربي، وارتقاء صناعة الكتابة - وبخاصة الرسائل الأدبية والديوانية - في هذا القرن: ظهور طبقات متميزة من الأدباء الكتاب الذين جمعوا بين سعة الثقافة، واتقاد الموهبة، وصفاء القريحة - التي أورثتهم الفاف البلاغة والفصاحة - وبين سمو المنزلة السياسية والإدارية والاجتماعية، ورفعة الشأن والنبل والفضل.

ومنذ قبيل منتصف القرن الثالث للهجرة، بدأت طبقة الأدباء الكتاب تشغل مكانة مهمة وخطيرة في افاق الحياة السياسية والثقافية والأدبية، وطفقت شرائح متميزة من هذه الطبقة تتبوأ مكانة سامية في الدولة العباسية[١].

وقد اشاد أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)[٢]، وهو من كبار منظري الأدب والبلاغة في القرن الثالث - كثيرا بطرائق هذه الفئة من الأدباء، وامتدح بلاغتهم ونهجهم في التعبير والترسل وصناعة الكلام.

وهكذا راحت طبقات متميزة من كبار الأدباء الكتاب، منذ أواخر القرن الثالث، ومطلع القرن الرابع، تتسنم مناصب رفيعة في الدولة، كمنصب الوزارة أو الولاية، أو يتبوأ بعضهم أيضاً رئاسة ديوان الرسائل أو ديوان الخراج، أو يرتقي لإدارة مجموعة الدواوين الرسمية الأخرى.

وقد رصد بعض الباحثين من المستشرقين، وغيرهم أيضاً، هذه الظاهرة المهمة فذهب إلى القول: "ليس من محض الاتفاق أن كثيراً من الوزراء، في ذلك العهد، كانوا من أساتذة البيان وأعلامه، ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة أن تنشر كتبا للناس ... "[٣].

---

(١) تراجع مقدمة كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، إذ إنها سلطت الضوء بدقة متناهية في تنامي نفوذ هذه الطبقة، وبدء صعود نجمها - لا سيما في دواوين الدولة الرسمية - وتسنم بعضهم للمناصب الرفيعة، على الرغم من عدم اكتمال آلة بعضهم - كما أشار ابن قتيبة بمرارة - من أسس هذه الصناعة.

(٢) يراجع: البيان والتبيين ١/ ١٣٧، إذ قال الجاحظ في معرض تعليقه على صحيفة بشر بن المعتمر: "... أما أنا فلم أر قط امثل طريقة في البلاغة، من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشيا، ولا ساقطا سوقيا".

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع - ادم متز: ١/ ٤٤٧.

وكان من طليعة أولئك الأدباء الكتاب البلغاء في هذه الحقبة: إبراهيم بن المدبر[١] (ت ٢٧٨ هـ) - وقد تقدمت الإشارة إلى رسالته المشهورة (العذراء) وقيمتها الأدبية - ومحمد بن جعفر بن ثوابة (ت ٣١٢ هـ) - وقد أشرنا إلى مكانته في ديوان الرسائل الرسمي، وأبو علي ابن مقلة[٢]، وكان كاتبا بليغا، وفيه قال الصولي[٣]: "ما رأيت وزيرا منذ توفي القاسم بن عبد الله ابن سليمان بن وهب (وزير المكتفي) أحسن حركة، ولا أظرف إشارة، ولا املح خطاً، ولا أكثر حفظا، ولا أسلط قلما، ولا اقصد بلاغة، ولا آخذ بقلوب الخلفاء من ابن مقلة".

****

لقد ظهر في القرن الرابع للهجرة طبقات من كبار الأدباء الكتاب البلغاء، لم يكونوا امتدادا لتلك العبقريات الفنية - التي أشرت إليها آنفا - النادرة في البلاغة، وصناعة الترسل فحسب، وإنما كانوا بمثابة مدارس أدبية رائدة وقمم شامخة في فن الإنشاء، وصناعة الترسل، خرّجت أجيالاً من الأدباء والكتاب.

ويمكن تصنيف أشهر الأدباء الكتاب، ممن برعوا وأجادوا في صناعة الكتابة - وبخاصة في الرسائل الأدبية والإخوانية، فضلا عن إجادة أكثرهم للمكاتبات السلطانية أو الديوانية أيضاً - في القرن الرابع - لا سيما من الوجهة الفنية أو الأدبية، فضلا عن المؤثرات والأبعاد الخارجية الأخرى التي أحاطت بهؤلاء الأدباء المترسلين، ووجهت حياتهم، فكان لها ابعد الأثر في نتاجهم الأدبي والفني - ويمكن توزيعهم على طبقات أو فئات، وعلى النحو الآتي:

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن المدبر، كان واليا على خراج فلسطين للخليفة المهتدي بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ)، وولي الوزارة سنة(٢٦٣ هـ). ينظر: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١١٧/٢. عالج ابن المدبر صناعة الترسل في رسالته المشهورة (العذراء)، وقد نشرها الأستاذ محمد كرد علي في (رسائل البلغاء ص١٧٦ - ١٩٣).

(٢) أبو علي ابن مقلة، ولد في بغداد عام ٢٧٢ هـ، وكان ممن اشتغل بين يدي ابن الفرات وارتفع بسببه، وزر لثلاثة خلفاء في أوائل القرن الرابع، وكان صاحب مؤامرات ودسائس، ويقال انه أوقع بين الخليفة القاهر وجنده، وانه سعى عند بجكم وعند الراضي على ابن رائق الذي عاقبه بقطع يده اليمنى، ثم قطع لسانه وسجن ومات في السجن، وذكر الثعالبي: إن خطه كان من أحسن خطوط الدنيا، وهو أكبر مؤسس للكتابة العربية الجديدة التي ظلت طول القرن الرابع، ينظر: الحضارة الإسلامية - متز: ١٩١/١ - ١٩٣، العصر العباسي الثاني: ص٥٦٠ - ٥٦١.

(٣) النجوم الزاهرة - ابن تغري بردي: ٢٦٨/٣.

أولاً: طبقة الكتاب الأجلاء من الأمراء والوزراء:

وهذه الطبقة من الأدباء المترسلين هم الذين ازدان نتاجهم الأدبي بالتأنق، واتشح بالبراعة، وكان كثير منهم قد جمع إلى جانب سمو منزلته السياسية، ورفعة مكانته الاجتماعية، قصب السبق في الريادة الفنية، فكانوا - كما ذكر عمر بن علي المطوعي، وقد ذكر شعر أبي الفضل الميكالي ومنثوره[١] "... من اخذ بحبل الجودة من طرفيه، وجمع رداء الحسن من حاشيتيه.".

ولعل أشهر هذه الطبقة من الكتّاب المترسلين:

١ - أبو الفضل ابن العميد:

هو أبو الفضل محمد بن العميد الحسين بن محمد، فارسي الأصل[٢] كان وزيرا لركن الدولة البويهي[٣]، إذ لم يزل أبو الفضل بالري، وكور الجبل وفارس منذ سنة (٣٢٨ هـ / ٩٣٩ م)[٤]، يتدرج إلى المعالي حتى استقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة، لأكثر من ثلاثين عاما[٥].

وقد ذكر المستشرق كارل بروكلمان؛ أنه كان يتشيع على مذهب الأمامية[٦]، وقد اتفق أكثر من ترجم له من القدماء[٧] والمعاصرين[٨] على أنه صاحب طريقة جديدة

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/١٧٥.

(٢) ذكر الثعالبي - وهو من كبار مؤرخي الأدب في هذا القرن - في يتيمة الدهر ٣/١٨٤: إن أباه أبا عبد الله الحسين بن محمد العميد المعروف بـ (كلة) - وهي كنية لشهرته - كان أصله من قم، وكان " في الرتبة الكبرى من الكتابة، ورسائله مدونة بخراسان". وكان يكتب لـ (ما كان بن كاكي الديلمي)، ثم تقلد ديوان الرسائل للأمير السامانيّ (نوح بن نصر) الذي لقبه بالشيخ العميد، وبقي في رتبته حتى توفي بالنقرس.

(٣) ينظر: تحفة الوزراء المنسوب للثعالبي، ١٢٥.

(٤) ينظر: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ٢/١١٩.

(٥) يتيمة الدهر: ٣/١٨٤.

(٦) تاريخ الأدب العربي: ٢/١١٩.

(٧) لعل أدق وأمتع من ترجم له من معاصريه: ابن مسكويه: تجارب الأمم ٥/٣٧٤ - ٣٧٨ يتمية الدهر ٣/١٨٣ - ٢٣٣، وينظر أيضاً: وفيات الأعيان (رقم الترجمة ٦٦١) معجم الأدباء ج٥ (في مواضع متفرقة).

(٨) ينظر: أئمة الأدب: ابن العميد (رقم ٣) للأستاذ خليل مردم. (حلب ١٣٥٠هـ/١٩٣١م)، ويراجع ما أشار إليه الأستاذ طه حسين من تفرد ابن العميد في الجمع بين التفكير والعناية بالمعاني والترتيب المنطقي لنثره مع العناية بالسجع وألوان البديع (من حديث الشعر والنثر ص٧٩)، =

ومتميزة في الترسل قرنت باسمه[١]، وعدَّهُ بعضهم سيد كتاب اللغة العربية في القرن الرابع[٢]، وانه قد تفرد بأسلوب في الكتابة عن سائر معاصريه.

لقد كان ابن العميد واسع الاطلاع، غزير الثقافة، وكان ذلك سببا في نمو فكره، وصقل ذوقه في صناعة الترسل، وإلمامه بفنون الكلام، والجنوح إلى تهذيب العبارات، والعناية الواضحة بالصناعة اللفظية التي كلف بها أهل عصره ومن هنا، فقد أعجبوا بطريقته في الترسل حتى انتشرت انتشارا واسعا في العراق وخراسان وما جاورها.

لقد كانت طريقته التي سنها في الكتابة تقوم على قصر الفقرات، مع الالتزام بالسجع والمحسنات البديعية، إلى جانب تنميق العبارة، وانتقاء الألفاظ والجمل، فضلا عن تضمين الشعر الرصين والأمثال السديدة، واقتباس آي القران الكريم.

ولقد أعجب أدباء هذا القرن بطريقته هذه، فاقتفى أثره أشهر كتاب عصره حتى صار أسلوبه، الذي يمزج بين السهولة وصفاء الطبع وبين الصنعة والحذق الفني نموذجا يحتذى، ومثالاً يقتدى به في الكتابة الفنية.

وقد جمع ابن العميد - بشهادة المفكر الشهير ابن مسكويه[٣] - وهو اقرب من لازمه في صحبة دامت سنوات عديدة - إلى ذلك كله: سعة العلم، وأدب النفس وكمال الخلق، فضلا عما عرف عنه من الجرأة والشجاعة في الحروب، وقدرته العالية على ضبط الأعمال، وحسن تدبيره لشؤون الدولة، وقد كان بحق اعرف وزراء آل بويه في زمانه بأمور الملك، وخفايا السياسة.. كل ذلك، مع ما عرف عنه من حبه للعلم والأدب، وتواضعه الجم مع أهلهما[٤]، قد هيّأ لأبي الفضل ابن العميد أن يكون أحد

وينظر أيضاً: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع - متز: ١/٢٠٣ - ٢٠٦.

(١) ينظر: الأدب في ظل بني بويه: ص٢٩٢، إذ أشار الأستاذ الزهيري إلى بداية ظهور الأسلوب المحلى بالسجع والبديع في النثر العربي، ثم قال: "... فقد كان هذا الكاتب أول من نحا هذا النحو في كتاباته، ولهذا يعد أستاذاً لهذه الطريقة الجديدة في الكتابة، ثم تابعه على ذلك بقية الكتاب ممن تتلمذ عليه كالصاحب، أو قلدوه كالبديع والخوارزمي والصابي والثعالبي وغيرهم.".

(٢) ينظر النثر الفني في القرن الرابع: ٢/٢٣٥.

(٣) يراجع ما فصله في هذا الجانب ابن مسكويه في تجارب الأمم: ٥/٣٧٤ - ٣٧٨.

(٤) يراجع ما ذكره ياقوت عن تواضع ابن العميد مع أبي بكر الخياط عندما كان يقرأ عليه كتاب "الطبائع" للجاحظ؛ معجم الأدباء: ٥/٩ - ١٠.

القمم الأدبية الشامخة التي أسهمت في رفد النهضة العلمية والأدبية في هذا القرن، وأن يصبح رأس مدرسة مهمة في النثر العربي، اقتفى خطاها رعيل كبير من أدباء وكتاب العربية في عصره، والعصور اللاحقة.

- ٢ - الصاحب بن عباد:

هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد[١] بن العباس، لقب بكافي الكفاة وعرف بالصاحب[٢] وهو فارسي الأصل من ولاية الطالقان[٣] من ناحية (جي) إحدى نواحي مدينة (أصفهان) القديمة[٤].

---

(١) كان أبوه (عباد) كاتبا ووزيرا لركن الدولة البويهي، وذكر ياقوت: إنه كان من الراسخين في علوم الدين، وانه ألف في أحكام القران كتابا نصر فيه الاعتزال، وجود فيه. (ينظر معجم الأدباء ٦/ ١٧٥)، وذكر الثعالبي نقلا عما سمعه عن الخوارزمي قوله: "إن مولانا الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها، ودب ودرج في وكرها ورضع افاويق درها، وورثها من أبيه كما قال أبو سعيد الرستمي: [من الكامل]

ورث الوزارة كابرا عن كابر ... موصولة الإسناد بالإسناد
يروي عن العباس عباد وزا ... رته، وإسماعيل عن عباد

ينظر: يتيمة الدهر ٣/٢٢٦ - ٢٢٧، وذكر (ابن تغري بردي): إن أباه توفي عام ٣٨٥ هـ وهو العام الذي توفي فيه الصاحب. النجوم الزاهرة ٤/١٧٢.

(٢) كان ابن عباد أول من لقب بالصاحب من الوزراء، ثم سمي بهذا الاسم بعد ذلك (عميد الجيوش) حوالي عام ٤٠٠ هـ، ينظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/١٩٧. ومن ثم سمي بهذا الاسم بعد ذلك الوزراء في العهود اللاحقة.

(٣) المشهور أن الصاحب من الطالقان، اما (السمرقندي العروضي) فقد ذكر في كتاب (جهار مقاله - الحكاية الرابعة من المقالة الأولى: ص٢٧) ذكر: إن الصاحب رازي! وفي تحديد الطالقان خلاف أيضاً: فصاحب معجم البلدان جعلها بلدة وكورة بين قزوين وابهر (مادة الطالقان)، اما الثعالبي فذكر أن الطالقان من قرى أصفهان، وينظر: المسالك والممالك - ابن خرداذبة: ٤٠، ١٥٠، معجم البلدان(مادة الطلقان).

(٤) ذكر القزويني في حاشيته على المقالة الأولى (الحكاية الأولى) من كتاب (جهار مقالة - للسمرقندي ص٩٨ - ٩٩) ذكر نقلا عن كتاب (محاسن أصفهان) للمفضل بن سعد المافروخي - ألف بين سنتي (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) أن الصاحب من مشاهير رجال أصفهان من (جي)، وذكر المافروخي أبياتاً للصاحب، حين فتحت جرجان، يتشوق فيها إلى بلدهِ، ويظهر من شعره انه من أصفهان من (جي)، يقول: [من البسيط]

يا أصفهان سقيت الغيث من كثب ... فانت مجمع اوطاري واوطاني

وقال أيضاً: [من البسيط]

وقد اتفق أكثر من ترجم للصاحب على أنه ولد عام ٣٢٦ هـ / ٩٣٨م[١]، وكان في بدء أمره معلما في قريته[٢]، ثم ترقت به الحال في دواوين أستاذه أبي الفضل ابن العميد الذي اختاره وزيرا لمؤيد الدولة البويهي أثناء امارته على اصبهان في عهد ركن الدولة[٣]، ثم وزر الصاحب بعد وفاة مؤيد الدولة لأخيه فخر الدولة البويهي، وظل في الوزارة حتى وفاته عام (٣٨٥ هـ / ٩٩٥م).

ولقد طبقت شهرة الصاحب باعتناقه لمذهب الاعتزال، فكان إلى جانب تشيعه[٤] يتعصب للمعتزلة، ويبعث الدعاة إلى الأقاليم لنشر هذا المذهب[٥]. وقد أكد

=

يا أيها الراكب المصغي إلى الحادي — حُيِّيتَ من رائح منا ومن غاد
إن جئت (جي) بلادي أو مررت بها — فنادها قبل حط الرحل والزاد
وقل لها جئت من جرجان مبتدراً — أوحى إليك بما قال ابن عباد

(١) ينظر: النجوم الزاهرة ١٧٢/٤، حاشية كتاب جهار مقالة: ٩٨ - ٩٩، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١٩٧/١.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١٩٧/١.

(٣) أشار السمرقندي في كتابه (جهار مقالة: ص٢٧) إلى أن الصاحب كان وزير شاهنشاه - يعني عضد الدولة البويهي - وذكر ياقوت (معجم الأدباء: ٢٥٠/٦) إن ذا الكفايتين أبا الفتح حاول إنزاله من الوزارة بعد وفاة ركن الدولة عام ٣٦٥ هـ، إلا انه انتصر عليه وعاد إلى الوزارة بعد أن نكب أبو الفتح ابن أستاذه ابن العميد.

(٤) أشار ياقوت (معجم الأدباء: ٢٦٠/٦) إلى أن الصاحب كان على شاكلة سادته من أمراء بني بويه متشيعا، وانه ألف في إمامه (علي بن أبي طالب) كتابا، ونقل ياقوت أيضاً عن التوحيدي - خصم الصاحب - أنه كان يقول بمقالة الزيدية: ١٧٥/٦، وقد ظهرت نزعة الصاحب إلى التشيع في عدد من رسائله وعهوده إلى بعض الأشراف والنقباء من الشيعة في هذا القرن: ينظر مثلا: الرسالة التاسعة من الباب التاسع عشر، وهي موجهة إلى بعض الأشراف، والرسالة الحادية عشرة من الباب العاشر، وهي خاصة بالتعزية لنقيب توفاه الله وقد اظهر فيها حرقة شديدة، والرسالة العاشرة من الباب التاسع عشر، وهي عهد إلى أحد النقباء، وغيرها.

(٥) تراجع إشارة المقدسي إلى متابعة العوام في إقليم الري للفقهاء في خلق القران، وإشارته إلى بعض دعاة الصاحب، أحسن التقاسيم: ٣٩٥/٢، وينظر أيضاً: ٢ / ٣٩٩ حيث أشار إلى بله أهل أصفهان وغلوهم في معاوية، وكرههم للصاحب لأنه أتاهم بمذهب لا يعرفونه. وينظر أيضاً معجم الأدباء: ٢٨٤/٦ حيث أشار ياقوت إلى أن الصاحب كان مثل أبيه يذهب مذهب الاعتزال. ويراجع أيضاً رسالة الصاحب في الباب السابع عشر وهما نصان يصرح فيهما بأنه كان يبعث الدعاة له إلى البلدان المختلفة يدعون الناس إلى الدخول في الاعتزال (رسائل الصاحب: ٢١٨

=

السمرقندي في الحكاية الرابعة من المقالة الأولى في كتابه الشهير، هذا الأمر، فذهب إلى القول: "وكان الصاحب عدلي المذهب ... "[١]، وقد أكد السمرقندي أيضاً على تشدده، على شاكلة أقرانه من أصحاب العدل والتوحيد، في التقوى والتنسك.

ولعل استدعاء الصاحب للقاضي عبد الجبار - شيخ المعتزلة في بغداد - وصلته الحميمة به، وتوليته في إمارته، وكتابته عهده له بيديه[٢]، أدق شاهد على ما ذهبنا إليه.

****

اما منزلته لدى أمراء عصره، ومكانته بين أدباء دهره، فقد كانتا عظيمتين؛ فالصاحب لم يكن في دولة آل بويه وزيرا فحسب، وإنما كان مُدبِّراً لشؤون دولتهم في أدق مراحل هذه الأمارة، وأزهى عصورها، ولعل هذا ما يفسر لنا عظم مكانته لدى الأمراء البويهيين وغيرهم، فقد ذكر ابن الأثير[٣] إن عضد الدولة البويهي - على هيبته وتجبره - خرج بنفسه لاستقباله حين زاره عام ٣٧٠ هـ في همذان، وذكر ياقوت: إن الصاحب كان إذا قال في مسألة قولا وقال فخر الدولة قولاً آخر، امتثل قول الصاحب[٤]، وقد روى ياقوت في معجم الأدباء[٥] أخباراً كثيرة تشير إلى مكانة الصاحب، وعظم منزلته، وجلاله وهيبته بين قواد بني بويه، ومن يوالونهم من الأمراء والولاة وغيرهم.

أما مكانة الصاحب الأدبية، ومنزلته بين أدباء عصره؛ فلعل خير ما يوضحها قول أبي منصور الثعالبي فيه: "... ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء، وحضرته محط رحالهم وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم ... وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام وبدائع الإفهام، وثمار الخواطر،

- ٢١٩، ٢١٩ - ٢٢٠) وفي الرسالتين أيضاً إشارات واضحة إلى بعض عقائد المعتزلة.

(١) كتاب (جهار مقالة): ٢٧.

(٢) يراجع: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٣٢٨/١، وينظر كتاب المنية والأمل: ٦٦ (طبعة حيدر اباد)، ويراجع العهد الذي كتبه الصاحب للقاضي عبد الجبار: رسائل الصاحب / الباب الثاني (العهد رقم ١): ٣٤ - ٣٩.

(٣) ينظر: الكامل في التاريخ: ٤/٩، النجوم الزاهرة: ١٣٨/٤، حيث أشار ابن تغري بردي إلى أنه قد استقبله في بغداد لا في همذان.

(٤) معجم الأدباء: ١٧٢/٦.

(٥) تراجع تلك الأخبار في معجم الأدباء: ٢٣٨/٦ - ٢٤٤.

ومجلسه مجمعا لصوب العقول، وذوب العلوم ودرر القرائح، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر، ويكاد يدخل في حد الأعجاز وسار كلامه مسير الشمس، ونظم ناحيتي الشرق والغرب، واحتفتْ به من نجوم الأرض، وافراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من يربى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رق المعاني ... "[١].

***

لقد كان للصاحب بن عباد اثر كبير في إيقاد جذوة الحياة الأدبية، وإثرائها وازدهار الحركة الثقافية في هذا القرن، وقد كان - كأستاذه أبي الفضل ابن العميد - يقترح الموضوعات على الأدباء والشعراء المحيطين به في مجلسه، ويطلب إليهم أن يقرضوا الشعر في أمور محببة محددة، وكان من نتائج تلك المفاكهات في مجالسه العامرة؛ تلك المجاميع الرائعة التي عرفت (بالديارات، والفيليات والبرذونيات وسواها)[٢]. وقد بلغ من حب الصاحب للعلم والأدب، وتشجيعه لأهلهما، أنه كان - كما ذكر القدماء - يرسل إلى بغداد خمسة آلاف دينار كل عام تفرق بين الفقهاء وأهل الأدب[٣]، وذكر ياقوت: إنه كان - وهو في منصب الوزارة - يخرج مُتطلِّساً متحنكا، على زي أهل العلم؛ لإملاء الحديث وكان المستملي الواحد ينضاف إليه ستة كل يبلغ صاحبه[٤].

وكانت حضرة الصاحب - إلى ذلك كله - مقصدا للأدباء، وملاذا لمن يريد أن يسمو في آفاق الأدب، وكانوا يقصدون حضرته كي يتزودوا بأوفر حظ من محاسن آثارها، ولعل هذا ما يفسر لنا حرص الأديب الذي كان يغادر حضرته على التزود بكتاب منه إلى الجهة التي يريد أن يقصدها؛ لتكون له شهادة على علو كعبه في الأدب والبلاغة وقرض الشعر[٥].

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن الصاحب كان نسيج وحده في صناعة الترسل وأنه

---

(١) يتيمة الدهر: ٢٢٥/٣ - ٢٢٦.

(٢) تراجع تلك المجاميع الشعرية في: يتيمة الدهر ٢٤٠/٣ - ٢٥٣، وهي: (الديارات) ويراجع ذكر (البرذونيات) ٢٥٣/٣ - ٢٦٩، وتراجع القصائد الفيليات: ٢٦٩/٣ - ٢٧٧.

(٣) المنتظم - ابن الجوزي: ١٨٠/٧.

(٤) معجم الأدباء: ٢٥٢/٦، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٣٣٥/١.

(٥) ينظر: يتيمة الدهر: ٤٤٩/٤ - ٤٥١ ومواضع أخر غيرها.

كان مدرسة أدبية رائدة، تخرج من دوحتها الوارفة لفيف من الأدباء والكتاب الذين أصبحوا في عصره، وبعدَ رحيله، قمما شامخة في الأدب والترسل وسمو البلاغة.. ولعل في طليعة أولئك الأدباء الكتاب الذين نهلوا من فيض أدب الصاحب، ورتعوا من معين بلاغته، وسحر أدبه، وكمال خلقه: أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبي(١)، وأبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن(٢)، وأبو سعيد الرستمي(٣)، وأبو العلاء الاسدي(٤)، وأبو الحسين الغويري(٥)، وأبو القاسم الزعفراني(٦)، وأبو الحسن علي بن محمد البديهي(٧)، وأبو محمد الحسن بن أحمد اليروجردي(٨)، وأبو الفرج بن هندو(٩)، وغيرهم كثير من مشاهير الأدباء والمترسلين في القرن الرابع.

****

- ٣ - الأمير قابوس بن وشمكير:

هو شمس المعالي قابوس بن أبي طاهر وشمكير بن زيار الجيلي(١٠) أحد أمراء الأسرة الزيارية(١١) التي بسطت نفوذها وحكمت طبرستان وجرجان وقد ذكر أبو الفداء

---

(١) تراجع ترجمته وفصول رسائله في يتيمة الدهر: ٣٣٩/٣ وما بعدها، وقد وصفه الثعالبي فقال: "هو جذوة من نار الصاحب، ونهر من بحره، وخليفته النائب منابهِ في حياته، القائم مقامه بعد وفاته".

(٢) تراجع ترجمته وأخباره ونماذج من ترسله في: اليتيمة: ٣٧٩/٣ وما بعدها، وقد أشار الثعالبي: "إنه من خواص الصاحب، ومشاهير صنائعهِ، وذوي السابقة في مداخلته وخدمته ... ويقتبس من نور آدابه".

(٣) ينظر: يتيمة الدهر: ٣٥٥/٣ - ٣٥٦، وذكر الثعالبي " أن الصاحب كان يقدمه على أكثر ندمائه وصنائعهِ، وينظمه في عقد المختصين به.".

(٤) ينظر يتيمة الدهر: ٣٩٤/٣، وذكر الثعالبي أنه كان: "نديم الصحبة للصاحب، شديد الاختصاص به، وكان يحبه، ويأنس به، ويكاتبه نثرا وشعرا.".

(٥) تراجع يتيمة الدهر: ٣٩٥/٣ وما بعدها.

(٦) ينظر كتاب اليتيمة: ٤٠٢/٣ - ٤١٣.

(٧) تراجع يتيمة الدهر ٣٩٩/٣ - ٤٠٢.

(٨) تراجع اليتيمة: ٤٥٥/٤، وفيه يقول الثعالبي: "قد خدم الصاحب في عنفوان شبابه، وتأدب بآدابه، واختص به، وراض طبعَهُ على اخذ نمطه".

(٩) تراجع يتيمة الدهر ٤٥٩/٣ وما بعدها.

(١٠) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١٢١/٢.

(١١) أشار الأستاذ ادوارد بروان إلى أن الزياريين ينحدرون من بيت عظيم من بيوتات الفرس، ويقال انهم ينتسبون إلى أحد الملوك الساسانيين وهو (قباذ). ينظر: تاريخ الأدب في إيران: ١٠٣/٢.

انه استولى على طبرستان وجرجان بعد وفاة اخيه (بهستون) عام ٣٦٦ هـ[١]، فلقبه الخليفة (الطائع لله) بلقب " شمس المعالي "[٢].

ومنذ بداية حكمه، نشبت وقائع وحروب بينه وبين جيوش بني بويه انتهت بهزيمته، ولجوئه إلى السامانيين في خراسان عام ٣٧١ هـ[٣]، وقد ظل لاجئا، بمنأى عن امارته حتى عام (٣٨٨ هـ)، إذ تمكن بعد وفاة الأمير فخر الدولة البويهي من استرداد ملكه، إلا أن جنده وقادة جيشه تمردوا عليه - لقسوته وشدة بطشه[٤] - وحاصروه، وانتهى الأمر بخلعه، وتولية ابنه (منوجهر)، بعد فرارِهِ إلى (بسطام) حيث قضى نحبه هناك[٥].

وقابوس أحد الأمراء الأدباء الذين كانت لهم مكانة رفيعة بين كتاب عصره[٦]، حتى سرى ذكره في المغرب الإسلامي، فعدَّهُ (ابن شهيد الأندلسي) ضريعا لبديع الزمان الهمذاني[٧]، وقد قرنه السمرقندي العروضي بالصاحب ابن عباد، وأبي إسحاق الصابي، وجعلهم مضرب المثل في البلاغة، وجعل اطلاع الأدباء والكتاب على ترسلهم من شأنه أن يبلغ الكاتب إلى مصاف الأدباء المبدعين. يقول السمرقندي[٨]:

" ولا يبلغ كلام الكاتب هذه الدرجة حتى ينال من كل علم نصيبا ... والاضطلاع من صحف الخلف، مثل: ترسل الصاحب والصابي وقابوس ... فكل واحد ممن عددت، نسيج وحده في صناعته، ورصد وقته، وكل كاتب يحصل هذه

---

(١) يراجع: تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر: ١/٤٦٠) (أحداث عام ٣٦٦ هـ) اما ياقوت الحموي (معجم الأدباء: ١٦/٢٢٠) فقد جعلها سنة (٣٦٧ هـ).

(٢) ينظر: معجم الأدباء: ١٦/٢٢٠، النثر الفني في القرن الرابع: ٢/٣٣٨.

(٣) معجم الأدباء: ١٦/٢٢٠.

(٤) ينظر التاريخ اليميني للعتبي: ٢/١٧٢.

(٥) ينظر النثر الفني في القرن الرابع: ٢/٣٣٨، اما في حواشي كتاب (جهار مقالة) للسمرقندي: ص ٩٩، ومعجم الأدباء: ١٦/٢٢١، فقد ورد انه قتل في إحدى القلاع بجرجان سنة(٤٠٣ هـ)، وذكر هذا أيضاً بروكلمان: (٢/١٢١) وأضاف أيضاً انه مُنِعَ من الدثار وهو في الحبس - وكان البرد شديدا فمات من ذلك.

(٦) قرنه الأستاذ مبارك - النثر الفني: (٢ / ٣٣٩) بالأمير الشاعر المعتمد بن عباد لما جلل أدبه من الطابع المحزن، فكلا الأميرين بكى ملكه ومجده وحظه.

(٧) النثر الفني في القرن الرابع: ٢/٣٣٨.

(٨) كتاب جهار مقالة: ص٢٣.

الكتب، ويديم مطالعتها، يشحذ خاطره، ويصقل ذهنه، وينير طبعه، ويسمو كلامه، ويستحق اسم الكاتب".

وهذه شهادة قديمة قيمة بحق هذا الأمير الأديب، وشهادة أخرى حدثية ترفع من مقام هذا الأمير الأديب إلى الذروة العليا في صناعة الترسل بين أدباء هذا القرن. يقول الأستاذ مبارك[١]:

" وأما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الإنشاء، هو نثر مصنوع صنعة دقيقة جدا، لا يدرك كنهها إلا الفحول ...".

ولا جرم أن قابوساً كان أديباً متميزا، وكان إلى جانب سعة ثقافته وإلمامه ببعض علوم عصره كالفلسفة وعلم الفلك والنجوم[٢]، قد اشتهر بالفصاحة والبلاغة وعلو البيان. ذكر الثعالبي، في ترجمته، منوها ببلاغة منثوره ومنظومه[٣]:

" فإني اتوج هذا الكتاب بلمع من ثمار بلاغته، التي هي أقل محاسنه ومآثره، واكتب فصولا من عالي نثره، مختومة ببعض ما ينسب إليه من شريف نظمه ...".

وقال العتبي أيضاً - مشيرا إلى رسائله مشيدا ببوارق بيانه وبلاغة ترسله[٤]: "إن رسائله موجودة في البلاد، عند الأفراد، لكني اكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه، وزهرة من حدائق إحسانه ...".

وممن عني بجمع غرر مكاتباته، وتحليل ما انطوت عليه من لمع البلاغة وافانين الصنعة، من القدماء: عبد الرحمن اليزدادي، إذ اختار شذرات من ترسله، سماها " كمال البلاغة " وقد وشحها بمقدمة نفيسة، أشاد فيها ببلاغته وأشار إلى دقة ابتكاره، فذهب اليزدادي إلى أن قابوساً قد ابتدع أربعة عشر نوعا من البديع، وأنها غير موجودة في كلام غيره، وقرر أنها مكملة لأنواع البديع التي استخرجها قدامة بن جعفر في " نقد الشعر" من كلام الفصحاء[٥].

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع: ٣٣٩/٢.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب في إيران: ١٠٣/٢، وقديما أشار الثعالبي أيضاً إلى سعة علمه فقال: "... ومن جمع الله له إلى عزة الملك بسطة العلم، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم. " (اليتيمة: ٤/ ٦٧).

(٣) يتيمة الدهر: ٦٧/٤.

(٤) التاريخ اليميني: ١٧/٢.

(٥) تولى اليزدادي تسمية هذه الأنواع البديعية في رسائل قابوس بما شاكلها من النعوت، كالمجنح، =

على أن (اليزدادي) كان مبالغا إلى حد الإفراط في تقريظ بلاغة قابوس مفتونا بفصاحة كلمه إلى حد الغلو حين وصف أسلوبه (بالإعجاز)، وانه مباين في الفصاحة والعذوبة والبراعة والإيجاز للكلام المعهود الجاري على السنة، وانه ليس من كلام البشر، ولا من المعرفة البشرية، والإدراك الطباعي، بل هو إفاضة القوة العلوية[١].

وما من شك في أن أكثر ما بأيدينا من رسائل هذا الأديب يعد ذخيرة أدبية وفنية نادرة، وإنها تمثل مرحلة جديدة من مراحل الصنعة الفنية في هذا القرن وقد أطلق بعض النقاد والباحثين المعاصرين عليها مرحلة "التصنع"[٢]، بينما راى باحث اخر أن رسائل قابوس تمتاز " بشدة الأسر واطراد الفن في جميع أجزائها، بحيث يمكن أن يقال: إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل. "[٣].

****

أما أثر هذا الأمير الأديب في الحياة الأدبية، وإسهامه الفاعل في ازدهار صنعة الترسل في هذا القرن، فيتجلى واضحا في حدبه على الأدباء والشعراء والمفكرين، واحتضانه لهم[٤]، وإغداقه عليهم، فقد ذكر ياقوت[٥]، إن قابوساً كان واسع المروءة،

والممثل، والمجانس، ومشابهة الصورة إلى اخر هذه الأنواع الأربعة عشر. وقد أنكر الأستاذ مبارك أن تكون هذه الأنواع البديعية التي ذكرها اليزدادي من ابتكار قابوس، ورأى أنها في جملتها إن هي إلا ترديد لضروب الصنعة التي عرف بها المتقدمون. (ينظر: النثر الفني في القرن الرابع ٢/٣٣٩)، وقديما أنكر ابن المعتز في مقدمة كتابه " البديع " على الشعراء المحدثين في عصره، أن يكونوا قد ابتكروا هذه الألوان والحلي البديعية التي راجت في أشعارهم، ورأى أنها كانت موجودة في أشعار القدماء، إلا أنها مبثوثة منثورة في ازاهير كلامهم.. (ينظر مقدمة كتاب البديع).

(١) يراجع: كمال البلاغة: ص٣٢.

(٢) تراجع التفاصيل في كتاب (الفن ومذاهبه في النثر العربي - للدكتور ضيف ص٢٥٦ وما بعدها).

(٣) النثر الفني في القرن الرابع: ٢/٣٤٢.

(٤) لعل ما جرى للحكيم (ابن سينا) في فراره من قبضة السلطان محمود الغزنوي، ولجوئه إلى جرجان، في كنف الأمير قابوس، ورعايته له وإكرامه وإغداقه عليه، خير شاهد لذلك. تراجع التفاصيل في تاريخ الأدب في إيران: ٢/١١٢ - ١١٣. وكذا يقال عن احتفائه بالمفكر العالم البيروني، ينظر: كنوز الأجداد: ٢٣٩، وتراجع حواشي كتاب (جهار مقالة - للسمرقندي): ١٤٦.

(٥) معجم الأدباء: ١٦/٢٢٩.

عالي النفس، لا يحب الملق ولا المداهنة، ولذا كان يأبى أن يستمع إلى مدائح الشعراء له، إلا أنه مع ذلك كان يعطف عليهم، ويبذل لهم الجوائز السنية والمكافآت.

وعلى الرغم مما أورده ياقوت عن عزوف قابوس عن مدائح الشعراء، إلا أنَّ حضرته كانت ملتقى كثير من الأدباء والشعراء والمفكرين، وكانت حاضرته تزدهي بألوان الثقافات الأدبية الرفيعة التي راجت في هذا القرن، ولعل أدق شاهد على ذلك؛ تلك الفصول البليغة والقصائد والمقطعات الكثيرة التي وردت في ثنايا اسبق تواريخ حاضرته (طبرستان)، وبخاصة ما ألفه (ابن اسفنديار) في منتصف القرن السابع للهجرة[١]، إذ أشار إلى مجموعة من الأشعار العربية والفارسية التي انشدها الشعراء في مجالسه الأدبية، فضلا عن الكتب والمصنفات العربية والفارسية التي الفت وأهديت إليه[٢].

ولعل أشهر الشعراء الفرس المسلمين الذين حفل هذا المصنف بالفاف مدائحهم للأمير قابوس؛ الشاعر أبو بكر محمد بن علي السرخسي الملقب بالخسروي والشاعر قمري الجرجاني وسواهما من الشعراء[٣].

وربما كان اجمل ما نختتم به تقييمنا لشخصية هذا الأمير الأدبية، ما ذهب إليه المؤرخ الشهير العتبي إذ قال[٤]: "لم يسمع في شيوخ الملوك بابرع منه في الآداب والحكم".

****

---

(١) تراجع التفاصيل في تاريخ الأدب في إيران: ١٠٨/٢ وما بعدها.

(٢) من تلك المصنفات الشهيرة مثلا: كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني، وهو في التاريخ والنجوم، وقد أهداه للأمير قابوس لاهتمامه بعلم الفلك والنجوم، ومن تلك المصنفات أيضاً: (كتاب المبهج)، و(التمثيل والمحاضرة) للثعالبي وغيرها.

(٣) تراجع التفاصيل في: تاريخ الأدب في إيران: ١٠٨/٢ وما بعدها، وتراجع مدائح الشعراء للأمير قابوس في: يتيمة الدهر (الباب التاسع / شعراء وكتاب جرجان وطبرستان) ج٤ (أبيات أبي الحسن الجرجاني البائية: ١٧/٤)، وأبيات أخرى له فيه (لامية ١٧/٤)، وتنظر أيضاً أبيات للقاضي أبي بشر الفضل بن محمد الجرجاني ٥٣/٤ (قصيدة لامية)، وقصيدة لأبي نصر عبد الله بن محمد البجلي الاستراباذي، رواها (الثعالبي عن العتبي: ٥٥/٤ وما بعدها) ويراجع أيضاً: التاريخ اليميني - للعتبي : ١١٥/١ وما بعدها، فضلا عما أورده (ابن اسفنديار) في تاريخه كما أشار براون ١٠٨/٢ وما بعدها.

(٤) التاريخ اليميني - للعتبي: ١٧/٢.

- ٤ - أبو الفضل الميكالي:

هو الأمير أبو الفضل عبيد الله[١] بن أحمد بن علي الميكالي، أحد أمراء الأدب والبيان في خراسان، من أسرة فارسية عريقة (هي أسرة آل ميكال) تنتسب إلى بهرام جور[٢]. وقد أشار الثعالبي في اليتيمة[٣] إلى قدم بيتهم وشرف أصلهم، وكرم أسلافهم وأطرافهم، وجمعهم بين تليد الأدب وطريفه وأشار إلى من انخرط في سلكهم من أدباء العصر، واعيان الفضل، وأفراد الدهر.

وكان أبو الفضل الميكالي أديباً شاعراً، محبا للشعراء والأدباء، وقد لعب في ذلك دورا خطيرا في خراسان[٤]، فكان - كالصاحب بن عباد - زعيم مدرسة في خراسان، له أثره الكبير في الحياة الثقافية والأدبية، وقد تأثر به وتخرج عليه لفيف من الأدباء وكتاب الديوان الذين لازموه، وعكفوا على خدمته[٥].

لقد أفاض مصنفو التراجم والأدباء كثيرا في تقريظ أبي الفضل الميكالي، والثناء على منثوره ومنظومه، والإشادة بطريقته وبلاغته، فالثعالبي وصفه بأنه واسطة العقد في آل ميكال، وانه يتفرد عنهم بمزية الأدب الذي هو ابن بجدته، وأبو عذرته، واخو جملته. ثم يقول:

"وما على ظهرها اليوم أحسن منه كتابة، وأتم بلاغة، وكأنما أوحي بالتوفيق والتسديد إلى قلبه، وحبست الفقر والغرر بين طبعه وفكره، فهو من ابن العميد عوض،

---

(١) ذكر بروكلمان، في تاريخ الأدب العربي: ١٩٨/٥ - ١٩٩، إن اسمه (عبد الرحيم) وذكر أيضاً(عبيد الله)، وينظر أيضاً في ترجمته: فوات الوفيات ٢٥/٢.

(٢) هو أحد أشهر الملوك الفرس الساسانيين (٤٢١ - ٤٣٨م) وهو ابن يزدجرد وقد شهر ببراعته في الصيد والشعر والموسيقى، وتذكر بعض الأساطير الفارسية انه أول من نظم الشعر الفارسي. يراجع كتاب (في أدب الفرس وحضارتهم - د. محمد عبد السلام كفافي ص١٧٧)، وينظر: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١٩٨/٥.

(٣) يتيمة الدهر: ٤٠٧/٤ - ٤٠٨.

(٤) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١٩٨/٥.

(٥) لعل أشهر من تخرج عليه: عمر بن علي المطوعي الذي اتصل بخدمته " فتخرج بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره". اليتيمة: ٥٠٠/٤، وممن اختص بالميكالي وتأثر به أيضاً: أبو منصور يحيى بن يحيى الكاتب (ينظر تتمة اليتيمة ١٩٤/٥)، ومن كتابه المتخلقين بخلقه، والجاري في طرقه، والمستملي صحف فضله: (أبو سلمة وهو ابن أبي منصور الكاتب) ينظر تتمة اليتيمة ٥/ ١٩٧، وغيرهم.

ومن الصاحب خلف، ومن الصابي بدل ..."[١].

أما الباخرزي، فيصف أدبه - منثوره ومنظومه - فيقول[٢]: "وأما أدبه فقد كان - على ذبول عوده - غضا، يكاد يغض من أزهار الربيع غضا، وأما شعره فقد أعلن أهل الصناعة شعار الانتماء إليه، ورفرفت الشعراء بأجنحة الاستفادة عليه، واما رسائله، فرسل يدر، وسلك لا يخونه الدر...".

ويصف عمر بن علي المطوعي بلاغة أبي الفضل الميكالي وبيانه في فصل له فيقول[٣]: "... إن أردت البلاغة فهو مالك عنانها، وفارس ميدانها، وناظم درها ومرجانها، وصائغ لجينها وعقيانها ...".

ولعل أجل وأجمل ما نختتم به وقوفنا عند منثور هذا الأمير الأديب، وسحر بلاغته؛ ما قاله فيه أبو منصور الثعالبي[٤]: [من المنسرح]

سبحان ربي تبارك الله ما … أشبه بعض الكلام بالعسل
والمسك والسحر والرقى … وابنة الكرم وحلي الحسان والحلل
مثل كلام الأمير سيدنا … نظما ونثرا، يسير كالمثل

ويصف المطوعي في فصل له من رسالة أدبية حضرة أبي الفضل الميكالي وتشجيعه للأدباء، وإغداقه عليهم، فيقول[٥]:

" قد أصبحت حضرته - لازالت أرجة الأرجاء بطيب شمائله، راضية الرضا عن صوب أنامله - موسم الآمال، ومحط الرحال، وعبده أحرار الكلام كما خدمته أحرار الأيام، وأطاعته المعاني والمعالي، كما أطاعه صرف الأيام والليالي، فهو - ادام الله تمكينه - شهاب المجد الذي لا يخبو واقده، وروض الكرم الذي لا يجدب رائده...".

****

وهناك طبقة من كتاب المشرق الإسلامي، كانوا من الولاة والرؤساء التابعين

---

(١) يتيمة الدهر: ٤/٤٠٨.
(٢) دمية القصر وعصرة أهل العصر: ٢/٨٩.
(٣) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣/٧٤٩.
(٤) من غاب عنه المطرب: ١٥.
(٥) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣/٧٤٩ - ٧٥٠.

لأمراء وحكام الممالك المستقلة، وقد بلغوا الغاية في علو الشأن، ورفعة الفضل. وقد مارس هؤلاء الولاة الأدباء صناعة الترسل، وبرعوا فيها، وأجادوا كل الإجادة، وقد كان لذلك أثره الكبير في ازدهار الأدب والمكاتبات الأدبية؛ لما عرفوا به من كمال الأدب والبلاغة، ورفعة الشأن والعفة والزهد.

وقد عقد أبو منصور الثعالبي فصولا مطولة لكتاب المشرق الإسلامي، وقف عند أحدها لدراسة غرر هؤلاء الأدباء من الولاة، وبيان ما انطوت عليه فصول رسائلهم، ودرر منظومهم من آيات البلاغة، وفنون القول[(١)].

ثانيا: طبقة كتاب دواوين الرسائل:

لقد كان مشاهير الكتاب الذين تسنموا منصب رئاسة ديوان الإنشاء الرسمي في حاضرة الخلافة، أو في حواضر الممالك المستقلة في المشرق الإسلامي إبّانَ هذا القرن، كانوا غالبا ما يتعاطون الرسائل الأدبية، فضلا عن أن كلا هذين الضربين من الرسائل - الديوانية والأدبية - يشتركان في الصياغة الأسلوبية وغلبة طابع السجع والبديع، ويختلفان من حيث الأغراض أو الموضوعات.

وانطلاقا من هذه الحقيقة، فإن بروز طبقة من جهابذة الكتاب الذين تبوأوا مكانة

---

(١) من هؤلاء الولاة الرؤساء الأدباء: الشيخ العميد أبو سهل محمد بن الحسن الحمدوني. وقد وصفه الثعالبي بأنه: "بحر الأدب، وطود الكرم ... " (تتمة اليتيمة: ٢٤٩/٥ - ٢٥٠) ومنهم: الشيخ العميد أبو منصور ابن مشكان، وقد وصفه الثعالبي بأنه كان آية في البلاغة العالية، وأنها كانت عفو خطراته، وأشار أيضاً إلى أنه كان مضرب المثل في سلاسة كلامه، وعذوبة ألفاظه، من ذلك قول بعض أهل العصر يصف ماء: [من السريع]

يا حسن ماء قد كسته الصبا تشنيج ذيل القرطق الأزرق
كأنه لفظ ابن مشكان في توقيعه عند ملك المشرق

وقال بعضهم في وصف آثار الربيع: [من البسيط]

وقد حسبت نسيم الروض يقرئني كتب ابن مشكان عن صدر السلاطين

(ينظر: تتمة اليتيمة: ٢٥٠/٥).

ومنهم: الشيخ العميد أبو بكر علي بن الحسن القهستاني، وقد بالغ الثعالبي في نعت نثره فقال: "وكانما يوحى إليه في النثر والنظم، ويغرف آدابه من البحر ... " تتمة اليتيمة ٢٦٤/٥.

ومنهم: الشيخ أبو المحاسن سعد بن محمد بن منصور (رئيس جرجان)، وقد وصفه الثعالبي بأنه "اجمع أهل العصر بين العلوم والآداب، وانه اجمع الرؤساء للمحاسن، وانه عالم في ثوب عالم، وبحر في شخص حبر". تتمة اليتيمة: ١٦٥/٥

سامية في ديوان الإنشاء، قد أسهم إسهاماً كبيرا وفاعلا في نضج الحركة الأدبية والثقافية، وازدهار صناعة الكتابة في هذا القرن.

ولعل أبرز أعلام هذه الطبقة من كتاب ديوان الرسائل في بغداد، حاضرة الخلافة الإسلامية، أو حواضر الممالك الإسلامية في المشرق أبان هذا القرن هم:

- ١ - أبو إسحاق الصابي:

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابي(١). اتفق جل من ترجم له من مصنفي كتب التراجم، ومؤرخي الأدب، على أنه كان على دين الصابئة، وكان متشددا في ذلك(٢)، وإن أصل سلفه من حران(٣).

وكان بليغا في صناعتي النظم والنثر(٤)، وقد وصفه الثعالبي(٥)، بأنه أوحد العراق في البلاغة، ومن به تشنى الخناصر في الكتابة.

وعده الأستاذ متز(٦) أكبر المنشئين في النصف الثاني من القرن الرابع، وذكر جميع مصنفي كتب التراجم انه تقلد جلائل الأعمال وفي مقدمتها تسنمه رئاسة ديوان الرسائل عام ٣٤٩ هـ / ٩٦٠م، وقد حلب الدهر أشطره، وذاق حلوه ومره(٧)، وظل يتقلد رئاسة الديوان في بغداد، عاكفا على خدمة أمراء بني بويه حتى وفاته بالشونيزية

---

(١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٥٤، اما صاحب اليتيمة فقد ذكر أن اسم جده (هرون الصابي الحراني) يتيمة الدهر: ٢٨٧/٢.

(٢) تراجع تفاصيل خبره مع (عز الدولة بختيار) الذي دعاه إلى الإسلام؛ ليجعله وزيرا له فأبى (معجم الأدباء ٣٢٤/١، تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١١٩/٢، ويراجع ما ساقه الثعالبي في اليتيمة ٢٨٨/٢ - ٢٨٩ من أنه كان من نساك أهل دينه، ويراجع ما ذكره عن حضوره مائدة الوزير المهلبي.

(٣) ينظر: يتيمة الدهر: ٢٨٧/٢، معجم الأدباء: ٣٢٤/١، أخبار العلماء للقفطي: ص٥٤.

(٤) أخبار العلماء للقفطي: ٥٤.

(٥) يتيمة الدهر: ٢٨٧/٢.

(٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٤٤٨/١.

(٧) يتيمة الدهر: ٢٨٧/٢، وتراجع تفاصيل سجنه عقب وفاة الوزير المهلبي عام (٣٥٢هـ)، وتفاصيل خبر اعتقاله عقب دخول عضد الدولة بغداد، وقتله لبختيار البويهي عام (٣٦٧ هـ)(يتيمة الدهر: ٢٩٠/٢ - ٢٩١)، ويراجع: زهر الآداب وثمر الألباب: ٤٤٤/٢ وأخبار العلماء للقفطي: ٥٤ - ٥٥.

في الثاني عشر من شوال عام ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م[١].

****

ولعل أجل ما يمكن أن نسجله للصابي في رسائله الديوانية والأدبية - بخاصة - أمران مهمان هما: (الأول): إن أبا إسحاق الصابي في مكاتباته وعهوده الرسمية - وقد شاع ذلك أيضاً في جل رسائله الأدبية - وعلى الرغم من أنها تناولت أموراً عملية ورسمية، بعيدة عن متناول الأدب والعاطفة، إلا أنه كان يوشحها بأفانين البلاغة، ويوشيها بعبارات مرصوفة متوازنة أو مسجوعة وموشاة بضروب المجازات وألوان البديع، مع وضوح المعاني، وصفاء التعبير.

(الثاني): إن أبا إسحاق الصابي عمّق الطريقة التي بدأها أبو الفضل ابن العميد في استخدام العبارة القصيرة المسجوعة في المكاتبات الرسمية، وبدأ على عهده، وبعد رحيله، يشيع استعمال الأساليب المحلاة بالسجع وألوان البديع الأخرى، في المكاتبات الأدبية والإخوانية، بعد شيوعها في الرسائل السلطانية الرسمية.

وكان الصابي كثيرا ما يقرن، في بلاغته وعلو كعبه في الترسل، بالوزير الصاحب، وقد أشار الثعالبي في اليتيمة[٢] إلى أنه كثيرا ما خاض الخائضون، واخب المخبون في الترجيح بين هذين الصدرين في الكتابة. ثم يقول الثعالبي[٣]: "ومن اشفى ما سمعته في ذلك؛ أن الصاحب كان يكتب كما يريد، وأبو إسحاق كان يكتب كما يؤمر، وبين الحالين بون بعيد، وكيف جرى الأمر فهماهما، وقد وقف فلك البلاغة بعدها".

وهكذا كان أبو إسحاق الصابي أحد أعمدة الأدب والترسل الذين أسهموا في رفد الحياة الأدبية والثقافية، وازدهار الرسائل الديوانية والأدبية في القرن الرابع.

- ٢ - عبد العزيز بن يوسف الشيرازي:

ومن الكتاب الذين تسنموا رئاسة ديوان الرسائل، وكانوا يجرون مجرى الوزراء، وأسهموا في رفد الحياة الأدبية، وازدهار صناعة الترسل، وبخاصة المكاتبات الأدبية: أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الشيرازي[٤].

---

(١) ينظر: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١١٩/٢، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٤٤٨/١.

(٢) ينظر: يتيمة الدهر: ٢٩٢/٢.

(٣) يتيمة الدهر: ٢٩٢/٢ - ٢٩٣.

(٤) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١١٨/٢، وينظر: معجم الأدباء: ٣٣٨/١.

وهو أحد المقدمين في تسيير شؤون الأمارة البويهية في شيراز، يقول الثعالبي: "وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه، معدودا في وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده"(١).

وكان أبو القاسم، كما وصفه صاحب اليتيمة: "احد صدور المشرق، وفرسان المنطق، ومن الأعيان الممدحين المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة "(٢).

وقد أشار الأستاذ مبارك(٣) إلى أنه كان من أعلام الكتاب في زمانه، وقد نقل ياقوت الحموي عن صاحب اليتيمة، بإسناد عن بعض ثقات عصره، ومن المقربين للوزير الصاحب بن عباد، أنه كان يقول(٤): "كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابي، ولو شئت لذكرت الرابع، يعني نفسه".

لقد جمع هذا الكاتب - كنظيره أبي إسحاق الصابي - الإحسان والإبداع في رسائله السلطانية، ومكاتباته الأدبية والإخوانية، وتتجلى أهمية رسائله في إنها كانت موجهة إلى مختلف العظماء والوجهاء في هذا القرن، ومن هنا فقد حظيت رسائله بقيمة كبيرة - ولا سيما رسائله الديوانية - إذ إنها كانت بمثابة وثائق تاريخية مهمة وطريفة، لإحدى إمارات المشرق الإسلامي النائية في السنوات ٣٣٥ هـ وحتى عام ٣٨٠ هـ، فضلا عما كان يعرب عنه ترسله من أدب فضفاض، وخاطر بالإجادة والإحسان فياض(٥).

وعلى الرغم من ضياع الكثير من أخبار هذا الأديب الكاتب، وضياع كثير من نتاجه الأدبي، فقد احتفظ أبو منصور الثعالبي في كتابه اليتيمة، بقدر مهم من رسائله السلطانية والأدبية(٦)، يمكن أن يستشف الباحث منها اقباساً مهمة من سيرة هذا الأديب

---

(١) يتيمة الدهر: ٣٦٩/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٦٩/٢.

(٣) النثر الفني في القرن الرابع: ٤٣٥/٢.

(٤) معجم الأدباء: ٣٣٨/١، ويراجع النص في اليتيمة: ٢٩٢/٢.

(٥) يتيمة الدهر: ٣٦٩/٢.

(٦) تراجع رسائل أبي القاسم الشيرازي في: يتيمة الدهر، حيث أورد الثعالبي مجموعة من رسائله وعهوده السياسية افردها عن سواها (اليتيمة: ٣٦٥/٢ - ٣٧٣. ثم أورد الثعالبي طائفة من رسائله =

الكاتب، ويتتبع علاقاته الشخصية ويجسد كثيرا من صفاته وكرم أخلاقه.

ولعل صلات الود والوئام التي كانت تربطه مع كثير من أقرانه ولداته وفي مقدمتهم الوزير الصاحب بن عباد، وأبو إسحاق الصابي، وسواهما من الأدباء، هي التي أوقدت فيه جذوة الإبداع في رسائله الأدبية والإخوانية، على الرغم مما سجله ورصده بعض الباحثين فيها من سمات الملق والتصنع(١).

ومهما يكن من امر، فإن رسائل أبي القاسم الشيرازي قد جمعت كثيرا من السمات الفنية التي تميزت بها المكاتبات الأدبية الرائعة في القرن الرابع الهجري.

ومن هنا، يمكن أن نعد تلك الرسائل نماذج أدبية وفنية مهمة، أسهمت كثيرا في إجلاء الصورة الحقيقية لطبيعة النثر الفني في هذا القرن، فضلا عن قيمتها التاريخية والوثائقية الخطيرة التي المحنا إليها.

- ٣ - أبو القاسم الإسكافي:

هو أبو القاسم علي بن محمد الإسكافي النيسابوري(٢)، أحد أشهر كتاب الإنشاء على عهد الأمارة السامانية في خراسان. ذكر الثعالبي: إنه تأدب في ريعان عمره بنيسابور، ثم حرر في بعض دواوينها(٣)، " فخرج منقطع القرين، وواسطة عقد الفضل، ونادرة الزمان وبكر الفلك ... "(٤).

وعده الثعالبي أيضاً - على عادته في إطراء تراجمه " لسان خراسان وغرتها ...

=

الإخوانية، ص٣٧٤ - ٣٧٩.

(١) تراجع التفاصيل في: النثر الفني في القرن الرابع: ٤٣٧/٢.

(٢) ينظر خلاصة حواشي العلامة القزويني على كتاب (جهار مقالة) للسمرقندي: ص١٠٣ - ١٠٤.

(٣) اختلف بعض من ترجم للشيرازي من مؤرخي الأدب ومصنفي التراجم في بدء عمله بالدواوين: فالنظامي السمرقندي جعل صلته أولاً (بالبتكين)، ثم انتقل بعد أسره إلى خدمة الأمير نوح بن منصور الساماني (جهار مقالة: ص٢٣ - ٢٤)، بينما جعل القزويني في خلاصة حواشيه على كتاب جهار مقالة: ص١٠٢ - ١٠٣، بداية عمله في الدواوين مع الأمير (أبي علي بن محتاج الجفاني)، ثم اختص بالأمير الحميد نوح بن نصر الساماني. اما الثعالبي فذهب إلى أن بداية الإسكافي كانت مع أبي علي الصاغاني وبعد هزيمته في واقعة (جرجيل) واسر الإسكافي - في خبر طويل - اختص بخدمة الأمير الحميد نوح بن نصر (يتيمة الدهر: ١٠٩/٤)، والراجح عندي من هذه الأقوال هو ما ذهب إليه الثعالبي.

(٤) يتيمة الدهر: ١٠٨/٤.

وأوحدها في الكتابة والبلاغة، ومن لم يخرج مثله في البراعة والصناعة "[١].

وقد كانت رسائله محط الإعجاب، وموضع المنافسة فيه بين الأمراء السامانيين حتى صار الإسكافي مضرب المثل في البلاغة، والقدرة على موازنة الكلام وإيجازه، ولـمّ أطرافه[٢]، وقد ذكره أبو حيان التوحيدي في كتابه الشهير (مثالب الوزيرين) في معرض تهكمه على الوزير الصاحب وهجائه فقال: "وقد استدرك مولانا على الخليل في العروض، وعلى أبي عمرو بن العلاء في اللغة وعلى أبي يوسف في القضاء، وعلى الإسكافي في الموازنة..."[٣].

لقد توثقت صلة الإسكافي بالأمير نوح بن نصر الساماني[٤]، فأقعده في ديوان الإنشاء - بعد أن أطلقه من أسره وخلع عليه - مع أبي عبد الله (كلة) والد أبي الفضل ابن العميد - ثم تولى الإسكافي، بعد وفاة أبي عبد الله، رئاسة الديوان، فعلا أمره، وذاع صيته، وظل الإسكافي حتى بعد وفاة الأمير نوح بن نصر، وتولي ابنه الأمير (الرشيد) عبد الملك بن نوح، ظل يتدرج إلى اسنى المراتب، وارتفع مقامه عنده، ولكنه لم يلبث طويلا حتى مرض ومات في مستهل إمارة الأمير الرشيد عبد الملك بن نوح الساماني الذي ولي في حدود عام ٣٤٣ هـ / ٩٥٢ م[٥].

لقد بلغ الإسكافي أعلى مراتب الشهرة في صناعة الترسل - ولا سيما في المكاتبات السلطانية - حتى قيل عنه: "إذا استعمل أبو القاسم نون الكبرياء تكلم من في السماء"[٦].

ولاضطلاع أبي القاسم الإسكافي بالسلطانيات، وسبقه لأقرانه في هذا الضرب

---

(١) المصدر نفسه: ١٠٨/٤.

(٢) يراجع كتاب (جهار مقالة)، المقالة الأولى - الحكاية الأولى والحكاية الثانية، ومقدرة الإسكافي الفائقة على الايجاز، وبراعته في التوقيعات: ٢٣ - ٢٦.

(٣) ينظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٢٠٠/١.

(٤) لقد وهم السمرقندي إذ جعل الإسكافي يكتب في ديوان السامانيين على عهد الأمير نوح ابن منصور، والصواب هو الأمير نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني - الأمير الرابع - إذ أن الإسكافي لم يدرك عهد الأمير نوح بن منصور الملقّب (بالسديد) تراجع التفاصيل في جهار مقالة: ص٢٣ - ٢٤ وتراجع أيضاً خلاصة حواشي العلامة القزويني: ١٠٣ - ١٠٤.

(٥) تراجع خلاصة حواشي القزويني على كتاب جهار مقالة: ص١٠٤، وينظر اليتيمة ١١٢/٤ - ١١٣ ويراجع في أصل السامانيين وذكر أسماء أمرائهم ووزرائهم: أحسن التقاسيم ٣٣٧/١ - ٣٣٨.

(٦) يتيمة الدهر: ١١٠/٤.

من المكاتبات، فقد أثار عجب الثعالبي إذ قال: "ومن عجيب أمره أنه كان اكتب الناس في السلطانيات، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعي، قصير الباع... "[١].

وهكذا كان أبو القاسم الإسكافي واحدا من جهابذة الكتاب العظام الذين أسهموا في رفد الحركة الثقافية، وازدهار صناعة الترسل في المشرق الإسلامي إبان هذا القرن، وكان جديرا بما أثبته الثعالبي بحقه إذ قال: "إنه ازداد على الأنام تبحرا في الصناعة، وقدرة على الإنشاء التي يؤنس مسمعها، ويؤيس مصنعها. "[٢].

وهكذا أيضاً جمعت رسائل الإسكافي - التي كانت منذ منتصف هذا القرن كثيرة مدونة، سائرة في الأفاق - أقسام الحسن والجودة، وضمّت مزية الموازنة والإيجاز.

ثالثا: طبقة الأدباء الكتاب الجوالين المتكسبين:

شهدت حاضرة الخلافة الإسلامية، فضلا عن حواضر الممالك المستقلة في المشرق الإسلامي إبّانَ هذا القرن؛ كثرة الأدباء والعلماء الظاعنين أو الوافدين على تلك الحواضر الإسلامية النائية وغيرها.

وقد سبقت الإشارة إلى أن الذي شجع أولئك الأدباء وغيرهم على هذا الترحال تنافس الأمراء والحكام في اجتذابهم إلى حواضرهم؛ ليزدان بهم بلاطهم ولاتخاذهم وسيلة إعلامية لنشر أمجادهم، وبناء قواعد ممالكهم الفتية الناشئة.

لقد كانت حاضرة كل إمارة مستقلة في هذا القرن، تطفح بالعشرات من الأدباء والعلماء الوافدين الذين ضربوا في آفاق الأرض؛ طلبا للشهرة أو لنيل الحظوة عند أولئك الأمراء، حتى صار تطواف الأدباء وترحالهم سمة هذا العصر، ولعل هذا ما يفسر لنا إدراج الثعالبي لملح المقلين من الأدباء والكتاب الطارئين أو الوافدين من الآفاق النائية على كل حاضرة إسلامية، أو إمارة نائية ترجم لأدبائها وكتابها.

وينضوي تحت هذه الطبقة أكثر الأدباء المترسلين في هذا القرن، وهؤلاء المترسلون الجوالون كالمتكسبين بشعرهم من الشعراء؛ طمعا في نيل الجوائز أو نيل الحظوة لدى الأمراء ورؤساء الممالك المستقلة، ووزرائهم الذين توزعوا في بقاع كثيرة من أرجاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف.

---

(١) المصدر نفسه: ٤/١١٠.

(٢) المصدر نفسه: ١١٠.

يقول المطوعي مشيرا إلى هذه الطبقة من الأدباء الكتاب المتكسبين[١]: "فمنهم من اكتسى كلامه شرف الاكتساب، دون شرف الانتساب، كالمتكسبين من الشعراء بالمدائح، المترشحين بها لاخذ الجوائز والمنائح، وهم الأكثرون من اهل هذه الصناعة.".

وسوف نقف عند دراسة نماذج من مشاهير هذه الطبقة من الأدباء الكتاب الذين برعوا في مكاتباتهم الأدبية والإخوانية في هذا القرن، وسوف نشير إلى ما غلب على ألفاف رسائلهم، ونتاجهم الفني من كدر المبالغة، والإسراف في الصنعة، والغلو في التزلف بمعاني المديح التي الصقوها بممدوحيهم،وأسبغوها عليهم.

ولعل أهم من يجدر أن نقف عند دراسته من مترسلي هذه الطبقة ثلاثة هم كما يأتي:

-١- أبو بكر الخوارزمي:

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، يعدُّ واحدا من جهابذة الكتاب ومشاهير الأدباء والمترسلين الذين برعوا في تدبيج الرسائل الأدبية والإخوانية وتخصصوا في تحبيرها إبان هذا القرن. وقد عده الأستاذ متز[٢] أشهر كتاب هذا اللون من الرسائل، وانه ظل زمانا طويلا أكبر كتاب العرب.

وهو فارسي النسب والمحتد، أصله من طبرستان، ومولده ومنشؤه خوارزم[٣]، ولذا كان يلقب (بالطبرخزي)[٤]، وقد اتفقت أكثر المصادر على أن ولادته كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة[٥]. اما وفاته فكانت موضع خلاف، إلا أن أكثر مصنفي كتب التراجم ومظان الأدب يذهبون إلى أنه في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة للهجرة[٦].

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ١٧٥/١.
(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٤٥٠/١.
(٣) يتيمة الدهر ٢٣٤/٤.
(٤) الطبرخزي: لفظ نحت من (طبرستان وخوارزم)، كما ذكر القدماء، ولقب بذلك لأن أباه من خوارزم، وامه - وهي اخت المؤرخ المفسر الطبري - من طبرستان. ينظر: الأنساب للسمعاني ص٣٦٦، شذرات الذهب - لابن العماد ١٠٥/٣.
(٥) ينظر: يتيمة الدهر ٢٣٩/٤، تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ١١٠/٢.
(٦) ينظر: يتيمة الدهر ٢٣٩/٤، معجم الأدباء ١٠٤/١، ويراجع ما رجحه الباحث محمود الضمور في رسالته عن وفاة الخوارزمي ص٨٢، اما ما ذهب إليه (ابن الأثير) في كتاب اللباب ٢٧٣/٢، وما =

وقد اجمع مؤرخو الأدب القدامى والمحدثون على بلاغته، وعلو كعبه في الفصاحة، ونبوغه الأدبي، فأبو منصور الثعالبي - وهو أحد من تتلمذ عليه - يرى انه: "كان يجمع بين الفصاحة العجيبة، والبلاغة المفيدة ... "(١).

اما الأستاذ مبارك فقد ذهب إلى أنه: "شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي، وشغلت الناس عدة أجيال "(٢)، ورأى أيضاً أَنَّ إسلوبه وتفكيره يمتاز بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه، وذهب أيضاً إلى: "أن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال والنبوغ الأدبي"(٣).

وسجل الباحث الأستاذ محمد كرد علي - على الرغم من تحفظه على منازع الخوارزمي الخاصة التي انبثت في كثير من رسائله - للخوارزمي أيضاً هذا الدور الريادي المتميز في النثر الفني، إذ قال(٤): "... ومع انه جرى طلقا مع عاطفته، فقد كانت رسائله مما يتعلم منه، وقليل في حملة الاقلام من جودوا تجويده.".

اما رحلاته وتكسبه؛ فلعل الخوارزمي أشهر من عرف من بين أدباء هذا القرن بكثرة تطوافه في أرجاء الأقاليم والممالك الإسلامية، ولعل تلميذه الثعالبي اقدم من فصل في هذا الجانب من مصنفي كتب التراجم القدماء(٥).

وربما يكون ما وقف عنده الأستاذ متز في هذا الجانب أدق ما يستوقفنا من

نقله عنه (ابن خلكان) في ترجمته للخوارزمي (رقم ٦٣٦) ٣٥٦/٢، من أن وفاته كانت سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة للهجرة، فربما كان ذلك سهوا، أو هو من تصحيف النساخ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن بروكلمان في تاريخه (١١١/٢) ذكر أن سنة وفاة الخوارزمي كانت سنة ٣٨٢ هـ.

(١) يتيمة الدهر: ٢٢٣/٤.

(٢) النثر الفني في القرن الرابع: ٣١٦/٢.

(٣) المرجع نفسه: ٣١٦/٢.

(٤) كنوز الأجداد:: ١٩٣ - ١٩٤.

(٥) تراجع التفاصيل الدقيقة في يتيمة الدهر ٢٣٤/٤ - ٢٣٨، وينظر أيضاً: ٣٥/١ - ٣٦، حيث أشار الثعالبي في القسم الأول من اليتيمة يقول: "وكان أبو بكر الخوارزمي في ريعان عمره، وعنفوان أمره، قد دوخ بلاد الشام ... " ثم قال: "وانقلب عنها وهو أحد أفراد الدهر ... " اليتيمة ٣٥/١، وذكر في موضع اخر يقول: "فارق وطنه في ريعان عمره وحداثة سنه ... ولم يزل يتقلب في البلاد " ثم طفق الثعالبي يفصل الأقاليم التي طوف فيها. ينظر: اليتيمة: ٢٣٤/٤ وما بعدها.

دراسات الباحثين من المستشرقين وغيرهم، فقد أشار أولاً إلى تكسب (الكتاب) في هذا القرن بهذه الصناعة، ومنهم الخوارزمي، إذ قال(١): "وقد عظم شأن هذا الفن، فن كتابة الرسائل الجيدة، في أواخر القرن الرابع، حتى كان الناس يستطيعون أن يعيشوا من هذه الصناعة، كما عاش الشعراء قديما من التكسب بالشعر".

ثم أشار الأستاذ متز، بإيجاز دقيق، إلى تقلبه في البلاد الإسلامية، واتصاله بالأمراء والوزراء، فقال(٢): "وقد تقلب في البلاد، وشرق وغرب، واتصل بجميع الأمراء تقريبا في شرق المملكة الإسلامية، فورد بخارى ونيسابور، وهراة، وأصفهان، وشيراز، وغيرها".

ومما لا شك فيه أن كثرة اسفار الخوارزمي، وتقلبه في مجالس الأمراء الوزراء - على الرغم من إراقة ماء الوجه في أحيان كثيرة، فضلا عن معاناته المريرة من تطوافه - قد أفاده كثيرا في بناء شخصيته العلمية، وصقل مواهبه الأدبية، فكان - كما ذكر تلميذه الثعالبي - " يأخذ من العلماء، ويقتبس من الشعراء، ويستفيد من الفضلاء، حتى تخرج وخرج فرد الدهر في الأدب والشعر. "(٣).

ويعترف أبو بكر الخوارزمي نفسه - كما نقل على لسانه الثعالبي - بأثر البيئة الشامية، وصحبته للأدباء والفضلاء فيها، إذ يقول(٤): "ما فتق قلبي وشحذ فهمي، وصقل ذهني، وأرهف حد لساني، وبلغ هذا المبلغ بي، إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي ...".

وهكذا طبقت شهرته الآفاق، فراح يجذب إليه صيته كثيرا من التلاميذ، وبخاصة من الفقهاء وغيرهم(٥)، ولعل صلته الحميمة بتلاميذه، وتخرجهم عليه، وتأثرهم بطريقته، واقتفاءهم أسلوبه في الترسل(٦)، خير شاهد على اثره الكبير في ازدهار الثقافة، والحياة الأدبية وإثرائها، واتساع قاعدة الأدباء الكتاب في صناعة الإنشاء، ولا سيما الرسائل الأدبية والإخوانية أبان القرن الرابع الهجري.

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١/٤٥٠ - ٤٥١.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١/٤٥١، وينظر أيضاً: تاريخ الأدب العربي ٢/١١٠ - ١١١.

(٣) يتيمة الدهر: ٤/٢٣٤.

(٤) المصدر نفسه: ١/٣٥ - ٣٦.

(٥) ينظر في ذلك: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١/٤٥١.

(٦) تراجع رسائل أبي بكر الخوارزمي مع تلاميذه في مجموع رسائله وفي مواضع كثيرة منها.

- ٢ - بديع الزمان الهمذاني:

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني(١)، وقد شهر ببديع الزمان(٢)، ولد في حدود عام ٣٥٨ هـ(٣) بمدينة همذان الجبلية وقد تتلمذ في حداثته على أبي الحسين أحمد بن فارس المتوفى عام ٣٩٥ هـ.

وقد أشار أكثر من ترجم له إلى أنه اغترب عن وطنه عام (٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م)، وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة(٤)، فتوجه إلى الري، حيث منتجع الصاحب بن عباد، فحظي عنده، وتزود من ثمار مجالسه الوارفة، غير انه لم يطل المكوث في حضرته، فيمم جرجان، وأقام فيها مدة، وأصبح مقربا من محمد بن منصور، الذي عرف بإكرام أهل الأدب والافضال عليهم، ثم فارق جرجان(٥) إلى نيسابور - حيث آلُ ميكال - فوافاها عام ٣٨٢ هـ(٦)، بعد أن تعرض لقطاع الطرق من الأعراب(٧).

وفي نيسابور أملى مقاماته المشهورة التي أثنى عليها الثعالبي فقال: "... وضمنها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجد يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول ... "(٨).

---

(١) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ١١٢/٢.

(٢) لعل أول وأقدم من لقبه بذلك أبو منصور الثعالبي، ثم شاع بعد ذلك حتى شهر به.

(٣) حدد المستشرق بروكلمان ولادته في يوم ١٢ من جمادي الآخرة سنة ٣٥٨ هـ / ٥ يونية عام (٩٦٩م)، وينظر أيضاً ما المح أليه الأستاذ متز: ٤٥٥/١؛ إذ أشار إلى أنه كان يناهز الثانية والعشرين حين فارق همذان عام ٣٨٠هـ، اما الأستاذ مبارك فقد ذهب إلى أن ولادته كانت عام (٣٥٧ هـ)(النثر الفني في القرن الرابع: ٣٩٥/٢).

(٤) يتيمة الدهر: ٢٩٤/٤.

(٥) تراجع رسالة بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان (رسائل بديع الزمان ص١٥٠ - ١٥٧) وقد أشار فيها إلى سبب مغادرته لحضرة أبي سعيد الإسماعيلي.

(٦) ينظر: يتيمة الدهر: ٢٩٤/٤، وذهب الأستاذ متز - مستندا إلى ما ذكره بعض مصنفي كتب التراجم المتأخرون؛ إلى أنه وافى نيسابور عام (٣٩٢ هـ)، أي بعد أن فارق وطنه باثني عشر عاما. (وينظر: معجم الأدباء: ٩٦/١)، ويراجع أيضاً ما أفاض به في ذلك الباحث (فيكتور الكك) في: بديعات الزمان: ٣٢ - ٣٣ (المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦١).

(٧) تراجع رسالة بديع الزمان التي كتبها ببيشكند إلى أبي سعيد الإسماعيلي وهو يشرح بمرارة ما وقع له من مغيرة الأعراب. (رسائل البديع: ص١٠٤ - ١٠٥).

(٨) يتيمة الدهر: ٢٩٤/٤.

ثم شجر الخلاف بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لشهرته، وعلو أمره[١]، وما لبث أن فارق نيسابور، يجوب الآفاق، " ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجنى وجبى ثمرتها، واستفاد خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء، وسرى معه في ضوء. "[٢]. ثم ألقى عصا ترحاله في هراة، إذ اتخذها مستقرا ومقاما، وفيها صاهر أبا علي الخشنامي، واقتنى في هراة بمعونته ومشورته، ضياعا فاخرة، وعاش عيشة راضية.

اما وفاته فقد أجمعت جل المصنفات التي ترجمت له، على أنه توفي عام ٣٩٨ هـ، بعد أن أربى على الأربعين سنة[٣].

مكانته الأدبية واثره في النثر الفني:

إن المتتبع لسيرة الهمذاني، وما تناقلته مظان الأدب وكتب التراجم عن نبوغه وتفوقه، يتضح له جليا انه أديب موهوب، وشخصية فذة نادرة، وربما ليس من باب الإطراء والمبالغة - على ما عُرف عن الثعالبي من المبالغة في اطراء تراجمه - ما وصفه الثعالبي - وهو اقرب معاصريه - إذ قال[٤]: "... فرد الدنيا، وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر وشرف الطبع، وصفاء الذهن ... ولم ير ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل اعجازه وسحره ...".

ثم شرع الثعالبي يسوق شواهد على غرائب حافظته، وملكة الارتجال لديه، فضلا عن تمكنه من اللغة واضطلاعه بها، وتحكمه بمفرداتها، وأنه كان يقوم بأمور تفوق التصور، وتصل إلى حد الإعجاب والإعجاز[٥].

---

(١) تراجع رسالة الهمذاني (رقم ١٠) التي فصل فيها ما جرى بينه وبين الخوارزمي من المناظرة يوم اجتماعهما في دار الشيخ أبي القاسم المستوفي(رسائل الهمذاني ص٢٨ - ٨٤).

(٢) يتيمة الدهر: ٢٩٥/٤.

(٣) ينظر: يتيمة الدهر: ٢٩٥/٤، وفيات الأعيان: ٢٧٥/١ فقد ذكر أن الهمذاني مات بهراة مسموما، ثم نقل عن الحاكم أبي سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست الذي جمع رسائل بديع الزمان: إنه سمع الثقات يحكون انه مات من السكتة، وعجل دفنه فأفاق في قبره، وسمع صوته بالليل، وانه نبش عنه فوجدوه وقد قبض على لحيته ومات من هول القبر، وذكر بروكلمان: ١١٢/٢: وقيل: إنه دفن قبل وفاته، إذ أصابه الفالج، فظنه اهله ميتا، وينظر: الحضارة الإسلامية - متز: ٤٥٥/١ وهامشه، وينظر أيضاً: النثر الفني في القرن الرابع: ٣٩٥/٢.

(٤) يتيمة الدهر: ٢٩٣/٤.

(٥) تراجع التفاصيل في: يتيمة الدهر: ٢٩٣/٤ - ٢٩٤. وقد عد الأستاذ متز ما ذكره الثعالبي من تلك
-

وكان للباحثين من المستشرقين رأي خاص ومتميز بالهمذاني، فالأستاذ متز مثلا عده زعيم الطريقة الجديدة والمحامي لها[1]، وجعله متميزا بظهور نزعة خاصة إلى الحكايات القصصية التمثيلية القصيرة التي تغلب عليها الصبغة البلاغية، ورأى أن من ثمرة ذلك في نتاجه الأدبي مجموعة المقامات[2]. وقد عد الأستاذ متز في موضع آخر من كتابه؛ إن بناء المقامات كلها ودورانها على رجل واحد هو أبو الفتح الإسكندري تمهيد للكتابة الروائية على صورة أكبر[3].

اما المستشرق بروكلمان، فقد عد الهمذاني مبتكر فن المقامات في الأدب العربي[4]، والمح بروكلمان ضمنا، إلى تميز بديع الزمان في هذا الفن الأدبي، إذ أشار إلى أن منافسه وخصمه الخوارزمي لم يكن هو الذي سبق إلى ذلك، ودحض بروكلمان دعوى الحصري في معارضة الهمذاني بمقاماته كتاب الأربعين حدثيا لابن دريد، مستندا في ذلك على ضياع تلك الأحاديث، وعدم وصولها إلينا حتى يمكن الحكم بصحة ذلك[5].

اما الأستاذ محمد كرد علي فقد عد نثر الهمذاني ذا طابع خاص، وقل في الكتاب من أحدث له طريقة كطريقته، وأملى بها صورته، وجسم صوته ونعرته[6].

والذي أميل إليه أن نثر بديع الزمان - ولا سيما رسائله الإخوانية والأدبية - قد غلب عليه طابع التكلف، والجنوح المفرط إلى الصنعة، وكان بديع الزمان في كثير من رسائله يعنى بالزخرفة، وتصنيع القوالب الأدبية، وكان يرمي إلى إثبات قدرته على أساليب العربية ومنافسة أدباء العربية في ذلك، مما أضفى على كثير من رسائله طابع الالتواء أحياناً، وبخاصة عندما كان يلهث، في مواضع كثيرة من رسائله، وراء أنواع

= الشواهد على براعة الهمذاني، عدها أعلى درجات القدرة على الإنشاء إبان القرن الرابع. (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١/٤٥٦).

(١) ينظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١/٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) المرجع نفسه: ١/٤٦٣ - ٤٦٤.

(٣) المرجع نفسه: ١/٤٦٠ - ٤٦١.

(٤) تاريخ الأدب العربي: ٢/١١٢.

(٥) المرجع نفسه: ٢/١١٢.

(٦) كنوز الأجداد:: ١٧٨ - ١٧٩.

البديع، والتشبيهات البعيدة المطلب، فضلا عما تميزت به كثير من تلك الرسائل من مسحة الغلو في التضرع، وإظهار الحاجة والاستجداء، والإغراق في معاني الملق والإسفاف في التزلف والتضرع[١].

وعلى الرغم مما سجلناه على نثر أبي الفضل الهمذاني من ملاحظات، إلا إنها لا تقدح به، أو تحط من منزلته، واثر دوره الكبير في صناعة الترسل، ويبقى بديع الزمان واحدا من القمم الشامخة المبدعة في النثر الفني، والذي كان له تأثيره الكبير والواضح في نضج الحركة الأدبية والثقافة في هذا القرن.

****

- ٣ - أبو الفرج الببغاء:

ومن أدباء هذا القرن الذين شهروا بكثرة ترحالهم وتكسبهم بأدبهم، ومدائحهم للأمراء والوزراء: الأديب الكاتب أبو الفرج عبد الواحد[٢] بن نصر بن محمد الحنطبي المخزومي[٣]. ويبدو من نسبه انه عربي، وقد لقب بالببغاء للثغة مستملحة كانت فيه[٤]، وقيل: بل لقب بذلك لفصاحته وعذوبة منطقه[٥].

اما ولادته فكانت في نصيبين[٦] في حدود العقد الثاني من القرن الرابع[٧]، وقد أجمعت المظان التي ترجمت له على أنه اتصل ببلاط سيف الدولة الحمداني

---

(١) تراجع على سبيل المثال نصوص الرسائل الأدبية: رسالة الهمذاني إلى أبي نصر بن المرزبان، وقد سأله عارية، أي بعض ما يتجمل به فامسك عن إجابته، فأعاد الهمذاني الكتاب إليه، تراجع نسخته في: (زهر الآداب وثمر الألباب: ٩٨٩/٤ - ٩٩٠) وتراجع رسالته إلى ابن العميد، وهو يستنجزه: (زهر الآداب ٧٣١/٣ - ٧٣٢)، وتراجع رسالته إلى إبراهيم بن حمزة، وهي مشحونة بالتضرع بطلب الحاجة والتكسب إلى الرؤساء: (زهر الآداب: ١١٥٣/٤)، ورسالته إلى الشيخ العميد يشكوه حاله وفيها التصريح بالكدية: (زهر الآداب: ١٠٤٣/٤)، وغيرها كثير مما ضمته رسائله المنشورة.

(٢) ذكر بروكلمان: إن اسمه عبد الواحد (وقيل عبد الملك)، ينظر: تاريخ الأدب العربي: ٩٨/٢.

(٣) يراجع في نسبه وترجمته: الأنساب للسمعاني: ص٦٥، تاريخ بغداد: ١١/١١، وفيات الأعيان: ٣/ ٢٠٢.

(٤) ينظر: يتيمة الدهر: ٢٩٣/١.

(٥) يراجع اللباب في تهذيب الأنساب: ١١٧/١.

(٦) نصيبين: من أعمال ديار ربيعة، وتقع على اعلى نهر الهرماس: معجم البلدان ٧٨٧/٤.

(٧) ينظر: مجلة المجمع العلمي العراقي - الجزء الثاني: المجلد ٣٤ ص٢٨٠ / شعر الببغاء.

(٣٣٣ - ٣٥٦ هـ). إلا اننا نستشف من أخباره أنه كان أثناء إقامته في حاضرة سيف الدولة على توادد ومراسلة مع بعض الأمراء والوزراء في عصره، ولعل أشهرهم: الوزير أبو محمد المهلبي(١)، والأمير جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني(٢) (ت ٣٥٢ هـ)، وأبو إسحاق الصابي وغيرهم.

وبعد رحيل سيف الدولة (ت ٣٥٦ هـ)، شدَّ رحاله إلى الموصل، حيث الأمير الحمداني أبو تغلب بن ناصر الدولة (عام ٣٥٨ هـ)، ثم سار عنها إلى بغداد عام ٣٥٩ هـ، وظل يتردد بين هاتين الحاضرتين(٣) حتى انهيار الإمارة الحمدانية، إذ استقر في بغداد، بعد أن توطدت صلاته مع كبار الأدباء وبعض الأمراء والوزراء وغيرهم.

أما وفاته، فتلتقي أكثر مظان الأدب وكتب التراجم على أنَّ وفاته كانت في شهر شعبان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة من الهجرة(٤).

مكانته الأدبية واثره في النثر الفني:

لعل أول ما تجدر الإشارة إليه، إن أبا الفرج الببغاء كان متعدد المواهب الأدبية، فقد جمع الببغاء - باتفاق جل من ترجم له - إلى جودة الشعر، البراعة في الترسل، فضلاً عن إبداعه في القصص، والافتنان في تأليفها(٥).

---

(١) المهلبي: هو أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي الذي استوزره معز الدولة منذ عام ٣٣٩ هـ وحتى وفاته عام ٣٥٢ هـ. وكان أديباً مشهورا. تراجع رسالته إلى المهلبي في اليتيمة: ٣٠٥/١ - ٣٠٦.

(٢) تراجع ترجمته في اليتيمة ١٢٢/١ - ١٢٦، وتنظر رسالة الببغاء إليه ٣٠٦/١ - ٣٠٧.

(٣) يتيمة الدهر: ٢٩٣/١، ولعل أدق ما يؤكد استمرار صلته بالحمدانيين في الموصل رسالته الجوابية عن أبي تغلب إلى الأمير البويهي (بختيار)، ينظر: يتيمة الدهر ٣١٥/١.

(٤) ينظر: الأنساب للسمعاني: ٦٥، تاريخ بغداد: ١٢/١١، وفيات الأعيان: ٢٠٢/٣.

(٥) اشتهر أبو الفرج الببغاء بين معاصريه بتأليف القصص، وقد ألف كتابا في ذلك، ويبدو انه ضاع في جملة ما ضاع من نتاجه الأدبي، وقد أورد الثعالبي في مستهل ترجمته في يتيمة الدهر نموذجا من قصصه الغرامية (ينظر اليتيمة: ٢٩٤/١ - ٣٠٢)، وقد وصف الأستاذ مبارك قصصه فقال: "إنه يعز عن من رامه من أندى الكتاب قلما، واسماهم بيانا " النثر الفني: ٢٩٥/٢، كما ساق المحسن التنوخي في كتابه (الفرج بعد الشدة) مجموعة من تلك القصص في مواضع متفرقة من كتابه دون ذكر عنوان كتابه، مكتفيا بالإشارة إليه، ولشهرة الببغاء بين أدباء عصره في تعاطي هذا اللون من الأدب صار مضرب المثل فيه، ولعل أوضح ما يؤكد ذلك ما خاطبه به أبو إسحاق الصابي في قصيدة له فيه: [ينظر، يتيمة الدهر: ٣١٠/١].

فحوشيت ياقس الطيور فصاحة إذا انشد المنظوم أو درس القصص

وربما كان لتنوع ضروب الأدب التي أبدع فيها الببغاء، فضلا عما عرف عنه من دماثة الخلق وسجاحته، هو الذي وثق أواصر المحبة والألفة بينه وبين معاصريه، وحفزهم إلى الإشادة بمكانته الأدبية(١). فأبو منصور الثعالبي - على الرغم مما عرف عنه من إسراف في إطراء من ترجم لهم من الأدباء - ربما كان محقا حين وصفه بأنه: "ظرف الظرف، وينبوع اللطف، واحد أفراد الدهر في النظم والنثر ... فنثره مستوف أقسام العذوبة، وشروط الحلاوة، والسهولة ونظمه كأنه روضة منورة تجمع طيبا، ومنظرا حسنا ... "(٢).

وكان القاضي المحسن التنوخي (ت ٣٨٤ هـ) كثير الإعجاب بشاعرية الببغاء، ذكر في معرض تعليقه على قصيدة له في الأمير سيف الدولة، يذكر وقعة كانت له مع بني كلاب، وعفوه عنهم، يقول: "... وهي حقيقة بأن تورد كلها، ولكني اخترت من شعره، ما يصلح للمكاتبة في الحوادث، أو الأمثال، أو معنى لم يسبق إليه، فتركت أكثر محاسن شعره، وحسن نظمه وبلاغته، وعذوبة كلامه، وأكثر إحسانه، موكولا إلى من ينظر في ديوانه "(٣)

وأثنى عليه الخطيب البغدادي، فقال يصف أدبه: "كان شاعرا مجودا، وكاتبا مترسلاً، مليح الألفاظ، جيد المعاني، حسن القول في المديح والغزل والتشبيه والأوصاف، وغير ذلك "(٤).

وقد أثنى كثير من مصنفي كتب التراجم(٥) على أدبه، وسمو مكانته الأدبية، وتجويده في الشعر، ولا سيما في المديح والغزل والتشبيهات، فضلا عن براعته في صناعة الترسل، وجودة المعاني، وتحليل مسارب النفس والوجدان.

---

(١) ذهب الأستاذ مبارك - على الرغم مما قرره من أنه من أركان الحياة الأدبية في زمانه إلى خموله، وانصراف المؤلفين عنه، وعدم اهتمامهم باتجاهاته الأدبية، وعزا ذلك غلى هدوء نفسه، وقلة مطامعه، وحدود آماله. ينظر: النثر الفني: ٢٧٥/٢، ونحن لا نتفق مع الباحث الكريم فيما ذهب إليه.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٩٣/١.

(٣) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة: ١٠٣/١.

(٤) تاريخ بغداد: ١١/١١.

(٥) يراجع: النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: ٢١٩/٤، المنتظم لابن الجوزي: ٢٤١/٧ وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢٠٢/٣.

وهكذا كان لهذه الطبقة من الأدباء (الكتاب) الجوالين في هذا القرن اثر كبير في ازدهار الحركة الثقافية والأدبية، وشيوع المكاتبات الرسمية والأدبية ونضجها.

وقد تنبه المستشرق الالماني الأستاذ (يوهان فك) إلى خطورة هذه الطبقة من الأدباء (الكتاب) الجوالين في هذا القرن، وإلى ما لعبته من دور فاعل في نشر العلوم والثقافة، وتعميق جذورهما، فضلا عن تأصيل جذور العربية في تلك الاصقاع النائية، ورأى أن هذه الطبقة من الأدباء الجوالين قد كفلت بتجوالها في تلك الحواضر والمدن المختلفة في الإمارات والممالك المستقلة النائية:

" نشاطا دائبا في تبادل الأفكار والمذاهب، وحفظ هذا للغة الأدب طابعها الفصيح، كما جعلها أيضاً لغة العلم والثقافة في الإسلام التي كانت تفهم أيضاً خارج المحيط العربي ... "(١).

وعزز الأستاذ (يوهان فك) ما ذهب إليه بذكر دعوى المقدسي في أن أسمى درجات العربية كانت في فارس، أي في ارض غير عربية اللغة؛ لأن الناس هنا كانوا يبذلون اجتهادا عظيما في دراستها(٢).

وهكذا كان ظهور هؤلاء الأدباء الكتاب الرواد في القرن الرابع الهجري عاملا مهماً في ازدهار الحركة الثقافية، ونضج الحياة الأدبية ورقيها وإثرائها واتساع قاعدة الأدباء الكتاب الذين تتلمذوا عليهم، وتلقفوا طرائقهم، واقتفوا خطاهم في صناعة الإنشاء، وتدبيج الرسائل الأدبية والإخوانية.

---

(١) كتاب العربية - يوهان: ص١٦٨.

(٢) المرجع نفسه: ١٦٨ - ١٦٩.

الفصل الثالث

مصادر ثقافة الكتاب وأصول الرسائل الأدبيـة

توطئة

أصول الرسائل الأدبيـة في القرن الرابـع

لقد تأثر النثر الفني العربي منذ القرنين الثاني والثالث للهجرة -ونتيجة لاتساع حركة الترجمة، واختمار ثقافات الأدباء، بعد اختلاط العرب بمختلف الأجناس الأجنبية، وتمازجهم في المجتمع الإسلامي، والتلاقح الفكري بينهم - بألوان الثقافات الأجنبية التي بدأت تصب فيه، وتعمل على تشكيله وتطوره وبخاصة الثقافة اليونانية والفارسية وغيرها من ألوان الثقافات الأخرى.

ومنذ القرن الثالث[1] للهجرة تحديداً، طفق اتجاه ثقافي وفكري جارف يظهر - إلى جانب اتجاهات ثقافية أخرى مختلفة[2] - ينادي باعتداد واضح بالرجوع إلى معايير الثقافة الأجنبية، وأسسها المتينة، ولا سيما الثقافة اليونانية، وقد حمل لواء هذا الاتجاه بوضوح مجاميع المترجمين السريان - الذين عظم نفوذهم في هذا القرن - ومن سار في ركابهم، أو شايعهم من الأدباء والكتاب[3] الذين انصب اهتمامهم على علوم

---

(١) أشار الأستاذ الدكتور طه حسين إلى ظهور هذا الاتجاه في النثر الفني بوضوح في القرنين الثالث والرابع للهجرة، والذي يتمثل بأصحاب الفلسفة اليونانية والمتصلين بهذه الثقافة الغريبة، وأشار إلى أن طريقتهم كانت تقوم على الاهتمام بالفكر، والعناية بالمعاني، وترتيب الكلام ترتيبا منطقيا.

(ينظر: من حديث الشعر والنثر: ٧٩ - ٨٠).

(٢) تراجع التفاصيل عن تلك الاتجاهات الفكرية وانعكاساتها في دراسة البيان العربي والنثر الفني، في مقالة الدكتور طه حسين (في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر) الذي ترجمه عن الفرنسية الدكتور عبد الحميد العبادي، والمنشور في مقدمة كتاب (نقد النثر) المنسوب إلى قدامة بن جعفر: (ص١ - ٣١) ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

(٣) تراجع مقدمة كتاب (أدب الكاتب) ابن قتيبة الدنيوري (ت ٢٧٦ هـ)، حيث أورد (بتهكم) مواقف هذه الطبقة من الكتاب الذين كانوا ينادون بتطبيق قواعد المنطق والفلسفة، والاحتكام إليهما في وضع أسس النقد، وقواعد البلاغة، فضلا عن معايير الثقافة الإسلامية الأخرى.

الفلسفة والمنطق وغيرهما مما عكفوا على الاطلاع عليه من علوم الحكمة في المظان العلمية، أو الصحف التي بدأوا بإعادة ترجمتها، أو تصحيح ما فاتهم منها في الترجمات السابقة، وبخاصة كتب افلاطون وأرسطو في الفلسفة والمنطق، وغيرها من كتب الحكمة اليونانية الأخرى.

وفي القرن الرابع للهجرة - الذي شهد خصب الحياة العقلية وازدهار المناظرات والمحاورات في مختلف العلوم والآداب وشؤون العقيدة وغيرها - بدأت تظهر طبقات من الأدباء الكتاب الذين اشتهروا بعمق ثقافاتهم واتساعها وتنوعها، إذ إنهم ثقفوا علوما ومعارف عديدة ومتنوعة، فضلا عما عرف به كثير منهم بقوة شخصيتهم، وحنكتهم في السياسة والإدارة، والأمور العسكرية.

ولعل ما اشتهر به أبو الفضل ابن العميد من حنكة سياسية، وكفاءة عالية في تدبير شؤون الملك والإدارة، فضلا عما استنه من أسس جديدة في صناعة الترسل وفن الإنشاء، وما عرف به تلميذه الصاحب بن عبادّ من تنوع في أصول المعارف والآداب، فضلا عن كفاءته الإدارية والحربية، وما اختص به بديع الزمان من ألمعية وذكاء وقوة حافظة وسرعة بديهة، وما ظفر به الخوارزمي من عمق الثقافة، والإحاطة برواية التراث العربي القديم، فضلا عن سعة باعه في الترسل ولا سيما الرسائل الإخوانية، وما تفرد به أبو حيان التوحيدي في عصره من شمول الثقافة واتساعها ونضجها ... لعل كل تلك القمم الشامخة في النثر العربي لدليل واضح على ما بلغته صناعة الترسل - وبخاصة المكاتبات الأدبية في هذا القرن من سعة الأفق، ونضج المحتوى، ودقة المسلك، وثراء المعاني.

وربما كان لإتقان أكثر هؤلاء الأدباء الكتاب - ولا سيما الأمراء الأعاجم ووزرائهم، وكبار كتاب دواوينهم، لكونهم ذوي أصول أعجمية - لأكثر من لغة، وتحديدا، اللغة الفارسية - لا سيما بعد قيام أمراء الدويلات المستقلة بدءا من الصفاريين فالسامانيين وغيرهم[١]، بإحياء معالم الحضارة والآداب القومية وبعث

(١) تراجع التفاصيل في هذا الجانب في تاريخ بروكلمان: ١٨٥/٥ حيث يقول: (بينما كانت الفارسية الحديثة تغالب العربية في الشعر أكثر فأكثر منذ عصر السامانيين، نجد العربية تتزعم الموقف في لغة العلم، ولكن اخترعت للإيرانيين وسائل كثيرة في لغتهم الوطنية لكي يتعلموا اللغة العربية) وينظر كتاب تاريخ إيران: ١٩٤؛ تاريخ الأدب في إيران ١٠٩/٢؛ الأدب في ظل بني بويه: ١٢٦ =

أمجادها ولغتها القديمة في هذا القرن - ربما كان لهذا الأمر أيضا أثره الكبير في عمق ثقافة أولئك الكتاب العظام، ونضج معارفهم، فضلا عن إفرازاته الإيجابية الأخرى على الثقافة آنذاك.

إن هذه الطبقات الرائدة من جهابذة الكتاب الأعلام - ونتيجة لتنوع معارفها، وتلون ثقافتها، وبسبب حذقها أو جمعها بين صناعتي الشعر والنثر، وما ثقفه كثير منهم من الإلمام بأكثر من لغة، فضلا عن سعة اطلاعه على المعارف والعلوم الأجنبية - كانوا يزاوجون بين المعايير العربية، ولا سيما أصول التراث القديم، وبين المعايير الأجنبية التي تجلت بوضوح في أصول المعارف اليونانية في الفلسفة والمنطق وغيرها من علوم الحكمة[(١)]..

ومن هنا فقد أخذ كثيرٌ من أدباء وكتاب هذا القرن يعتدّون بأسس الثقافة العربية ومقوماتها، محاولين استلهام تلك المقاييس في رسائلهم الأدبية، ومن هنا فقد أكثروا من تضمين الشعر القديم والمحدث، وإدراج الأمثال وبعض الحكايات الشعبية التي تمثل ثروة فكرية قيمة، فضلا عن الاقتباس من القرآن الكريم والحديث، والإشارة إلى قصص الأنبياء، وإيراد الحوادث وذكر أعلام التاريخ المشهورة، والتلميح إلى ذكر سيرهم، وأخبارهم، كما سنلحظ ذلك في رسائل الخوارزمي وبديع الزمان والصاحب بن عباد وأبي الفضل الميكالي وغيرهم، مما سنلم به في المبحث الأول من هذا الفصل.

وفضلا عما تقدم، فإن كثيرا من كتاب هذا القرن كانوا يستلهمون أيضا أقباساً مهمة من شذرات الثقافة اليونانية ومعارفهم، ولا سيما ما يتصل بالفلسفة والمنطق وعلوم الحكمة الأخرى، فضلا عن معارف وعلوم الأجناس الأخرى كالفرس

=

- ١٢٧.

(١) يراجع ما أشار إليه الأستاذ طه حسين من محاولة كبار كتاب هذا القرن الجمع بين أصول الثقافة اليونانية، والثقافات الأخرى، والإفادة من تلك الاتجاهات الثقافية التي ظهرت قبل هذا القرن (من حديث الشعر والنثر ص٧٩ - ٨٠) حيث يقول مثلا: "... بينما ابن العميد والصاحب بن عباد ومن إليهما كانوا يلمون بالثقافة اليونانية، وكانوا حراصا على الثقافة الفارسية، فكانوا أصحاب بديع وسجع".

والهنود[1] في الحساب وعلم الفلك والتنجيم وسواهما من المعارف الأخرى، كما تجلى ذلك واضحا في رسائل ابن العميد والصاحب وقابوس بن وشمكير والتوحيدي وابن مسكويه وغيرهم من أعلام المترسلين في هذا القرن، وهذا ما سنقف عند تحليله في المبحث الثاني من هذا الفصل.

****

(١) يراجع ما أشار إليه بروكلمان عن بداية تأثير الثقافة الهندية (تاريخ الأدب: ١٢٦/٤) ويراجع ما ذكره الأستاذ محمد كرد علي عن البيروني وتعلمه لغة الهند وانعكاس آثار الثقافة الهندية في مصنفاته ورسائله مع بعض علماء عصره، (كنوز الأجداد: ٢٣٩)، ويراجع ما ذكره الدكتور شوقي ضيف عن الفضل بن حاتم النيرتزي وجهوده في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم، وتأثره بمذهب الهند وكتابها (السند هند)، وكتاب سمت القبلة والزيج الذي عمله في ذلك (العصر العباسي الثاني ص١٣٥ وما بعدها).

المبحث الأول

الثقافة العربية الإسلامية واستلهامها في الرسائل الأدبية:

على الرغم من قيام أكثر أمراء الممالك الأعجمية التي استقلت عن سلطة الخلافة المركزية في هذا القرن بإحياء معالم آدابها القومية، وبعث أصول الحضارة واللغة الفارسية القديمة(١)، إلا أن العربية ظلت في حواضر المشرق الإسلامي هي السائدة، وكانت لغة العلم والمكاتبات(٢).

وقد رصد بعض الباحثين المعاصرين(٣) انتشار معالم الثقافة العربية الإسلامية في أقاليم المشرق الإسلامي، ولا سيما التي خضعت لنفوذ البويهيين مثلا، فأرجعه إلى عاملين أساسيين هما: (الأول) التأثير الكبير الذي كانت قد تركته اللغة العربية وآدابها في أقاليم إيران، بوصفها وسيلة من وسائل المراسلات والعبادة. (الثاني) هيمنة وزراء بويهيين متأثرين بالثقافة العربية، ومتمكنين من آدابها على رأس الإدارة البويهية، كأبي الفضل ابن العميد، وزير ركن الدولة البويهي، وابنه أبي الفتح ذي الكفايتين، والصاحب بن عباد الذي وزر لمؤيد الدولة ثم لفخر الدولة البويهي(٤).

ومما لا شك فيه أن أكثر حكام الإمارات والممالك الأعجمية المستقلة، ووزرائهم وولاتهم في هذا القرن - على الرغم من نزوعهم إلى إحياء معالم الثقافة الفارسية، وبخاصة على عهد السامانيين في خراسان وغيرهم - كانوا يهتمون كثيرا باللغة العربية وآدابها، ولا سيما تراث العرب الشعري القديم.

ولعل ما يؤكد ذلك، ما ذكره أبو حيان(٥) من أن الأمير نوح بن نصر الساماني

---

(١) تاريخ الأدب في إيران - إدوارد براون: ٢/١٠٨ - ١٠٩.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ٥/١٨٥؛ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع متز: ١/ ٤٣٩.

(٣) تراجع التفاصيل في كتاب: تاريخ إيران: ١٤٩ وما بعدها.

(٤) علل الأستاذ الزهيري شيوع العربية في حواضر الإمارة البويهية فذكر أن (هذه البلاد قد ابتعدت عن لغتها الأصلية وتراثها القومي حقبة طويلة من الزمن، الأمر الذي جعل بني بويه يخضعون للأمر الواقع، فيشجعون الثقافة القائمة ولغتها، ويرعون أهلها مجاراة للرأي العام، وحبا بمصالحهم الخاصة)، الأدب في ظل بني بويه: ١٢٦ - ١٢٧.

(٥) ينظر كتاب الإمتاع والمؤانسة: ١/١٢٩ - ١٣٠.

- وكان من أدباء أمراء آل سامان - كتب سنة أربعين وثلاثمائة كتابا إلى أبي سعيد السيرافي النحوي سأله فيه عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة الغالب عليها الحروف، وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب شك فيها فسأل عنها، وكان هذا الكتاب مقرونا بكتاب آخر للوزير أبي عليّ البلعمي، ضمنه مسائل في القرآن وأمثالا للعرب مشكلة.

وما من شك في أن مضمون هذا الخبر يدلل بوضوح على اهتمام أمراء آل سامان بعلوم العربية وتراثها.

كما ساق أبو حيان خبرا آخر(١) ذكر فيه أن أبا جعفر - أمير سجستان - كتب إلى السيرافي أيضا كتابا سأله فيه عن سبعين مسألة في القرآن، ومائة كلمة في العربية، وثلاثمائة بيت من الشعر، وأربعين مسألة في الأحكام، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين.

وفي هذا الخبر أيضا ما يدلل بوضوح على اهتمام أمراء الولايات النائية في المشرق الإسلامي، إبان هذا القرن، بعلوم العربية، وتراثها الأدبي.

ذكر أبو منصور الثعالبي في اليتيمة(٢)، أن أبا الفضل البلعمي - وزير السامانيين - اقترح على أبي نصر الظريفي الأبيوردي - وكان من ندمائه وممن يحسن قرض الشعر العربي - قصيدة يسلك فيها طريق المتقدمين فخامة وجزالة فأنشده من الغد قصيدة في مدحه كأنها صدرت عن أحد فحول الشعراء الجاهليين فارتضاها، وخيره في أعمال البريد ببلاد خراسان فاختار بلده أبيورد، وتنجز المنشور والصلة وشخص.

وقد اشتهر الوزير أبو علي البلعمي بعنايته الفائقة بأصول المظان العربية النفيسة، وقد شاع عنه أنه قام بترجمة تاريخ الطبري إلى الفارسية(٣).

وكان كثير من أمراء وحكام الممالك وولاة المدن أو الأقاليم الأعاجم في المشرق الإسلامي إبان هذا القرن، على حظ عظيم من البلاغة، وحفظ التراث الشعري العربي القديم، فالثعالبي يذكر مثلا، عن أبي محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالي - رئيس نيسابور - أنه: (كان من الكتابة والبلاغة بالمحل الأعلى، وله من سائر المحاسن القدح المعلى، فكان يحفظ مائة ألف بيت للمتقدمين والمحدثين، يهذها في

---

(١) المصدر نفسه: ١/١٣٠.

(٢) يتمية الدهر: ٤/١٥٣ وما بعدها.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب في إيران، براون: ٢/١١٠.

محاضراته، ويحلها في مكاتباته..)[١].

وقد كان كثيرٌ من الأدباء والمفكرين الأعاجم الذين وفدوا على أمراء الممالك الإسلامية واتصلوا بهم - كالإمارة الزيارية[٢] في جرجان وطبرستان والإمارة الغزنوية في غزنة، وإمارة خوارزم، وسواها من الممالك الأخرى - ملمين بالعربية وعلومها، متبحرين بها، معجبين بأسرارها وجواهرها، وكانوا يصنفون كتبهم بالعربية[٣]، ويهدونها إلى أولئك الأمراء والرؤساء الأعاجم.

فأبو الريحان البيروني مثلا - وكان على صلة وثيقة بالزياريين والغزنويين- كان، على عجمته، معجبا بالعربية، ولم يؤلف في غيرها إلا نادرا، وكان يقول: "إن الهجو بالعربية أحب إليه من المدح بالفارسية"[٤].

أما كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن فكان أكثرهم - على الرغم من انحدار أكثرهم من أصول أعجمية - على حظّ عظيم من البلاغة، والفصاحة وإتقان العربية، وقد اشتهر أبو القاسم الصاحب بن عباد بإتقانه الواسع للعربية وعلومها[٥]، وكذا يقال عن غيره من الأمراء والوزراء الأعاجم..

وقد اشتهر أبو بكر الخوارزمي بالجمع بين القديم والجديد، وقد وصف بأنه كان أدهم في آدابه[٦]، وهكذا يقال عن بديع الزمان وأبي الفضل الميكالي وغيرهم من الأدباء الكتاب.

أما مظاهر استلهام التراث الأدبي، والثقافة العربية الإسلامية في المكاتبات الأدبية في القرن الرابع فيمكن إيجاز أهمها بما يأتي:

أولا: تضمين الشعر القديم والمحدث، وحله في الرسائل:

لقد شغف أكثر المترسلين، وأعلام الرسائل الأدبية في هذا القرن، بتضمين

---

(١) يتيمة الدهر: ٤٨١/٤، ويراجع ما ساقه الثعالبي أيضا عن بعض ولاة المشرق، وتبحرهم بعلوم العربية، وحفظهم لتراثها الأدبي. (تتمة اليتيمة: ١٦٥/٥، ٥٤٩ ٥٥٠).

(٢) ينظر: تاريخ الأدب في إيران، إدوارد بروان: ١٠٧/٢ - ١٠٩.

(٣) ألف البيروني كتابه الشهير (الآثار الباقية عن القرون الخالية) للأمير قابوس، وكذا يقال عن كثير من مصنفات الثعالبي، وابن سينا، وابن مسكويه، وغيرهم. ينظر تاريخ بروكلمان: ١٨٢/٥.

(٤) كنوز الأجداد: ٢٣٩.

(٥) يراجع يتيمة الدهر: ٢٢٥/٣ - ٢٢٦.

(٦) المصدر نفسه: ٢٣٤/٤ - ٢٣٩.

رسائلهم بالشعر القديم أو المحدث، أو الاستشهاد بشعر الشعراء المشهورين مع النص عليه، كما عمدوا في أحيان كثيرة إلى حل معانيه في ترسلهم ومكاتباتهم، لقوة أو عمق دلالته، ورصانة أو متانة تراكيبه، وحلاوة موسيقاه ونغمه، فضلا عن أن أكثر أولئك الكتاب كانوا ممن جمع بين صناعتي الشعر والنثر، ومن هنا فقد أكثروا من توشيح رسائلهم بتلك الشذرات الشعرية وبالغوا في ترصيع مكاتباتهم بتلك الأشعار، وكأنها حلية أضفوها على منثورهم لتزدان بها فصول رسائلهم، كسائر الحلي البديعية، والأصباغ البلاغية التي دأبوا على تجميل مكاتباتهم الأدبية والديوانية بها.

يقول أبو بكر الخوارزمي في الجمع بين صناعتي الشعر والكتابة[١]: "...والكتابة آلة عجيبة، وهي من الشاعر أعجب، كما أن الشعر صناعة غريبة، وهو من الكاتب أغرب ....".

لقد استشرت ظاهرة (التضمين) كثيرا في رسائل أعلام الكتاب في هذا القرن، ولعل في طليعة أولئك الكتاب: أبا إسحاق الصابي، وأبا بكر الخوارزمي، والصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمذاني، وسواهم من جهابذة الكتاب المشهورين.

لقد اشتهر هؤلاء الكتاب بسخاء حافظتهم للشعر القديم وغيره، ومن هنا كانت هذه الظاهرة معلماً واضحاً يؤكد سعة ثقافة أولئك الكتاب، وحذقهم لمفردات التراث العربي والإسلامي[٢]، فضلا عن قوة حافظتهم، وغزارة ثروتهم اللغوية، ولعل هذا ما رسخ هذه الظاهرة في صلب ترسلهم ومكاتباتهم، حتى غدت دعامة أساسية ومهمة في البناء الفني للرسائل الأدبية في هذا القرن.

فأبو بكر الخورازمي مثلا - الذي عرف بكثرة تضمينه للشعر في رسائله - كان راوية للشعر، وكان - كما وصفه بعض معاصريه - أمير المنطق الحر، وأنه كان أدهم في أدبه، أي أنه يجمع بين القديم والجديد.

وقد أشار أبو منصور الثعالبي إلى لمع من تضمينات الخوارزمي ووصفها بأنها: (كانت رشيقة، وطريفة أنيقة، يضعها في مواضعها، ويوقعها أحسن مواقعها، ويفصح بها

---

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٥٤.

(٢) ينظر: أبو بكر الخوارزمي، حياته وأدبه، محمود الضمور: ٣١٥؛ أبو إسحاق الصابي، حياته وأدبه، مهدي البدري: ٢١٧ - ٢١٨.

عن اتساع روايته، وكثرة محفوظاته...)[١].

وهكذا يقال عن غيره من جهابذة الكتاب في هذا القرن، كبديع الزمان، وأبي إسحاق الصابي، وأضرابهم ممن شهروا بغزارة حفظهم لتراث العرب الشعري، واستيعابهم لمفردات الثقافة العربية الإسلامية..

لقد تعددت أساليب الكتاب إبان هذا القرن في تضمين الشعر في ترسلهم ومكاتباتهم، ويمكن رصد أهم تلك الأساليب بما يأتي:

(١) تضمين المنظوم في مطالع رسائلهم أو في خواتمها، أو في ثنايا تلك الرسائل، دون التنويه بذلك، أو دون النص عليه أو ذكر اسم الشاعر. ولا شك في أن لهذا اللون من التضمين من قوة الدلالة ما لا يحققه سواه من ألوان التضمين الأخرى، فضلا عما يحققه في النص من ميزة المثل، أو سوق العبرة والعظة أو الحكمة ...

وقد اشتهر أبو بكر الخوارزمي - كما ذكرت - بكثرة تضمينه أو استخدامه لهذا اللون من التضمين، لثراء حافظته، وغزارة موروثه الثقافي من التراث العربي.

من ذلك مثلا، ما ورد في رسالة له إلى رئيس بهراة يعزيه بابن أخته وابنته ومما ورد فيها[٢]: "... وفقد الشباب الطري أكثر جزعا وكسر العود الرطب أشد وجعا.

إن الفجيعة بالرياض نواضراً لأشد منها بالرياض ذوابلا"

ونظير ذلك أيضا ما كتبه إلى نائب الوزير ابن عباد بأصفهان[٣]: "...وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني، وعن تواضع لا يضعه ويرفعني:

ولربما بخل الجواد ومابه بخل، ولكن سوء حظ الطالب "

وهذا كثير جدا في رسائل أبي بكر الخوارزمي[٤].

وتطرد هذه الظاهرة أيضا في رسائل بديع الزمان الهمذاني[٥] وربما جاء

---

(١) يتيمة الدهر: ٢٤٣/٤.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٩.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٣٣.

(٤) تراجع رسائله: ٣٤، ٣٥، ٤٢، ٤٨، ٥٤، ٦٨، ٨٦، ٩٢، ٩٦، ومواضع غيرها كثيرة.

(٥) تراجع رسائل بديع الزمان: ١١، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٨٦، ٩٩، ١٠٠، ١١٤ ومواضع كثيرة غيرها (رسائل بديع الزمان، تحقيق إبراهيم الأحدب الطرابلسي، بيروت).

بعض المنظوم في ثنايا رسائله أشطار أبيات متحدة المعنى، ومكملة له بل هي جزء منه، وهذا اللون من أظرف ألوان التضمين في المكاتبات.

ومما اشتهر لبديع الزمان من هذا اللون من التضمين، ما ورد في رسالته إلى الخوارزمي[١]:

" أنا بقرب الأستاذ - أدام الله بقاءه - (**كما طرب النشوان مالت به الخمر**)، ومن الارتياح للقائه: (**كما انتفض العصفور بلله القطر**)، ومن الامتزاج بولائه: (**كما التقت الصهباء والبارد العذب**)، ومن الابتهاج لمزاره: (**كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب**)، فكيف نشاط الأستاذ سيدي لصديق طرأ إليه ما بين قصبتَي العراق وخراسان، بل عتبتي نيسابور وجرجان؟ وكيف اهتزازه لضيف: رث الشمائل، مخلق الأثواب، بكرت عليه مغيرة الأعراب..."

ونظير هذه الرسالة، وما اشتملت عليه من هذا اللون من التضمين الطريف، ما ورد في فصل من رسالة لأبي الفضل الميكالي (من باب الإخوانيات)، إذ يقول[٢]:

" أنا في مقاساة حر الشوق إليك: (**كما اعتاد محمودا بخيبر صالب**)، وفي تذكر الاجتماع معك: (**كما اهتز من صرف المدامة شارب**)، وفي تكلف الصبر عنك: (**كطالب جدوى خله لا تواصل**)، وفي القلق لفراقك: (**كطائر جو أعلقته الحبائل**).".

****

(٢) تضمين الشعر القديم أو المحدث في فصول الرسائل، مع النص على ذكر الشاعر أو التصريح بهذا التضمين قبل إيراده في الرسالة.

وقد كثر هذا اللون من التضمين في رسائل الخوارزمي[٣]، من ذلك مثلا ما ورد في رسالة له إلى الحاجب، وقد نكبه الوزير ابن عباد[٤]:

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٥١١/٢، وتراجع الرسالة أيضا في مجموع رسائل الهمذاني: ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) يتيمة الدهر: ٤١٢/٤ - ٤١٣.

(٣) تراجع رسائل الخوارزمي: ١٤، ٣٠، ٣١، ٤٠، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٥٧، ٥٨، ٦٥، ٧٠، ٧٦، ٨٤، وغيرها.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٣.

"... وكم تقبحون في النعم، أو تحسنون في النقم، وكم تجهلون ما عرفه الحطيئة مع خبث مذهبه، ولؤم مركبه، حيث يقول:

من يفعل الخيرَ لايعدم جوازيه   لايذهب العرف بين الله والناس "[١]

وفي رسائل الهمذاني أيضاً يكثر هذا اللون من التضمين[٢]، ولا سيما من شعر الشعراء القدامى - الجاهليين والمخضرمين - فضلا عن الشعراء المحدثين، وبخاصة شعر أبي الطيب المتنبي، ومن نماذج هذا اللون من التضمين، ما ورد في فصل من رسالة له إذ يقول[٣]: "... إني لأرحم عقل طرفة إذ قال:

وليت لنا مكان الملك عمرو   رغوثا حول قبتنا تدور"[٤]

وفي ترسل الشريف الرضي وردت بدائع بليغة من هذا اللون من التضمين من ذلك ما جاء له في تذكرة إلى أبي إسحاق الصابي، وقد نوه الرضي لهذا التضمين بذكر اسم الشاعر إذ قال[٥].

" ... فكيف ببحر مدافع الكلام تدفع غررها إليه، وشعاب الأفكار تتقابل مسائلها عليه، فأقول كما قال أبو الطيب المتنبي[٦]:

فلا غيضت بحارك يا جموما   على علل الغرائب والدخال"

(٣) وقد يكتفي بعض كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، بذكر اسم الأديب أو الشاعر في فصول رسائلهم، دون تضمين شعره، من ذلك مثلا، ما ورد في رقعة طريفة لبديع الزمان الهمذاني إلى مستميح عاوده مرارا، إذ قال[٧]:

---

(١) البيت للحطيئة، وهو من قصيدة مشهورة في هجاء الزبرقان بن بدر، ديوان الحطيئة: ١٠٩ (المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت. د. ت).

(٢) تراجع رسائل الهمذاني: ٣٧، ٣٨، ٤٥، ٤٧، ٥٢، ٥٥، وغيرها من المواضع.

(٣) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٣٦٥، وينظر أيضا: يتيمة الدهر: ٣١٦/٤ - ٣١٧.

(٤) الرغوث: الناقة أو الشاة المرضع، وعمرو: هو عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة المشهورين. ومعنى البيت: إنه ليت لنا ناقة مرضعا مكان الملك عمرو بن هند تدور حول خبائنا. (ينظر أيضا: الشعر والشعراء، ابن قتيبة: ٢٧، ط عالم الكتب، بيروت).

(٥) رسائل الصابي والشريف الرضي: ٧٤ - ٧٥.

(٦) البيت من لاميته المشهورة في رثاء والدة الأمير الحمداني سيف الدولة، ينظر: ديوان أبي الطيب المتنبي: ٢٠/٣ (شرح العكبري).

(٧) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٢٢١ - ٢٢٣ (رسالة رقم ٦١)، وتراجع الرسالة نفسها في: يتيمة =

"عافاك الله، مثل الإنسان، في الإحسان، مثل الأشجار، في الأثمار، ... ولي مع الأدب نادرة جهدت في هذه الأيام بالطباخ، أن يطبخ من جيمية الشماخ، لونا فلم يفعل، وبالقصاب، أن يسمع أدب الكتاب فلم يقبل، واحتيج في البيت، إلى شيء من الزيت، فأنشدت شيئاً من شعر الكميت، الفا ومائتي بيت، فلم يغن، ولو وقعت أرجوزة العجاج، في توابل السكباج، ما عدمتها عندي ولكن ليست تقع، فما أصنع؟ فإن كنت تحسب اختلافك إلي، إفضالا علي فراحتي، أن لا تطرق ساحتي وفرجي أن لا تجي، والسلام"[١].

ولأبي الفضل الميكالي من فصل له من باب الإخوانيات، يقول، منوها بذكر بعض الشعراء المخضرمين[٢]: "بي إليك شوق لم يكابده قلب متيم، ووجد لم يدعه مالك لمتمم"[٣] وواضح أن أبا الفضل الميكالي ينوه بالشاعرين (مالك ومتمم) ابني نويرة اليربوعي، وملمحاً إلى وجد متمم، وحزنه الدائم على أخيه مالك الذي قتله خالد بن الوليد في أحداث حروب الردة المعروفة.

والشواهد النثرية في هذا الجانب كثيرة لكتاب هذا القرن، أضرب صفحا عن ذكرها في هذا الموضع، توخيا للإيجاز، وهي معلم واضح تؤكد سعة ثقافة الكتاب، وعمق اطلاعهم على مفردات التراث العربي الإسلامي النفيس..

الدهر ٤/٣٠٠، مع اختلاف طفيف بين رواية النصين.

(١) الشماخ: لقبه واسمه معقل (وقيل الهيثم) بن ضرار، وهو شاعر مجيد، برع في وصف القوس والحمر الوحشية، ومن جيميته التي أشار إليها الهمذاني قوله: [من الطويل]

وأشعث قد قدّ السفار قميصه يجر شواء بالعصا غير منضج .... الخ

تراجع ترجمته في: الشعر والشعراء: ٦٣ - ٦٤ (ط عالم الكتب - بيروت).

الكميت: هو الكميت بن زيد الأسدي، وهو شاعر مشهور، وهو صاحب الهاشميات المشهورة، نشر شرح هاشميات الكميت بتحقيق الدكتور داود سلوم، د. نوري القيسي (مكتبة النهضة العربية، ط١، ١٤٠٤هـ١٩٨٤م.

العجاج: هو الراجز المشهور عبد الله بن رؤية، والعجاج لقبه، ينظر للباحث كتاب: العجاج ودوره في تطوير الأرجوزة في العصر الأموي (الناشر: مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٦).

(٢) يتيمة الدهر: ٤/٤١٤.

(٣) تراجع أخبار مالك ومتمم اليربوعيين في: الشعر والشعراء: ٧٠ - ٧٢، وقد جمعت أشعارهما الدكتورة ابتسام مرهون الصفار.

(٤) حل المنظوم وتضمينهِ في الرسائل الأدبية:

ومن ألوان التضمين الأخرى التي الـمَّ بها المترسلون، وكتاب الرسائل الأدبية كثيرا في هذا القرن أيضا: نثر النظم، أو حل العقد، كما أطلق عليه بعض النقاد ومؤرخو الأدب القدماء[١]، وإيراده كما هو، أو حله في الرسالة مع تغيير طفيف في ثنايا ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية.

ولقد شغف جهابذة الكتاب[٢]، ومبرّزوهم في هذا القرن بما أبدعه بعض معاصريهم من الشعراء المحدثين المشهورين - كأبي الطيب المتنبي وأبي فراس الحمداني وأضرابهم - فضلا عمن تقدمهم من الشعراء القدامى (من الجاهليين والمخضرمين) فأكثروا من تضمين شذراتهم والاغتراف من فيض إبداعهم، والارتشاف من لجج قرائحهم، لتزدان به فصول رسائلهم، ولم يجانب بعض الشعراء - فيما نقله الثعالبي -[٣]، الحقيقة إذ قال: (من الطويل).

ألا إن حــل الــشعر زيــنة كاتــب ولكــن مــنهم مــن يحــل فــيعقد

ويشير الثعالبي في موضع آخر إلى إعجاب الصاحب بن عباد أيضا بطريقة شعراء الشام المثلى التي تقوم على الجزالة والعذوبة، والفصاحة والسلاسة، وكسره دفترا جمع فيه غرر أشعارهم، ثم يقول: "... وصار ما جمعه - أي الصاحب - فيه على طرف لسانه، وفي سن قلمه، فطورا يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته، وتارة يحله أو يورده كما هو في رسائله"[٤].

---

(١) ينظر كتاب الثعالبي المشهور (نثر النظم وحل العقد)، وهو أحد مصنفاته التي وقف فيها عند دراسة هذا اللون من تضمين المترسلين في عصره لشعر الشعراء المبرزين وحله في رسائلهم (ط. دار الرائد العربي -بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م).

(٢) عقد الثعالبي فصلا قصيرا من حل الصاحب بن عباد وغيره من صدور الكتاب في هذا القرن نظم أبي الطيب المتنبي بخاصة، واستعانتهم بألفاظه ومعانيه في ترسلهم. ينظر: يتيمة الدهر ١٥٣/١ - ١٥٩، فضلا عما وقف عنده الثعالبي أيضا في كتابيه المشهورين: (خاص الخاص)، و(من غاب عنه المطرب) من حل الكتاب في عصره لمعاني الشعراء وألفاظهم، وإدراجها في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية.

(٣) يتيمة الدهر: ١٥٨/١.

(٤) المصدر نفسه: ٣٤/١.

ولعل ما يؤكد شيوع هذا اللون من التضمين (حل الشعر)، بين كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، ما طرحه الثعالبي - بعد أن أورد طائفة من حل الصاحب بن عباد، وأبي إسحاق الصابي، وغيرهما نظم أبي الطيب المتنبي في رسائلهما - إذ قال[1]: "وإذا كان هذان الصدران المقدمان على بلغاء الزمان يقتبسان من أبي الطيب في رسائلهما، فما الظن بغيرهما؟".

ومن نماذج ما ألم به الصاحب بن عباد، وحله في رسائله من غرر نظم أبي الطيب المتنبي، ما ورد له في فصل من رسالة في وصف قلعة افتتحها الأمير عضد الدولة البويهي، إذ قال[2]:

" ... فلما أتاح الله للدنيا ابن بجدتها، وأبا بأسها ونجدتها، جهلوا بون ما بين البحور والأنهار، وظنوا الأقدار تأتيهم على مقدار، فما لبثوا أن رأوا معقلهم الحصين، ومثواهم القديم، نهزة الحوادث، وفرصة البوائق، ومجر العوالي، ومجرى السوابق".

وإنما ألم - الصاحب - بألفاظ بيتين لأبي الطيب أحدهما: (من الكامل)

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها ... فشكا إليه السهل والجبل

والآخر: (من الطويل)

تذكرت ما بين العذيب وبارق ... مجر عوالينا ومجرى السوابق

وفي مكاتبات أبي إسحاق الصابي، تطالعنا كثير من الفصول التي ألم فيها بشعر الشعراء القدامى والمحدثين، وحلها في منثور كلامه[3]، من ذلك، مثلا، ما ورد في فصل من رسالة له في وصف الصيد[4]:

---

(١) المصدر نفسه: ١/١٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٥٣. والعوالي: الرماح. والسوابق: الخيل السريعة. وتنظر الفصول الأُخر التي أوردها الثعالبي للصاحب بن عباد مما حل فيها نظم المتنبي ١/١٥٣ - ١٥٦. وينظر أيضاً ما أورده الثعالبي من حل الصابي، وأبي العباس الضبي والخوارزمي شعر المتنبي: ١/١٥٧ - ١٥٩.

(٣) تراجع التفاصيل في (أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه: ٢١٦ - ٢٢٠، حيث ألَمَّ الباحث بكثير من فصول الرسائل التي اقتبسها الصابي من الشعراء القدامى والمحدثين.

(٤) يتيمة الدهر: ٢/٣٠١.

"... ثم عدلنا عن مطارح الخيام إلى مسارح الآرام، نستقري ملاعبها ونؤم مجامعها، حتى أفضينا إلى أسراب لاهية بأطلائها، راتعة في أكلائها...".

فقد حل أبو إسحاق الصابي قول الشاعر زهير في معلقته المشهورة(١):

به العين والآرام يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

ويشيع في رسائل بديع الزمان هذا اللون من التضمين أيضا(٢) ومن نماذج ذلك ما ورد في رسالة له إلى أبي نصر بن المرزبان، في تغير حال الصديق مع علو رتبته، وكثرة ماله، إذ يقول(٣): "... وقصاراي الآن أن أرغب إلى الله تعالى الا ينيلهم فوق الكفاية، فشد ما يطغون عند النعمة ينالونها، والدرجة يعلونها وسرع ما ينظرون من عال، ويجمعون من مال وينسون في ساعة اللدونة أوقات الخشونة، وفي أزمان العذوبة أيام الصعوبة ...".

وقد ألمَّ بديع الزمان فيما كتبه بقول أبي العتاهية في عمرو بن مسعدة - وقد تغير عليه بعد علو رتبته مع الخليفة المأمون - فقال(٤): (من الطويل).

غنيت عن العهد القديم غنيتا وضيعت عهدا كان لي ونسيتا
وقد كنت لي أيام ضعف من القوى أبرّ وأوفى منك حين قويتا
تجاهلت عما كنت تحسن وصفه ومت عن الإحسان حين حييتا

وقد ألمَّ كثير من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، بهذا اللون من التضمين - حل المنظوم - وأكثروا من حل شعر الشعراء القدامى والمحدثين في مكاتباتهم، والشواهد غزيرة أيضا، إلا أنني أكتفي بما عرضته من هذه النماذج، مقتفيا أبا منصور الثعالبي عند تتبعه ودراسته لهذا الموضوع إذ قال في خاتمة عرضه له: "وهذا ميدان

(١) ينظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ابن الانباري: ٢٣٩.
(٢) تراجع بعض رسائل بديع الزمان التي حل فيها شعر غيره من الشعراء في زهر الآداب وثمر الألباب للحصري: ٨٦٥/٣، ٩٦٠/٤ - ٩٦١.
(٣) رسائل الهمذاني (رقم ٣٧): ١٤٥ وما بعدها.
(٤) زهر الآداب وثمر الألباب: ٨٨٥/٣ - ٨٨٦.

عريض، وشوط بطين، وفيما ذكرته كفاية".[١]

****

ثانياً: الاقتباس من القرآن والحديث، وتوظيف القصص القرآنية في الرسائل:

ومن مظاهر استلهام التراث العربي الإسلامي في رسائل هذا القرن أيضا: كثرة الاقتباس من آي القرآن المجيد، والحديث النبوي، والإشارة إلى قصص الأنبياء، والأمم القديمة التي أوجز ذكرها القرآن للعبرة والاتعاظ..

لقد برع أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن في توظيف النص القرآني في رسائلهم، إذ كانوا - نتيجة لسعة ثقافتهم - على صلة وثيقة بالنص القرآني، ولذلك فقد أكثروا في مكاتباتهم من الاقتباس من فيضه العذب وحرصوا كثيرا على استمداد أفكارهم وصورهم من وحيه.

ولقد أدرك جهابذة الكتاب في هذا القرن ما يحمله النص القرآني من طاقات إبداعية معجزة، وخصائص فنية عديدة، ترقى إلى أعلى مصاف الإبداع والإعجاز، فضلا عما يحويه من معان سامية، وقيم نبيلة، ومفاهيم عظيمة تتصل بالإنسان والحياة والوجود والكون، وما إلى ذلك.

ولعل هذا ما يفسر لنا تزاحم الكتاب على الاغتراف من معينه الثرّ، ومحاكاة أسلوبه البليغ المعجز، فضلا عن أنهم كانوا يتوخون من توظيف تلك النصوص البليغة التقاط ما تحمله من عظة سديدة، وتوجيه قويم، يناسب المقام الذي يحبّر فيه الكاتب رسالته، أو العهد الذي يبرمه..

أما أساليب الكتاب أو طرقهم في توظيف النص القرآني في رسائلهم إبان هذا القرن، فقد اتخذت ألوانا متعددة، وعلى النحو الآتي:

(١)كان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن يقتبسون الآية من النص القرآني دون إضفاء أي تحوير أو حذف، وكان الكاتب في الغالب لا ينص على الآية التي يوردها في رسالته، وإنما يحلها في تضاعيف كلامه.

من ذلك مثلا ما ورد في فصل من رسالة لبديع الزمان الهمذاني، إذ

---

(١) يتيمة الدهر: ١/١٥٩.

يقول[١]. " ... فلهم حولها تخبيط، والله من ورائهم محيط".

فقد اقتبس الكاتب الآية (٣٠) من سورة (البروج) دون أن ينص على هذا الاقتباس.

ونظير ذلك أيضا ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزمي إلى الصاحب أبي إسحاق، لما نكبه الوزير الصاحب[٢]: "... فلما جازيت النعمة بالكفران ونسيت هل جزاء الإحسان إلا الإحسان نظرت الأيام إليك شزراً، وأبدلتك باليسر عسرا ...".

فقد اقتبس الخوارزمي الآية (٦٠) من سورة (الرحمن) وضمها صلب رسالته دون أن ينصَّ عليها. ومثل هذا اللون من الاقتباس ما ورد في رسالة الفتح الأكبر للصاحب بن عباد - وقد ختم به رسالته - إذ قال[٣]: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [الآية ١٢٨/النحل].

وقد تكون الآية المقتبسة طويلة، ومع ذلك فإن الكاتب يحلها في كلامه دون أن ينص عليها[٤]، وفي أحيان أخرى كان الكاتب يقتبس الآية دون تحوير أو تغيير، مع النص عليها، كأن يقول (قال تعالى) أو غير ذلك مما سترد الإشارة إليه، من ذلك مثلا ما ورد في رسالة لبديع الزمان الهمذاني، إذ يقول[٥] [الآية ١٠٨/الأنعام].

"... إنه ليس في أبواب الذبّ، أضعف من باب السبّ، وإذا تلوت قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا ﴾ علمت أن سلاح خصمك أقوى".

ونظيره أيضا ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزمي إلى فقيه في تعهد مسجد[٦]: "... وإنما يوفى المحسن أجره بغير حساب، وتذكر قول الله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾. فضمن الآية (١٨)/التوبة.

---

(١) يتيمة الدهر: ٣١٩/٤.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٢، وينظر أيضا رسالة الخوارزمي: ٨٠.

(٣) رسائل الصاحب بن عباد: ٢٣، وينظر أيضا رسالته: ٢٢.

(٤) ينظر ما ورد في رسالة الصاحب بن عباد: ٣٧ - ٣٨.

(٥) يتيمة الدهر: ٣٠٨/٤.

(٦) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٠١.

وقد كثر هذا اللون من الاقتباس في رسائل الصاحب بن عباد[١]، من ذلك ما ورد في أحد عهوده[٢] إذ قال: "وأمره بتزويج الأيامي اللاتي ولايتهن إليه ... وقد قال الحكيم الرحيم في القرآن المبين: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾" فاقتبس الآية (٣٢) من سورة النور.

***

(٢) كان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن يقتبسون النص القرآني مع إجراء بعض التحوير فيه أو الحذف منه، وقد يقتبس الكاتب بعض الآية دون تحوير، وهذا التغيير قد يكون كثيرا أو قليلا.

من ذلك مثلا ما ورد في فصل من رسالة للهمذاني إذ قال[٣]:"يا هؤلاء تكابروا الله في بلاده، ولا ترادوه في مراده، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده..." فاقتبس الآية (١٢٨) من سورة الأعراف، وكقوله أيضا في فصل من رسالة أخرى: "معاذ الله لا أشفع لضارب القلب، ولا أرضى له غير الصلب، وأعتقد في دار الضرب، إنها دار الحرب، ولكن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ "[٤] الآية (٦ - الحجرات).

ونظير ذلك أيضا ما ورد في رسالة لأبي الفضل الميكالي في باب السلطانيات[٥]: "أصبحوا كغثاء احتمله ظهر سيل جارف، أو كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف". فقد اقتبس الكاتب الآية (١٨) من سورة (إبراهيم) وقد حذف جزءاً من صدر الآية الكريمة، وهو قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ...﴾ الآية".

ومن ذلك أيضا، ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي[٦]:

---

(١) ينظر رسائل الصاحب بن عباد: ٣٩، ٤٠، حيث نص على اقتباس الآية الأولى من سورة (المطففين)، ومواضع أخر في رسائله.

(٢) رسائل الصاحب بن عباد: ٣٨.

(٣) يتيمة الدهر: ٣١٨/٤، وواضح أنه حذف الكاتب بقية الآية الكريمة مراعاة للفاصلة المسجوعة.

(٤) يتيمة الدهر: ٣٠٩/٤، وواضح أنه حذف بقية الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

(٥) يتيمة الدهر: ٤٢٥/٤.

(٦) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٠١.

كتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران

"... وما ظنك بموضع هو بيت من بيوت الله ... وهو من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وهو مسكن من مساكن الأبرار". [الآية (٣٦) من سورة النور].

وهذا اللون من الاقتباس القرآني كثير في رسائل الصاحب بن عباد[1]، ومن ذلك قوله في أحد فصول رسائله[2]: "... كل ذلك للطمع أن يشفوا من البغي علينا غليلا، ويشتروا بعهد الله ثمنا قليلا". [فاقتبس الآية (١٧٤)/ البقرة].

****

(٣)وقد يكتفي منشئ الرسالة باقتباس لمحة أو إشارة أو كلمة بارزة في النص توحي للقارئ، أو المتلقي اللبيب الفطن بمضمون الآية القرآنية المقتبسة.

وهذا اللون من الاقتباس نادر، ولم يرد كثيرا في رسائل الكتاب في هذا القرن. من ذلك مثلا ما ورد في رسالة للصاحب بن عباد إذ يقول[3]: "... ورفده بصائب الخواطر، وهيأ له أجلى الأشباه والنظائر، ولم يبهم سبيل الرشاد دونه، وجعله بلطفه من الذين (يستنبطونه)".

فقد أشار هنا إلى الآية الكريمة (٨٣) من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾.

ونظير ذلك أيضا ما ورد في رسالة بديع الزمان الهمذاني في ذم السذق (ليلة الوقود) - وهو أحد الأعياد الفارسية المشهورة - إذ قال[4]: "وسخط من نيرانها، وأورثكم أرضهم ..." إذ أشار الكاتب إلى الآية (٢٧) من سورة (الأحزاب) وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ﴾..

---

(١) تراجع رسائل الصاحب بن عباد: ٣٧، ٤٠، ٤١، ومواضع أخر.

(٢) رسائل الصاحب بن عباد: ٢٦.

(٣) رسائل الصاحب بن عباد: ٣٦، ونظيره أيضا ما ورد في رسالة للصاحب: ٤١ (رسائل الصاحب بن عباد)، إذ اقتبس فيها قوله تعالى ((ولو كره المشركون)).

(٤) يتيمة الدهر " ٣٠٤/٤، ونظيره أيضا ينظر للبديع الهمذاني ما ورد في فصل له: "ولكن صبرا جميلا، والله المستعان"، اليتيمة: ٣٠٤/٤، وقد ورد هذا اللون من الاقتباس في شعر بعض الأدباء الكتاب في هذا القرن أيضا، من ذلك ما ورد في ملحة للكاتب أبي الفتح البستي، ينظر: يتيمة الدهر: ٣٥٥/٤ - ٣٦٦.

(٤) اقتباس القصص القرآني (قصص الأنبياء والإشارة إلى الرسل والملائكة):

ومن مظاهر استلهام التراث العربي الإسلامي في رسائل هذا القرن أيضا: اقتباس الأدباء الكتاب لقصص الأنبياء، وذكر الرسل والأنبياء (عليهم السلام) والإشارة إلى الملائكة، وبعض الطقوس الدينية المهمة..

وقد استشرت هذه الظاهرة كثيرا في رسائل أعلام الكتاب المشهورين في هذا القرن، وفي مقدمتهم الخوارزمي، والهمذاني، والصاحب بن عباد وأبو الفضل الميكالي، وغيرهم، وهذا مظهر واضح لسعة ثقافة أولئك الكتاب وتأثرهم بالتراث الأدبي الإسلامي.

لقد توخى كتاب الرسائل في هذا القرن من إيراد تلك القصص، تأكيد الفكرة التي يسوقها في الرسالة، أو دعم الحجة التي يعرضها، أو لإثبات مقدرته في استيعاب مفردات النص القرآني والذخيرة الأدبية التي يحويها، أو لغير ذلك من الأسباب..

وقد كان كتاب الرسائل الأدبية يسلكون أحيانا أسلوب التلميح أو التلويح إلى القصة القرآنية، متوخين التكثيف والتركيز.

يقول بديع الزمان الهمذاني في فصل له من رسالة[١]، مشيرا، ومستوحيا جانبا من قصة النبيّ (يونس عليه السلام)، وما عرض للنبي (آدم عليه السلام) مع إبليس: "أبق - أطال الله بقاء الشيخ - عبدان: أحدهما الذي أنبت عليه شجرة من يقطين، والآخر الذي قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، وأنجى هذا من الظلمات ومد لذلك في الحياة، فعرف لكل على مقدار حرمته حق خدمته"[٢].

ولبديع الزمان أيضا - رسالة أخرى يشير فيها إلى قصة النبي (إسماعيل عليه السلام)، ويكني عن ذكره (بالذبيح)، ويكني عن ذكر النبي (إبراهيم - ع -) بالخليل، إذ يقول[٣]: "وأجدني إذا قرأت قصة الخليل، والذبيح إسماعيل، أحس من

(١) يتيمة الدهر: ٣١٣/٤. أبق يأبق أي هرب (مختار الصحاح مادة أبق).

(٢) أشار الكاتب أولا إلى الآية (١٤٥ - ١٤٦) / من سورة الصافات، وهي قوله تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝ ﴾، ثم أشار في الثانية إلى قوله تعالى: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ وهي الآية: ١٢ من سورة الأعراف والآية (٧٦) من سورة ص.

(٣) المصدر نفسه: ٤ /٣٢٠ - ٣٢١، تله للجبين: أي قلبه على قفاه وألقاه على خده وعنقه ليشرع بذبحه.

نفسي لسيدنا بتلك الطاعة، لو وقع البلاء، والعافية أوسع، وأظنه لو تلني للجبين، وأخذ مني باليمين، لقطع الوتين[١]، لصنته عن الأنين، علي بذلك ميثاق من الله غليظ، والله على ما نقوله حفيظ".

ويصرح بديع الزمان في رسالة أخرى بذكر النبي إبراهيم (عليه السلام) ويذكر جانبا من قصته في رؤيته للكواكب، فيقول[٢]: "ما أبعد غلطك عن غلط إبراهيم (عليه السلام) إنه رأى كوكبا، ورأيت تولبا، وأبصر القمر، وأبصرت القدر، وغلط في الشمس، وغلطت في الأمس أظاهره غرك أم باطنهُ سرك؟".

وينص بديع الزمان أيضا في رسالة أخرى على ذكر النبي إبراهيم (عليه السلام) وذكر والده (آزر)، فيقول[٣]: [اقتبس الآية (٧٤)/ من سورة الأنعام] ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾.

"... ويا عجبا أيلد الأغر البهيم، وولد آزر إبراهيم...".

وفي فصل من رسالة طريفة لبديع الزمان إلى أبيه يطلب إليه زيارته، ويقيم عليه الحجة في ذلك، موظفا قصة النبي يوسف (عليه السلام) وزيارة أبيه النبي يعقوب (عليه السلام) وذهابه إلى مصر، إذ يقول[٤] [اقتبس مضمون الآية (٩٩) من سورة يوسف].

" ولسيدنا - يعني أباه - أسوة بيعقوب في ولده، إذ ظعن إليه من بلده ..."

ويوظف كاتب آخر في هذا القرن - وهو أبو القاسم عبد الصمد بن علي الطبري - قصة النبي يوسف (عليه السلام)، وما ورد فيها عن (صاع العزيز) في رسالة له أرسلها إلى صديقه الأديب أبي علي الحسين المروروزي، فيقول[٥]: "خرج الأستاذ - أدام الله عزه - والقلب بجناح الشوق نحوه طائر، ألا وهو معه سائر، مثل صاع العزيز في أرحل القوم ولا يعلمون ما في الرحال ..." [أشار إلى الآية (٧٦) من سورة يوسف].

ويوظف أبو بكر الخوارزمي في فصل من رسالة رائعة له إلى أبي سعيد أحمد بن شبيب، لما شارف نيسابور، بتكثيف وإيجاز بليغ أحداثا مهمة وردت في القصص

(١) اقتبس الآية: ٤٦ من سورة الحاقة، وهي قوله تعالى: "لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين".

(٢) يتيمة الدهر: ٣٣٠/٤.

(٣) يتيمة الدهر: ٣٠٦/٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣١٨/٤.

(٥) تتمة اليتيمة: ١٨٩/٥.

القرآني، من ذلك مثلا، ما ورد في قصة (الإسراء والمعراج) وسرعة البراق، ومرافقة العبد الصالح الخضر (عليه السلام) لموسى (عليه السلام) - كما وردت في سورة الكهف - كما أشار إلى النبي سليمان بن داود (عليه السلام)، فقال[١]: "... وددت أن صاحب الجيش يركب النجم السيار ويمتطي لذلك الفلك الدوار، ويطوي المنازل طي الرداء، ويصل الغداة بالعشاء، بل وددت أن الريح تحمله، أو أن البراق ينقله، وأن الخضر يصحبه خليلا، وسليمان بن داود (عليهما السلام) يرافقه زميلا، ليصغر حجم الانتظار، وتقل مدة بعد الدار ...".

وقد اقتفى أبو الفضل الميكالي خطى الخوارزمي، في فصل له من رسالة في باب الإخوانيات، فقال متتبعا ما ورد في رسالة الخوارزمي[٢] مشيرا أيضا إلى (البراق)، والنبي الخضر (عليه السلام): "... وددت لو أنه ركب الفلك الدائر، وامتطى النجم السائر، وكان البرق زاملته، والبراق راحلته، والسماك هاديه، والخضر حاديه، والصبا إحدى مراكبه، والجنوب بعض جنائبه، لينقضي عمر الانتظار، ونسعد بالقرب والجوار".

ويوظف الأمير أبو الفضل الميكالي بعض جوانب القصة القرآنية، بأسلوب الرمز أو الإيماء أحيانا، ليضفي على مضمون رسالته ظلالا من المتعة والتشويق، ودعم الفكرة التي يسوقها، وتأكيدها.

يقول مثلا في فصل له من رسالة (من باب الإخوانيات) ملوحا إلى النبي موسى (عليه السلام) وما جرى له في وادي (طوى)[٣]: [أشار إلى الآية (١٠) /طه].

"... وكنت كمن خرج يبغي قبسا، فرجع نبيا مقدسا".

ويقول أيضا في فصل آخر ملوحا إلى قصة النبي إبراهيم (عليه السلام) وابنه إسماعيل (عليه السلام)[٤]: "سررت بكتابك سرور من فدي بذبح عظيم، وبشر بغلام عليم".

وقد يصرح أبو الفضل الميكالي أحيانا بذكر الأنبياء (عليهم السلام)، يقول في

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٣١.
(٢) يتيمة الدهر: ٤/٤١٣.
(٣) المصدر نفسه: ٤/٤١٣.
(٤) المصدر نفسه ٤/٤١٢ [أشار إلى الآية (١٠٧) / الصافات (وفديناه بذبح عظيم)].

فصل له من رسالة(١): [مشيرا إلى الآية (٩٦)/يوسف "فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا..."]

"... وصل كتابه فأدركت به بغية الحريص، وخلتني يعقوب وقد بشر بالقميص...".

ويتضح بجلاء أن أبا الفضل الميكالي يصرح بحادثة إلقاء قميص يوسف (عليه السلام) على أبيه يعقوب (عليه السلام) ليرتد بصيرا..

وقد يوظف بعض كتاب هذا القرن في فصول رسائلهم أحيانا الإشارة إلى (الكتب السماوية المقدسة) أو أسماء الملائكة، لتأكيد المعنى، والغلو في إثبات تحقق وقوعه!!

يقول بديع الزمان الهمذاني في فصل له من رسالة يشير فيها إلى الملائكة والكتب السماوية المقدسة(٢): "... حرس الله هذه الدنانير، ورزقنا منها الكثير، إنها لتفعل ما لا تفعل التوراة والإنجيل، وتغني ما لا يغني التنزيل والتأويل، وتصلح ما لا يصلح جبرئيل وميكائيل".

ويتصل باستلهام الأدباء الكتاب في هذا القرن للتراث العربي الإسلامي أيضا: الاقتباس من فيض السنة النبوية الطاهرة، وأقوال أو أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والإشارة إلى بعض الطقوس الدينية أو الفرائض وتوظيفها في رسائلهم الأدبية، لقيمتها الدينية والتراثية، ولاستحواذها على مشاعر الناس، أو لشغفهم بأسلوبها الممتع، ومحتواها الفكري والموضوعي الرصين.

من ذلك، ما ورد في فصل من رسالة لأبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي في الإنكار على من يذم الدهر، إذ يقول(٣): "... عتبك على الدهر داع إلى العتب عليك، واستبطاؤك إياه صارف عنان اللوم إليك ... فاعف الزمان عن قوارض لسانك، واضرب عليها حجاب الحرص بأسنانك، واذكر قول النبي - صلى الله عليه وآله -: (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر) ...".

وفي فصل للصاحب بن عباد من أحد عهوده البليغة، يقتبس من لآلئ السنة

(١) يتيمة الدهر: ٤/٤١٠.

(٢) المصدر نفسه: ٤/٤١٧.

(٣) يتيمة الدهر: ٤/٤٦٢.

النبوية الطاهرة، وفيضها الثر المغدق، ما أثر عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) قوله: "ادرأوا الحدود بالشبهات"، إذ يقول[١]: "... وأمره إذا رفع إليه ما يوجب حدا أو قطعا، أو قتلا أو جلدا، أن يأخذ بأبعد المذاهب من إباحة ظهر المسلم، فإنه الحمى، وإراقة دمه فإنه الحرمة العظمى ... وأن يجرد عند ذلك المسألة عن البينات، ويأخذ بالسنة في درء الحدود بالشبهات، فإن وضح له ما يوجب إقامة الحد، أنهاه ونفذه بحكم الله، ولم تأخذه رأفة في دين الله".

وتزخر رسائل بديع الزمان الهمذاني في هذا القرن بكثرة الاقتباس من أقوال الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، لاستحواذها على مشاعر الأدباء ولتوظيف ما تضمنته من دلالات إنسانية وأخلاقية، وإيحاءات فنية قيمة في تضاعيف الرسائل والاحتجاج بها لدعم ما يسوقه الكاتب من أفكار أو حجج في ثنايا فصول رسائله.

من ذلك ما ورد في نسخة وصية له، إذ قال[٢]: "... ثم لحق بالرفيق الأعلى، وقد خرج عن عهدة ما حمل وصدع بما أمر فصلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما، فأوصى وهو يقول: (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين). "

وكان بديع الزمان يقتبس بعض أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأقواله للاحتجاج بها في دعم ما يطرحه من أفكار تشكل جوهر الرسالة الأدبية التي يكتبها..

من ذلك ما ورد في رسالة له إلى المعدل بن أحمد، وقد ذكر فيها بعض أعلام الفقهاء المشهورين، وبعض أحكامهم، إذ قال وقد استهلها بالشعر[٣]:

" تصبحنا الأيام كل صبيحة   ببادرة تربو على أخواتها
وكانت تطير الطير عن وكناتها   فصارت تزيل الهام عن سكناتها"

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (الراجع في هبته كالراجع في قيئه)، ثم اختلف العلماء فيمن وهب من ماله، وأعطى من حلاله، ثم رجع في نواله، فقال أبو حنيفة: مكروه قبيح، وقال الشافعي: حرام صريح، وقلتم: إنه حسن مليح، ولكل أصل وترجيح ...".

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد: ٣٩.
(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٥٣٤ - ٥٣٥.
(٣) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٥١١ - ٥١٢.

ومما استلهمه كتاب الرسائل من التراث العربي الإسلامي في هذا القرن أيضا الإشارة إلى بعض مفردات الفرائض الدينية[١]، والطقوس المقدسة وتوظيفها في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية، من ذلك ما ساقه بديع الزمان الهمذاني في رسالة له، وقد وظف فيها اسلوب الحوار والحكاية الساخر، للحديث عن بعض مناسك الحج وطقوسه المعروفة، ومما جاء في تلك الرسالة على لسان محنث، حيث قال[٢]: "حج البيت محنث، فسئل عما رأى، فقال: رأيت الصفا والحجون وقوما يموجون، وكعبة تزف عليها الستور، وترفرف حولها الطيور، وبيتا كبيتي، ولكن سل عن البخت، لا عن البيت".

ولعل أطرف وأظرف ما وصل إلينا من مكاتبات هذا القرن في الافتنان والجمع بين الجد والهزل، في ذكر بعض طقوس مناسك الحج وتوظيفها في الاستزارة يوم النحر، رسالة أبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي[٣]، إذ كتب إلى بعض لداته، ومما ورد فيها[٤]:

" أمتع الله مولاي بهذا العيد واليوم الجديد، وأطال بقاءه في الجد السعيد والعيش الرغيد، هذا يوم كما عرفه التاريخ العام، وغرة الأيام، قد قضيت فيه المناسك، وأقيمت المشاعر، وأديت الفرائض والنوافل، وحطت عن الظهور بها الآصار والمثاقل ...وإذ قد فاتنا ذاك، فما أحوجنا إلى أن نحرم من متعات الطرب ونغتسل من دنس الكرب، ونلبس إزار المجون، ونلبي على تلبية الأوتار ونطوف بكعبة المزاح، ونستلم ركن النشاط، ونسعى بين صفاء القصف ومروة العزف، ونقف بعرفة الخلاعة، ونرمي جمرات الهموم، ونقضي نفث الوساوس، ونضحي ببدن الأفكار في العواقب، فإن رأى أن يتفضل بالحضور، لتتميم حجة السرور، فعل، إن شاء الله".[٥].

---

(١) تراجع رسالة أبي الفضل ابن العميد في فريضة الصيام، وقدوم شهر رمضان، يتيمة الدهر: ١٩٠/٣ - ١٩١.

(٢) المصدر نفسه: ٣٢١/٤ - ٣٢٢.

(٣) هو من مشاهير كتاب خراسان (وأصله من الري)، وكان من كتاب الأمير أبي منصور سبكتكين، ثم ناب بخراسان لشمس المعالي قابوس، ثم استقر في نيسابور، وتفرغ لخدمة العلوم والآداب، أشار الثعالبي إلى أن من مؤلفاته (لطائف الكتاب)، ينظر: يتيمة الدهر: ٤٥٨/٤ - ٤٦٨.

(٤) يتيمة الدهر: ٤٥٩/٤.

(٥) نحرم: من الاحرام. نلبي: من التلبية على عرفة. نستلم ركن: لمس ركن الحطيم والحجر الأسود.

وهكذا نرى كيف استلهم الكاتب تلك الشعائر والمناسك المقدسة، وهي من طقوس فريضة الحج، ووظفها في رسالته بأسلوب جديد لم يسبق إليه.

وهكذا استطاع الأدباء الكتاب في هذا القرن أن ينتفعوا من تلك الذخيرة القصصية الرائعة التي أنبثتْ في القرآن المجيد، وتمكنوا من توظيفها في مكاتباتهم، والتقاط ما فيها من إيحاءات موضوعية وفنية ممتعة، وهم يعرضون لمعالجة قضايا مجتمعهم الجديدة، وأمورهم الخاصة..

****

ثالثاً: تضمين الأمثال القديمة وتوظيف الحكاية الشعبية:

ومن مظاهر استلهام التراث العربي القديم في رسائل هذا القرن: كثرة تضمين الأمثال العربية البليغة، والأقوال والحكم السديدة، وإدراجها في الرسائل الأدبية، وهذا شاهد آخر على سعة ثقافة الأدباء الكتاب في القرن الرابع، وعمق تجاربهم، وثبات قدمهم في استيعاب تراث العرب وحفظه وهضمه واستحضاره أو الاستشهاد به في الموضع المناسب الذي يقتضيه المقام.

لقد أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن من تضمين الأمثال العربية القديمة والحكم البليغة، وإدراجها في رسائلهم، لما لها من قيمة فنية في تزيين النص، وما تضفيه عليه من قوة وجمال، إذ إن تلك الأمثال البليغة الموجزة والأقوال السديدة، كانت تتسم دائما بقوة السبك وجماله، ودقة الصنعة وإحكامها ومتانة التراكيب ورصانتها، وتكثيف المعنى وتركيزه، وقد أدرك كتاب هذا القرن، وفي مقدمتهم أبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، والصاحب ابن عباد وغيرهم من الكتاب البلغاء، أدركوا ما تحققه هذه الأمثال والحكم من جمال وقوة أسر، وشدة تأثير، فأكثروا من إيرادها في مكاتباتهم، بوصفها حليا فنية سائغة، تتناغم مع ألوان البديع الأخرى التي بالغوا في استخدامها في رسائلهم الأدبية والديوانية إبان هذا القرن.. لقد كان كتاب الرسائل في هذا القرن، أحياناً، يوردون الأمثال القديمة كما رويت عن العرب بصيغها وتراكيبها، دون تغيير أو تحوير في تلك الصيغ..

=

نسعى: السعي بين الصفا والمروة وهو من مناسك الحج. ونضحي ببدن: الضحية في مكة كالشاة والبقرة والناقة. نفث الوساوس: ما ينفثه الشيطان في قلب الإنسان.

من ذلك ما ورد في فصل من رسالة لبديع الزمان إذ يقول[1]: "يعجبني أن يكون الشيخ عريض اللسان طويله، حسن البيان جميله، ولا يعجبني أن يطول لسانه حتى يمس به جبينه، ويضرب به صدره، ويحك به قفاه، فخير الأمور أوساطها ...".

ونظير ذلك أيضا ما أورده الثعالبي لأبي الفضل الميكالي من رسالة له في باب العيادة، إذ يقول[2]: "وكان من العلة بين أنياب وأظفار، ومن الردى على شفا جرف هار".

وقد كان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، أحيانا أخرى، يوردون تلك الأمثال، مع تغيير طفيف يجرونه على ما يسوقونه منها، من ذلك ما ورد في فصل من رسالة لأبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي إلى صديق له قامر على كتب فقمر، وقد ضمن المثل العربي القديم (يداك اوكتا وفوك نفخ)، فأضفى بعض التغيير على صيغة المثل، إذ كتب في رسالته إليه[3]:

" المحن - أيدك الله - معلقة بين جناحي تقدير، وسوء تدبير، فأما التي تطلع من جانب المقدار، فالمرء فيه معفى عن كلفة الاعتذار، وأما التي اوكتها يده، ونفخها فوه، فليس لخرقها أحد يرفوه ...".

ومن ذلك أيضا، ما ساقه بديع الزمان من أمثال سائرة من مأثور كلام العرب، في فصل له من رسالة[4]: "... الموت والله ولا هذا الصوت، والمنية ولا هذه الدنية".، وكقوله أيضا من رسالة له، وقد ضمن المثل العربي القديم (انج سعد فقد هلك سعيد)[5]، " فتن تشظى، ونار تلظى، وناس يأكل بعضهم بعضا، فالنهار مصادرة، والليل

(١) يتيمة الدهر: ٣١٣/٤، وينظر: مجمع الأمثال: ٢٤٣/١، والبيان والتبيين: ٢٥٤/٣ وأصل المثل (خير الأمور أوساطها، وشر السير الحقحقة)، وذكر الميداني أنه يضرب في التمسك بالاقتصاد. وذكر في موضع آخر (٣٥٩/١): (قال مطرف بن عبد الله بن الشخير لابنه لما اجتهد في العبادة: خير الأمور أوساطها وشر السير الحقحقة والحقحقة هي ارفع السير وأتعبه للظهر..

(٢) يتيمة الدهر: ٤٢٢/٤. وفي مجمع الأمثال: اجرف منهال وسحاب منجال، أي لا حزم عنده ولا عقل: ١٧٧/١.

(٣) يتيمة الدهر: ٤٦٣/٤، ويراجع هذا المثل في (مجمع الأمثال) للميداني: ٤١٤/٢ وذكر أنه يضرب لمن يجني على نفسه الحين، ويراجع ما ذكره المفضل في مناسبة المثل.

(٤) المصدر نفسه: ٣٠٥/٤ - ٣٠٦، ويراجع المثل في مجمع الأمثال: ٢٠٣/٢، ومعنى المثل: أختار المنية على العار، وقيل: المثل لأوس بن حارثة.

(٥) يتيمة الدهر: ٣٢١/٤، ويراجع المثل في مجمع الأمثال للميداني (رقم المثل ٤٢٢٧) [تحقيق -

مكابرة، وقتل عمرو، وسلب زيد، وانج سعد وهلك سعيد...".

ونظير ذلك أيضا، ما ورد في رسالة للشيخ أبي الحسن علي بن محمد الأرباعي التي كتبها إلى الشيخ الأجل أكفى الكفاة يُهنيه بالوزارة، وقد ضمن المثل العربي القديم (وافق شن طبقة)، فحور المثل دون الإخلال بمضمونه فقال[١]: "شن وافق طبقا، وفضل عانق عبقا ... وما شئت وما شاء، فالق الدلو وأرسل الرشاء".

وقد يحور بعض الكتاب صيغة المثل، أو يضمن معنى المثل الشائع دون أن يسوق المثل القديم بالصيغة أو البناء الذي استعمله العرب، من ذلك، تضمين بديع الزمان الهمذاني للمثل العربي (جوع كلبك يتبعك)، إذ أورده الهمذاني في رقعة له إلى الأمير خلف فقال[٢]:

"وظهر الشقي يحتمل عدلين من الفحم، ولا يحمل رطلين من الشحم، ولولا الشعير، ما نهقت الحمير، ولو لم يتسع حاله، لم يتسع مجاله، وكذا الكلب يزمن، حين يسمن، ولا يتبع حين يشبع، وعند الجوع، يهم بالرجوع".

وقد يورد الكاتب أحيانا - وقد كثر هذا اللون من التضمين في رسائل الخوارزمي - كلاما بليغا، أو قولا سديدا للعرب، يجري مجرى المثل، أو يسوق ألفاظا متجاورة متسقة في الوزن، تحمل ظلالا من العبرة والحكمة لتزدان بهذا كله فصول الرسالة، فتضوع بأريج النغم، وإيقاع الألفاظ، فضلا عن عمق المعنى ودقة الفكرة.

من ذلك ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزمي كتبها إلى أبي القسم وقد انهدمت داره عليه وسلم، فختم رسالته إليه بهذه الحكم السديدة، والكلم المفيدة، إذ قال[٣]: "... وقد كانت العرب تزاوج بين كلمات تتماثل مبانيها، وتتكافأ مقاطعها

محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، لبنان، ط٢، ١٩٨٧]: ج٣/٣٨٣ وسعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أد، وتراجع تفاصيل قصة المثل ومناسبته في مجمع الأمثال: ١ / ٣٥١، في المثل رقم ١٠٤٤ (الحديث ذو شجون).

(١) تتمة يتيمة الدهر: ٢٧١/٥ - ٢٧٢، وينظر: مجمع الأمثال: ٣٥٩/٢. وقد ذكر الميداني أن هذا المثل يضرب للمتوافقين.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٩٩/٤، وينظر مجمع الأمثال: ١٦٥/١، حيث ذكر الميداني أنه يضرب في معاشرة اللئام وما ينبغي أن يعاملوا به.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٩١.

ومباديها، فتقول: العلة ذلة، والوحدة وحشة، والغلب سلب، واللحظة لفظة، والهوى هوان، والأقارب عقارب، وأنا أقول: المرض حرض، والرمد كمد، والعلة قلة، والقاعد مقعد".

ونظيره أيضا ما ورد في رسالة لبديع الزمان إذ قال[(١)]:

" الأمير الفاضل الرئيس، رفيع مناط الهمة، بعيد منال الخدمة ... ولكني أقول: البناء منجح أنى سلك، والسخي جوده بما ملك، وإن لم تكن غرة لائحة فلمحة دالة، وإن لم يكن صداء فماء، أو لم يكن خمر فخل، وإن لم يصب وابل فطل، وبذل الموجود غاية الجود ...".

وقد وظف بديع الزمان في رسائله بعض الصيغ والتراكيب أو التعابير العربية القديمة التي كانت تستعملها العرب بدلالات رمزية خاصة تعارفوا عليها كالدلالة على دوام الأشياء وثباتها، أو تأكيد ثبات الأمر على وجه البديهة كقولهم مثلا: (ما كان أحد مكانه)، أو (ما بل بحر صوفه)، أو (ما هبت ريح وسرى برق، ولمع نجم)، وما إلى ذلك من تعابير قديمة معروفة[(٢)]:

من ذلك، مثلا، ما أورده بديع الزمان في فصل من رسالة له، إذ يقول[(٣)]: "أراني أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس، أو هبت الريح، أو نجم النجم، أو لمع البرق ...".

ولعل أبا بكر الخوارزمي أكثر كتاب الرسائل الأدبية والإخوانية في هذا القرن تضمينا للأمثال العربية، والحكم السديدة التي تجري مجرى الأمثال في مكاتباته[(٤)]، إذ إنه أفاد كثيرا من محفوظه من تلك الأمثال البليغة، فعمد إلى حلها في رسائله ليضفي على أسلوبه ما تحمله تلك الأمثال، أو ما تمتاز به من جودة السبك، ومتانة التركيب، وإحكام الصنعة، وتكثيف المعنى، وغير ذلك..

لقد كان الخوارزمي يحشد طائفة كبيرة من الأمثال البليغة، والحكم السائرة التي

---

(١) يتيمة الدهر: ٣٣٢/٤.

(٢) يراجع كتاب: البيان والتبيين: ٧/٣ (باب العصا).

(٣) يتيمة الدهر: ٣١٤/٤.

(٤) يراجع ما فصله الباحث محمود الضمور في رسالته أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه: ٣١٠ وما بعدها، حيث أفاض الباحث كثيرا في الوقوف عند هذا الجانب، وبرز بدقة توظيف الخوارزمي للأمثال والحكم التي تجري مجراها وحلها في رسائله، والإفادة من مضامينها في الموضوعات التي طرقها في رسائله الأدبية والإخوانية.

تجري مجرى الأمثال، فيحلها في رسالته، ودرج كلامه، وكأنه أراد في ذلك أن يدلل على غزارة حفظه من تلك الأمثال السائرة، ومن هنا فقد كانت كثير من فقر رسائله حكما بليغة، تجري في سياق الأمثال السائرة(١):

من ذلك مثلا، ما ورد في رسالته إلى حاجب الوزير ابن عباد، إذ يقول(٢): "... ولذلك قالوا، ما أملح الظبي لولا خنس أنفه، وما أحسن البدر لولا كلف لونه وما أطيب الخمر لولا الخمار، وما أشرف الجود لولا الاقتار، وما أحمد مغبة الصبر لولا فناء العمر، وما أطيب الدنيا لو دامت واستقامت".

ونظير ذلك أيضا، ما ورد في رسالته إلى صاحب الديوان بالحضرة، إذ يقول(٣): "... ولا يقول كيف يكون الرسول أجل ممن أرسله، وكيف يكون السفير أعظم ممن سفر له، فإن الكريم يعز من حيث يهون، ويشتد بأس الرمح حين يلين...".

ومن ذلك أيضا رسالته إلى صاحب البريد بالري، إذ يقول(٤): "... وعد واضرب عما أظهرت وأبديت، فإذا بسيدي أبي بكر أخجل من بخراء تكلمت ومن فوهاء، تبسمت ...".

وله أيضا من رسالة إلى أبي المعالي وزير صاحب الجبل، إذ يقول(٥): "... لا زال البكاء بعد هذا متصورا على عيون أعدائه، فإن أعداء الفاضل أعداء فضله، وأضدادهُ أضداد فعله، وكل امرئ صديق أمثاله وشكله".

ومن مظاهر استلهام التراث العربي القديم في رسائل هذا القرن أيضا: توظيف الحكاية الشعبية (الفولكلورية)، وبعض صور أو رموز (الميثولوجيا) العربية القديمة التي انتشرت في المجتمع العربي منذ القدم، وبقيت بعض طقوسها رموزا فنية ترددت أصداؤها في تراث الشعراء الجاهليين وغيرهم من الأفراد والجماعات التي تعاقبت على أديم الصحراء العربية، ومن ثم أضحى هذا الإرث الإنساني معلما يستضيء

---

(١) تراجع مثلا رسالة الخوارزمي إلى أبي الحسن البديهي، إذ أورد الكاتب عشرات الأمثال التي حلها في رسالته، وقد ساقها الكاتب للنيل من مهجوه الذي مرغ أنفه بالتراب رسائل الخوارزمي: ٢٣٥ - ٢٥٠.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ٨٥.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٧١.

(٥) المصدر نفسه: ١٤٦.

بطقوسه وثرائه أجيال الأدباء، على الرغم من تباين أجناسهم أو لغاتهم، أو اتساع البيئة أو قسوة الطبيعة ...

وربما كان بديع الزمان الهمذاني واحدا من أكثر أدباء هذا القرن شغفا باستثمار هذا الإرث الحضاري الإنساني، وتوظيفه في أدبه ورسائله ...

ومن تلك الحكايات الشعبية التي تكتنز برموز فولكلورية قديمة، ما ورد في رقعة لبديع الزمان إذ يقول[١]: "مثلك في السفارة، الفأرة، طفقت تقرض الحديد، فقيل لها، ويحك! ما تصنعين؟ الناب ودقة رأسه، والحديد وشدة بأسه، فقالت: أشهد، ولكني أجهد وإن تنج من تلك الأسباب، فهي الذباب، مقاديرك، لا معاذيرك".

وهكذا نرى بديع الزمان كان يسلك أسلوب الحكاية، ويحرص على تهيئة بعض عناصرها الأساسية كالسرد والحوار وغير ذلك، فيضربها مثلا، وصولا إلى ما يريد إنجازه في رسالته..

وقد عرض بعض الكتاب في هذا القرن أيضا - شأن بديع الزمان - إلى ذكر بعض العادات أو الطقوس القديمة التي كانت ترمز إلى معتقدات شعبية شائعة في المجتمع القديم، من ذلك مثلا: التطير من الغراب، والنفث في العقد، والتفاؤل بالقدح المعلى - وهو من سهام الميسر عندهم آنذاك - وما إلى ذلك ...

ومما ورد من الإشارة إلى (النفث في العقد) - وهو مما ذكره القرآن الكريم - ما ذكره أبو الفضل الميكالي في أحد فصول رسائله من باب العيادة، إذ يقول[٢]: "كنت رهين علل لا أرجو من صرعتها استقلالا، ولا أؤمل من أسر وثاقها انحلالا، فلم يزل لطف الله ينفث فيها في العقد، ويمسح جانب الداء والألم، حتى أنشطني من عقال، وأنهضني من كبوة وعثار".

ولبديع الزمان في التطير من الغراب وذمه، في رسالة له في السخرية والتهكم[٣]: "ما أعرف لعمار مثلا إلا الغراب الأبقع، مذموما على أي جنب وقع، إن طار فيقسم الضمير، وإن وقع فروعة النذير وإن خجل فمشية الأمير، وإن شحج فصوت الحمير، وإن أكل فدبر البعير، وإن سرق فبلغه الفقير، كذلك ابن عمار إن حذفت عينه فالحين،

---

(١) يتيمة الدهر: ٢٩٨/٤.

(٢) يتيمة الدهر: ٤٢٢/٤.

(٣) المصدر نفسه: ٣١٧/٤.

وإن حذفت ميمه فالشين، وإن حذفت راؤه فالرين، وإن صحف خطه فالمين، وإن زرته فالحجاب الثقيل، وإن لم تزره فالعتاب الطويل "

ويقول أبو الفضل الميكالي في فصل من رسالة له، وهو يشير إلى (المعلى)، أحد قداح الميسر، وهي سبعة قداح[١]:

"برز من علته بروز السيف المحلى، وفاز بالعافية فوز القدح المعلى". وقد سبق أبا الفضل الميكالي في ذلك، أبو بكر الخوارزمي، إذ يقول في فصل من رسالة له[٢]: "... ولا يرضى من القداح إلا ما يخرج من كف المجيل معلى لا منيحا".

وهكذا يبدو واضحا أن هذه الحكايات أو رموزها التي وظفها بعض أعلام الكتاب البلغاء في هذا القرن في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية والإخوانية، تكتنز بظلال ندية من الايماء أو الرمز اللذين يحققان في الرسالة عنصر التشويق، التي تقود إلى متابعة الحدث أو القراءة لدى المتلقي..

وقد عرض بديع الزمان الهمذاني بخاصة، في بعض حكاياته الشعبية التي كان يسوقها في بعض رسائله الأدبية، جانبا من الظواهر الاجتماعية التي كانت تسود بين طوائف واسعة في مجتمع عصره، وقد حاول عرضها بأسلوب ساخر.

من ذلك مثلا، حكاية أبي الهول الذي كان يعبد الله على حرف، فكان جيرانه يسمونه (إسطوانة المسجد) لكثرة الصلاة فيه، أملا في أن يرزقه الله تعالى مال عمه الموسر الذي لا عقب له، وعندما يرزق عمه ولدا - على كبر السن - يترك أبو الهول الصلاة، وأصبح "لا يؤدي فرضا ولا نفلا، ولا يرد سلاما، ولا يعمل في الخير عملا..."[٣].

ونظير ذلك أيضا ما كان يرويه الهمذاني عما يقوله أو يحكيه الناس في عصره من حكاياتهم، أو قصصهم في أسمارهم، ومن نماذج ذلك حكاية الأعرابي الذي نام ليلا عن جمله ففقده، فلما طلع القمر وجده، فرفع إلى الله تعالى يده بالدعاء والرجاء[٤]، والحكاية هذه، وما سبقها أيضا، تعالج مظهرا اجتماعيا ساد في عصره، وهو

(١) يتيمة الدهر: ٤/٤٢٢.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٥٣.

(٣) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٣.

(٤) يتيمة الدهر: ٤/٣٢٨ - ٣٢٩.

الدعاء والتوجه إلى العبادة عند الحاجة أو حلول البلوى..

ومن الحكايات الشعبية التي عكست بعض الظواهر الاجتماعية آنذاك، ما ساقه بديع الزمان في إحدى رسائله إلى الشيخ الرئيس أبي الفضل عن حكاية التاجر[١] مع ولده الذي جهزه بمال للاتجار به، غير أن ولده يترك جميع وصايا أبيه، ويتجه إلى طلب العلم، ثم يعود إلى أبيه محملا بألوان العلوم، خاسرا جميع أمواله، فما كان من الأب التاجر إلا أن يعرض ابنه في السوق على أصناف الباعة، للحصول على أي شيء مقابل ما يحمله من علوم ابنه! غير أنه يخفق في الحصول على أي بلغة مما أراد.

وهكذا وظف كتاب هذا القرن في رسائلهم الأدبية، ما ألموا به من معارف تتصل بالمجتمعات العربية والإسلامية القديمة، وطباعها وتقاليدها، وصولا إلى درء ما استشرى في مجتمعاتهم الجديدة من مظاهر اجتماعية كان يبعث الكثير منها على السخرية والاستهجان والتهكم..

رابعاً: الإشارة إلى الأحداث التاريخية والأعلام المشهورة:

ومن مظاهر استلهام التراث العربي الإسلامي في مكاتبات هذا القرن أيضا: الإلمام بأحداث التاريخ العربي الإسلامي، والوقوف عند وقائع التاريخ لاستلهام العظة والعبرة، والتصبر على مواجهة ما يحدق بالمجتمعات الإسلامية من أخطار وكوارث ومحن، كما ألم كتاب الرسائل في هذا القرن أيضا بذكر الأعلام التاريخية والشخصيات المهمة، فضلا عن ذكر الأقوام والأمم القديمة، وحرص الأدباء الكتاب على المواءمة بين ذكر تلك الرموز التاريخية في الرسائل وصلب الفكرة التي يتناولها الكتاب، أو قرب الوشيجة الموضوعية بينهما ولعل هذا المظهر شاهد دقيق آخر على سعة ثقافة الأدباء الكتاب في هذا القرن، ونضج تجاربهم في صناعة الترسل، وعمق موروثهم الثقافي.

وقد شهر عدد من كتاب هذا القرن بقدرتهم العالية على استيحاء أحداث التاريخ المهمة والمناسبة، وتوظيف تلك الذخيرة القيمة في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية والإخوانية، ولعل في طليعة أولئك الأدباء الكتاب أبا بكر الخوارزمي وبديع الزمان والصاحب بن عباد وغيرهم[٢].

---

(١) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٣٩٣ - وما بعدها.

(٢) تراجع هذه الرسالة المهمة، وما فصَّله الكاتب فيها من وقائع تاريخية وما ألم فيها من ذكر أعلام =

وربما كانت رسالة أبي بكر الخوارزمي الشهيرة التي أرسلها إلى جماعة الشيعة في نيسابور، لما قصدهم محمد بن إبراهيم واليا عليها، أوضح نموذج لاستلهام أحداث التاريخ، وذكر أعلامه المشهورين، وتوظيف ذلك كله موضوعا ومحتوى أساسيا في صلب هذا العمل الأدبي الخالد.

لقد كانت هذه الرسالة الأدبية، بما تضمنته من الإشارة إلى أحداث التاريخ وثيقة تاريخية مهمة وثقت كثيرا من الأحداث الخطيرة، والوقائع التاريخية بأسلوب أدبي رائع، وهي تدل، من جانب آخر، على غزارة ثقافة الأديب الكاتب وتبحره بأحداث التاريخ وجزئياته المتشعبة، فضلا عما تخلل هذا النص الأدبي من شواهد شعرية وأمثال قديمة وأقوال وحكم سائرة، وآيات قرآنية أضفت على النص ظلالا كثيفة من القوة والجمال، وطوعت تلك المادة التاريخية لتلك اللمسات الأدبية، والخطرات الإنسانية المؤثرة..

وهذه الرسالة أيضا وثيقة سياسية وفكرية مهمة لتاريخ فرقة الشيعة بوصفها واحدة من الفرق الإسلامية المبكرة، وهي توثق بدقة سجلها ونضالها وما وقع لأئمة آل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم من أذى وظلم وقتل وتشريد ...

لقد صور الكاتب في هذه (الوثيقة الطويلة) لجماعة الشيعة في نيسابور ألوان البطش والجور والتنكيل الذي مارسه الحكام بأئمة آل البيت وأتباعهم عبر العصور ليوجب عليهم الإيمان والثبات على عقيدتهم وتَحمُّل ما قد يتعرضون إليه في الأيام المقبلة على يدي الوالي الجديد!

بدأ الكاتب رسالته بمقدمة موجزة اتصلت اتصالا وثيقا بصلب الموضوع الرئيس، وقد انصبت هذه المقدمة على محورين مهمين، وصولا لترسيخ ما يرمي إليه الكاتب في صلب رسالته: (المحور الأول): جور السلطان، وعدم خشيته لله (تعالى) فيما يصدر عنه من أعمال، لأن همه الدنيا ونعيمها الزائل. (المحور الثاني) عزوف أئمة آل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم إلى الزهد بالدنيا، والركون عنها، طلبا لثواب الآخرة ونعيمها الدائم..

=

التاريخ المشهورين، وما ساقه من شواهد تتصل بنضال فرقة الشيعة عبر تلك الأحداث، (رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٦٠ - ١٧٢).

ومن هنا يرسخ الكاتب - تمهيدا للدخول إلى صلب الموضوع - فكرة تعرض (جماعة الشيعة) للمحن على مر تاريخهم، ممهدا لذلك بقول الإمام علي (عليه السلام): "المحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور".

ثم يبدأ الكاتب لباب رسالته وفحواها بعرض تلك المحن والمآسي الممضة التي آدت بكواهل تلك الفئة الصابرة الطاهرة، فيسردها سردا موسعا ومؤثرا، عبر التدرج التاريخي الذي سار عليه الكاتب في عرض رسالته - يقول[1]:

"سمعت أرشد الله سعيكم، وجمع على التقوى أمركم، ما تكلم به السلطان الذي لا يتحامل إلا على العدل، ولا يميل إلا على جانب الفضل، ولا يبالي بأن يمزق دينه إذا رفا دنياه، ولا يفكر في أن لا يقدم رضا الله إذا وجد رضاه ... فإذا كنا شيعة أئمتنا في الفرائض والسنن، ومتبعي آثارهم في كل قبيح وحسن، فينبغي أن نتبع آثارهم في المحن ...".

ثم يبدأ يسرد أحداثا تاريخية وقعت لآل البيت (عليهم السلام) سردا موجزا فيقول[2]: "غصبت سيدتنا فاطمة (صلوات الله عليها وعلى آلها) ميراث أبيها (صلوات الله عليه وعلى آله) يوم السقيفة، وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة وسُمّ الحسن (رضي الله عنه) سرا، وقتل أخوه (كرم الله وجهه) جهرا وصلب زيد بن علي بالكناسة، وقطع رأس زيد بن علي في المعركة، وقتل ابناه محمد وإبراهيم على يد عيسى بن موسى العباسي، ومات موسى بن جعفر في حبسه، وسُمّ علي بن موسى بيد المأمون، وهزم إدريس بفخ، حتى وقع إلى الأندلس فريدا، ومات عيسى بن زيد طريدا شريدا، وقتل يحيى بن عبد الله بعد الأمان والأيمان، وبعد تأكيد العهود والضمان، هذا غير ما فعل يعقوب بن الليث بعلوية طبرستان، وغير قتل محمد بن زيد والحسن بن القاسم الداعي على أيدي آل ساسان ... وبحسبكم أنه ليست في بيضة الإسلام بلدة إلا وفيها لقتيل طالبي ترة تشارك في قتلهم الأموي والعباسي، وأطبق عليهم العدناني والقحطاني.

فليس حي من الأحياء نعرفه ... من ذي يمان ولا بكر ولا مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر.."

وهكذا ألم أبو بكر الخوارزمي في هذه الرسالة الشهيرة، من خلال هذا العرض

---

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٦٠ - ١٦١.

(٢) المصدر نفسه: ١٦١ - ١٦٢.

المفصل الشامل لكثير من أحداث التاريخ الإسلامي، التي اتصلت اتصالا وثيقا بأخبار هذه الفرقة الإسلامية، وما لقيت من محن وكوارث عبر نضالها السياسي، طيلة عهود التاريخ الإسلامي التي ألم بجزئياتها وتفاصيلها..

أما بديع الزمان الهمذاني فقد برع أيضا في الإلمام بكثير من أحداث التاريخ(١)، وذكر شخصياته ورموزه المشهورين، وتكشيف تلك الأحداث التي تنبض بالحياة، وتزخر بالصراع، فأحسن توظيفها واستثمارها في أدبه، ولا سيما في رسائله الأدبية والإخوانية، ملوحا بأسلوب الرمز والإيماء حيناً، أو التصريح المكثف حينا آخر، وصولا إلى تحليل كثير من القضايا الجديدة، والخطيرة التي ألمت بمجتمعه في هذا القرن الذي شهد كثيرا من المحن والمآسي والحروب وألوانا من النزاع والصراع..

ولعل أجل رسالة لبديع الزمان، أفصحت عن إلمامه بأحداث التاريخ وتعاقب الأزمان والدول، ووثقت أفدح أحداث العصر الخطيرة، وصورت أعنف وقائع تلك الحروب المبيرة، رسالته إلى أبي العباس الفضل بن أحمد الإسفراييني، وزير السلطان محمود الغزنوي، وهو يسرد له فتوح السلطان ذي اليمينين بلاد الهند وفتح بها ضية، إذ يقول(٢): "... ولم ينطق التاريخ بما كان، ولا الوحي بما يكون بأن الله تعالى خص أحدا من عباده -ليس النبيين - بما خص به الأمير السيد يمين الدولة، وأمين الملة، ودون الجاحد إن جحد أخبار الدولة العباسية، والمدة المروانية والسنين الحربية، والبيعة الهاشمية، والأيام الأموية، والأمارة العدوية، والخلافة التيمية، وعهد الرسالة وزمان الفترة، ولولا الإطالة لعددنا إلى عاد وثمود بطنا بطنا وإلى نوح وآدم قرنا قرنا".

---

(١) تراجع رسالة البديع الثانية: ١١ إلى أبي العباس الفضل بن أحمد الإسفراييني وزير محمود الغزنوي، وهي - على إيجازها - وثيقة تاريخية تكشف عن التحام الوزير بالحرب مع خصومه، وتراجع رسالة البديع الخامسة، ص ١٦ - ١٩ وهي وثيقة سياسية وعسكرية مهمة تؤرخ لسير المعارك بين الغزنويين والسامانيين. وانتصار جيوش السلطان محمود الغزنوي عليهم بباب (سرخس)، وتراجع الرسالة السادسة: ص١٩ - ٢١ إلى الوزير الإسفراييني أيضا وهي تصور هزائم السامانية بباب (مرو) بأسلوب ساخر بليغ، وتراجع أيضا رسالة البديع السابعة: ص٢١ - ٢٦ وهي تصور أيضا فتح (بهاضية) وهي رسالة مهمة تؤرخ فتوح السلطان محمود الغزنوي في بلاد الهند، وفيها وصف رائع للبلاد المفتوحة، ووصف الجيش وسلاحه وعتاده وذخيرته ... وغيرها من الرسائل الأخرى..

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني (رسالة رقم ٧): ٢١ - ٢٢، وبهاضية مدينة من أعمال الهند، وراء المولتان، حصينة، يحيط بها خندق عميق يصعب منالها (ينظر: معجم البلدان: مادة بهاضية).

ثـم انتقل الكاتـب إلى توثيق ما سطره السلطان محمود الغزنوي من بطولات خلال فتوح بلاد الهند، ولا سيما فتح بهاضية، إذ قال[١]: "ثم لم تجد قائل مقالا أن ملكا - وإن علا أمره، وعظم قدره، وكبر سلطانه، وهبت ريحه - طرق الهند، فاسر طاغيتها بسطة ملك ثم خلاه، وعرض الأرض قوة قلب، وصبح سجستان ... فأخذ ملكها أخذة عز وعنف، ثم خلاه تخلية فضل ولطف، ثم لم يلبث أن خاض البحر إلى بهاضية، والسيل والليل جنودها، والشوك والشجر سلاحها، والصح والريح طريقها، والبر والبحر حصارها، والجن والأنس أنصارها، فقتل رجالها، وغنم أموالها، وساق أقيالها، وكسر أصنامها، وهدم أعلاقها، كل ذلك في فسحة شتوة قبل أن يتطرقها الصيف، توسطها السيف، وهو الله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء...".

وهكذا ألم بديع الزمان الهمذاني في هذه (الوثيقة التاريخية السياسية) الخطيرة التي اتصلت اتصالا وثيقاً بأخبار الإمارة الغزنوية في أواخر هذا القرن، ولا سيما ما يتعلق بفتوح السلطان محمود الغزنوي، وانتصاراته الباهرة، التي أشاد بها كثيرا المؤرخون القدامى، في بلاد السند والهند، ألم الكاتب بتسجيل كثير من المشاهد والغرائب في تلك البقاع النائية، فضلا عما انطوت عليه من تسجيل بعض طباع أهل الهند وطقوسهم الدينية، ووصف تلك الربوع الغريبة النائية..

أما الإشارة إلى أعلام التاريخ ورموزه وشخصياته المشهورة، فقد شاعت كثيرا في مكاتبات هذا القرن شيوعا يبعث على الإعجاب والتأمل، وهذا مظهر آخر يدلل على سعة ثقافة كتاب الرسائل في هذا القرن، واتساع خزينهم العلمي والثقافي، وبراعتهم الفائقة في توظيف ذلك وتطويعه في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية والإخوانية[٢]:

(١) المصدر نفسه: ٢٢ - ٢٣.

(٢) تراجع مثلا رسالة الخوارزمي إلى رئيس سمرقند (وهي الرسالة رقم ٩٨، ص١٧٢ من رسائله)، حيث أفاض الكاتب في ذكر لصوص العرب وذؤبانها، ثم أردف ذلك بنشر لباب ثقافته الإسلامية، فضمن رسالته ذكر شخصيتين إسلاميتين هما جعفر الطيار وعثمان بن عفان (رضي)، وتكثر هذه الإشارات في رسائل الهمذاني: ينظر اليتيمة: ٣١٥/٤؛ إذ أشار إلى شخصية (قارون)، وشخصية (المأمون)، وينظر اليتيمة: ٣٢١/٤ وإشارته إلى شخصية (يحيى البرمكي)، واليتيمة: ٤/ ٤١٧ وإشارته إلى كثير من أعلام الوزراء وغيرهم على عهد الدولة العباسية إبان القرنين الثاني والثالث للهجرة.

فأبو الفضل الميكالي يوظف في فصل له من رسالة في الاعتذار وشكوى الحال، توبة سحرة فرعون، وتوبة النابغة الذبياني كوشيجة مناسبة لتكثيف الفكرة التي يعرضها، فيقول[١]: "لست أدري سبب عتبك فأتوب إليك توبة سحرة فرعون، وأخلص واعتذر إليك اعتذار النابغة إلى النعمان...".

ومن تلك الإشارات البارعة إلى بعض الرموز التاريخية في رسائلهم الأدبية أيضا ما وظفه الأمير أبو الفضل الميكالي في إحدى رسائله الطريفة في باب الشكر والثناء[٢]: "ذاك سلطان فضل هو عرابة رأيته، وميدان سباق وهو عكاشة عنايته "[٣].

ولعل أكثر وضوحا من هذه الإشارات الدقيقة، ما وظفه الهمذاني في إحدى رسائله، إذ أشار إلى شخصية (أبي موسى الأشعري)، فقال[٤]: "... فأنا اليوم حتى ينتصف المظلوم، سكن أبو موسى الأشعري المقابر فقال: أجاور قوما لا يغدرون، فقيل له: مهلا يا أبا موسى، إنما لا يغدرون لأنهم لا يقدرون".

ولعل أوعب رسالة في هذا القرن تضمنت الإشارة إلى تلك الشخصيات والرموز التاريخية والأعلام المشهورة، ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي التي كتبها إلى كاتب صاحب ديوان الجيش، ومما ورد فيها[٥]: "... وكيف تساعدني بناني على ما يخالفني فيه جناني، وكيف يطيعني بعضي فيما يعصيني فيه كلي، ولو كنت أحمد بن يوسف في البلاغة، وعبد الحميد بن يحيى في اتساع الكتابة، وجعفر بن يحيى في الاختصار، وأبا الربيع في التوسع والاكثار، وأبا العيناء في العارضة، وأبا العتاهية في البديهة، وابن المعتز في التشبيهات، وأبا نواس في الخمريات والطرديات، والعتابي وصريع الغواني في الاستعارات والفرزدق في الفخريات، وجريرا في المهاجاة وغلبت

(١) يتيمة الدهر: ٤/٤١٨.

(٢) يتيمة الدهر: ٤/٤١٧.

(٣) أشار الميكالي إلى عرابة الأوسي الذي مدحه الشاعر المخضرم الشّماخ بن ضرار بقوله:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

ثم أشار إلى الصحابي الجليل عكاشة بن محصن الذي قال فيه الرسول الأمين (صلى الله عليه وسلم): (سبقك بها عكاشة). ولعل ذكر هذه الأعلام والإشارة إليها مظهر واضح على عمق ثقافة الكاتب في هذا القرن وسعة إطلاعه على دقائق الأحداث في التاريخ الإسلامي وما سبقه أيضا.

(٤) يتيمة الدهر: ٤/٣٢٢.

(٥) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٢٢ - ٢٢٦.

في المخاطبة صعصعة ابن صوحان، وقمعت في الفصاحة خالد بن صفوان، ونطقت بيتيمة ابن المقفع مرتجلا، ... وضرب بي المثل في المقامات لا بسحبان، وبوهي به في العِيّ عندي لا باقل، وحفظت حفظ الشعبي وحاضرت محاضرة ابن القرية النمري، وأبدعت إبداع أبي تمام الطائي ووعظت عظة الحسن البصري، وجادلت جدل النظام في الكلام، وصنفت تصنيف الجاحظ في الجد والهزل، وأربيت على إياس بن معاوية في الذهن والعقل، وبهرجتُ الأصمعي رواية، وزيفت أبا عبيدة حفظا ودراية، وعلمت أمير المؤمنين - عليه السلام - الحلال والحرام، ولقنت شريحا القضاء والاحكام... لقصر عن ذلك عناني، ولارتبك فيه عقلي وبياني..."[1].

(١) أحمد بن يوسف: كان كاتب ديوان الرسائل في عهد المأمون، ويكنى أبو جعفر ويلقب بالكاتب، وكان فصيح اللسان بليغا، يقول الشعر في الغزل والمديح والهجاء، وله أخبار مع أبي العتاهية وإبراهيم بن المهدي، وغيرهما، توفي عام ٢١٣هـ، تراجع ترجمته في: تاريخ بغداد (٢٦٩٢)، الاغاني: ٢٠/٥٦ - ٥٨.

عبد الحميد بن يحيى: كاتب مروان بن محمد، يضرب المثل ببلاغته، فارسي الأصل قتل عام ١٣٢هـ، ينظر: تاريخ بروكلمان: ١/٢٦١ - ٢٦٢، مقدمة نقد النثر، د. طه حسين، النثر الفني: ١/ ٦٠ وغيرها كثير، رسالة ماجستير (عبد الحميد الكاتب حياته وأدبه، مريم التميمي، جامعة الكوفة ١٩٩٨م).

جعفر بن يحيى: بن خالد البرمكي، من كبار البرامكة الذين قتلهم الرشيد، وصفه الجاحظ بالبلاغة، وذكر أنه أنطق الناس، وشهر ببلاغة توقيعاته وإيجازها، وينظر البيان والتبيين: ١/١٠٥.

صعصعة بن صوحان: من خطباء عبد القيس، شهد صفين مع الإمام علي (عليه السلام) وكان فصيحا، توفي في الكوفة في خلافة معاوية. ينظر: الإصابة (رقم ٤١٢٥)، الاشتقاق، لابن دريد: ١٩٩، فهرس البيان والتبيين.

خالد بن صفوان: بن عبد الله بن الاهتم، من أعلام الخطابة في العصر الأموي، وسامر أبا العباس، وكان مطلاقا، ينظر: البيان والتبيين، ج١ في مواضع متفرقة، المعارف، ابن قتيبة، ١٧٧.

الشعبي: هو عامر بن عبد الله بن شراحيل الشعبي الحميري، نسب إلى (شعب) بطن من همدان كان واسع الحفظ، استقضاه عمر بن عبد العزيز، ولد بالكوفة عام ١٩هـ وتوفي عام ١٠٣هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ ١/٧٤ - ٨٢، تهذيب التهذيب: ٥/٦٥ فهرس البيان والتبيين، ج٤.

ابن القرية: هو أبو سليمان أيوب بن زيد، كان أعرابيا أميا، معدوداً في الخطباء المشهورين قتله الحجاج في فتنة ابن الأشعث عام ٨٤هـ، والقرية اسم لإحدى جداته، وفيات الاعيان، المعارف، ص٢٥٨، الاغاني: ١/١٦٣.

النظام: هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام البصري، استاذ الجاحظ، واحد شيوخ المعتزلة، وإليه تنسب الفرقة النظامية، توفي في عهد المعتصم عام ٢٢٠هـ. ينظر: الملل والنحل =

وهكذا يلاحظ في هذه الرسالة الطريفة طول الفصل بين جملة الشرط بعد الأداة (لو)، وبين جملة الجواب (لقصر عن ذلك عناني)، وهذا شاهد بليغ على قدرة أبي بكر الخوارزمي في صناعة الترسل، وبلاغته، وطول نفسه، وتدفق موارده، وسعة أفقه، ونضج ثقافته، وعمق تجربته في صناعة الترسل..

للشهرستاني: ١٧/١، الفرق بين الفرق للبغدادي: ١١٣.

إياس بن معاوية: هو من مزينة مضر، تولى قضاء البصرة في عهد عمر بن عبد العزيز توفي عام ١٢٢هـ. ينظر: المعارف: ٢٠٥، تهذيب التهذيب: ٣٩/١، الأنساب للسمعاني.

أبو عبيدة: هو معمر بن المثنى، ولد عام ١١٠هـ/٧٢٨م في البصرة لأبوين رقيقين من يهود فارس، وكان مولى لتيم قريش، أخذ عن ابن العلاء وابن حبيب، لحق بالصفرية من الخوارج، وألف في مثالب العرب على مذهب الشعوبية، توفي عام ٢٠٧ وقد ناهز التسعين. ينظر: المعارف: ٢٦٨، نزهة الألباء لابن الأنباري: ١٣٧ - ١٥٠، تاريخ بروكلمان: ١٤٢/٢.

شريح القاضي: هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندي الكوفي القاضي، استقضاه عمر على الكوفة وكذا الإمام علي (عليه السلام)، وولاه زياد قضاء البصرة، توفي عام ٧٢هـ. ينظر: الإصابة (رقم ٣٨٧٥)، المعارف: ١٩١، صفة الصفوة: ٢٠/٣.

المبحث الثاني

مصادر الثقافة الأجنبية وأثرها في الرسائل الأدبية في القرن الرابع الهجري

سبقت الإشارة إلى أن كثيراً من الأدباء وكتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، كانوا ينهلون في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية أقباساً مضيئة من معارف وثقافات الأجناس والشعوب الأجنبية التي اطلعوا عليها، بعد تعريبها أو ترجمتها إلى العربية، وفي مقدمتهم اليونان والفرس والهنود، فضلا عما تلقفوه عن بعض الأجناس الأعجمية أو السريان وغيرهم ممن اختلطوا بهم، أو تمازجوا معهم وقد كان في طليعة تلك المعارف والعلوم التي قبسوها الفلسفة والمنطق، وغيرهما من علوم الحكمة كالطب والفلك والأخلاق والرياضيات وغيرها كقواعد النقد وأصول البلاغة والخطابة وما إليها..

لقد كانت هذه المعارف والعلوم المتنوعة التي قبسها الأدباء الكتاب وغيرهم عن تلك الشعوب والأجناس الأعجمية، والتي انبثت في ترسلهم وفي مكاتباتهم الأدبية، تشكل رافدا ثرا ومهما للثقافة الإسلامية في هذا القرن، إذ إنها عملت على نضج النتاج الأدبي والعلمي وعمقه وإثرائه، وهذا ما تجلى واضحا في رسائل أعلام الكتاب، وفي مقدمتهم أبو الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد وأبو حيان التوحيدي، وابن مسكويه والأمير قابوس وسواهم من المترسلين المشهورين ...

أولا: منابع الثقافة اليونانية وأصولها:

مر بنا في مدخل هذا البحث، أن أبرز ما ميز الحياة العقلية إبان هذا القرن هو الإطلال الواسع والاستشراف العميق على معارف وثقافات الأمم والأجناس الأجنبية من خلال الاختلاط والتمازج بين تلك الأمم والشعوب المختلفة مع غيرهم من فئات المجتمع الإسلامي في هذا العصر.

ومرَّ بنا أيضا، أنه كان لازدهار حركة الترجمة وتواصلها في هذا القرن، وعكوف بعض العلماء والفلاسفة، إلى جانب التراجمة السريان، على تعريب كثير من العلوم والمعارف الأجنبية، فضلا عن إعادة ترجمة كثير مما سبق ترجمته في العصر العباسي الأول، كان لذلك كله أثره الفاعل في ازدهار الحياة الثقافية والأدبية في هذا القرن.

وقد كان لتطور الفكر الفلسفي الإسلامي، وظهور فلاسفة متميزين كأبي بكر الرازي (ت٣٢٠هـ)، وأبي نصر الفارابي (ت٣٣٩هـ)، وصولا إلى أبي علي بن سينا (ت

٤٢٩هـ)، وما عُرفوا به من نشاط دائب في وضع أسس الفكر الفلسفي الإسلامي، وما اعتمدوا عليه من الاغتراف من ثقافات ومعارف الأمم والشعوب الأجنبية - ولا سيما الثقافة والمعارف اليونانية - كان لذلك أيضا تأثيره الكبير في نضج الحياة العقلية، واتساع دائرة الثقافة، وما تبع ذلك من ازدهار الحياة الأدبية، ولا سيما صناعة الترسل والمكاتبات الأدبية.

لقد أصبحت تلك العلوم والمعارف الأجنبية المترجمة - والتي تمثلت بالفلسفة والمنطق وعلوم الحكمة الأخرى - ذخيرة مهمة، إلى جانب الثقافة العربية الإسلامية، بين أيدي الأدباء والكتاب وغيرهم في هذا القرن، فراحوا يستقون من فيضها الزاخر في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية، وكان لا بد أن ينعكس تأثير ذلك كله على نمط تفكيرهم، ومحتوى أدبهم، وألوان أساليبهم.

وقد رصد الأستاذ الدكتور طه حسين طريقة أولئك الأدباء الكتاب - الذين تأثروا بالثقافة اليونانية - في النثر الفني في هذا العصر فقال[1]: "فأما أصحاب الفلسفة اليونانية، والمتصلون بهذه الثقافة الغريبة، فهم أصحاب تفكير وعناية بالمعاني، وبترتيب الكلام ترتيبا منطقيا، أما المتصلون بالثقافة الفارسية فهم أصحاب سجع وأصحاب بديع، ولذلك نلاحظ أن رجلا كأبي حيان التوحيدي، كان من تلاميذ الجاحظ، وأشد الناس تأثرا باليونان، لا يلتفت إلى البديع، ولا يعنى بالسجع ... بينما ابن العميد والصاحب بن عباد، ومن إليهما، كانوا يلمون بالثقافة اليونانية، وكانوا حراصاً على الثقافة الفارسية فكانوا أصحاب بديع وسجع".

وهكذا تميزت أساليب الأدباء الكتاب الذين عرفوا بسعة الثقافة، والإلمام بتلك المعارف والثقافة اليونانية الجديدة، تميزت أساليبهم: بعمق المعاني، ودقة الأفكار، وتنظيمها تنظيما يقوم على المنطق، فضلا عن تناولهم موضوعات علمية وفلسفية عميقة، وإخضاعها لمعايير الأسلوب الأدبي، وهذا ما تمثل بوضوح في ترسل ومكاتبات عدد من الأدباء الكتاب في هذا القرن، لعل في طليعتهم أبا الفضل ابن العميد، وأبا حيان التوحيدي، والصاحب بن عباد، وأبا علي بن مسكويه، والأمير قابوس بن وشمكير، وأبا الفرج بن هندو، وإضرابهم من الكتاب في هذا القرن.

لقد عالج بعض هؤلاء الأدباء الكتاب في هذا القرن مسائل أخلاقية ونفسية

---

(١) من حديث الشعر والنثر: ٧٩.

دقيقة[١]، ونزعات مثالية، كانت تمثل في حقيقتها جزءا من التفكير الفلسفي المثالي عند الإغريق، وبخاصة فلسفة أفلاطون ومدرسته، وهذا ما انعكس فيما تناوله بعض المفكرين والأدباء في فلسفة (النفس)، وتحليل جوانبها المختلفة، وما بحثوه في تحليل (العقل)، وما يتعلق بقيمته بالنسبة للحواس، فضلا عما قاموا به من بحث وتحليل أو (موازنة) بين عنصرين مختلفين، كالموازنة، مثلا، بين (المادة والروح)، أو (البدن والنفس). وما إلى ذلك[٢].

أما ما تركته آثار الثقافة اليونانية من بصمات واضحة على أسلوب الترسل والمكاتبات الأدبية في هذا القرن، لا سيما من حيث البناء، والشكل، والصياغة فقد تجلت في مظاهر عديدة منها:

١. كثرة استخدام الألفاظ والتراكيب، والاصطلاحات الفلسفية والمنطقية، التي بدأت تشيع كثيرا في مصنفات ورسائل مشاهير المفكرين والأدباء الكتاب في هذا القرن..

وما من شك في أن اللغة إن هي إلا وعاء الفكر، ورجع النفس، وصدى الوجدان، ومن هنا كان لا بد لهؤلاء المفكرين والأدباء الكتاب من أن تزدحم في مصنفاتهم ورسائلهم مثل تلك الصيغ والمصطلحات العلمية أو الفلسفية والمنطقية وغيرها، كألفاظ: العرض والجوهر، والسنن والبدع والهيولي، والصورة والمادة، والكون، وغيرها.. وكمصطلحات: (الجزء الذي لا يتجزأ) و (النفس الشهويّة)، و(النفس البهيميّة)، و (النفس السبعية)، أو ما يعرف أحيانا (بالنفس الحيوانية)، وما إلى

(١) لعل أهم وأشهر من مثل هذا الجانب من المفكرين، والأدباء الكتاب في هذا القرن، أبو علي ابن مسكويه، وأبحاثه العميقة في فلسفة الأخلاق، وتحليل النفس، ونظراته الفلسفية في العقل وقيمته، وقد تجلى كثير من آرائه الدقيقة في هذه الأمور الفلسفية وغيرها في أجوبته المركزة عن أسئلة أبي حيان التوحيدي في (الهوامل والشوامل) وفي بعض مصنفاته الأخرى التي نشرت، وأشهرها كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق - ويقع في ست مقالات طوال، ويعالج علم الأخلاق - وكتاب (الفوز الأصغر) - ويتناول الإلهيات وطبيعة النفس وتحليلها - وكتاب (السعادة) أو ترتيب السعادة، وتراجع أيضا: (وصية مسكويه)، وقد رواها ياقوت في معجم الأدباء ١٧/٥ - ١٩، وهي بمثابة دستور ومَعْلم لمن يريد الولوج إلى الفلسفة. وينظر في تحليل فلسفة ابن مسكويه وآرائه: النثر الفني في القرن الرابع ١٨٤/٢ - ١٩١، معالم الحضارة الإسلامية - الدكتور مصطفى الشكعة، ص٢٠٤ وما بعدها.

(٢) تراجع التفاصيل في كتاب: ملامح النثر العباسي - الدكتور عمر الدقاق، ص٢٧١ وما بعدها.

ذلك من مصطلحات..

وقد شاع كثير من هذه الصيغ والتراكيب الفلسفية والاصطلاحات العلمية والمنطقية وغيرها في العديد من المصنفات المشهورة ككتاب (المقابسات) و (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي، وفي مصنفات، وترسل أبي علي ابن مسكويه، وأبي بكر الخوارزمي[١]، والصاحب بن عباد[٢]، وغيرهم من أعلام وجهابذة المترسلين في القرن الرابع.

٢. ذكر كثير من أسماء (الأعلام) من الفلاسفة والحكماء الإغريق، وإيراد بعض آرائهم الفلسفية، وأقوالهم المشهورة، وحكمهم البليغة السائرة:

ومن مظاهر اضطلاع الأدباء الكتاب في هذا القرن برموز الثقافة اليونانية كثرة ورود أسماء الأعلام من مشاهير الفلاسفة والحكماء الإغريق وغيرهم وإدراج بعض آرائهم أو أقوالهم المشهورة، وحكمهم المأثورة، في مصنفات أعلام الكتاب الذين شهروا بكثرة اطلاعهم على مفردات الثقافة اليونانية - كأبي حيان التوحيدي، وابن مسكويه وغيرهما - أو في رسائل ومكاتبات مشاهير الأدباء في هذا القرن أيضا، وفي مقدمتهم: أبو بكر الخوارزمي، والصاحب بن عباد، والأمير قابوس بن وشمكير، وبديع الزمان الهمذاني وأضرابهم من الكتاب.

ولعل أدق شاهد يوضح هذا الجانب، ما ساقه أبو حيان التوحيدي في الليلة (السابعة عشرة) من كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، إذ أورد أسماء عشرات الأعلام الإغريق من الفلاسفة والحكماء، والعلماء، مع عرض بعض آرائهم وأقوالهم وحكمهم.

---

(١) وردت في رسائل أبي بكر الخوارزمي كثير من تلك الاصطلاحات والصيغ الفلسفية والمنطقية، منها ما ورد في رسالته إلى أبي الحسن الطرحودي بدار طوس، إذ يقول ".. وكيف يسمح (بالجوهر) الحاصل من يبخل (بالعرض) الحائل، وكيف يتوسع في (النافلة) من تضايق (بالفريضة) ... " رسائل الخوارزمي، ص٢٧. ويقول الخوارزمي أيضا في فصل من رسالة له إلى أحد تلاميذه فوض إليه أشغاله:".. ولا يعلمون، أني انما اذكر بقيعة طولها باع، وعرضها ذراع، أعني باع البقة، وذراع الذرة، وأقل من لا، وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ.. " رسائل أبي بكر الخوارزمي، ص٢٠.

(٢) وردت كثير من تلك الألفاظ والمصطلحات الفقهية والدينية والفلسفية في فصول عديدة من (الباب الثاني) الموسوم: (في العهود) ينظر مجموع رسائل الصاحب بن عباد، ص٣٤ - ٥٨.

ومما ورد في تضاعيف هذه الليلة المذكورة قوله(١):

"... قيل (لديوجانس): أيهما أولى: طلب الغنى، أم طلب الحكمة؟ فقال: للدنيا الغنى، وللآخرة الحكمة، وقيل له: متى تطيب الدنيا؟ قال: إذا تفلسف ملوكها، وملك فلاسفتها ... وولي (أريوس) ولاية فقال له أصدقاؤه: الآن يظهر فضلك. فقال: ليست الولاية تظهر الرجل، بل الرجل يظهر الولاية، وقال (ديوجانس): الدنيا سوق المسافر، فليس ينبغي للعاقل أن يشتري منها شيئا فوق الكفاف، وقيل (لأرسطفانس): من صديقك؟ قال: الذي إذا صرت إليه في حاجة وجدته أشد مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها، وقال (إفلاطون): "إن للنفس لذتين: لذة لها مجردة من الجسد، ولذة مشاركة للجسد، فأما التي تنفرد بها النفس، فهي العلم والحكمة، وأما التي تشارك فيها البدن فالطعام والشراب وغير ذلك. وقيل (لسقراط): كيف ينبغي أن تكون الدنيا عندنا؟ قال: لا تستقبلوها بتمن لها، ولا تتبعوها بتأسف عليها، فلا ذلك مجد عليكم، ولا هذا راجع إليكم...".

وهكذا يستمر أبو حيان التوحيدي ينقل عن فلاسفة اليونان وحكمائهم ...

وقد صنف بعض المفكرين أو الأدباء الكتاب في هذا القرن كتابا قصرهُ على هذا الجانب، فراح يسوق في مصنفه ما لفلاسفة اليونان وحكمائهم من أقوال سديدة مأثورة أو حكم بليغة مشهورة(٢).

الثقافة اليونانية وأصداؤها على الفكر والنثر الفني:

لقد كان لجهود أبي نصر الفارابي (٣٣٩هـ) - الذي مزج في أبحاثه الفلسفية،

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣١/٢ وما بعدها.

(٢) من تلك الكتب المصنفة: كتاب (الكلم الروحانية من الحكم اليونانية) للأديب الكاتب أبي الفرج ابن هندو، وقد التقط فيه حكم اليونان، وكلمات الفلاسفة ما يجري مع الأمثال السوائر، ويدخل في النوادر، وقد اشتمل الكتاب، أولا على حكم (إفلاطون) - وقد استغرقت نحو نصف الكتاب - ثم أتبعها بأرسطا طاليس ثم سقراط، ثم بمحاورات جرت بين (اريجانس) وسقراط، ثم حكم لأميروس فالإسكندر فباسيليوس، ففيثاغورس فبقراط فجالينوس، إلى غيرهم من الفلاسفة..

ولأبي علي بن مسكويه كتاب (جاويذان خرد) جمع فيه أيضا حكم الأمم الأربعة الكبيرة وهم الفرس والهند والعرب والروم، وهذا الكتاب يبحث في الأخلاق العملية، ويدل على اطلاع واسع على تراث الأمم القديمة، ينظر: معالم الحضارة الإسلامية، ص٢٠٥، كنوز الأجداد، ص ٢١٧.

فلسفة أرسطو بآراء الإفلاطونية الجديدة، على الرغم من اختلاط آرائه بأفكار صوفية عميقة - أعظم الأثر في النهضة العلمية، وازدهار حركة التأليف والترجمة في هذا القرن.

وقد تبلورت جهود الفارابي في تطوير الفكر الفلسفي الإسلامي، بما أسداه بعض تلاميذه، الذين تخرجوا عليه، وفي طليعتهم أبو زكريا يحيى بن عدي ومن شايعه من تلاميذه، ومنهم ابن الخمار، وأبو سليمان المنطقي وغيرهم بما قاموا بترجمته من العلوم والمعارف اليونانية، ولا سيما فيما يتصل بالفلسفة والمنطق، وعلوم الحكمة الأخرى ...

ولم تقتصر جهودهم على ذلك فحسب، وإنما طفقت بوادر جديدة تلوح في مجالس أبي سليمان المنطقي وأتباعه تعلي شأن الفلسفة الافلاطونية الجديدة، ومن جانب آخر، فقد كان نصرة هذا الاتجاه الفكري الجديد هدف طائفة من المفكرين المسلمين، وهي التي عرفت بجماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وقد ظهرت في حاضرة البصرة في حدود منتصف القرن الرابع، وقد كان لرسائل هذه الجماعة تأثير كبير وخطير في أوساط المجتمع الإسلامي[١].

لقد كشف التوحيدي جانبا مهما من آراء هذه الجماعة، وغايتها، ويتضح مما ساقه من آرائهم أنهم كانوا متأثرين بالفلسفة اليونانية، وكانوا مندفعين في الإعلان لها، وقد أشار إلى أن هذه الجماعة ترى أنّ (الشريعة قد دنّست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية، وقد زعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال...)[٢].

---

(١) تراجع التفاصيل عن رسائل إخوان الصفا في: أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي: ٥٨ - ٦٢. وقد ذكر القفطي أن عددها إحدى وخمسون مقالة، ووصفها بأنها (مقالات مشوقات غير مستقاة، ولا ظاهرة الأدلة والاحتجاج، وكأنها للتنبيه والإيماء إلى المقصود الذي يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة) ويراجع رأي التوحيدي بهذه الطائفة، وما نقله من رأي استاذه أبي سليمان المنطقي فيهم: (الإمتاع والمؤانسة ٢/٤ وما بعدها)، ويراجع أيضا: تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ١٥٢/٤ وما بعدها، وينظر أيضا تحليل بعض رسائلهم في كتاب (رسائل فلسفية)، ص٦١ - ١٢٣.

(٢) الإمتاع والمؤانسة (الليلة السابعة عشرة) ٢/٤ وما بعدها.

وما من شك في أن هذه الجماعة قد غلبت أفكاراً غريبة طارئة (أفكارا وافدة)، جعلتها أصلا من أصول تفكيرها، ومن هنا فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن " نزعتهم الفلسفية نزعة قدماء مترجمي الحكمة اليونانية والفارسية والهندية... "(١)، في حين وصم باحث آخر(٢) أفكارهم، وما حوته رسائلهم بأنها خليط غير متجانس لنزعات متناقضة، فذهب إلى القول: "إن بوسعه القول إنهم كانوا علويين إسماعيليين ومعتزلة وفيثاغوريين وأفلوطينيين ومجوسا، لأن لكل هذه النزعات أثرا بارزا في رسائلهم..."(٣).

وقديما وصف التوحيدي أفكارهم ورسائلهم بأنها: (مبثوثة من كل فن نتفا بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها(٤).

ولعل هذا القول يدفع عن أبي حيان تهمة تحمسه لهذه الجماعة، وتأييده لأفكارها، أو احتمال انتمائه - دون أن ينوه أو يصرح بذلك - إليها(٥).

وهكذا بدأت تسري في الأوساط الأدبية والعلمية، وفي المجالس والمنتديات كثير من تلك المعارف والآراء، وبدأ كثير من الأدباء والكتاب يتلقفون ما يتلاءم منها مع آرائهم وأذواقهم ومعتقداتهم، وقد كان كتاب الرسائل في هذا القرن من بين أبرز شرائح المجتمع الإسلامي الذين تأثروا بتلك الأفكار والآراء لما اضطلعوا به من ثقافات كثيرة ومتنوعة..

لقد كان كثير من كتاب هذا القرن واسع الثقافة، غزير المعارف، يجمع إلى إحاطته بالعربية وعلومها وآدابها، الإطلاع على منابع الثقافات الأجنبية.

فأبو الفضل ابن العميد، مثلا، كان - كما أشار الدكتور مبارك(٦) وباتفاق من ترجموا له كان أحفظهم للغة والغريب، وأكثرهم توسعا في النحو والعروض وغير ذلك

---

(١) تراجع التفاصيل في: دائرة المعارف الإسلامية: (مادة: إخوان الصفا).

(٢) كتاب: إخوان الصفا - د. جبور عبد النور: ٢٤٠.

(٣) المرجع نفسه: ٢٤٠.

(٤) الإمتاع والمؤانسة: ٥/٢.

(٥) ينظر ما ذهب إليه الدكتور مبارك - النثر الفني في القرن الرابع ١٧٤/٢ - ١٧٥ مصطفى الشكعة، معالم الحضارة الإسلامية: ١٧٤.

(٦) النثر الفني في القرن الرابع: ٢٣٥/٢.

من علوم العربية، وكان إلى ذلك كله أنفذهم سهما في الهندسة والمنطق وعلوم النفس والإلهيات.

ولعل أبا الطيب المتنبي كان على حق حين شبهه (بارسطاطاليس) في علمه وحكمته، (والإسكندر) في شجاعته وجلده، (وبطليموس) في طبه ودرايته، إذ قال في مدحه من قصيدة مشهورة[1]: (من الكامل)

من مبلغ الأعراب أني بعدها ... شاهدت رسطاليس والإسكندرا
ومللت نحر عشارها فأضافني ... من ينحر البدر النضار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما ... رد الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما ... وأتى، فذلك إذ أتيت مؤخرا

وانطلاقا من هذا، فقد انتشرت في رسائل أبي الفضل ومحاوراته كثير من تلك الشذرات النفيسة التي تفصح عن إحاطة الكاتب بالكثير من تلك المعارف وألوان العلوم والثقافات التي راجت بين أوساط الكتاب الذين كانوا بحاجة إلى الإلمام بمنابع هذه المعارف والعلوم..

ففي رسالة لأبي الفضل ابن العميد إلى أبي العلاء السروي، يشير فيها إلى شهر رمضان، وفريضة الصيام، وما يعانيه من وطأة هذا الشهر! وردت إشارات تدلل على اضطلاع الكاتب بعلم الفلك والتنجيم، ومعرفة حركة الكواكب، فقد أشار في هذه الرسالة إلى الأفلاك والبروج، والقمر ودورته، وسيره وحركته، ومسافة فلكه ودائرته، ومنازله، وأقسامه[2].

وفي رسالة أخرى إلى الأمير عضد الدولة البويهي يضمن ابن العميد ويحل بعض حكم فلاسفة اليونان والهنود، ويوظفها في رسالته، ويحلها في ثنايا معانيه، ثم أشار إلى فكرة تسلط الملك (الجاهل)، الذي تطول مدته، وتتسع قدرته وأوضار ذلك على العلوم واجتثاثها، ليبلغ ما يريد إثباته للأمير عضد الدولة، من وجوب الثناء عليه،

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي: ٢/١٥٢ - ١٥٣ ومطلع القصيدة:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا ... وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

وينظر أيضا بعض أبيات القصيدة في زهر الآداب وثمر الألباب ١/١٨٨ مع اختلاف طفيف في بعض مفردات النص.

(٢) تراجع الرسالة في يتيمة الدهر: ٣/١٩٠ - ١٩٢.

لما يسديه للعلم والعلماء من تشجيع ورعاية.

يقول في ثنايا هذه الرسالة، التي جمعت إلى نفاسة المعنى براعة اللفظ بعد أن أشار إلى ما يسبب اخترام العلوم[١]:

" وليس عندي الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته، وتتسع قدرته، فإن البلاء به لا يعدله بلاء، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته، والبلوى بمن هذه صورته، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل، كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها، ومجتمع فرقها...".

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى ما تأثر به أبو الفضل ابن العميد، عند موازنته بين الملك الجاهل المتسلط، والملك العالم العادل، بما تلقّفهُ عن فلاسفة اليونان في عقد (الموازنة) بين عنصرين مختلفين أو شيئين متباينين كموازنتهم مثلا بين (الهيولي) - المادة - والروح، أو العرض والجوهر، كما سبق أن أشرنا في مستهل هذا المبحث.

وفي رسالة أبي الفضل ابن العميد المشهورة التي كتبها إلى (ابن بلكا)[٢] عند استعصائه على الأمير ركن الدولة البويهي، استلهام واضح مما طرحه الفيلسوف (أفلاطون) من خلال فلسفته المثالية، وهو ما بثه في كتابه (الجمهورية)[٣] وفي كتابه الآخر (القوانين) أيضا، من وجوب الطاعة المطلقة (لحماة القانون) ورفضه لأي شيء - بما في ذلك الفن الأصيل الذي يدعو إلى التجديد أو الخروج على القيم الموروثة - يعمل على تغيير الواقع، وفق منظور يتطلع إلى المستقبل.

لقد أراد أبو الفضل ابن العميد لهذا القائد الذي خرج على القانون، وعلى أمر أسياده، الرضوخ إلى طاعتهم، كما أراد (أفلاطون) للأدب والفن أن يكونا مستعدين ليضعا نفسيهما في خدمة (أقوياء هذا العالم)، ذلك أن (افلاطون) قبل فنا (تكريسيا) يدير ظهره للمستقبل، ويصر على التمسك بالقيم الموروثة ...

وهكذا يتضح من خلال بعض فصول رسائل أبي الفضل ابن العميد، أنه كان يلم بالثقافة اليونانية إلماما واضحا، وقد أكد ذلك الأستاذ طه حسين، إذ أشار كذلك إلى

---

(١) المصدر نفسه: ١٩٥/٣ - ١٩٦.

(٢) تراجع فصول هذه الرسالة المشهورة في يتيمة الدهر: ١٩٣/٣ - ١٩٤.

(٣) يراجع كتاب جمهورية أفلاطون - ترجمة: حنا خباز (طبعة دار القلم بيروت ١٩٨٠ الطبعة الثانية).

حرصه على الثقافة الفارسية، ثم وضح أثر هاتين الثقافتين على أسلوبه أو طريقته الخاصة في الترسل، إذ قال[١]: "... ومن هنا فقد جمع في ترسله بين التفكير والعناية بالمعاني وبترتيب الكلام ترتيبا منطقيا، مع العناية بالسجع وألوان البديع".

أما كافي الكفاة الصاحب ابن عباد، فقد أتقن العربية إتقانا كبيرا، وفقه أسرارها وخصائصها فقها جيدا، وكان إلى ذلك يجمع - بشهادة أبي بكر الخوارزمي[٢]، إتقان الفارسية وآدابها، وقد انعكس آثار ذلك كله في أدبه وترسله، كما ألم أيضا بشذرات أو جوانب مهمة من الثقافة اليونانية - لكونه كان معتزليا - ولا سيما ما يتعلق بالفلسفة والمنطق والطب وما إليها ...

ويستوقفنا في أدب الصاحب - رسالة أدبية طريفة وقيمة في صناعة الطب تنبئ عن عمق معرفته بلطائف هذه الصناعة، ومدى تبحره بدقائقها وشواردها حتى أن أبا منصور الثعالبي ذكر أنه سمع أبا جعفر الطبري، الطبيب المعروف بالبلاذري يقول: "إن للصاحب رسالة في الطب، لو علمها ابن قره، وابن زكرياء لما زادا عليها! "[٣].

إن أهمية هذه الرسالة الأدبية (الطبية) تكمن في أمرين:

(**الأول**): إن هذه الرسالة تكشف عن مدى إفادة كبار الأدباء في هذا القرن ومنهم الصاحب، من هذا الموروث العلمي الذي بدأ ينتشر ويشيع في هذا العصر نتيجة لاستمرار نقل العلوم والمعارف المختلفة، وتواصل ترجمتها إلى العربية وممارستها في الحياة العملية، ولعل صناعة الطب أكثر خطرا وأهمية من العلوم والصناعات الأخرى في هذا الجانب.

(الثاني): اطلاع أدباء هذا القرن - ومنهم الصاحب - على أصول هذه الصناعة ورجوعهم إلى حكماء اليونان الرواد، والاستشهاد بآرائهم الطبية، والاقتداء بنصائحهم المعرفية.

وهذا أدق شاهد على استلهام أصول تلك الثقافات الأجنبية وتوظيفها في

---

(١) من حديث الشعر والنثر: ٧٩.

(٢) ورد في رسالة الخوارزمي إلى الوزير الصاحب، لما ورد باب جرجان، لقتال الأمير قابوس يقول فيها: "وإذا كان الوزير وهو أستاذ فارس الميدانين وسابق الرهانين وكانت يده تجيل قدحي الشجاعة والكرم، وتجمع بين السيف والقلم، وتحذق آداب العرب والعجم.. " رسائل الخوارزمي: ٧٧.

(٣) يتيمة الدهر: ٣/٢٣٧.

ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية، والاهتداء بمعالمها في حياتهم اليومية.

لقد جمعت هذه الرسالة الأدبية، إلى قيمتها العملية والعلمية في أصول هذه الصناعة، جمعت أيضا البراعة في الإنشاء، والفن في التعبير الأدبي، فهي كما أشار الثعالبي[(١)]:

" تجمع إلى ملاحة البلاغة، ورشاقة العبارة، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه، وتدل على التبحر في علمه، وقوة المعرفة بدقائقه...".

يقول الصاحب بن عباد في تضاعيف هذه الرسالة القيمة، وقد كتبها إلى (الأستاذ الرئيس) أبي العباس الضبي، مشيرا إلى مشاهير حكماء الطب عند اليونان[(٢)]:

" ... ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المدة بما يقوى منها ويزيل العارض المكتسب عنها، كما يقول الفاضل جالينوس: قدم علاج الأهم ثم عُدْ وأصلح ما أفسدت ... فأما هذه التي تعتاد عقيب الحمى [يعني الرعشة التي تلازم المريض] فهي على ما قال جالينوس من أن حدوثها يكون إذا شاركت العروق التي تحدث فيها علة العصب، وتزول عنه بزوال الفضل...".

ثم يقول في ختام هذه الرسالة مشيرا إلى آراء الحكيم جالينوس وبقراط[(٣)]:

"... وجالينوس يشرط في العلاجات أجمع استحفاظ القوى، لأن الذي يفعله الضعف لا يتداركه أمر، إلا أن ذلك بإزاء ما قال الحكيم الأول بقراط في البدن السقيم: إنك متى ما زدته غذاء زدته شرا، وهو في نفسه يقول: إن الحمية التي في غاية الدقة ليست بمحمودة، فالطرفان من الإسراف والإجحاف مذمومان، والواسطة أسلم، أغنى الله مولاي عن الطب والأطباء، بالسلامة والشفاء".

وهكذا يتضح بجلاء إلمام الوزير الصاحب، وأضرابه من كبار الأدباء الكتاب في هذا القرن، بألوان المعارف والثقافات التي راجت في هذا العصر، وأنه كان إلى جانب تفوقه وإلمامه بالعربية وآدابها، وتبحره بالفارسية وجواهرها، على دراية واطلاع

---

(١) يتيمة الدهر: ٢٣٨/٣.

(٢) تراجع الرسالة كاملة في مجموع رسائل الصاحب بن عباد (الباب التاسع عشر - في النوادر النادرة في فنها) وهي الكتب الغريبة المعاني في جنسها: ٢٢٨ - ٢٣٠، وقد أوردها الثعالبي أيضا في اليتيمة، دون ذكر مقدمة الرسالة التي تقع في تسعة أسطر: ٢٣٨/٣ - ٢٣٩.

(٣) يتيمة الدهر: ٢٣٩/٣.

بمعارف اليونان، وبعض علوم الحكمة التي شاعت في عصره...

ومن قمم الأدب الشامخة في الترسل والمكاتبات الأدبية والإخوانية الذين نهلوا من معين المعارف والثقافات الأجنبية - ولا سيما الثقافة اليونانية - في هذا القرن: أبو بكر الخوارزمي.

لقد اشتهر الخوارزمي بأنه كان يجمع في أدبه - شعرا ونثرا - بين القديم والجديد، وقد وصفه بعض أدباء عصره - كما نقل ذلك الثعالبي -[١] بأنه كان «أدهم في آدابه» ، وأنه كان «أمير المنطق الحر»! قال أبو الحسن عمر بن أبي عمر الرقاني في تأبينه [من السريع]

مات أبو بكر وكان امرأ   أدهم في آدابه الغرّ
ولم يكن حرّاً، ولكنه   كان أمير المنطق الحر

وفي مجموع رسائل الخوارزمي ترد إشارات مهمة، تومئ بوضوح إلى اضطلاعه ببعض ثقافات عصره المتنوعة، ولا سيما الثقافة اليونانية، فضلا عن اضطلاعه بالفارسية وآدابها، لكونه من الكتاب الفرس، وكان في رسائله الإخوانية دائب الإشارة إلى أعلام الفكر اليوناني المشهورين، فضلا عن علوم الأمم المشهورة آنذاك كالهنود مثلا.

من ذلك ما ورد في رسالته إلى كاتب صاحب الجيش جوابا عن رسالة مدحه وعاتبه فيها، إذ يقول[٢]:

" ... وصرت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم، ووفقت توفيق سليمان الحكيم، وأخذ عني بطليموس علم الهيئة، وارسطاطاليس علم الفلسفة وبلنياس باب الطلسم والحيلة ... واختلفت إلى الهند تعليم الحساب، ... وكان هاروت وماروت تلميذي في السحر ... ثم حملت بعد هذا كله على أن يمضي بي في عتاب الإخوان لساني، أو يجري فيه بناني، لقصر عن ذلك عناني ...".

وتضم رسائل أبي بكر الخوارزمي الإخوانية رسالتين أدبيتين في صناعة الطب، (الأولى): أرسلها إلى كاتب بعض الأمراء، وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب[٣].

(١) يتيمة الدهر: ٢٣٩/٤.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٢٦.

(٣) تراجع الرسالة في مجموع رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٤٢ - ١٤٥.

(والثانية): كتبها الخوارزمي إلى تلميذ له، وقد ظهر عليه الجدري[١].

وهاتان الرسالتان وثيقتان طبيتان مهمتان تؤكدان سعة أفقه في هذه الصناعة، وتنوع ثقافته، وارتشافه من فيض معارف عصره الذي عرف بالخصب والتنوع ...

****

ومن جهابذة الأدباء الكتاب الذين نهلوا من معين الثقافات الأجنبية - ولا سيما المعارف والثقافات اليونانية - الأديب الكاتب أبو إسحاق الصابي، - وكان من المقدمين في صناعة الترسل والبلاغة - في هذا القرن، وهو من الصابئة الحرانيين، وممن برع بالرصد، وعلم الفلك والتنجيم، واضطلع بعلم الرياضة - ولا سيما الهندسة وعلم الهيئة - وله مصنف حرره بخطه في علم المثلثات.

وقد وضعه القفطي في مصنفه المشهور ضمن العلماء والحكماء، إذ قال[٢]: "... وله يد طولى في علم الرياضة، وخصوصا الهندسة والهيئة، ولما عزم شرف الدولة ابن عضد الدولة على رصد الكواكب ببغداد ... كان في جملة من يحضروه من العلماء بهذا الشأن، إبراهيم بن هلال، وكتب بخطه في المحضر الذي كتب بصورة الرصد، وأدرك موضع الشمس من نزولها في الأبراج، وله مصنف رأيته بخطه في المثلثات".

لقد أكب كثير من كتاب الإنشاء، في حاضرة الخلافة، أو في الممالك الإسلامية المستقلة إبان هذا القرن، على الارتشاف من أصول الثقافات الأجنبية وغيرها، وبخاصة المنطق والفلسفة اليونانية، للارتقاء بملكتهم الأدبية، بلوغا لنيل الشهرة الأدبية، والوصول إلى أعلى المراتب الأدبية في الدواوين الرسمية.

ومن رعيل هؤلاء الأدباء الكتاب الذين اضطلعوا بالثقافات الأجنبية - ولا سيما المنطق والفلسفة اليونانية - في هذا القرن، أديبان كبيران هما: أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي (ت٣٣٧هـ)، وأبو الفرج الحسين بن محمد بن هندو (٤٣٠هـ).

أما أبو الفرج قدامة بن جعفر، فقد برع - كما ذكر ياقوت الحموي[٣] - في صناعتي البلاغة والحساب، وقرأ صدرا صالحا من المنطق، وهو لائح على ديباجة تصانيفه.

---

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٥٤.

(٣) معجم الأدباء.

وقد عد الأستاذ طه حسين كتابه المشهور (نقد الشعر)[١]، أول ما ظهر من تشريع الفلسفة للأدب[٢]، ورأى أن قدامة قد استغل نظرية (أرسطو) المتعلقة بـ(المنافرات)، وأن قدامة قد أنفق جهدا طريفا في رد سائر الفنون الشعرية إلى المديح والهجاء[٣]، كما أشار الأستاذ طه حسين، أيضا إلى أن، قدامة قد استغل نظرية أخرى (لأرسطو) في كثير من الاقتناع بصحتها، تلك هي نظرية (الغلو)[٤]، الذي يجيزه (أرسطو) - على ما هو معروف - للشعراء في جميع الأحوال، وللخطباء في أحوال خاصة..

لقد كانت محاولة الأديب الكاتب قدامة بن جعفر قاصرة على الشعر دون النثر، ولكني استطردت هنا، لأوضح أثر المنطق والفلسفة اليونانية في توجيه الدراسات الأدبية والنقدية إبان هذا القرن.

وأما أبو الفرج ابن هندو[٥]، فقد كان من الأدباء الكتاب الذين اضطلعوا بالثقافات الجديدة - ولا سيما علوم المنطق والحكمة والفلسفة اليونانية - وقد ذكر مصنفو كتب التراجم من تآليفه: (أنموذج الحكمة)، و (المفتاح) في فوائد الطب، و(الرسالة المشرقية)، و (كتاب النفس) وغيرها[٦].

وقد التقط ابن هندو حكم اليونان وجمعها في مصنف سماه (الكلم الروحانية من الحكم اليونانية)، وكان كثيرا ما يودعها في أدبه، لقد استقصى ابن هندو من حكم فلاسفة اليونان القدماء ما يجري مع الأمثال السوائر، ويدخل في النوادر، ودوّن ما يعد من غامض الفلسفة، ويحصل معناه بعد الكلفة، قبس من حكم أفلاطون، ثم ثناها بارسطاطاليس، فسقراط، فمحاورات جرت بين أريجانس وسقراط، فكلمات

(١) طبع هذا الكتاب طبعات عديدة، لعل أفضلها ما حققه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي.

(٢) تراجع التفاصيل في مقالة الأستاذ طه حسين: (البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر) في مقدمة كتاب (نقد النثر) / المنسوب خطأ لقدامة بن جعفر، ص١٦ (ترجمة عبد الحميد العبادي).

(٣) المرجع نفسه: ١٨.

(٤) المرجع نفسه: ١٨.

(٥) تراجع ترجمته في (يتيمة الدهر: ٣/٤٥٩ - ٤٦٢)، حيث عده الثعالبي من كتاب الإنشاء ممن تخرجوا بخدمة الوزير الصاحب، فظهر عليهم حسن أثر الدخول في صحبته، وقد برع في صناعتي النظم والنثر.

(٦) تراجع التفاصيل في: كنوز الأجداد: ٢١٣ وما بعدها.

لأميروس، فالإسكندر، فباسيليوس، ففيثاغورس، فبقراط فجالينوس، فديمستانس، فزينون، فديقوميس، ففيلمون، فنوموس فأكابوقراطس، فغورس، فديمسطس، إلى غيرهم من الفلاسفة والحكماء غير المشهورين في أدبنا المتعارف[١].

****

ويستوقفنا في هذا القرن أيضا، أديبان مفكران كبيران متعاصران، التقيا معا في سعة ثقافتهما وعمقها، واحتراف أحدهما لمهنة الوراقة ونسخ الكتب[٢]، واحتراف الآخر مهنة الإشراف على خزانة الكتب[٣]، وافترقا في أن الأول كان محروما بائسا، والآخر كان مجدوداً منعما.

وقد أكبّ هذان المفكران ينهلان من ألوان الثقافات الأجنبية وغيرها - ولا سيما علوم الحكمة والفلسفة اليونانية - وقد انعكست آثار تلك الثقافات في نتاجهما الأدبي والفكري، وعدا بحق، علمين شامخين من أعلام الثقافة والفكر والأدب إبان هذا القرن، إنهما المفكران الكبيران: أبو حيان التوحيدي، وابن مسكويه.

أما أبو علي ابن مسكويه: فقد كان " من كبار فضلاء العجم، وأجلاء الفرس "[٤]، ولسعة ثقافته وتنوعها فإنه كان شغوفا بالاطلاع على تراث الأمم القديمة، ولعل هذا ما يفسر لنا عكوفه على تأليف كتاب (جاويذان خرد)[٥] بالفارسية، والذي جمع فيه حكم أربع أمم كبيرة هي: الفرس، والهند، والعرب والروم، وهو من كتبه المهمة التي تبحث في الأخلاق، وتدل على وقوفه الدقيق على التراث الإنساني القديم..

ولقد شغف ابن مسكويه بتراث اليونان أيضا، ولعله اطلع - كنظيره أبي حيان التوحيدي[٦] - على أكثر ما ترجم إلى العربية من مصادر المعرفة والتراث الفلسفي

---

(١) المصدر نفسه: ٢١٧.

(٢) يراجع ما ورد عن أبي حيان في: معجم الأدباء: ١٣/١٥، ٢٦.

(٣) عمل ابن مسكويه في مقتبل عمره خازنا لمكتبة أبي الفضل ابن العميد، ثم عمل أمينا وخازنا لمكتبة الأمير عضد الدولة البويهي بشيراز، وقد عرف ابن مسكويه بلقب (الخازن). ينظر: تاريخ العلماء القفطي: ٢١٧، النثر الفني في القرن الرابع ١٧٦/٢.

(٤) إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي: ٢١٧.

(٥) ينظر كتاب: معالم الحضارة الإسلامية: ٢٠٢.

(٦) ينظر ما أورده الأستاذ الدكتور فائز طه عمر في كتابه (النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي)، مبحث مصادر النثر الفلسفي عند التوحيدي: ١٢٢.

اليوناني وغيره والتي كانت متداولة في هذا القرن، ويبدو أن شغفه بالمنطق والفلسفة اليونانية كان يفوق سواهما من ألوان المعارف وعلوم الحكمة الأخرى، ولعل هذا الأمر هو الذي دفع بعض الباحثين إلى القول:

" وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال، مطمئنا إلى أنه متى صحت المقدمات حقت النتائج..."[١].

ويشير الأستاذ مبارك في موضع آخر، إلى شغف ابن مسكويه البالغ بالفلسفة اليونانية، حتى أنها " وصلت إلى أعماق نفسه في وضوح وجلاء فاقتفى مناهج اليونان في عرض الآراء، ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية ..."[٢].

ولعل هذا ما يفسر لنا وقوف المتتبع لأثار ابن مسكويه - ولا سيما نتاجه الفكري والفلسفي، في علم الأخلاق وتحليل النفس[٣] - على ظلال وارفة وكثيرة لآراء فلاسفة الإغريق القدماء، وفي مقدمتهم سقراط، وجالينوس وارسطاطاليس، وغيرهم.

ولعل ما أجاب به ابن مسكويه من إجابات عميقة شافية عمّا طرحه أبو حيان من تساؤلات دقيقة معضلة، في (الهوامل والشوامل) قد عكست بوضوح شموخ ابن مسكويه، وأنه بحق قمة سامقة من قمم الفكر والثقافة في هذا القرن وأظهرت بجلاء عمق اطلاعه على مسارب الفكر، وعلوم الحكمة الإغريقية القديمة، وبخاصة ما تعلّق باحتفائه بالنفس الإنسانية، وتحليلها، وتشخيص أمراضها وآفاتها[٤]، أو ما تعلق بالأخلاق وفضائلها، وفروعها ومظاهرها التي تهدف إلى خلق مجتمع فاضل ومتكامل...

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع: ١٨٧/٢.

(٢) المرجع نفسه: ١٨١/٢ - ١٨٢.

(٣) ذكر القفطي: ٢١٧، والدكتور مصطفى الشكعة، معالم الحضارة الإسلامية: ٢٠٤ أهم آثاره المنشورة وغيرها..

(٤) تراجع المسائل الخاصة بتحليل النفس وأمراضها، وتهذيب الملكات في كتاب (الهوامل والشوامل)، تحقيق الأستاذين أحمد أمين، وأحمد صقر (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر)، القاهرة، وينظر أيضا كتاب: تهذيب الأخلاق: ص٤ - ٥، ويراجع أيضا تحليل ابن مسكويه لظاهرة (الخوف من الموت)، وتحليله لظاهرة (الحزن)، حيث يتضح عمق تحليله وكأنه طبيب نفسي، وتراجع تحليلاته للأخلاق وعرضه لآراء جالينوس وارسطو، ونزوعه إلى العقل، واستئناسه به، واتخاذه أساسا للأخلاق، وتراجع أيضا وصيته في نظام السلوك: معجم الأدباء: ٩٥/٢ - ٩٦، النثر الفني في القرن الرابع ١٨٢/٢ - ١٨٣.

وأما أبو حيان التوحيدي، فإنه على الرغم من كونه لم يكن فيلسوفا محضاً ولم يكن صاحب نظرية في الفلسفة[١]، إلا أنه جسد في نثره الفلسفي الذي انتشر بغزارة في كتبه التي وصلت إلينا - ولا سيما كتاب المقابسات، والامتاع والمؤانسة وغيرهما، والذي صبه في قالب أدبي شيق تفرد به[٢] - جسد أهم الاتجاهات الفلسفية التي راجت في هذا القرن، وبخاصة مدرسة أستاذه أبي سليمان المنطقي الفلسفية، وجذورها المتمثلة بآراء أبي نصر الفارابي أستاذ يحيى ابن عدي، وصولا إلى من تتلمذ عليه وفي طليعتهم أستاذه أبو سليمان المنطقي وابن الخمار والعامري وغيرهم، فضلا عن آراء خصومهم من الفلاسفة كإخوان الصفاء وغيرهم، ومن هنا، كانت كتب أبي حيان خير وثيقة لتصوير الحياة العقلية، والتفكير الفلسفي عند العرب المسلمين في القرن الرابع.

وهكذا كان التوحيدي موسوعي الثقافة، متنوع المعرفة، وكان - شأن كثير من مفكري عصره - يجمع إلى ثقافته التراثية (العربية الإسلامية)، الإحاطة بالثقافات الأجنبية، وألوان العلوم والمعارف التي شاعت في عصره، ولا سيما ما يتصل منها بعلوم المنطق والفلسفة اليونانية، إذ إنها كانت النسغ الأصيل فيما تلقفه من مجالس أساتيذه، أو ما درسه عليهم من نتاجهم الفلسفي وبخاصة أستاذه أبو سليمان المنطقي وأضرابه من أعلام هذه المدرسة الفلسفية.

ولعل أصدق صورة تكشف لنا عن شغف أبي حيان بعلوم الحكمة والمنطق

(١) ينظر ما ذهب إليه الدكتور فائز طه عمر، حيث أشار إلى أن التوحيدي لم يكن فيلسوفاً ولم يعرف بنظرية فلسفية تنسب إليه، وأن جميع الآراء الفلسفية التي وردت في كتبه إنما تمثل الاتجاهات التي شغلت الفلاسفة في عصره، ومن جانب آخر، فإن دارسين آخرين أرجعوا نسبة أكثر الأفكار الفلسفية التي وردت في كتبه إلى مدرسة أبي سليمان المنطقي وغيره كيحيى بن عدي وتلميذه ابن الخمار والعامري: (النثر الفني عند أبي حيان: ١١٧).

(٢) ألمح قديما ياقوت إلى نزعته الأدبية، وقدرته على التعبير عن الأفكار الفلسفية بقالب أدبي جيد، إذ وصفه بأنه (فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة) / معجم الأدباء: ١٥/١٥ وأشار بعض الباحثين المعاصرين إلى أن أبا حيان التوحيدي: "أضفى على قضايا الفلسفة أثرا من نزعته الأدبية الوجدانية، فقرب ألفاظها وتعبيراتها من إفهام الناس..."، كتاب أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان: ٩٧، وقد أفاض في هذا الجانب الدكتور فائز طه عمر في كتابه (النثر الفني عند أبي حيان: ١٣٠ وما بعدها) حيث أشار إلى أسباب هذه الظاهرة في نثره، وأبرز مظاهرها، بينما انتقد (دي بور) التوحيدي ووصفه بأنه لم يكن مؤلفا منظما في الفلسفة، ومن سهام نقده لفلسفته، أنها موضوعة في قالب أدبي، إلى جانب تلاعبه بالألفاظ. ينظر (تاريخ الفلسفة في الإسلام: ٤٥٤).

وألوان المعرفة الفلسفية اليونانية، ودفاعه عنها، ما ورد في رسالته المشهورة (ثمرات العلوم)، وهو يرد فيها على قوم لم يفهموا مقصده من العلم، وتأولوا كلامه، فرد عليهم التوحيدي بقوله(١): "... والذي هاجني لهذه الشكوى وأحوجني إلى هذه الدعوى، قول من قال منكم: ليس للمنطق مدخل في الفقه ولا للفلسفة اتصال بالدين(٢)، ولا للحكمة تأثير في الأحكام، وهذا كلام من لو أنعم النظر، واستقصى الحال لوقف على ما عليه فيه، وعرف ما له منه، فكان يستبدل بالخلاف وفاقا، وبالمنازعة خلافا، عاب هذا الرجل المنطق، وهجن طريقة الأوائل، وزرى على الحكمة وقيل رأي الناظر فيها، وقبح اختيار الباحث عنها، وهذا كله إن لم يكن قلة سوء تحصيل، فإنه يوشك أن يكون ضيق عطن، وجرح صدر، ومجازفة في القول وانحرافا عن الصواب".

على أن هذا لا يعني بالضرورة أن أبا حيان قد اضطلع بمعرفة لغات أجنبية، أو أنه كان يعرف اللغة اليونانية(٣)، وإنما كان أيضا - شأن كثير من معاصريه في هذا القرن - قد اطلع على ما ترجم إلى العربية من ركام الكتب والرسائل لمفكري اليونان القدماء وفلاسفتهم وغيرهم، ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة، إشاراته المتكررة إلى العديد من مصادر الفلسفة اليونانية، وذكره لأسماء فلاسفة اليونان ومفكريهم في كتبه المتداولة،

---

(١) رسالة ثمرات العلوم للتوحيدي، (نشرها أحمد فارس الشدياق ملحقة برسالة الصداقة والصديق في كتاب: (رسالتان للعلامة الشهير أبي حيان التوحيدي) ط. مطبعة الجوائب - القاهرة ١٣٠١ هـ - ١٨٨٤م.

(٢) المشهور أن أبا سليمان المنطقي ومدرسته، كانت تذهب إلى فصل الدين عن الفلسفة ونقل التوحيدي نفسه قول أبي سليمان المشهور الذي رد فيه على إخوان الصفاء الذين ذهبوا إلى ربط الدين بالفلسفة: "إن الفلسفة حق، ولكنها ليست من الشريعة في شيء وإن الشريعة حق، ولكنها ليست من الفلسفة في شيء". الإمتاع والمؤانسة: ١٨/٢.

وقد علق الأستاذ أحمد أمين (ظهر الإسلام: ١٦٤/٢ - ١٦٥) على ما ذهبت إليه مدرسة أبي سليمان المنطقي، بأنهم بذلك مثلوا موقفا متميزا في هذه المسألة المهمة في الفكر العربي الإسلامي، إزاء المواقف الأخرى.

(٣) لقد سلط الضوء في هذا الجانب الأستاذ فائز طه عمر في كتابه (النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي / مصادر الفكر الفلسفي عند التوحيدي: ١٢٢ وما بعدها، وينظر أيضا في هذا الجانب: النثر الفني في القرن الرابع: ٣٤٦/١ - ٣٤٧، وما أشار إليه أيضا التوحيدي من أن معاصريه كانوا ينقلون فلسفة اليونان عن اللغة السريانية. (يراجع ما نقله في مناظرة السيرافي لمتّى بن يونس).

ومنها مثلا، كتاب النفس لأرسطو، وكتاب الثمرة لبطليموس، وصفو الشرح لأيساغوجي وغيرها[١]، فضلا عن مظان المنطق والفلسفة الإسلامية التي درسها أو اطلع عليها، وأشار إليها أيضا في كتبه المشهورة، ولعل أبرزها: كتاب (إنقاذ البشر من الجبر والقدر) لأبي الحسن العامري - وهو أحد أتباع مدرسة أبي سليمان المنطقي، وممن تتلمذ على أبي زكرياء يحيى بن عدي - وكتاب (أقسام العلوم) لأبي زيد البلخي[٢] ورسائل إخوان الصفاء، وغيرها.

وهكذا نرى أن أبا حيان التوحيدي كان - كغيره من مفكري وكتاب هذا القرن - يزاوج في ثقافته، وفيما تلقفه من ألوان المعارف والعلوم بين ألوان الثقافة التراثية (العربية الإسلامية) وبين أنماط الثقافات الأجنبية الوافدة آنذاك، والتي استشرت بفعل نشاط حركة الترجمة وامتدادها في هذا العصر، فضلا عن نشاط الحركة الثقافية، وتطور الحياة العقلية التي كان لأبي حيان إسهام واضح في تصوير جوانبها في كتبه ورسائله القيمة التي صور فيها خواطر معاصريه وآراءهم " في فهم الحياة تصويرا عجيبا، يفصح عن قدرته أتم إفصاح، وهو يظهر في ثنايا كلامه غني اللغة، قوي الخيال، يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يند منها شيء "[٣].

ولعل بعض الباحثين الأجلاء[٤] الذين عنوا بنشر بعض تراث أبي حيان أو تحقيقه، لم يجانبوا الصواب حين ذهبوا إلى القول: "ومهما يكن من أمر فإن ما تبقى من آثاره - يعني أبا حيان - وما اكتشف منها أخيرا، يدل على حياة فكرية خصبة، وفعالية، وخبرة في التأليف".

---

(١) ينظر أسماء تلك المصادر واسم مؤلفيها في: الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٥ وما بعدها، ص٨٧ ومواضع أخرى وينظر أيضا كتاب (المقابسات) للتوحيدي في مواضع متفرقة، ويراجع في هذا أيضا الفصل الذي كتبه الدكتور فائز طه عمر في كتابه (النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي / مصادر الفكر الفلسفي عند التوحيدي: ص١٢٢ وما بعدها).

(٢) أبو زيد البلخي (ت٣٢٢هـ) كان من تلاميذ الفيلسوف الكندي ببغداد، وأخذ عنه الفلسفة والتنجيم، والطب، وعلوم الطبيعة، من مؤلفاته المشهورة: نظم القرآن، وقد نهج فيه الابتعاد عن التأويلات البعيدة، والتأويل الظاهر المستفيض، وصنف كتابا في البحث عن التأويلات، أغضب فيه رجلا قرمطيا، فقطع عنه صلات كان يجريها عليه. ينظر: (معجم الأدباء ١/ ١٤١ وما بعدها، الفهرست: ص١٣٨، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١/ ٣٦٦ - ٣٦٧).

(٣) النثر الفني في القرن الرابع: ٢/ ١٧٠.

(٤) ثلاث رسائل للتوحيدي، د. إبراهيم الكيلاني، المقدمة.

ثانياً: منابع الثقافة الفارسية والهندية وأصولها:

لقد تأثر الأدباء والكتاب في القرن الرابع بألوان الثقافات، والتراث الحضاري القديم للأمم الأجنبية الأخرى التي اختلطوا بها، وتمازجوا معها، ولا سيما الفرس والهنود، إذ طفقت تلك المعارف والرسوم والتقاليد الاجتماعية تصب في أدبهم وترسلهم، وراحت تعمل على إحداث ملامح جديدة من التطور والتجديد في أساليبهم وموضوعاتهم.

وقد بدأت ملامح تلك الثقافات الأجنبية - ولا سيما الفارسية - تلوح في الأدب العربي، ولا سيما في النثر الفني، منذ القرن الثاني للهجرة، إذ أشار أبو عثمان الجاحظ[١]، وغيره[٢]، إلى ما استنّه عبد الحميد الكاتب في النثر العربي من رسوم جديدة استخرجها من رسوم الكتابة الفارسية.

ويتفق كثير من الباحثين والمستشرقين على ما أحدثه ذلك التمازج بين العرب والأعاجم، منذ العصر العباسي الأول، من تطور واضح في الأدب العربي، فقد رصد المستشرق الالماني كارل بروكلمان مثلا، أبرز تلك الظواهر الجديدة في الأدب العربي فقال[٣]: "... ولئن لم يستطع العجم في هذا العصر أن يقدموا نماذج خاصة بهم في شعر الغناء، لقد تغلغلت أناقة التعبير، ودقة الذوق التي اختصوا بها، في اساليب الشعر البدوي باطراد، حتى أمكن أن تتلاشى طبيعة ذلك الشعر البدوي بعد ثلاثة أجيال".

وقد أكد هذه الحقيقة أيضا المستشرق آدم متز، ملمحا أيضا إلى بروز الشعوب الشرقيه في القرن الرابع، إذ قال[٤]: "إن اختلاط دم الأمة العربية .... وبروز الشعوب الشرقية القديمة التي كانت تتألف من أجناس مختلطة، كل هذه تتجلى أوضح ما تكون في الأدب".

لقد بلغ تأثير الثقافة واللغة والأدب الفارسي ذروته في الأدب العربي - ولا سيما في النثر الفني - وبخاصة في أقاليم المشرق الإسلامي، إبان هذا القرن، وذلك لأسباب عديدة يمكن ذكر أهمها بما يأتي:

---

(١) تراجع إشارة الجاحظ إلى ما كان يولده عبد الحميد وأضرابه في الرسائل: البيان والتبيين: ٢٩/٣.
(٢) ينظر: ديوان المعاني، أبو هلال العسكري: ٨٩/٢.
(٣) تاريخ الأدب العربي: ٧/٢ - ٨.
(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٤٣٩/١.

(١) إن جل المترسلين، وبخاصة جهابذة كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، لا سيما في أقاليم المشرق الإسلامي، كانوا من أصول أعجمية، فارسية أو تركية، وقد كان لإتقان أكثر هؤلاء الأدباء والكتاب لأكثر من لغة - وتحديدا اللغة الفارسية - أكبر الأثر في سعة ثقافتهم، ونضج أدبهم، وكان لذلك كله أثر كبير في النثر الفني بخاصة، وكان له إفرازاته الإيجابية على الحركة الثقافية والحياة العلمية في هذا القرن.

فالصاحب بن عباد مثلا، على إتقانه للغة العربية، وفقه أسرارها، كان يجمع أيضا، بشهادة أبي بكر الخورازمي[١]، إتقان الفارسية وآدابها وكان كثيرا ما يستمع إلى مدائح الشعراء الفرس، وكان يثيبهم على ذلك، ويشجعهم ويرعاهم.

ذكر الأستاذ إدوارد براون[٢]، نقلا عن (محمد عوفي)، صاحب كتاب لباب الألباب، وهو أقدم من سجل تراجم الشعراء الفرس، ذكر اسمي شاعرين من الشعراء الذين أنشدوا الشعر بالفارسية، وكانا موضع رعاية الصاحب، وهما: منصور بن علي الرازي الملقب بالمنطقي، وأبو بكر محمد بن علي السرخسي الملقب بالخسروي.

وكان بديع الزمان، على ما عرف عنه من سرعة البديهة، واتقاد الخاطر[٣] كان ملما بالفارسية، وكان شغوفا بالترجمة ارتجالا عنها إلى العربية، ذكر الثعالبي[٤]: "وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة، والأبيات العربية، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع".

---

(١) ينظر رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٧٧، وفيها يقول: "... وتجمع بين السيف والقلم وتحذق آداب العرب والعجم".

(٢) تاريخ الأدب في إيران: ١٠٩/٢.

(٣) ذكر صاحب اليتيمة في سرعة بديهته يقول: و" يقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس لا يقطعه". تراجع التفاصيل في: يتيمة الدهر: ٢٩٣/٤ - ٢٩٤.

(٤) يتيمة الدهر: ٢٥٧/٤، ويراجع ما ذكره في هذا الجانب أيضا صاحب كتاب (لباب الألباب: ١٦/٢ - ١٩) بدلالة كتاب تاريخ الأدب في إيران، إدوارد براون: ١٠٩/٢.

وكان على شاكلة الصاحب وبديع الزمان في حذق الفارسية والإلمام بآدابها، والقدرة على الترجمة عنها، كثير من الأدباء والمترسلين في أقاليم المشرق الإسلامي في هذا القرن، كما مر بنا في المبحث الأول من الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(٢) إن كثيرا من الأمراء الأعاجم، ورؤساء الممالك الإسلامية المستقلة، وأكثر وزرائهم وولاتهم، الذين كانوا من أصول أعجمية، كانوا على درجة عالية من الثقافة، والإلمام بكثير من المعارف التي تتصل بالتراث العربي الإسلامي، فضلا عن ألوان الثقافة الأجنبية كإلمامهم بالفلسفة والمنطق وعلوم الحكمة الأخرى التي راجت كثيرا في هذا القرن. ولعل ما قام به بعضهم، كأبي علي البلعمي - وزير آل سامان مثلا - من ترجمته لكتابي الطبري - تاريخ الطبري وتفسيره - إلى الفارسية خير شاهد على ذلك، فضلا عما وصل إلينا من رسائل بعض أولئك الرؤساء والأمراء الأعاجم، كالأمير قابوس بن وشمكير[١]، وأبي الفضل الميكالي وغيرهما من أساطين البيان والبلاغة.

وقد أكد هذه الحقيقة المهمة، قديما، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) - وهو من علماء البلاغة وصنعة الكلام المشهورين - حين جاء في قوله[٢]:

" ... العجم والعرب في البلاغة سواء، فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى، وكان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي، فحولها إلى اللسان العربي ...".

وهكذا نصل - مع ما قرره أبو هلال العسكري وغيره[٣] أيضا من

(١) تنظر الرسالة القيمة التي ساقها أبو هلال العسكري للأمير قابوس إلى (الأصبهبذ). وهي في الفخر والعتاب، إذ تجللت هذه الرسالة بنظرات فلسفية ثاقبة، وخطرات إيمانية رائعة وإلمام واسع بعلم الفلك والنجوم والفلسفة (ديوان المعاني: ١/٨٦ - ٨٨). وتراجع رسائل قابوس أيضا في (كمال البلاغة): ٥٢ - ٥٧.

(٢) ديوان المعاني: ٢/٨٩.

(٣) تراجع مقالة الأستاذ طه حسين (البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر) ترجمة د. عبد الحميد =

المعاصرين - إلى أن ما كان عليه أولئك الأمراء والرؤساء الأعاجم، ووزراؤهم وبعض ولاتهم، من ثقافة واسعة، وإلمام عريض بمسالك البلاغة بلغتهم، ومقدرة بيانية عالية في الإنشاء وصناعة الترسل، هو الذي دفعهم أيضا إلى رعاية الأدب والأدباء، وتقدير ما للكلام البليغ، والرسالة المحبرة من سحر وتأثير في الألباب والنفوس.

(٣) نزوع الأمراء ورؤساء الممالك الأعجمية إلى إحياء التراث القومي الفارسي.

وكان ما عمل على تنامي تأثير الثقافة الفارسية في الأدب العربي، وبخاصة في النثر الفني، في أقاليم المشرق الإسلامي، نزوع كثير من الأمراء ورؤساء الممالك الأعجمية في هذا القرن، إلى إحياء التراث القومي الفارسي، وبعث الثقافة واللغة الفارسية، وجعلها لغة العلم والأدب والتأليف.

وهكذا بدأت أكثر حواضر تلك الممالك المستقلة في المشرق الإسلامي، مثل بخارى، وشيراز، والري، فضلا عن الإمارات الأخرى تعمل على إحياء تراثها القومي القديم وتتنافس أولا لاجتذاب العلماء والأدباء ليزدان بهم ملكهم، وليساعدوا في بناء النهضة العلمية والأدبية الجديدة في تلك الحواضر الفتّية..

ومن جانب آخر، وجد العلماء والأدباء في تلك الممالك النائية مرتعا خصبا، وملاذا آمنا لإظهار نبوغهم الفكري[1] والأدبي، ومتنفسا فسيحا لإشباع نزعاتهم القومية، وبعث أمجادهم الحضارية القديمة..

وهكذا غدتْ خراسان - مركز السامانيين مثلا - مهدا للأدب الفارسي

العبادي، والمنشورة في مقدمة كتاب (نقد النثر) المنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر وقد سخر المؤلف من دعوى الجاحظ في نفي البيان، والبلاغة والفصاحة عن أرسطو وحكماء اليونان، وقصر البلاغة على العرب.

(١) يراجع ما ذكره (براون) تاريخ الأدب في إيران: ١١٢/٢ - ١١٣، نقلا عن السمرقندي في كتاب (جهار مقالة) من أن المفكر والفيلسوف ابن سينا، تمكن بعد أن التحق بعامل البويهيين على الري (علاء الدولة)، من أن يكتب في الساعات المبكرة من الصباح صفحتين يوميا من كتابه العظيم (الشفاء).

الإسلامي - كما أشار الأستاذ براون[١]، وصارت بحق - كما وصفها أبو منصور الثعالبي[٢] قديما: "مثابة المجد، وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر".

والذي نريد أن نخلص إليه، هو أن نزوع أمراء تلك الممالك الأعجمية إلى إحياء التراث الفارسي واللغة الفارسية، قد أفاد العربية كثيرا، وأثر في أدبها تأثيرا إيجابيا، وكان لذلك كله أصداؤه على الرسائل الأدبية في هذا القرن.

فاللغة العربية - كما سبق أن قررنا، وباتفاق كثير من الباحثين - ظلت في هذه الممالك المستقلة النائية إبان هذا القرن، محتفظة بمركزها المتقدم وصدارتها، وظلت هي لغة العلم والتأليف[٣]، ومن جانب آخر، دفع اهتمام أولئك الأمراء والحكام ببعث التراث الفارسي إلى ترجمة كثير من أصول الكتب الفارسية إلى العربية، وعملوا على شيوعها وتداولها، كما عملوا على ترجمة عدد من أصول الكتب العربية إلى اللغة الفارسية.

وهكذا تمخض عن هذا الأمر، نشاط حركة الترجمة من الفارسية وإليها وكان ذلك أحد أهم العوامل في تواصل النهضة العلمية والأدبية، وازدهار الحركة الثقافية في هذا القرن..

أما مظاهر أو آثار الثقافة الفارسية في الأدب، ولا سيما في المكاتبات الأدبية في هذا القرن، فيمكن رصد أهمّها على النحو الآتي:

(١) شيوع الألفاظ والتراكيب الأعجمية وأسماء الأعلام الأجنبية في الرسائل:

لقد بدأت ظاهرة اللحن وتفشي العجمة ، وانتشار الألفاظ والتراكيب الأعجمية في لغة التخاطب اليومية، وفي شعر بعض الشعراء الموالي منذ القرن الأول للهجرة، نتيجة للاختلاط الذي تم بين العرب والأعاجم، وقد رصد الجاحظ هذه الظاهرة منذ مرحلة مبكرة ووقف عندها[٤]، ولقد استشرتْ هذه

---

(١) تاريخ الأدب في إيران: ١٠٧/٢.

(٢) يتيمة الدهر: ١١٥/٤.

(٣) تراجع آراء بعض الباحثين والمستشرقين في هذا الجانب ومنها: تاريخ الأدب في إيران بروان: ٢/ ١٠٩، تاريخ الأدب العربي، بروكلمان: ١٨٥/٥، تاريخ إيران: ١٤٩، الأدب في ظل بني بويه: ١٢٦ - ١٢٧.

(٤) تراجع التفاصيل في البيان والتبيين: ١٩/١ وما بعدها، وتراجع التفاصيل أيضا في: كتاب العربية،

الظاهرة بشكل أكبر في القرنين الثاني والثالث للهجرة، وطفقت تنتشر بين طبقة العامة وغيرها كثير من تلك التعابير والألفاظ والتراكيب الأعجمية، وبدأ اللحن يشيع في تعابيرهم ولغتهم وأساليبهم أيضا، مما حفز العلماء واللغويين لرصد تلك الأخطاء، لدرء الخطر الذي بدأ يحدق بالعربية، وراحوا يصنفون كتب (لحن العامة)، وكتب (الفصيح)[1].

وفي القرن الرابع أخذت هذه الظاهرة تشيع بين أوساط المجتمع الإسلامي، ولا سيما في أقاليم المشرق النائية، لكون أن الأغلبية الساحقة من رعايا الدولة هناك كانوا من أصول أعجمية، ومن هنا رأينا شيوع كثير من الألفاظ والتراكيب أو التعابير الأعجمية - ولا سيما الفارسية - في أدب ومكاتبات الأدباء الذين انحدروا من أصول أعجمية، أو من كانوا يتقنون اللغة الفارسية، ولعل في طليعة أولئك الأدباء الكتاب أبا بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، والصاحب بن عباد وغيرهم.

ففي أدب بديع الزمان الهمذاني - ولا سيما في رسائله الأدبية والإخوانية - تطالعنا كثير من تلك المفردات والتراكيب الأعجمية[2]، وهي معلم واضح

=

- يوهان فك: ص٢٠، وتراجع الألفاظ الأعجمية في شعر يزيد بن مفرغ في البيان والتبيين: ١/ ١٤٣، الشعر والشعراء: ٧٨ (ط عالم الكتب، بيروت، ط١ قسطنطينية)، العصر الإسلامي، ضيف: ١٧٠.

(١) من أشهر تلك المصنفات: لحن العامة للكسائي (ت١٨٩هـ)، وقد طبع في مصر عام ١٣٤٤هـ بتحقيق الميمني، وقد تتبع د. رمضان عبد التواب في كتابه: (لحن العامة والتطور اللغوي) ما وضعه علماء العربية في ذلك على توالي العصور، وقد نشر د. عبد العزيز مطر بتحقيقه عدة مصنفات في هذا المجال منها: (تثقيف اللسان - لابن مكي الصقلي، وتقويم اللسان - لابن الجوزي، ولحن العوام - لأبي بكر الزبيدي)، وينظر كتابه: (لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة)، أما أشهر كتب الفصيح - وهي الكتب التي عنيت بجمعه وفرزه عن الضعيف والملحون - فأشهرها: كتاب (إصلاح المنطق - لابن السكيت ت٢٤٤هـ)، (كتاب الفصيح لثعلب ت ٢٩١هـ)، وتراجع الشروح وما كتب على هذا الكتاب الأخير من نقد أو استدراك وتذييل، في كتاب: المكتبة، العاني، العدواني: ٤ - ٤١، وتجدر الإشارة هنا إلى كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة فقد عقد بابا طريفا لما تتكلم به العامة من الكلام الأعجمي سواء أكان أصله روميا أم نبطيا أم فارسيا أم سريانيا، (ينظر أدب الكاتب، ص٥٢٦ وما بعدها).

(٢) تراجع رسائل بديع الزمان: ٤٩٦، ٥٠٩، ٥٢٥، ٥٢٦ ومواضع أخرى غيرها، إذ ورد العديد من

=

يؤكد سعة ثقافة هذا الأديب الكاتب، وتلون معارفه، واطلاعه على طرائق التعبير وأنماط الصور الفنية والأساليب التي شاعت في الآداب الإنسانية الأخرى.

من ذلك مثلا ما ورد في رسالة له إلى بعض إخوانه في شأن أبي الحسن المحتسبي، وقد وشح رسالته بألفاظ أعجمية كأسماء الأعلام والمدن وما يشير إلى مساحتها، إذ يقول: "... انتدب لملاقاتي، وبيني وبينه مهامه فيح، وما شككت أنا إذا وردنا نيسابور استقبلنا مراحل بفضائله، وتلقانا فراسخ بمسائله"[١].

ونظير هذا أيضا ما ورد في رسالته[٢] إلى أبي الحسن البيهقي، ورسالته أيضا إلى صديق له يستدعي بقرة منه، إذ يقول[٣]:

" الكدخدائية زرع إن لم يصادف ثرى ثريا من التدبير، وجوا غنيا من التقدير، لم يحصل بالغه، ولم يجن يانعه ...".

وهكذا كانت إحاطة بديع الزمان بالفارسية، وشغفه الكبير بها، وقدرته الفائقة في ترجمة الشعر الفارسي إلى شعر عربي ارتجالا، أو على البديهة رافدا مهما في ثقافته ولا سيما في رسائله الأدبية، إذ أمدته تلك المعارف بطاقات إبداعية جديدة في نثره الفني، وعملت أيضا على إثراء معجمه اللغوي.

وترد في رسائل أبي بكر الخوارزمي أيضا طائفة من تلك الألفاظ والصيغ والتراكيب، وأسماء الأعلام والمدن الأعجمية، حتى أن بعض تلك المفردات كانت ناشزة أو غير مستساغة في ثنايا جمله وتراكيبه اللغوية.

من ذلك مثلا ما ورد في إحدى رسائله الإخوانية إلى أبي محمد العلوي فقد وشح تلك الرسالة بلفظة ثقيلة كزة، تجانب قواعد الفصاحة، ودماثة التعبير

=

الألفاظ والتراكيب الأعجمية (الفارسية) في تلك المواضع من رسائله.

(١) رسائل بديع الزمان: ٥١٧، والفراسخ: جمع فرسخ، وهو ثلاثة أميال، والميل مقدر بنصف ساعة تقريبا، وقيل: اثنا عشر ألف ذراع، معرب (فَرْسَنَك)، ينظر الألفاظ الفارسية المعربة: ١١٨.

(٢) رسائل الهمذاني: ٥٢٦، حيث ذكر (بيهق) وأصلها بالفارسية (بيهه)، ومعناها الأجود، وهي ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور.

(٣) رسائل بديع الزمان: ٥٣١، والكدخدائية: بمعنى تدبير المنزل وإصلاح المعاش، ومنه (الكتخدى) لمن يدبر الأمور مثل الوالي وغيره. وثريا: من الثروة بمعنى غنيها، والثرى: هو التراب الندي، والجو هو الهواء. وقوله: الكتدخدائية زرع أي كالزرع وهذا تشبيه بليغ.

حيث يقول[١]: "... فكم من أناس لهم أول، وليس لأولهم آخر، طولت على السيد بكلام (اسفيدباجي) قليل العظم منحل النظم ...".

ومن رسائل الخوارزمي التي ضمّت طائفة من الألفاظ والتعابير الفارسية أيضا، ما كتبه إلى صاحب ديوان الحضرة[٢].

وفي أدب الصاحب بن عباد أيضا، تطالعنا طائفة من تلك التراكيب وأسماء الأعلام الأعجمية (التركية والفارسية)، من ذلك ما ورد في عهد له كتبه إلى أحد العمال لتولي بعض النواحي[٣]: "... ولما ورد - أعزك الله - أمر مولانا الأمير ركن الدولة، وخرج إذن مولانا المؤيد بارتياد من يلي (نايين) ودهاتها، مدبرا عملها، ...".

وواضح أن (نايين) - وهي من قرى أصبهان - من الأعلام الأعجمية ولفظة (دهاتها) جمع (ده)، وهي بالفارسية تعني قرية.

وكقوله أيضا من رسالة له يصف فيها (الخركاهات)[٤]، ورسالته الأخرى التي يصف فيها (الزوبينات)، وهي الرماح أو الحربات القصيرة، إذ يقول[٥]: "... وأخذت الرياح تطير شررها، والنفوس تفارق قصرها، وثملتْ (الزوبينات) من الدماء، فتعثرت في النحور، وتكسرت في القلوب والصدور... "

وهكذا كان إدراج الأدباء الكتاب في هذا القرن للتعابير وأسماء الأعلام الأعجمية في ثنايا رسائلهم الأدبية مظهرا مهما من مظاهر الثقافة العامة، وأثرا من آثار التأثير الأجنبي، وصداه العميق في مكاتبات هذا القرن.

---

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٥٠. واسفيدباجي: الاسفيداج والاسفيديا: طين يجلب من أصفهان، يكتب به الصغار، ورماد الرصاص والآنك، تعريب اسفيداب، واصل معناه الماء الأبيض. وسفيد: الأبيض. الألفاظ الفارسية المعربة: ١٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٣٨ - ١٣٩.

(٣) رسائل الصاحب بن عباد: ٥٠.

(٤) رسائل الصاحب بن عباد: ٢٢٤. والخركاهات: جمع خركاه، وكانت في أول الأمر تطلق على المحل الواسع، وبالأخص على الخيمة الكبيرة التي يتخذها الأمراء مسكناً لهم، ثم أطلقت على سرادق الملوك والأمراء. ينظر: الألفاظ الفارسية المعربة: ١٥٣ - ١٥٤.

(٥) رسائل الصاحب بن عباد: ٢٨.

(٢) **تأليف الحكايات وقصص السمر وترجمتها:**

ومن الآثار أو المظاهر المهمة التي عكستها الثقافات الأجنبية في هذا القرن وبخاصة الثقافة الفارسية والهندية، في الأدب العربي، ولا سيما النثر الفني، ترجمة الحكايات، وقصص السمر الأجنبية، وقيام بعض الأدباء والمصنفين بمحاكاتها، وتأليف الحكايات وقصص الأسمار على غرارها.

لقد بدأت، منذ العصر العباسي الأول - ونتيجة لازدياد نفوذ الفرس - ترجمة جوانب مهمة من تراث الحضارة الفارسية القديمة التي تعكس أقباسا من تاريخهم، وأساطيرهم القديمة، وتجسد بعض طقوسهم وتقاليدهم الاجتماعية ولعل عبد الله بن المقفّع أحد أشهر من قام بهذا العمل، إذ إن له اليد الطولى في نقل العديد من مصنفات تراث الحضارة الفارسية، والأدب الفهلوي، وغيره مما يعنى بتراث الفرس ونظمهم.

وهكذا كان صنيع ابن المقفّع هذا إضافة نوعية جديدة إلى الأدب العربي وثروة نفيسة ازدان بها النثر الفني في القرن الثاني للهجرة، وكان له في ذلك أيضا، قصب السبق في هذا الجانب، إذ طفق مصنفو الأدب من العرب والأعاجم ينهلون من فيضه الثر أقباساً جديدة أثرت النثر العربي، وأمدته بنسغ جديد لم يألفه من قبل.

وفي القرن الثالث، احتلت قصص السمر[(١)]، والحكايات الأجنبية التي

(١) لعل خير شاهد على ذلك أيضا، ما وضعه الأديب الكاتب سهل بن هارون الدستميساني الكاتب (ت٢١٥هـ)، وما حاكى به أيضا ذلك القصص الأجنبي من حكايات وكتب قصصية كانت مشهورة ومتداولة في عصره وبعد عصره، وقد وصل إلينا من تراثه القصصي - الذي سقط أكثره من يد الزمن - كتابه النفيس (النمر والثعلب) الذي حاكى به قصص كليلة ودمنة، وقد حقق هذا الكتاب ونشره الدكتور منجي الكعبي (تونس ١٩٨٠) ويراجع أيضا عن هذا الكتاب وتحليله: دراسة للباحث بعنوان: سهل بن هارون بين الترجمة والتأليف منشور في مجلة (الترجمة واللسانيات، العدد ٢، السنة الثانية ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص٣٥ - ٨٢.

ومن تراث هذا الكاتب القصصي أيضا: (ثعلة وعفرة) وقد حاكى به أيضا كليلة ودمنة، وقد ضاع هذا الكتاب أيضا، ووصل منه بعض النقول التي أثبتها الحصري في كتابه (زهر الأداب: ٢/٢٠٢)، ونقلها عنه ابن نباتة في كتاب (سرح العيون: ص١٦٩) ومن كتب سهل القصصية أيضا: كتاب (الوامق والعذراء) وربما كان سهل قد اقتبس هذه القصة من الأدب الفهلوي القديم. (ينظر ما أشار إليه دولتشاه السمرقندي في كتابه: تذكرة الشعراء: ٣٠. ويراجع عن هذه القصص كتاب =

ترجمت إلى العربية مكانا بارزا في الأدب العربي، وأصبحت تلك القصص النماذج المثلى للسمر والتسلية، ولعل أشهر نماذج قصص السمر الفارسية التي ترجمت إلى العربية في هذا القرن، حكايات (ألف ليلة وليلة) أو (هزار أفسان) - أي ألف حكاية - وهي حكايات سمر تقع في حدود مائتي حكاية سمر موزعة على ألف ليلة[١].

ومن قصص السمر التي ترجمت عن تراث الثقافة الهندية في هذا القرن أيضا: (قصص السندباد)، وقد ذكر ابن النديم[٢]، أن هذه الحكايات كانت موجودة قائمة بذاتها، وعلى تفاوت في طولها، وقد أكد المسعودي أن هذه الحكايات كانت معروفة في هذا القرن، غير أنها كانت مؤلفة قبل الإسلام بمدة طويلة، وأنها من كتب الهند[٣].

وقد ذكر بعض الباحثين المعاصرين أن قصص السندباد هي من الحكايات المحبوبة التي يميل إليها الناس ميلا خاصا[٤]، ويقال: إن مؤلفها طبيب هندي اسمه (سندباد)[٥].

****

وفي القرن الرابع تطرد هذه الظاهرة الأدبية - فضلا عن أهمية تأثير بعض مفكري الفرس وغيرهم في ترجمة ووضع أو شرح المعارف والعلوم الأجنبية التي

مخطوط للباحث بعنوان (سهل بن هارون الكاتب حياته وآثاره، مخطوط للباحث، المبحث الثالث من الفصل الثاني: ٨٧ - ٩٧).

(١) ينظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١/٤٦٧.

(٢) الفهرست: ٣٠٥، وأشار إلى أن الغالب والأقرب إلى الحق أن تكون الهند صنَّفتهُ، وأشار إلى أن نسخة بهلوية منه كانت موجودة حتى عهد السامانيين وقد نقلها إلى الفارسية بأمر الأمير نوح بن منصور، أبو الفوارس قناوزي.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٤/٩٠، وأشار القزويني في حواشي كتاب (جهار مقالة: ١٣٧ - ١٣٨) إلى أن (سندباد نامة) في قصص وحكايات الفرس أو الهند.

(٤) على الرغم مما احتله هذا اللون من القصص الأجنبي المترجم من موقع بارز في الأدب العربي، إلا أن هذه الحكايات لم تكن لتروق الأدباء الذين يؤثرون النثر الفني الجميل المؤثر، والذي يحوي إلى جانب ذلك قدرا من التزويق وحلي البديع، ومن هنا فقد عد الأستاذ متز أن ميل طبقة العامة لهذا القصص الاجنبي، وشغفهم به دليل واضح على ضعف الذوق العربي الأصيل.

(٥) ينظر هامش كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع (المترجم): ١/٤٦٧.

اتسع مداها في هذا القرن - فقد قام بعض الأدباء والكتاب الأعاجم بوضع أو تأليف الحكايات وقصص السمر بأسلوب جديد يغاير كل المغايرة القصص القديمة التي تميزت بالنزعة العربية الخالصة[١].

ولعل أدق ما يوضح لنا شيوع هذا اللون من الكتب التي عنيت بالحكايات وقصص السمر، ما ذكره المؤرخ (حمزة الأصفهاني)[٢] - في حوالي سنة ٣٥٠هـ - من أنه كان في عصره من كتب الحكايات وقصص السمر التي تتداولها أيدي الناس ما يقرب من سبعين كتابا.

ومن تلك الكتب الشهيرة التي عنيت بالحكايات وقصص السمر في هذا القرن، ما أشار إليه ابن النديم[٣]، من قيام أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري من تأليف كتاب في الحكايات، اختار فيه من أسمار العرب وغيرهم أربعمائة وثمانين سمرا على نسق قصص ألف ليلة وليلة، وجعل كل سمر في هذا الكتاب قائما بذاته، ويكفي لليلة واحدة.

ومن مشاهير الكتاب والمفكرين الفرس الذين كان لهم القدح المعلى في التصنيف والترجمة، ووضع الحكايات وقصص السمر في هذا القرن: أبو علي ابن مسكويه الخازن (ت ٤٢١هـ) الذي وصفه القفطي بأنه كان من كبار فضلاء العجم وأجلاء الفرس، وأشار إلى أن له مشاركة حسنة في العلوم الأدبية[٤]، وقد ذكر القفطي من تصانيفه المشهورة في هذا المضمار كتاب (أنس الفريد) ووصفه بأنه أحسن كتاب صنف في الحكايات القصار والفوائد اللطاف[٥].

ومن التصانيف المترجمة التي جمعت بين قصص السمر والشعر والأخبار، ما قام به (البغوي) - أبو منصور أحمد بن محمد[٦] - إذ عكف على جمع كتاب مترجم يشتمل على ما تشتهي الأنفس من محاسن القصص والأشعار والأخبار، وقد ذكر

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٤٦٨/١، ويراجع ما ذكره الدكتور مبارك عن قصص أبي الفرج الببغاء (النثر الفني في القرن الرابع: ٢٩٥/٢).

(٢) يراجع كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: ٤١ - ٤٢ (طبعة جوتفالد).

(٣) ينظر: الفهرست: ٣٠٤.

(٤) يراجع كتاب: أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢١٧.

(٥) المصدر نفسه: ٢١٧.

(٦) تراجع ترجمته وأخباره في: يتيمة الدهر: ١٦٢/٤ - ١٦٣.

الثعالبي أنه يقع في ثلاثين مجلدة[١].

ومن المصنفات التي وضعت بالفارسية في علوم الأدب وفنونه أيضا، والتي كان لها قيمتها الكبيرة في الدراسات الأدبية في أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الذي أعقبه، كتاب (خجسته نامه) للبهرامي، وكتاب (ترجمان البلاغة) للفرخي، وموضوع الكتابين في علم العروض والبلاغة[٢].

وإلى جانب ما ذكرنا، فقد انتشرت في هذا القرن أيضا كتب قصصية كثيرة، ذات طابع شعبي، لم يعرف مؤلفوها، وقد انصبت موضوعات تلك القصص على الفروسية، وألوان المغامرة، ومنها ما دار في النوادر، والحكايات الهزلية المسلية، ومنها أيضا مجموعة من القصص الغرامية، وبخاصة حكايات الشعراء المشهورين، وأهل الدهاء من النساء العاشقات وغيرها[٣].

وأخيرا تجدر الإشارة، في هذا المقام، إلى أن بعض كتاب الفرس قد صنفوا كتبا تاريخية (محلية)، كتبوها باللغة العربية، وقد أشار المستشرق إدوارد براون[٤] إلى أن جل تلك المصنفات قد ضاعت ولم يصل إلينا منها سوى ترجماتها الفارسية.

لقد كان لشيوع هذه الظاهرة الأدبية أثرها الواضح في رسائل بعض كتاب هذا القرن، وبخاصة بديع الزمان، إذ ظهر في سياق عدد من رسائله الأدبية والإخوانية ميل واضح إلى إدراج القصص والحكايات وتوظيفها في رسائله تلك، وقد كانت تلك الحكايات تتفاوت بين الطول والقصر، وكان يدرجها في رسائله على سبيل التمثيل أو التشويق أو السخرية، أو لغير ذلك، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الجانب في رسائل الهمذاني في المبحث الأول من هذا الفصل.

ففي رسالة الهمذاني إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد التي يشكو فيها أبا بكر الحيري، أحد قضاة عصره، يشبه الكاتب حالة الطامع الذي يقوده أمله وطمعه آفاقا بعيدة، والخير قريب منه، يشبهه بحال (الرجل البخاري) الذي ضاع حماره فسعى

---

(١) المصدر نفسه: ١٦٢/٤.

(٢) تاريخ الأدب في إيران، إدوارد براون: ١٣٣/٢.

(٣) تراجع التفاصيل في: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٤٦٨/١ - ٤٦٩.

(٤) تراجع التفاصيل وأسماء تلك الكتب التاريخية المحلية في: تاريخ الأدب في إيران: ١٣١/٢.

جاهدا للبحث عنه، يقول[١]: "... ثم لم يكن مثلي معه إلا مثل البخاري الذي ضاع حماره وخرج في طلبه، حتى عبر جيحون بسببه، يطلبه في كل منهلة، وينشده في كل مرحلة وهو لا يجده، حتى جاوز خراسان، وانتهى إلى طبرستان، وأتى العراق وطاف الأسواق، فلما لم يجده، وايس، عاد، وقد طالت أسفاره، ولم يحصل حماره، حتى إذا حصل في بلده، بين أهله وولده، أحب الله أن يلطف له لطفا ليعتبر به، فنظر ذات يوم إلى اصطبله فإذا الحمار بسرجه ولجامه، وثَفَره وحزامه قائما على المعلف ينشّ، وأنا أيضا ما زال يرددني في هذا الباغ بأمل يرخيه ويسده، وطمع يرسله ويمده... "[٢].

وهكذا نحا بديع الزمان الهمذاني في رسائله الأدبية والإخوانية - بما أوتي من موهبة متقدة، وبلاغة نادرة، وحضور بديهة - منحى جديدا تمثل بتوظيف الحكاية في تضاعيف رسائله، فكان له قصب السبق والريادة في ذلك بين أدباء عصره ....

(٣) شيوع الزخارف الشكلية وألوان البديع في الرسائل:

ومن آثار الثقافات الأجنبية ومظاهرها - ولا سيما الثقافة الفارسية - التي انعكست بوضوح على الأدب العربي - ولا سيما المكاتبات الأدبية والديوانية - شيوع ظاهرة الزخرف الشكلي الذي تمثل بحلي السجع والجناس وسواهما من أصباغ البديع اللفظي والمعنوي أيضاً، وانتشارها في تضاعيف الرسائل إبان هذا القرن. ولقد سبقت الإشارة إلى ما ذهب إليه بعض الباحثين من المستشرقين من أن بدء مظاهر تأثير الفرس وثقافتهم في الأدب العربي - ولا سيما في الشعر البدوي - قد تجلت في تغلغل أناقة التعبير، ودقة الذوق التي اختصوا بها[٣].

وقد أكد هذه الحقيقة أيضا باحث آخر، إذ ربط بين اتصال الأدباء والكتاب بالحضارة الفارسية، وتأثرهم العميق بالأدب الفارسي، وبين شيوع السجع وألوان البديع الأخرى، وطغيانها على أساليبهم في الكتابة والنثر الفني[٤].

فالأستاذ الدكتور طه حسين قد فرز طريقتين مختلفتين ظهرتا في النثر العربي منذ

---

(١) رسائل بديع الزمان: ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) ثفره: الثفر هو السير في مؤخر السرج، وأثفرها شد عليها الثفر، واستثفر بثوبه رد طرفه بين رجليه إلى حجزته (مختار الصحاح، مادة ثفر)، ينش: أي يسمع له صوت كالنشيش وهو صوت الماء المغلي وغيره، والنش أيضا الأكل بعجلة وسرعة.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربي، بروكلمان: ٢/٧ - ٨.

(٤) ينظر كتاب: من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين: ٧٩ - ٨٠.

القرن الثاني للهجرة، هما طريقة الأدباء الذين اتصلوا بالفلسفة اليونانية وتأثروا بها، وطريقة من لم يتصلوا بالفلسفة ومؤثرات الثقافة اليونانية ولكنهم اتصلوا بالتراث العربي، واتصلوا أيضا بالحضارة الفارسية والأدب الفارسي، وتأثروا بهما ...

ثم أشار الباحث إلى أن الفرق بين هاتين الطريقتين بدا أكثر وضوحا في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

ثم خلص إلى أن الأدباء الذين اتصلوا بالفلسفة اليونانية، وهذه الثقافة الغريبة، قد غلب عليهم التفكير، والعناية بالمعاني، وبترتيب الكلام ترتيبا منطقيا.

أما المتصلون بالثقافة الفارسية فهم أصحاب سجع وأصحاب بديع[١]، ثم يستشهد الباحث: بطائفة من أولئك الكتاب في هذا القرن فيقول[٢]:

" ولذلك نلاحظ أن رجلا كأبي حيان التوحيدي، كان من تلاميذ الجاحظ وأشد الناس تأثرا باليونان، لا يلتفت إلى البديع ولا يعنى بالسجع ... بينما ابن العميد والصاحب بن عباد ومن إليهما كانوا يلمون بالثقافة اليونانية، وكانوا حراصا على الثقافة الفارسية فكانوا أصحاب بديع وسجع".

والذي لا شك فيه، أن النثر الفني - ولا سيما المكاتبات الديوانية والأدبية - قد شهد إبان هذا القرن تغلغل مذهب (التصنع)، وجنوح الكتاب إلى الإكثار من استخدام السجع، فضلا عن ألوان البديع الأخرى كالجناس والطباق، وغيرها من الحلي البديعية الأخرى التي استشرت في رسائل هذا القرن، وبخاصة في أدب الطبقة (الخاصة) من الأدباء.

ولعل ما شاع في رسائل أبي الفضل ابن العميد وتلميذه الصاحب بن عباد، وما زخرت به مكاتبات أبي بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم من أعلام المترسلين في هذا القرن خير شاهد على آثار الثقافة الأجنبية (اليونانية والفارسية)، وانعكاسها الواضح على تراثهم الأدبي شعرا ونثرا، وهذا ما سنقف عنده بتفصيل أكثر في الفصل الخامس من هذه الدراسة.

---

(١) المرجع نفسه: ٧٩.

(٢) المرجع نفسه: ٨٠.

الفصل الرابع
موضوعات الرسائل الأدبية وأغراضها في القرن الرابع

توطئة:

الرسائل الأدبية نوع مهم من أنواع النثر الفني، وهذا النوع من الرسائل لم يصدر عن الديوان الرسمي - ديوان الرسائل - وإنما كان يتبادلها الناس كافة، سواء أكانوا من وجوه الطبقة الخاصة - الرؤساء والوزراء وغيرهم - أم من طبقة الأدباء الكتاب - كتاب الدواوين وإضرابهم - أم من العلماء والأدباء والقضاة وغيرهم من فئات الطبقة العامة.

ويعالج هذا النوع من الرسائل غالبا أمورا شخصية محضة ومختلفة، كما تناول بعضها قضايا أدبية أو فكرية دقيقة، أو قضايا اجتماعية أو سياسية مختلفة، بعيدة عن الأوامر أو النواهي الرسمية التي كانت تتميز بها المكاتبات الديوانية.

ومن هذا المنطلق، ونظرا لاختلاف هذا اللون من الرسائل عن المكاتبات الديوانية (الرسمية)[1] من حيث الموضوعات التي عالجتها، لذا فإننا نرى أن جل هذه الرسائل الأدبية لم تكن تخضع لتلك الرسوم أو الطقوس الرسمية التي اتسمت بها المكاتبات الديوانية، على الرغم مما كان يسود الكثير من تلك الرسائل الأدبية في هذا القرن من بعض سمات المكاتبات الديوانية، كالالتزام بمظاهر الصناعة اللفظية، كاستخدام السجع، وبعض ألوان البديع الأخرى، فضلا عن أن بعض أَعلام الرسائل الأدبية وصدورهم في هذا القرن كانوا من كتاب الدواوين المشهورين، أو ممن تسنموا رئاسة الديوان الرسمي.

لقد كان أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن حريصين على إظهار نبوغهم الأدبي، ومقدرتهم الفنية من خلال هذا اللون من الأدب بخاصة، فضلا عن سواه من

---

(١) ينظر: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي: ٣٢٣، حيث رصد الأستاذ أنيس المقدسي أهم جانب تختلف فيه الرسائل الأدبية عن المكاتبات الديوانية، وهو اختلافها في الإغراض أو الموضوعات التي عالجها كلا هذين النوعين من الرسائل.

فنون الأدب الأخرى كالشعر والمقامات والقصص وغيرها، ولعل مرد ذلك يعود إلى أن الرسائل الأدبية في هذا القرن، طفقت تأخذ شهرة واسعة، حتى بدأت تزاحم الشعر، وتلج أبوابه وبعض أغراضه، وتنوب عنه في طرق كثير من ميادينه المختلفة.

وهكذا فقد ولج كثير من الأدباء الكتاب أبان هذا القرن، عبر هذا اللون من الأدب، ميدانا فسيحا يعبرون من خلاله عن أهوائهم الأدبية، ونوازعهم الفكرية، ويحللون أدق المشاعر الإنسانية، ويصفون بعمق ما يعرض لهم في حياتهم الاجتماعية العامة وغيرها، ما يبلغهم إلى أفاق الشهرة والمجد الأدبي والسياسي.

ولعل ما ساعد على خصب هذا النوع من الرسائل أبان هذا القرن، وبلوغ كثير من إعلام الرسائل الأدبية مرتبة الحذق الفني؛ أن طائفة من أولئك الكتاب، لم ينضووا إلى العمل الإداري (الرسمي)، ولم يكتبوا للحكام أو الرؤساء، مما أهلهم ذلك لأن يتمتعوا بحرية واسعة في ممارسة فن الكتابة، والخوض في أفاق عديدة متنوعة، كما ساعدهم ذلك على بروز شخصياتهم الأدبية بصورة أكبر من سواهم من كتاب الدواوين الرسمية، فضلا عن أن بعض أعلام الرسائل الأدبية في هذا القرن كانوا أنفسهم من الحكام أو الوزراء، المتنفذين الذين تمتعوا بقسط أوفر من الحرية في الكتابة، وعدم التقيد بكثير من رسوم الكتابة الرسمية فيما انشأوا ودبجوا من هذا النوع الأدبي الذي شغفوا به، ثم احترفوه، وتخصصوا به.

ولعل ما يؤكد هذا الأمر الذي ذهبنا إليه؛ ما ذكره الثعالبي في الترجيح بين الصاحب ابن عباد وأبي إسحاق الصابي في الكتابة وصناعة الترسل، إذ قال(١): "فقد خاض فيه - أي الترجيح بين هذين الصدرين في صناعة الترسل - الخائضون، وأخب فيه المخبون، ومن أشفى ما سمعته في ذلك: أن الصاحب كان يكتب كما يريد، وأبو إسحاق كان يكتب كما يؤمر، وبين الحالين بون بعيد...".

ولعل ما ذكره الثعالبي آنفا، يوضح بجلاء اثر الحرية الواسعة التي تمتع بها كتاب الرسائل الأدبية فيما حققوا من تفوق أدبي على سواهم من كتاب الدواوين الذين ألفوا ضربا من الكتابة الرسمية، ذات رسوم واصول لم يحيدوا عنها، أو يخرجوا عن طقوسها، على الرغم من براعتهم في هذا الميدان، وشهرة كثير منهم في جوانبه، والتفوق على انداذهم فيه.

---

(١) يتيمة الدهر ٢/٢٩٢.

ولعل هذا ما يفسر لنا أيضا ما ذهب إليه بعض مؤرخي الأدب القدامى من إخفاق بعض مشاهير كتاب الدواوين في هذا القرن - كالإسكافي والصابي مثلا - في المكاتبات الأدبية، وقصور سعيهم فيها، على الرغم من براعتهم في الكتابة السلطانية (الرسمية)، وتفوقهم على من سواهم من الأدباء الكتاب في هذا الميدان.

ذكر الثعالبي في ترجمته لأبي القاسم الإسكافي، بعدما أشاد بنبوغه في صناعة الكتابة الديوانية التي احترفها، وتفوقه على من سواه في ذلك، يقول[١]: "ومن عجيب أمره أنه كان اكتب الناس في السلطانيات، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعي، قصير الباع".

وقد أشار إلى هذا الأمر أيضا الناقد ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) حين المح إلى تقدم أبي إسحاق الصابي في السلطانيات، وتأخره في الإخوانيات وكذلك في كتب التعازي، إذ قال[٢]: "وكيف أضع من الصابي، وعلم الكتابة قد رفعه، وهو إمام هذا الفن، والواحد فيه، وقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد في السلطانيات كل الإجادة، وأحسن كل الإحسان. ولو لم يكن له سوى كتابه الذي كتبه عن عز الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومحاصرته إياه بالعصيان، لاستحق به فضيلة التقدم، وكيف وله من السلطانيات ما أتى فيه بكل عجيبة، ولكنه في الإخوانيات مقصر، وكذلك في كتب التعازي ".

ومن جانب آخر، فقد أتاحت تلك الحرية الواسعة التي تفيأ في ظلالها أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، أتاحت لهم أن يتناولوا موضوعات كثيرة ومتنوعة، شملت أكثر نواحي الحياة العامة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها.

ولقد كان لجدية بعض الموضوعات التي تناولها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، وطبيعتها الخاصة، وما تقتضيه من الالتزام؛ للتعبير بصدق عن الآراء والمبادئ السياسية أو الفكرية، كان لذلك كله أثره الكبير فيما تميزت به هذه المكاتبات من صدق العاطفة، ودفق الإحساس، فضلاً عن الأصالة وجمال الأداء[٣].

---

(١) يتيمة الدهر ٤/١١٠.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/ ٢٣٨.

(٣) تراجع مثلا رسالة الخوارزمي إلى جماعة الشيعة في نيسابور: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٦٠ - ١٧٢، ورسالة الأمير قابوس بن وشمكير إلى خاله الاصبهذ: كمال البلاغة: ٥٢ - ٥٧، -

ولعل هذا التنوع في موضوعات الرسائل الأدبية بخاصة، يعود إلى أن كثيرا من كتاب هذا النوع من الرسائل في هذا القرن، كانوا إمّا من الطبقة الخاصة - الحكام والوزراء واتباعهم - الذين اضطلعوا بالحياة السياسية والاجتماعية، واثروا فيها، وإمّا من كتاب الدواوين الذين شاركوا في الحياة العامة، ومارسوا الكتابة الأدبية في موضوعات غير رسمية، وإمّا من طبقة الأدباء الكتاب الذين تفاعلوا مع الحياة السياسية والاجتماعية، وتأثرت حياتهم الخاصة بتداعياتها، كما تجلى ذلك في كثرة ترحالهم واغترابهم، وتنقلهم بين الأقاليم الإسلامية المترامية.

ومن هنا فقد كان لهم صلات سياسية واجتماعية وطيدة بكثير من أولئك الرؤساء واتباعهم، وغيرهم من فئات الطبقة العامة، ولا سيما العلماء والأدباء وغيرهم، وتبعا لذلك فقد كثرت مراسلاتهم الأدبية - ولا سيما الإخوانية - وتنوعت موضوعاتها، وتعددت مقاصدها وأغراضها كما سيأتي تفصيله في المبحث الأول من هذا الفصل.

ولقد مرَّ بنا، في الفصل الثاني من هذه الدراسة، أن هذا الفن النثري بدأ بيسير موازيا لفن الشعر في هذا القرن، وانه راح يعالج أكثر موضوعاته ويطرق أكثر أغراضه الخاصة.

ومن جانب آخر، فما لبث هذا الفن النثري، منذ منتصف هذا القرن ولا سيما بعد أن تهيأت له عوامل عديدة أسهمت في تطوره ونضجه، كما الممنا بذلك في الفصل المذكور آنفا، ما لبث يخرج من دائرته إلى دائرة أوسع مما كان عليه في القرون الثلاثة السالفة، إذ طفق يعالج موضوعات بعيدة عن متناول الأدب، أو بمنأى عن دائرته الفنية الخاصة.

لقد تناولت طائفة من الرسائل الأدبية موضوعات وجوانب بعيدة عن طبيعة الأسلوب الأدبي، فشرع بعض الكتاب يكتب مثلا في فداحة الضرائب، ويشرح جباية الخراج، أو يفيض في الحديث عن أمن طرق الحجيج، أو إصلاح السدود وسقي الأراضي، أو يتناول تكوين العالم ونشأته، أو وصف النفس الناطقة في غير الإنسان، وما إلى ذلك من قضايا فلسفية أو علمية مختلفة تتصل بصناعة الطب أو علم الأفلاك

-

ورسالة الهمذاني إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد يشكو أبا بكر الحيري: رسائل بديع الزمان: ١٦٢ - ١٧٥، وغيرها.

والنجوم، وغير ذلك من الأمور التي هي أكثر لصوقا بالحقائق، ولا يتسع في مجالها المحدود تدفق الرؤى أو تحليق الخيال، إذ أن أكثر تلك الأمور التي أشرت إلى بعضها تقترب إلى تصريف العقل، ولا يتسع فيها أفق العاطفة واتقاد المشاعر.

يقول اليزدادي، مشيرا إلى رسائل الأمير شمس المعالي قابوس الفلسفية إلى جانب رسائله الأدبية[1]: "وإنما أضفتها - أي الرسائل الفلسفية الأربع - إلى هذه الرسائل؛ ليعلم أن كلامه وعبارته في شرح جميع العلوم ككلامه وعبارته في نمط الكتابة. فإن هؤلاء الذين ترجموا كتب الفلسفة وغيرها، لم يقدروا على العبارة عنها إلا بألفاظ عامية ركيكة، وإن كان من تعاطى ذلك مشهورا في الفصاحة والبلاغة".

وهكذا نصل إلى حقيقة مهمة، تلك هي أن إخضاع مثل هذه الموضوعات وتطويعها للأسلوب الأدبي أمر ليس باليسير، ولا يستطيع أداءه إلا أديب متمرس، يستطيع سرد مثل تلك الموضوعات الجافة وما يقاربها في قالب أدبي، أو إدراجها في أسلوب أدبي شيق، يؤثر في المتلقي، ولا يتأتى ذلك إلا للأدباء الأفذاذ الموهوبين.

وهكذا كان كتاب الرسائل الأدبية أبان هذا القرن، في طليعة أولئك الأدباء الذين طوعوا كثيرا من المعاني والأغراض التي كانت حكرا على الشعر وفنونه وطبيعته وبنائه، فأخضعوها للنثر، فانقادت طائعة في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية البليغة، كما سيتضح ذلك في كثير من أغراض الرسائل الإخوانية، وفي رسائل الوصف، ورسائل الهزل والفكاهة وغير ذلك، كما طوعوا كثيرا من الموضوعات (الجافة) التي تخضع للحقائق أكثر مما تستجيب لنوازع الوجدان والشعور، ومسارب الخيال، فطوعوا كثيرا من تلك المعاني والموضوعات في ترسلهم، وتصرفوا في رسائلهم الأدبية، ومدوا إطنابها، وطوعوها أيضا لتستوعب التعبير عن نواحي الحياة المختلفة في هذا القرن المضطرب.

وهكذا خطت الرسائل الأدبية على أيدي جهابذة الكتاب المبرزين وصدورهم في هذا القرن، وفي مقدمتهم أبو الفضل ابن العميد، وأبو القاسم الصاحب بن عباد، والأمير قابوس بن وشمكير، وأبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني وإضرابهم، خطت خطوات واسعة نحو الفن والإبداع؛ إذ تعهدوها بالرعاية والتهذيب والإحكام، فتطورت - تبعا لذلك - تطورا هائلا، ولا سيما من الناحية الفنية والموضوعية.

---

(١) كمال البلاغة: ٨٤.

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن تجمل أهم ألوان الرسائل الأدبية وموضوعاتها وفقا لما عالجته من أغراض ومقاصد في هذا القرن، بما يأتي:

أولا: الرسائل الإخوانية:

وهي ما تَّم تبادله من رسائل بين الأصدقاء، والأقارب، والإخوان، في موضوعات وأمور شخصية متنوعة.

ثانيا: الرسائل الوصفية:

وهي الرسائل الأدبية التي انطوت على وصف المشاهدات الشخصية، وقد شملت وصف الأمور المحسوسة وغير المحسوسة من المعاني والصفات الدقيقة التي يتم إدراكها أو تحليلها عن طريق العقل أو الوجدان.

ثالثا: الرسائل الهزلية والمفاكهات الأدبية:

وتشمل المكاتبات الهزلية، والمباسطات الأدبية في كثير من القضايا الشخصية والاجتماعية وغيرها.

المبحث الأول

الرسائل الإخوانية في القرن الرابع

الرسائل الإخوانية: نوع مهم وشائع من أنواع الرسائل الأدبية، ويطلق هذا المصطلح الأدبي عادة على ما تم تبادله من رسائل نثرية أو شعرية بين الإخوان والأقارب أو الأصدقاء، في قضايا شخصية، أو أمور اجتماعية مختلفة[1].

وهذا اللون من الأدب قديم، وقد عرفه الأدب العربي منذ عصر صدر الإسلام، وما أعقبه من عصور الأدب العربي الأخرى[2].

وقد طرأ تطور كبير وواضح على هذا اللون من الرسائل النثرية أبان هذا القرن، وبدأ يتخلل كثيراً من إغراضها مفاهيمُ جديدة، وأطر مبتكرة، فضلا عما برع فيه كثير من كتاب هذا اللون من الرسائل في هذا القرن من إدخال كثير من التعابير الأنيقة، والصور الجديدة.

يقول الأستاذ مبارك مؤكدا على تطور الإخوانيات وجدتها في هذا القرن: "وقدم هذا الفن في العربية، لا يمنع انه صار في القرن الرابع فنا قويا، يخيل إلى القارئ انه فن جديد؛ لكثرة ما جدَّ فيه من الصور والتعابير..."[3].

إما الأستاذ شوقي ضيف فله رأي آخر في هذه المكاتبات الإخوانية (الشخصية) وتطورها في هذا القرن، إذ ذهب إلى أن كتاب الرسائل الشخصية كانوا إيذانا لظهور مذهب جديد في الأدب والنقد هو مذهب التصنع، حين عمدوا - نظرا لضيقِ معانيهم - إلى تعقيد أساليبهم الزخرفية، أو اتخاذ فنون جديدة في نثرهم، لا تمت إلى التجميل بصلة، وإنما تميل إلى التحذلق والتكلف[4].

ثم خلص الأستاذ ضيف إلى أن مفهوم الرسائل الشخصية (الإخوانيات) قد تطور إلى الدلالة على الغايات التعليمية، بدلا من التعبير عن المعاني، ومن ثم فقد صار لهذه

---

(١) مما ذكره القلقشندي في حدّها ورسومها؛ أَنَّ المكاتبات الإخوانيات - وهي جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان، جمع أخ - والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء. ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٢٦/٨ وما بعدها.

(٢) عدَّ الأستاذ مبارك (الإخوانيات) فنا قديما في اللغة العربية، وانه وُجد في النثر كما وُجد في الشعر. ينظر: النثر الفني في القرن الرابع: ٢٠٠/١، وينظر أيضا: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الأموي - للباحث: ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٣) النثر الفني في القرن الرابع: ٢٠٠/١.

(٤) تراجع التفاصيل في: الفن ومذاهبه في النثر العربي: ٢٢٩ وما بعدها.

المكاتبات قوالب وأساليب تُحفظ من لدن الكتّاب، ويحفظها المتأدبون، ويعارضونها أو يحاكونها في ترسلهم[١].

والذي لا شك فيه أن الرسائل الإخوانية اقرب إلى الفن والتعبير الإنشائي الأدبي الصافي من سواها من المكاتبات الأخرى، وبخاصة المكاتبات السلطانية (الديوانية)، فهي صدى النفس، ورجع الوجدان، ومنبثق العواطف الإنسانية. ومن هنا فقد أطلق بعض الباحثين على كتاب هذا اللون من الرسائل، بالكتاب الأحرار[٢].

وقد كانت الرسائل الإخوانية في هذا القرن تصدر عن طبقات مختلفة من الكتّاب، وكان يتمّ تبادلها بين الناس كافة. ومن هنا فقد كان لهذا الضرب من الرسائل أهمية كبيرة؛ لما اتسم به معظمها من ملامح فنية، إذ كان منشئو هذه الرسائل غالبا ما يعنون بانتقاء الألفاظ وتنسيقها، ويتأنقون في أداء المعاني.

وقد أكد القلقشندي ذلك فيما ساقه عن هذا اللون من الرسائل، فذكر نقلا عن كتاب (مواد البيان) يقول[٣]: "... ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها ... والكاتب إذا كان ماهرا، اغرب معانيها، ولطَّف مبانيها، وتسهل له فيها مالا يكاد أن يُتسهل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير ولا تتجاوز".

لقد شاعت المكاتبات الإخوانية في هذا القرن شيوعا واضحا؛ لشدة الحاجة إليها، ولعل هذا الانتشار، وذيوعها بين الناس، هو الذي حفز بعض مؤرخي الأدب العربي، والمصنفين القدامى، وفي مقدمتهم أبو منصور الثعالبي، على الاهتمام بهذا اللون من الرسائل، إذ عكفوا على جمع الكثير منها وتدوينها، وجمع ما تفرّق من نصوصها، وشتات فقرها في فصول كتبهم وأبواب مصنفاتهم[٤].

---

(١) المرجع نفسه: ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) ينظر كتاب: بديع الزمان الهمذاني - مصطفى الشكعة: ٦٨.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٩/٥.

(٤) عني أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) في كتابه (يتيمة الدهر) بجمع كثير من الفقرات والفصول الخاصة بالمكاتبات الإخوانية، وتدوين فصول كثيرة مقتضبة للأدباء الكتاب المشهورين في عصره؛ كأبي الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد والأمير قابوس بن وشمكير وأبي الفضل الميكالي وغيرهم. تراجع تلك الفقر والفصول في تراجم الأدباء المذكورين في كتاب اليتيمة، كما جمع الثعالبي أيضا، ضمن فصول كتابه الشهير (سحر البلاغة) فصولا بليغة مقتضبة من المكاتبات الإخوانية، مما تخيره لبلغاء الكتاب في عصره. ينظر كتاب سحر البلاغة للثعالبي في =

أما أهم دواعي هذا الازدهار الذي طرأ على المكاتبات الإخوانية في هذا القرن، فيمكن أن نعزوهُ إلى اختلاط العرب بالأجناس الأعجمية، وامتزاج الثقافات، فضلا عن ظهور كتاب بلغاء كثيرين من غير العرب، وانتشارهم أو تفرقهم في أقاليم كثيرة وفسيحة في المشرق الإسلامي وغيره من الأصقاع وكثرة تنقلهم بين حواضر تلك الأقاليم واغترابهم، إذ كان لذلك كله اثر كبير فيما طرأ على هذه الرسائل بخاصة، وغيرها أيضا، من تطور ونضج وازدهار.

ولبعض الباحثين المعاصرين رأي طريف في هذا الجانب، لا بأس من التنويه به في هذا الموضع بإيجاز؛ فقد ذهب الأستاذ غناوي الزهيري[١] إلى أنَّ ذلَّ الطبقة الخاصة في المجتمع الإسلامي (البويهي) أبان هذا القرن - وبخاصة في الإمارة البويهية - وفقدانها لصفاتها الكريمة، كان هو السبب في ازدهار هذه الإخوانيات، ويستدل الباحث على ذلك، بما ظهر في هذا اللون من الرسائل أبان هذا القرن، من تكلف الكتّاب في أساليب المكاتبات التي عظَّمت شأن المخاطب إلى حد الإسراف.

ونحن هنا لا نتفق مع ما ذهب إليه الأستاذ الزهيري لأمرين:

(**الأمر الأول**): هو انه ليست جميع المكاتبات الإخوانية في هذا القرن كانت مشوبة بالتكلف والمبالغة، وزيف المشاعر والعواطف، نتيجة للملق والرياء الذي ساد بيئات الطبقة الخاصة. ولنا شواهد كثيرة على ما ذهبنا إليه من تلك الرسائل الإخوانية التي تمَّ تبادلها بين الأصدقاء والخلان في هذا القرن، ولعل أشهرها ما دار بين الشريف الرضي وأبي إسحاق الصابي، وبين أبي الفرج الببغاء وبعض أترابه في بغداد وغيرها أثناء انقطاعه وإقامته في حاضرة الأمير سيف الدولة في حلب، وغيرها من الإخوانيات الأخرى.

=

مواضع كثيرة متفرقة منه.

(١) ينظر كتاب الأدب في ظل بني بويه: ٢٠١ - ٢٠٢، حيث ذهب الباحث إلى القول: "وأما الإخوانيات فقد ازدهرت في هذا العصر أيضا كما ازدهر الأدب الرسمي، وكان سبب ازدهارها يتصل بأخلاق الطبقة العليا ونزعاتها اتصالا وثيقا؛ وتعليل ذلك أن هذه الطبقة - كما مر بنا - قد فقدت كثيرا من الصفات الكريمة، واستعاضت عنها بالذل والضعة، وفقدان الشعور بالكرامة، والاستخفاف بكرامة الغير وبالملق والنفاق ...".

(الأمر الثاني): إنَّ المكاتبات الإخوانية في هذا القرن لم يقتصر شيوعها أو انتشارها في بيئة الأمراء البويهيين وخواضرهم المتعددة وانحسار أثرها في حواضر الإمارات المستقلة الأخرى.

ذكر الأستاذ الزهيري يقول:(١) "كل ذلك قد انعكس صداه في الحياة الأدبية، فأنتج فنا من الأدب بعينه، هو فن (الإخوانيات)، فقد كانت هذه الظاهرة الاجتماعية من البواعث القوية على ازدهاره في هذا العصر، وفي هذه البلاد دون سواها، ولو لم يكن الأمر كذلك لما شاعت الإخوانيات في الأدب البويهي بينما لا نكاد نجد لها أثرا في الآداب الإقليمية الأخرى".

وما من شك في أن (الإخوانيات) في هذا القرن لم يقتصر تبادلها أو انتشارها في بيئة واحدة؛ ذلك لأن الأدباء كانوا دائبي التنقل والرحلة من حاضرة إلى أخرى، كما أن إقليم خراسان، على عهد السامانيين، مثلا، وإمارة بني ميكال أيضا، فضلا عن إمارة بني حمدان في حلب والموصل، وإمارة خوارزم شاه، وغيرها من حواضر الإمارات المستقلة الأخرى في هذا القرن، كانت كلها منتجعا لكثير من الأدباء والكتّاب، وكانوا على صلة وثيقة مع بعضهم، وكانوا دائبي المراسلة مع أقاربهم وأترابهم، فضلا عن أمراء ورؤساء تلك الممالك الإسلامية النائية.

أغراض الرسائل الإخوانية ومقاصدها:

لقد عبرت المكاتبات الإخوانية في هذا القرن عن كثير من الأمور أو القضايا الاجتماعية التي عمت أرجاء المجتمع الإسلامي، وصورت كثيرا من العلاقات الشخصية والاجتماعية الطارئة آنذاك. وقد كان لإسهام الأدباء والكتاب، وتقلبهم في مناحي الحياة العامة المختلفة اثر كبير في تعدد أغراضها ومقاصدها.

ويمكن الوقوف عند أهم أغراض الرسائل الإخوانية ومقاصدها في هذا القرن، وهي كما يأتي:

أولا: الشكوى والاستعطاف والاستمناح:

الاستعطاف وشكوى الحال من الأغراض المهمة التي تناولتها الرسائل الإخوانية في هذا القرن، ويتسم هذا الضرب من المكاتبات غالبا، بحرارة العاطفة، ودفق

(١) الأدب في ظل بني بويه: ٢٠٤.

المشاعر؛ للتأثير في أحاسيس المكتوب إليه.

وهذه المكاتبات ترسل عادة إلى الأقارب أو الأتراب أو كبار الشخصيات من الرؤساء والوزراء وغيرهم، ولذا فقد كانت تتسم بحسن التأتي، والبراعة في صياغة المعاني، ودقة الأفكار وعمقها.

وقد أكد القلقشندي ذلك فذكر يقول(١): "المكاتبة في استعطاف الرؤساء، وملاطفة الكبراء، تحتاج إلى حسن تأت؛ لما تشمل عليه من إيجاب حقوق الخدمة...".

وقد رأى بعض الباحثين(٢) أن الشكوى مظهر من مظاهر الحياة، وهي في أحيان كثيرة لا تنفصم عنها، ومن هنا فقد ربط هذا الباحث بين شيوعها في أي مجتمع إنساني وبين تعقد الحياة، وتفاقم المشاكل المختلفة فيه، فضلا عما يسود المجتمع من التطور الحضاري، ونضج الحياة العقلية فيه، أو اضطراب الأوضاع السياسية والاجتماعية، وما إلى ذلك.

لقد شاعت ظاهرة الشكوى والاستعطاف كثيرا في هذا القرن إذن نتيجة لاضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية، وتردي الأوضاع الاقتصادية، وما نجم عن كل ذلك من تباين كبير وواضح في المستوى المعاشي والاجتماعي بين طبقات المجتمع الإسلامي وفئاته المختلفة، فضلا عما تعرض له الكثير من رعايا الدولة الإسلامية - ومنهم الأدباء والعلماء - من ضروب المحن والنكبات، وما لقيه بعضهم من ألوان الفاقة والبؤس والجور والحرمان(٣).

ومن هنا، فقد كان طبيعيا أن يكثر أدب الشكوى في هذا القرن - شعرا ونثرا - كثرة مفرطة ربما لا نجد لها مثيلا في أي عصر من عصور الأدب العربي. وهكذا اندفع

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٦٥/٩.

(٢) تراجع التفاصيل فيما ذهب إليه الباحث أحمد النجدي في (الشعر والشعراء في البصرة في القرن الثالث): ١٣٨، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد عام ١٩٧٢.

(٣) يراجع ما وقع مثلا (للمعافى بن زكريا النهرواني)، الذي كان نسيج وحده في الإلمام بعلوم زمانه، من مظاهر البؤس والضر: معجم الأدباء: ١٥٢/١٩، ويراجع أيضا ما وقع لأبي إسحاق الصابي، وأبي الفتح ابن العميد وغيرهما من حبس ومحن ومصادرة أو قتل: يتيمة الدهر: ٢ / ترجمة الأديبين المذكورين.

كثيرٌ من الأدباء[١] في هذا القرن، يشكون حظهم العاثر، ويصورون ما ألمَّ بهم من مرارة البؤس والحرمان، وضراوة الإخفاق والفشل في حياتهم القاسية، وراحوا يتضرعون إلى بعض الرؤساء والحكام، أو الأتراب والأنداد؛ استدرارا لعطفهم، أو تنفيسا عما أصابهم من بؤس وعوز وحرمان.

ولعل ابلغ شاهد يجسد هذه الحالة المؤلمة لطبقة الأدباء والعلماء في هذا القرن مثلا؛ ما وقع للأديب الكبير أبي حيان التوحيدي، فهذا الأديب، على الرغم مما بلغه في عصره، من علم جمّ، وأدب ثرّ، وعلى ما عرف عنه من أدب وبلاغة وفلسفة، وصلات حميمة ببعض وزراء عصره، إلا أنه كان كثير الشكوى، دائب التبرم بالحياة والعيش؛ لما لقيه من بؤس وفقر وجوع وحرمان، حتى ليستثير الألم، ويبعث على الحزن والإشفاق.

وكان إلى ذلك دائم التضرع والتذمر من الإخوان والأصدقاء، لما لمسه في عصره من تبدل القيم، وتغير الخلان، وفساد الذمم، وتقلب الأصدقاء[٢].

ولعل رسالة أبي حيان التوحيدي إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس، أحد أترابه، في شكوى البؤس، والتضرع إليه، ورجاء المعونة، خير ما يجلي لنا ما آل إليه حال كثير من الأدباء والعلماء في هذا القرن[٣]، فضلا عن فئات الطبقة العامة، وغيرهم، ومما ورد من هذه الرسالة القيمة قوله[٤]: "أيها الشيخ، سلّمك الله بالصنع الجميل، وحقق لك وفيك وبك غاية المأمول ... خلصني أيها الرجل من التكفف، أنقذني من أنس الفقر، اطلقني

---

(١) من تلك المكاتبات الإخوانية التي جمعت بين الشكوى والاستماحة أو الاستعطاف؛ ما نقله صاحب اليتيمة من فصول للصابي إلى بعض أصدقائه: اليتيمة: ٢٩٧/٢، وقد توجه هذه الرسائل إلى بعض الرؤساء والوزراء، من ذلك مثلا ما كتبه الخوارزمي إلى رئيس نيسابور يشكو حاله، ويستميحه؛ ينظر رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٠٣، ورسالة الهمذاني إلى أبي العباس الإسفراييني، يشكو حاله ومعاناته في تحصيل الرزق ويستميحه ما يستعين به على صلاح حاله، ينظر: رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٢٧ - ٢٨.

(٢) تراجع مقدمة رسالة الصداقة والصديق ٥: وما بعدها، وما بثه فيها من شكوى مريرة من تغير الإخوان والأصدقاء، وينظر أيضا شكواه من زمانه في رسالة الحياة: ٥٣.

(٣) يراجع، على سبيل المثال، ما ذكره السبكي من أخبار (أبي حامد الأسفراييني)، وهو من هو في العلم والفقه والدين - وامتهانه بعض الأعمال الشاقة التي لا تتناسب ومقامه وعلمه؛ كحراسة بعض ذوي اليسار، أو احترافه مهنة الحمالين! لكسب قوته. ينظر: طبقات الشافعية: ٢٦/٣.

(٤) الإمتاع والمؤانسة: ٢٢٥/٣ - ٢٣٠.

من قيد الضر اشترني بالإحسان، اعتبدني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح، اكفني مؤونة الغداء والعشاء.

إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية، والقميص المرقع، وباقلي درب الحاجب، وسذاب درب الرواسين؟

إلى متى التأدم بالخبز والزيتون؟ قد واللهِ بحّ الحلق، وتغير الخلق، الله الله في أمري، اجبرني فإنني مكسور، استقني فإنني صد، أغثني فإنني ملهوف شهرني فإنني غفل، حلني فإنني عاطل.

قد أذلني السفر من بلد إلى بلد، وخذلني الوقوف على باب باب، ونكرني العارف بي، وتباعد عني القريب مني ...".

ثم اختتم أبو حيان شكواه وتضرعه إلى صديقه بعتاب رقيق، أبدع الكاتب كثيرا في حشده في تضاعيف رسالته، ليبلغ سؤله منه، ويبدّد تقاعسه في تحقيق ما كان يأمله منه في وساطته، إذ قال[١]: "وآخر ما أقول: افعل ما ترى واصنع ما تستحسن، وابلغ ما تهوى، فليس والله منك بد، ولا عنك غنى،

والصبر عليك أهون من الصبر عنك، لأن الصبر عنك مقرون باليأس والصبر عليك ربما يؤدي إلى رفع هذا الوسواس، والسلام لأهل السلام".

وعند أنعام النظر في فصول هذه الرسالة الأدبية الرائعة، تتجلى للباحث مقدرة أبي حيان المتميزة في التعبير عن أفكاره المتدفقة، وحسه اللغوي الدقيق، وثراء معجمه اللغوي، وبراعته الفائقة في توظيف ذلك كله في بناء أفكاره وصياغة معانيه.

وقد برع أبو حيان أيضا في الجمع بين عمق الفكرة وحسن صياغتها، وبين دقة الألفاظ وروعة توظيفها في بناء أفكاره الدقيقة المتشعبة، " فهو خبير بأنواع اللفظ، بصير بمواقع جرسه، بارع في التصرف بحروف عباراته "[٢].

ومما رفد هذه التحفة الأدبية بالجمال والفن أيضا؛ لجوء التوحيدي إلى الترادف، وقصر العبارات؛ كما اتضح في قوله مثلا: "افعل ما ترى، واصنع ما تستحسن، وابلغ ما تهوى، فليس والله منك بد، ولا عنك غنى".

ويتضح بجلاء ما حققه هذا الترادف الجميل من جلاء المعنى في الذهن

---

(١) المصدر نفسه: ٣/٢٣٠.

(٢) ملامح النثر العباسي: ٢٤٦.

وتوكيده في النفس، فضلا عما حققه من جمال في التعبير فيما أضفاه على أسلوبه من تلوين التعبير، واغنائه بالإيقاع الموسيقي المتناغم.

ولا يخفى أيضا ما للتكرار في هذا النص الأدبي، ولا سيما تكرار الاستفهام من قيمة فنية وجمالية أضفاها على ظلال المعاني المتتابعة، على شاكلة قوله: "إلى متى الكسيرة اليابسة ...؟ إلى متى التأدم بالخبز والزيتون؟ ...".

فضلا عما أضفاه تتابع الجمل الطلبية أو الجمل الخبرية في هذا النص من روعة الموسيقى، وجمال التعبير. يقول في تضاعيف هذه الرسالة: "أجبرني فإنني مكسور، اسقني فإنني صد، اغشني فإنني ملهوف، شهّرني فإنني غفل، حَلِّني فإنني عاطل.

قد أذلني السفر ... وخذلني الوقوف ... ونكرتي العارف بي، وتباعد عني القريب مني".

وهكذا تجلّت في هذه الرسالة الأدبية موهبة أبي حيان الأديب، وبراعة أبي حيان الكاتب، وتوارت في ثنايا فقرها المنسابة معالم الفيلسوف وملامح المفكر.

ولقد استوقفت الأوضاع السياسية والاقتصادية المضطربة في هذا القرن وبخاصة تصرفات كثير من الولاة وعمال الخراج وبعض المحتسبين والقضاة وجباة الضرائب وغيرهم، وما اتبعوه من أساليب جائرة، وألوان التعذيب والبطش مع الرعية من أجل استحصال الأموال، استوقفت كثيرا من الأدباء فأثارت حفيظتهم، وألهبت أحاسيسهم، فراحوا يعبرون عن فداحة تلك المآسي والمحن التي ألمت بمجتمعهم، بما صدر عن اسلات أقلامهم من شكوى مريرة كانت أحيانا صرخات مدوية بوجه أولئك العمال المتجبرين.

ولعل أبا بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني يقفان في طليعة الأدباء الكتاب الذين رصدوا هذه الجوانب الخطيرة في مجتمعاتهم الإسلامية.

لقد صور الخوارزمي في رسائل إخوانية عديدة(١) جور عمال الخراج وما أثقلوا

(١) تراجع رسائل الخوارزمي الآتية: رسالة رقم (٧): ٢٢ - ٢٤؛ وفيها نقد لاذع للأوضاع الاقتصادية وجباية الضرائب، وشكوى عمال الخراج، وفيها أيضا يستنجد الخوارزمي بصاحب الديوان ويستعطفه لحمايته من تعسف الجباة وعمال الخراج، رسالة رقم (١٦): ٣٥ - ٣٦ إلى صاحب ديوان الخراج؛ والرسالة شكوى مريرة تكشف ما كان يفرض من ضرائب على الأفراد، وقد عبر عنها بأنها (خزاية لا جباية)، رسالة رقم (٥١): ١٠٢ - ١٠٣؛ والرسالة وثيقة اقتصادية مهمة عن طبيعة الضرائب وطريقة جبايتها رسالة رقم (٥٥): ١١٢؛ وتصور هذه الرسالة أيضا فساد الحالة
-

به كاهل الرعية من استحصال تلك الضرائب، ومصادرتهم لضياع كثير من فئات الطبقة العامة الفقيرة، وصور أيضا مطاردتهم للآمنين، وإدخال الرعب في قلوبهم لحملهم قسرا على دفع تلك الضرائب الجائرة.

ومن عيون رسائل الخوارزمي الكثيرة في الشكوى والاستعطاف ما كتبه إلى صاحب ديوان الحضرة يشكوه تعسف عمال الخراج وجورهم على الرعية، ومما ورد في تلك الرسالة(١): "كتابي إلى الشيخ من الديوان، وأنا فيه ملتحف بالحرمان، مشتمل بالذل والهوان، قاعد بين النقصان والخسران، عن يميني مستخرجان، وعن يساري وكيلان، والحمد لله على تصاريف الدهر وأحواله ... وما أشكو إلا نحسي، ولا أهجو إلا نفسي، وما خصمي غير حرماني، ولا قرتي إلا زماني ...".

والرسالة طويلة، وهي كما يبدو بوضوح، وثيقة رائعة، نكشف سوء الأوضاع الاقتصادية والمالية، وتصور بأسى، جور جباة الضرائب وعمال الخراج، لا سيما في أقاليم المشرق الإسلامي النائية. والرسالة أيضا صرخة مدوية صدح بها الخوارزمي ليهز من خلالها عروش الطغاة المتجبرين الذين ينعمون برغيد العيش على حساب شقاء الفقراء المظلومين.

ونظير رسائل الخوارزمي - الأنفة الذكر - في الشكوى والاستعطاف ونقد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في هذا القرن؛ ما كتبه بديع الزمان الهمذاني في كثير من رسائله الإخوانية(٢). ولعل اجمل تلك الرسائل في نقد الأوضاع العامة وشكوى

المالية وتعسف الجباة وينظر أيضا في هذا الجانب: رسالة رقم (٩٢): ١٥٦ - ١٥٧، رسالة رقم (١٤٢): ٢٢٩ - ٢٣٠، رسالة رقم (١٤٦): ٢٥١ - ٢٥٢، رسالة رقم (١٥٨): ٢٦٠ - ٢٦١ وكلها رسائل إخوانية في الشكوى من فداحة الضرائب وتعسف الجباة وجورهم وعدم نزاهتهم.

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: رسالة رقم (٧٩): ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) ينظر مجموع رسائل بديع الزمان: رسالة رقم (٣): ١٢ - ١٤؛ وهي موجهة إلى أبي العباس الإسفراييني - وزير محمود الغزنوي - وفيها يصف ظلم عمال الخراج، وعدم تدوين ما يأخذونه من أموال الخراج، وهي إشارة مهمة إلى سرقتهم وابتزازهم، رسالة رقم (٨): ٢٦ - ٢٧، وهي رسالة موجهة أيضا إلى الإسفراييني، وهي وثيقة اقتصادية مهمة، وهي شكوى موجهة للوزير عما نابه من عمال الخراج وجباة الضرائب، رسالة رقم (٩): ٢٧ - ٢٨، وهي رسالة يشكو فيها سوء حاله ومعاناته وكثرة أسفاره، ويلوح له أن يقرضه ما يستعين به على صلاح أحواله، رسالة رقم (٣١): ١٣٤ - ١٣٦، وهي موجهة إلى أبي نصر بن المرزبان، وفيها يشير إلى

العمال والقضاة رسالته[١] التي كتبها إلى القاضي أبي القاسم علي ابن أحمد يشكوه فيها أبا بكر الحيري، والرسالة طويلة، وهي وثيقة تاريخية مهمة تكشف بوضوح ما آل إليه القضاء في هذا القرن، وسوء تصرف بعض القضاة، وضالة هيبتهم، وقلة علمهم أو عدم أحاطتهم بأمور القضاء والفقه وأمور الشريعة الأخرى. وسوف نلّم بدراسة بعض فصول هذه الرسالة في المبحث الثاني من هذا الفصل.

ومن جانب أخر، راح كثير من الأدباء في هذا القرن - ولا سيما الشعراء - يعبر عن ضجره من قسوة هذا الواقع المؤلم، ويصرح بتبرمه بالحياة، وما انطوت عليه من ألوان القهر والحرمان، ولكنهم لم يكونوا جميعا صريحين في معالجة هذا الواقع المزري، أو في تشخيص مصدر هذا الظلم والفساد، ولم يجرؤ أكثر هؤلاء الأدباء على الكشف عن جور أولئك الحكام الطغاة وتسلطهم؛ اتقاء لشرهم، أو خوفا من بطشهم وتجبرهم، لذا لجأ أكثر هؤلاء الأدباء إلى أسلوب الإيماء أو الرمز، للتعبير عما ملا نفوسهم من إحباط وآلام، وقد تجلى ذلك واضحا في انصراف كثير من الشعراء[٢]

=

أهل الكدية، ويصرح بحاجته واستماحة رفده، رسالة رقم (٤٠): ١٦١ - ١٦٢، وهي وثيقة اقتصادية مهمة تكشف سوء حالة الأدباء وأهل الفضل في هذا القرن، والرسالة موجهة إلى الشيخ العميد وينظر أيضا رسالته إلى الأمير قابوس يشكوه حاله ويستعطفه؛ زهر الآداب وثمر الألباب ٤١٧/٢، ورسالته أيضا إلى سعيد الإسماعيلي يشكوه حاله، ويخبره بسلب مغيرة الأعراب ماله؛ زهر الآداب: ٥١٧/٢ - ٥١٨.

(١) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٦٢ - ١٧٥.

(٢) لقد اشتهر عدد كبير من شعراء هذا القرن بالشكوى من الزمن، لعل أشهرهم؛ الشاعر ابن لنكك البصري (يراجع الفصل الذي عقده صاحب اليتيمة عن الشاعر ٤٠٧/٢ وما بعدها) ومما شهر له في ذم الزمن والدهر قوله: [من البسيط] / اليتيمة: ٤١٠/٢

إن أصبحت هممي في الأفق عالية ... فإن حظي ببطن الأرض ملتصق
كم يفعل الدهر بي مالا أسر به ... وكم يسيء زمان جائز حنق
كم نفخة لي على الأيام من ضجر ... تكاد من حرها الأيام تحترق

وشعره في هذا الباب كثير مشهور..

وممن شهر في هذا الباب من شعراء هذا القرن أيضا: ابن نباتة السعدي (يراجع في ترجمته وشعره: يتيمة الدهر: ٤٥٠/٢ وما بعدها).

ومما قاله في ذم الزمان والدهر قوله: [من الطويل] / يتيمة الدهر: ٤٥٢/٢.

وأصغر عيب في زمانك أنه ... به العلم جهل والعفاف فسوق

=

بخاصة، وبعض الكتاب إلى الشكوى من الزمان، وما حواه في حناياه من رزايا وهموم ومحن، وراح البعض الآخر من الأدباء يصبّ جام غضبه على الدهر وصروفه وآلامه، إلى غير ذلك من الصور التي كان يستتر خلفها الأدباء؛ للتنفيس عن همومهم، وعما تجيش به ضمائرهم، وتكتوي به أفئدتهم.

ومن نماذج الرسائل الإخوانية التي انصبت على الشكوى من الزمان وصروفه؛ ما كتبه أبو الفضل ابن العميد إلى بعض إخوانه يعاتبه، ومما ورد فيها(١): "أنا أشكو إليك - جعلني الله فداك - دهرا خؤونا غدورا، وزمانا خدوعا غرورا، لا يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتزع، ولا يبقي فيما يهب إلا ريث ما يرتجع، يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع. وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة، إن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدي لما يبسط وشك انقباض ...".

ومن الرسائل الإخوانية التي انصبت على الشكوى من الدهر أيضا؛ ما كتبه الأمير قابوس إلى أبي عبد الله بن وندويه الكاتب، ومما ورد فيها قوله(٢): "شكوت - أطال الله بقاك - الدهر وأحكامه، وذممت صروفه وأيامه، فشكوت من لا يشكي أبدا، وذممت من لا يرضي أحدا، فما زال هذا الدهر يعجب فيما بين يهب وينهب، شيمته رفع الخامل الوضيع، ووضع الفاضل الرفيع، إذا أساء أصر على إساءته، وإذا أحس ندم عليه من ساعته، سيرته ايحاش البشر، وهذا من أسوأ السير، يأخذ بمخنق الخلق، ثم يُغذُّ بهم بسوء الخُلُق، يصعد أحدهم في السمو إلى السكاك، ويبلغه محلا تحده الكواكب في الأفلاك ...".

والرسالة طويلة، وهي تجري على هذا النسق في إلقاء اللائمة على الدهر، والشكوى المريرة من صروفه وغدره، وهي أيضا تطفح بألوان البديع، وضروب

=

وكيفُ يسرُّ الحرّ فيه بمطلب ... وما فيه شيء بالسرور حقيق

ويقول في تبرّمه بالحياة والدهر: [من الوافر] / يتيمة الدهر: ٤٥١/٢

برمت من الحياة وأي عيش ... يكون لمن مطاعمه الخيال؟

ولو أني أعد ذنوب دهري ... لضاع القطر فيها والرمال

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٦٠١/٢ - ٦٠٢.

(٢) كمال البلاغة: ٥٨ - ٦٠.

التجنيس بخاصة، والرسالة لوحة رائعة، ونموذج فريد للتصنع الذي بدأ يستشري في الرسائل الأدبية منذ أواخر هذا القرن.

وهكذا يتضح لنا أن الأدب العربي في هذا القرن المضطرب - ولا سيما المكاتبات الإخوانية - قد تأثر بهذه المظاهر الاجتماعية وتداعياتها، فصورها بأمانة ودقة متناهية، فكان نتيجة لذلك وثائق تاريخية مهمة وخطيرة كشفت عن كثير من إحداث المجتمع الإسلامي، وألوان الصراع الدائب بين طبقاته وفئاته المتباينة في هذا القرن المضطرب.

ثانيا: العتاب واللوم:

العتاب واحد من أهم الأغراض أو المقاصد التي شاع دورانه أو وروده في المكاتبات الإخوانية - شعرا ونثرا - عبر عصور الأدب العربي، وبخاصة في القرن الرابع؛ ولعل مرد ذلك يعود إلى طبيعة العتاب، وكنهه، وشدة امتزاجه بفن الإخوانيات.

فالعتاب، بوصفه ظاهرة اجتماعية وإنسانية " لا ينفصم عن أية علاقة بين بني البشر، فحيث تكون صداقة وإخوان يكون عتاب؛ يزيل صدأ القلوب، ويعيد نهر الحب إلى مجراه "[(١)]، والعتاب أكثر لصوقا بفن الإخوانيات - سواء أكانت شعرا أم نثرا - من سواه من الأغراض الأخرى.

ولعمق الاصرة بين (العتاب) و (الإخوانيات) وامتزاجهما، واقترانه بها، ذهب بعض الباحثين[(٢)] إلى أن الإخوانيات، التي وجدت في النثر كما وجدت في الشعر، تسمى في النثر العتاب.

وذكر الباحث نفسه[(٣)] أيضا؛ أن من المؤلفين من يطلق (الإخوانيات) و (العتاب)، بدون تمييز، على ما يقال - شعرا أو نثرا - في مناجاة الأصدقاء.

وقديما حلل الكاتب البليغ أبو بكر الخوارزمي - وهو أحد من احترف كتابة الرسائل الإخوانية في هذا القرن - في إحدى رسائله القيمة، عمق هذه الوشيجة بين (العتاب) وفن (الإخوانيات)، وشدة امتزاجهما، فقال[(٤)]: "... على أني ما اجهل منفعة

(١) أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه (رسالة ماجستير): ١٦٦.

(٢) ينظر كتاب: النثر الفني في القرن الرابع: ١/٢٠٠.

(٣) النثر الفني في القرن الرابع: ١/٢٠٠.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٢٣، (والرسالة هي إحدى رسائله الجوابية التي بعثها إلى كاتب =

العتاب، ولا أنكر مرافقه بين الأحباب، ولا اشك في انه يطري خلق الود، ويجلو غيرة ـعهد، ويداوي أدواء القلوب، ويترجم عن خفيات الغيوب، وانه الأنموذج بين الأولياء والأعداء، والجسر بين المدح والهجاء، والمصلح للعشرة الفاسدة، والمقرب بين الديار المتباعدة ... جمع الشمل، وجدد الوصل، وصقل ما صدئ من العشرة، وأزال ما وقع من الفترة...". وما اصدق ما نقله ابن قتيبة الدينوري[١] (ت ٢٧٦ هـ) عن أبي الدرداء في قوله: "معاتبة الأخ خير من فقده، ومن لك بأخيك كله". ولعل هذا ما يفسر لنا ما ورد في بعض الأمثال السائرة " ويبقى الود ما بقي العتاب "[٢].

وهكذا فإن حقيقة العتاب وكنهه وأساسه المودة، وغايته إصلاح ما فسد منها، يرأب به الصدع، ويداوي الجراح[٣].

ومن هنا ظل العتاب، وعلى مدى عصور الأدب، النجوى الهامسة بين الأصحاب والأتراب[٤]. قال رجل لترب له يعاتبه ويناجيه[٥]: "ما أشكوك إلا إليك، ولا أستبطئك إلا لك، ولا أستزيدك إلا بك، فأنا منتظر واحدة من اثنتين: عتبى تكون منك، أو عقبى الغنى عنك".

لقد أحسن كثير من كتاب الرسائل الإخوانية في هذا القرن استخدام غرض العتاب استخداما ذكيا ودقيقا؛ لبلوغ غاياتهم، والتعبير عن مراميهم المختلفة وأماطوا اللثام عن كثير من القضايا الشخصية، والعادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في المشرق الإسلامي أبان هذا القرن.

وطبقا لهذه الحقيقة المهمة، فقد اكتسبت تلك المكاتبات الإخوانية التي انصبت على العتاب واللوم، قيمة أدبية وتاريخية كبيرة؛ لما حوته من مزايا فنية، ومثل إنسانية،

=

صاحب الجيش).

(١) عيون الأخبار: ٣/٢٨ - ٢٩.

(٢) ديوان المعاني: ١/١٦١.

(٣) أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه (رسالة ماجستير): ٢٦٣.

(٤) على أن هناك من الحكماء، ومصنفي كتب الأدب، من يبخس العتاب موقعه في الإخوانيات، ومما قالوه في ذمه مثلا: (العتاب رسول الفرقة، وداعي القلى، وسبب السلوان، وباعث الهجران) تراجع التفاصيل في: ديوان المعاني: ١/١٦٩.

(٥) عيون الأخبار: ٣/٢٩. والعتبى: الرجوع إلى الرضى.

وتقاليد اجتماعية، أمدت الكثير من علماء الاجتماع والسياسة والتاريخ بوثائق مهمة ساعدتهم كثيرا على سبر أغوار المجتمعات الإسلامية في تلك الأقاليم النائية في هذا القرن.

أما مضامين رسائل العتاب، وطبيعة المعاني والأفكار التي تضمنتها، وأسلوب لغة العتاب، وحدة لهجته أو رقتها، فما من شك في أن ذلك كله يتوقف على أمرين مهمين هما:

(الأول): دوافع العتاب وأسبابه التي حفزت الكتاب لإنشائه.

(الثاني): شخصية المرسل إليه، وطبيعة موقعه السياسي أو الاجتماعي.

فحين تكون دوافع العتاب مثلا: عدم المواصلة أو انقطاع المراسلات بين الأديبين التربين، أو ضآلة حجم الرسالة المرسلة[1]، وتكون شخصية المرسل إليه من الأقارب أو الخلان، أو من التلاميذ المقربين، تكون لهجة العتاب في الرسالة غالبا رقيقة هادئة، وقد تقترب أحيانا إلى المناجاة والحنو والمداعبة الهامسة.

كتب الوزير أبو محمد المهلبي إلى أبي القاسم الصاحب بن عباد في فصل من رسالة له يعاتبه، ويطلب إليه مواصلته، يقول[2]: "ذهبت عن مودتي ذهابا أساء ظني فلم؟ واستحللت محرما من الهجران فبم؟ وزدت في شدة الشوق والقطيعة فإلامَ؟ وأعطيت الجفاء أوفى حظوظه، فهل تقلع؟ وإن خرجت عليك فيما أبيت، فما تصنع؟ إن رأيت أن تواصلني بعدها فعلت، إن شاء الله عز وجل".

ولا يخفى ما في هذه المناجاة الهامسة من رقة الأحاسيس وصدق المشاعر، على الرغم من حرص الكاتب على التأنق في صياغة رسالته، وبراعته الفائقة في توظيف التكرار وترديد الاستفهام بلباقة وانسجام.

ومن عيون الرسائل الإخوانية في هذا الجانب أيضا؛ ما كتبه الشريف الرضي إلى بعض أصدقائه من الوجهاء والرؤساء، بعقب وفاة صديقه أبي إسحاق الصابي، يعاتبه

---

(١) ينظر على سبيل المثال: رسالة الصاحب بن عباد إلى بعض خلانه يعاتبه في صغر كتابه إليه: ديوان المعاني: ١/١٦٤، ورسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أبي الحسين علي بن داية يعاتبه على انقطاع مراسلته: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٣٦ - ٣٧، ورسالة الخوارزمي أيضا إلى تلميذ له يعاتبه لجفائه وعدم مواصلته، رسائل الخوارزمي: ١٩١ ورسالة الأمير قابوس بن وشمكير إلى الوزير ابن العتبي في تأخر الجواب وإبطاء الرسول كمال البلاغة: ٣٤ - ٣٦.

(٢) دمية القصر وعصرة أهل العصر: ١/٢٢٣.

فيه على تأخير مكاتبته، والرسالة طويلة تضمنت قضايا شخصية أخرى، وقد استهلها الرضي بقوله[١]: "كتابي - أطال الله بقاء مولاي ورئيسي، وأدام عزه وتأييده، وكفايته ونعمته - عن شوق إلى عوارض أوطاره، وعتب عليه في تأخير مكاتبته، لا تنفع عوائده وبداءاته، ولا تنجع رقاه ونفثاته؛ لأنني قد جربته معه - أدام الله عزه - على مرور الأوقات، واختلاف الحالات، فكلما ضاعفت له ظلامة وشكوى، أضعف علي بهما تضعضعا وبلوى، وكلما أسلفته إكباباً ومواظبة، أوسعني إغبابا ومقاطعة ...".

والرسالة طويلة، وهي آية من آيات البلاغة، وجمال الأداء، وحسن التأتي، ورصانة البناء، وجزالة الألفاظ، فضلا عن عناية الكاتب بالسجع - دون تكلف - وألوان البديع الأخرى ولا سيما الطباق والتكافؤ والاعتراض وغيرهما.

وقد تكون دوافع العتاب؛ ما يقع بين بعض الأدباء الكتاب وأقاربهم أو أترابهم من جفاء أو قطيعة، بسبب الوشاية والوشاة أو غير ذلك من أسباب، أو ما يقع بين الأديب وبعض لداته من الوزراء أو الأمراء، من جفوة أو خلاف، قد يجر إلى التقالي والإهمال أو التغاضي، وفي أكثر هذه الأحوال تكون لهجة العتاب في المكاتبات الإخوانية تميل إما إلى التلطف والاستمالة، أو الترفق في التعبير والأسلوب[٢]. وإما أن تميل لغة الرسالة إلى التضرع والتذلل، مع الإفراط في المبالغة[٣]، وإما أن تميل لهجة العتاب إلى المخاشنة أو التحدي، كما تطالعنا في ذلك طائفة من رسائل بديع الزمان الإخوانية[٤].

---

(١) رسائل الصابي والشريف الرضي: ١٠٣ - ١١٢.

(٢) ينظر مثلا رسالة الأمير قابوس إلى خالِهِ الاصبهبذ، وكان قد سأله حاجة تعذر إسعافه بها فوقعت بينهما موجدة، كمال البلاغة: ٥٣ - ٥٧، وأوردها أيضا العسكري في ديوان المعاني ١/٨٦ - ٨٨ مع اختلاف غير كثير بين النصين. وينظر أيضا؛ رسالة الصابي في عتاب ابن عمه أبي الخطاب الصابي: أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه: ١٦٨.

(٣) تراجع بعض رسائل أبي بكر الخوارزمي؛ رسالته إلى رئيس دامغان: ٢٢٨، ورسالته أيضا إلى وزير الأمير قابوس بن وشمكير: ٢٨، ورسالته أيضا إلى خوارزم شاه: ٢٢٢، ورسالته إلى محمد بن حمزة رئيس خوارزم: ١٩٣.

(٤) ينظر رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى أبي نصر الميكالي يعاتبه فيها: زهر الآداب وثمر الألباب ١/ ٣١٠ - ٣١١، ورسالته أيضا إلى أبي القاسم الكرخي في العتاب؛ المصدر نفسه: ٣/٨٦٢ - ٨٦٣، ورسالته أيضا إلى بعض الرؤساء في العتاب: المصدر نفسه: ٤/١٠٤٢ - ١٠٤٣، ورسائل أخرى له كثيرة في مجموع رسائله.

ثالثا: التعازي والتأبين والمواساة:

وهي من الأغراض أو المقاصد الجليلة التي طرقها كتاب الرسائل الإخوانية في هذا القرن، وقد كثر هذا اللون من المكاتبات الإخوانية، وشاع تبادله بين الأهل والأقارب، أو الأصدقاء والخلان؛ تعبيرا عن مشاعر الحزن والأسى، لما ألم بهم من مصاب جلل، بفقد عزيز من ذويهم أو أترابهم، وتصويرا لكوامن الحرقة والألم التي خلفتها أهوال الفجيعة، وعظم الرزية، حيث الفراق الدائم، والرحيل الأبدي عن عالم الوجود.

ويغلب على هذا الضرب من الرسائل الإخوانية عادة؛ صدق الأحاسيس، وعمق المشاعر، وتتسم أيضا بالبلاغة وجمال الأداء، والميل إلى الإسهاب دون إفراط، والحرص على انتقاء الألفاظ الرقيقة الموحية، والمعاني المؤثرة، مع دقة المسلك، وبراعة التخلص إلى الغرض المراد.

ولعل من روائع ما يطالعنا من رسائل التعزية المؤثرة في هذا القرن؛ رسالة أبي إسحاق الصابي إلى عمه يعزيه عن ابنه الراحل أبي الخطاب الصابي ومما ورد في هذه الرسالة قوله[١]: "عزيز علي يا سيدي أن مد لك ولي في العمر، حتى نتكاتب بالتعزية، عمَّن أملنا أن يكون وارث أعمارنا، والباقي بعدنا، أبي الخطاب - نضر الله وجهه، وأحسن منقلبه، وصفح ورضي عنه - فما أعظمها من مصيبة، وأمضها من نائبة. والله الشاهد أنني منذ ثلاث لا أطعم غذاء ولا غمضة، ولا أعرف قرارا ولا هداوة ...".

ولعل القارئ لهذا الفصل القصير من هذه الرسالة يتلمس بوضوح؛ جنوح الكاتب إلى الفطرة والطبع، بعيدا عن التصنع والتكلف، أو اللهث وراء السجع وطلب ألوان البديع؛ مجاراة لسنن أهل العصر في الحرص على العناية الفائقة باللفظ، وموسيقى التراكيب، وجرس الكلام.

ومن عيون رسائل التعازي بين الأصدقاء والخلان في هذا القرن أيضا؛ رسالة الشريف الرضي إلى صديقه الحميم أبي إسحاق الصابي، يعزيه عن ابنه الأكبر أبي سنان، وهي رسالة طويلة في العزاء والندب، ومما جاء فيها قوله[٢]: "... إلى كم -

---

(١) رسائل أبي إسحاق الصابي (مخطوط بدار الكتب المصرية أ - ب) بدلالة رسالة الباحث مهدي صالح البدري الموسومة: أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه: ١٧٦.

(٢) رسائل الصابي والشريف الرضي: ٦٤، ٦٧.

جعلني الله فداك - هذا الهم والجزع، وفيم هذا القلق والهلع، وأنت المرء يوصف حلمه، والجليد يعرف حزمه، والصبور على تحامل النكبات، المذلّة والقوي على قراع الرزيات ... وإنما نحن من المنون على خطر المزلة يعيد الهوة، ومن الدنيا بمدرجة سيولها، ومستن خطوبها، تحدو بنا حدو الهدي إلى النحر، وتقود ناقود العناة في الأسر ونحن مؤثرون إنضاء الليالي وإمضاء الأيام البواقي، وهي ركائب تسري بنا إلى الآجال، وأمراس تجذبنا إلى دار الجزاء بالأعمال، وبينا هذه الدنيا ترضعنا درتها، وتصرح لنا عن زبدتها، وتلحفنا فضل جناحها، وتغرنا بركود رياحها، وتغذينا بما نستمرئه برهة، ونستمره مدة، ونستحليه أوانا ونستوبيه آونة، حتى تعطف علينا عطف الضروس، وتضرحنا ضرح الشموس وتريق ما حلبت من النعيم بضروب ما جلبت من الهموم...".

والرسالة، كما أشرت آنفا طويلة، وهي آية في صناعة الترسل، وفن البلاغة، وطرفة أدبية نادرة، تميزت بجمال الأداء، وجزالة الألفاظ، ومتانة التراكيب، وقوة المعاني وجلالها وعمقها، واتساق الأفكار، واتقاد العاطفة وجموحها، ورقة المشاعر وصدقها، وروعة الصور وسمو الخيال ... وهي أيضا أنموذج راق لرسائل العزاء والندب بين الأتراب، تكشف بجلاء عن عمق أواصر الود والمحبة بين طبقة الأدباء في هذا القرن[1]، من خلال هذا النشيج المتدفق الذي يضوع من ثنايا سطور هذه التحفة الأدبية النادرة، فضلا عما حوته من مضامين فكرية عميقة، وآراء فلسفية دقيقة تتصل بحقيقة الحياة وكنهها، وفلسفة الفناء والخلود.

ولم يقتصر تبادل هذا اللون من المكاتبات الإخوانية في هذا القرن على الأقارب والأصدقاء، وإنما تجاوزه إلى الرؤساء والأمراء والوزراء ومن ينوب عنهم من فئة الطبقة الخاصة[2].

لقد فرضت العلاقة الوطيدة بين أدباء هذا القرن، وحكام الممالك المستقلة،

---

(١) ونظير هذه الرسالة الإخوانية في العزاء والندب والتأبين في هذا القرن؛ رسالة إخوانية لأبي القاسم الصاحب بن عباد يؤبن فيها أبا محمد يحيى بن محمد بن زيادة العلوي. ينظر رسائل الصاحب بن عباد: ١٤٤ - ١٥١ (الباب العاشر: في التعازي).

(٢) انفردت نسخة مخطوطة (أبي إسحاق الصابي) بدار الكتب المصرية، بنشر أربعين رسالة تعزية للصابي، بعضها ديوانية وبعضها الآخر إخوانية. (ينظر رسالة: أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه (رسالة ماجستير): ١٧٤ - ١٧٥).

وصلتهم الوثيقة بأتباعهم من الأمراء والوزراء وقادة الجيش وغيرهم، فرضت مشاركتهم في السراء والضراء؛ فهم يهنئونهم بتولي المناصب الرفيعة، وعند حلول الأعياد، أو تحقيق الانتصارات الباهرة - كما سيأتي تحليله في الصفحات التالية - وهم أيضا يعزونهم إذا ما ألم بأحدهم خطب فادح، أو مني بعضهم بفقد عزيز راحل، وههنا يكتب الأديب لمليكه، أو ولي نعمته، معزيا أو مؤبنا ومواسيا.

وغالبا ما يتشح هذا اللون من الرسائل الإخوانية بالمبالغة، وشحوب العاطفة وبرودها، وغلبة طابع التكلف؛ لما يحرك أكثر أولئك الأدباء في تلك المراثي من دواعي الملق والتزلف، والنفاق السياسي، وجنوح أكثرهم عن الطبع، والميل الواضح إلى الزخرف اللفظي، أو الصنعة المفرطة، والعناية بالسجع، وألوان البديع، وموسيقى الكلام وجرسه.

ويمثل الكثير من رسائل التعزية لأبي بكر الخوارزمي[١]، وبديع الزمان الهمذاني[٢] وأبي إسحاق الصابي[٣] في هذا القرن، نماذج مهمة لهذا الضرب من رسائل الصنعة، والعناية الواضحة بالزخرف اللفظي وألوان البديع.

ومن الشواهد الواضحة التي تدلل على آثار التكلف الغث والمبالغة والإفراط في الصنعة؛ طلبا للبديع؛ ما كتبه أبو بكر الخوارزمي إلى الملك، لما أصيب بابنه عن

---

(١) تراجع رسائل التعزية للخوارزمي: فصل من رسالة إلى أبي عامر عدنان بن محمد الضبي يعزيه: يتيمة الدهر: ٢٩٨/٤، ورسالته أيضا إلى رئيس طوس يعزيه عن شقيق له: رسائل الخوارزمي: ٢٥ - ٢٦، ورسالته أيضا إلى رئيس بهراة يعزيه بابن أخته وبنته: رسائل الخوارزمي: ٢٩ - ٣٢، ورسالته أيضا إلى كثير بن أحمد يعزيه عن ابنة له: رسائل الخوارزمي: ٧٨ - ٧٩، ورسالته إلى ملك خوارزم لما أصيب بابنه من خوارزم شاه: رسائل الخوارزمي: ١٩٨ - ١٩٩، ورسالته إلى أبي طاهر وزير أبي علي بن الياس بكرمان: رسائل الخوارزمي: ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) تراجع رسائل الهمذاني في التعزية: رسالة الهمذاني إلى الشيخ الأمام أبي الطيب يعزيه: رسائل الهمذاني: ١٢٠، ورسالته إلى أبي عامر عدنان الضبي ببعض أقاربه / رسائل الهمذاني: ٢١٢ - ٢١٤، وتراجع أيضا في زهر الآداب: ٥٠٨/٢ - ٥٠٩ مع اختلاف في النص، ورسالته إلى أبي الحسن الحميري يعزيه بغلام: رسائل الهمذاني: ٢٥٨ - ٢٥٩ ورسالته إلى الشيخ أبي نصر يعزيه وينصحه: رسائل الهمذاني: ٥٣١ - ٥٣٣.

(٣) تراجع رسالة الصابي إلى أبي الفتح ابن العميد يعزيه بوفاة أبيه: رسائل الصابي - أ مخطوط بدار الكتب المصرية، بدلالة رسالة أبي إسحاق الصابي حياته وأدبه: ١٧٥ وينظر أيضا رسالة الصابي إلى محمد بن عباس يعزيه عن طفل: زهر الآداب وثمر الألباب: ٩٥٧/٤ - ٩٥٨.

خوارزم شاه يعزيه[١]: "كتبت وأنا مقسم بين فرحة وترحة ومردد بين محنة ومنحة، أشكو جليل الرزية، وأشكر جزيل العصمة، وأسأل الله تعالى للأمير الماضي الغفران والرحمة، وللأمير السيد التأييد والعصمة ... والحمد لله الذي كسر ثم جبر، وسلب ثم وهب، وابتلى ثم أولى، وأخذ ثم أعطى، كتب على المشرق خاصة، بل على الدنيا كافة، أن تطمس آثارها وتظلم أقطارها، وتهب ريح الخراب عليها، وتنظر عين الكمال إليها، حتى ذبلت شجرة المملكة، ووهن ركن الملة، وطرف ناظر الدولة، وانثلم جانب الدعوة ...".

وهكذا يتضح، من خلال هذا النص، عناية كتاب الرسائل الإخوانية في هذا القرن، بموسيقى الكلام وجرسه، مراعين في ذلك مجاراة تيار العصر في إخراج فصول رسائلهم أنغاماً موسيقية رائقة شبيهة بالشعر في إيقاعها، فضلاً عما جلّل أكثر فصول تلك الرسائل التأبينية من ملق، ومجاملات غثة، على الرغم مما بدأ على بعضها من حزن متصنع.

ومن رسائل التعزية والمواساة التي تجللت بالتكلف والمبالغة، واتشحت بالصنعة واستخدام ألوان البديع أيضا؛ ما ورد في رسالة بديع الزمان الهمذاني التي كتبها إلى أبي عامر الضبي يعزيه عن بعض أقاربه[٢]:

" إذا ما الدهر جر على أناس حوادثه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجفلى إذا ساء، ويختص بالنعمة إذا شاء، فلينظر الشامت فأن كان أفلت فله أن يشمت، ولينظر الإنسان في الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، إلى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه أثرا في نفسه أم لتدبيره، عونا على تصويره، أم لعمله، تقديما لأمله، أم لحيله، تأخيرا لأجله، كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا، خلق مقهورا، ورزق مقدورا، فهو يحيا جبرا، ويهلك صبرا...".

ولم يقتصر تبادل هذا اللون من الإخوانيات وشيوعها على أدباء الإمارة البويهية

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٩٨ - ١٩٩.

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني ص٢١٢ - ٢١٣، وتراجع الرسالة أيضا في: زهر الآداب وثمر الألباب: ٥٠٨/٢ - ٥٠٩.

في هذا القرن - كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين[١] - وإنما عم انتشارها في أقاليم الإمارات والممالك الإسلامية الأخرى، كالإمارة الزيارية في طبرستان وجرجان، والإمارة السامانية في خراسان، وإمارة خوارزم شاه وغيرها.

ولعل الذي يدعم حجتنا في بسط هذه الحقيقة وتأكيدها؛ أن بعض رؤساء تلك الممالك الإسلامية ووزرائهم كانوا أنفسهم من كبار كتاب الرسائل الإخوانية في هذا القرن، ولعل في مقدمتهم: الأمير قابوس بن وشمكير، والأمير أبو الفضل الميكالي[٢] وغيرهما.

ويعد ما وصل إلينا من رسائل التعزية في (كمال البلاغة)[٣] للأمير قابوس ذروة ما بلغه هذا الفن الأدبي من آيات الإبداع، على الرغم مما حشده الأمير قابوس في رسائله من ألوان البديع، وأفانين الصنعة الأخرى، حتى عده بعض الباحثين المعاصرين[٤] إيذانا لبدء مرحلة التصنع في النثر الفني العربي أواخر هذا القرن.

ومن نماذج روائعه النفيسة في التعزية؛ ما كتبه إلى الصاحب بن عباد[٥]: "علم الصاحب بما حدثه الدهر من حالتي إرضاء وإشكاء، وإضحاك وإبكاء العلم الذي لا يحل النقص بواديه، ولا يطور السهو بناديه، ومن رام تعريفه ما ليس عنده، وأراد - مما لم يسمعه - مزيده، رام ما يعوز، وأراد ما يعجز فخليق به إذا فجعه مفقود، وفاته مودود، أن يتلقاه بقوة إيقانه، ويتوقاه بجنة جنانه، ويتسلى عمن ساءه به حلول الرزية،

---

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: الأدب في ظل بني بويه - د. الزهيري: ٢٠٢ - ٢٠٤.

(٢) يراجع ما اختاره الثعالبي في اليتيمة من كتاب أبي الفضل الميكالي الموسوم بالمخزون في باب الإخوانيات: يتيمة الدهر ٤/٤١٢ - ٤١٥، وغيرها من الأبواب الأخرى، وتراجع رسائل التعزية للميكالي: رسالته في تعزية الأمير ناصر الدين؛ زهر الآداب: ٣/٧٤٥ وله فصل من رسالة تأبين عن أبي العباس بن الإمام أبي الطيب؛ زهر الآداب: ٤/١٠٢٥ ورسالة تعزية إلى أبي عمرو البختري؛ زهر الآداب: ٤/١١٤١.

(٣) تراجع رسائل الأمير قابوس في التعزية: رسالته إلى أبي الفضل ابن العميد في التعزية كمال البلاغة: ٣٩ - ٤١، ورسالته أيضا إلى الوزير ابن العتبي يعزيه؛ كمال البلاغة: ٤٨ - ٤٩، ورسالته في التعزية إلى الأمين علي بن الفضل، كمال البلاغة: ٥١ - ٥٢ ورسالته إلى أبي الفتح ذي الكفايتين في التعزية؛ كمال البلاغة: ٦٢، وتراجع رسالتان له أيضا في التعزية إلى الوزير الصاحب كمال البلاغة: ٧٠ - ٧١، ٧٢ - ٧٣.

(٤) تراجع التفاصيل في كتاب: الفن ومذاهبه في النثر العربي: ٢٢٩.

(٥) كمال البلاغة: ٧٢ - ٧٣.

بسلامته التي هي زناد كل مزية جبر الله مصابه بجزيل الأجر، وجنب جنابه غوائل الدهر، وصرف عنه أيدي صرفه، وطرف دونه عوادي طرفه، بمحمد وآله وعترته".

ويطالعنا الأمير الأديب في هذه المرثاة النثرية - كما في أكثر رسائل التعزية التي سبقت الإشارة إليها - ميالا إلى العزاء، لا إلى التأبين والندب[1] فهو لا يبكي الفقيد، ولا يثني على فضائله، ولا يبكي الأهل أو الأقارب الذين عصف بهم شبح الردى، وإنما ينفذ من هذا المصاب الجلل إلى التأمل في حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي به هذا التأمل إلى معان فلسفية عميقة، وكثيرا ما يستدرجنا معه لنجوب في التفكير بفلسفة الوجود والعدم والخلود.

ويستوقفنا في هذه الرسالة الأدبية أيضا؛ نزعة متأثرة بمفاهيم الدين الإسلامي، وقيمِهِ وتعاليمه النبيلة، تلك هي التسليم لله تعالى، والإيمان المطلق بقدره، والرضا بقضائه، احتسابا وطلبا لثوابه ورحمته.

ومن فصول رسائل العزاء والتأبين النادرة التي وصلت إلينا لأبي القاسم الإسكافي - وهو أحد أشهر أدباء الإمارة السامانية في هذا القرن - ما كتبه إلى الأمير أبي طاهر وشمكير بن زيار يعزيه عن أحد أعوانه في تدبير شؤون إمارته، ومما ورد في هذه المرثاة النثرية قوله[2]: "ترامى إلينا خبر مصابك بفلان؛ فخلص إلينا من الاغتمام به ما يحصل في مثله ممن أطاع ووفى، وخدم ووالى، وعلمنا أن لفقدك مثله لوعة، وللمصاب به لدغة؛ فآثرنا كتابنا هذا إليك في تعزيتك، على يقيننا بأن عقلك يغني عن عظتك، ويهدي إلى الأولى بشيمتك، والأزيد في رتبتك، فليحسن - أعزك الله - صبرك على ما أخذه منك، وشكرك على ما بقي لك، وليتمكن في نفسك ما وفر لك من ثواب الصابرين، وأجزل من ذخر المحسنين، وليرد كتابك بما ألهمك الله تعالى من عزاء، وأبلاكه من جميل بلاء، إن شاء الله تعالى".

ويبدو بوضوح أن هذه الرسالة النادرة قد جمعت بين معاني العزاء والتأبين، إلا أنها خرجت عن بعض التقاليد الفنية المتبعة في رسائل العزاء والتأبين بخاصة، وهي الإفاضة في بسط الفكرة التي يسوقها الكاتب؛ لتسلية المخاطب، وتخفيف أهوال

---

(١) يراجع في حد هذه المصطلحات الأدبية ومعانيها كتاب: الرثاء للأستاذ شوقي ضيف. (سلسلة فنون الأدب العربي - الفن الغنائي) ط دار المعارف بمصر. ط٢ ١٩٥٥.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ١١١٠/٤.

الفاجعة عليه، بالنفوذ إلى حقيقة الحياة، وطبيعة الوجود، وحتمية الفناء، وقدر الموت والعدم.

ولعل ما يمكن أن يسجله الباحث على هذه المرثاة النثرية من مآخذ أيضا شحوب العاطفة التي جللت النص، وبرود المشاعر التي تبددت في هذه الرسالة عبر تلك الأوامر المتتالية التي وجهها الكاتب دون إشعار المخاطب بلمحة تواضع ولحمة تراجع إزاءه، وهو يزجي إليه - دون مسوغ - أوامره، ثم ما اختتم به فصل رسالته، بوجوب كتابة الجواب، وهذا ما لا يقتضيه المقام، والحالة النفسية التي يتقلب فيها قعيد المأتم الحزين.

وهكذا يتضح مما عرضته من فصول رسائل التعزية والمواساة، لأدباء هذا القرن؛ أنه كان يغلب على أكثر نصوص هذا اللون من المكاتبات الإخوانية العناية الواضحة بالصياغة والأسلوب، والجنوح غالبا إلى الإطالة دون إفراط.

أما مضامين هذا اللون من الرسائل الإخوانية، فلعل أدق ما يستوقفنا من ذلك، هو تفاوت تلك الرسائل بين قوة العاطفة وصدق الأحاسيس، وبين ما غلب على بعضها الآخر - وهو ما كتب إلى أولي الأمر من المخاطبين - من التكلف، والميل عن الطبع والسليقة الصافية إلى الصنعة المفرطة، والعكوف على طلب الزخرف اللفظي، ولا سيما السجع وألوان البديع الأخرى، بلوغا إلى تحقيق أكبر قدر من الإيقاع والموسيقى في لغة النص الأدبي.

رابعا: التهاني:

وهي من الأغراض أو المقاصد الشائعة التي عالجتها المكاتبات الديوانية[1] فضلا عن الرسائل الأدبية في هذا القرن، على حد سواء؛ فلقد دعت العلاقة الوطيدة بين كثير من الأدباء وأولي الأمر من الرؤساء وأتباعهم في هذا العصر إلى أن يشاركهم الأدباء - وهم أمراء الكلام وصناعهِ - في أفراحهم ومسراتهم، وهي كثيرة ومتنوعة،

---

(١) ينظر مثلا رسالة أبي الفضل ابن العميد إلى الأمير عضد الدولة يهنئه بولدين: زهر الآداب: ٤/ ١١٢٠ - ١١٢١، ورسالة أبي القاسم الإسكافي عن الأمير نوح بن نصر الساماني إلى أبي طاهر وشمكير بن زيار في استبطاء وتهنئة: المصدر نفسه ١١٢١/٤ - ١١٢٢، ورسالة الصابي عن عز الدولة إلى عضد الدولة يهنئه بمولود: صبح الأعشى ٣٦٧/١ - ٣٦٩، وغيرها كثير.

ومن هنا فقد كثر هذا اللون من الرسائل[١]، وتنوعت معانيها وضروبها؛ فكانت رسائل التهنئة بالأعياد المختلفة، كالنوروز والمهرجان والسذق وغيرها، أو التهنئة بالانتصارات الباهرة، وفتح القلاع الحصينة، أو بتولي المناصب الرفيعة كالوزارة أو الولاية وقيادة الجيش وغير ذلك، أو التهنئة بمولود جديد، أو الشفاء من مرض وبيل، وما إلى ذلك[٢].

وفضلا عما تقدم فقد اقتضت بعض الأواصر الاجتماعية المتينة التي ربطت بظلالها بعض الأدباء مع بعضهم[٣] بوشائج الود والصفاء أيضا، اقتضت مشاركتهم في أفراحهم ومسراتهم، وتبادل التهاني مع بعضهم في تلك المناسبات الكثيرة المتنوعة والمتوالية.

ومن هنا، فقد أشار القلقشندي إلى تشعب معاني هذا الضرب من الإخوانيات، وذكر أنها لا تقف في ذلك عند حد معين، ثم ذكر، مع إدراج الشواهد النثرية الكثيرة، أحد عشر ضربا من ضروب التهاني[٤].

لقد اتسمت رسائل التهاني - سواء أكان ذلك في المكاتبات الديوانية أم في الرسائل الأدبية (الإخوانية) - بالبلاغة، وحسن التنسيق، والدقة في الأداء، فضلا عن العناية الفائقة بمقدماتها وخواتيمها؛ ولعل ذلك يعود - كما ذكر القلقشندي أيضا[٥] - إلى أن " كتب التهاني من الكتب التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب، ومنازلهم من الصناعة، ومواقعهم من البلاغة".

ثم أردف يقول، مشيرا إلى جلال موقعها وخطورتها[٦]: "وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة؛ لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة والإبانة عن

---

(١) ينظر على سبيل المثال ما كتبه الخوارزمي من رسائل التهاني إلى الأمراء والولاة في مجموع رسائله: ١٧٣ - ١٧٤، ٢٠٠ - ٢٠١، ٢٠٣ - ٢٠٤، وغيرها كثير.

(٢) تراجع فصول رسائل التهاني في المعاني المختلفة التي ساقها القلقشندي لأبي الفرج الببغاء وغيره من الكتاب: صبح الأعشى ج٩ في مواضع كثيرة متفرقة.

(٣) ينظر مثلا رسالة الصابي يهني فيها الشريف الرضي بعيد الفطر: رسائل الصابي والرضي: ٩٥ - ٩٧، ورسالة الرضي الجوابية عليها: ٩٨ - ١٠٢، ورسائل كثيرة في التهنئة على غرارها.

(٤) تراجع التفاصيل في كتاب: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٢٣/٩ وما بعدها.

(٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٥/٩.

(٦) المصدر نفسه: ٥/٩.

موقع الموهبة، وتضاعف السرور بالعطية".

وعلى الرغم من أهمية هذا اللون من الإخوانيات، وخطورة موقعها في صناعة الترسل، إلا أن بعض مصنفي كتب الأدب والنقد القدامى(١)، قد أشار إلى حداثة فن التهاني، وعدم قدم هذا اللون من الإخوانيات، قياسا إلى ألوان الأدب الأخرى.

لقد ازدهر هذا اللون من الإخوانيات في القرن الرابع، وشاع شيوعا مطردا بين كتاب الرسائل الديوانية والأدبية - كما مر آنفا - وممن أكثر من رسائل التهاني في هذا القرن، وبرع فيها؛ الوزير الصاحب بن عباد(٢)، وأبو إسحاق الصابي(٣)، والأمير أبو الفضل الميكالي، فضلا عن أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني اللذين يعدان من أكبر كتاب الرسائل الإخوانية في هذا القرن.

وقد أشار العسكري إلى براعة أبي القاسم الصاحب بن عباد في فصول التهاني فقال(٤): "وللصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد فصول في التهاني قليلة النظير ...".

ثم ساق العسكري نماذج عديدة من فصول رسائله البليغة في التهاني، لعل من روائعها قوله يهنئ أبا الفتح ابن العميد بالوزارة، ومما ورد فيها قوله(٥): "أنا أهنئ - أطال الله بقاء سيدي - الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها، وبلوغها في ظله إرادتها، وانحيازها إلى ذراه واضحة المجد والفخر وتوشحها من كفايته بغره سائله على وجه

---

(١) ينظر ما ذهب إليه أبو هلال العسكري في ديوان المعاني: ٩١/١ - ٩٢؛ حيث ذكر أن التهاني لم تكن من الأقسام التي كانت العرب تصوغ فيها شعرا، وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة: المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي. ثم أردف يقول: ((ولا أعرف للعرب شيئا ينسب إلى التهاني، ومهما جاء عنهم من شكلها شيء فهو عند العلماء معدود في جملة المديح)) وأشار العسكري في موضع آخر (ديوان المعاني ٩٥/١) إلى أن أول من افتتح المكاتبة في التهاني بالنوروز والمهرجان؛ أحمد بن يوسف الكاتب، على عهد الخليفة المأمون.

(٢) تراجع رسائل الصاحب بن عباد - الباب التاسع (في التهاني والأجوبة عنها وما يجري مجراها): ١٢٣ - ١٣٥، وينظر أيضا في رسائل التهاني للصاحب: يتيمة الدهر: ٢٩٠/٣، ديوان المعاني: ٩٦/١.

(٣) يراجع ما أشار إليه العسكري في براعة الصابي بإيراد المعاني العجيبة في رسائل التهاني؛ ينظر رسالته التي أوردها إلى رجل يهنئه بزواج أمه: ديوان المعاني: ١٠٠/١ - ١١٢.

(٤) ديوان المعاني: ٩٦/١.

(٥) المصدر نفسه: ٩٦/١، ويراجع النص أيضا في رسائل الصاحب بن عباد / الباب التاسع: ١٣٢ - ١٣٣ مع اختلاف في النص.

الدهر، واشكر له حسن أثره عليها، وعطفه حنان الفكر إليها، حتى قرت لديه قرارها، وأثقبت بيديه نهارها، بعد أن هفا قلبها إشفاقا من استشراف أيادي النقص لها، وحرج صدرها من تحدث أحلاس الجهل بها ...".

ومن رسائل الصاحب الإخوانية في التهنئة أيضا؛ ما كتبه إلى الأستاذ ابن العميد يهنئه بقدوم النوروز[١] وهي من حلل الإخوانيات البليغة المشهورة في هذا القرن.

ولأبي الفرج الببغاء[٢] إلى بعض إخوانه يهنئه بصيام شهر رمضان، ومما جاء فيها[٣]: "عرفك الله بركة هذا الشهر المعظم قدره، المشرف ذكره، ووفقك فيه لصالح الأعمال، وزكي الأفعال، وقابل بالقبول صيامك، وبتعظيم المثوبة تهجدك وقيامك، ولا أخلاك في سائر ما يتبعه من الشهور، ويليه من الأزمنة والدهور، من أمر تذخره، وأثر تشكره".

ويتضح جليا من تأمل هذه النصوص الأدبية؛ عناية كتاب الإخوانيات في هذا القرن - وبخاصة رسائل التهاني - بانتقاء الألفاظ الرقيقة، وحرصهم على جرس الكلام وموسيقاه، واستخدام السجع، وقصر الفواصل في رصف الجمل والعبارات، فضلا عن استخدام ألوان البديع الأخرى التي كانت ديدنهم في هذا القرن.

ومن روائع رسائل التهاني في هذا القرن أيضا؛ ما كتبه أبو إسحاق الصابي إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف يهنئه بقدوم النوروز، ويلاحظ جلال المعاني، وغلبة أسلوب الدعاء على الرسالة، مع عنايته الواضحة بموسيقى الألفاظ والتراكيب، ومما ورد فيها[٤]: "أطال الله بقاء مولاي الأستاذ، وأسعده بنيروزه الوارد عليه، وأعاده ألف عام إليه، وجعله فيه وفي أيامه كلها معافى سالما فائزا غانما مسرورا محبورا محروسا موفورا، مختوما له ببلوغ الآمال مطروفا عليه عين الكمال، محظور الأفنية عن النوائب، محمي الشرائع عن الشوائب، مبلغا غاية ما تسمو إليه همته العالية المشتطة، وأمانيه المنفسحة المنبسطة بقدرته".

---

(١) ديوان المعاني: ٩٧/١.

(٢) تراجع فصول رسائله الإخوانية في التهاني: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج٩ في مواضع كثيرة.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٤٢/٩.

(٤) ديوان المعاني: ٩٩/٢.

وهكذا يتضح مما استقريت من أكثر رسائل التهاني في هذا القرن؛ أنه كان يغلب على أكثرها، وحدة الغرض أو الموضوع؛ ولهذا غلب هذا اللون من المكاتبات الإخوانية قصرها، وجنوحها عن الإطالة.

كما غلب على أكثر هذه الرسائل أيضا: الدقة في اختيار الألفاظ، وانتقاء المعاني الرائقة، حتى كادت بعض فصول تلك الرسائل تقترب من فن الشعر في الصياغة والأداء وتكثيف المعنى.

كما غلب على كثير من رسائل التهاني - ولا سيما الموجهة إلى الرؤساء وأتباعهم من الوزراء والولاة - المبالغة والتهويل، ولعل حرص كتاب الإخوانيات بخاصة، وتعمدهم استخدام السجع، وألوان البديع الأخرى، مجاراة لسنة أهل هذا القرن، ما عمق ظاهرة الغلو والمبالغة في كثير من معاني هذا الضرب من الرسائل الإخوانية في هذا القرن.

خامسا: الاعتذار:

ومن الأغراض أو المقاصد المهمة التي تناولتها الرسائل الإخوانية في هذا القرن أيضا، الاعتذار. فقد تعاطى الإخوان والأصدقاء الاعتذار، وتبادلوه في مكاتباتهم؛ لسل السخيمة والأضغان من القلوب، أو لتبرير فعلة كانت سببا للعتب أو اللوم أو القطيعة[١].

لقد كثرت رسائل الاعتذار في المكاتبات الإخوانية في هذا القرن، ولا سيما بين من تخصص بهذا اللون من الرسائل كأبي بكر الخوارزمي والهمذاني وأضرابهما[٢]، على ما في الاعتذار من ذلة، غير أنهم أدركوا أنه لا بد منه بين الخلان والأتراب، ولا

(١) ينظر على سبيل المثال؛ رسالة أبي حيان التوحيدي الاعتذارية الجوابية التي كتبها إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد، الذي وبخه على ما أقدم عليه من إحراق كتبه، وقبح تصرفه هذا، فرد عليه التوحيدي برسالته المشهورة - وسيرد ذكرها بعد قليل - يبرر بها عمله، ويدافع عن فعلته. (تراجع الرسالة في: معجم الأدباء: ١٥/١٧ - ٢٥).

(٢) ينظر مجموع رسائل الخوارزمي: رسالته الاعتذارية إلى أبي الحسن الحكمي ص٣٤ ورسالته إلى ابن سمكة القمي: ١٢١ - ١٢٢، ورسالته إلى فقيه هراة: ١٣٤ - ١٣٥ ورسالته إلى ابن العميد الحاكم ص١٨٤ - ١٨٥ وتراجع للهمذاني في الاعتذار (مجموع رسائله في مواضع متفرقة)، وينظر أيضا: رسالته إلى ابن مسكويه؛ زهر الآداب ٦١٤/٢ - ٦١٥، ورسالته إلى أبي علي إسماعيل: زهر الآداب: ٦١٣/٢، ورسالته أيضا إلى أبي القاسم الكرخي؛ زهر الآداب: ٨٦٣/٣.

سيما إذا أحس الأديب المرهف الحس، بوقع الذنب منه، وصدوره عنه ومقارفته له؛ " لأن الإصرار على الذنب - كما يقول العسكري[١] - فيما بينك وبين خالقك هلكة، وفيما بينك وبين صديقك فرقة وعند سائر الناس مثلبة وهجنة ...".

ومن هنا فقد ركب بعض الأدباء، مع أترابهم، كل صعب وذلول؛ حفاظا للود، ولم يستنكفوا من الاعتذار أو الخضوع والتذلل لهم، يقينا منهم بأنه ربما استثير العز من تحت الذلة، ورب محبوب في مكروه، " والمجد شهد يجتنى من حنظل "[٢].

وقد شاع في الأمثال: والمعتذر من الذنب كمن لا ذنب له.

والاعتذار أيضا، من الأغراض الشعرية القديمة[٣] التي عرفها تراث العرب الأدبي، ثم شاع استخدامه في النثر الفني، ولا سيما في المكاتبات الإخوانية إبان هذا القرن، وأصبح من مقاصدها المهمة المتداولة بين الأدباء والكتاب.

وقد تميزت الرسائل الاعتذارية في هذا القرن؛ بجودة الأداء، والبراعة في صياغة الألفاظ والتراكيب، واستيفاء المعاني الدقيقة، وتقصي الألفاظ الجامعة لمعاني العذر[٤].

كتب عبد العزيز بن يوسف في فصل من رسالة اعتذارية له إلى الصاحب ابن عباد يقول[٥]: "وقفت على الأبيات التي أتحفني بها سيدي، وتكلفت لجوابها، على ظلع في خاطري لطول السفار، واتصال حالي بالحل والترحال، ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور، ويعذر مستأنفا على التقصير في جواب ما يأتيني من أمثاله، ما دمنا في ملكة الهواجر، وتعب البكر والأصائل".

وكتب أبو هلال العسكري في فصل له في الاعتذار يقول[٦]: "وسيلتي إليك، الثقة بكرم أخلافك، وشرف أعراقك، وقد طلبت المسامحة منك بك، وجعلت كرمك

(١) ديوان المعاني: ٢١٦/١ - ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٧/١.

(٣) ذكر العسكري في ديوان المعاني: ٢١٧/١، وهو يؤكد قدم هذا الفن، مشيرا إلى براعة النابغة فيه، حيث قال: "ولم يرو عن أحد قبل البالغة الذبياني في الاعتذار شعر فيه أجود منه".

(٤) تراجع على سبيل المثال فصول من رسائل اعتذارية لأبي القاسم علي بن القاسم القاشاني إلى الصاحب: يتيمة الدهر: ٣٨٧/٢ - ٣٨٨، وفي بعض فصولها يعتذر للصاحب عن قصوره في الكتابة.

(٥) يتيمة الدهر: ٢٧٦/٢.

(٦) ديوان المعاني: ٢٢٠/١.

أقوى أسبابي إليك، وقد خفضت لك جناح الذل في التنصل مما فرط، فتفضل علي بالقبول لئلا يلحقني هجنتان: هجنة تذللي لك، وأخرى ردك لي".

وقد تميزت الاعتذاريات بين الأتراب والخلان بخاصة في هذا القرن بالاقتضاب والتركيز في بسط الدليل على صفاء الود، والبراعة في سل السخيمة من الصدور، وكان الكتاب يتوسلون بالشعر وتضمينه في مكاتباتهم، لإدراك ما يتوخونه من تلك المعاني، فضلا عن الإكثار من الجمل الاعتراضية الدعائية.

كتب بديع الزمان الهمذاني إلى أبي علي ابن مسكويه يعتذر إليه وقد استهلها بالشعر[1]:

"ويا عز إن واش وشى بي عندكم فلا تمهليه أن تقولي له: مهلا

كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا: تزحزح لا قريبا ولا أهلا

بلغني - أطال الله بقاء الشيخ - أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره، ولا الصدق ظهوره، وأنه - أدام الله عزه - أذن لها على مجال أذنه، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله أن أقولها، وأستجيز معقولها ... ولولا أن العذر إقرار بما قيل، وأكره أن استقيل، لبسطت في الاعتذار شاذروانا، ودخلت في الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله، فلم أتدارك آخره ... ولعل الشيخ أبا محمد - أيده الله - يقوم من الاعتذار بما قعد عنهُ القلم واللسان؛ فنعم رائد الفضل هو، والسلام".

وقد يجنحُ بعض كتاب الرسائل الإخوانية إبان هذا القرن، في اعتذارياتهم النثرية إلى الإطالة في سوق المعاني الموفية للعذر، والاستفاضة في عرض الحجج والأدلة التي تدعم مواقفهم. ولنا في رسالة أبي حيان التوحيدي الاعتذارية - التي سلف ذكرها - خير شاهد على فيل كتاب الإخوانيات في اعتذارياتهم إلى الإطالة، ولعل الأستاذ مصطفى الشكعة[2] كان محقا حين عد هذه الرسالة " من أنفس الرسائل حكمة وأسلوبا ومنطقا ودفاعا عن فعلة شنعاء، وتبريرا لخطيئته النكراء".

ومما ورد في هذه الرسالة الاعتذارية قوله[3]: "... فليهن عليك ذلك فما انبريت له، ولا اجترأت عليه حتى استخرت الله، عز وجل، فيه أياما وليالي، وحتى أوحى إلي في المنام بما بعث راقد العزم، وأجد فاتر النية، وأحيا ميت الرأي، وحث على تنفيذ ما

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٦١٤/٢ - ٦١٥.

(٢) معالم الحضارة الإسلامية: ١٨٤.

(٣) معجم الأدباء: ١٧/١٥ - ١٨، وتريع أي تحير وتردد.

وقع في الروع، وتريع في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي...".

ثم شرع يصف حاله، وما عاناه من شظف العيش، ومرارة الحرمان وقسوة الوحدة، وفقد الولد النجيب، والصديق الحبيب، والصاحب القريب والتابع الأديب، والرئيس المنيب، ملمحا بهذا كله إلى أن المستحقين للبقايا على الكتب لا وجود لهم. يقول أبو حيان[1]: "... ومما شحذ العزم على ذلك، ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا ... فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن، وتقرع جماعتهم بهذا العيب؟ فجرا بي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد؟ ولا ظهرني من إنسان منهم حفاظ ...".

وبعد أن يبرز الكاتب سبب فعلته باقتدائه بمن سبقه من أئمة العلم الذين أقدموا على إتلاف كتبهم أو حرقها، وأن في صدره من وعاء العلم ما يغنيه عن تلك الكتب، يخلص إلى النتيجة التي يحاول بها إقناع القاضي، وإقناع القارئ، وهي أن خير ما يخلد الإنسان هو العمل الصالح، والزهد بالدنيا، وإخلاص المعتقد. يقول أبو حيان في ختام هذه الرسالة الاعتذارية القيمة[2]: "... وماذا أقول وسامعي يصدق أن زمانا أحوج مثلي إلى ما بلغك، لزمان تدمع له العين حزنا وأسى، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوى وضنى وشجى ... وهل أدرك السلف الصالح في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح، وإخلاص المعتقد، والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج ... وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب؟ وهل المفهوم بها إلا كالحريص الجشع عليهما؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرهما؟ هيهات الرحيل والله قريب، والثواء قليل والمضجع مقض، والمقام ممض، والطريق مخوف، والمعين ضعيف، ... وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أدانينا وأقاصينا، له الخلق والأمر وبيده الكسر والجبر وعلينا الصمت والصبر، إلى أن يوارينا اللحد والقبر والسلام".

---

(١) معجم الأدباء: ١٥/١٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٥/٢٢ - ٢٥.

سادسا: الثناء والشكر والحث على المواصلة:

ومن الأغراض أو المقاصد المهمة التي شاع تناولها في المكاتبات الديوانية[١]، والرسائل الإخوانية في هذا القرن أيضا؛ الثناء والشكر والحث على المواصلة.

لقد تبادل كتاب الإخوانيات وغيرهم في رسائلهم معاني الثناء والشكر تعبيرا عن مواقف الرضى والامتنان للأصدقاء والخلان أو غيرهم؛ لما أسدوه من إفضال، أو ما قاموا به من إنجاز مطلوب كلفوا به. فالشكر نسيم النعمة، كما قال ابن المقفع[٢]، وقد يكون تبادلهم لتلك الرسائل حرصا على دوام الوصال والألفة، أو دفعا للخصام والفرقة، وقديما قال بعض الحكماء: "إذا قصرت يدك على المكافأة، فليطل لسانك بالشكر "[٣].

لقد تناقلت المصادر كثيرا من الرسائل الإخوانية التي انصبت على موضوع الثناء والشكر والحث على المواصلة، وقد كانت دوافع الكتاب لإنشاء تلك الرسائل عديدة ومتباينة، ويمكن رصد أهمها كما يأتي:

(١) الثناء والدعوة إلى المواصلة إعجابا بشخصية المرسل إليه، وتقديرا لوفائه، وتثمينا لكفاءته، أو اعتزازا بمواقف سابقة له مع منشئ الرسالة.

ومما يطالعنا من مكاتبات إخوانية في هذا الجانب؛ رسالة الوزير أبي محمد المهلبي إلى صديقه أبي الفضل العباس بن الحسين - وكان بينهما تواصل - وعندما استوزر المهلبي عام ٣٤٠ هـ، بعد وفاة أبي جعفر الضيمري، فكتب إليه يدعوه إلى مواصلته[٤]: "بسم الله الرحمن الرحيم إني - حفظك الله وحفظني لك، وأمتعك بي وأمتعني بك - قد بلوتك طول أيام أبي جعفر، قدس

(١) ينظر مثلا: الباب الثاني عشر (في التشكر وما يشاكله) في مجموع رسائل الصاحب ابن عباد: ١٦٣ - ١٧٣، وينظر أيضا رسالة الإسكافي في الشكر والثناء عن الأمير نوح ابن نصر الساماني إلى أبي طاهر وشمكير بن زيار يشكره على حميد سيرته: زهر الآداب وثمر الألباب: ١١٠٨/٤ - ١١٠٩.

(٢) ينظر ديوان المعاني: ١٠٤/٢.

(٣) عيون الأخبار: ١٥٩/٣، ويراجع في هذا المعنى رسالة إخوانية للأمير قابوس إلى الصاحب بن عباد: كمال البلاغة: ٦٣.

(٤) رسالة الصداقة والصديق: ٧٠ - ٧١.

الله روحه، فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك، حسن الكفاية فيما يوكل إليك، كتوما للسر إذا استحفظته، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه. وقد حداني هذا كله على اجتبائك وتقريبك، وإدنائك وتقديمك، وغالب ظني أنك تعينني على ذلك بميمون نقيبتك، ومأمون ضريبتك ...".

ونظير ذلك أيضا؛ ما كتبه الأمير قابوس إلى أبي القاسم الصاحب بن عباد يشكره ويثني عليه ويشيد بشخصيته[١]: "الشكر ذكر المحسن بإحسانه، والخروج من حقه بإذاعته وإعلانه ... وسعي الصاحب مستغنٍ عن ذلك لتفتح أنواره وإشراق، نهاره، فقد ملأ العيون عيانه، وصار طلاع الأرض عنوانه، وأصبح في مواسم الذكر أذانا، وعلى معالم الشكر لسانا ...".

(٢) وقد يكون الباعث لتقديم الشكر والثناء عمق الوشائج، وما يصاحب ذلك من صلات وهدايا متبادلة بين الأتراب والأصدقاء.

كتب أبو الفضل ابن العميد إلى محمد بن خلاد الرامهرمزي القاضي[٢]: "وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك وضروب برك وتعهدك، فارتحتُ لكل ما أوليت، وابتهجت بجميع ما أهديت، وأضفت إحسانك في كل فصل إلى نظائره التي وكلت بها ذكري ووقفت عليها شكري...".

ويشاكه هذه الرسالة الإخوانية أيضا؛ ما كتبه أبو إسحاق الصابي إلى الوزير الصاحب يشكره على صلته التي بعثها إليه مع أبي العباس أحمد بن الحسين وأبي محمد جعفر بن شعيب[٣]. ونظيرها أيضا ما كتبه أبو الفرج الببغاء في رسالة شكر[٤]: "وكأني أرى عواقب اشتمالك علي، وتفقدك المتواصل إلي، من مرآة العقل، وبصيرة الذكاء والفضل، إذ كانت إمارات الإقبال على حالي بك لائحة، وشواهد السعادة لدي بعنايتك واضحة. [من الوافر]

فمن نظر يسارع في صلاحي ... ومن وصف يحث على نفاقي

---

(١) كمال البلاغة: ٦٣.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/١٦٦ - ١٦٧.

(٣) تراجع الرسالة في يتيمة الدهر: ٢/٢٩١ - ٢٩٢.

(٤) المصدر نفسه: ١/٣٠٨ - ٣٠٩.

فإنعـام أسـر مـن التدانـي على عـدم أفـضُ مـن الفـراق"

(٣) وقد يكون الباعث لإنشاء رسائل الشكر والثناء بين الأدباء أيضا: إسداء الإفضال، أو أداء الخدمة بما هو مطلوب.

ومما وصل إلينا من الرسائل الإخوانية في هذا الجانب؛ رسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أبي نصر الميكالي في خراسان، يثني عليه ويشكره على اصطناعه فقيها من تلاميذه[١]. ومن ذلك أيضا؛ رسالة الأمير قابوس إلى الوزير ابن العتبي[٢]، ورسالة الأمير قابوس أيضا إلى أبي الفضل ابن العميد يثني عليه ويشكره على إفضاله، ومما ورد منها قوله[٣]: "لم يزل الأستاذ منذ تعارفنا، وفي سبيل التصافي تصرفنا، يرى السعي في مصالحي من أكرم مساعيه، ورعاية العهد فيه من أهم ما يراعيه، ويبذل لي نخيلة الود ومحولة خير ما يبذل، ويجتني ثمرة الفؤاد وكل جميل يجنيه يذبل، إلا أن ما تجشمه آنفا زاد في مواقع الاعتداد واستنفد في الشكر مبالغ الاجتهاد؛ لأنه قضى حق الكرم بما تحمله من العناء، ونفى من الفضل فيما أتاه سمة الاستحياء ...".

(٤) وقد يكون الباعث لهذا الضرب من الرسائل الإخوانية؛ جود المكتوب إليه، وما يسبغه من أياد بيضاء حفزت الأصدقاء والأتراب على تحبير رسائل الثناء والشكر.

ومما وصل إلينا من الإخوانيات في هذا الجانب؛ ما كتبه أبو هلال العسكري في الشكر والثناء، إذ يقول في رقعة له[٤]: "وتأملت التوقيع في معنى المعيشة فتصور لي الغنى بصورته، وقابلني بصدق مخيلته، وعرفت أن الدهر قد غضت جفونه، ونامت عيونه، وتنحت عن ساحتي خطوبه. وهذه نعم أعيا بذكرها، فكيف أطمع في أداء شكرها، بل عسى أن يكون الاعتراف بقصور الشكر عنها شكرا لها، ومقابلة بما خلص إلي منها، وأنا معترف بذلك اعتراف الروض بحقوق الأنواء، وقائل به كما أقول بفضل الوفاء".

(١) ينظر رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٤٧ - ١٤٩.

(٢) يراجع كمال البلاغة: ٤٧ - ٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ٣٨ - ٣٩.

(٤) ديوان المعاني: ١٠٤/٢.

أما ما تميزت به رسائل الشكر والثناء من مزايا فنية في هذا القرن؛ فلعل أهمها، تحلية الرسالة بالشعر العذب الرقيق، وإدراجه في ثناياها، إلى جانب النثر، وغالبا ما يكون هذا الشعر من نسج الكاتب ونظمه، وجزءا متمما لموضوع الرسالة أو فحواها[١].

كما تميز هذا الضرب من الرسائل أيضا؛ بالإكثار من الجمل الاعتراضية الدعائية، كما غلب على أكثرها - ولا سيما رسائل الثناء الموجهة إلى بعض أعيان الطبقة الخاصة - الغلو والمبالغة، وهذا ما نتلمسه في كثير من رسائل أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، وأبي الفضل الميكالي، وأضرابهم من كتاب الرسائل الإخوانية في هذا القران[٢].

سابعا: الاستزارة وتوجيه الدعوة وبث الأشواق:

ومن الأغراض أو المقاصد الشائعة التي طرقتها الرسائل الإخوانية في هذا القرن أيضا؛ ما شاع بين الإخوان والأقران من كتابات شخصية في توجيه الدعوة لحضور منتديات الأدب والمناظرة، أو مواصلة المكاتبة والمراسلة، أو طلب الاستزارة لحضور مجالس الطرب والغناء والشراب، وما شاكل ذلك من مجالس الأنس والقصف التي شاع إقامتها في بيئات الطبقة الخاصة إبان هذا القرن.

وكانت رسائل الاستزارة والدعوة إلى المواصلة هذه تقترن، في الغالب وصف لواعج الشوق، ومسارب الهوى[٣]، ومن هنا فقد غلب عليها رقة الألفاظ وجودة المعاني، وفضلا عن ذلك، فإن هذا اللون من المكاتبات يكشف عن أواصر اجتماعية عميقة بين الأدباء وأقرانهم، بعيدة عن الأمور السياسية وغيرها، وهي وثائق تاريخية

---

(١) تراجع رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى أبي نصر الميكالي في الشكر والثناء: زهر الآداب وثمر الألباب: ٣٠٦/١ وما بعدها، ورسالة أبي الفرج الببغاء إلى الوزير المهلبي في الشكر: يتيمة الدهر: ٣٠٥/١ - ٣٠٦، ورسالة أبي القاسم الأطروش العلوي إلى أبي الحسن الجرجاني: يتيمة الدهر: ٥٤/٤، وغيرها.

(٢) ينظر رسالة أبي بكر الخوارزمي في الثناء إلى خوارزم شاه: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٧٧ - ١٧٨، رسالة بديع الزمان الهمذاني في الثناء: يتيمة الدهر: ٣٣٢/٤ ويراجع باب الثناء والشكر (فصول من رسائل لأبي الفضل الميكالي) يتيمة الدهر: ٤١٥/٤ وما بعدها، ورسالته أيضا في الشكر والثناء: زهر الآداب وثمر الألباب ١٠٢٣/٤ - ١٠٢٤.

(٣) ينظر رسالة ابن العميد إلى بعض إخوانه: خاص الخاص - للثعالبي: ١٠، وتراجع فصول بليغة في الاستزارة والعيادة لأبي الفضل الميكالي: اليتيمة: ٤٢٢/٤.

مهمة كشفت عن كثير من الجوانب الاجتماعية والحضارية في هذا القرن.

وقد اشتهر أبو القاسم الصاحب بن عباد في هذا القرن، بكثرة تدبيجه لكتب الاستزارة[١]، وتوجيه الدعوات إلى أترابه وخلانه.

كتب الصاحب إلى أبي العلاء الأسدي، في فصل من رسالة طويلة يتشوق لأيام صحبتهما، ويدعوه إلى المواصلة، يقول[٢]: "أبا العلاء شيخي أين ذلك الميعاد؟ وأين تلك العهود سقتها العهاد؟ وأين ليالينا بحزوى، وتصابينا على أروى؟ بل أين الصبا وما ملك؟ وأين الشباب وأية سلك؟ وإذ قد غاب جميع ذلك مغيب الخيال الطارق، والضيف المفارق، فأين كتبك التي هي ألذ من انتهاء النفس إلى رجائها، وابتداء العين في إغفائها".

لقد حرص كتاب الإخوانيات في هذا اللون من الرسائل، على التأنق في صياغة الألفاظ والتراكيب، وانتقائها، والعناية الفائقة برصف الجمل وبنائها فضلا عن ارتياد المعاني الرفيعة الجميلة غير المتداولة، ومن هنا فقد غلب على رسائل الاستزارة طابع المبالغة في وصف الأشواق، كما حرص الأدباء الكتاب أيضا على تضمين رسائلهم النثرية بالشعر الرقيق العذب الذي يناسب ظرف الرسالة وفحواها.

ومن روائع الرسائل الإخوانية في بث الأشواق، والدعوة إلى المواصلة أيضا؛ ما كتبه أبو الفضل الميكالي إلى صديقه أبي منصور الثعالبي، ومما جاء فيها قوله[٣]: "كتابي، وأنا أشكو إليك شوقا لو عالجه الأعرابي لما صبا إلى رمل عالج، أو كابده الخلي لا نشنى على كبد ذات حرق ولواعج؛ وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويخرق فلا ينوي رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوي الوداد، ثم يبخل عليهم بما يشفي الصدور والأكباد ... وكم أستعدي على صرفه واستنجد، وأتلظى غيظا عليه وأنشد:

متى وعسى يثني الزمان عنانه ... بعثرة حال، والزمان عثور

فتدرك آمال وتقضى مآرب ... وتحدث من بعد الأمور أمور ...".

وكتب الصاحب بن عباد أيضا في رسالة له إلى بعض خلانه يدعوه إلى مجلس

---

(١) ينظر: يتيمة الدهر: ٣/٢٨٦ - ٢٨٧، خاص الخاص: ١٢.

(٢) يتيمة الدهر: ٣/٣٩٤.

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب ٢/٥٤٥ - ٥٤٦.

شراب[١]: "نحن في مجلس أبت راحه أن تصفو إلا أن تتناوله يمينك، وأقسم غناؤه لا طاب حتى تعيه أذناك، وعندنا خدود نارنجية، قد احمرت خجلا لإبطائك، وعيون نرجسية، قد حدقت تأميلا للقائك، وأحب أن تطير إلينا طيران السهم، أو تطلع علينا طلوع النجم".

ومن رقع الاستزارة الجميلة التي وصلت إلينا أيضا في هذا القرن، ما رواه الحصري لأبي الفضل بديع الزمان الهمذاني من رسالة رقيقة كتبها لأخيه في الحجاز[٢]، وما رواه أبو منصور الثعالبي أيضا لأبي النصر العتبي في الاستزارة والشوق، ومما ورد فيها قوله[٣]: "هذا يوم رقت غلائل صحوه وخنثت شمائل جوه، وضحكت ثغور رياضه، واطرد زرد الحسن فوق حياضه وفاحت مجامر الأزهار، وانتشرت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار ... فبحق الفتوة التي زان الله بها طبعك، والمروة التي قصر عليها أصلك وفرعك، إلا تفضلت بالحضور، ونظمت لنا بك عقد السرور".

وهكذا وثقت هذه الرسائل الإخوانية التي انصبت على الاستزارة وبث الأشواق، جانبا مهما لحياة الطبقة الخاصة إبان هذا القرن، كما صورت أيضا جوانب مهمة لطبيعة الحياة الاجتماعية والحضارية، وما انطوت عليه من مفاكهات ولهو، ومداعبة وسرور، وما إلى ذلك.

ثامنا: التوصية وطلب الشفاعة:

ومن الأغراض أو المقاصد المهمة التي تناولتها الرسائل الإخوانية في هذا القرن أيضا: التوصية وطلب الشفاعة، وقد كان هذا الضرب من الإخوانيات - كما ذكر القلقشندي[٤] - يصدر، غالبا، عن ذوي الرتب والأخطار، والمنازل والأقدار، الذي يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب، ودرك الرغائب[٥].

---

(١) من غاب عنه المطرب: ١٢٠ - ١٢١.

(٢) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب ٨٢٥/٣ - ٨٢٦.

(٣) يتيمة الدهر: ٤٦١/٤، وتنظر أيضا رقعة أخرى للعتبي في الاستزارة بيوم النحر: اليتيمة ٤٥٩/٤.

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٢٤/٩.

(٥) ينظر رسائل الأمير قابوس بن وشمكير في التوصية والشفاعة: رسالته إلى أبي الفضل ابن العميد في طلب إقالة نادم؛ كمال البلاغة: ٤٣ - ٤٤، ورسالته أيضا إلى الوزير ابن العتبي في الشفاعة؛ كمال البلاغة: ٤٤ - ٤٥، ورسالته أيضا إلى الوزير الصاحب بن عباد في الشفاعة والتوصية، كمال البلاغة: ٦٨ - ٦٩.

وقد اشتهر الوزير الصاحب بن عباد، مثلا، بكثرة تحبيره لرسائل التوصية للأدباء الذين كانوا يمكثون في بلاطه، ويتفيأون بظلال أدبه، ثم يغادرونه إلى حواضر إسلامية أخرى[١]، فضلا عن كثرة رسائل الشفاعات التي ضمها مجموع رسائله[٢].

ولقد كثر في هذا القرن، ونتيجة لسوء الأوضاع السياسية والاجتماعية، تعرض الأدباء وغيرهم من رعايا الدولة الإسلامية، للمحن وألوان المصائب، كالسجن والمصادرة وما إلى ذلك، وكان طبيعيا أن يلجأ الكثير من أولئك المظلومين إلى من يتوسمون فيهم الجاه أو المقدرة على الشفاعة لهم - ولا سيما من كبار رجالات الطبقة الخاصة وغيرهم - لإنقاذهم مما هم فيه من مصائب ومحن.

ومما اشتهر من كتب الشفاعة في هذا القرن؛ رسالة أبي إسحاق الصابي عن عز الدولة بختيار، إلى الأمير مؤيد الدولة في الشفاعة لأبي الفتح ابن العميد حين سجن في محنته المشهورة عام ٣٦٦ هـ، ومما ورد فيها قوله[٣]: "وهذا غلام أفسدته سجية ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال، والصبر على الادلال ... ومن ألزم اللوازم في حكم الرعاية أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها، وأن نعذره عند هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها، وأن تكون نفسه محروسة، والبقية من حاله بعد أخذ فضلها المفسد له متروكة، وأن يتحدث الناس بأن سيدي الأمير أصاب غرض الحزم بالقبض عليه، ثم طبق مفصل الكرم في التجاوز عنه".

ويبدو واضحا براعة الكاتب الصابي، وفطنته، وحسن تأتيه ولباقته ودقة توسله، إذ إنه خلط في شفاعته بين الاعتزاز والتذلل، وبين الشكر والمدح.

على أن رسائل التوصية والشفاعة لم يقتصر صدورها في هذا القرن - كما ذهب إلى ذلك القلقشندي، وهو ما مر بنا آنفا - على ذوي المناصب الرفيعة والأخطار، وإنما صدرت بعض تلك التوصيات والشفاعات أيضا عن الأدباء أو الكتاب أو غيرهم من وجوه الطبقة العامة، كأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، وإضرابهما ممن كانت له صلات طيبة أو علاقة حسنة مع بعض أولي الأمر من الرؤساء والأمراء

---

(١) تراجع مثلا رسالة الصاحب إلى أبي علي الحسن بن أحمد في شأن أبي عبد الله محمد بن حامد، يوصيه برعايته؛ يتيمة الدهر: ٣/٢٩٢ - ٢٩٣.

(٢) يراجع رسائل الصاحب بن عباد - الباب الخامس عشر (في الشفاعات): ١٩٦ - ٢٠٤.

(٣) يتيمة الدهر: ٢/٢٩٣.

والوزراء وغيرهم[١].

ومن نماذج هذا اللون من رسائل الشفاعة، ما كتبه أبو بكر الخوارزمي إلى أبي عمر المكندري، وزير صاحب جرجان، يتشفع فيها لبعض المتظلمين، وقد هرع إليه يستنجده، ومما ورد فيها قوله[٢]: "وعد الشيخ يكتب على الجلمد، إذا كتب وعد غيره على الجمد، ولكن صاحب الحاجة شيء النظر بالأيام، مريض الثقة بالأنام؛ لكثرة من يلقاه من اللئام، وقلة من يسمع من الكرام. وفلان نغض[٣] عندي غرائر شكره، واستعان بي على تحمل ما أثقله من أعباء بره، فأعلمته أنني أثقل منه بنعمة الشيخ ظهرا، وأضيق منه بما لزمني أداؤه صدرا. (وأنشدته شعراً)

أعنين هلا إذ كلفت بها ... كنت استعنت بضارع العقل

أقبلت ترجو العون من قبلي ... والمستعان به لفي شغل

ثم أني تذممت في أن أرد إخواني، في ماعونٍ طلبوه من لساني، فأصحبته هذه الأحرف، والشيخ يلمظه[٤] بالزيادة حلاوة الشكر، ويعرفه فعلا لا قولا حميد عاقبته، وما أفاض فيه من جميل النشر، فمثله عرف الشاكرين الصنعة، ونفق بينهم هذه السلعة".

وقد تميزت أكثر رسائل التوصية والشفاعة في هذا القرن، بجمال الأداء، ودقة الصياغة، والتلطف في الخطاب؛ بلوغا إلى الغاية التي ينشدها الكاتب، وهي التأثير في نفس المستشفع به، كما تميزت أيضا بالإيجاز وعدم الإطالة.

وصفوة القول: إن الرسائل الإخوانية قد تطورت في هذا القرن تطورا كبيرا قياسا

---

(١) تراجع رسالة أبي بكر الخوارزمي في الشفاعة إلى أبي عمر المكندري، وزير صاحب جرجان؛ رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢١ - ٢٢، وتراجع أيضا رسالة الهمذاني إلى بعض الرؤساء يسأله إطلاق محبوس؛ زهر الآداب وثمر الألباب ٩٩١/٤، وتراجع رسالة أخرى له إلى بعض الرؤساء يسأله العناية برجل؛ المصدر نفسه ١١٥١/٤.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢١ - ٢٢.

(٣) نغض غرائر شكره: أي حركها، ونغض رأسه أي تحرك (لازم)، ونغض فلان رأسه أي حركه (متعدي)، وأنغض رأسه: حركه كالمتعجب من الشيء.
يراجع (مختار الصحاح - للرازي (مادة: ن. غ. ض): ٦٧٠).

(٤) يلمظه بالزيادة: أي يتتبعها. ولمظ يلمظ (من باب نصر) إذا تتبع المرء بلسانه بقية الطعام في فمه، وأخرج لسانه يمسح به شفتيه.
يراجع (مختار الصحاح (مادة: ل. م. ظ): ٦٠٤).

إلى ما كانت عليه في القرون السابقة، إذ اتجه منشئو الرسائل الأدبية - وبخاصة كتاب الإخوانيات - نحو الفن والتهذيب والصنعة، وطفق هؤلاء الكتاب يتأنقون في ترسلهم؛ فكانوا يجيلون الفكرة، ويفتنون في انتقاء الألفاظ والتراكيب، ويتخيرون المعاني الجميلة النادرة؛ تحقيقا لبلوغ الغاية من تحبيرها وهي التأثير والإبداع الفني.

المبحث الثاني
الرسائل الوصفية في القرن الرابع

الوصف أحد الفنون البارزة والأساسية في الشعر العربي منذُ أقدم عصور الأدب عند العرب(١)، إذ كان هذا الفن الشعري محور إبداع الشاعر المرهف الحس في تجربته الشعرية، والأرضية التي يفرغ عليها كل طاقاته الإبداعية وخزينه الفني المتدفق.

وعندما بدأ النثر الفني في القرن الرابع يزاحم الشعر - كما مر بنا آنفا - في طرق موضوعاته وأغراضه، وخوضه فيما هو من أساليبه، ومرتكزاته الأساسية، كثر الوصف في فصول النثر الفني، وبخاصة في الرسائل الأدبية كثرة ظاهرة، وطفق يتسلل إلى كل أجزائه وموضوعاته المختلفة.

ولعل هذا ما يفسر لنا غزارة الرسائل الوصفية وشيوعها وكثرتها في هذا القرن، وبراعة كتاب الرسائل الأدبية بخاصة، وإجادتهم في وصف ما وقعت عليه أعينهم، أو ما تلمسوه في خواطرهم، وأحسوه في وجدانهم وفكرهم، حتى عد بعض الباحثين المعاصرين(٢) إجادة كتاب هذا القرن في الوصف، وبراعتهم فيه، أظهر ميزة في القرن الرابع؛ إذ لم يكن الوصف عندهم مما يأتي لِماماً، أو عفو الخاطر، في المناسبات الطارئة، وإنما تعمدوا استقصاء الموضوعات الوصفية فيما رأت أعينهم، أو جرى في خواطرهم، أو ارتابت فيه عقولهم.

إن أول ما يستوقف الباحث عند دراسة هذا اللون من الرسائل الأدبية في هذا القرن؛ هو شغف كتاب الرسائل الأدبية في وصف المحسوسات والمعنويات واندفاعهم العجيب في تصوير كل ما يلمون به في ترسلهم، ومكاتباتهم الشخصية واستقصاء جوانبه المختلفة، والوقوف عند جميع جزئياته، وتحليل أطرافه سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالأمور المادية المحسوسة أم فيما يتصل بأمور الوجدان والخواطر وسواها من الأمور المعنوية(٣).

---

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه: ٢٤٩ - ٢٨٥.

(٢) ينظر كتاب: النثر الفني في القرن الرابع: ١/٢١٠ وما بعدها.

(٣) تراجع فصول الرسائل والفقر التي أوردها في هذا الباب الثعالبي في يتيمة الدهر، وخاص الخاص، وسحر البلاغة، ومن غاب عنه المطرب، في مواضع متفرقة، وينظر أيضا ما أورده الحصري في زهر الآداب تحت عنوانات كثيرة متفرقة ما لأهل العصر في وصف كذا وكذا، وسيأتي لاحقا ذكر بعض تلك المواضع في الصفحات التالية من هذا المبحث.

ولعل ما حفز الأدباء الكتاب في هذا القرن إلى ذلك كله، أنهم كانوا يجرون وراء كل ما هو جديد أو غير مألوف من المعاني الشعرية، وربما كان هذا الأمر وراء ولع هؤلاء الكتاب في حل الشعر القديم والمحدث في مكاتباتهم، وإدراجه في رسائلهم، فكانوا لا يرون معنى رائقا بديعا، ولا خيالا شيقا طريفا إلا اجتلبوه، وحلوه في ترسلهم، وضموه إلى فيض وعائهم الفني الثر[١].

إن لهث كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن وراء المعاني الجديدة، ودأبهم المتواصل على طلبها، وشغفهم المفرط بالوصف، وما عرفوا به من قوة في تصوير المحسوسات والمعنويات، كل ذلك قد أيقظ فيهم حواسهم، وألهب مشاعرهم، وفتق خيالهم لاستخراج أدق ما في دخائل الأشياء التي يلمون بوصفها وتحليلها، ويستكنهون ما فيها من غوامض أو أسرار، للكشف عن باطنها أو غرائب صفاتها.

يقول الأستاذ زكي مبارك[٢]: "... إن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجب لتلك القرائح القوية، وتلك الطباع السليمة، التي سمحت لأولئك الناس بالتعمق في وصف ما شهدته أعينهم، وأحسته أنفسهم، من غرائب العوالم المحسوسة والمعقولة، بطريقة فنية هي وحدها تتطلب دقة في الفهم، وقوة في العقل، وسلامة في الذوق".

وهكذا آلت كثير من فصول رسائل أولئك الكتاب في هذا القرن إلى لوحات فنية زاخرة بالحركة، نابضة بالحياة، لتصور ما يجيش في نفوسهم ووجدانهم من مشاعر وانفعالات.

وقد عزا بعض الباحثين من المستشرقين[٣] تنامي قدرات الأدباء من الشعراء والكتاب في هذا القرن، في تصوير ما تجيش به نفوسهم من أحاسيس؛ إلى اتصال العرب بشعوب وأمم أجنبية أخرى، تختلف عنهم اختلافا كبيرا، بينما كان دأب العرب دائما الكلام البليغ، وفن القول[٤]، كان ما استحوذ على اهتمام تلك الشعوب الأعجمية

(١) يراجع بعض ما أورده الثعالبي عن (حل) الصاحب بن عباد، وأبي إسحاق الصابي وغيرهما من صدور الكتاب في هذا القرن، من شعر المتنبي ومعانيه في فصول رسائلهم: يتيمة الدهر: ١/ ١٥٣ - ١٥٩.

(٢) النثر الفني في القرن الرابع: ٢١٥/١.

(٣) تراجع التفاصيل في كتاب: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٤٧٨/١ وما بعدها.

(٤) يراجع وصف عتبة بن أبي سفيان لكلام العرب، وعنايتهم بفن القول: زهر الآداب وثمر الألباب: =

- وكانت طبقة الكتاب البلغاء في هذا القرن تنحدر من أصلابهم - فن التصوير الذي يعتمد على الإجادة في الوصف. وقد بدا هذا الأمر واضحا عندما أصبحت هذه الشعوب الأجنبية هي القابضة على زمام الفن الأدبي في هذا القرن.

لقد ألم كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن بكل ما أحاطت به حواسهم المرهفة من مظاهر الحياة المختلفة، ودققوا النظر في معالمها المتنوعة؛ فوصفوا بدقة متناهية ما أبصرته عيونهم، ووعته آذانهم، وتلمسته أناملهم، وأمعنوا بقوة في تحليل ما انتهى إلى حواسهم الأخرى، من مظاهر الطبيعة على اختلافها؛ فوصفوا الرياض والبساتين، وما يتخللها من ازدهار[١] ورياحين، وأصناف النبات الأخرى، وأسهبوا في وصف المنازل والقصور[٢]، وما حوته من حياض وبرك، وما اشتملت عليه من مجالس الغناء والشراب، فدققوا في جزئياتها؛ فوقفوا عند الإماء والغلمان، وبرعوا في وصفهما، ووصفوا الندامى والسقاة ووقفوا عند آلات الطرب، وآنية الشراب.. وهنا لم يفتهم التأمل في الليل وسحره فبرعوا في وصفه حين يرخي سدوله، أو حين يسحب الظلام ذيوله، ووصفوا نجومه المتلألئة، وتأملوا في سرعة انقضاء أوقات الأنس، فوصفوا انكبابهم على مطارح القصف، والتمتع بالحياة اللاهية الناعمة[٣].

وتأمل بعضهم البحار والأنهار والجداول والغدران، فراح يصف ببراعة فائقة ما سجلته بصيرته من مشاهدات طريفة نادرة[٤].

وراح بعض الأدباء الكتاب يصف مظاهر الطبيعة الأخرى؛ فاستوقفه مثلا مشاهد

=

٣/٦٨٤. ومما ورد في تضاعيف قوله: "إن للعرب كلاما هو أرق من الهواء وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها، بكلمات مؤتلفات ... فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة، إذا سمعت وصعوبتها بقلمك أنها مفقودة إذا طلبت..."

(١) ينظر ما ذكره الحصري من ألفاظ أهل العصر في وصف الرياض والأزهار والرياحين: زهر الآداب: ٢/٥٧٦.

(٢) ينظر ما ذكره الحصري لأهل العصرفي صفات الدور والقصور: زهر الآداب: ٣/٧٤٣.

(٣) يراجع ما ساقه الحصري لأهل العصر في صفات مجالس الأنس: ٢/٥٠٣، ووصف الليل زهر الآداب: ٣/٨٠٤ وما بعدها.

(٤) للصاحب بن عباد رسالة بليغة نادرة في وصف البحر، جوابا له عن رسالة لأبي الفضل ابن العميد؛ يتيمة الدهر: ٣/٢٩٥ - ٢٩٦.

البرق، وزمجرة الرعد[١]، وطيب النسيم، وشدة الريح، وهطول المطر، وتراكم الثلوج، ووصف بعضهم ما تتركه مشاهد الغيوم، وتلبد السماء أو الصحو وتبسم النهار فجسدهُ بثغور الزهور الضاحكة تحت خيوط الشمس الذهبية، فصور كل ذلك بوضوح، وصور ما تتركه في نفسه من غبطة وسرور أو كدر وقنوط.. ولم يقلع كتاب هذا القرن عن وصف الحيوان والحشرات والطيور؛ فوصفوا الأفاعي والفهود وكلاب الصيد[٢]، ووصفوا الجراد والذباب[٣]، وغير ذلك مما شاهدوه في بيئتهم أو في مراتع لهوهم أو صيدهم.

كما أطال أدباء هذا القرن أيضا، الوقوف عند وصف البلاغة والشعر والنثر والكتابة، والكتب المرسلة إليهم، ووصفوا أدوات الكتابة، فوصفوا القلم والدواة[٤] والقرطاس، كما أجادوا في وصف الأيام والشهور والفصول فوصفوا الخريف، والأيام الشتوية القارصة، ووصفوا القيظ وشدة الحر[٥] ووصفوا ما عانوه في تلك الفصول المتباينة من محن وآلام، أو سرور وإنعام وما إلى ذلك مما وقع تحت طائلة حواسهم، أو تلذذت به نفوسهم، أو نفرت منه أذواقهم أو قرائحهم المتقدة، فرسموا من ذلك كله لوحات رائعة، ظلت على مر الأيام وتطاول العصور شاهدة على أصالة فنهم، ودقة صنعتهم، ورهافة حسهم.

وفضلا عن وصف كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن للأمور المادية المحسوسة التي ألموا بها في مكاتباتهم، فقد أبدعوا أيضا في تصوير المعاني والصفات الوجدانية، وبرعوا في تحليل المدركات العقلية الدقيقة، والمعاني الذهنية العميقة؛ فقد تعمق كثير من جهابذة الكتاب وصدورهم، في هذا القرن في تحليل أهواء النفس

(١) يراجع ما ساقه الحصري لأهل العصر في أوصاف الرعد والبرق: زهر الآداب: ٢٣٧/١ - ٢٣٨ وينظر أيضا ما ساقه لأهل العصر في وصف الثلج والبرد: زهر الآداب ٩٤٠/٤ - ٩٤١.

(٢) تراجع للصابي رسائل عديدة في وصف الصيد وحيوانه كالفهود وكلاب الصيد والخيل السريعة والطيور الجوارح كالصقر والباز وما إلى ذلك: يتيمة الدهر: ٣٠١/٢ وما بعدها، نهاية الأرب: ٩/ ٢٦١.

(٣) أثبت العسكري في ديوان المعاني: ١٤٩/٢ رسالة طريفة لأبي القاسم الآمدي في وصف الذبان.

(٤) يراجع ما ذكره الحصري في أوصاف أهل العصر لآلات الكتابة: زهر الآداب: ٥٦٢/٢.

(٥) تراجع فصول من رسائل لأدباء العصر في هذا الجانب: زهر الآداب: ٩٤٠/٤.

الإنسانية، ونزعاتها المتباينة، وأمزجتها المتقلبة فوصفوا العشق والوجد والشوق[١] والهيام، وحللوا تباريح الفراق وآلامه ونشوة اللقاء ودوامه، وبرعوا أيضا في تحليل معاني البغض والحقد والحسد وأفاضوا كذلك في تصوير معاني الكرم والنبل والسماحة والمهابة والنجابة، وما إلى ذلك من الأمور المعنوية غير المحسوسة[٢].

موضوعات الرسائل الوصفية وأغراضها:

أما ما ألمت به الرسائل الوصفية من موضوعات، وما انطوت عليه من أغراض؛ فلعل أهمها، وأكثرها تداولا وشيوعا بين أدباء هذا القرن هي كما يأتي:

١ - وصف الرسائل أو الكتب المتبادلة:

لقد افتن الأدباء الكتاب في هذا القرن في وصف الرسائل أو الكتب المتبادلة بينهم[٣]، وربما كانوا يتبارون مع بعضهم في إضفاء الأوصاف الجديدة أو المبتكرة عليها، ويتنافسون في خلق أبكار المعاني الرائعة في نعوتها، ومن هنا فقد حفل هذا اللون من المكاتبات الوصفية بصور حسية ومعنوية جميلة، على الرغم مما كان يشوب بعضها من المبالغة[٤] والتكلف، فضلا عما تميزت به من ظاهرة التكرار والترادف في الألفاظ والصيغ والتراكيب.

وكثيرا ما كان الكتاب في هذا القرن يسبغون على تلك الرسائل المرسلة من

---

(١) تراجع رسائل عديدة لأبي بكر الخوارزمي في وصف الشوق، وتحليل مساربه: رسائل أبي بكر الخوارزمي ص٩٣ - ٩٥، ص٩٧ - ٩٩، وتراجع أيضا رسالته إلى صاحب البريد يصف شوقه إليه وفراقه الممض ص٧٠ - ٧١، وتراجع في وصف الشوق أيضا فصول لأبي الفضل الميكالي: يتيمة الدهر: ٤/٤١٢ - ٤١٣.

(٢) تراجع فصول من رسائل لأبي الفضل الميكالي في تحليل الشوق ومكابدة الفراق يتيمة الدهر: ٤/٤١٢ - ٤١٣، ويلاحظ ما في فصوله في الشكر من تشخيص ودقة خيال، اليتيمة: ٤/٤١٦.

(٣) ينظر الفصول التي أوردها الثعالبي من باب وصف الكتب بالحسن والبلاغة ولطف الموقع لأبي الفضل الميكالي: يتيمة الدهر: ٤/٤١٠ - ٤١٢، ويراجع أيضا: رسائل الخوارزمي الوصفية في هذا الباب: رسائل أبي بكر الخوارزمي، رسالته الجوابية إلى أبي محمد العلوي يصف كتابه إليه: ٤٤ - ٤٦، ورسالته إلى تلميذ له يصف قصيدة أرسلها إليه: ٥١ - ٥٢، ورسالته إلى أحمد بن شبيب يصف كتابا منه ورد عليه: ١٢٣ ورسالته إلى تلميذ له أيضا يصف فيها كتابا وقصيدة: ١٥٣ - ١٥٤.

(٤) تراجع فصول رسائل أبي الفضل الميكالي في هذا الباب: يتيمة: ٤/٤١٠ وما بعدها، وينظر رسالة أبي هلال العسكري: ديوان المعاني: ٢/٨٥.

الوجهاء أو الأتراب والخلان، أرق النعوت، وصوروها بأجمل الأوصاف؛ فهي رياض رقت حواشيها، وحلل تأنق واشيها[١]، وشبهوا سطور تلك الرسائل؛ " بالروض الممطور، والكلام المنثور، والوشي المنشور"[٢]، ووصفوا الكتاب بأنه المسك في ذكاء رائحته، والزهر في رقته، والماء في عذوبته[٣]. وهو تارة أخرى " يحاكي نسيم الروض غب المطر، أو تنفس الأنوار في السحر"[٤] وهو آونة أخرى " غمامة برقها خلق كريم، وقطرها برٌّ عميم... "[٥] إلى غيرها من الصور الكثيرة التي أضفوها على تلك الرسائل المتبادلة فيما بينهم.

ومن عيون الرسائل الوصفية التي انصبت على هذا اللون من التصوير الفني؛ ما ورد في رسالة أبي الفضل ابن العميد إلى بعض إخوانه، ومما ورد في تضاعيفها[٦]: "وصل ما وصلتني به - جعلني الله فداك - من كتابك، بل نعمتك التامة، ومنتك العامة، فقرت عيني بوروده، وشفيت نفسي بوفوده ونشرته فحكى نسيم الرياض غب المطر، وتنفس الأنوار في السحر، وتأملت مفتتحه، ... فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك، وضروب الفضل منك جدا وهزلا، ملأ عيني، وعمر قلبي، وغلب فكري، وبهر لبي، فبقيت لا ادري: أسموط در خصصتني بها، أم عقود جوهر منحتنيها؟ كما لا أدري أبكرا زففتها فيه، أم روضة جهزتها منه؛ ولا أدري أخدودا ضرجت حياء ضمنته؛ أم نجوما طلعت عشاء أودعته".

وقد اشترك كثير من الكتاب في إضفاء معاني الانتشاء بورود الكتاب إليه والسرور برؤيته، يقول الصاحب بن عباد في فصل من رسالة له في هذا الباب[٧]: "وصل كتابك، فجعلت يوم وصوله عيدا، أؤرخ به أيام بهجتي وأفتح به مواقيت غبطتي...".

ومن المعاني الجديدة التي أبدع الصاحب بن عباد في تصويرها بألوان الصور

---

(١) فصل من رسالة للصاحب بن عباد: ديوان المعاني: ٨٦/٢.

(٢) فصل من رسالة للعسكري: ديوان المعاني: ٨٥/٢.

(٣) فصل من رسالة للخوارزمي: من غاب عنه المطرب: ١٧.

(٤) فصل من رسالة لأبي الفضل ابن العميد: زهر الآداب وثمر الألباب: ٤١/١ - ٤٢.

(٥) فصل من رسالة لأبي الفضل الميكالي: يتيمة الدهر: ٤١١/٤.

(٦) زهر الآداب وثمر الألباب: ٤١/١ - ٤٢.

(٧) ديوان المعاني: ٨١/٢.

الحسية والمعنوية، ما جسمه في صورة رائعة من تنافس بين فقر الكتاب وسطوره! ـعته أيضا بالرهبة والجلال.. يقول في رسالة له في وصف كتاب(١): "... حتى إذا فضضت ختامه، أقبلت الفكرة تتكاثر، والدرر تتناثر، والغرر تتراكم، والنكت تتزاحم، فإذا حكمت للفظة بالسبق، أتت أختها تنافس، وأقبلت لدتها تفاخر، حتى استعفيت من الحكومة، ونفضت يدي من غبار الخصومة، وأخذت أقول: كلكن صوادر عن أصول بل أصل واحد، فتسالمن، ونوافذ عن معدن نادر فتصالحن ...".

ولا يخفى ما في هذا الفصل من رسالة الصاحب من روعة الوصف، وجمال التصوير، ورقة الأسلوب، وحلاوة النغم، ومتانة الرصف بين قرائن النص، فضلا عما حققه التجسيم في قوله: "أتت أختها تنافس، وأقبلت لدتها تفاخر " من تفاعل وحركة تزخر بالحيوية والحياة.

أما أبو الفضل الميكالي فقد أضفى على رسالة أبي منصور الثعالبي التي بعثها إليه أوصافا حسية طريفة؛ فهي زهور الربيع الصفراء في النجود، وهي البرود المرصعة المزركشة، وهي قلائد العقود!

يقول أبو الفضل الميكالي في فصل من رسالته إلى الثعالبي يصف كتابه إليه(٢): "وصل كتاب الشيخ، فنشر عندي من حلل إفضاله وإكرامه ومحاسن خطابه وكلامه، ما لم أشبهه إلا بأنوار النجود، وحبر البرود، وقلائد العقود".

وكان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن يضفون أحيانا في أوصافهم على بعض فصول الرسائل التي تصل إليهم، هالة من القدسية والجلال، فضلا عما يخلعونه عليها من أوصاف الحسن والرقة، وغيرها من الصفات.

ولعل من نماذج هذا اللون من الرسائل الوصفية؛ ما كتبه أبو العباس الضبي في مستهل رسالته إلى أبي سعيد الشبيبي، يصف كتابه إليه(٣): "وقد أتاني كتاب شيخ الدولتين، فكان في الحسن روضة حزن، بل جنة عدن، في شرح النفس، وبسط الأنس، برد الأكباد والقلوب، وقميص يوسف في أجفان يعقوب ...".

****

(١) المصدر نفسه: ٨٥/٢.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ١٧٣/١.

(٣) يتيمة الدهر: ٢٤١/٣.

وهكذا نرى أن كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، قد وقفوا طويلا عند الرسائل المتبادلة بينهم، فأفتنوا في وصفها، وبالغوا في إضفاء النعوت عليها وحلقوا بخيالهم في آفاق علوية بعيدة، بما أسبغوه عليها من أوصاف ذهنية بعيدة عن الحس والواقع، فضلا عما أضفوه عليها أيضا من صور حسية جميلة مبتكرة.

-٢- وصف المنظوم والمنثور:

لقد أفاض الأدباء الكتاب فيما دار بينهم من مكاتبات أدبية إبان هذا القرن في وصف ما تضمنته تلك الرسائل من المنظوم والمنثور، وأفرطوا في وصفهما وفي تحليل ما اشتملا عليه من براعة ورقة وسلاسة وحسن موقع.

وقد وقف الثعالبي والحصري طويلا عند ذكر أوصاف أهل عصرهم من الأدباء، للمنظوم والمنثور وغيرهما أيضا، ومما ساقه الحصري مثلاً من أوصافهم للنظم والنثر قولهم(١): "نثر كنثر الورد، ونظم كنظم العقد، ونثر كالسحر أو أدق، ونظم كالماء أو أرق. رسالة كالروضة الأنيقة، وقصيدة كالمخدرة الرشيقة ... نثر كما تفتح الزهر، ونظم كما تنفس السحر. نثر ترق نواحيه وحواشيه، ونظم تروق ألفاظه ومعانيه ...".

وقد كان هذا الضرب من الرسائل الوصفية - وبخاصة ما وصل إلينا لمشاهير الأدباء الكتاب في هذا القرن، وعلى الرغم مما انطوى عليه بعضها من تكلف وغلو(٢) - وثائق أدبية مهمة، كشفت لنا بوضوح عن ذائقتهم الأدبية والنقدية آنذاك، وتحليلاتهم الطريفة لما ألموا به من المنظوم والمنثور في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية(٣).

ولعل من روائع هذا الضرب من الرسائل الوصفية؛ ما كتبه الأمير قابوس ابن وشمكير إلى أبي الفضل ابن العميد، يصف نظمه ونثره، ويقرظهما، ومما ورد في تضاعيفها قوله(٤): "عرض علي - أطال الله بقاء الأستاذ - من عقود سحره، ومحسود نثره، فصل تضيء النواظر برؤيته، وتخطر الخواطر لروايته ... فمن مر على أرجاء بحره

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/١٦٤ - ١٦٦.

(٢) تنظر فصول الرسائل الوصفية في هذا الباب لأبي الفضل الميكالي: رسالته إلى أبي القاسم الداودي؛ زهر الآداب: ١/١٦٨، وبعض رسائل الخوارزمي لتلاميذه: رسائل أبي بكر الخوارزمي ص٥١ - ٥٢، ص١٥٣ - ١٥٤ وغيرها.

(٣) ينظر في هذا الباب رسالة الوزير الصاحب بن عباد إلى بعض أقرانه في وصف شعر: رسائل الصاحب: ٢٢٧.

(٤) كمال البلاغة: ٤٢ - ٤٣.

الهياج، ونظر في لألاء بدره الوهاج، خليق بأن يكبو قلمه بأنامله، وينبو طبعه عن رسائله؛ لأنه بيان قصر عن نيله لسان البلاغة، ولم يأت بمثله فرسان هذه اللغة، وكتابة غادرت أترابها كمنثور الهباء وسحبت ذيل الفخار على هامة السماء، ومن رام أن يفري فيها كما يفري ويسري بنجومها كما يسري، رام أن يشارك الشمس في الشعاع، والفلك في الارتفاع، وهذا غرض لا يصاب، ودعاء لا يستجاب".

ولعل هذا النص البليغ[١] يكشف لنا بجلاء سمو منزلة أبي الفضل ابن العميد بين أدباء عصره، وأثر طريقته الفنية فيهم، وفيمن جاء بعده أيضا.

وربما يكون من المناسب هنا أن نشير إلى رسالة ابن العميد المشهورة في وصف نظم تربه خلاد الرامهرمزي، وتواضع أبي الفضل الجم، وتصاغره أمام بلاغة صديقه، وإعجابه المفرط بها، ومما جاء فيها قوله[٢]: "... وتأملت النظم فملكني العجب به، وبهرني التعجب منه، وقد رمت أن أجري على العادة في تشبيهه بمستحسن من زهر جني، وحلل وحلي، وشذور الفرائد، في نحور الخرائد.

والعذارى غدونَ في الحلل البيـ ضِ، وقد رحنَ في الخطوط السود... "

على أن تواضع الأدباء الكتاب في تقريظ هذا اللون من الرسائل الوصفية كثيرا ما يؤول إلى ضرب من المبالغة الثقيلة، والثناء المشوب بالملق والرياء مما أضفى على كثير من تلك الفصول النثرية طابع التكلف وشحوب العاطفة.

كتب أبو الفضل الميكالي إلى صديقه أبي القاسم الداودي يصف انبهاره من نظمه الرائق، وما تخلله من معان مبتكرة، فيقول[٣]: "وقفت على ما أتحفني به الشيخ: من نظمه الرائق البديع، وخطه المزري بزهر الربيع، موشحا بغرر ألفاظه التي لو أعيرت حليتها لعطلت قلائد النحور، وأبكار معانيه التي لو قسمت حلاوتها، لأعذبت موارد البحور ...".

---

(١) يراجع ما ذهب إليه عبد الرحمن اليزدادي في تقريظ هذه الرسالة، إذ قال: "ولكنها نادرة في فنها ... وأحسب لو أن أفاضل الكتاب البلغاء اجتمعوا على أن يأتوا بعشير ما أتى به من فصيح الألفاظ وبديع المعاني في وصف كتابته لعجزوا عنه ولم يكملوا له على أن لهم فصولا كثيرة موجودة في ذكر البلاغات والبراعات، ولكن أين تقع تلك من هذه": كمال البلاغة ص٤١ وأحسب أن اليزدادي قد غالى كثيرا فيما ادعاه وذكره.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ١٦٦/١ - ١٦٧.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٨/١ - ١٦٩.

ولعل أبا الفضل الميكالي قد أغار في معانيه الآنفة الذكر على ما ورد في رسالة أبي إسحاق الصابي التي كتبها على لسان الوزير ابن بقية إلى قاضي القضاة ابن معروف في وصف نظمه ونثره، وقد اجتلب الميكالي كثيرا من ألفاظها وصورها، ومما ورد منها قوله[١]: "وصل كتاب قاضي القضاة، بالألفاظ التي لو مازجت البحر لأعذبته، والمعاني التي لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته، ولم أدر بأي مذاهبه فيها أعجب، ولا من أيها أتعجب، أمن قريض عقوده منظومةً، أم من ألفاظ لآلئها منثورة؟! ...".

****

على أنَّ بعض جهابذة الكتّاب وصدورهم في هذا القرن ونظراً لِما تفرّدوا به من موهبة نادرة، وبديهة حاضرةَ، وسليقة صافية - قد غطى جمال الصياغة في فصول رسائلهم، فضلاً عما ابتكروهُ من صور ذهنية نادرة، مقرونة مع صور حسية جميلة رائقة، غطّى على ما في فصول رسائلهم هذه من تكلف ظاهرة، وغلو مصطنع، قد يحيلان العمل الأدبي إلى أزاهير ذابلة مشوهة.

ومن هنا فقد بدت فصول رسائلهم الوصفية هذه، لوحات فنية جميلة واتشحت بالإبداع والفن، وقوة التصوير.

من ذلك ما ورد في فصل من رسالة لأبي بكر الخوارزمي إلى تلميذ له يصف قصيدة أرسلها إليه[٢]: "وصلت القصيدة الغراء الزهراء، فكانت أرق من الماء، بل من الهواء، وألذ من الصهباء، وأسر من اللقاء بين الأحباء، ومن هجوم السراء، غب الضراء ... فكانت معانيها أبدع من الوفاء، وأعز من السخاء، وأغرب من النصفة في الأصدقاء، ومن الأمانة في الشركاء، بل أغرب من المغرب العنقاء. وألفاظها أحسن من البدر في الظلماء، وأطيب من وصال الحسناء، ومن افتراع العذراء، ومن الشماتة في الأعداء...".

****

وهكذا نرى أن طائفة من بلغاء الكتاب في هذا القرن، قد افتنوا كثيرا في تدبيج رسائل وصفية بليغة، انصبت على وصف قلائد النظم، وشذور النثر تصويرا شيقا، على الرغم مما تخلل أوصافهم من تكلف وغلو، بما ابتكروه من صور ذهنية نادرة، وما

(١) يتيمة الدهر: ٣/١٢٥ - ١٢٦.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٥١ - ٥٢.

صاغوه أيضا من صور حسية جميلة ازدانت بها معانيهم، واتضحت من خلالها أفكارهم ورؤاهم.

- ٣ - وصف الشخصيات:

ومن الموضوعات المهمة التي ألم بها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن أيضا؛ وصف الشخصيات الشهيرة، أو الأعلام الخطيرة، وتحليل ما انطوت عليه من صفات عظيمة، وسجايا خلقية جليلة. وغالبا ما تكون الغاية الأساسية من هذا الوصف للشخصية هو التعريف بها، أو الإخبار عنها، أو الشرح والتحليل لبعض جوانبها، وهذا ما تلمسناه كثيرا في المكاتبات الإخوانية التي انطوت على التوصية أو الشفاعة، وما إلى ذلك.

وفي طائفة من رسائل صدور الأدباء الكتاب في هذا القرن[(١)] التي كتبوها إلى أقرانهم في الشفاعة أو التوصية ببعض وجوه أتباعهم أو تلاميذهم، يطالعنا هذا الوصف المكثف، أو التحليل الدقيق لشخصية المتشفع له، أو الموصى به، وهو وصف يفضي غالبا - كما أشرت آنفا - إلى الإخبار أو الكشف عن بعض جوانب الشخصية، وبيان مساريها وطواياها.

ومن نماذج رسائل وصف الشخصيات مثلا، ما كتبه الوزير الصاحب بن عباد إلى أبي العباس الضبي، باصبهان، يوصيه بأبي سعيد الرستمي، ويخبره بأخص أوصافه وأخباره، ومما ورد منها[(٢)]: "كان يعد في جمع أصدقائنا باصبهان، رجل ليس بشديد الاعتدال في خلقه، ولا ببارع الجمال في وجهه، بل كان يروع بمحاسن شعره، وسلامة وده؛ أما الشعر فقد غاض حتى غاظ، وأما الود ففاض وفاظ[(٣)]، فإن تذكرة مولاي

---

(١) ينظر، على سبيل المثال، رسائل الصاحب بن عباد / الباب الخامس عشر - في الشفاعات ص ١٩٦ - ٢٠٤، وينظر أيضا رسالته إلى الضبي يصف فيها أبا الحسن الجوهري: يتيمة الدهر ٤/ ٣٠ - ٣٣ وغيرها، وتراجع أيضا بعض رسائل الأمير قابوس: كمال البلاغة: ٤٣ - ٤٤ (رسالته إلى ابن الع[illegible]): ٤٤ - ٤٥؛ (رسالة إلى ابن العتبي): ٦٨ - ٦٩ (الى الصاحب حيث تجلى فيها وصف مكثف لشخصية من يتشفع له).

(٢) يتيمة الدهر: ٣/٣٥٦ - ٣٥٧.

(٣) غاض: غاض الماء؛ قل ونضب. غاظ: غاظه، أغاظه، غيظه؛ حمله على الغيظ أي الغضب والغيظ: غضب كامن للعاجز. (مختار الصحاح: مادة (غ ي ض، غ ي ظ): ٤٨٦ - ٤٨٧) فاض: فاض النهر: زاد، وفاض الخبر شاع. فاظ: فاظت روحه: أي مات، والفيظ: الموت (مختار =

بوصفه وإلا فليسأل عن خاله وعمه؛ أما العمومة؛ ففي آل رستم، وثم الذروة والغارب، ولواء العجم غالب، وأما الخؤولة ففي آل جنيد ...".

وكثيرا ما كان وصف الشخصية، وتحليل قسماتها في رسائل الأدباء الكتاب إبان هذا القرن، يأتي مقترنا إما بالمديح والثناء، أو بالذم والتقريع والهجاء، فيتخذ الأديب الكاتب الوصف أو تصوير ملامح الشخصية، الأرضية التي يصب عليها مادة موضوعه - سواء أكان مديحا أم هجاء - فيستوحي الأديب الفنان من أرضية موضوعه جميع الشيات أو الألوان والظلال، وقراع الحركة والصوت والأشكال وما إلى ذلك، لإتمام عمله الفني.

وهكذا يستمد الأديب الكاتب من طاقاته الفنية في الوصف، وقوة مخيلته ما يستعين به على رفد موضوعه، ورسم أبعاد الشخصية التي يريد وصفها وتجسيد ملامحها، وتصوير خباياها وأبعادها.

ولعل من عيون رسائل وصف الشخصيات التي اقترنت بالمديح والثناء؛ ما ذكره أبو هلال العسكري للصاحب بن عباد أيضا، في وصف شخصية أحد الوجهاء في عصره[١]، ومما ورد في تضاعيفها: "وليس ببدعٍ أن يجود كلامه، وتعتدل أقسامه، ويتهذب بيانه، ويتسع جنانه؛ وقد راض العلوم حتى أعطته زمامها، ومارس الآداب حتى ملكته خطامها، فإن عد الفقه؛ كان البازل الذي ذلل الفحول مصاولة، وإن ذكر الكلام؛ كان الجبل الذي فرع الأطواد مطاولة ... وإن جوري في سوائر الأمثال، وفقر الأشعار؛ ترك المجاري لا يدري أيَّ طريق يركب، وأيَّ مذهب يذهب، وأما الخطابة؛ فهو جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب[٢]، وقد سلمت إليه اختيارا من مواليه، واضطرارا من معادية".

وممن برع في وصف الشخصيات، وأجاد في تصوير ملامحها، في معرض الثناء والمدح، في هذا القرن؛ أبو منصور الثعالبي، ولعل أجمل ما وصل إلينا من ترسله في

=

الصحاح مادة (ف ي ض، ف ي ظ): ٥١٦).

(١) ديوان المعاني: ١٠٢/٢.

(٢) جذيلها المحكك وعذيقها المرجب: مثل يضرب للحاذق بالشيء المتمرس به؛ ينظر: مجمع الأمثال: ٣١/١ وفيه " أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجَّب".

هذا الباب؛ ما كتبه في وصف شخصية الأمير أبي الفضل الميكالي[١].

ومما أثبته الحصري للثعالبي في هذا الباب أيضا؛ ما كتبه في وصف الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير، ومما ورد فيها قوله[٢]: "... إن خير الكلام ما شغل بخدمة من جمع الله له عزة الملك إلى بسطة العلم، ونور الحكمة إلى نفوذ الحكم، وجعله مميزا على ملوك العصر، ومدبري الأرض، وولاة الأمر، بخصائص من العدل، وجلائل من الفضل، ودقائق من الكرم المحض، لا يدخل أيسرها تحت العادات، ولا يدرك أقلها بالعبارات، ومحاسن سير الأنام، تحرسها أسنة الأقلام، وتدرسها ألسنة الليالي والأيام. وهذه صفة تغني عن تشبيب الموصوف لاختصاصه بمعناها، واستحقاقه إياها، واستئثاره على جميع الملوك بها ...".

ومن روائع الفصول والرقع في وصف الشخصيات، في باب الثناء والتقريظ، في هذا القرن أيضا؛ ما وصل إلينا لأبي الفضل الميكالي يصف شخصا[٣]: "أنت إذا مزحت أزحت كربا، وإذا جددت جددت أنسا، وإذا أوجزت أعجزت، وإذا أطنبت أطربت".

وقال أيضا يصف كلامه[٤]: "هو الذي ذلل صعب الكلام وراضه وأنشأ حدائقه ورياضه، وملأ غدرانه وحياضه، وأصاب شواكله وأغراضه وعالج أسقامه وأمراضه".

وقد اقترنت بعض رسائل وصف الشخصيات لكتاب هذا القرن أيضا، بالذم والتقريع والهجاء، فبرع كثير من بلغاء الكتاب[٥] في تصوير ملامح الشخصية التي أراد إبراز عيوبها، وتجسيد سقطانها، وسلكوا في ذلك أساليب فنية مختلفة؛ فأبو بكر الخوارزمي مثلا، عمد إلى وصف شخصية طريفة، إذ صور رجلا شريفا في أصله، وضيعا بنفسه! فعمد إلى (التكثيف) والتشبيه لتجسيد ملامح هذه الشخصية، ورسم ما تنطوي عليه من ملامح طريفة تجمع بين الغرابة والتضاد، في أسلوب لا يخلو أيضا من السخرية والتندر. يقول الخوارزمي في هذا الفصل من الرسالة[٦]: "قد حكى من الأسد

---

(١) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب: ١٧٣/١ - ١٧٤.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ٤١٥/٢ - ٤١٦.

(٣) خاص الخاص - للثعالبي: ١٦.

(٤) المصدر نفسه: ١٦.

(٥) تراجع، مثلا، رسالة أبي علي الحسن بن أبي الطيب الباخرزي، يصف أحد خصومه، ويسخر منه، ويذمه: دمية القصر وعصرة أهل العصر: ٣٦٩/٢.

(٦) خاص الخاص: ١٣.

بخره، ومن الدينار قصره، ومن اللجين خبثه، ومن الماء زبده، ومن الطاووس رجله، ومن الورد شوكه، ومن النار دخانها، ومن الخمر خمارها".

ولا يخفى ما في هذا النص الطريف من براعة في التصوير، ودقة الإيجاز، فضلا عن تكثيف المعنى، إذ عمد الكاتب إلى فن التشبيه، فوظف ثمانية تشبيهات حسية قريبة، قرن فيها الكاتب شخصية المهجو، الشريف النسب، وهو المشبه، بصفات ذميمة في ذات المشبه به، الذي تجتمع فيه صفات ممدحة عديدة. ولا يخفى ما في هذا التصوير والتلميح والتشبيه من بلاغة نادرة، فضلا عما انطوى عليه النص من جمال الصياغة، وروعة الإيقاع والموسيقى، وحلاوة الرصف والبناء.

أما بديع الزمان الهمذاني فقد سلك في تصوير شخصية القاضي أبي بكر الحيري، في معرض هجائه، وإبراز سقطاته، وشكواه إلى أبي القاسم علي بن أحمد، حال هذا القاضي، وسوء تصرفه في القضاء، سلك الهمذاني أسلوبا مغايرا، إذ عمد إلى الإطناب والإفاضة في عرض الصور والملامح الساخرة التي تبرز قبح سلوك هذا القاضي، وسوء فعاله!

ومما ورد في هذه الرسالة الطويلة؛ قوله يصف بعض جوانب هذه الشخصية، ويحلل، بإسهاب، ما انطوت عليه من صفات ذميمة، وتصرفات مشينة، وملامح مضحكة[1]: "... وهذا الحيري رجل سفلة، طلب الرياسة بغير تحصيل آلاتها، وأعجله حصول الأمنية عن تحمل أدواتها:

والكلب أحسن حالة ... وهو النهاية في الخساسه
ممن تصدر للريا ... سة قبل إبان الرياسه

فولي المظالم وهو لا يعلم أسرارها، وحمل الأمانة وهو لا يعرف مقدارها، والأمانة عند الفاسق خفيفة الحمل على العاتق، تشفق منها الجبال وتحملها الجهال ... فقبحه الله من حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام يدلي بهما إلى الحكام، ولا مزكي أصدق لديه من الصفر، ترقص على الظفر ولا وثيقة أحب إليه من غمزات الخصوم على الكيس المختوم، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيئة الذيل، وحمال الليل، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق في وقتي الغسق والفلق، ولا حكومة أبغض إليه من حكومة المجلس، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس، ثم الويل للفقير

(١) رسائل بديع الزمان الهمذاني (رسالة رقم ٤١): ١٦٩ - ١٧١.

إذا ظلم، فما يغنيه موقف الحكم، إلا بالقتل من الظلم، ولا يُجيرهُ مجلس القضاء، إلا بالنار من الرمضاء..."[١].

لقد برع الهمذاني في تصوير ملامح قاتمة لشخصية القاضي أبي بكر الحيري؛ فهو أبعد ما يكون عن صفات القاضي العادل العالم بآلات القضاء وأمور الحلال والحرام! وهو رجل سفلة أخس الناس، بل أخس من الكلب - وهو النهاية في الخساسة - لأن الكلب لم يفعل أفعاله!

ثم صوره جاهلا فاسقا؛ إذ لم يرع الأمانة التي أوكلت إليه، والأمانة خفيفة الحمل عند الفاسق، تشفق الجبال الراسيات من حملها، بينما يحملها الجهال!

ثم رسم الكاتب صورا متلاحقة تصب كلها في تسليط الضوء على سوء سيرة هذا القاضي الحيري، وانتفاء عدله! فأعدل شاهد عنده من يقدم له الرشوة يتقرب بها إليه! وأصدق الشهود لديه؛ هو الدينار الأصفر، يمسكه بأظفاره! وأوثق ما في مجلسه غمزات الخصوم، وهي تشير إلى الكيس المختوم المليء بالدراهم والدنانير! أو ما يوضع له في المنديل والطبق، يدفع إليه وقت الغلس والفلق، بعيدا عن أعين الناس.. وأبغض ما في الحكم لدى هذا القاضي؛ حكم المجلس؛ لأنه يتكلف فيه عدم الجور! وهذا ليس من صفته وسمته.. وأوحش ما لديه في الحكم أيضا، هو خصومة الفقير لا يملك ما يقدمه إليه! فيتمنى المظلوم القتل بدلا من هذا الجور، فهو مع هذا القاضي الجائر كالمستجير من الرمضاء بالنار.

****

- ٤ - وصف مظاهر الطبيعة المختلفة:

ومن الأمور والمشاهدات الحسية التي أطال الأدباء والكتاب الوقوف عندها، وبرعوا في تصويرها إبان هذا القرن أيضا؛ وصف الطبيعة على اختلاف مظاهرها، وتنوع مفرداتها.

---

(١) السلة والجام: السلة: السرقة الخفية، وأراد هنا ما يؤخذ من الرشوة، والجام: القدح، وأراد هنا ما يوضع فيه. مزكي: هو معد الشهود في مجلس القضاء. الصفر: جمع أصفر وهو الدينار. الكيس المختوم: الذي وضع عليه الختم، وفي طية الدراهم والدنانير. المنديل والطبق: يعني ما يوضع فيهما، ويسلم إليه في أول الليل وعند طلوع الفجر. خبيئة الذيل: أراد ذيل الثوب، بمعنى المخبوء تحت ذيل ثوب الراشي.

فقد ألم كثير من الأدباء الكتاب في رسائلهم الأدبية بوصف ما غمر نفوسهم من مظاهر الجمال والبهجة، وما بهرهم من مفاتن الطبيعة الخلابة في بيئاتهم الفسيحة في أقاليم المشرق الإسلامي بخاصة؛ فوصفوا تلك الربوع الفينانة والمغاني الجميلة الساحرة، والمروج العطرة النظرة، وصوروا ببراعة فائقة، ما وقعت عليه بصيرتهم من مظاهر الكون الفسيح؛ من كواكب وأجرام وبحار وأنهار، وتعاقب الليل والنهار، وبزوغ الشمس والقمر، وما إلى ذلك.

ووصفوا ما اعتراهم من أفراح وأتراح في تلك الفصول المتقلبة، والأيام المتوالية، والشهور والأعوام الخوالي، فأمعنوا في وصفها، وتحليل مساربها.

ويمكن تقسيم تلك المشاهد الوصفية التي وقف عندها الأدباء والكتاب في هذا القرن على صنفين هما:

- أ - وصف الربوع الفينانة والمروج الخضراء والبساتين وما يتخللها من أشجار وأزهار:

لقد أفاض الأدباء والكتاب في هذا القرن في وصف ربوع أوطانهم في أقاليم المشرق الإسلامي التي شهرت بمغانيها الجميلة الساحرة، ومروجها النضرة، وافتنوا كثيرا في تصوير ما تخللها من بساتين ظليلة، وما في أفنائها من أشجار وأزهار ورياحين، وألوان الثمار الشهية[١]، كما وصفوا طيب نسيمها، ورقة مياهها.

ولعل من روائع ما وصل إلينا من رسائل أدبية وصفية في هذا الجانب؛ ما كتبه أبو الفضل الميكالي في أحد فصول رسائله يصف ربوع (فيروز آباد) الجميلة، وهي إحدى قرى رستاق جوين، ومما ورد في هذه الرسالة[٢]: "وما أنس لا أنس أيامي عنده بفيروز آباد إحدى قرى رستاق جوين، سقاها الله ما يحكي أخلاق صاحبها من سيل القطر، فإنها كانت ... أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون، وإذا تذكرتها في المرابع التي هي مراتع النواظر، والمصانع التي هي مطالع العيش الناظر، والبساتين التي إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طوي لها الديباج الخسرواني،

---

(١) يراجع ما ساقه الحصري من أوصاف أدباء هذا القرن للفواكه والثمار، حيث ذكر جملة من أوصافهم لثمار الكروم والرطب والرمان والسفرجل والتفاح والتين والمشمش وغيرها: زهر الآداب وثمر الألباب: ٣٤٩/٢.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ١٧٤/١.

ونفي معها الوشي الصنعاني، فلم تشبه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، وتذكرت سحرا وسيما، وخيرا عميما، وارتياحا مقيما، وروحا وريحانا ونعيما ...".

ويصف الأديب الكاتب أبو الفتح البستي إحدى قرى (الرخج) في بلاد المشرق الإسلامي النائية، وقد خرج إليها في فصل الربيع، فوصف ما فيها من مروج خضراء ممرعة، وأزهار ذكية ساحرة، ومما ورد في ترسله(١): "... وكنت أدلجت ذات ليلة، وذلك في فصل الربيع ... ففتح ضياء الشروق طرفي على قرية ذات يمنة محفوفة بالخضرة، معمورة بالنور والزهر، وأمامها أرض كأنها قد فرشت ببساط من الزبرجد، منضد بالدر والمرجان، مرصع بالعقيق والعقيان، ينساب بينها أنهار كبطون الحيات، في صفاء ماء الحياة، وقد فغمني من نسيم هوائها عرف المسك السحيق، بالعنبر العتيق، فاستطبت المكان وتصورت فيه الجنان..."(٢).

وقد افتتن الأدباء الكتاب كثيرا في وصف البساتين الظليلة(٣)، وما تخللها من أشجار وأزهار، وما اكتنفها من جداول وبرك، وما توزع فيها من حياض كانت ملتقى للسمر والغناء ومجالس اللهو والشراب.

وقد برع الوزير الصاحب(٤) في رسائل الاستزارة المشهورة التي وصلت إلينا، في

---

(١) يتيمة الدهر: ٣٤٦/٤ - ٣٤٧.

(٢) أدلجت: أدلج: سار من أول الليل. وادلج (بتشديد الدال) سار من آخره. النور: إزهار الشجرة. يقال: نورت الشجرة تنويرا (وأنارت) أخرجت نورها الزبرجد: جوهر معروف. منضد بالدر: نضد ينضد متاعه أي وضع بعضه على بعض، والنضيد: المنضود ومنه قوله تعالى: "لها طلع نضيد". المرجان: صغار اللؤلؤ، وفسره الواحدي بعظام اللؤلؤ، وذهب آخرون: أنه خرز أحمر وهو المشهور في عرف الناس وقيل أيضا: هو عروق حمر تطلع في البحر كأصبع الكف (ينظر مختار الصحاح مادة م. ر. ج وهامش: ٦٢٠ منه). العقيق: ضرب من الفصوص (مادة ع. ق. ق / مختار الصحاح). العقيان: الذهب الخالص، وقيل هو ما ينبت نباتا وليس مما يحصل من الحجارة (مادة ع. ق. أ: مختار الصحاح). عرف المسك: رائحته، والعرف: الريح الطيبة أو المنتنة. والمسك: من الطيب (فارسي معرب)، وكانت العرب تسميه المشموم (مادة م. س. ك / مختار الصحاح).

(٣) تراجع رسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أحد تلاميذه، وقد فوض إليه العناية ببستان له، وقد أبدع الكاتب في وصف هذا البستان: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٩ - ٢٠.

(٤) ينظر رسالته في وصف تنوير خلاف قد نور: يتيمة الدهر: ٢٨٩/٣، ورسالة أخرى له في وصف شقائق النعمان وثمر النارنج: اليتيمة: ٢٨٨/٣، ورسالة أخرى في وصف بستان وما تخلله من زهر وجداول: اليتيمة: ٢٨٧/٣.

وصف تلك المجالس التي كانت تعقد في تلك البساتين النضرة، والرياض الغناء، إذ كان الصاحب بن عباد كثيرا ما يعرج على وصف ما تناثر فيها من أنواع الرياحين والزهور، وما تتلذذ به النفوس من شذى الورد وعطر الياسمين، وأطايب الثمار، وأريج النسائم في تلك الجنان الخضراء.

كتب الصاحب بن عباد في أحد فصول رسائله يصف بستانا، وما تخلله من أشجار باسقة، ومياه رقراقة، يقول[١]: "صرنا - أيد الله مولانا - في بستان كأنه من خلقه خلق، ومن خلقه سرق، فرأينا أشجارا تميل فتذكر تبريح الأحباب، وقد تداولتهم أيدي الشراب، وأنهارا كأنها من يد مولانا تسيل، أو من راحته تفيض ... فلما دبت الكؤوس فيهم دبيب البرء في السقم، والنار في الفحم رأى أن نجعل أنسنا غدا عنده، فقلت: سمعا، ولم استنجز لأمره دفعا ...".

وللصاحب بن عباد أيضا من رقعة له في وصف روضة فينانة، وقد ضمت في حناياها أشجارا ومياها وأطيارا، يقول[٢]: "مضيت وشاهدت أحسن منظر، فالأرض زمردة، والأشجار وشي، والماء سيوف، والطير قيان".

ومن رسائل الوصف في هذا الباب أيضا؛ رسالة أدبية طريفة لأبي إسحاق الصابي، يصف فيها بقعة أرض نضرة، تخللها بستان ظليل، يضوع بالأرج وقد تكللت أرجاؤه بالأشجار الباسقة المكسوة بالخضرة الداكنة، يقول[٣]: "قد تضوعت بالأرج أرجاؤها، وتجملت بظل الغمام صحراؤها، وتفاوضت بضرائب المنطق أطيارها، بستان كأنه أنموذج الجنة، ولا يحل للأريب أن يحل إلا به؛ به أشجار كأن الحور العين أعارتها ثيابها، وكستها برودها، وحلتها عقودها".

****

- ب - وصف مظاهر الكون والطبيعة الأخرى:

ومن مشاهد الكون الفسيح، والطبيعة العجيبة التي استوقفت الأدباء والكتاب في هذا القرن، وأطالوا التأمل أحيانا في كنهها، وافتنوا في وصفها: حدوث بعض الظواهر الكونية العجيبة؛ كظاهرة تعاقب الليل والنهار، وبزوغ كوكبي الشمس والقمر وأفولهما،

---

(١) يتيمة الدهر: ٢٨٧/٣.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٨٨/٣.

(٣) من عاب عنه المطرب: ٢٤٠.

كما ألم كتاب هذا القرن أيضا في تصوير انتصاف الليل وتناهيه، ثم انتشار النور، وأفول النجوم، وغيرها من الظواهر الكونية.

ومما كتبوه في تصوير ملامح هذه الظواهر العجيبة قولهم[١]: "...انهتك ستر الدجى، وشمطت ذوائبه، وتقوس ظهره، وتهدم عمره.

- قوضت خيام الليل، وخلع الأفق ثوب الدجى.
- أعرض الظلام وتولى، وتدلى عنقود الثريا، وطرز قميص الليل بغرة الصبح، وباح الصباح بسره.
- لاحت تباشير الصبح، وافتر الفجر عن نواجذه، وضرب النور في الدجى بعموده.
- خلعنا خلعة الظلام، ولبسنا رداء الصباح، وملأ الآذان برق الصباح، وسطع الضوء، وطلع النور، وأشرقت الدنيا، وأضاءت الآفاق ...".

وأبدع الأدباء الكتاب أيضا في تصوير طلوع الشمس وغروبها، ومما كتبه أدباء هذا القرن في ذلك قولهم[٢]: "بدأ حاجب الشمس، ولمعت في أجنحة الطير، وكشفت قناعها، ونشرت شعاعها، وارتفع سرادقها، وأضاءت مشارقها وانتشر جناح الضوء في أفق الجو.

- استوى شباب النهار، وعلا رونق الضحى، وبلغت الشمس كبد السماء ...
- اصفرت غلالة الشمس، وصارت كأنها الدينار يلمع في قرارة الماء، ونفضت تبرا على الأصيل، وشدت رحلها للرحيل وتصوبت الشمس للمغيب وتضيفت للغروب، فأذن جنبها للوجوب ...".

كما افتن أدباء هذا القرن أيضا في وصف الكواكب والنجوم، والأجرام السماوية، ووصف حركاتها وأحوالها، وأشاروا إلى بروجها وأفلاكها[٣].

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٨٠٦/٣.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ٨٢٢/٣ - ٨٢٣.

(٣) تراجع مثلا رسالة ابن العميد في وصف القمر وأحواله: زهر الآداب ١٠٦٥/٤ - ١٠٦٦، وتراجع أيضا رسالته في وصف هلال رمضان، وما عرج فيها إلى ذكر القمر ومنازله وما ذكر من الأفلاك والبروج: المصدر نفسه: ٥٨٠/٢، يتيمة الدهر: ١٩٠/٣ وما بعدها وتراجع أيضا: رسالة الهمذاني في وصف شهر رمضان، وقد اجتلب فيها كثيرا من رسالة ابن العميد الآنفة الذكر: زهر الآداب: ٥٨٠/٢.

ولم يقف بعض أدباء هذا القرن عند وصف هذه الأجرام والكواكب، بل تخطى حدود ذلك إلى تحليل كثير من الظواهر الكونية وتفسيرها ومناقشتها كظاهرة خلق العالم وتكونه، وظاهرة حركة النجوم والكواكب والأجرام السماوية وسيرها عبر الأفلاك، ودخولها في البروج المختلفة، وعلاقة ذلك بما يقع للإنسان من سعد أو نحس، وما إلى ذلك.

ولعل أهم ما وصل إلينا في هذا الجانب؛ ما كتبه الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير في بعض رسائله الفلسفية التي أوردها عبد الرحمن اليزدادي في كتابه (كمال البلاغة)، فقد تناول الأمير قابوس في إحدى تلك الرسائل وهي " في وصف العالم وذكر تكونه"[(١)]، مسائل فلسفية مهمة تتصل بخلق العالم وعلة تكونه، وأتى إلى وصف كثير من المسائل التي تتصل بخلق الكون ودحض حجج من زعم أن سبب كون هذا العالم أو علة خلقه تعود إلى (جوده) - جلت قدرته - كتب الأمير قابوس في هذه المعاني يقول[(٢)]: "... إن سبب كون هذا العالم ليس ما زعمه الزاعمون أنه جود من الباري - جل جلاله - أظهره ليعلم به أنه جواد ... ولكنه لما كان حيا دائم الحياة، قادرا قويا وعالما حكيما، ذا الجلال والعزة والملك والعظمة، لم يكن لظهور هذه الصفات منه بد من غير أن كان له فيه قصد، فكان ظهورها كون هذا العالم الدال على صفاته التي ذكرناها ظهور الضياء والنور من جوهر مضيء نير من غير قصد منه لإظهاره، وانتشار الحرارة من النار من غير قصد منه لنشرها، وكذلك اللمع من اللامع، والفوح من الفائح ...".

ويصف الأمير قابوس أيضا في رسالة فلسفية أخرى، وهي " في بطلان أحكام النجوم "[(٣)]، علة خلق النجوم، ويصف سيرها، وشرف أصلها، ويفند مزاعم من يزعم أنها تجلب النحس عند دخولها إلى أبراج أخرى جديدة!

كتب الأمير قابوس في هذه الرسالة يقول[(٤)]: "... ثم إن الكواكب هي أجرام علوية، نيرة مضيئة، دائمة الحركة والسير؛ لإظهار المنافع والخير، على الجهات التي

(١) كمال البلاغة: ٨٤ - ٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ٨٥ - ٨٦.

(٣) كمال البلاغة: ٩٩ - ١٠٥.

(٤) كمال البلاغة: ٩٩.

قدرها الباريء، سبحانه فيها، والهيئات التي ركبها عليها...".

ويصف بعض أدباء هذا القرن أيضا حركة بعض الكواكب والأجرام السماوية، ويفتن فيما أضفاه عليها من تجريد، وما أبدعه من صور ذهنية طريفة، على شاكلة قولهم(١): "مالت الجوزاء للغروب، وولت مواكب الكواكب، وتناثرت عقود النجوم، وفرت أسراب النجوم من حدق الأنام، وهي نطاق الجوزاء، وانطفأ قنديل الثريا".

ومن مشاهد الكون والطبيعة التي استوقفت الأدباء والكتاب في هذا القرن أيضا؛ وأطالوا التأمل في حقائقها، وافتنوا في وصفها أيضا؛ تعاقب الأيام والفصول، واختلاف أحوالها بين شدة القر، ولفح الحر، وارتباط ذلك بحياتهم وتأثيره في أمزجتهم، ومن هنا فقد عبروا عن امتعاضهم من البرد القارص وقسوة أيام الشتاء الثلجية.

ومن روائع صورهم في هذا الباب؛ ما كتبوه في فصول رسائلهم البليغة ومما وصل إلينا منها قولهم(٢): "... ضرب الشتاء بجرانه، واستقل بأركانه وأناخ بنوازله، وأرسى بكلاكله، وكلح بوجهه، وكشر عن أنيابه.

- قد عادت هامات الجبال شيبا، ولبست من الثلج بردا قشيبا.
- برد حال بين الكلب وهريره، والأسد وزئيره، والطير وصفيره والماء وخريره ...".

وكتب الصاحب بن عباد إلى بعض ندمائه في يوم ثلج(٣): "كتبت والدنيا كافوره، والدر ينتشر، والكؤوس تدور، والراح ياقوت أحمر، ونحن من أطباق البرد فيما نستغيث منه إلى حر الراح، وسورة الأقداح، وهي خير من كل شعر ووبر".

وبرع أدباء هذا القرن أيضا في تصوير شدة الحر، ولفح الهاجرة، فصوروه تارة بصور حسية جميلة تشير إلى فداحة وطأته عليهم؛ فكتبوا في بعض فصول رسائلهم(٤) "... حر الصيف كحد السيف، أوقدت الشمس نارها، وأذكت أوارها، كأن البسيطة من وقدة الحر بساط من الجمر ...".

وصوروه تارة أخرى بصورة ذهنية مجردة، ومما وصفوه في فصول رسائلهم

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٨٦/٣.
(٢) المصدر نفسه: ٩٤٠/٤.
(٣) من غاب عنه المطرب: ٧٧.
(٤) زهر الآداب وثمر الألباب: ٩٤١/٤.

قولهم[١] "... هاجرة كأنها من قلوب العشاق، إذا اشتملت فيها نار الفراق، هاجرة تحكي نار الهجر، وتذيب قلب الصخر ... أيام كأيام الفرقة امتدادا، وحر كحر الوجد اشتدادا ...".

وبين اتقاد الحر ولهيبه، وشدة القر ودبيبه، وقف بعض الأدباء الكتاب في هذا القرن، يصف فصل الخريف بأنه أعدل الفصول وأصحها.

كتب أبو إسحاق الصابي في فصل من رسالة له يقول فيه[٢]: "الخريف أصح فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا، وهو أحد الاعتدالين المتوسطين بين الانقلابين، حين أبدت الأرض عن ثمرتها، وصرحت عن زينتها، وأطلقت السماء حوافل أنوائها، وتأذنت بانسكاب مائها، وصارت كمتون المبارد صفاء من كدرها، وتهذبا من عكرها، واطرادا مع نفحات الهواء، وحركات الريح الشجواء، واكتست الماشية وبرها القشيب، والطائر ريشه العجيب".

ومما برع فيه بلغاء الكتاب إبان هذا القرن أيضا؛ وصف الأيام السالفة والدهور الخالية، فصوروا بمشاعر جياشة متوقدة، حسراتهم الحرى على تلك الأيام الماضية، وأفصحوا عن تأسفهم لانقضائها[٣]، وسرعة جوازها ووصفوا بأنفاس مضطرمة؛ تلك الليالي الملاح التي تخجل خدود الرياض، والساعات العذبة التي هي ألطف من مسارقة النظر، ومخالسة القبل.

وقد افتنوا في خلق صور حسية ومعنوية (ذهنية) رائعة، جسدت مشاعرهم الملتهبة، وأحاسيسهم الصادقة.

ومن روائع ما وصل إلينا من هذا اللون من الرسائل الوصفية؛ ما كتبه أبو الفضل ابن العميد في التأسف على الأيام السالفة، وسرعة انقضائها، إذ يقول[٤]: "أيامنا التي جازت أيام الشباب حسنا ورقة، وفاقت أعلام المطارف لينا ودقة وليالينا التي تخجل خدود الرياض، وتفضح حواشي الحلل، وساعاتنا التي هي ألطف من مسارقة النظر،

---

(١) المصدر نفسه: ٩٤١/٤.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب: ١٧٥/١.

(٣) تراجع رسالة الخوارزمي إلى أبي عبد الله النحوي الخطيب بالري، يصف شوقه إليه ويحن إلى الأيام الخالية، ويصف ليالي الأنس: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٩٧ - ٩٩.

(٤) من غاب عنه المطرب: ١٢٢.

ومخالسة القبل، ونعسة الرقيب ... وحفظ العهد، وإنجاز الوعد".

ويفتن الصاحب بن عباد في وصف تلك الأيام الخالية أيضا، فيمد لخياله العنان في استلهام ما تثيره من ذكريات عذبة، فإذا به أمام سحر وسيم، وعيش جسيم، فكل ما في تلك الأيام الخوالي، خير عميم، وابتهاج مقيم، ثم لا يلبث أن يصحو على واقع آخر، فإذا تلك الأيام الحلوة قد ولت مدبرة، فكأنها أنفاس لا تلبث أن تتلاشى.

كتب الوزير الصاحب في فصل من رسالة له في التأسف على الأيام السالفة يقول فيه[1]: "تذكرت أيامنا، فتذكرت سحرا وسيما، وعيشا جسيما، وراحا وريحانا ونعيما، وخيرا عميما، وابتهاجا مقيما. أيام حسنت فكأنها أعراس، وقصرت فكأنها أنفاس".

****

وهكذا كانت الرسائل الوصفية في هذا القرن - بوصفها إحدى ألوان الرسائل الأدبية - وثائق تاريخية وأدبية مهمة؛ إذ إنها سجلت بدقة متناهية، كل ما عرض لطبقة الأدباء والكتاب في مجتمعاتهم الإسلامية، وبيئاتهم الفسيحة، من أحداث ومفارقات، وصورت ما وقعت عليه عيونهم وأحاسيسهم من مشاهد مادية، وأمور معنوية مختلفة، فكانت هذه الرسائل بحق، سجلا حافلا بكثير من أحداث العصر ووقائعه.

ومن جانب آخر، فإن هذا الضرب من الرسائل الأدبية كانت نماذج فنية متميزة؛ إذ إنها جسدت بوضوح براعة بلغاء الكتاب في وصف ما وقعت عليه حواسهم، وتشخيص ما تلمسوه بوجدانهم وعقولهم، وكشفت أيضا، عن مقدرتهم العالية في التصوير، وتشخيص المعنويات، أو تصوير المحسوسات إطار المعاني الذهنية المجردة؛ لخلق صور جديدة، ومعان مبتكرة.

وهكذا كان هذا الضرب من الرسائل الأدبية ميدانا فسيحا للخلق والابتكار والتجويد؛ بما استلهمه الأدباء الكتاب في هذا القرن من صور نادرة، ومعان جديدة مبتكرة، أبدعتها قرائح كتاب لم يجد الزمان بأمثالهم في عصور الأدب العربي اللاحقة.

---

(١) من غاب عنه المطرب: ١٢٢.

المبحث الثالث

الرسائل الهزلية والمفاكهات الأدبية

وهي الضرب الثالث من الرسائل الأدبية التي شاع تبادلها بين الأدباء والكتاب في هذا القرن، ويشمل هذا الضرب من الرسائل: المكاتبات الهزلية التي كانت تنطوي على الفكاهة، وروح الدعابة، والمباسطات أو المفاكهات الأدبية في كثير من القضايا الشخصية والاجتماعية المختلفة، وتشمل أيضا المكاتبات التي انطوت على السخرية اللاذعة المشوبة بروح التهكم أو الدعابة والتندر، وما إلى ذلك.

وما من شك في أن ما صدر عن بلغاء الكتاب في هذا القرن من نزوع واضح إلى الفكاهة والمرح، أو السخرية والتندر في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية إنما كان مظهرا من مظاهر نزعتهم الفنية التي خامرت طبيعتهم المرحة، أو انبثقت عن رغبتهم في الجنوح إلى هذا اللون من النثر الفني الفكه، وكان أكثر الأدباء الكتاب - لحسهم المرهف، ونفسيتهم المنشرحة - يتوخون في مفاكهاتهم وكتاباتهم المرحة الساخرة تنشيط المتلقي، وبث النشوة في روحه؛ دفعا لصدأ الهموم عنه، وجماما لقوته.

ويتفق أكثر الذين بحثوا في النثر الفني العربي على أن هذا اللون من الرسائل الأدبية - على الرغم من انتشارها في هذا القرن، وظهورها ظهورا واضحا - ليس مما ابتكره كتاب هذا القرن، وإنما كان لهم فضل انتشاره وتطويره، حتى صار فنا واضح الرسوم، " بحيث يمكن الحكم بأن الكتاب كانوا يقصدون إليها قصدا، ويتنافسون في تزويرها وتحبيرها "(١).

بينما ذهب باحث آخر إلى تأخر ظهور هذا اللون من الكتابة التي أسهمت في فن الفكاهة التي تسري عن النفوس، وتنفض عنها غبار الهموم. وذهب هذا الباحث إلى أنه " لم يكن للعرب بهذا النمط من الفكاهة عهد لا في الشعر ولا في النثر، اللهم إلا أخبار تروى، وطرائف تحكى، أما الفكاهة المنشأة شعرا أو نثرا، فهي حديثة عهد بالعرب، ولم تظهر إلا في نطاق هذه الحضارة "(٢).

ولا جرم أن رسائل الفكاهة المرحة، والمكاتبات النثرية التي انطوت على السخرية اللاذعة، والتهكم الفكه، كان من مستحدثات الحضارة الإسلامية في العصر

---

(١) النثر الفني في القرن الرابع: ١/١٦١.

(٢) معالم الحضارة الإسلامية: ٢٥١.

العباسي إبان القرن الثالث تحديدا، ولعل أبا عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) يقف في طليعة أدباء العربية الذين كان لهم فضل السبق إلى ابتكار هذا اللون من النثر الفكاهي، والأدب الساخر المشوب بالتهكم والتندر.

لقد اشتهر أبو عثمان الجاحظ بظرفه الجم، وروح الدعابة في طبعه وفي إسلوبه، فكان يخلط الجد بالهزل، ويمزج الحقيقة الجافة بالنكتة المرحة، وكان ذلك مظهرا من مظاهر نزعته الفنية التي كانت تهدف إلى الترويح عن القارئ وإزالة ما علق به من صدأ السأم والملل، " فيوفر له ما يبهج نفسه، ويسر خاطره من طرائف ونوادر "[١].

وكثيراً ما كان الجاحظ يصرح في مقدمات بعض كتبه، وثنايا رسائله، بمنهجه في إيثار الفكاهة والضحك، والخلط بين الجد والهزل.

يقول مثلا في مقدمة كتابه (البخلاء)[٢]: "ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة، أو تعرض حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد".

وينوه الجاحظ في كتابه (الحيوان) أيضا بمنهجه في الفكاهة، وخلط الجد بالهزل، والنزوع إلى المرح، فيقول[٣]: "وإن كنا قد أمللناك بالجد ... فإنا سننشطك ببعض البطالات ... فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه من السرور والضحك والاستطراف ما لا يبلغه حشد أحر النوادر وأجمع المعاني".

وكذا يقال عن ظاهرة السخرية المشوبة بالتهكم أو التندر الفكه في نثر الجاحظ؛ إذ كانت سخريته اللاذعة صادرة عن روح شفافة مرحة، ونفس منطلقة متوثبة طروب. ومن هنا لم تكن سخرية أبي عثمان الجاحظ، وتهكمه الفكه إلا وسيلة فنية يستعين بها على نقده للظواهر الشاذة، والأمور غير الطبيعية.

ولعل خير نموذج من نثر الجاحظ يظهر قوة هذه النزعة الفنية في أدبه؛ رسالة التربيع والتدوير[٤] التي دبجها في السخرية والتندر بأحد معاصريه، وهو أحمد بن

---

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: ٢٦٠.

(٢) البخلاء (المقدمة): ١/ ٢٨ (ط دار الكتب المصرية).

(٣) الحيوان: ٣/٧.

(٤) رسالة التربيع والتدوير. ينظر: رسائل الجاحظ - تحقيق وشرح عبد السلام هارون (الناشر مكتبة الخانجي)، القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

عبد الوهاب وهجائه، إذ عمد الجاحظ في هذه الرسالة النادرة إلى فنون شيقة من التصوير الفني، والبراعة النادرة في التلوين والتكوين، والفكاهة المرحة الخفيفة، والسخرية اللاذعة[١]، حتى عدها بعض الباحثين المعاصرين[٢] خير مثال لأرقى أساليب التهكم والسخرية التي عرفها النثر العربي، إذ تجلت في هذه الرسالة النادرة مقدرة الجاحظ الفذة على التصوير الساحر الذي يتغلغل في أعماق النفس، ويستبطن كل ما فيها، فيصور الأشياء كما يصورها الفنان القدير بريشته الساحرة جميع حركاتها وخلجاتها.

ولعل الأستاذ عبد الحكيم بليع لم يكن مغاليا أيضا، حين قرر أن ما استنه أبو عثمان الجاحظ من أدب الفكاهة والسخرية والتهكم، كان " ظاهرة جديدة في النثر الفني العربي، ولم تشع بعده إلا بنفثة من سحره، وقوة من روحه[٣]".

لقد بدأ أدب الفكاهة السخرية - ولا سيما النثر الهزلي الفكاهي الساخر - في ظل الحضارة الإسلامية التي فاح شذاها في ربوع الأقاليم الإسلامية وحواضرها إبان هذا القرن، يشيع شيوعا ظاهرا، وقد تضافرت أسباب عديدة حفزت لشيوع هذا اللون من النثر الفكاهي الساخر، لعل أهمها ما يأتي:

-١- العامل الحضاري:

إن ما شهدته حاضرة الخلافة، وبعض حواضر الإمارات الإسلامية المستقلة في أقاليم المشرق إبان هذا القرن، من مظاهر الترف، ولين العيش ودعته - ولا سيما في أوساط الطبقة الخاصة - بما لم يبلغه المجتمع الإسلامي من قبل، ساعد على انتشار مظاهر البذخ واللهو، وعقد مجالس الغناء والشراب والأنس، وإقامة منتديات الأدب الراقية التي كان يؤمها الأدباء وغيرهم من وجوه الطبقة الخاصة ومقربيهم؛ لتزجية أوقاتهم، وقضاء فراغهم بين سحر الغناء وأجواء الأنس، ومتعة الأدب.

وقد رافق هذه الأجواء الساحرة، والمنتديات الأدبية العامرة، كتابة الكثير من فصول الرسائل المرحة، والرقع الهزلية، والمفاكهات الأدبية، والمباسطات الهازلة بين أدباء الطبقة الخاصة، وأترابهم؛ للدعوة إلى حضور تلك المجالس والمنتديات، أو

---

(١) معالم الحضارة الإسلامية: ٢٥٢.

(٢) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه - د. عبد الحكيم بليع: ٢٦٨.

(٣) المرجع نفسه: ٢٦٤.

وصفها، وتصوير ألوان المتع التي يقتنصها الأدباء والندماء في أجوائها الندية الساحرة[1].

ولعل ما أورده أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر[2]، من فصول طريفة للصاحب بن عباد في كتابه (الروزنامجة)، وهو يصف فيها لأستاذه أبي الفضل ابن العميد، ما شاهده في مجالس أبي محمد الوزير المهلبي في بغداد، وما رواه من ملح ونوادر ندمائه، خير شاهد لأجواء الفكاهة والمرح في تلك المنتديات في هذا القرن.

٢ - تردي الأوضاع الاقتصادية:

وهو الوجه الآخر الذي يكشف عن طبيعة حياة السواد الأعظم من الرعية والطبقة العامة، وما كانوا يعانونه من ضنك العيش، وفداحة الضرائب التي كانت تثقل كاهلهم، فضلا عما واجهوه أيضا من ظلم الحكام والولاة، وتعسف عمال الخراج، وجباة الضرائب، وغيرهم.

ولقد تأثر بعض الأدباء الكتاب في هذا القرن بهذه الأوضاع الاقتصادية المتردية، وبرموا بحياتهم، وضجروا من واقعهم؛ لما قاسوه من بطش وجور ومصادرة لأموالهم وضياعهم، ومطاردة وما إلى ذلك.

ومن هنا، راح بعض الكتاب، كأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وغيرهما، يوجهون سهام نقدهم اللاذع إلى كل مالا يتفق وتطلعاتهم، أو ما يتعارض ورغبات الكثرة الغالبة من الرعية ومصالحها.

وهكذا اتخذ الأدباء الكتاب، نتيجة لكل ما تقدم ذكره، النثر الساخر الذي يقوم على النقد اللاذع والتهكم الساخر على الولاة الظلمة، وعمال الخراج، وجباة الضرائب وغيرهم، والتنديد بتعسفهم وبطشهم بالرعية. وقد وجدوا بالسخرية اللاذعة أسلوبا ناجعا لصد غائلة الجور، وتعسف الولاة والعمال، وطريقا مؤثرا للتعبير عن مشاعر الفئات المسحوقة من الرعية، وتصوير معاناتها، والبلوغ إلى تطلعاتهم في دفع الظلم،

---

(١) تراجع فصول عديدة من رسائل المفاكهات للصاحب بن عباد وأبي النصر العتبي والميكالي وغيرهم في هذا الباب: يتيمة الدهر ٢٨٤/٣ (رسالة هزلية للصاحب إلى أبي العلاء الأسدي في الظرف والمداعبة، وتراجع رسالتان أخريان للصاحب أيضا في المداعبة: اليتيمة: ٢٩١/٣ - ٢٩٢)، وتراجع رسالتان للعتبي في يتيمة الدهر: ٤٥٩/٤ - ٤٦١؛ في الدعوة إلى حضور مجلس أنس وشراب.

(٢) ينظر: يتيمة الدهر: ٢٦٩/٢ وما بعدها.

وإقامة العدل، ونشر الأمن والطمأنينة[١].

يقول بعض الباحثين مشيرا إلى براعة الخوارزمي في تصوير ضروب الجور والتعسف التي كان يمارسها جباة الضرائب، وتهكمه الساخر برموز الظلم من الحكام الجائرين[٢]: "كان الخوارزمي يلجأ إلى تضخيم الصورة وتكبيرها، ويقرنها بطائفة من الصور المنفرة الأخرى، وقد يعمد أحيانا إلى قلب الصور زيادة في السخرية، وهو في كل ذلك حريص على إثارة الضحك من هذه الصور الشوهاء المنفرة، غايته من ذلك التأثير في مشاعر الآخرين، والسيطرة على أحاسيسهم، وتوجيه انفعالاتهم باتجاه الحدث، أو الشخص الذي يريد أن يسخر منه".

ولعل رسالة أبي بكر الخوارزمي الساخرة[٣] التي كتبها إلى صاحب ديوان الحضرة التي صور فيها تعسف عمال الخراج، وجباة الضرائب، وسخريته المرة بسلوكهم المشين، خير شاهد يجسد لنا هذا اللون من النثر الساخر الفكه في هذا القرن.

****

- ٣ - ميل كثير من الأدباء والكتاب إلى الهزل والفكاهة:

عرض كثير من الأدباء والكتاب إبان هذا القرن، في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية إلى أسلوب الفكاهة والدعابة؛ لما عرف به كثير منهم من خفة الروح، والميل الواضح إلى المرح والظرف.

وقد اقتضت طبيعة بعض الموضوعات التي تناولها الكتاب في رسائلهم الشخصية أيضا، تلك المداعبة والظرافة، أو الأسلوب الفكه، ليسري الكاتب بهذا الأسلوب التعبيري الطريف عن النفوس، وليزيل السأم والملل.

لقد شاع عن كثير من الأدباء والكتاب في هذا القرن، فضلا عن بعض الأمراء والقضاة ووجوه الطبقة الخاصة، ميلهم الواضح إلى الدعابة والمرح، فضلا عما شهروا به من حضور البديهة، واتقاد الخاطر، وتلقف النادرة الخفيفة، والنكتة الطريفة. فقد ذكر

---

(١) وهناك لون آخر من النثر الفكاهي الساخر اتجه إليه الخوارزمي، سنعرض له لاحقا وهو السخرية اللاذعة ببعض الشخصيات. تراجع رسالته إلى البديهي. رسائل الخوارزمي: ٢٣٥ - ٢٥٠.

(٢) أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه (رسالة ماجستير) محمود الضمور: ٣٢٣.

(٣) تراجع هذه الرسالة في: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٣٨ - ١٣٩.

الثعالبي - نقلا عن الصاحب ابن عباد في كتابه الروزنامجة - أن القاضي ابن قريعة البغدادي[١] مثلا، وهو أحد ندماء الوزير المهلبي، كانت له نوادر غريبة، وملح عجيبة[٢].

وقد ذكره أبو الفداء في تاريخه إذ قال[٣]: "وكان إحدى عجائب الدنيا في سرعة البديهة بالجواب عن جميع ما يسأل عنه، في أفصح لفظ وأملح سجع ... وكان رؤساء العصر يلاعبونه ويكتبون إليه المسائل المضحكة، فيكتب الجواب من غير توقف، وكان الوزير المهلبي يغري به جماعة يضعون له الأسئلة الهزلية ليجيب عنها ...".

ومن القضاة الأدباء الذين شهروا بالظرف، وخفة الروح أيضا: القاضي أبو القاسم علي بن محمد التنوخي[٤]، وكان - كما وصفه الصاحب بن عباد في فصل من رسالة له يقول فيه[٥]: "إن أردت فإني سبحة ناسك، أو أحببت فإني تفاحة فاتك، أو اقترحت فإني مدرعة راهب، أو آثرت فإني نخبة شارب - آية في الدعابة والفكاهة والمرح وحضور البديهة".

وقد أشار الثعالبي إلى " أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبي، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة، والتبسط في القصف والخلاعة..."[٦].

ومن أدباء الطبقة الخاصة الذين عرفوا بمزاجهم الطروب، وروحهم الفكهة وابتسامتهم الوضيئة في هذا القرن: أبو محمد الوزير المهلبي، وأبو الفضل ابن العميد، وأبو القاسم الصاحب بن عباد. فقد زهقت نفوس هؤلاء الوزراء الأدباء من أسباب الفكاهة والمرح في عصرهم، ما كان سببا إلى رواج النثر الفكاهي الساخر، وشيوعه في هذا القرن.

أما الوزير أبو محمد المهلبي؛ فقد بلغ من فرط ميله للفكاهة، ونزوعه إلى الهزل

---

(١) هو القاضي محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن قريعة البغدادي، وكان قاضي السندية وغيرها من أعمال بغداد، والسندية قرية على نهر عيسى بين بغداد والأنبار. ينظر: تاريخ أبي الفداء: ١/ ٤٦٢، يتيمة الدهر: ٣٩٤/٢.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٦٩/٢.

(٣) تاريخ أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر: ٤٦٢/١ (أحداث سنة ٣٦٧ هـ).

(٤) تراجع ترجمته وأخباره في يتيمة الدهر: ٣٩٣/٢.

(٥) المصدر نفسه: ٣٩٣/٢.

(٦) المصدر نفسه: ٣٩٣/٢.

- ما مر بنا آنفا - أنه كان يغري جماعة من الكتاب الظرفاء بالقاضي ابن قريعة، فيضعون له الأسئلة الهزلية ليجيب عنها، وكانت بعض تلك الرقع الجوابية تصل أحيانا إلى حد المجون والخلاعة! طلبا للفكاهة والهزل.

والوزير الأديب أبو الفضل ابن العميد، على ما رزق من ثقافة واسعة وطبيعته مرحة، في بيئة فنانة مترعة بالجمال الخلاب، كانت بعض فصول نثره الفني تنزع إلى الهزل، وكانت مشوبة بروح الدعابة والأسلوب الفكهه[١] وكانت فصول أخرى من رسائله تجمع مع الفكاهة الحلوة، السخرية اللاذعة، أو التهكم الممزوج بالدعابة والمرح[٢].

أما الوزير الصاحب بن عباد، فقد شهر - على ما كان عليه من هيبة ووقار ومنزلة رفيعة سامية[٣] - أنه كانت فيه رقة ودماثة! فقد روى صاحب اليتيمة[٤]: أنه كان يقول لبعض خواصه من ندمائه إذا أراد أن يبسطهم ويؤانسهم: "نحن بالنهار سلطان، وبالليل إخوان".

ولعل ما ساقه الثعالبي في اليتيمة أيضا في ذكر " البرذونيات "[٥] وهي مجموعة قصائد أوعز الصاحب إلى ندمائه المقيمين في جملته، أن يعزوا أبا عيسى بن المنجم، ويرثوا برذونه (أصداء) الذي نفق بأصبهان، فقال كل منهم قصيدة هزلية في رثائه - لخير شاهد على دماثة الصاحب، ونزوعه إلى الظرف والفكاهة[٦].

وربما كان ما وصل إلينا من فصول رسائل الهزل والفكاهة لأبي القاسم

---

(١) تراجع رسالته في وصف شهر رمضان، ومداعبته الظريفة لهلاله، ودعاؤه عليه - تظرفا - بالضنى والهزال في لغة مرحة ندية، وأسلوب فكه مترع بالجمال: يتيمة الدهر: ١٩٠/٣ - ١٩٢.

(٢) تراجع رسالة ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري الساخرة: زهر الآداب وثمر الألباب: ٨٧٧/٣ - ٨٧٨.

(٣) يراجع في خبر وقاره وهيبته؛ يتيمة الدهر: ٢٣٦/٣ - ٢٣٧، حيث ساق الثعالبي خبرا عن ممازحة الأمير فخر الدولة البويهي للصاحب، واعتذاره إليه، بعد أن أظهر الصاحب كراهته لانبساطه معه. يقول الثعالبي: "ولم يعد - يعني فخر الدولة - بعدها لما يجري مجرى الهزل والمرح.

(٤) يتيمة الدهر: ٢٣٣/٣.

(٥) ينظر: يتيمة الدهر: ٢٥٣/٣ وما بعدها.

(٦) يبدو أن نزوع الصاحب بن عباد إلى الفكاهة والهزل كان يلازمه منذ مقتبل عمره، يراجع ما ذكره ياقوت الحموي عن تعرض الصاحب في حداثته لابن شمعون، أثناء دراسته في بغداد. معجم الأدباء: ٣٦٨/٦.

الصاحب بن عباد، يفوق ما بأيدينا من هذا اللون من الرسائل الأدبية لسواه من أدباء هذا القرن[١].

ومن صدور الكتاب وبلغائهم الذين شهروا بنزوعهم إلى الهزل والفكاهة في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية في هذا القرن أيضا: أبو إسحاق الصابي، وأبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني.

أما أبو إسحاق الصابي؛ فقد شهر من خلال ما وصل إلينا من رسائله الهزلية في الفكاهة والسخرية[٢]، بخفة الروح، ونزوعه إلى المرح والتندر - على الرغم مما عصف بحياته من محن ونكبات، وما ألم به من علل ونوائب - حتى عده بعض الباحثين أنه ليس عميد الكتاب في الدواوين الرسمية فحسب وإنما عميداً لكتاب الفكاهة أيضا[٣].

بينما وقف أبو بكر الخوارزمي، من خلال نثره التهكمي الساخر الذي وصل إلينا جانب مهم منه، داعية تغيير اجتماعي[٤]، إذ عمد إلى تصوير معاناة طبقات الشعب الفقيرة التي كانت ترزح تحت وطأة الظلم والضرائب الفادحة التي تدفعها قسرا لعمال الخراج وغيرهم، فضلا عن منحاه الآخر في النثر الفكاهي الساخر الذي جاري فيه أسلوب الجاحظ في تصوير شخصيات البخلاء، أو التندر والسخرية بشخصية أحد معاصريه في رسالة التربيع والتدوير، كما أشرنا آنفا، وهذا ما سنراه في رسالته الساخرة إلى أبي الحسن البديهي[٥].

أما بديع الزمان الهمذاني فقد كان أحد أشهر كتاب النثر الفكاهي الساخر في هذا

---

(١) يراجع الباب الحادي عشر من مجموع رسائل الصاحب بن عباد في (الملاطفات والمداعبات) ص١٥٢ - ١٦٢، ويضم هذا الباب عشر رسائل في المفاكهات والمباسطات الأدبية، وينظر أيضا ما أورده الثعالبي في اليتيمة من رقع وفصول رسائل في الفكاهة والهزل للصاحب: رسالة هزلية للصاحب إلى أبي العلاء الأسدي: ٣/٢٨٤، وينظر أيضا ثلاثة فصول قصيرة للصاحب في المداعبة والهزل: اليتيمة ٣: /٢٩١ - ٢٩٢.

(٢) تراجع رسالته الطويلة في التطفل: صبح الأعشى: ١٤/٣٦٥ وما بعدها، ورسالته إلى أبي بكر بن قريعة يعزيه في ثور أبيض نفق له: زهر الآداب وثمر الألباب: ٤/١٠٣٢ - ١٠٣٤، ورسالته إلى رجل تزوجت أمه: نشوار المحاضرة: ٣/٢١١، ديوان المعاني ١/١٠٠ - ١٠١، وغيرها وسنلم بدراسة هذه الرسائل لاحقا.

(٣) تراجع التفاصيل في كتاب: معالم الحضارة الإسلامية: ٢٥٣.

(٤) تراجع رسالة: أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه: ٣٢٣.

(٥) تراجع هذه الرسالة في: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٣٥ - ٢٥٠.

القرن، وهذا ما تجلى واضحا في كثير من مقاماته المشهورة، ولا سيما ما انصب منها على الفكاهة والظرف، وروح المداعبة كالمقامة الشامية والمضيرية وغيرهما.

يقول الثعالبي، مشيدا بهذا اللون من النثر الفكاهي، وما اشتمل عليه من جد رائق وهزل شائق[١]: "... وضمنها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام وجد يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول".

وقد تجلت روح الدعابة والمرح عند الهمذاني في رسائله الأدبية أيضا وقد وصفه الثعالبي أيضا بأنه كان خفيف الروح، ناصع الظرف، وقد أشاد بعلو كعبه في أدب الفكاهة - نثرا ونظما - إذ قال[٢]: "... ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرر النظم ونكته".

وقد عده بعض الباحثين المعاصرين[٣] أشهر كتاب القرن الرابع الهجري في الفكاهات النثرية، ملمحا إلى بعض مقاماته الفكهة أيضا كالمقامة الشامية وغيرها.

وهكذا أسهم بديع الزمان الهمذاني من خلال رسائله[٤] ومقاماته الفكاهية الساخرة، مع بعض أدباء عصره، في تصوير الملامح القاتمة في مجتمعه وحاول بنقده الساخر اللاذع أن يرسم لهذه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية، صورا هازلة منفرة؛ بغية علاجها، وإثارة مشاعر السخط لدى الطبقات المسحوقة من فئات الطبقة العامة، ونفض ما تراكم على كاهلها من غبار التقاعس والجور والتعسف.

رسائل الهزل والفكاهة.. عرض وتحليل:

لقد تناول الأدباء والكتاب في رسائل الهزل والفكاهة التي تبادلوها فيما بينهم إبان هذا القرن، أمورا عديدة يمكن أن ندرجها فيما يأتي:

---

(١) يتيمة الدهر: ٢٩٤/٤.

(٢) يتيمة الدهر: ٢٩٣/٤.

(٣) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع: ١٦١/١.

(٤) تراجع من هذه الرسائل الهزلية الفكاهية مثلا: رقعة له إلى مستميح عاوده مرارا: يتيمة الدهر: ٤/ ٣٠٠، فصل من رسالة هزلية ساخرة: اليتيمة: ٣٠٦/٤ - ٣٠٧، فصل من رسالة أخرى: ٣٠٧/٤، وله رسالة أخرى في السخرية والتهكم: ٣١٦/٤ - ٣١٧ ورسالة هزلية أخرى في اليتيمة: ٤/ ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٨، وينظر أيضا رسائله الفكاهية في: زهر الآداب: ج١ - ج٤ في مواضع عديدة متفرقة.

- أ - المداعبة والتفكه:

لعل أهم ما انطوى عليه الكثير من المفاكهات والمباسطات الأدبية التي كان يتبادلها الأدباء والكتاب مع أقرانهم ولداتهم في هذا القرن - فضلا عما كانوا يدبجونه من تلك المفاكهات بايعاز من بعض الحكام والوزراء - موضوع المداعبة والتفكه.

فقد يتلمس القارئ أن لا هم لأولئك الأدباء والكتاب من تحبير وكتابة تلك الرقع والرسائل الهزلية الفكاهية سوى المداعبة والضحك؛ لتزية الوقت، وقضاء الفراغ الممل لديهم، ولعل ما يؤكد ذلك؛ ما نوهنا بذكره من إشارة المؤرخ أبي الفداء إلى أن رؤساء العصر كانوا يلاعبون القاضي ابن قريعة، ويلاطفونه، ويكتبون إليه المسائل المضحكة، فيكتب الجواب من غير توقف، وكذا ما كان يفعله الوزير المهلبي أيضا، بإغرائه جماعة من ندمائه بوضع الأسئلة الهزلية وإرسالها إليه، ليجيب عنها..

ومن صور تلك المداعبات الهزلية التي أوردها أبو الفداء مثلا؛ ما كتبه العباس بن المعلى الكاتب إلى القاضي ابن قريعة، بإيعاز من الوزير أبي محمد المهلبي[١]: "ما يقول القاضي - وفقه الله تعالى - في يهودي زنى بنصرانية، فولدت ولدا، جسمه للبشر ووجهه للبقر، وقد قبض عليهما، فما يرى القاضي فيهما؟ فكتب الجواب بديها: هذا من أعدل الشهود على اليهود، بأنهم شربوا العجل في صدورهم فخرج من ...؟، وأرى أن يناط برأس اليهودي رأس العجل، ويصلب على عنق النصرانية الساق مع الرجل، ويسحبا على الأرض، وينادى عليهما، ظلمات بعضها فوق بعض، والسلام".

ويتضح بجلاء أن هذه الرقع والرسائل الهزلية وأشباهها من المباسطات الأدبية، كانت أشبه بالنكت والطرائف المسلية التي تدور في مجالس الطبقة الخاصة ومنتدياتهم؛ للمتعة والتسلية، وإثارة الضحك، واللهو بسردها وروايتها.

ونظير ذلك من رسائل الهزل والفكاهة التي انصبت على المداعبة والتندر، فضلا عما حوته من سخرية لاذعة، رسالة أبي إسحاق الصابي، عن الوزير ابن بقية، في أيام وزارته، إلى أبي بكر ابن قريعة القاضي، يعزيه عن ثور أبيض نفق له، وقد نصب سرادقا وجلس للعزاء عنه - تراقعا وتحامقا - ومما ورد في هذه الرسالة قوله[٢]: "التعزية على

---

(١) تاريخ أبي الفداء: ٤٦٢/١ (أحداث سنة ٣٦٧ هـ).

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ١٠٣٢/٤ - ١٠٣٤.

المفقود - أطال الله بقاء القاضي - إنما تكون بحسب محله من فاقده، من غير أن تراعى قيمته ولا قدره، ولا ذاته ولا عينه، إذ كان الغرض فيها تبريد الغلة، وإخماد اللوعة، وتسكين الزفرة وتنفيس الكربة ...".

وبعد أن يسوق الكاتب في رسالته العذر ويحتج له على جلوسه للتعزية - ساخرا ومتندرا - يقول[1]: "وقد بلغني أن القاضي أصيب بثور كان له، فجلس للعزاء عنه شاكيا، وأجهش عليه باكيا، والندم عليه والها، وحكيت عنه حكايات في التأبين له، وإقامة الندبة عليه، وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره، واجتمعت فيه وحده، فصار كما قال أبو نواس في مثله من الناس:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد..."

ثم انتقل الصابي - على لسان الوزير ابن بقية متندرا - يعزي القاضي بهذا المصاب الجلل! ذاكرا فضائله على بقية البهائم، مؤبنا هذا الثور الذي فاق غيره وكان مبرزا لا يلحق، فائتا لا ينال شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته.

ثم انتقل الكاتب - متندرا - إلى الترحم عليه، داعيا أن يخص صاحبه من الثواب بأفضل ما خص به البشر عن البقر!! يقول[2]: "... وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر عن البقر، وأن يفرد هذه البهيمة العجماء بأثرةٍ من الثواب، ويضيفها إلى المكلفين من أهل الألباب، فإنها وإن لم تكن منهم، فقد استحقت ألا تفرد عنهم، بأن مس القاضي سببها، وصار إليه منتسبها".

ثم اختتم الصابي رسالته الهزلية هذه بالدعاء للقاضي بأن يورد موارد أهل النعيم مع ثوره هذا مجنوب معه، مسموح له به.

ومن المفاكهات الأدبية التي انصبت على الهزل والمداعبة في هذا القرن أيضا: رسالة أبي الفضل ابن العميد يداعب فيها هلال رمضان، ويدعو عليه - تفكها وتظرفا - بالهزال والضنى! ومما ورد فيها قوله[3]: "كتابي - جعلني الله فداك - وأنا في كد وتعب، منذ فارقت شهر شعبان، وفي جهد ونصب من شهر رمضان ... وأحمد الله على كل حال، وأسأله أنْ، يعرفني فضل بركته ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته،

---

(١) المصدر نفسه: ١٠٣٣/٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٣٣/٤ - ١٠٣٤.

(٣) يتيمة الدهر: ١٩٠/٣ - ١٩٢.

وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويعجل نهضته، وينقص مسافة فلكه ودائرته ويزيل بركة الطول من ساعاته، ويرد علي غرة شوال فهي أسر الغرر عندي وأقرها لعيني، ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان، ويعرض على هلاله أخفى من السر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بني عامر، وأضنى من قيس بن ذريح، وأبلى من أسير الهجر، ويسلط عليه الحور بعد الكور، ويرسل على رقاقته التي يغشى العيون ضوءها، ويحط من الأجسام نوءها، كلفا يغمرها وكسوفا يسترها، ويرينيه مغمور النور، مقمور الظهور، قد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة، وينقص من أطرافه كما تنقص النيرات من طرف الزند، ويبعث عليه الأرضة، ويهدي إليه السوس، ويغري به الدود ويبليه بالفار، ويخترمه بالجراد، ويبيده بالنمل، ويجتحفه بالذر، ويجعله من نجوم الرجم، ويرمي به مسترق السمع، ويخلصنا من معاودته، ويريحنا من دورته ويعذبه كما عذب عباده وخلقه، ويفعل به [illegible] كتان، ويصنع به صنعه بالألوان ..."[1].

ويتضح بجلاء في هذا النص الأدبي الذي يمتزج فيه الجد والهزل، [illegible] الوزير الأديب، ورقة مداعبته لهلال رمضان، وهو يرغب إلى الله تعالى أن يقرب على القمر دوره، ويخفف حركته، وينقص مسافة فلكه؛ لترد عليه غرة شوال التي هي عنده أسر الغرر وأجملها.

ثم يتلمس القارئ للنص أيضا، خفة روح الكاتب، ومنتهى ظرفه حين يتوجه بالدعاء - تظرفا - على هلال رمضان بالهزال، فيدعو عليه أن يبتلى بالضنى كما ابتلي به مجنون بني عامر وقيس بن ذريح وإضرابها من العشاق.

ثم دعا عليه أيضا - تظرفا وتفكها - أن يسلط عليه الظلام الدامس لتخسر الرؤية عنه، ويدعو أن يرسل الله عليه الكلف الذي يغمر ظهوره، أو الكسوف الذي يستره، ويدعو عليه أن تجمعه والشمس فلك واحد، فذلك أدعى لخفائه وحجب رؤيته!

---

(١) النعرة في قفا: أي يسمعه الأمر الذي يهم به بعد شهر رمضان. يسلط عليه الحور بعد الكور: أي يسلط عليه شدة الظلام بعدما بلي بالزنابير الشديدة اللسع. والكور جمع كورة وهي موضع النحل. يغشى العيون ضوءها: يقتحمها ويدخلها. نوءها: شدتها. كلفا يغمرها: الكلف لون بين السواد والحمرة. مقمور الظهور: غير ظاهر لشدة بياضه وشمسي قمرا لبياضه يجتحفه الذر: أي يذهب به، والذر: جمع ذرة وهي أصفر النمل.

ويدعو عليه أيضا - تفكها - أن يبعث عليه ما ينقص من أطرافه! فيسلط الله عليه الأرضة، ويهدي إليه السوس، ويوجه إليه الدود، أو يبتلى بالفار القارض أو الجراد القاضم! ويباد بالنمل والذر.

وأخيرا يدعو عليه - تظرفا - أن يتساقط كسفا بأن يصبح من نجوم الرجم للشياطين المارقة التي تسترق السمع.

****

- ب - التندر ببعض الظواهر الاجتماعية ونقدها:

لقد عرض الأدباء الكتاب في هذا القرن لبعض الظواهر الاجتماعية، أو العادات والتقاليد التي سادت في بعض المجتمعات الإسلامية، والتي لم يستسغ بعضها الذوق أو العرف العام، أو، تنفر من بعضها الطباع أو الأعراف الاجتماعية المألوفة، فرصدوها، وسخروا منها، ووجهوا سهام نقدهم اللاذع لها بأسلوب ساخر فكه قوامه الهزل والتندر.

وقد أشار الحصري، مثلا إلى بعض ما يستحسن تركه وإن كان حلالا فقال[1]: "قال بعض الكتاب: من الحق ما يستحسن تركه، ويستهجن عمله وقد يقع من ذلك فيما يحله الشرع، ويكرهه الأدباء؛ وكثيرا ممن يغلب على طبعه هذا المعنى يراه سمو نفس، وعلو همة، حتى رأينا من لا يحضر تزويج كريمته، ويولي أمرها غير نفسه ...".

ومن تلك المظاهر الاجتماعية التي كانت تنفر منها الطباع ولا تستسيغ وقوعها مثلا؛ زواج الأم المسنة! فكان الأدباء كثيرا ما يسخرون من هذه الفعلة، فيتوجهون إلى الابن - وكثيرا ما يكون من وجوه المجتمع - بالتهنئة الساخرة المشوبة بالتهكم اللاذع، أو قد تنطوي الرسالة أحيانا أخرى على التعزية للابن مقرونة بالدعاء على الوالدة المتزوجة بالموت، ليسترها القبر، فهو خير ساتر لها!

كتب أبو بكر الخوارزمي إلى الأديب المؤرخ ابن مسكويه، وقد تزوجت أمه متندرا[2]: "... وبلغني ما اختارته الوالدة - صانها الله تعالى - فحمدت الله تعالى الذي رزقك والدا لا يلزمك حق أبوته، ووعدك أخا لا يحملك حمل أخوته، وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك في حياتها، والآن أسأله أن يعجل لك بوفاتها؛ فإن القبر أكرم

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٢/٤٠٠ - ٤٠١.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢١٣ - ٢١٤.

صهر، وإن الموت أستر ستر ...".

ومن الرسائل الفكاهية الساخرة المشهورة في هذا الباب أيضا؛ رسالة أبي إسحاق الصابي إلى رجل زوج أمه، وقد عد أبو هلال العسكري هذه الرسالة، وما تضمنته من معاني السخرية، من عجائب المعاني، ومما ورد منها قوله[١]: "قد جعلك الله، وله الحمد، من أهل التحصيل، والرأي الأصيل، وخلوص اليقين، فكما أنك لا تتبع الشهوة في محظور تحله، فكذلك لا تطيع الأنفة في مباح تحظره، ويأوي إلينا من إيقاعك العقد بين الوالدة - نفس الله لها في مدتك وأحسن بالبقية منها إمتاعك - وبين فلان، وما علمنا أنك فيه بين طاعة الديانة توخيتها، ومشقة فيها تجشمتها، وأنك قد جدعت أنف الغيرة لها وأضرعت خد الحمية فيها، وأسخطت نفسك بإرضائها، وعصيت هواك لرأيها فنحن نعزيك على فائت مرادك، ونسأل الله الخيرة لك، وأن يجعلها أبدا معك فيما شئت وأتيت وتجنبت وأنبت، والسلام".

ومن الظواهر الاجتماعية التي استهجنها الأدباء والكتاب في هذا القرن أيضا: ظاهرة (التطفل)، واقتحام بعض الطفيليين موائد الأغنياء والأمراء ووجوه المجتمع.

ولعل أروع ما وصل إلينا في هذا الباب من رسائل الفكاهة والتندر الساخرة؛ رسالة أبي إسحاق الصابي التي كتبها عن الأمير عز الدولة بختيار، وقد وسمها الصابي بـ (عهد التطفل)؛ لأنه كتبها على غرار عهوده الرسمية إلى ولاة الدولة وعمالها، وقد دبجها أبو إسحاق الصابي على لسان زعيم الطفيليين في عصره (علي بن أحمد المشهور (بعليكا)، الذي شهر بتطفله على موائد الأمير البويهي معز الدولة أحمد بن بويه، إلى خليفته في التطفل (علي بن عرس الموصلي).

لقد دبج الصابي (عهد التطفل) هذا - كما أشرت آنفا - على غرار عهوده الرسمية التي كان يحررها على لسان أسياده في حاضرة الخلافة، يوصي بها ولاة الدولة والعمال والجباة وغيرهم، يسدي لهم النصائح والتوجيهات، ويصدر إليهم الأوامر والنواهي وفق رسوم معروفة متبعة.

وقد استهل الصابي رسالته الفكاهية هذه يقول[٢]: "هذا ما عهد به علي بن أحمد

---

(١) ديوان المعاني: ١/١٠٠ - ١٠١، وتراجع الرسالة مع بعض الاختلاف في النص: نشوار المحاضرة: ٣/٢١١.

(٢) صبح الأعشى: ١٤/٤٠٤ - ٤٠٥.

المعروف (بعليكا) إلى علي بن عرس الموصلي، حين استخلفه على إحياء سنته، واستنابه في حفظ رسومه من التطفل على أهل مدينة السلام، وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها، ويجري معها في سوادها وأطرافها؛ لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، ورآه أهلا له من سد مكانه".

وبعد أن يقدم الصابي، على ما عهدناه منه في رسائله وعهوده الرسمية الجدية، نصائحه وتوجيهاته، يعرض إلى صلب الموضوع، فيطلب الكاتب على لسان (عليكا) إلى خليفته (ابن عرس) أن يتدبر أولا معنى التطفل، ويعرف مغزاه، ثم راح يسرد عليه نصائحه وأوامره وتوجيهاته فيما يجب اتباعه، فبدأ أولا فيمن يجب عليه أن يقتحمهم، مع أتباعه من الطفيليين، فيقول، على شاكلة عهوده الرسمية[1]: "وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه، وسمط الأمراء والوزراء بسراياه، فأنه يظفر منها بالغنيمة الباردة، ويصل عليها إلى الغريبة النادرة؛ وإذا استقراها وجد فيها من طرائف الألوان، الملذة للسان وبدائع الطعوم، السائغة في الحلقوم، مالا يجده عند غيرهم، ولا يناله إلا لديهم لحذق صناعتهم، وجودة أدواتهم، وانزياح عللهم، وكثرة ذات بينهم والله يوفر من ذلك حظنا، ويسدد نحوه لحظنا، ويوضح عليه دليلنا، ويسهل إليه سبيلنا ...".

وبعد أن يسدي إليه نصائحه وتوجيهاته السديدة، كوجوب مصادقته لموسري التجار، ومجهزي الأمصار، والمدبرين والطباخين والحمالين وغيرهم يرسم له الطريقة المثلى التي يجب اتباعها في الأكل، فيقول[2]: "وأمره أن يحرز الخوان إذا وضع، والطعام إذا نقل، حتى يعرف بالحدس والتقريب والبحث والتنقيب، عدد الألوان في الكثرة والقلة، واقتنائها في الطيب واللذة فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي منها عند انتهائها، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها. ومتى أحس بقلة الطعام وعجزه عن الأقوام، أمعن في أوله إمعان الكيس من سعته، والرشيد في أمره المائي لبطنه، من كل حار وبارد، وخبيث وطيب، فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون تطرفا، ويقلون تأدبا ...".

ويفتن الصابي كثيرا في تدبيج هذا (العهد) الطريف، ويصل إلى الذروة في التندر والفكاهة، وإلى النهاية في الدعابة والظرافة؛ حين يوصي الكاتب على لسان (عليكا)

(١) صبح الأعشى: ٤٠٦/١٤.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠٨/١٤.

خليفته في التطفل، ابن عرس الموصلي، باحتمال الضيم وتحمل المشاق، والصفع والمخاشنة، وما إلى ذلك، في سبيل البطن، وما تتشوق إليه من شهي الطعام وألوان الحلوى! يقول[١]: "وأمره أن يروض نفسه، ويغالط حسه، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا، ويطوي دونه كشحا ويستحسن الصمم عن الفحشاء، وإن أتته اللكزة في حلقه، صبر عليها في الوصول إلى حقه، وإن وقعت به الصفعة في رأسه، صبر عليها لموقع أضراسه وإن لقيه لاق بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، إذ كان قد ولج الأبواب، وخالط الأسباب، وجلس مع الحضور، وامتزج بالجمهور، فلا بد أن يلقاه المنكر لأمره ويمر به المستغرب لوجهه، فإن كان حرا حيّياً أمسك وتذمم، وإن كان فظا غليظا همهم وتكلم، وتجنب عند ذلك المخاشنة، واستعمل مع المخاطب له الملاينة، ليبرد غيظه، ويفل حده، ويكف غربه، ويأمن شغبه ...".

ثم اختتم الكاتب، على لسان عليكا، هذا العهد الفكه، مخاطبا خليفته في التطفل ابن عرس الموصلي قائلا[٢]: "هذا عهد عليكا بن أحمد إليك، وحجته لك وعليك؛ لم يألك فيه إرشادا وتوقيفا، وتهذيبا وتثقيفا، وبعثا وتبصيرا، وحثا وتذكيرا، فكن بأوامره مؤتمرا، وبزواجره مزدجرا، ولرسومه متبعا، وبحفظها مضطلعا، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته".

****

وهكذا يعد أبو إسحاق الصابي بحق، واحدا من بلغاء الكتاب وصدورهم في القرن الرابع؛ لما أسداه في المكاتبات الرسمية من معايير فنية عالية، وما أرساه في تضاعيف النثر الفكاهي الساخر من رسوم جمالية قيمة، وما دبجه أيضا من نصوص أدبية ساخرة فكهة، تميزت بطرافة المحتوى، ووحدة الموضوع وجمال الصياغة والأداء.

ومن الظواهر الاجتماعية التي عالجها الأدباء الكتاب إبان هذا القرن أيضا: ظاهرة التعالي على الأقران والأصدقاء، عند سمو المنزلة السياسية أو غيرها.

ومن نماذج هذا اللون من رسائل الهزل والفكاهة؛ ما كتبه أبو بكر الخوارزمي إلى أبي قاسم بن أبي الفرج، كاتب الأمير ركن الدولة البويهي، لما عزل عن عمله،

---

(١) صبح الأعشى: ٤٠٩/١٤.

(٢) المصدر نفسه: ٤١٠/١٤.

ومما جاء فيها قوله[١]: "أنا أهنئ الدنيا يوم عزلك، كما كنت عزيتها يوم ولايتك، فلئن عد إقبالك في مثالبها، لقد ذكر إدبارك في مناقبها، ولئن كانت عوتبت يوم رفعتك، لقد اعتبت يوم وضعتك، وأنت والله الجليل يسر بفراقه، والخليل هنيء بطلاقه، ولقد كان معرض النعمة قبيحا عليك، مستغيثا من يديك، كأنك أبا القاسم لم تتول إلا لتصديق الأول:

وكـــل ولايـــة لا بـــد يـــوما مغيرة الصديق على الصديق ...".

ومن نصوص النثر الفكاهي الساخر، ما عالج قضايا اجتماعية أخرى تتصل برفعة الوضيع وسمو مكانته في هذا العصر المتناقض! وانحطاط مكانة الشريف العالم، ودنو منزلته، وانحسار قيمة العلق من نتاجه الأدبي الرصين.

ومن الرسائل الهزلية الساخرة التي صورت هذا الجانب؛ ما دبجه الهمذاني في رسالة أدبية ساخرة إلى مستميح عاوده مرارا، وقال له: "لم لا تديم الجود بالذهب كما تديمه بالأدب؟!".

فكتب إليه بديع الزمان الهمذاني يقول[٢] - هازلا ساخرا - " عافاك الله، مثل الإنسان في الإحسان كمثل الأشجار في الثمار ... لكن هذا الخلق النفيس، ليس يساعده الكيس، وهذا الطبع الكريم، ليس يحتمله الغريم، ولا قرابة بين الذهب والأدب، فلم جمعت بينهما؟ والأدب لا يمكن ثرده في قصعة، ولا صرفه في ثمن سلة، ولي من الأدب نادرة، جهدت في هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ لي من جيمية الشماخ لونا فلم يفعل، وبالقصاب أن يسمع أدب الكاتب فلم يقبل وأنشدت في الحمام ديوان أبي تمام فلم ينفذ، ودفعت إلى الحجام مقطعات اللجام[٣]، فلم يأخذ، واحتيج في البيت إلى شيء من الزيت، فأنشدت من شعر الكميت الفا ومائتي بيت، فلم تغن، ولو وقعت أرجوزة العجاج في توابل السكباج[٤] ما عدتها عندي ولكن ليست تقع، فما

---

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١١٦ - ١١٧.

(٢) يتيمة الدهر: ٣٠٠/٤، وأوردها الثعالبي في خاص الخاص: ١٣ - ١٤ مع اختلاف طفيف في النص.

(٣) تراجع ترجمته في يتيمة الدهر: ١١٦/٤ وما بعدها، وقد ذكره الثعالبي ضمن أدباء بخارى، وقع إليها أيام الحميد وظل بها إلى أواخر أيام السديد من أمراء السامانيين وكان كثير الغرر والملح والنكت، وكان هجاء وقد اشتهر بهجاء الصدور.

(٤) السكباج: مرق يتخذ من والخل.

أصنع؟ فإن كنت تحسب اختلافك إلي إفضالا علي فراحتي في أن لا تطرق ساحتي، وفرحي في أن لا تجي، والسلام".

وقد رصد بعض الأدباء الكتاب إبان هذا القرن، في رسائلهم الهزلية الفكاهية أيضا؛ جوانب اجتماعية أخرى تتصل بما شاع في بعض أوساط العامة في بعض أقاليم المشرق الإسلامي من خلاعة ومجون.

ولعل أدق شاهد يوضح لنا طبيعة هذا اللون من المكاتبات الهزلية الماجنة؛ رسالة " الوساطة بين الزناة واللاطة "(١) للأديب الكاتب أبي الفرج علي بن الحسين بن هندو، وهي نموذج طريف للأدب المكشوف الذي لا يتورع عن ذكر ما يأنف الذوق السليم، والخلق القويم من التصريح به، أو تدوينه ونشره.

****

- ج - التهكم والسخرية اللاذعة:

ومن الأمور المهمة التي انطوت عليها الرسائل الفكاهية، والمباسطات الأدبية في هذا القرن أيضا؛ التهكم المشوب بالسخرية اللاذعة.

والتهكم: هو أن يلقي الأديب الكاتب كلامه ويقصد ضده، أو يقرر المعنى الظاهر ويريد نقيضه.

وقد كان بعض بلغاء الكتاب وصدورهم في هذا القرن، وفي مقدمتهم أبو الفضل ابن العميد، وأبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني وأضرابهم قد شهروا ببراعتهم في هذا اللون من المفاكهات الأدبية الطريفة، إلا أن الباحث المتأمل في هذا الضرب من الرسائل الأدبية، يكتشف، لأول وهلة، أن أسلوب التهكم الذي انطوت عليه رسائلهم هذه، لم يكن يرتبط بمواقفهم من مظاهر الحياة الاجتماعية أو السياسية، وما كانوا ينشدونه من الكمال في تصحيح مسار خصومهم، أو من يوجهون سهام نقدهم إليه، وإنما كان غالبا ما يرتبط بعواطفهم الشخصية المتقدة، ومن هنا رأينا أن تهكمهم اللاذع في ترسلهم لم يبرأ من الهجاء والشتم المقذع، أو السباب العنيف، كما سنرى ذلك واضحا في رسالة أبي بكر الخوارزمي الشهيرة(٢) التي تهكم فيها بأبي الحسن البديهي، وما ألصقه به من أصناف العيوب وألوان القبائح، وما اتهمه به من الجمع بين

---

(١) تراجع هذه الرسالة الطريفة في: تتمة اليتيمة: ٥/١٦٤ - ١٦٥.

(٢) تراجع رسالة الخوارزمي هذه في مجموع رسائله: ٢٣٥ - ٢٥٠.

المتناقضات.

ومن نماذج المفاكهات الأدبية التي انصبت على التهكم المشوب بالسخرية اللاذعة والجمع بين الجد والهزل؛ رسالة الوزير الكاتب أبي الفضل ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري، وقد ذكر في فصل منها دعواه في العلم، ومما ورد منها قوله[1]: "وهبك أفلاطون نفسه، فأين ما سننتهُ من السياسة؟ فقد قرأناه أتجد فيه إرشادا إلى قطيعة صديق؟ وأحسبك أرسطاطاليس بعينه، أين ما رسمته من الأخلاق؟ فقد رأيناه، فلم نر فيه هداية إلى شيء من العقوق، وأما الهندسة فأنها باحثة عن المقادير، ولن يعرفها إلا من جهل مقدار نفسه، وقدر الحق عليه وله، بل لك في رؤساء الآداب العربية منا ريحٌ ومضطرب، ولسنا نشاحك، لكن أتحب أن تتحقق بالغريب من القول، دون الغريب من الفعل؟ وقد أغربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه. وأما النحو فلن تدفع عن حذق فيه، وبصر به، وقد اختصرته أوجز اختصار، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة، ويرضى بك أسوة، فقلت: الغدر والباطل وما جرى مجراها مرفوع، والصدق والحق وما صاحبهما مخفوض، وقد نصب الصديق عندك، ولكن غرضا يرشق بسهام الغيبة، وعلما يقصد بالوقيعة، ولست بالعروضي ذي اللهجة فأعرف قدر حذقك فيه، إلا أني لا أراك تتعرض لكامل فيه، ولا وافر، وليتك سبحت في بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شط المتقارب".

وهكذا نرى بوضوح أن تهكم أبي الفضل ابن العميد على أبي عبد الله الطبري، وسخريته اللاذعة بشخصه، صادرة عن روح فكهة مرحة، ونفس منطلقة متفتحة، ونلحظ أيضا أن تهكمه عليه كان أسلوبا فنيا راقيا، استعان به الكاتب للانتقاص من أبي عبد الله هذا، غير أننا نلحظ أيضا أن تهكمه عليه كان لينا، ليس في تضاعيفه تلك الغلظة أو القسوة، أو السباب البذيء، والشتم المقرف الذي سنلحظه في رسالة أبي بكر الخوارزمي التي سنقف عندها هنا.

ومن عيون الرسائل الأدبية التي جمعت بين الجد والهزل، وانصبت على التهكم والسخرية اللاذعة في هذا القرن أيضا؛ رسالة أبي بكر الخوارزمي الشهيرة التي كتبها إلى أبي الحسن علي بن محمد البديهي[2] يعبث به، ويسخر منه، ويصمه

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: س٣/٨٧٨ - ٨٧٩.

(٢) تراجع ترجمته ونماذج من شعره في: يتيمة الدهر: ٣/٣٩٩ - ٤٠٢.

بالجهل[١].

وقد تأثر الخوارزمي في كتابة رسالته هذه كثيراً برسالة " التربيع والتدوير " التي ألفها الجاحظ في هجاء أحد معاصريه، والسخرية اللاذعة به والتهكم عليه.

وقد شاع مما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين[٢]؛ أن أبا عثمان الجاحظ قد احتكم في بناء رسالته المذكورة إلى نظرية الأوساط الفلسفية في الأخلاق، المعروفة عند اليونان، فاستمد منها الجاحظ - بعد أن حورها واستغلها أحسن استغلال، فأخرجها من دوائرها الفلسفية إلى دوائره الفنية الرائعة - جميع مناقضاته، وضروب المفارقات الأخرى، مستعينا كذلك، بما عرف عنه من قدرة في الجدل والمنطق، ومرونة في الحوار والسفسطة.

وهكذا تشبث أبو بكر الخوارزمي في رسالته هذه التي بسط فيها آراءه بسطا واسعا مفصلا، بطريقة الجاحظ في الحوار والجدل، وما يتصل بهما من مغالطة أو سفسطة منطقية، فاستعان بضروب من المفارقات التي بنى عليها ما تناوله في هذه الرسالة الهزلية من ذكر الأشياء ومناقضاتها، ومن تلك المناقضات والمفارقات استمد الكاتب هجاءه أو تهكمه الساخر بأبي الحسن البديهي، واستطاع أن ينفذ من ذلك كله إلى التنكيل به، وتشويهه؛ بما رسم له من صور (كاريكاتيرية) هزلية ساخرة.

بدأ الخوارزمي رسالته معنفا خصمه البديهي، مشيرا إلى أنه أراد بهذه (الرسالة) أن يوقع عليه الحجة، ويقيم عليه الدليل على جهله، وعدم إحساسه إلا بالرذل من الأمور، والنزر من الأشياء!

يقول الخوارزمي في مطلع رسالته إليه[٣]: "لست أعاتبك - عافاك الله تعالى - لأن العتاب يصلح منك، أو يعمل فيك، أو لأن جهلك جهل يعالج بالعذل أو يداوى داؤه بالقول. كلا - عافاك الله تعالى - جهل الناس عرض وجهلك جسم لا يزول إلا بالفعل، ولا يقع دواؤه إلا من الكف والنعل، ولكني إنما أردت بهذه الرسالة أن تتوجه عليك الحجة. وأن تنقطع عنك العلاقة والعلة، وإن كانت ترد منك على عين عمياء، وأذن صماء، وقلب لا يعرف النقص إلا في ماله، ولا يحس بالألم إلا في جسمه، ولا

(١) تراجع الرسالة في: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٣٥ - ٢٥٠.

(٢) تراجع التفاصيل في كتاب: الفن ومذاهبه في النثر العربي: ١٨٠ وما بعدها.

(٣) رسالة أبي بكر الخوارزمي: ٢٣٥.

يجد للنقص مسا ولا للعيب وقعا، ولقد عققت الكلام بك، وضيعته فيك ...".

وهكذا وصم الخوارزمي خصمه بالجهل والغفلة، وعيوبه كثيرة، وهي لذلك ترد من طرق شتى، وتقع مثنى مثنى! ووصفه بأنه لم يقم للحق وزنا! فلو كان الحق شخصا لما أحس به، ولو كان نفسا لسعى في ذمها، أو تمثل دارا لجهد في هدمها! وهذه صورة مشوهة منفرة رسمها الكاتب لخصمه بدقة وإمعان.

ثم راح الخوارزمي يسخر من خصمه، إذ جعله شبيها بسوفسط، فهو دوما يقلب الأمور، ويعمل على الضد منها! وكأنه خلق لطمس النور، والعمل على جحد ما يدرك عيانا، ويعرف إيقانا! يقول ساخرا بخصمه، مجسما بعض عيوبه[١]: "... لو علق القبيح بالثريا لصعدت إليه، ولو دفن المحال في تخوم الأرض السابعة لغصت عليه، الجميل عدو لك تحاربه، والسداد ضد من أضدادك لا تقاربه ولا تناسبه، فأنت العكس إلا أنه يمشي على رجلين، والجور إلا أنه ينطق بلسان وشفتين، والجهل إلا أنه يخاطب، والعي إلا أنه مثاب معاقب...".

وهكذا نتلمس أن الكاتب لجأ إلى تجسيم عيوب خصمه، والتنويه بكثرة وجوهها؛ فهو العكس مشخصا يمشي على رجليه! وهو الظلم في هيئة شخص ينطق، وهو الجهل في صورة رجل يخاطب، والعي مجسدا فهو تارة يثاب وتارة يعاقب! ثم راح الكاتب بعد ذلك يرسم له صورا مقلوبة منفرة، إذ جعله ينكر حقائق الأشياء على الرغم من وضوحها، يقول الخوارزمي ساخرا[٢]: "... ولو استخبرت عن إبليس ذكرت أنه سجد لآدم، ولو نوظرت في عيسى نفيته عن مريم، ولو أنشدت شعر امرئ القيس لنسبته إلى الإفحام، ولو ذكرت أبو جهل حكمت له بالإسلام، ولو استحسن كلام مزبد، قلت: إنه ميت الخواطر، فاتر النوادر، ولو سمعت خطب أمير المؤمنين علي (عليه السلام) استعييت بيانه ولو مررت بإيوان كسرى استقللت بنيانه ...".

ثم يواصل الكاتب تهكمه على خصمه، والاستهانة بشخصه، فيسخر من علمه، وما يدعيه من معرفته للأشياء، فيرسم لوحة جميلة ساخرة، إذ يقول[٣]: "... وإنك لو سمعت عليا يقول: سلوني قبل أن تفقدوني، سألته حتى يقول: دعوني فقد أفحمتموني،

(١) رسالة أبي بكر الخوارزمي: ٢٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) رسالة أبي بكر الخوارزمي: ٢٣٩ - ٢٤٠.

وأنك لو أمدت بك الملائكة ما قالت: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، وإن أباك آدم لو أعين بك ما لعب إبليس به، ولا أنف من السجود له، وإن عمك قابيل لو رآك ما أقدم على أخيه هابيل ... وإن العجم عرب إذا كنت فيهم، كما إن العرب عجم إذا بنت عنهم، وإن الرياض إنما اكتسبت طيب ريح لأنها تستمد من نكهتك، وإن النجوم إنما أعطت ضوءها من ضوء غرتك، وأن الخيل ما اختالت في مشيها إلا لأنها حملتك، وأن الطير إنما لحنت أصواتها لأنها عشقتك، وأن البحار إنما ماجت وزخرت هيبة لك..."

ثم ما يلبث الكاتب أن يخرج عن هدوئه، وسخريته المنسابة، فتتعاظم في نفسه سورة الغضب، حين راح يمزج سخريته اللاذعة لخصمه بأقذع الهجاء والسباب، فإذا به ينسب إليه كل القبائح والعيوب بأسلوب مقذع مباشر عنيف، إذ يقول[1]: "... يا كنيف السجن في الصيف، يا شرب الخمر على الحشف ... يا جشاء من أكل فجلية، وفساء من أكل قنبيطية ... يا أقذر من ذباب على جعر رطب، ويا أذل من قراد في أست كلب ... يا حوض دكاكين الدباغين، ومنهج حوانيت القصابين، يا مغيض ماء الحمام، يا كوز حانوت الحجام ... يا ألأم من اللؤم، وأشأم من الشؤم ... جعلت فداءك من الخير لا من الشر، هذا كله مصانعة لك، ورفق بك؛ وذلك لأني شبهتك بأشياء تنقص في باب الذم عنك وتأنف والله منك، ولقد ظلمتها بك، إذ كان قد تفرق فيها من المعايب ما اجتمع فيك ...".

وهكذا يتضح بجلاء، أن أبا بكر الخوارزمي قد استطاع أن يرقى بالسخرية إلى مكانة عالية، وأنه استوعب كثيرا من خصائصها الفنية، وأنه قد وعى ما للمبالغة، وقلب الصور، والروح الشعبية، من تأثير في عواطف الناس ومشاعرهم، وإثارة السخرية من الخصوم[2].

ثم انتقل الخوارزمي إلى السخرية بخصمه، والتعذر عليه، بما يمتلكه من مزايا نادرة، وقدرات خارقة، فيقول ساخرا[3]: "... رحمك الله تعالى، دع لليونانية من الحكمة ما تنفق به سوقهم، واترك لبني العباس من التملك ما تمشي به أمورهم، وأبق

---

(١) المصدر نفسه: ٢٤٤.

(٢) ينظر رسالة: أبو بكر الخوارزمي حياته وأدبه: ٣٢٦.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٤٧.

للشمس والقمر من الحسن بمقدار ما يطلعان به، ويلوحان فيه ... قد اتفق الناس على ضياع النسخة الأولى من كتاب العين فأمله علينا، وأجمعوا على ذهاب قراءة أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، فأخرجها إلينا، وتخالف الناس في المهدي، وشكوا في السفياني، وفي الأصفر القحطاني، فعرفنا متى يخرجون؟ فإني أعلم أنهم إليك يختلفون، وفي أمرك ونهيك مترددون وبمشورتك يغيبون ويحضرون ...".

وهكذا برع أبو بكر الخوارزمي في صياغة هذه الألوان المتآلفة من صور السخرية اللاذعة، التي بناها على ضرب جميل من مغالطة الأسماع والأبصار، وبرع أيضا في توليف صوره الحسية البصرية والسمعية توليفا رائعا متناسقا، فوظف بذلك كله مقدرته على التصوير الفني لتجسيم مشاعره وأحاسيسه، وهذا ما تلمسناه بوضوح في كثير من فصول هذه الرسالة الهزلية الخالدة.

ثم اختتم أبو بكر الخوارزمي هذه الرسالة القيمة بما توسمه من وقع ما صبه على خصمه في تضاعيف رسالته، وقوة تأثيرها عليه، بما انتظمته من تهكم عنيف، وسخرية لاذعة، فشبهها بالعروس التي تهدى إلى خاطبها، غير أن مهرها كان باهظا؛ لأن مهرها لم يكن كما تعارف الناس عليه! وإنما كان عرضه الخلق، اللبيس الممزق، مع خلودها على مر الزمن، وتخليدها لمعاير خصمه، وعلوقها بحبله وناصيته. يقول الكاتب متندرا[١]: "هذه - رحمك الله - هدية أهديتها إليك، بل هدى من العرائس جلوتها عليك، وما مهرها إلا فقدك ولا ثمنها إلا بعدك، فإذا وهبتهما فقد وفيت المهر، وأرضيت العروس والصهر فسبحان من أرانيك ولك صهر مثلي، وأنت ختن لي، وعهدي بالناس يخطبون الكرائم بالكرم، ويطلبونها بحسن الأخلاق والشيم، وأنت خطبت هذه الكريمة بلؤم بخرك، وصغر قدرك، وعهدي بهم يحتملون المهور في أموالهم، وأنت جعلت مهر هذه من عرضك الخلق، اللبيس الممزق، وأعجب ما فيها أنك إذا طلقتها لم تطلقك، وإذا أطلقتها من حبلك لم تطلقك، فخذها مباركا لك فيها، فبئست العروس وزوجها شر منها".

****

(١) المصدر نفسه: ٢٥٠.

وهكذا نتلمس من قراءة فصول هذه الرسالة الأدبية القيمة أن أبا بكر الخوارزمي استطاع بموهبته الفنية النادرة، أن يدمج بإتقان تام، وبراعة نادرة، بين ثقافته الموسومة الغزيرة، وبين أسلوبه الفني الرصين، وبرع كثيرا في خلق هذا التجانس العجيب بين ألفاظه الرشيقة، ومعانيه الواضحة الدقيقة، تجانسا يمتع الفكر والعقل، كما يمتع الحس والذوق.

الفصل الخامس
الخصَائصُ الفنية والأسلوبية للرسائل الأدبية
في القرن الرابع

توطئة:

من الحقائق العلمّية المسلَّم بها في الدرس النقدي، أننا قد نخضعُ النصَّ الأدبيّ عند دراسته أو تحليل خصائصه الأسلوبية والفنية لأكثر من منهج نقديّ، وهذا الأمرُ يتوقفُ على خصب النصّ الأدبي وثرائهِ وحيويته، وعمق دلالاته، وتشعب أفكاره، بحيث لا يمكنُ أن يحتويه، أو يُحيط بأطرافه منهجٌ واحدٌ بعينه...

ونظراً لَما تميّزتْ به جلُّ الرسائل الأدبية في هذا القرن، من نضج التجربة، وثراء الصياغة، ومتانة البناء، والحرص الدائب على التجديد في المعاني، وما تبع ذلك من براعة فائقة في التصوير الفني، فقد تحتَّم على الباحث عندَ دراسته لهذه النصوص الأدبية وتحليلها، أن يفيدَ من أكثر من منهج نقدي وأن يستثمرَ أقرب النظريات أو المناهج النقدية المناسبة، لاستجلاء ما في تلك النصوص الفنية من قيمٍ جمالية، ومزايا فنّية.

ومن هذا المنطلق، فسوف نحاولُ في هذا الفصل من هذه الدراسة، تحليل أكثر شذرات النصوص النثرية، ودراسة خصائصها الأسلوبية والفنية في ضوء المنهج الفني؛ إذ إن هذا المنهج - كما هو معروف في الدرس النقدي - يرتبطُ بالنصوص الأدبية ارتباطاً وثيقاً، ويعنى بدراستها وتحليلها أكثر مما يهتمُ بأيّ شيء سواه ...وعلى هذا، فإنّ دراسة نصوص الرسائل الأدبية، على اختلاف موضوعاتها في هذا القرن، وفق قواعد هذا المنهج النقدي، سوف يُتيحُ لنا أن نتعمَّقَ تلك النصوص الأدبية من الداخل، ونتحسَّسَ ما انطوتْ عليه من جهدٍ فنيّ وإبداع متميَّز، ونستشفَّ الألوان والظلال التي خالطتها، والصور وأفانين الخيال التي مازجتها، والأساليب التي طغتْ عليها ...

إن أهمَّ دعائم هذا المنهج النقدي الذي سنعتمدهُ في دراسة نصوص الرسائل الأدبية، وكما نادى بها أبرزُ أعلام هذا المنهج، كالأديب والناقد الإنكليزي (ت. س.

إليوت)، والناقد الأمريكي (كينيت بيرك)، ومواطنه الناقد (بلاكمور) تتمحورُ في عدِّ النصّ الأدبيّ كائناً حياً لهُ مشخّصاتهُ، دون النظر إلى أيّ عوامل خارجية أخرى.

وهكذا يصبحُ النصّ الأدبي عند دراسته في ضوء هذا المنهج، محورَ العلمية النقدية؛ إذ يعمدُ الناقدُ في النصّ الفني، ليفسِّرَ دقائقهُ، ويجلو غوامضهُ ويبيّن خصائصه المختلفة .....

****

على أننا يمكنُ أن نجوز هذا المنهج الفني، عنَد دراسة بعض الومضات الفنية التي تخلَّلتها كثير من نصوص الرسائل الأدبية في هذا القرن، إلى مناهج نقدية أخرى، كالمنهج النفسي[١] مثلاً، وما أفادهُ من حقائق أو مفاهيم تتعلّق بالنفس البشرية، وتفسير سلوك الإنسان، أو ما يصدرُ عنهُ من أفعال ومشاعرَ أو أحاسيس وانعكاس ذلك على العمل الأدبيّ؛ إذ إنَّ كثيراً من الألفاظ والتراكيب، وخفقات الرؤى والمعاني الدقيقة، وغيرها مما تخللّتْ فصول تلك الرسائل الأدبية، يمكنُ اتخاذها مفاتيحَ مهمّة للكشفِ عن خفايا نفسية أولئك الأدباء والكتّاب، ويمكنُ عدَّها أيضاً رموزاً نستجلي من وحيها كثيراً مما كان يرينُ على دخائلهم من أفراح وأتراح، أو يسر وعسرّ أو تفاؤل وقنوط، وما إلى ذلك[٢].

---

(١) سبق للباحث أن اعتمد (المنهج التاريخي) في كتابة بعض فصول ومباحث هذه الدراسة إذ إنَّ جميع ملابسات الزمان والمكان (البيئة) والأحوال الاجتماعية والاقتصادية وتداعياتها، فضلاً عن المؤثرات الحضارية الطارئة، كلها وشائج عميقة انعكستْ على حياة الأدباء والكتّاب وغيرهم في هذا القرن، وكان لها تأثيرها المباشر والفاعل في نتاجهم الأدبي والفكري، ولا سيما الرسائل الأدبية.

(٢) لعلَّ أبرزَ ما يؤخذُ على المنهج النفسي في دراسة الأدب - إلى جانب المنهج التاريخي - أنهُ يُقلّلُ من اهتمام الناقد بالنصوص الأدبية ذاتها، ويُعنى بتفسير الظواهر الأدبية والفنية في ضوء مفاهيم علمية جافة، أو مُقحمة عليها، ونحن لا نريدُ هنا أن نزجَّ بنصوص الرسائل القديمة في متاهات غريبة عن طبيعتها الفنية، كما أننا لا نرمي من وراء تحليل بعض تلك الرسائل الفنية في ضوء معالم هذا المنهج، أن نوغل - كما فعل بعضُ الباحثين المعاصرين - في خفايا هذا المنهج، فنجعل مثلاً بعض الخواطر والانفعالات التي وردتْ في ثنايا بعض فصول الرسائل تنفيساً عن رغبات مكبوتة في(اللاشعور)، أو نفسِّرَ بعض ومضاتها الإنسانية النادرة على أنها (خفقات جنسية مكبوتة)؛ كُبتت منذ عهد الطفولة في (اللاشعور)، أو أنها (خواطر) قمعتْ قمعاً شديداً، وأن هذه الرؤى والخواطر التي انبثتْ في فصول تلك الرسائل الأدبية، إنْ هي إلاّ تعبيرٌ =

وهكذا يمكنُ للباحث دراسة الخصائص الأسلوبية والفنية للرسائل الأدبية في هذا القرن، تلك الرسائل التي تميزّت بالعمق والثراء الفني، في ضوء أكثر من منهج نقديّ، وصولاً للكشف عن كلّ مزاياها الجمالية، وأبعادها الفنية، فضلاً عن المؤشرات التاريخية والحضارية العديدة المتنوعة ...

غير أننا آثرنا، في هذا الفصل، التركيز على جوانبَ مهمة من أسس المنهج الفني لأنه أقربُ من سواه من المناهج الأخرى إلى طبيعة هذه الدراسة الفنية.

وهكذا أفردتُ لدراسة الخصائص الفنية والأسلوبية للرسائل الأدبية في هذا القرن، وفق أسس هذا المنهج النقدي[١]، مبحثين متصلين؛ تكفّل المبحث الأول بدراسة الخصائص البنائية والشكلية للرسائل الأدبية، بينما اشتمل المبحث الثاني دراسة وتحليل المحتوى والمضمون لنصوص تلك الرسائل.

وسنحاول، بدءاً قبل الخوض في دراسة جزيئات الصياغة والأسلوب وخصائص المضمون الأدبي في هذا القرن، أن نشخص، من خلال الاستقراء الدقيق المركز للنصوص الفنية الرصينة لمشاهير كتاب هذا القرن، أبرز الملامح العامة للنثر الفني - وبخاصة الرسائل الأبية - هذا النثر الذي استطاع أن يواكب الحياة العامة في المجتمعات الإسلامية في أقاليم المشرق الإسلامي، ويجسد بدقة متناهية ما استبطن أسرارها، وتعمق أدق خصوصياتها، واستقرى أعمق ظواهرها...

ولنتتبع أيضاً؛ كيف استطاع جهابذة الكتّاب وبلغاؤهم في هذا القرن، وفي مقدمتهم: أبو حيان التوحيدي، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والأمير قابوس بن وشمكير، وأبو علي بن مسكويه وإضرابهم، أن يخضعوا كثيرا من مشكلات الفلسفة

=

عن كلِّ ذلك الكبت المكظوم، وينظر: نظرية الأدب (الفصل الثامن: الأدب وعلم النفس: ١٠١ وما بعدها).

(١) لقد شاع في الدرس النقدي أيضاً؛ أن دراسة (الشكل والبناء والمضمون) هي أمور بدأت في دراسة النثر (الرواية والقصة القصيرة)، وأصحاب هذه الدراسات هم الشكلانيون. اما الدراسات الغربية القديمة التي سبقت جهود الشكلانيين، والتي دارت حول الشعر، فقد كانت موضوعاتها تنصب على (الوزن، الإيقاع، الشعرية أو النظم وسواها مما يتعلق بالأدب وتاريخه، وعلاقة الشعر بالحياة والمجتمع..، وتراجع التفاصيل في هذا الجانب: نظرية الأدب / الفصل الثالث عشر: ٢٠٥ - ٢٢١).

والمنطق، وقضايا العلم، وبعض معضلات الفكر والعقيدة فطوعوها لأساليبهم الأدبية البليغة، وبرعوا ببراعة متناهية في التعبير عنها بأرق الأساليب وأوضحها ...

وهكذا أسهم صدورُ هذا الفن الأدبي أبان هذا القرن في إضفاء مظاهر جديدة واضحة على النثر الفني، حتى عُدَّ هذا القرن بحقّ؛ العصر الذهبيّ للنثر الفني عند العرب.

أما أبرز الملامح الفنية العامة التي يمكن تشخصيها في النثر العربي إبان هذا القرن، فلعلَّ أبرزها ما يأتي:

١- الصنعةُ الفنيةِ والالتزام بالزخارف البديعية:

لقد اندفع أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن إلى العناية الفائقة بصياغة رسائلهم الشخصية، ولم ينساقوا وراء الطبع والفطرة، ومجاراة السليقة إلاّ لِماماً(١).

وهكذا وقف كتابُ الرسائل ينتقون ألفاظهم، ويشذبون تراكيبهم، وراحوا يُجيلون أفكارهم، ويفتنون في معانيهم، ويحككون أساليبهم، ويتروون في صياغتها وتدبيجها، وقد مرّ بنا آنفاً ما ذكره التوحيدي(٢) عن صنيع الصابي من تنقيح ما يحرّرهُ عقب تسويد الرسالة.

ولعلّ أبرز مظاهر الصنعة في رسائل كتّاب هذا القرن: التزامهم المفرط بالسجع وزخارف البديع الأخرى كالطباق والجناس والازدواج والموازنة وغيرها وولعهم الشديد بفنون البيان، كالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية وغيرها لكلفهم المفرط بالوصف، وابتكار المعاني وتشقيقها(٣).

وهكذا يمكن أن نقررّ حقيقة مهمة، تلك هي: أنَّ ما بلغهُ النثر الفني - ولا سيما

---

(١) تراجعُ إشارةُ الثعالبي في اليتيمة ٢٩٣/٤ - ٢٩٤ إلى سرعة البديهية، وصفاء الطبع عند الهمذاني، وقوله فيه: (وكلامهُ كلّهُ عفوَ الساعة وفيض البديهية ...ومجاراة الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع). ويراجع أيضاً ما افتخر به الهمذاني في رسالته إلى الشيخ أبي جعفر الميكالي حين أورد في ثنايا رسالته إليه ثلاثين بيتاً رقيقة من مجزوء الرمل وذكر بعدها يقول: "هذه ... هدية الوقت، وعفو الساعة، وفيض البديهة، ومسارقة القلم وجمرات الجدةّ، وثمرات المدة ومجاراة الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع ومجاوبة الجنان للبنان". ينظر: رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٩٦.

(٢) ينظر: ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي -رسالة في علم الكتابة: ٣٥.

(٣) يراجع ما ذكرهُ الأستاذ زكي مبارك (النثر الفني في القرن الرابع ١٢٧/١) عن إيثار كتاب هذا القرن لفنون البديع، واسرافهم في توشية رسائلهم بفنونه المعروفة..

الرسائل الأدبية - في هذا القرن من تطور ونضج وإبداع، كان ثمرة ذلك الإعداد، وعناية الأدباء الكتّاب بتجويد أساليبهم، وتنميق كلامهم ...

٢- حرصُ الكتّاب على التناسب بين المبنى والمعنى:

لقد عني كتّابُ الرسائل الأدبية في هذا القرن ببناء رسائلهم، وافتنّوا كثيراً في صياغة أساليبها، إلى جانب عنايتهم بمحتوى الرسائل ومضمونها..

وهذا الأمر دفع الكتّاب على العناية بموسيقى الألفاظ وجرسها وصياغة التراكيب ومتانتها ووضوحها، فضلاً عن العناية بجزئيات البناء الفني في الرسائل. ولعل هذا ما حفز كتاب هذا القرن على استخدام التلاوين الصوتية العديدة لإضفاء أكبر قدر من الإيقاع والتناسب النغمي في موسيقى نثرهم.

وإلى جانب عناية كتّاب هذا القرن بالصياغة والأسلوب، فقد عنوا أيضاً بالمعاني وحرصوا على التجديد فيها، كما برعوا في صياغة الأفكار ودقتها وعمقها، ولعل هذا ما يفسّرُ لنا لجوء الكتّاب إلى تلك التلاوين الصوتية وأساليب التعبير الأخرى، لجلاء معانيهم، وبسط أفكارهم[١].

٣- البراعة في التصوير والأغراب في الخيال:

إنَّ حرصَ الأدباء والكتّاب في هذا القرن على ابتكار المعاني الجديدة ورغبتهم في وضوحها وتشقيقها، وإظهارها قوية الدلالة، شديدة التأثير، هو الذي حفزهم على تجويد صورهم، والبراعة فيها، والأغراب في الخيال ولعل هذا أيضاً ما يفسّرُ كثرة استخدامهم لصور البيان في رسائلهم الأدبية، كصور التشبيه والاستعارة والمجاز، وغيرها من حلي البديع المعنوي كالطباق والتورية، وما إليها، بلوغاً لخلق صور جديدة تستوعبُ معطيات الحياة الجديدة المتشعبة، وآفاق الحضارة التي شهدها هذا القرن، وما أفرزته من ثقافات غزيرة وافدة، أغنتْ طاقة اللغة العربية بفيض من المعاني العقلية والفلسفية، وقد كانت تسعف الأدباء والكتّاب في هذا الإبداع والخلق الفني؛ بديهة حاضرة، وحافظة نادرة، وذكاء وقاد، وثقافة واسعة بالعربية ومفرداتها وتراثها ...

٤- نزوع الكتّاب إلى الإفاضة والإطناب:

ومن الملامح الأسلوبية الجديدة التي طغتْ على النثر الفني في هذا القرن

---

(١) يراجع ماوصى به أبو حيان التوحيدي في مقدمة كتابه الإمتاع والمؤانسة ١٠/١ من العناية باللفظ والمعنى واتباع مذاهب أهل البلاغة والإنشاء.

الإفاضة في عرض الأفكار وبسطها والإطناب في إيراد المعاني وتشقيقها.

ولعل أبرز مظاهر هذا الإطناب في الترسل، جنوح الكتّاب إلى الترادف، لإشباع المعنى والإحاطة به وتفصيله وإيضاحه، فضلاً عن التكرار الذي يحقّق جلاء الفكرة وإيضاح المعنى وتأكيده، ومن مظاهره الأخرى أيضاً: الاعتراض، وما نجم عنه في رسائلهم من طول الفواصل بين المتلازمات بالجمل الاعتراضية الطويلة ....

٥- مزجُ المنظوم والمنثور في الرسائل الأدبية:

ومن الظواهر الأسلوبية الجديدة التي شاعتْ في رسائل هذا القرن أيضاً كثرة تضمين الأدباء الكتّاب لشعرهم أو شعر غيرهم من الشعراء القدامى والمحدثين، وإدراجه في ثنايا رسائلهم؛ لِما يحققهُ المنظوم في صلب الرسالة الأدبية من رفد المعنى، ولِما لهُ من ميزة المثل ....

ونظراً لشيوع هذه الظاهرة الأسلوبية في رسائل الكتّاب فأنها كادتْ أن تكون تقليداً فنياً، وجزءاً فنياً من صلب ما يكتبهُ الكاتب، وركناً مهماً في البناء الفني للرسالة الأدبية ...

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أن التزام الأدباء الكتّاب بهذه المظاهر الأسلوبية وبروزها في مكاتباتهم، تتفاوت من كاتب إلى آخر، وتتوقف أيضاً على طريقة الكاتب في الأداء، وعلى ثقافته، وهذا التفاوت بين الكتّاب في التزامهم بهذه الخصائص الأسلوبية هي التي تحدد شخصية الكاتب وأصالته في فنّهِ الإبداعي، وصدق تجربته...

المبحث الأول
الخصائص البنائية والشكلية للرسائل الأدبية
في القرن الرابع

يجدرُ بالباحث، قبل الخوض في الدراسة الفنية لجزيئات البناء والشكل والمضمون في رسائل هذا القرن، أن يقفَ أولاً عند قضية مهمة شغلتْ كثيراً النقاد والمفكرين قديماً وحديثاً، تلك هي قضية الفصل بين (المادة والصورة) أو الشكل والمضمون (اللفظ والمعنى) في العمل الفني أو الأدبي.

وما من ريب في أنَّ أكثر أولئك النقاد القدامى والمحدثين يكادون أن يجمعوا على الصلة الوثيقة بين (المادة والصورة)، أو المعنى واللفظ، ويتفقُ أكثرهم أيضاً على صعوبة الفصل بين المضمون والأسلوب في العمل الأدبي وذهبوا إلى أنهما شيء واحدٌ، ووحدة واحدة .....

فالمفكر والفيلسوف (إفلاطون) مثلاً، ذهب إلى أنَّ الكلمة إنما تعني الفكرة ذاتها، وحقيقتها الخارجية المتمثلة في صورة كلمةٍ على السواء[1].

وقد تبعه في ذلك تلميذهُ الفيلسوف (ارسطو)؛ إذ ذهب إلى أنَّ " الكلام إذا لم يجعل المعنى واضحاً، فإنه لا يؤدي وظيفته الخاصة، كذلك ينبغي ألا يكون وضيعاً، ولا فوق مكانة الموضوع، بل مناسباً لهُ[2]".

وهكذا أكد (أرسطو) الصلة الوثيقة بين (المادة) و (الصورة)، أو (الكلام) و(المعنى)، وأن عملية النطق مستلزمة ضرورة للتفكير.

ولعلَّ أشهرَ من ربط بين اللفظ والمعنى أو الفكرة برباط وثيق من نقادنا القدامى: عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، فقد قرّر عبد القاهر - بعد أن أبانَ عن مدى قيمة عنصر المعنى في النصّ الأدبي، وردَّ على من يقدّمون الشعرَ لمعناه، ويقلّلون من الاحتفال باللفظ -أن الصياغةَ والنظم هما اللذان يجبُ النظر إليهما في الحكم على الشاعر والشعر[3].

وقد قرَّر عبد القاهر - وهذا ما يتماشى مع ما وصل إليه علم اللسانيات الحديث

---

(١) ينظر: الأدب وفنونهُ - د. عز الدين إسماعيل: ٢٧.

(٢) الخطابة لارسطو - المقالة الثالثة: ١٩٦.

(٣) تراجع التفاصيل في: دلائل الاعجاز: ١٦٢ - ١٦٤. (ط المنار ١٣٣١هـ).

من آراء في رمزية اللغة - أنَّ اللغةَ ليستْ مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات[١].

وانطلاقاً من هذا المفهوم، فقد بنى عبد القاهر نظريته في اللغة، فذهب إلى أنَّ الألفاظ في ارتباطها هي التي تكون في القصيدة مثلاً مجموعة الصور التي تنقلُ إلينا الشعور أو الفكرة[٢].

وهكذا ربط عبد القاهر الحرجاني بين اللفظ والمعنى حين قرَّر أيضاً أنَّ الألفاظ لم توضعْ، ولم تستعملْ لتعيين الأشياء المتعينة بذواتها، ثم أشار إلى أنك تطلبُ المعنى، وإذا ظفرت بهِ فاللفظ معك وإزاءَ ناظرك[٣].

ولدى استقرائي المتواضع لفصول الرسائل الأدبية في هذا القرن، توصلتُ إلى أنَّ صدورَ الكتّاب وبلغاءهم كانوا يحرصون على إيجاد التناسب بين عنصري المبنى والمعنى في فصول رسائلهم في تلاحم فني رائع، كما أشرتُ آنفاً.

وقد صرَّح بعضُ أولئك الأعلام المبرّزين من الكتّاب في هذا القرن بهذا الأمر، فأبو حيّان التوحيدي مثلاً، أوصى في مقدمة كتابه (الإمتاع والمؤانسة) بالعناية باللفظ والمعنى، وباتباع أصحاب البلاغة والإنشاء، إذ قال[٤]: (ولا تعشق اللفظ دون المعنى، ولا تهوَ المعنى دون اللفظ، وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء في جانب، فإنَّ صناعتهم يُفتقرُ فيها أشياء يؤاخذُ بها غيرُهم).

ولعل ما يؤكد عناية بلغاء الكتّاب في هذا القرن بموسيقى التراكيب وحرصهم على تناسبها مع الأفكار التي تحتويها نصوص رسائلهم؛ احتفالهم باستخدام التضاد والجناس والازدواج والموازنة والترادف وغيرها من الوان البديع وطرائق التعبير، إذ كان هؤلاء الكتّاب البلغاء يتوخون استعمال تلك الألوان البلاغية لجلاء المعنى في ذهن المتلقي، وتوكيده في نفسه، فضلاً عما تُحقّقهُ من جوانبَ فنية تتمثلُ في تلوين التعبير الأدبي وإثرائه بعنصر الإيقاع والموسيقى.

ولا تختلفُ نظرةُ أكثر النقاد المعاصرين في هذه القضية عما قدمنا من آراء النقاد

---

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: في الميزان الجديد - د. محمد مندور: ١٤٣.

(٢) ينظر: الأدب وفنونه: ١١٥.

(٣) يراجع: دلائل الاعجاز: ٣٤١.

(٤) الامتاع والمؤانسة - المقدمة: ١/١٠.

والمفكرين القدامى آنفاً، فنرى أنّ بعض المذاهب النقدية الحديثة تؤكد بخاصة على وحدة النصّ الشعري، وأنّهُ " كلُّ مكوّن من ظواهرَ متماسكة[١]".

ومن هنا أيضاً، نرى أنَّ بعضَ النقاد يذهبُ إلى أنَّ شكل القصيدة، فضلاً عن المضمون الذي ينصبُّ فيه، تمثّلُ جميعاً نسيج النصّ الشعريّ، وتجسَّدُ بمجموعها خلاصةَ تجارب الشاعر الفنية، وخبراته المتوارثة، وتُعبّرُ عن أحاسيسهِ ومثله...

فالناقد الفرنسيّ (دي جورمون) يرى أنَّ الأسلوبَ والفكرَ شيء واحد، وأنَّ من الخطأ محاولة فصل الشكل عن المادة (المضمون)[٢].

ويوافقُ هذا الرأي قول الناقد (دونالد استوفر)؛ أن القصيدة " يتداخلُ فيها الشكل والمحتوى على نحو لا يمكن معهُ تصوّر كلّ منهما على حدة[٣]".

وهكذا يمكن أن نصل إلى حقيقة مهمة، تلك هي أن الألفاظ والتراكيب - بوصفها جزءاً مهماً من شكل العمل الأدبي - وسيلة مهمة لنقل المعنى، وصياغته أو تصويره، وأنه لاقيمة للشكل والصياغة (الألفاظ والتراكيب) الاّ بالمعنى الذي يجسدانه كما أنّ محتوى العمل الأدبي (الأفكار والمعاني وغيرهما) لا يحيا الاّ بحسن الصورة، وجمال الصياغة، ورشاقة الأسلوب.

وإذن فإن قوةَ التأثير، وجمال النصّ، ليس تابعاً إلى اللفظ فقط، أو إلى المعنى فقط؛ ولهذا ذهب بعض النقاد المعاصرين إلى القول: "وإذا تقررتْ هذه الصلة الوثيقة بين المادة والصورة، أو بين اللفظ والمعنى، فمن المجازفة أحياناً أن تسندَ قوة التأثير، أو جمال البيان إلى أحدهما دون الآخر، فاللفظ وسيلة لنقل المعنى، ولا قيمة له الاّ بمعناه، كما أن المعنى لا يحيا الاّ باللفظ[٤]".

(١) تراجع التفاصيل في كتاب (نظرية البنائية في النقد الأدبي: ١٧٦ وما بعدها).

(٢) تراجعُ التفاصيل في كتاب (النقد الأدبي) - وليم فان أو كونور: ١٠٢ وما بعدها ترجمة: صلاح أحمد إبراهيم.

(٣) وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي: ١٥١.

(٤) أصول النقد الأدبي: ٢٤٧، وينظرُ قريب من هذا الرأي ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف (في النقد الأدبي: ١٦٣) من أنهُ ليس هناك محتوى وصورة، بل هما شيء واحد، ووحدة واحدة، وينظرُ أيضاً ما ذهب إليه الدكتور بدوي طبانة (التيارات المعاصرة في النقد الأدبي: ١٨٤)، إذ أكد وجودَ صعوبة مادية في تقسيم العمل الأدبي إلى عناصر: لفظ ومعنى أو شعور وتعبير، ورأى أنَّ القيم الشعورية والقيم التعبيرية كلتاهما واحدة لا انفصام لها في العمل الأدبي.

وعلى الرغم مما ذهبنا إليه آنفاً من تلاحم أجزاء البناء والشكل والمضمون في العمل الأدبي - بوصفه ضرباً من الفن غايتهُ التأثير والإمتاع - إلاّ أننا سنحاول - وصولاً إلى بناء أحكام نقدية دقيقة ومعلَّلة - تجزئةَ النصّ الأدبي، من خلال الوقوف المتأني عند نصوص الرسائل الأدبية في هذا القرن، إلى عناصره الأساسية، ودراسة تلك الأجزاء الفنية دراسة مستقلة، على الرغم من إيماننا بتواؤم أجزاء نصوص تلك المكاتبات الأدبية، وارتباطها ارتباطاً عضوياً متكاملاً ...

أولاً: الخصائصُ البنائية:

ربما كان الفيلسوف (أرسطو) أقدم من عرض لدراسة موضوع بناء النصّ الأدبي؛ فقد تناول في المقالة الثالثة من كتاب (الخطابة) البناء العام للخطبة في عصره، بأنواعها الثلاثة المعروفة[١].

وقد أشار (أرسطو) بإيجاز دقيق إلى أنَّ الكلام - يعني النصّ الفني الذي بحث فيه وهو الخطبة - يتضمَّنُ جزئين أساسيين هما:

١)العرض (أي الموضوع الذي يبحث فيه).

٢)الدليل (وهو البرهنة التي تسبقُ الموضوع وتواكبهُ، إذ لا يُذكرُ الشيء الاّ من أجل البرهنة عليه).

ثم ألحق (أرسطو) بهذين الجزئين الأساسيين في النص: الاستهلال والخاتمة؛ إذ لم يعدّهما من أجزاء النصّ الاّ عندَ الضرورة يقول[٢]" وهكذا ليس ثمَّ من ضرورة الاّ للقضية والدليل، فهذا هو الملائم حقاً للكلام، وقصارانا السماح بـ: (الاستهلال، والعرض والدليل، والخاتمة.)

ويتواصلُ هذا الاهتمام بدراسة بنية النصّ الفنيّ في العصر الحديث إذ كرَّست العديدُ من المناهج النقدية الحديثة، وفي مقدمتها المنهج الموضوعي (الفني)، والمنهج البنيوي، عنايتهما على دراسة النصّ الفني من الداخل، دونَ أيِّ اعتبار لمؤثر خارجي. وأصبحتْ دراسةُ النصّ هي مدار البث الأدبي الذي ينصبُّ على دراسة السياق البنائي إلى جانب السياق الأسلوبي، فضلاً عن أنّ بعض تلك المناهج الحديثة - كالبنيوية مثلاً - بدأتْ تنظرُ في هذا الجانب انطلاقاً لإرساء مفاهيمها النظرية في هذه القضايا

---

(١) تراجع التفاصيل في كتابه: الخطابة - المقالة الثالثة (في أجزاء الكلام): ٢٣٤ - ٢٥٦.

(٢) الخطابة - المقالة الثالثة: ٢٣٤.

الدقيقة، فنظرتْ إلى (البنية) مثلاً على إنها " كل مكون من ظواهر متماسكة يتوقف كل منها على ما عداه، ولا يمكن أن يكون ما هو الاّ بفضل علاقته بما عداه "[١].

لقد عني كثير من كتّاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، بالمبنى العام لرسائلهم فضلاً عن حرصهم على ارتياد الصور الفنية النادرة، بلوغاً لفتق أكمام المعاني المبتكرة - وهذا ما تجلى بوضوح في حرص بلغاء الكتّاب وصدورهم في هذا القرن، على التناسب بين المبنى والمعنى - كما مرَّ بنا آنفاً - في ترسلهم من خلال عنايتهم بجرس الألفاظ، وموسيقى التراكيب، وتآلفها مع المعاني والأفكار في تلاحم فنيّ متميز ...

وقد دفعهم هذا الحرصُ في تجويد أساليبهم في ترسلهم، إلى العناية بصياغة استهلال الرسائل وخواتمها وبخاصة حين يتكاتب صدور الأدباء مع بعضهم، ويبالغون في تجويد خطوطهم، وتدبيج أساليبهم، وتنميق كلامهم ويبالغون أيضاً في الاحتراز من الوقوع في مهاوي الزلل، وعيوب الصنعة، احتراساً من الشماته بالعثرة، ومن أن يرمى فيصمى بالنقد اللاذع، أو التجريح والتشنيع[٢].

وكان كتّاب الرسائل الأدبية في هذا القرن بخاصة، كثيراً ما يصرّحون في رسائلهم المتبادلة فيما بينهم، بإعجابهم بهوادي الرسائل الأدبية التي تصل إليهم، وأعجازها، أي ابتداءاتها وخواتمها، فضلاً عن رقةِ ألفاظها وبلاغة فصولها.

كتب أبو الفضل الميكاليّ في فصل من رسالة جوابية لهُ إلى الثعالبي[٣]:

" وصل كتابُ مولاي وسيدي، أبدع الكتب هواديَ وأعجازا، وأبرعها بلاغةً وإعجازاً..... ".

وكتب الصاحب بن عباد في وصف كتاب ورد إليه[٤]" وصل كتابُ القاضي، فاعظمت قدر النعمة في مطلعه، وأجللتُ محلَّ الموهبة بموقعه، وفضضتهُ عن السحر الحلال، والماء الزلال، وسرَّحتُ الطرفَ منهُ في رياض رقَّتْ حواشيها، وحلل تأنق

(١) نظرية البنائية في النقد الأدبي: ١٧٦.

(٢) يراجع ما ساقه التوحيدي (رسالة في علم الكتابة: ٤٧) عما دار بين أبي الوفاء المهندس والوزير ابن سعدان، واستعانة الأخير بالصابيّ في الكتابة إلى الوزير الصاحب واحترازه من الوقوع في الخطأ والزلل - مع ما وصف بأنَّ خطَّهُ كان في الغاية، وبلاغته في النهاية - خوفاً من تتبع الصاحب لزللهِ، وشماتته بعثرته ...

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب: ١٦٨/١ - ١٦٩.

(٤) ديوان المعاني: ٨٦/٢.

واشيها، فلم أتجاوزْ فصلاً الاّ إلى أخضرَ منهُ فصلاً، ولم أتخط سطراً الاّ إلى أحسنِ منهُ نظماً ونثراً".

ولقد تباينت الرسائل الأدبية إبانَ هذا القرن في مبناها، ورصف فصولها: وتوليف أجزائها، واتبع الكتّاب البلغاء في ذلك أساليب عديدة متباينة، تبعاً لموضوع الرسالة الأدبية وفحواها، وما تبع ذلك أيضاً من طول الرسالة وسعة حجمها، أو قصرها وانحسار موضوعها الذي انصبَّتْ عليه..

ومن الاستقراء الدقيق لمجاميع الرسائل النثرية التي وصلت إلينا، فضلاً عمّا تناثر منها في بطون المصادر الموثوقة، يصلُ الباحث إلى حقيقة مهمة تلك هي: أنَّ هناك تفاوتاً واضحاً في هذه الرسائل من حيث طولها وقصرها، ويمكنُ تصنيفها، تبعاً لذلك إلى ضربين متميزين:

الضربُ الأول: رسائل أدبية قصيرة:

وقد وصل إلينا من هذا الضرب من الرسائل طائفة قصيرة جداً، لم يتجاوز طول بعضها أسطراً معدودة. ولم تتضحْ في هذه الرسائل القصيرة معالم البناء الفني للنص الأدبي؛ لأنها كانتْ منصبَّة على معالجةِ فكرةٍ واحدة، أو موضوع واحد قصير[1].

وهنا طائفة أخرى من هذا الضرب من الرسائل الأدبية، أكثر طولاً من رسائل الطائفة السابقة - وهي أكثر ماوصل إلينا من رسائل هذا القرن - وقد تميزتْ هذه الرسائل القصيرة أيضاً بوحدة الموضوع، الاّ أنَّ كثيراً من نماذجها قد اتضح فيه بعضُ

---

(١) تراجع نماذج من هذه الرسائل الأدبية القصيرة في مجموعتين من الرسائل لكاتبين كبيرين هما: الخوارزمي والهمذاني. تراجع رسائل أبي بكر الخوارزمي القصيرة في الصفحات الآتية: ١٢، ٣٢، ٣٣، ٣٧، ٨٢، ٨٣، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ١١٤، ١١٥، ١١٧ ١٢٣ ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٢، ١٤٦، ١٥٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٩١ ١٩٥، وتراجع هذه الرسائل القصيرة أيضاً في رسائل بديع الزمان الهمذاني في الصفحات الآتية: ١١، ٢٦، ٢٧، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠ ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٦١، ١٦٢، ١٨١، ١٨٢، ١٨٥ ١٨٦، ١٨٩، ١٩٠، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٥ ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٨٥، ٢٨٦ ٢٨٨، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٧٥، ٤٠٦، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٣، ٤٧١، ٤٧٣ ٤٨٤، ٤٩١، ٤٩٢ ٥٠١، ٥١٠، ٥١١، ٥١٥، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٦، ٥٢٧ ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٣.

معالم البناء الفني كالاستهلال والخاتمة ...

الضربُ الثاني: رسائل أدبية طويلة:

وهـي الرسائل التي تميزت بطول فصولها، وتنوع بنائها، إذ بلغ طولُ بعضها أكثر من خمس عشرة صفحة من القطع المتوسط، أو أقلَّ من ذلك بقليل[١]، ومجموع ما وصل إلينا من هذه الرسائل الطويلة، أقل بكثير من رسائل الضرب الأول[٢].

وقد اتضح في هذا الضرب من الرسائل الأدبية أكثر ملامح البناء الفني للنصّ الأدبي (النثري)، فضلاً عن خصائص الصياغة والشكل، وخصائص المضمون الأخرى.

---

(١) لعلَّ أشهر نماذج هذا اللون من الرسائل (الطويلة) لكتاب هذا القرن المبرزين:

*رسائل أبي بكر الخوارزمي رسالته إلى أبي الحسن البديهي - وهي أطول رسائله - وقد بلغت حوالي ست عشرة صفحة (رسائله ٢٣٥ - ٢٥٠)، ورسالته أيضاً إلى جماعة الشيعة بنيسابور (رسائله ١٦٠ - ١٧٢).

*رسائل بديع الزمان الهمذاني: رسالته إلى القاضي علي بن أحمد يشكو فيها أبا بكر الحيري: (رسائله: ١٦٢ - ١٧٥)، رسالته إلى الشيخ أبي الطيب سهل بن محمد (رسائله: ٤٣٢ - ٤٤٢).

*رسالة الأمير قابوس بن وشمكير الفلسفية في وصف العالم وذكر تكونه - وهي أطول رسائله وقد بلغت حوالي اثنتي عشرة صفحة، وبلغت مقدمتها اثنتي عشرة قرينة. (كمال البلاغة: ٨٤ - ٩٥)، رسالته إلى خاله الاصبهبذ في العتاب. (كمال البلاغة: ٥٣ - ٥٧).

*رسالة الشريف الرضي إلى بعض اصدقائه يعاتبه، وقد بلغت حوالي عشر صفحات (رسائل الصابي والشريف الرضي: ١٠٣ -١١٢) رسالته إلى الصابي يعزيه: ٦٣ - ٧٠ وغيرها.

*رسالة أبي حيان التوحيدي إلى أبي الوفاء المهندس في شكوى البؤس (الامتاع والمؤانسة ٣/ ٢٢٥ - ٢٣٠)، ورسالته إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد الجوابية يعتذر فيها عن صنيعه في إحراق كتبه. (معجم الأدباء: ١٥/ ١٦ - ٢٦).

*رسالة أبي اسحاق الصابي (الشهيرة بعهد التطفل) الهزلية: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤/ ٤٠٤ - ٤١٠. ورسائل كثيرة غيرها ....

*رسالة الصاحب بن عباد في تعزية أبي محمد العلوي: رسائل الصاحب بن عباد - الباب العاشر (" في التعازي): ١٤٤ - ١٥١، ورسائل كثيرة مشهورة غيرها ....

(٢) مما يدلّلُ على إيثار أدباء هذا القرن للاطالة في كتابة الرسائل فيما بينهم عتبهم على من يوجز في كتابه رسالته، وعدَّ ذلك تقصيراً بحقِّ من يكتبُ إليه من الاخوان، ومن علامات الملال ودلائل التغيير! ينظر، مثلاً، ما ورد في رسالة طريفة للصاحب إلى بعضهم يعاتبه في صغر كتابه إليه: "ورد كتاب حسبته يطير من يدي لخفته، ويلطف عن حسي لقلته وعهدي .... الخ. تروي إذا سيقتْ، وتجزل إذا أعطيت، فما الذي أحالك، وبدَّل حالك؟ أملال أم كلالٌ أم إقلال؟ ...). ديوان المعاني:: ١/١٦٤.

لقد شخصتْ بوضوح في هذه الرسائل الأدبية الطويلة بخاصة، فضلاً عن كثير من الرسائل القصيرة، أبرز جزئيات البناء الفني، التي سنلمُّ بدراستها، وتحليل قيمتها الجمالية والفنية، بلوغاً إلى رصد قيمة هذه الرسائل، وبيان جانب مهم من خصائص الصياغة والبناء الفني لها في هذا القرن، والتي غدت نماذج أدبية شامخة لأصالة النثر العربي في أزهى عصوره الأدبية.

أما أهمّ جزئيات هذا البناء الفني للرسائل الأدبية النثرية في هذا القرن فهي:

-١- الاستهلال أو الابتداء في الرسائل الأدبية:

لقد عني كتّابُ الرسائل الأدبية في هذا القرن، بصدور رسائلهم وابتداءاتها؛ لأنها أول جزء من الرسالة يصلُ إلى المتلقي، ولذلك حرص الأدباء الكتّاب على أن يكون هذا الاستهلال جميلاً، ومؤثراً، ومستساغاً و" لأنَّ حسنَ الافتتاح - كما قال ابنُ رشيق القيرواني[١] - داعية الانشراح، ومطيّةُ النجاح".

وتأتي أهميّة الاستهلال في الرسائل الأدبية أيضاً، من أنهُ يدلُّ على ما بعده من فحوى الرسالة أو موضوعها، وهو - كالمطلع في القصيدة، والافتتاحية في الموسيقى - يمهِّدُ لِما يأتي بعده، أو هو - كما عبَّر عنهُ ابن رشيق القيرواني أيضاً - (...... استدراج إلى ما بعده)[٢]، إذ يهيئ المتلقي لمواصلة القراءة، ويستثير انتباههُ لمتابعة ما هو فيه ...

وكان أرسطو أقدم من عرض الدراسة (الاستهلال) في الخطبة في باب (أجزاء الكلام) عندما تصدّى لدراسة الخطابة بأنواعها المعروفة في عصره ...

عرّف أرسطو الاستهلال بأنه بدءُ الكلام، ويقابلهُ في الشعر (المقدمة أو المطلع)، وفي فنّ العزف على الناي (الافتتاحية)، ورأى أن هذه (الابتداءات) كلها بدايات، وكأنها تفتحُ السبيل إلى مايتلو[٣].

وقد ركز أرسطو على الجانب الجمالي في هذا الجزء من الكلام أو الخطبة إذ قرنه (بالافتتاحية)، أو اللحن الجميل لعازف الناي! يقول أرسطو[٤]: "والافتتاحية شبيهة

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٣٥٥.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٣٦٤.

(٣) تراجع التفاصيل في كتاب: الخطابة: ٢٣٥.

(٤) المصدر نفسه: ٢٣٥.

بالاستهلال في النوع البرهاني، ذلك أنَّ عازفي الناي إذا عرفوا لحناً جميلاً، وضعوه في افتتاح المعزوفة كأنه لحنه، وينبغي في الأقوال البرهانية أن يجري التأليفُ هكذا: نبدأ بالتعبير عما نقصدُ إليه، ثم نسترسلُ، وكلُّ الخطباء يلتزمون هذه القاعدة".

ولعل أهمية ما سقناه لأرسطو في الاستهلال، تكمن في أنه اصبح مصدر الهام لكثير من النقاد العرب القدامى الذين بحثوا في بناء النصّ الأدبي، ودراسة أجزائه الفنية، وأساساً متيناً دعموا به آراءهم في هذا الجانب.

ولم يكن لكتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، طريقة محدّدة في استهلال مكاتباتهم - كما درج عليه كتّابُ الرسائل الديوانية الرسمية(١) في العصور الإسلامية وإنما كانت ابتداءاتهم كثيرة ومتنوعة(٢) وغالباً ما كانت ترتبط بموضوع الرسالة أو فحواها أو بمقام المكتوب إليه، وطبيعة منزلته السياسية والاجتماعية.

أما أهمُّ أنواع الاستهلال التي صدّر بهِ كتّابُ الرسائل الأدبية مكاتباتهم في هذا القرن، فيمكن رصد أهمّها على النحو الآتي:

- أ - الاستهلال بالدعاء أو التحميد:

وهو من الابتداءات التي شاعت كثيراً في صدور الرسائل الأدبية -ولا سيما المكاتبات الإخوانية - في هذا القرن. وقد جعل القلقشندي الاستهلال بالدعاء الأسلوب الأول في المكاتبات الدائرة بين أعيان الدول(٣).

وقد أشار القلقشندي أيضاً في موضع آخر من كتابه، إلى تطور صور الأدعية في هذا القرن، إذ جنحت إلى الإجلال والإعظام - جرياً على عادة الفرس - ثم رتبوا تلك

---

(١) لقد أفاض هلال الصابي في شرح رسوم المكاتبات الرسمية، ومن بين تلك الرسوم التي وقف عندها: التصدير في الرسائل (الاستهلال)، تراجع التفاصيل في: رسوم دار الخلافة: ١٠٧ - ١٠٨، ثم فصَّل في هذا الموضوع أيضاً: القلقشندي في: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٦/ ٣٢٧ وما بعدها.

(٢) لعل أكثر مَن فصَّل في رسوم المكاتبات الإخوانية، وبخاصة افتتاحياتها، وخواتمها صاحب صبح الأعشى، حيث وقف عند رسوم الافتتاحيات في الرسائل الإخوانية قديماً، وأرجعها إلى ضربين (تراجع التفاصيل في: ٨/ ١٢٦ ثم فصل القلقشندي في رسوم إخوانيات أهل المشرق الإسلامي، فخصَّصَ لها اربعة (مهايع)، جعل المهيع الأول (في صدور الابتداءات)، وقد أرجعها إلى سبعة أساليب. (تراجع التفاصيل في صبح الأعشى: ٨/ ١٢٧).

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٨/ ١٣٥.

الأدعية على مراتب متفاوتة بحسب مقام المكتوب إليه يقول[١]: "وقد تقدّم في الكلام على مقدمات المكاتبات ...أنَّ الأدعية كانت في الزمن الأول تستعمل فيما يتعلق بأمر الدين، مثل قولك: أكرمه الله وحفظه الله ووفقه وحاطه، وما أشبه ذلك فعدل عنها قصداً للإجلال والإعظام إلى الدعاء بإطالة البقاء، وإدامة العزّ، وإسباغ النعمة، ونحو ذلك، مما يتنافس فيه أبناء الدنيا، جرياً على عادة الفرس، ثم رتبوا الدعاء على مراتب فجعلوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ....".

وكثيراً ما كان الاستهلال بالدعاء يأتي مقترناً مع موضوع التهاني وأحياناً قليلة يأتي مقترناً مع موضوع التشكر والتشوق[٢].

كتب أبو إسحاق الصابي إلى عبد العزيز بن يوسف يهنئهُ بالنوروز[٣] "اطال الله بقاء مولاي الأستاذ، وأسعدهُ بنيروزه الوارد عليه وأعاده ألف عام إليه وجعله فيه وفي أيامه كلها معافى سالماً فائزاً غانماً مسروراً محبوراً محروساً موفوراً مختوماً لهُ ببلوغ الآمال، مطروفاً عليه عين الكمال ...".

وكتب أبو الفضل ابن العميد إلى عضد الدولة يهنئه بولدين ولدا له[٤]: "أطال اللهُ بقاء الأمير الأجلّ عضد الدولة، دام عزّه وتأييده، وعلوّهُ وتمهيده، وبسطتهُ وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزيده، وهناه ما اختصه به على قرب الميلاد ...".

ومن جيد الأدعية، ما استهل به الوزير الصاحب بن عباد إحدى رسائله في التهنئة لأحد الأمراء بعيد النيروز[٥]: "أسعد اللهُ سيدنا بالفصل الجديد، والنيروز الحميد، سعادة متصلة المادة، حافظة لجمال العادة، مؤذنةً بظاهر العزّ والبسطة، وتزايد السرور والغبطة ....".

وقد ساق القلقشندي[٦]نماذج كثيرة جداً من رسائل التهاني التي استهلتْ بالدعاء

---

(١) المصدر نفسه ١٢٧/٨ - ١٢٨، وينظر: الحضارة الإسلامية - متز: ١/ ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) تراجع من نماذج هذه الأدعية، ما ورد في رسالة الصابي إلى الصاحب - يتيمة الدهر ٢٩١/٢، ورسالة الخوارزمي إلى أبي محمد العلويّ، وقد استهلها بالدعاء (رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٧ - ١٩.

(٣) ديوان المعاني: - العسكري: ٩٩/٢.

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب: ٤/ ١١٢٠ - ١١٢١.

(٥) ديوان المعاني: ٢/ ٩٩.

(٦) ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٩/ في مواضع كثيرة متفرقة.

والتحميد لأبي الفرج الببغاء، ومن تلك الاستهلالات ما ورد في إحدى رسائله في التهنئة بالعود من الحج[١].

" جعل اللهُ سعيك مشكورا، وحجك مبرورا، ونسكك مقبولا، وأجرك مكتوبا، وأجزل من المثوبةِ جزاءَك، ومن عاجل الأجر وآجلهُ عطاءَك ....".

وللاستهلال بالدعاء صورةٌ أخرى، وهي أن يتوسط الدعاء صدر الرسالة، بعد الابتداء بكلام مناسب للحال، وربما يردفُ بالحمد.

وقد عدَّ القلقشندي هذا اللون من الابتداءات أسلوباً ثانياً من أنواع استهلالات المكاتبات الإخوانية في هذا القرن[٢].

ومن نماذج هذا اللون من الابتداءات، ما ورد في رسالة لبديع الزمان إلى الإسفراييني[٣] "كتبتُ - أطال الله بقاء الشيخ الجليل السيد، وأدام علوَّهُ وتمكينه عن سلامة - والحمدُ لله ربّ العالمين، وصلاتهُ على محمد وآله وسلم ...".

وقد يتوسط الحمد وحدهُ دون دعاء، بعد ابتداء مناسب في صدر الرسالة الأدبية، من ذلك ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزمي إلى كاتب خوارزم شاه[٤]: "كتابي، وأنا بين محنةٍ قد أدبرتْ، ونعمة قد أقبلتْ، وولِيّ قد ملك، وعدوّ قد هلك، والحمدُ لله الذي ابتلى ثم أبلى فأنعم، وصلى اللهُ على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين...".

وقد استُهلَّتْ بعضُ الرسائل الأدبية التي انصبَّتْ على التهاني والثناء؛ بالتحميد دونَ الأدعية، من ذلك ما ورد في أحدى رسائل أبي هلال العسكري[٥]: "الحمدُ لله الذي وفّر على الأنام المحاسن، واكتنفها بالميامن، وبسط بالخير أيديها وأفاض بالإحسان واديها .....".

وقد شاع هذا اللون من الاستهلال كثيراً في الرسائل الديوانية (الرسمية) وبخاصة في رسائل أبي إسحاق الصابي[٦] وندر وروده في المكاتبات الأدبية.

---

(١) المصدر نفسه: ٩/ ٣٢ - ٣٣.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٨ / ١٣٥.

(٣) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٨ - ١١.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٥) ديوان المعاني: ٩٨/٢.

(٦) إن بعض تلك الاستهلالات بالحمد للصابي لم ترقْ بعض النقاد القدامى وعابوها، من ذلك مثلاً، =

- ب - الاستهلال بالشعر:

لقد درج كثير من الأدباء الكتّاب في هذا القرن على استهلال رسائلهم الأدبية - ولا سيما الإخوانية - بالشعر العذب الرصين على سبيل الحكمة والمثل، ولعلَّ أشهر من عُرف بهذه الظاهرة الفنية في صدور رسائله؛ أبو بكر الخوارزمي(١) وبديع الزمان الهمذاني(٢) اللذان شهرا بسعةِ ثقافتهما، والمامها بالتراث العربي القديم والمحدث.

وغالباً ما كان استهلالُ الرسالة بالشعر يوطئ لفحواها، ويهيئ المتلقي للاصغاء والمتابعة، فابو بكر الخوارزميّ برع كثيراً في التمهيد لعتابهِ لصديقه (الطرحودي)، وتغيّره عليه، بهذا الاستهلال الطريف، إذ خاطبهُ بقوله(٣): [من الطويل]:

فــلا تــرتفعْ عــنّا لــشغلٍ وليــته ... كما لـم يُصغَّرْ عندنا شأنك العزْلُ

ومن الاستهلالات بالشعر الجميل، على سبيل المثل، والتمهيد الناجح لفحوى موضوع الرسالة أيضاً، ما استهلَّ به الخوارزمي رسالته إلى الوزير بالحضرة - وكان قد بالغ في الإحسان إليه(٤):] من الكامل]

ماأقــربَ الأشــياء حــينَ يــسوقُها ... قــدرٌ، وأبعــدَها إذا لــم تقــدرِ

ومن روائع استهلالات الخوارزمي بالشعر القديم أيضاً، ما ورد في رسالته إلى

ما أخذهُ ابن الأثير (المثل السائر ٣/ ١٠٩) عليه في رسالة لهُ عن الطائع بعد القضاء على ثورة الأتراك عام ٣٦٤ هـ (تراجع الرسالة في المختار من رسائل الصابي: ١٨ - ١٩)، فقد استهجن ابنُ الأثير التحميد الذي استهلَّ به الصابي هذه الرسالة وعدّها غير منسجمة مع المناسبة التي قيلتْ فيها، ورأى أنها تصلحُ أن توضعَ في صدر مصنَّف في أصول الدين، وقد ردَّ هذا الاستهجان ابنُ أبي الحديد في كتابه (الفلك الدائر: ٢٩٧ - ٢٩٩).

(١) ينظر: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٦ - ٢٧ (رسالته إلى أبي الحسن الطرحودي) ٢٨ (رسالته إلى وزير قابوس): ٤٤ - ٥٠ (رسالته إلى أبي محمد العلوي): ٥٨ - ٦٠ (رسالته إلى أبي الحسن الحكميّ): ٢١١ - ٢١٣ (رسالته إلى قاضي سجستان).

(٢) ينظر: رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٩٦ وما بعدها (رسالته إلى أبي نصر الميكالي) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣٠٩/١ -٣١٠، ١٥٧ (رسالته إلى ابن مسكويه): ٢١٢ وما بعدها (رسالته إلى أبي عامر الضبي)، زهر الآداب: ٢/ ٥٠٨ - ٥٠٩، ٣٦٥ (رسالته إلى محمد بن إبراهيم الشاري)، ٣٦٧ - ٣٦٨ (رسالته إلى أبي القمر بن شاه) وغيرها ...

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٦ - ٢٧.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٨٩.

قاضي سجستان حين نكبةُ أميرُها، إذ جاء الاستهلال مناسباً ومهيئاً ذهن السامع لموضوع الرسالة، ومجلياً عن موقف الكاتب ومشاعره الصادقة إزاء ماحلَّ بالقاضي، وتجلّده إزاء الشامتين[١]:] من الوافر]

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناس كلاكلهُ أناخ بآخرينا
فقلْ للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

ونظيرُ هذه الاستهلالات الرصينة بالشعر الجزل؛ مانتلمسهُ كثيراً في رسائل الهمذاني، ومن تلك الابتداءات التي مهَّد بها لفحوى الرسالة، ماجاء في مكاتبته إلى الأمير أبي نصر الميكالي يعاتبه[٢] [من الطويل]

لئن ساءَني أن نلتني بإساءَةٍ لقد سرَّني أني خطرتُ ببالكَ

ويتضحُ جلياً روعة استخدامه للتضاد بين (ساءَني وسرَّني) في البيت، إذ إنهُ صوَّر بدقة تأرجحهُ بين ودّهِ ووفائه للأمير، وبين جنوح الأمير عنه. وهكذا أبدع الهمذاني في توظيف الطباق ليزيد المعنى جلاءً، والفكرة وضوحاً ومضاءً.

ومن رسائل الهمذاني الشهيرة التي استهلَّت بالشعر القديم الجزل الرصين، ما كتبهُ إلى ابن مسكويه، وقد أوقع بينهما بعضُ الوشاة، وقد جاء الاستهلال مناسباً لفحوى الرسالة، ومثيراً لانتباه المتلقي[٣] [من الطويل]

"وياعزُّ إنْ واشٍ وشى بيَ عندكم فلا تمهليه أن تقولي لهُ مهلا
كما لو وشى واشٍ بعزَّةَ عندنا لقلنا: تزحزح، لا قريباً ولا أهلا

بلغني - أطال اللهُ بقاءَ الشيخ - أنَّ قيضة كلب وافتهُ بأحاديثَ لم يعرِها الحقُّ نوره ولا الصدق ظهوره ...".

ومن روائع الاستهلالات بالشعر لبديع الزمان أيضاً؛ ما مهَّد بهِ لأحدى رسائله الإخوانية في بث الأشواق، إذ كتب يقول[٤] [من الكامل]

---

(١) المصدر نفسه: ٢١١.

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٩٦، وتراجع الرسالة في زهر الآداب: ١/ ٣٠٩ - ٣١٠.

(٣) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٥٧ وما بعدها، وقيضة كلب: أراد بها رجلاً أو جماعة وصفهم بالحقارة والخسة هم الذين وشوا به عند صديقه، والبيتان لكثير عزّة وهو مشهور.

(٤) المصدر نفسه: ٤٥٨، والبيت الثاني قديم وقد غيّر الهمذاني عجزه وأصله قوله :

حُثوّا المطيَّ فهذه نجدُ غلبَ الهوى وتطلَّعَ السعدُ

وقد برَّحَ الشوقُ برحاً، لا أستطيعُ لهُ شرْحا، وعلى الوجدُ غلياً لا يردّهُ صبرٌ، ولا يسعهُ صدر: [من الوافر]

وأبرحُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دنت الديارُ عن الديار ..."

- ج - الاستهلال بصيغ شائعة مثل: كتابي، كتبت وغيرها:

لقد كان كتابُ الرسائل في عصور الإسلام الأولى يستهلون مكاتباتهم باسم المرسل فالمرسَل إليه، ثم يشفعُ ذلك بالسلام، فالحمد، ثم التخلص بفصل الخطاب (أما بعدُ) إلى فحوى الرسالة أو موضوعها[١].

وكان من الكتّاب من يبدأ رسالته أولا بذكر المرسَل إليه، تفخيماً لأمره، وتعظيماً لشأنه، وقد عدَّ القلقشندي[٢] هذه الأساليب من الاستهلالات للرسائل من الرسوم الشائعة في مكاتبات عصور الإسلام الأولى.

وفي القرن الرابع تطور هذا الضرب من الاستهلال الذي شاع فيه ذكر اسم المرسل أو المُرسل إليه في صدر الرسالة، إلى ذكر الضمير الذي ينوب عن ذلك الاسم، مضافاً إليه لفظ (كتاب)، وهكذا شاع بين أكثر الكتّاب في هذا القرن استهلال رسائلهم بصيغة (كتابي) أو (كتبتُ) أو (كتبنا). وما إلى ذلك من الصيغ الأخرى التي تضارعها ...

ولعل صيغة (كتابي) أكثر أساليب الاستهلال شيوعاً في رسائل هذا القرن[٣]

=

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

وحثّوا المطيّ: أي حضها على السير لتسرع، والمطيّ كل ما يمتطى أو يركب من الدواب.

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي: ١٤٢ وما بعدها.

(٢) تراجع التفاصيل في: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٢٦/٨ - ١٢٧.

(٣) لدى استقراء بعض مجاميع الرسائل لأعلام الكتّاب في هذا القرن، أحصيت للخوارزمي مثلاً أكثر من خمس عشرة رسالةً استهلها بـ (كتابي)، بينما استهل أكثر من خمس رسائل بـ (كتبت)، واستهلّ بعضها بصيغة (بلغني)، وكانت أكثر تلك الاستهلالات يردفها بالجمل الاعتراضية بينما استهلَّ بديعُ الزمان حوالي (٤٦) رسالة بصيغة (كتابي)، و(٧) رسائل بـ (كتبتُ) وقد شاعت هذه الصيغ كثيراً في رسائل الوزير الصاحب أيضاً، ينظر الباب الثاني عشر (في المدح والتعظيم) من مجموع رسائل الصاحب بن عباد: ١٦٣ - ١٧٣ حيث استهلَّ جميع رسائل هذا الباب بصيغة

=

وكان بلغاء الكتّاب غالباً ما يردفون هذه الصيغة بجملة اعتراضية دعائية، أو تعبير (عن سلامة) أو غير ذلك، ثم ينتقل الكاتب إلى فحوى الرسالة أو موضوعها الرئيس.

لقد زخرتْ مجاميعُ رسائل بلغاء الكتّاب في هذا القرن - كبديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي - بعشرات الرسائل الأدبية التي استهُلّتْ بهذه الصيغ التعبيرية، بينما خلتْ مجموعة رسائل الأمير قابوس التي جمعها (اليزدادي) في كمال البلاغة، من الابتداءات بهذه الصيغ المتداولة بين كتّاب هذا القرن.

- د - استهلالاتٌ أخرى:

وهناك أساليب أخرى في استهلال الرسائل الأدبية في هذا القرن، لجأ إليها الكتّاب، تبعاً لِما يقتضيه موضوع الرسالة أو فحواها، فقد ولج بعضُ الكتّاب إلى غرضهم في الرسالة دون استهلال، أو تقديم[(١)]، كما نلحظ ذلك، مثلاً في بعض رسائل أبي بكر الخوارزمي[(٢)]، وفي عدد من رسائل الأمير قابوس بن وشمكير أيضاً[(٣)].

أما الرسائل الجوابية[(٤)] فقد استهلَّها أكثر الكتّاب في هذا القرن بالصيغ والتعابير الآتية: (وصل كتابك)، أو (وصلتْ رقعتك)، أو (ورد عليَّ)، أو (ورد كتابُ الحاكم)، أو (فهمتُ ما ذكره الشيخ في كتابه[(٥)]، وغير ذلك.

وهناك استهلالات أخرى ندر استعمالها في صدور الرسائل الأدبية في هذا

=

(كتابي) وتراجع أيضاً الأبواب الأخرى من رسائله.

(١) سبق أن أشرنا إلى أنَّ الفيلسوف (أرسطو) لم يعدَّ (الاستهلال) من أجزاء الكلام الجوهرية، ولذلك رأى أنه يمكن الاستغناء عنهُ في الخطبة، يقول: "إنَّ الوظيفة الخاصة والجوهرية للاستهلال هي أن يبيّن ما هي الغاية أو الغرض من الخطبة، ولهذا ينبغي إلاّ يُستخدم إذا كان الموضوع واضحاً تماماً، أو غير مهمّ ...)(الخطابة: ٢٣٩).

(٢) تراجع هذه الرسائل في مجموع رسائل الخوارزمي: رسالته إلى المكندري: ٢١ - ٢٢ رسالته إلى صاحب ديوان الحضرة: ٢٢ - ٢٤، رسالته إلى صاحب الوزير ابن عبّاد: ٥٢ رسالته إلى أردهل - وكان قد ورد عليه خبر علّتِهِ -: ٧٢ - ٧٣، وغيرها.

(٣) تراجع بعض رسائل الأمير قابوس التي خلتْ من الاستهلال في: كمال البلاغة: رسالته إلى ابن العتبي في تأخر الجواب: ٣٤، ورسالة أخرى إليه في عود الرسول: ٣٦ رسالته إلى ابن العميد: ٣٨، ورسالته إليه أيضاً في مدح نثره: ٤٢، وغيرها.

(٤) يراجع عن الاستهلال في رسوم الكتب الجوابية: صبح الأعشى: ٨/ ١٣٩ - ١٤٠.

(٥) ينظر: مثلاً رسائل الخوارزمي: ص ٣٢ - ٣٨، ٥١، ٥٤، ٦٦، ٧٩، ٨٦، ١٥٤ وغيرها.

القرن، كافتتاح الرسالة بالبسملة[١]، أو (ليت شعري)[٢] أو الاستهلال بـ (فصل الخطاب)، أما بعدُ[٣]، وما إلى ذلك من استهلالات أخرى متفرقة.

- ٢ - عرض الرسالة:

العرض في أي عمل أدبيّ هو جوهرهُ، و الأساسُ فيه، وهو أيضاً الجزء الذي حفز الأديب الفنان لإنشاء عمله الأدبي، ومن هنا، فإنه كثيراً ما يُقرنُ بالادلّة لتوكيده واثباته، وغالباً ما يمهَّدُ لهُ بتوطئة مناسبة لإيضاحه، وكثيراً ما يُعنى أيضاً بوضع خاتمة له، لأيجازه، وتحديد ابعاده..

ولعل هذا ما يُفسِّر عناية الفيلسوف (أرسطو) - عند دراسته وتحليله لأجزاء الكلام في الخطبة[٤] بهذا الجزء الفني من الكلام، إذ إنهُ عدَّ (العرض) أهمَّ أجزاء العمل الفني (الخطبة)، وذهبَ إلى أنهُ يمكنُ الاستغناء عن بقيّة أجزاء الكلام - عدا الأدلة التي تسبقُ العرضَ وترافقهُ وتعضده - كالاستهلال والخاتمة، إذا كان هذا الجزء (العرض) واضحاً أو غير مهم[٥].

ويشكل عرض الرسالة أو فحواها، الجوهر أو الجزء الأساسي في بنائها الفني، ومن أجله أنشأ الأديبُ الكاتب رسالته. ومن هنا درج كتّابُ الرسائل الأدبية في هذا القرن، يشفعون موضوع الرسالة بالادلة التي تؤيدُ وجهة نظرهم، وتدعم آراءهم.

ولأهمية هذا الجزء من الرسالة الأدبية، فقد عني الكتّاب في هذا القرن بالتمهيد لهُ بما يناسبهُ، لإثارة انتباه القارئ أو المتلقي لِما انصبَّ عليه العرض من أفكار رصينة، ومعان جليلة ...

وفضلاً عن التوطئة المناسبة لعرض الرسالة أو فحواها، فقد عني بلغاء الكتّاب في هذا القرن أيضاً بحسن الانتقال[٦] من التمهيد إلى العرض بفصل الخطاب (أما

---

(١) تراجع رسالة الوزير المهلبيّ إلى صديقه: الصداقة والصديق: ٧٠ - ٧١.

(٢) تراجع رسالة الخوارزمي إلى كاتب رئيس نيسابور: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٥٥.

(٣) تراجع رسالة الصاحب التي هنَّأ بها بعض الأمراء: ديوان المعاني: ١/ ٩٧.

(٤) ينظر كتاب: الخطابة - المقالة الثالثة: ٢٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٦) أطلق عليه ابن رشيق القيرواني: الخروج، وذكر أنَّ الخروجَ عندهم شبيه بالاستطراد وليس به (العمدة ١/ ٣٧٥)، وذكر في موضع آخر يقول: "ومن الناس من يسميّ الخروج تخلصاً وتوسلاً". العمدة: ١/ ٣٧٨.

بعدُ)[١] أو غيره من الوان التخلص إلى غرض الرسالة، وهذا ما أضفى على بناء كثير من رسائل الأدبية وحدة الموضوع، أو وحدة العمل الفني والانسجام بين جزئيات الرسالة الأدبية.

ولعل من نماذج الرسائل الأدبية التي تحقَّقتْ بين أجزائها الفنية تلك الوحدة والتواؤم، ما كتبهُ أبو بكر الخوارزميّ إلى قاضي سجستان، حين نكبهُ أميرها وقد مهَّدَ لموضوع رسالته بالشعر القديم[٢].

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ　　كلاكلهُ، أناخ بآخرينا
فقلْ للشماتين بنا افيقوا　　سيلقى الشامتون كما لقينا

"أما بعد، أيَّد الله تعالى القاضي، فإنه لم يُحسنْ إلى غيره من أساء إلى نفسهِ، ولم ينصرْ أصدقاءه من خذل حوباءه وإنما يحب المرء أخاه بما فضل عن محبته لروحه التي له خيرها وعليه ضيرها. وكانت محنة القاضي محنة شملت الأنام وخصَّت الكرام..".

ثم ختم الكاتب رسالته هذه بما يناسب عرض الرسالة وفحواها وهو الدعاء فجاءت الرسالة من حيث بناؤها العام، في غاية الائتلاف بين أجزائها الفنية وترابط أفكارها، واتساق معانيها..

وقد يكون حسنُ الانتقال من الاستهلال إلى عرض الرسالة بصيغ تعبيرية أخرى مثل: (ورد كتابك)، أو (ورد عليّ) وغيرها من ذلك ما ورد في راسلتي الخوارزمي إلى كاتب خوارزم شاه[٣] ورسالته إلى صاحب جيش خوارزم، وقد ورد عليه كتابه يتوجع فيه من علةٍ ألمَّتْ به[٤].

لقد عني جلُّ بلغاء الكتّاب في هذا القرن بعرض الرسالة - بوصفه جوهر العمل الفني - وقد تجلَّتْ تلك العنايةُ بشكل أوضح في رسائلهم الطويلة، وعلى الرغم من امتداد العرض في كثير من الرسائل الأدبية وتشعب موضوعاتها الآّ أنها كانت تعالجُ غالباً موضوعاً واحداً، ينسابُ إلى أفكار عديدة، ويتشعب إلى معانٍ متساوقة، وكان ما

---

(١) يراجع كتاب: مراسيم دار الخلافة: ١٠٨.
(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢١٢ - ٢١٣.
(٣) تراجع هذه الرسالة في: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٥٥.
(٤) المصدر نفسه: ٢٣٢ - ٢٣٥.

ساعد أولئك الكتّاب الأفذاذ على هذا العطاء المتدفق لجؤهم إلى تلاوين بلاغية وإيقاعية جميلة متناسبة، وأساليب تعبيرية متناغمة أمدتهم بهذا الثراء والتدفق في عرض موضوع الرسالة.

ولعلَّ أكثر تلك الألوان البديعية التي حققتْ لهم هذا البسط والتدفق في عرض الموضوع؛ الترادف والازدواج، فضلاً عن التكرار والموازنة، وغيرها مما سنلمُّ بدراسته، وتحليل نماذجه في القسم الثاني من هذا المبحث.

وربما كان ما طالعنا به بعض صدور الكتّاب وبلغاؤهم في عرض رسائلهم الأدبية الطويلة، كالأمير شمس المعالي قابوس في رسالته الأدبية إلى خاله الأصبهبذ(١) وبعض رسائله الفلسفية الأخرى(٢) ورسالتي أبي بكر الخوارزميّ إلى جماعة الشيعة في نيسابور(٣)ورسالته الأخرى إلى أبي الحسن البديهي(٤) ورسالة بديع الزمان الهمذاني في شكوى القاضي أبي بكر الحيريّ(٥) وغيرها لعلّ ما ورد في عرض جميع هذه الرسائل الأدبية القيمة وغيرها كثير شاهد دقيق على ما بلغته الرسائل الأدبية في هذا القرن من نضج وتطور مبنى ومعنى.

- ٣ - الخاتمة أو الانتهاء:

الخاتمة هي القاعدة التي يرسى عليها العمل الأدبي وهي آخر مايبقى من النصّ في ذهن المتلقي، أو ما يطلع عليه قارئ الرسالة.

وقد أطلق عليها بعض النقاد(٦) القدامى (الانتهاء) وذكر من لوازمه: "أن يكون محكماً، لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعدهُ أحسن منه(٧).. "

وغالباً ما يدرك الأديب أو الكاتب بالخاتمة مراده أو ما يقصد إليه من رسالته أو عمله الفني إذ هي - كما ذكرت - آخر ما يبقى من العمل الأدبي في الاسماع أو

---

(١) تراجع هذه الرسالة في: كمال البلاغة: ٥٢ - ٥٧، ديوان المعاني: ١/٨٦ - ٨٨.

(٢) تراجع رسائل قابوس الفلسفية الأربع في: كمال البلاغة: ٨٤ وما بعدها.

(٣) تراجع هذه الرسالة القيمة في: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٦٠ - ١٧٢.

(٤) تراجع هذه الرسالة الطويلة في: المصدر السابق: ٢٣٥ - ٢٥٠.

(٥) تراجع رسالة الهمذاني هذه في: رسائل بديع الزمان: ١٦٢ - ١٧٥.

(٦) يراجع مافصله ابن رشيق القيرواني في: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / باب المبدأ والخروج والنهاية: ١/ ٣٥٥ وما بعدها.

(٧) المصدر نفسه: ١/ ٣٨١.

الخواطر والأحاسيس.

وقد أشار إلى هذا الجانب الفيلسوف (أرسطو) إذ ذكر أنَّ من بين أجزاء الخاتمة في الكلام ما تثير الانفعال المطلوب في نفوس السامعين أو المتلقين وأن تنعش ذاكرتهم(١).

وعلى هذا فحين لا تحقق (الخاتمة) في الرسالة أو في أي عمل فني أياً من المقاصد أو الفوائد التي يتوخاها الأديب الفنان، كأن يكون -كما أشار أرسطو(٢) العرض (موضوع النص الأدبي) قصيراً أو كانت تفاصيل الموضوع سهلة الإدراك، حين لا تحقق الخاتمة ذلك كله فيفضَّل حذفها من النص الفني تجنباً للإطالة.

وقد يختتم الأديبُ النصَّ بالقطع ليثير شوق المتلقي فيقطع الكلام والسامع أو القارئ متعلق لمعرفة النهاية. يقول ابن رشيق(٣):

" ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة، وفيها راغبة مشتهية ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعله خاتمة: كل ذلك رغبة في اخذ العفو وإسقاط الكلفة".

اما أساليب الكتّاب في اختتام رسائلهم الأدبية في هذا القرن فقد كانت عديدة ومتنوعة تبعاً لتنوع موضوع الرسالة وفحواها، أو لاختلاف شخصية المرسل إليه وتفاوت رتبته وسمو منزلته..

وقد أكد هذه الحقيقة القلقشندي إذ أشار إلى تنوع الاختتامات عند كتاب الرسائل الإخوانية فقال(٤):

" واعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختتامات ولا ما يقتضي ملازمة اختتام معين لصدر معين بل ذلك موكول إلى رأي الكاتب لا يراعي فيه غير علوّ الرتبة وهبوطها حيث تفاوتت رتب الاختتامات عندهم".

ونلحظ بوضوح أن القلقشندي يقصر سبب تنوع خواتم الرسائل الإخوانية على

---

(١) الخطابة: ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٢) تراجع التفاصيل في أهمية الخاتمة ومقاصدها: الخطابة: ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٣) العمدة في محاسن الشعر آدابه ونقده: ١/ ٣٨٢.

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٨/ ١٤١ وما بعدها.

علو الرتبة للمكتوب إليه وهبوطها وإن الامر في ذلك موكول إلى رأي الكاتب وأنه لم يجعل لموضوع الرسالة وصدرها الذي جاء موطئاً لفحواها أو عرضها، أي تأثير في تنوع تلك الخواتم.

والذي نذهب إليه هنا أن طبيعة الاختتام في الرسالة الأدبية بخاصة وتنوع تلك الاختتامات، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بغرض الرسالة وفحواها، فضلاً عن المؤثرات الخارجية الأخرى، ومن ضمنها مكانة المرسل إليه وطبيعة رتبته علوّاً أو هبوطا..

لقد تنوعت اختتامات الأدباء الكتّاب لرسائلهم الأدبية في هذا القرن ويمكن أن نقف بإيجاز عند أهم تلك الأساليب التي اتبعها الكتّاب البلغاء في ذلك وكما يأتي:

- أ - الاختتام بالدعاء أو التضرّع والحمد:

ولعل الاختتام بالدعاء للمرسل إليه أكثر الأساليب الفنية شيوعاً، ولا سيما في الرسائل الإخوانية التي انصبَّت على التهاني[١] والمواساة[٢]فضلاً عن بعض الأغراض الأخرى كالشكر وبث الأشواق وما إلى ذلك.

ومن نماذج الإخوانيات الطريفة التي اختتمت بالدعاء ما كتبه الصاحب بن عباد يهنئ الأمير عضد الدولة وقد ولد له ابنان توأمان[٣].

".. وسألت الله إتمام ما أدناه من الأميرين السيدين من سعادة لا يهتدي إليها الاختيار علواً ولا ترتقي إليها الأفكار سمواً ... وهو تعالى قريب مجيب "

ومن نماذج الرسائل الأدبية التي اختُتمت بالدعاء أيضاً ما كتبه الصابيّ في الشكر وبث الأشواق إلى الوزير الصاحب ومما ورد فيها[٤]: "..... وحقيق عليه - جلَّ اسمه

---

(١) ينظر رسالة الهمذاني إلى الإسفراييني في التهنئة بالنصر، وقد ختمها بالحمد والدعاء: رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٩، وينظر ما كتبه أبو الفرج الببغاء في التهاني وقد ختمها بالدعاء أيضاً؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٩ / في مواضع كثيرة متفرقة.

(٢) تراجع بعض رسائل أبي بكر الخوارزمي في المواساة وقد ختمها بالدعاء: رسالته إلى صاحب جيش خوارزم، وقد ورده كتابه يتوجع فيه من علته: ٢٣٥ ورسالته إلى قاضي سجستان حين نكبه أميرها: ٢١٣ وغيرها.

(٣) ديوان المعاني: ١/٩٨، وينظر في الموضع نفسه أيضاً: اختتام رسالة أخرى بالدعاء للوزير الصاحب إلى بعض الوجهاء تهنئة في تجديد رتبة.

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: ٨ / ١٣٥ -١٣٦، وتراجع في الشكر والثناء أيضاً خاتمة رسالة =

- أن يفعل ذلك به ويسمع هذا الدعاء فيه إذ كان مرفوعاً إليه في أوفر عباده فضلاً وأغمرهم نبلاً، وأجزلهم أدباً وأكثرهم حسباً وأعملهم بطاعته وأولاهم بإحسانه ومعونته".

ومن الرسائل الإخوانية التي اختُتمتْ بالدعاء، ما اقترنتْ بالعتاب فضلاً عن الأغراض التي تقدم ذكرها من ذلك ما اختتم به الخوارزمي رسالته الأدبية إلى كاتب رئيس نيسابور(١):

".. والله تعالى يطيل بقاه، ويجعل من يحسده فداه." ومن ذلك أيضاً ما اختتم به رسالته التي عاتب فيها أبا القاسم الداودي(٢) "... وأطال الله تعالى للمحاسن بقاه ولا سلبه زينه وبهاه وجعل من يحسده فداه".

- ب - الاختتام بالشعر:

ومن الأساليب المهمة التي شاعت كثيراً في اختتام الرسائل الأدبية في هذا القرن أيضاً: ختام الرسائل بالشعر العذب الرصين. ولعلّ ما رسَّخ هذه الظاهرة الأسلوبية في ثنايا الرسائل الأدبية وخواتمها؛ سعة ثقافة الكتّاب، وثراء حافظتهم من الشعر القديم والمحدث، فضلاً عن أن، أكثر الكتّاب - كان يجمعُ بين ملكتي النظم والنثر، ومن هنا فقد كانت تلك الاختتامات الشعرية إما من نصوص الشعر القديم أو المحدث، وإما من إبداع الشاعر ونظمه ....

ولعلّ ما حفز الكتّاب على كثرة اختتام رسائلهم بالشعر أيضاً؛ عمق دلالاته وشدّة مناسبته لفحوى الرسالة، إذ كان الأدباء الكتّاب كثيراً ما يسوقونه للحكمة والمثل، فضلاً عما يحملهُ من حلاوة الموسيقى، وطلاوة النغم التي تزدان بها تلك الرسائل. ومن هنا، فقد شاع تضمين الشعر أو الاستشهاد به أو حلّه في ثنايا الرسائل، أو في مقدماتها وخواتمها، حتى غدتْ هذه الظاهرة دعامة مهمة في البناء الفني للرسائل الأدبية في هذا القرن.

لقد شاعت ، ظاهرة اختتام الرسائل بالشعر لدى كثير من بلغاء الكتّاب في هذا

=

ابن العميد إلى أبي محمد بن خلاد الرامهرمزي القاضي: زهر الآداب ٢/١٦٦ - ١٦٧

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي ٥٨.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي:، ٦٥ - ٦٦.

کتابخانه تاریخ اسلام و ایران

القرن وفي مقدمتهم أبو بكر الخوارزمي[١] وبديع الزمان الهمذاني[٢] والصاحب بن عباد[٣] وغيرهم من كتاب الرسائل الإخوانية والأدبية، إذ كانوا كثيراً ما يوظفون موروثهم الثقافي بالعربية وتراثها الشعري في ترسلهم؛ لرصانة ذلك التراث الأدبي، وجماله، وشدة أسره، وقوة تأثيره، فضلاً عن مناسبته لظرف رسائلهم.

ومن الشواهد البليغة في هذا الباب مثلاً؛ ما اختتم به أبو بكر الخوارزمي رسالته إلى وزير خوارزم شاه لما نكب، فكتب إليه يُسلّيه في محنته ويصبره وقد اختتمها بالشعر الرقيق (من مجزوء الكامل)[٤]: "أنت - أيدك الله تعالى - اغنى اهل خوارزم يوم تصير أفقرهم، وأكثرهم ساعة تظن أصغرهم، وهو الوزير يوم يُعزل، والمصون ساعة يتبذل ...

ان الأميــــــر هــــــو الـــــذي يــــضحي أميــــراً يــــومَ عــــزلهْ
انْ زال ســــــــلطانُ الــــــــولا يــــةِ، كــــان فــــي ســــلطان فــضلهْ

ويتضح جلياً عمق الوشيجة بين فحوى الرسالة وخاتمتها، وتدرج (العرض) وانحداره إلى النهاية المناسبة، فضلاً عن قوة استثمار ما يمتلكهُ الكاتب من ثراء محفوظة من الشعر، وفي اختتام الخوارزمي أيضاً لرسالته الطريفة إلى أبي الحسين علي بن داية، وقد أنهى اعتذاره إليه بقوله[٥]: [من البسيط]

" وهذا التطويل كله ارتياد لعذر أجده لسيدي، وإن رجلاً اعتذر عنه إلى قلبي، وأبرز ذنبه في معرض ذنبي، لأعظم في عيني من كل عظيم وأكرم على قلبي من كل كريم، وكأنهُ فيَّ وفيهِ قيل:

إذا مرضــــــنا أتيــــــناكم نعــــــودكمْ وتذنــــــبون فنأتــــيكمْ فنعــــتذرُ"

---

(١) تراجع رسائل الخوارزمي التي اختتمها بالشعر في مجموع رسائله: ص١٩، ٣٧، ٤٢ ٥٤، ٦٣، ٦٨، ٧٠، ٩٠، ١٠٧، ١٥٧، وغيرها في مواضع أخرى.

(٢) ويلاحظ أيضاً شيوع ظاهرة اختتام الرسائل بالشعر في مجموع رسائل الهمذاني " ١٩ ١٠٠، ١٠٤، ١٤٢، ١٩٤، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٢٥، ٣٨٩، ٤١٩، وغيرها في مواضع أخرى.

(٣) تراجع طائفة من رسائل الصاحب بن عباد التي اختتمها بالشعر في مجموع رسائله: ص١٥١، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢، ورسالته إلى بعضهم يعاتبه في صغر حجم كتابه إليه: ديوان المعاني: ١/ ١٦٤، وقد اختتمها بثلاثة أبيات في الحكمة، وغيرها في مواضع أخرى.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٤٢.

(٥) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٣٧.

ونظير ذلك أيضاً؛ ما اختتم به الهمذاني رسالته إلى أبي جعفر الميكالي ويلاحظ قوة الربط، والتواؤم، بين (عرض الرسالة) واستهلالها وخاتمتها بهذا الشعر الرقيق، إذ يقول[١]: (من المتقارب)

" إذا ما عتْبتُ فلم تُعْتِبِ وهنتُ عليكَ، فلم تُغنَ بي
سلوتُ فلو كان ماءُ الحياةِ لعفتُ الورودَ ولم أشربِ "

وقد يضفي الكاتب على الشعر الذي يختتمُ به رسالته بعض التحوير أو التغيير المقصود، بما يتلاءم وفحوى الغرض الذي يدور حوله (العرض) في الرسالة.

من ذلك مثلاً، ما أضفاه بديع الزمان الهمذاني من تحوير على بيت النابغة الذبياني المشهور الذي اختتم به رسالته إلى بعض الرؤساء، إذ قال[٢]: (من الكامل)

يا مرحباً بغدٍ ويا أهلاً بهِ ان كان إلمامُ الاحبةِ في غدِ"

وقد يجتزئ الكاتب أحياناً جزءاً من البيت (صدره أو عجزه) مثلاً، عند تمثله به، أو اختتام رسالته بذلك الجزء من البيت.

من ذلك مثلاً، ما تمثل به بديعُ الزمان الهمذاني أيضاً في ختام رسالته إلى الإسفراييني في هزيمة السامانية، والدعاء عليهم، بعجز بيتٍ مشهور لقيس بن الملوّح، إذ كتب إليه[٣].

".... فلا رحم الله قتلاهم، ولا جبر الله جرحاهم، ولا فك أسراهم، ولا أراكم إلا قفاهم، وإن أقبلوا فضَّ اللهُ فاهم، ويرحمُ اللهُ عبداً قال آمينا".

وقد يختتم بعض كتاب هذا القرن بعض فصول رسائلهم الإخوانية بالرجز دون القصيد؛ من ذلك مثلاً، ما ورد في مجموع رسائل بديع الزمان من رسالة إخوانية منسوبة إلى والد الهمذاني كتبها إلى ابنه (بديع الزمان)، وقد ختمها باشطار مشهورة من

---

(١) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٠٠.

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٤١ - ١٤٢، وهذا البيت للنابغة الذبياني من قصيدة له في وصف المتجردة، وقد غير الهمذاني بعض الألفاظ فيه عند تمثله به في رسالته، والبيت هو:

لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً بهِ ان كان تفريقُ الاحبةِ في غدِ

(٣) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٩، وتمام هذا البيت هو: (من البسيط)

يارِبّ لا تسلبنيّ حبَّها أبداً ويرحمُ اللهُ قوماً قال آمينا

ومناسبة هذا النصّ إن قيساً قاله عندما أخذهُ أبوهُ إلى البيت الحرام ليدعو لهُ بالتخلص من حبِّ ليلى، فتشبث قيس بأستار الكعبة، وأنشد هذا الشعر.

بحر الرجز لبعض شعراء ما قبل الإسلام، إذ يقول[١]: "... ولعل هذه الأحرف آخرُ ما تتأذى بهِ من وعظي وتتغذّى باستماعهِ من لفظي:

يالكِ من قبرةٍ بمعمرِ خلالكِ الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئتِ أن تنقري "[٢]

ويلاحظ شدة المواءمة بين فحوى الرسالة وبين دقة الاختتام الذي صاغه الكاتب، وقوة الصلة بينهما، إذ إنّ ما يريده الكاتب في تمثله بهذا الرجز، واختتام رسالته به، يتناغم مع طبيعة مناسبة النص القديم...

وهكذا تتجسّدُ أمام الباحث، من خلال هذه الشواهد الشعرية الرصينة التي أبدع كتابُ الرسائل الأدبية في إيداعها في خواتيم رسائلهم، الصلة الوثيقة بين غرض الرسالة، وبين دقة الخاتمة، وإحكام معانيها، وتواؤهما مع جو الرسالة العام، وهذا أمر نكاد نتلمّسه عند أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن.

ولعل هذا ما يفسر لنا إيثار الكتّاب البلغاء اختتام رسائلهم الأدبية بالشعر الرصين، لما يحمله من دلالات ايحائية عميقة، ولما يجسّده من معانٍ جليلة، وحكم سديدة نادرة، كثيراً ما تتلاءم مع ظرف الرسالة ومناسبتها، وجوها العام...

كتب الأمير قابوس بن وشمكير في رسالته الشهيرة إلى خاله الاصبهبذ يعاتبهُ، وقد ختمها بهذه الحكمة السديدة السائرة[٣] [من الطويل].

ففي الناس إن رثَتْ حبالك واصل وفي الأرض عن دار القلى متحول

ويختتم الوزير الصاحب رسالة له إلى بعضهم يعاتبه على صغر كتابه إليه بهذه الحكمة السائغة إذ يقول[٤]: [من الطويل].

---

(١) رسائل بديع الزمان الهمذاني، ٤٤٦ - ٤٤٧.

(٢) نسب ابن قتيبة (الشعر والشعراء: ٢٨/ط، عالم الكتب - بيروت (القسطنطينية، الطبعة الأولى ١٢٨٢هـ) نسب هذه المقطوعة إلى طرفة بن العبد وذكر انه أول شعر قاله عندما خرج مع عمه في سفر، فنصب فخاً، فلما أراد الرحيل قال هذه الأشطر، وآخرها قوله: "لا بد يوماً أن تصادي فاصبري"، ونسب هذا الرجزُ أيضاً إلى كليب وائل لما مرّ بحماه، فرأى به قبرةً قد استأمنت فيه وباضتْ، فقال هذه الاشطار يخاطبها بذلك. ينظر: هامش رسائل الهمذاني، المحقق: ٤٤٧؛ ومعمر، اسم موضع، واصفري صوتي.

(٣) كمال البلاغة: ٥٧.

(٤) ديوان المعاني: ١/١٦٤.

إذا أنت عاتبت الصديق ولم يكن ... يودك لم يعتبك حين تعاتبه
ومن يخلط الماء الزلال بآجن ... من الماء تخبث ما تطيب مشاربه

- ج - اختتام الرسائل بآي القرآن والتعابير الدينية:

ومن الأساليب الفنية التي اختتم بها كتاب الرسائل الأدبية رسائلهم في هذا القرن أيضاً، اختتامها بالاقتباس من آي القرآن المجيد[١]، وقد كانت طريقة بلغاء الكتّاب إما اختتام الرسالة بالنص على الآية القرآنية، وإما حلها والإشارة إلى مضمونها أو فحواها..

وكان كتابُ الرسائل يختتمون مكاتباتهم الشخصية أيضاً، بتراكيب وتعابير دينية يتّضح من خلالها الأثر الإسلامي، ولعل أكثر تلك التراكيب شيوعاً في خواتيم رسائلهم، صيغة (إن شاء الله)، وقد استخدم هذا التعبير كثيراً بديع الزمان، وباختلاف طفيف في صياغته، كقوله مثلاً: "إن شاء الله عز وجل"، أو "إن شاء الله تعالى"، وما إلى ذلك[٢]. كما ورد هذا التعبير الديني أيضاً في خواتيم رسائل كثير من بلغاء الكتّاب في هذا القرن كالخوارزمي والصاحب بن عباد واضرابهما[٣].

ومن التراكيب والتعابير الدينية التي اختتم بها الكتّاب رسائلهم الأدبية في هذا القرن أيضاً، الصلاة والتسليم على النبي المصطفى، وعلى آله الاطهار (عليهم السلام)، وقد شاعت الاختتامات بهذه التعابير الدينية كثيراً في رسائل أبي بكر الخوارزمي والصاحب بن عباد[٤]، وبعض رسائل بديع الزمان والأمير قابوس وغيرهم[٥].

- د - الاختتام بأساليب فنية أخرى:

وهناك أساليب فنية أخرى طرقها الأدباء الكتّاب في اختتام رسائلهم الأدبية في هذا القرن، لعل أهمها وأكثرها شيوعاً ما يأتي:

---

(١) تراجع التفاصيل والنماذج النثرية من الاقتباسات في خواتيم الرسائل ومقدماتها في المبحث الأول من الفصل الثالث من هذه الدراسة.

(٢) ينظر: مجموع رسائل بديع الزمان الهمذاني في الصفحات الآتية، ٩٦، ٩٨، ١١٢ ١٢٥، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٤، ١٦٢، ١٨١، ١٨٥ ومواضع أخرى غيرها.

(٣) يراجع مجموع رسائل أبي بكر الخوارزمي، ورسائل الصاحب بن عباد في مواضع كثيرة متفرقة...

(٤) ينظر: مجموع رسائل الخوارزمي والصاحب في مواضع عديدة متفرقة أيضاً.

(٥) ينظر: رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٢١٢، ٤٤٤، وغيرها، ويراجع أيضاً كمال البلاغة، ص٧٣، رسائل جوابية للصاحب في كمال البلاغة،: ٧٧، ٨٠، ومواضع أخرى غيرها...

اختتام الرسائل بالسلام:

لقد عدّ القلقشندي[(١)] هذا الضرب من الاختتامات من رسوم الختام المهمة التي شاعت في المكاتبات الرسمية والشخصية منذ عصور الإسلام الأولى.

وقد شاع هذا اللون من الاختتام في الرسائل الأدبية في القرن الرابع، إذ درج الكتّاب على أن يأتوا بالسلام مقروناً بالدعاء للمخاطب أو الحمد وغير ذلك[(٢)].

ومن صور الدعاء النادرة التي اقترنت بالسلام في خواتيم الرسائل الأدبية ما ورد في رسالة الوزير المهلبي إلى أبي الفضل العباس بن الحسين يحثه على المواصلة إذ كتب إليه يقول[(٣)]: "والله يهديني للحسنى ويقيني فيك غوائل العيون المرضى والسلام".

الاختتام بالحكم السديدة أو الأقوال المأثورة والأمثال السائرة:

وقد لجأ كتاب الرسائل في هذا القرن إلى هذا اللون من الاختتام، لقوة تأثيره في المتلقي، وشدة أسره، وقوة وقعه، فضلاً عن مناسبة تلك التعبيرات البليغة لفحوى الرسالة، ومناسبتها لظرفها العام.

وممن اشتهر من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن بهذا اللون من الاختتامات، أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان[(٤)]، واضرابهما من بلغاء الكتّاب.

وهناك أساليب فنية أخرى اختتم بهاء بلغاء الكتّاب رسائلهم الأدبية في هذا القرن وقد ضربت صفحاً عن ذكرها تجنباً للإطالة والإملال.

ثانياً: الخصائص الشكلية للرسائل الأدبية:

-١- الألفاظ ولغة الرسائل الأدبية:

المفردة اللغوية لبنة مهمة في أي عمل أدبي، وهي كثيراً ما تسهم في تحديد قيمتهِ الفنية والجمالية، وعلى قدر براعة الأديب المبدع ودقته في اختيار اللفظة

---

(١) تراجع التفاصيل في صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٢٦/٨ - ١٢٧.

(٢) تراجع مجموعة رسائل الهمذاني التي اختتمها بالسلام مقرونة بتلك التعبيرات، رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٢٧، ١١٦، ١٤١، ١٦١، ١١٧، وغيرها من مواضع أخرى. ينظر: مجموع رسائل الخوارزمي: ١٧، ٣٤، ٧٢، ٢٧٣، وغيرها في مواضع أخرى.

(٣) رسالة الصداقة والصديق: ٧١.

(٤) تراجع رسالة الهمذاني إلى السيد العالم بن أحمد: ٣٢١، ورسالته في شأن أبي البختري ١٦، وتراجع رسالة الخوارزمي إلى كاتب خوارزم شاه: ٢٢٦، ورسالة الأمير قابوس إلى الصاحب كمال البلاغة، ٧٩؛ ورسالته أيضاً إلى أبي الفضل بن العميد: ٤٤.

المناسبة، للتعبير عن المعنى المراد، يتحقّقُ لعملهِ الإبداعي قيمته الجمالية ويتحقق أيضاً نجاح الأديب في عمله الإبداعي؛ ذلك أن المفردة اللغوية غالباً ما توحي إلى معنى محدّد لا تنسجم إلا معه، والأديب الفنان هو الذي يستجيب - لما يمتلكه من موهبة والهام - لهذه الايحاءات، فيؤلف بين الألفاظ والمعاني؛ إدراكاً منه لهذه الصلة الوثيقة بينهما(١)...

وهكذا يعبرَ الأديب عن المعاني والأفكار بما يناسبها من ألفاظ موحية تجليها وتفصح عن مساربها وجماليتها...

ولأهمية الموسيقى والإيقاع في النص النثري - ولا سيما الرسالة الأدبية - وأثرهما وارتباطهما بالمستوى الفني للعمل الأدبي، فقد شغف العرب، بموسيقى الألفاظ وجمال جرسها، واثر وقعها، ولعل هذا ما يفسر لنا اهتمام العرب بظواهر الإعلال والإبدال والإدغام، وعدم الابتداء بالساكن وغيرها من الظواهر اللغوية، وحرصوا أيضاً على جعل الكلمة وحدة منسجمة تخف على اللسان، ويعذب وقعها في السمع(٢).

ومن الحقائق العلمية التي غدت معروفة في الدرس النقدي، إن الألفاظ في النص الأدبي - شعراً أو نثراً - لا تحمل ذات دلالاتها الوضعية (المعجمية) فقط، وإنما تحمل فضلاً عن ذلك دلالات إيحائية (مجازية) أخرى وعلى هذا تكون الألفاظ في النص الأدبي (الفني) بوصفها مادة بنائه مشعة موحية، ذات طاقة تعبيرية متجددة.

وهكذا تكتسب (المفردة اللغوية) في التعبير الأدبي طابعاً خاصاً، يميزها عما كانت تمتلكه من دلالات وضعية لكونها شأناً عاماً، حين يستخدمها الناس وسيلة مشتركة للتفاهم فيما بينهم، بينما ترتفع في التعبير الأدبي إلى شكل اعلى تأثيراً، مستشعرة دلالاتها وعلاقاتها في بناء ايقاعي على نحو معين(٣).

ومن هنا نصل إلى نتيجة مهمة، تلك هي: أن النص الأدبي - بوصفه عملاً إبداعياً - إن هو إلا تشكيل فني خاص، مؤلف من لبنات لغوية متوائمة، في جمل وعبارات مركبة تركيباً خاصاً في مساحات نغمية متناسقة، غالباً ما تنتهي في النص

(١) يراجع ما فصله د. يوسف حسين بكار عن قضية اللفظ والمعنى، وآراء النقاد القدامى والمحدثين في هذا الموضوع؛ بناء القصيدة في النقد العربي القديم: ١١٣ - ١٤٠.

(٢) تراجع التفاصيل في هذا الجانب في كتاب النقد اللغوي عند العرب: ٢٩٣.

(٣) ينظر: لغة الشعر الحديث في العراق: ٩ وما بعدها.

النثري بائتلاف نهاية الفواصل، فضلاً عن انسجام كلمات القرائن الأخرى، في إيقاع نغمي متناسب، في حين تنتهي في القصيدة، بإيقاع القافية في مؤخرة كل بيت من أبياتها...

وفي القرن الرابع، عني الكتّاب المترسلون بخاصة عناية كبيرة بانتفاء ألفاظهم، وبرعوا في اختيار ما يناسب منها أفكارهم الدقيقة، ومعانيهم التي حرصوا على تشقيقها، والتجديد فيها، كما حرصوا كثيراً على وضع ألفاظهم في مواضعها المناسبة من النص الأدبي، بحيث تعَبر عن معانيهم أدقَ تعبير وتدل على أفكارهم خير دلالة.

وقد أدرك الكتّاب البغاء في هذا القرن - لا سيما من عرف منهم بسعة الثقافة وثراء اللغة والمقدرة البيانية العالية كابي حيان التوحيدي وابن العميد والصاحب وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني واضرابهم - ما للفظ من قيمة كبيرة، واثر خطير في العمل الأدبي، ولهذا فقد حرصوا على اختيار أنقى الألفاظ، وأفصحها في ترسلهم ومكاتباتهم الخاصة، لأنهم أدركوا أيضاً كما - أكد ذلك واحد من مشاهير الكتّاب وعلماء البلاغة في هذا القرن، وهو أبو هلال العسكري[١]. إن جودة الكلام ما كان فيه اللفظ: "جزلاً[٢] سهلاً لا ينغلق معناه ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدوداً مستكرهاً، ومتوعراً متقعَراً، ويكون بريئاً من الغثاثة، عارياً من الرثاثة". ثم يقول أبو هلال العسكري أيضاً[٣]: "والكلام إذا كان لفظة غثاً، ومعرضه رثاً، كان مردوداً، ولو احتوى على أجل معنى وأنبله وارفعه وأفضله".

ولعل براعة أولئك الأدباء الكتّاب في اختيار مفرداتهم اللغوية ودقتهم في المناسبة بينها وبين معانيها، مردّه إلى تبحرهم في اللغة، وحذقهم فيها وإحاطتهم الواسعة بأسرارها، والمامهم بدقائقها...

فأبو حيان التوحيدي مثلاً - الذي شهر بسعة ثقافته - كان إلى ذلك ملماً باللغة،

---

(١) كتاب الصناعتين: ٧٣، (تحقيق، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم بيروت ١٤٠٦: ١٩٨٦).

(٢) حدد أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ)، جزالة اللفظ: "ما لم يكن بالمغرب البدوي ولا السفساف العامي، ولكن ما اشتد أسره، وسهل لفظهُ، ونأى واستصعب على غير المطبوعين مرامه، وتوهم إمكانه". يراجع قواعد الشعر: ٥٩، وينظر ما ذكره العسكري في الصناعتين: ٧٠ - ٧٣.

(٣) كتاب الصناعتين: ٧٣.

ولعل هذا ما ساعده على عرض الآراء الفلسفية والمذاهب العلمية في إطار أدبي ممتع، وأن يضفي عليها من سحر بيانه، وقوة بلاغته ما يزيل عنها جفافها وثقلها.

والصاحب بن عباد الذي عرف أيضاً بعظم باعه في اللغة، حتى انه ألف معجباً نادراً، هو معجم المحيط[١] قد بلغ من إتقانه للغة انه - كما أشار الثعالبي[٢]، كان يحفظ مناكاة بني ساسان حفظاً عجيباً، وكان يتجاذب بها ويتحاور بأطرافها مع شاعر المكدين المشهور أبو دلف الخزرجي في مجلسه وكان ذلك يثير إعجاب الحاضرين.

اما بديع الزمان الهمذاني - الذي عرف بحضور البديهة، والمقدرة اللغوية العجيبة - فكان كما ذكر الثعالبي[٣] "يقترح عليه عمل القصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها".

وهذا دليل واضح على مقدرته اللغوية النادرة، وإن لغته كانت مرنة مطاوعة له في التعبير عما يريد الإفصاح عنه من المعاني والأفكار بيسر وحضور بديهية، وكان الهمذاني إلى ذلك أيضاً كما أشار الثعالبي[٤] "يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع".

وهكذا يقال أيضاً عن مشاهير الأدباء الكتّاب البلغاء في هذا القرن، كأبي الفضل ابن العميد، وأبي بكر الخوارزمي، والأمير قابوس بن وشمكير، والأمير أبي الفضل الميكالي، وأبي منصور الثعالبي - الذي شهر بباعه في اللغة ومعجمه (فقه اللغة وسر العربية)[٥]، وإضرابهم من جهابذة الكتّاب الذين عرفوا بثراء لغتهم، وإلمامهم الواسع

---

(١) ألف الوزير الصاحب معجمه الشهير (المحيط) على خطى مدرسة الخليل، إذ بناه على نظام مخارج الأصوات، وطريقة التقليبات، وربما كان قد افاد في طريقته من معاصرة (الازهري)(ت ٣٧٠هـ)، في معجمه (تهذيب اللغة) الذي اقتفى خطى معجم العين في بنائه وترتيبه أيضاً وقد تتلمذ الصاحب في اللغة على استاذه أحمد بن فارس ت ٣٩٥هـ) صاحب المجمل ومقاييس اللغة. ينظر: حركة التأليف عند العرب: ٣٠ -٣٢.

كتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران تأسیس ۱۳۷۴

(٢) تراجع التفاصيل في، يتيمة الدهر: ١٧٥/٣.

(٣) تراجع التفاصيل في، يتيمة الدهر: ٢٩٣/٤.

(٤) المصدر نفسه: ٤/ ٢٩٤.

(٥) هو من معجمات المعاني الشهيرة، نشرة المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، بتحقيق أحمد يوسف علي، ويقع في قسمين - القسم الأول ويضم ثلاثين باباً والقسم الثاني هو سر العربية، ويشتمل على موضوعات في فقه اللغة واسرار جواهرها.

بدقائق العربية وتراثها.

لقد كان أكثر الأدباء الكتّاب في هذا القرن - على الرغم من غلبة الصنعة على أساليبهم - يستخدمون في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية لغة سهلة واضحة ميسورة يحسّ المتلقي عند قراءتها لأول وهلة بجمال الأداء ودقة العبارة، وعذوبة الجرس، وحلاوة النغم والإيقاع.

وقد غلب على أسلوب أكثر المترسلين في هذا القرن أيضاً، عدم ميلهم إلى الغريب من الألفاظ، أو انصرافهم إلى التماسها، إلا لماماً، كالذي نجده مثلاً عند بعض كتاب الطبقة الخاصة، كأبي القاسم الصاحب بن عباد[١]، وأبي إسحاق الصابي، وبعض كتاب الإخوانيات، كأبي بكر الخوارزمي[٢]، فكان هؤلاء الكتّاب يغربون أحياناً في ألفاظهم فيختارون من الألفاظ غير المألوفة أو الشائعة؛ رغبة منهم في الارتفاع، أو لإظهار مقدرتهم ومهارتهم في اللغة.

ومن هنا فقد جاءت لغة أكثر الرسائل الأدبية ولا سيما الإخوانية - في هذا القرن، صافية معبرة عما يروم الأديب الإفصاح عنه من الأفكار والمعاني وقلما نجد في رسائلهم أيضاً، ألفاظاً ثقيلة كزّة أو جاسية، أو خروجاً عن المألوف اللغوي إلا نادراً[٣].

أشار أبو حيان في الليلة الخامسة من كتابه " الإمتاع والمؤانسة " مثلاً، إلى ضعف أبي إسحاق الصابي بعلم النحو، وقلة نصيبه منه، وكذا بالنسبة للصاحب وأبي الفضل بن العميد يقول أبو حيان[٤]: "فأما أبو إسحاق فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة، وأمضاهم على المحجة الوسطى، وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو، وليس ابن عباد في النحو بذلك، ولا كان أيضاً ابن العميد إلا ضعيفاً...".

ولا يكاد الباحث يستقري ألفاظ الكتّاب البلغاء في رسائلهم الأدبية إبان هذا القرن، إلا ويتملكه الاعجاب الشديد بقدراتهم الفنية في انتقاء مفردات لغتهم الطيعة،

---

(١) ينظر: رسائل الصاحب بن عباد، مقدمة المحققين، ص. ق.

(٢) يراجع في ورود الألفاظ الغريبة في بعض رسائل الخوارزمي، رسالة أبي بكر الخوارزمي، حياته وأدبه، محمود الضمور: ٣٣٣، وما بعدها.

(٣) أشار الباحث مهدي البدري في دراسته (ابو إسحاق الصابي حياته وأدبه: ١٩٧) إلى طائفة من الكلمات النافرة الجاسية التي وردت في بعض رسائل الصابي، فضلاً عن استخدامه بعض الألفاظ الاعجمية.

(٤) الامتناع والمؤانسة: ١/٦٧ - ٦٨.

وقوة الصلة بينها وبين معانيها، أو ما تفصح عنه من أفكار مختلفة....

لقد أكثر كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن من استخدام طوائف من الألفاظ التي كانت ذات دلالات تعبيرية دقيقة على ظروف حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد اكتسبتْ كثير من تلك المفردات اللغوية التي استخدمها الكتّاب دلالات عرفية (خاصة أو عامة)، أو دلالات شرعية؛ للصوقها بحياتهم العامة، فضلاً عما شاع في لغة الأدب من ألفاظ الحرف والصناعات، لكثرة اتصال أولئك الأدباء الكتّاب بالرؤساء والأمراء وغيرهم، وكثرة تجوالهم في الآفاق، وصلتهم الوطيدة بالحكام والساسة، فقد تداولوا ألفاظاً لها صلة بطبيعة هذه الظروف الخاصة فالخوارزمي وبديع الزمان واضرابهما[1] من الأدباء الكتّاب الذين دأبوا على التجوال في أقاليم المشرق الإسلامي وغيرها، والاتصال بأمراء تلك الممالك ووزرائهم، شاع في معجم لغتهم ألفاظ: "الإقبال والإدبار والنعمة والنقمة والرغبة والرهبة والتبذل والامتهان والعقوبة والمثوبة " وما إلى ذلك من المفردات التي كانت صدى لما واجهوه من تقلبات السياسة، واوضاعها المضطربة في هذا القرن.

وكان لتأثر حياة الأدباء الكتّاب في هذا القرن بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية وما صادفوه من (بؤس وحرمان) وصلتهم بعمال الخراج وغيرهم، اثر واضح في شيوع ألفاظ خاصة، عكست معاناتهم، وهكذا شاعت في لغة رسائلهم الأدبية ألفاظ المصادرة والغبن والكيل والموازين والخراج المستخرج والكفيل والضمين، وما إليها من ألفاظ أخرى.

وإذا عنَّ لهم أن يذكروا في ثنايا رسائلهم الأدبية شيئاً يتصل بقضايا العقيدة أو الدين أو الفكر، طفح على أسلات أقلامهم ألفاظ (الفريضة والنافلة والبدعة والسنة أو ألفاظ الشيعة والوصي والنواصب أو صيغ وتراكيب أمير المؤمنين وسيد الأولياء أو أهل العدل والتوحيد) وما إلى ذلك من الألفاظ التي اكتسبت معانيها دلالات عرفية جديدة متطورة....

فإذا ما تعاطوا أبواب العلم والفلسفة والمنطق، جالوا في ألفاظ ومصطلحات تلك العلوم فقد طالعتنا في رسائل بلغاء الكتّاب كأبي الفضل ابن العميد

---

(١) تراجع مجاميع رسائل الخوارزمي والهمذاني وغيرهما في مواضع كثيرة متفرقة.

والصاحب بن عباد والأمير قابوس بن وشمكير وأبي بكر الخوارزمي، وفي ترسل ابن مسكويه والبيروني، وابن سينا، واضرابهم ألفاظ: "العرض والجوهر والكون والفساد والعلة والسبب والنتيجة والكم والكيف والكمون والجزء الذي لا يتجزأ، وما إلى ذلك من مصطلحات الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة المشهورة..."

وقبل أن نختتم الكلام على الألفاظ ولغة الكتّاب في رسائلهم الأدبية أبان هذا القرن لا بد من الإشارة إلى ظاهرة أسلوبية مهمة في هذا الجانب تلك هي أن مفردات لغة الكاتب وأسلوبه في ترسله، لهما صلة وثيقة بنوع الرسالة، وطبيعة الموضوعات التي يتناولها الأدباء الكتّاب. فلغة المكاتبات السلطانية (الرسمية) مثلاً نظراً لما يلتزم فيها الكاتب من رسوم وطقوس متبعة، تتباين عن لغة وأسلوب المكاتبات الإخوانية.

ولدى استقرائي طائفة كبيرة من رسائل أبي إسحاق الصابي الرسمية منها والشخصية (الإخوانيات)، ومقارنة مفردات لغته وأسلوبه فيهما، توصلت إلى حقيقة مهمة؛ تلك هي أن لغته في السلطانيات كانت تتسم غالباً بجزالة الألفاظ، ومتانة التراكيب، وقوة السبك، ورصانة الأسلوب، بينما غلب على رسائله الإخوانية (الشخصية) طابع البساطة والسهولة، ورقة الألفاظ وفصاحتها...

وقد نبه من قبلُ بعض نقادنا القدامى إلى هذه الظاهرة الأسلوبية، إذ أشار الناقد ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) إلى أن للكتب السلطانية من الطريقة ما لا يستعمل في الإخوانيات، وذكر أن ذلك قابل للتغيير أو التجديد يقول[1]: "فأما النثر فيجري على هذا المنهاج، ويحتاج فيه إلى معرفة المواضعات في الخطاب والاصطلاحات، فإن للكتب السلطانية من الطريقة ما لا يستعمل في الإخوانيات وللتوقيعات من الأساليب ما لا يحسن في التقاليد - يعني كتب التقليد الرسمية - وهذا الباب - اعني المواضعة والاصطلاح في الخطاب - يتغير بحسب تغير الأزمنة والدول....".

وهكذا راح كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن - انطلاقاً من نزوعهم إلى ابتكار المعاني الجديدة، وتوليدها وتفريعها، وإضفاء الأوصاف البديعة والتصوير الأنيق، بلوغاً إلى الجدة والابتكار - ينزعون في ألفاظهم ولغتهم الأدبية إلى التجديد، فعمدوا إلى لغة المجاز التي كانت كثيراً ما تضفي على رسائلهم الأدبية معاني جديدة، فضلاً عما تشعه من إيحاءات عديدة متنوعة تروق المتلقي، وهذا ما كان يروم إليه الكتّاب البلغاء

---

(١) سر الفصاحة: ٢٤٨.

في هذا القرن.

-٢- التراكيب:

التراكيب في العمل الأدبي تأتي من خلال ترابط الألفاظ مع بعضها في هيئة خاصة يسعى الأديب الفنان إلى توليفها لتكون سياقاً لغوياً، يحقق عبر نسيج النص الأدبي فاعلية جمالية.

فالشعر القوي مثلاً كما يرى بعض النقاد المعاصرين[١] يحتاج إلى ملكة التركيب اللغوي، والتركيز، والبلورة الكلامية والعاطفة.

وقد أدرك النقاد العرب القدامى أهمية ذلك الاتساق في التركيب اللغوي في أي عمل أدبي - شعراً أو نثراً - وفي ضوء هذا الفهم الدقيق، ذهب أبو عثمان الجاحظ إلى أن الشعر إذا كان مستكرهاً، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض، وإن الكلمة إذا كان موقعها ليس إلى جنب أختها مرضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة "[٢]، ثم أضاف الجاحظ قائلاً[٣]: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك انه قد افرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان".

وذهب أبو هلال العسكري أيضاً، إلى أن العبرة بتأليف الألفاظ، ورصفها رصفاً خاصاً، وأن انتقاء الأديب لألفاظه دون أن يعنى بتأليفها، فقد يعجز عن إدراك غرضه، ولا يمتاز جامعها إلا بفضل تراكيبها، لأن " حسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً ومع سوء التأليف، ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية، فإذا كان المعنى سبياً، ورصف الكلام ردياً، لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليه طلاوة، وإذا كان المعنى وسطاً، ورصف الكلام جيداً، كان أحسن موقعاً وأطيب مستمعاً[٤]".

وهكذا يتضح بجلاء أن النقاد العرب القدامى، كما شغفوا بموسيقى المفردة اللغوية وجرسها، واجتهدوا في تخليصها مما يفقدها التلاؤم بين حروفها وحركاتها[٥]،

---

(١) ينظر: الأدب وفنونه، د. محمد مندور: ٣٨، (نشر معهد الدراسات العربية العالية).

(٢) يراجع، البيان والتبيين: ١/٦٦ - ٦٧.

(٣) البيان والتبيين: ١/٦٧.

(٤) كتاب الصناعتين: ١٦٧.

(٥) ينظر: النقد اللغوي عند العرب: ٢٩٣.

فقد حرصوا كذلك على موسيقى التراكيب، ذلك لأن الألفاظ مهما كان مستوى فنيتها، ودرجة فصاحتها وجمال صياغتها، فإنها لا تفي وحدها في صنع لغة الأدب بمعناها الفني الخاص، وهكذا يسعى الأديب إلى ائتلافها مع غيرها في تراكيب متوائمة، وبهذا تغدو طرائق تعبير مناسبة لإنهاء المعنى المراد أو الفكرة المتوخاة التي هي جوهر العمل الأدبي وفحواه.

ومن هنا نصل إلى حقيقة مهمة، تلك هي أن تراكيب الألفاظ واستعمالها في سياق التعبير له خاصية فنية، فقيمة اللفظ وأهميته تظهر من خلال اتساقه وتلاؤمه مع ما ينتظم معه من ألفاظ فيكسب الكلام نغماً تهش له النفوس، كما أن وضع اللفظة في موضعها المناسب، يكسبها مزية الحسن كما أن فقدان هذا الجانب، وتنافرها مع ما يجاورها من الألفاظ يكسبها سمة القبح والثقل[١].

ويعد عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) أوسع من تناول قضية الترابط التام بين اللفظ والمعنى من بين النقاد القدامى، وهو ما عرف عنده بنظرية النظم التي قامت على توخي معاني النحو في معاني الكلم[٢].

لقد اكد الجرجاني أهمية تأليف الألفاظ في سياق العمل الأدبي، وذهب إلى أن الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب[٣].

وهكذا نصل إلى نتيجة مهمة، هي أن نظرية النظم تقوم على التلازم بين اللفظ والمعنى، وهذا لا يتأتى إلا بتبعية الألفاظ للمعاني، وهذا لا يعني الترجيح لأن أحد

---

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي: ١٧٧.

(٢) تراجع تفاصيل هذه النظرية في كتاب (دلائل الاعجاز)، حيث ذهب الجرجاني إلى أن العلاقات الأسلوبية بين الألفاظ هي موطن البلاغة، وهي ما عبر عنه بالنظم، وما يعبر النقاد المعاصرون عنه بالشكل أو الصورة، ومن مجموع العلاقات بين الألفاظ في النص الأدبي تتكون الصورة وفيها تظهر البلاغة أو (الجمالية).

(٣) ينظر: اسرار البلاغة: ٣، حيث قرر الجرجاني - وهذا ما يماشي ما وصل إليه علم اللسانيات الحديث من آراء - أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات والألفاظ في ارتباطها هي التي تكون في النص الأدبي مجموعة الصور التي تنقل إلينا الشعور أو الفكرة. ينظر: الأدب وفنونه: ١١٥.

الأمرين لا يقوم إلا بالآخر، فهما صنوان وشريكان في الأهمية[١].

وقد تأثر بعض النقاد الغربيين المعاصرين وغيرهم، بما ذهب إليه الجرجاني حين أشار إلى أن " العبرة ليست في الألفاظ مفردة بل مركبة وإن الحكم على الأثر الأدبي يقوم على أداء العبارة للمعنى[٢] المراد".

فالأديب لحظة عكوفه على عمله الإبداعي، يتعامل مع لغته الفنية بخصوصية واضحة، متجاوزاً حدودها الوضعية (المعجمية) وكأن ما املته عليه تجربته الفنية الغامرة، تفرض على هذا الإحساس الجديد في استخدام تلك الأداة الفاعلة (اللغة) استخداماً فنياً منتجاً..

وفي القرن الرابع - الذي أصبحت فيه الكتابة فناً وصناعة - عني الأدباء الكتّاب بأساليب التعبير وعنوا أيضاً بصياغة جملهم، وحبك عباراتهم وتراكيبهم كما عنوا - وهذا ما مر بنا آنفاً - بمفردات تعابيرهم أو ألفاظهم، فدققوا بمواقع جرس الألفاظ، ووقف بعضهم عند التصرف بحروف المفردة اللغوية! ولعل مرد ذلك كله، أن (التركيب اللغوي) - بوصفه جزءاً حيوياً مهماً من العمل الأدبي - يسهم بشكل كبير في تقويم النص الفني وجماله وتأثيره.

وإلى جانب ما ذكرنا فهناك أمر مهم آخر أسهم في نضج صناعة الترسل في هذا القرن، ذلك هو أن جهابذة الكتّاب وصدورهم لم يعدموا الموهبة والطبع، فضلاً عن التصنيع الذي هو أمر مهم في الإبداع، ومن هنا فقد صدر هؤلاء الكتّاب في رصف جملهم وبناء تراكيبهم عن طبع موات وموهبة نادرة، فضلاً عما كان يمتلكه كثير منهم من إطلاع واسع، وثقافة عميقة متشعبة، وعشق لهذه الصناعة صناعة الترسل، وكلفهم بها....

لقد أدرك كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، أن جمال التركيب اللغوي في النص الأدبي، يتحقق عندما يكون بينه وبين سابقه ولاحقه من التراكيب والجمل ائتلاف وانسجام وتعادل نغمي، بحيث يتحقق من ائتلاف تلك التراكيب مجتمعة، الإيقاع الموسيقي العذب الرقيق الذي يضفي على أسلوب النص الأدبي ظلالاً وارفة من الفن والجمال.

---

(١) ينظر: كتاب، بناء القصيدة في النقد العربي القديم: ١١٩ - ١٢٠.

(٢) ينظر: رأي الناقد الامريكي (سينجارن) في المرجع نفسه: ١٣٣.

وهكذا راح هؤلاء الكتّاب البلغاء يجدّون في تنسيق جملهم وتراكيبهم اللغوية ويتأنقون في التأليف بينها اهتماماً كبيراً، لأنهم أيقنوا أيضاً أن مهمتهم في ترسلهم هي الإمتاع وإثارة اللذة لدى المتلقي، وقوة التأثير فيه، ولذلك حرصوا كثيراً على ذلك التوليف الفني بين فصول كلامهم، وخلق التعادل النغمي المناسب بين تلك الفصول أو التراكيب، وصولاً إلى تحقيق عنصر الإمتاع والتأثير، وكان ما مكنهم من تحقيق ذلك كله ما امتلكوه من قدرات كبيرة على التعامل مع مفردات اللغة الثرة، فضلاً عما امتلكوه من قدرة بيانية هائلة في تصوير الأفكار، وتجسيد المعاني بالأسلوب الذي يثير إعجاب المتلقي، ويؤثر فيه...

ولم يقصر الأدباء الكتّاب اهتمامهم على العناية بموسيقى الألفاظ والتراكيب ولم يصرفوا غاية جهدهم إلى الاهتمام ببناء النص الأدبي، والمواءمة بين جزئياته فحسب، وإنما عنوا أيضاً بالمعاني ومضمون العمل الأدبي - وهذا ما سنقف عنده في المبحث الثاني من هذا الفصل - لأنهم أدركوا أيضاً، أن الصياغة أو البناء والشكل، ليس إلا وسيلة لإبراز المعاني التي هي جوهر العمل الأدبي. وأن الألفاظ وائتلافها في تراكيب خاصة ليسا إلا إطاراً لتجسيد محتوى العمل الأدبي، وأدركوا بقوة أيضاً، أن المتعة الفنية - وهي من الغايات السامية والنبيلة للفن - لا تتحقق إلا بائتلاف اللفظ مع المعنى وتلاحم نسيج البناء والشكل مع المحتوى والمضمون.

- ٣ - الموسيقى والإيقاع:

إن الإيقاع والتناغم الموسيقي المنتظم في النثر الفني كالوزن في الشعر، وكلاهما - أي الإيقاع والوزن - له أثره الواضح وارتباطه العميق بالمستوى الفني للكلام المنثور أو المنظوم.

ومن هنا فقد ربط كثير من الباحثين المعاصرين بين موسيقى الشعر مثلاً ومعناه، وذهب بعضهم إلى أن هناك ارتباطاً حيوياً بين معنى الشعر وموسيقاه، لأن المعنى قد يضيع تماماً إذا فقدت القصيدة موسيقاها[1].

وهكذا قرر كثير من الدارسين أن موسيقى الشعر مثلاً، ترتبط ارتباطاً وظيفياً بالمعاني، فهي تساهم في إضفاء الأجواء العامة في نفس المتلقي للمعاني التي تطرق مسامعه، ولذلك ذهب بعض النقاد إلى القول: "إنَّ لكل عاطفة أو معنى، نغمة خاصة

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: لغة الشعر الحديث في العراق: ٢٧.

في الموسيقى والغناء، وهي اليق به، واقدر على تمييزه، لأنها صوته الطبيعي، وصورته الحسية الدقيقة"[(١)].

وقديماً، ميز الفيلسوف (أرسطو) في المقالة الثالثة من كتابه الخطابة، في باب الإيقاع الخطابي[(٢)]، ميز بين الإيقاع والوزن، وعدَّ الوزن نوعاً من الإيقاع، وقصره - أي الوزن - على الشعر، بينما جعل (الإيقاع) خاصاً بالكلام المنثور. يقول الفيلسوف ارسطو[(٣)]: "... وكل الأشياء محدودة بالعدد، والعدد الخاص بشكل القول هو الإيقاع، والأوزان (البحور) أقسام من الإيقاع، ولهذا ينبغي أن يكون النثر ذا إيقاع، لا ذا وزن، وإلا لكان شعراً، كذلك ينبغي ألا يلتزم هذا الإيقاع التزاماً دقيقاً، بل إلى حدّ ما فقط".

وهكذا قرر أرسطو أن (الأسلوب) يجب أن يكون ذا إيقاع، وأن شكل القول ينبغي ألا يكون ذا وزن، ولا بدون إيقاع؛ وعلل أرسطو ذلك بقوله: "فإنه إن كان ذا وزن، فإنه يفتقر إلى الإقناع، لأنه يبدو متكلفاً وفي نفس الوقت يصرف انتباه السامع، إذ يوجهه إلى ترقب عودة سياق الوزن.... وإذا كان بدون إيقاع، فإنه يكون غير محدود، بينما ينبغي أن يكون محدوداً (لكن لا بالزمن)، لأن ما هو غير محدود لا يسر، ولا يمكن أن يعرف "[(٤)].

ولعل ما قرره الفيلسوف أرسطو من وجوب الإيقاع في الكلام المنثور، وعدم التزامه فيه التزاماً دقيقاً، بل إلى حد ما، ثم ما ذهب إليه أيضاً من أن الوزن، في النثر، يصرف انتباه السامع، ويوجهه إلى ترقب عودة سياق الوزن لعل هذين الأمرين هما اللذان دفعا كثيراً من النقاد والباحثين المعاصرين إلى تسليط الضوء على ما للشعر من موسيقى وقيمتها الفنية في استجابة المتلقي للكلام المنظوم.

يقول الأستاذ إبراهيم أنيس[(٥)]: "والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباهاً عجيباً، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع من مقاطع لتتكون منها جميعاً تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تنبو إحدى حلقاتها عن

(١) اصول النقد الأدبي: ٣٢٢.

(٢) تراجع التفاصيل في كتاب الخطابة، المقالة الثالثة: ٢١١ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٢.

(٤) الخطابة: ٢١١، ٢١٢.

(٥) موسيقى الشعر: ١٣.

مقاييس الأخرى....".

ويصرح الأستاذ إبراهيم أنيس في موضع آخر - متأثراً بما قرره أرسطو أيضاً - بضآلة عنصر الموسيقى في النثر قياساً إلى الشعر، وإن الموسيقى في الشعر هي أسمى الصور الموسيقية للكلام وأدقها. يقول[1]: "ونثر الكلام قد يشتمل على نوع من الموسيقى نراها في صعود الصوت وهبوطه أثناء الخطاب كما قد نراها في صور قواف تنتهي بها فقرات ما يسمى بالسجع ذلك الذي يلتزم فيه غالباً طول معين، وعدد من المقاطع يكاد يكون محدداً، ففي كل هذا موسيقى، ولكنها في الشعر من نوع أرقى، بل هي في الشعر أسمى الصور الموسيقية للكلام وأدقها، لأن نظامها لا يمكن الخروج عنه".

وقد تنبه النقاد القدامى في هذا القرن أيضاً إلى أن (الوزن) يمثل جزء الشعر الذي بدونه يفقد قوامه، فابن طباطبا العلوي (ت ٣٢١هـ) مثلاً يعد الشعر مكوناً من أجزاء خمسة كان الوزن أحد أهم تلك الأجزاء[2].

وإلى هذا أيضاً ذهب الناقد قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) حين أراد حدَّ الشعر، إذ قال[3]: "وليس يوجد في العبارة عن ذلك ابلغ ولا أوجز من تمام الدلالة من أن يقال فيه: إنه قول موزون مقفى يدل على معنى...".

وهكذا نصل إلى حقيقة مهمة تلك هي أن الإيقاع يؤلف خصيصة عريقة ومهمة من خصائص التعبير الانفعالي، فهو - كما عبر عنه أحد الباحثين[4] "حركة تموج وتدفق وانسياب، وهو صوت المعنى في الشعر، إذ يصدر عن اندفاع التأثيرات الصوتية للألفاظ، وتتابع النبرات والتقطيعات والزخارف بتيار الوزن والقافية".

والإيقاع أيضاً كما ذهب ناقدٌ آخر[5] "تكرار مجموعة من المقاطع المحددة والوزن يقوم على تكرار حفنة من الإيقاعات والقافية كذلك".

وفي القرن الرابع إذ أصبح الترسل فناً وصناعة - لم تكن كتابة الرسائل الأدبية

(١) المرجع نفسه: ١٦.

(٢) تراجع التفاصيل في، عيار الشعر: ٢٥ - ٢٦.

(٣) نقد الشعر: ٦٤.

(٤) لغة الشعر الحديث في العراق: ٢٧.

(٥) نظرية البنائية في النقد الأدبي: ٣١١.

حشد ألفاظ أو رصف جمل، وفيض معان يسوقها الأديب الكاتب كيفما أراد، وأنى شاء، وإنما غدت صناعة تتطلب جهداً متميزاً، ودربة وممارسة وإذا كانت الكتابة أيضاً وعاء الفكر، وترجمان العقل، فقد تبوأ كتاب الرسائل الأدبية وغيرهم - كما الممنا بذلك مفصلاً في المبحث الأول من الفصل الثاني - مكانة سامية بين أدباء عصرهم لحسهم الفني الرفيع، وثراء لغتهم، إذ كان صدور الكتّاب خبيرين بأنواع اللفظ ومواقعه، بصيرين بمواضع جرسه والتصرف بكلمه وحروف عباراته....

ومما رفد أسلوب الكتّاب البلغاء في هذا القرن، بالحسن وجمال الأداء أيضاً، احتواؤه على الموسيقى، وما اتشحت به تراكيب رسائلهم الأدبية من تناغم الإيقاع الجميل.

أما أهم الأساليب أو الأدوات الفنية التي استعان بها الأدباء الكتّاب في هذا القرن على تحقيق ذلك التعادل الموسيقي، والتوافق النغمي بين الجمل والعبارات (تراكيبهم اللغوية)، فهي عديدة، أهمها وأكثرها شيوعاً، السجع، ثم الازدواج، فالتوازن والجناس، وغيرها، فضلاً عن أن بعض الكتّاب البلغاء كان يلجأ إلى ضروب أخرى من التقطيعات الصوتية الجميلة التي تجعل من الجمل القصيرة في تراكيبهم اللغوية معادلات موسيقية منظمة ومؤتلفة...

- أ - السجع(*):

السجع: هو تواطؤ (أي توافق) الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد[1]، وهو عند اهل البديع من المحسنات اللفظية، ومما يختص بالنثر، ولهذا قال السكاكي[2]: "الاسجاع؛ وهي في النثر كما القوافي في الشعر"، وقيل بل قد يجري في

(*) لعل ممن توسع في دراسة السجع، ووقف عنده، ودافع عنه، واتى إلى ذكر شروطه وأنواعه، وساق نماذجه من القدماء، ضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)، يراجع المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٩٣/١ وما بعدها (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩م)، وتراجع أيضاً دراسة د. زكي مبارك لأطوار السجع وتطوره، النثر الفني في القرن الرابع: ٧٥/١ - ١٢٢، وينظر أيضاً، (السجع والازدواج ١٣٧/١ -١٥٣)؛ ويراجع، السجع وأطوار استعماله في أدب العرب للباحث عبد الستار فوزي، (بغداد، ١٩٦٦) وينظر عن السجع أيضاً أستاذنا د. أحمد مطلوب، فنون بلاغية: ٢٤٤ - ٢٥٠.

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٩٣/١؛ وينظر الإيضاح - للقزويني: ٣٩٣.

(٢) مفتاح العلوم، ٢٠٣.

النظم أيضاً ويسمى بالترصيع، ذكر العسكري(١): "وقد أعجب العرب السجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوماً في منظوم، وسجعاً في سجع"، ومثل له بشواهد من شعر امرئ القيس من ذلك قوله: [من الطويل] " سليم الشظى، عبل الشوى، شنج النسا"، وكقول أبي تمام الطائي(٢): [من الطويل]

تجلى به رشدي، واثرت به يدي وفاض به ثمدي، وأورى به زندي

والسجع حلية لفظية قديمة، شغف بها الأدباء من الخطباء والكتّاب منذ عصور الأدب الأولى عند العرب، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية، فهو في أكثر اللغات يجري باطراد في الحكم والأمثال(٣).

والسجع أيضاً من أوصاف البلاغة في موضعه، وعند سماحة القول فيه وإن يكون في بعض الكلام لا جميعه(٤)، فهو حلية تقصد، ولكنها لا تلتزم - على عكس القافية في الشعر القديم - لما في التزامها من قهر المعاني على متابعة الألفاظ(٥).

ومن هنا فقد ذهب (ابن وهب) إلى القول: "فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته، فذلك جهل من فاعله، وعي من قائله(٦).

وعلى الرغم مما احاط بعض السجع من كراهية(٧)، لما فيه من تكلف، أو لدنوه من سجع الكهان، منذ عصور الإسلام الأولى، ما شاع بسبب ذلك من تحريمه! ثم انتفاء علة التحريم فيما بعد - كما أشار الجاحظ(٨) - وبسبب إسراف بعض الخطباء

---

(١) كتاب الصناعتين، ٢٧٠ - ٢٧١، ثم ذكر العسكري إن أهل الصنعة سمّتْ هذا النوع من الشعر المرصع، وعد قدامة (ت٣٣٧هـ) الترصيع من نعوت الوزن، قال: "وهو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به، أو من جنس واحد في التصريف. ينظر: (نقد الشعر: ٨٠ وما بعدها)، والشظى، عظم لاصق في ذراع الدابة والشوى، اليدان والرجلان، والشنج، التقبض، والنسا، عرق في الفخذ وأراد عدم بروزه.

(٢) تراجع التفاصيل في كشاف اصطلاحات الفنون: ٤/٧ وما بعدها.

(٣) ينظر كتاب: النثر الفني في القرن الرابع: ٧٥/١ وما بعدها.

(٤) تراجع التفاصيل في، فنون بلاغية: ٢٤٤.

(٥) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع: ٧٩/١.

(٦) البرهان في وجوه البيان: ٢٠٩.

(٧) يراجع ما أشار إليه الجاحظ، (البيان والتبيين: ٢٨٧/١).

(٨) ذكر الجاحظ يقول، (البيان والتبيين ٩٠/١)، قالوا: "فوقع النهى في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ... فلما زالت العلة زال التحريم ..." يراجع بقية النص لأهميته ...

والكتّاب في استخدامه - لكونه يزيد الكلام رونقاً ويكسب النص الأدبي بهاء - ووقوعهم أحياناً في الغثاثة والتكلف؛ فقد وقف منه بعضهم - وهم الأشعرية - موقف المنكر، ولذلك راحوا ينزهون القرآن الكريم من هذا الفن البلاغي[١].

ولعل هذا ما حفز بعض النقاد وعلماء البلاغة على الدفاع من السجع[٢] والتصدي لآرائهم. يقول ابن الأثير معللاً ذم بعض المنكرين للسجع[٣]: "وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم عن أن يأتوا به...".

ثم راح ابن الأثير يحتجُّ عليهم بكثرة وروده في التنزيل المجيد، ومضى إلى ابعد من هذا، إذ عد السجع بعض أسرار الإعجاز فيه، يقول[٤]: "وههنا وجه آخر، هو أقوى من الأول، ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً ابلغ في باب الإعجاز".

والناقد قدامة بن جعفر عد السجع من أوصاف البلاغة، على شرط أن يكون في موضعه، وعند سماح القريحة به، وإن يكون في بعض الكلام لا في جميعه، يقول[٥]: ".... فإنه ليس في كل موضع يحسن، ولا على كل حال يصلح ولا هو أيضاً إذا تواتر واتصل في الأبيات كلها بمحمود، فإن ذلك إذا كان دلَّ على تعمد، وأبان عن تكلف".

وجعل عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) مما يلزم التجنيس المقبول والسجع الحسن أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى. يقول[٦]: "لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً".

ثم أتى ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) إلى دراسة أقسام السجع، فقسّمه إلى ثلاثة أقسام،

(١) تراجع التفاصيل (كشاف اصطلاحات الفنون (السجع): ٧/٧ وما بعدها).

(٢) من الاراء السديدة في هذا الجانب ما سجله ابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة: ٤٢/١). إذ قال: "المذموم هو التكلف الذي تظهر سماجته وثقله للسامعين، فأما التكلف المستحسن، فأي عيب فيه؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك".

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٩٣/١.

(٤) المصدر نفسه: ١٩٨/١.

(٥) نقد الشعر، ٨٣ - ٨٤.

(٦) اسرار البلاغة: ١٠.

ثم قسمه تقسيماً آخر على اختلاف أنواعه إلى (السجع القصير) و (السجع الطويل)، وهو ضد الأول لأنه أسهل تناولاً[1].

وقد تابع ابن الأثير في هذا التقسيم للسجع صاحب الطراز، فذهب إلى أن السجع القصير أحسن وأوجز مسلكاً من الطويل، وأصعب مدركاً، واخف على القلب، وأطيب على السمع، لأن الألفاظ إذا كانت قليلة فهي أحسن وارق[2].

ومنذ أواخر القرن الثالث، ومطلع القرن الرابع للهجرة، بدأت حلية السجع تشيع في المكاتبات الرسمية بخاصة، حتى غدت هذه الظاهرة - كما أشار بعض المستشرقين[3]، الطريقة الجديدة المستحدثة عند كبار رجال الطبقة الخاصة في حاضرة الخلافة وقد كان ذلك حافزاً على اظهار صور البلاغة وأساليبها وبخاصة عند طائفة من الكتّاب الذين لم يأبهوا للاعتبار الديني في كراهية السجع..

وهكذا بدأ الأسلوب الموشى بالبديع والسجع بخاصة يشيع في رسائل كبار كتاب الديوان الرسمي - كالصابي وابن العميد واضرابهم - ثم بدأ ينتقل إلى المكاتبات الشخصية، ويشيع في الرسائل الأدبية، لا ستطرافه ونزوع الذوق العام إليه[4].

لقد صار السجع في القرن الرابع أسلوباً من أساليب الكتّابة، وفناً من فنونها، واصبح في اقلام الكتّاب آله من آلات البلاغة، ومقياساً للبراعة في صناعة الترسل، وربما كانت أكثر رسائل أبي اسحاق الصابي واضرابه من بلغاء الكتّاب في هذا القرن - كأبي الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، وشمس المعالي قابوس وغيرهم - تمثل " بدعة جديدة من " بدع الكتّابات المسجعة التي لم تكن موجودة من قبل في نتاج قرائح الفنانين من الخطباء والكتاب والمترسلين "[5].

---

(١) تراجع التفاصيل في، المثل السائر: ٢٣٨/١وما بعدها؛ وينظر أيضاً: الجامع الكبير، ٢٥٣.

(٢) الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: ٢٣/٣ (ط القاهرة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م).

(٣) ينظر: ما ذكره ادم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ٤٤٤/١ - ٤٤٥.

(٤) لقد أفاض الباحثون في تعليل شيوع ظاهرة السجع في الرسائل الأدبية إبان هذا القرن. ينظر: ظهر الإسلام: ١٣٣/١، النثر الفني في القرن الرابع: ١٢١/١، تاريخ الأدب العربي - بروكلمان: ٢/ ١٠٧ - ١٠٨، الأدب في ظل بني بويه: ١٩٦ - ١٩٧.

(٥) السجع وأطوار استعماله في أدب العرب: ٢٥.

فأبو اسحاق الصابي مثلاً، خطا بالسجع في رسائله الرسمية والإخوانية خطوات واسعة نحو الفن والإبداع، ما دفع ببعض الباحثين إلى القول: "إن سجعه يغاير سجع غيره من كتاب عصره كالخوارزمي والهمذاني والصاحب وغيرهم، فهو يهتم كثيراً بقصر سجعاته، وصقلها، وضغطها ضغطاً يجعلها لا تتجاوز الكلمتين أحياناً"(١).

يقول أبو اسحاق الصابي في فصل من رسالة له(٢): ".. من أصل راسخ، وفرع شامخ وحلم راجح، وقدر طامح، وأدب جزل، ومنطق وفصل وقريحة ثاقبة، ودراية صائبة ونفس سامية، وكف هامية...".

وقد مرَّ بنا آنفاً، إن النقاد القدامى قد استحسنوا السجع القصير، ورأوا انه كلما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من السامع، وذهبوا إلى أن هذا الضرب أوعر السجع مذهباً، وأبعده متناولاً، ويكاد استعماله لا يقع إلا نادراً(٣).

وتميز أبو إسحاق الصابي أيضاً في صياغة اسجاعه، أنه كان يختار المفردات العذبة، والتأليف الفصيح، وإن لفظهُ كان تابعاً لمعناه، وكانت كل سجعة في قرائن تركيبه اللغوي تدل على معنى مغاير لمعنى سابقتها، وهذا، كما نوه به ابن الأثير (ينظر المثل السائر ١/١٩٤) - من أهم شرائط الصياغة الفنية للسجع. يقول الصابي في فصل آخر من رسالة له(٤): "الحمد لله الذي لا تدركه الأعين بلحاظها، ولا تحده الألسن بألفاظها، ولا تخلقه العصور بمرورها ولا تهرمه الدهور بكرورها، والصلاة على من لم ير للكفر أثراً إلا طمسه ومحاه ولا رسماً إلا أزاله وعفاه".

اما أبو الفضل ابن العميد - وقد اقتفى أثره فيما سنذكره كثير من بلغاء الكتّاب في عصره - فكان أسلوبه يقوم على إيثار الأسجاع القصيرة الفواصل التي تترادف بين قرينتين قصيرتين أو أكثر فضلاً عن مزجها بحلي بديعية أخرى متناثرة، كالجناس والطباق والازدواج والموازنة والتورية، مع عذوبة الألفاظ المسجوعة وفصاحتها، وحلاوة التراكيب ورصانتها...

وكان أبو الفضل، إلى ذلك كله لا يلتزم السجع بين فواصل تراكيبه، وكان كثيراً

---

(١) ينظر: أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه: ٢٣٠.

(٢) المختار من رسائل الصابي: ٤٠٧.

(٣) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/٢٣٨، الجامع الكبير: ٢٥٣.

(٤) يراجع كشاف اصطلاحات الفنون: ٧/٧.

ما ينزع عنه إلى الازدواج، مع الاعتدال والبعد عن التكلف والغلو. كتب ابن العميد من رسالة له إلى بعض اخوانه[١]: "أنا أشكو إليك - جعلني الله فداك - دهراً خؤونا غدوراً، وزماناً خدوعاً غروراً، لا يمنح ما يمنح إلا ريث ما ينتزع، ولا يبقي فيما يهب، إلا ريث ما يرتجع، يبدو خيره لمعا ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جرعاً ثم يمتنع، وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض".

وبديع الزمان الهمذاني مثل كثير من الكتّاب البلغاء في عصره الذين التزموا السجع في رسائله ومقاماته، حتى غدت خصيصة مهمة من خصائص أسلوبه الفنية، إلا أن هذا الأديب المبدع تفرد عن كثير من أقرانه الكتّاب في عصره، كأبي بكر الخوارزمي مثلاً، بأنه كان يتعمّل في سجعه، ويذهب فيه إلى مرام بعيدة من الصنعة والصياغة....

فالسجع عند هذا الأديب الكاتب لم يعد في مقاييسه ذلك التوافق الصوتي بين حروف الفواصل الأخيرة في نهاية الجمل أو قرائن الكلام، وإنما أصبح أسلوباً فنياً آخر، يقوم على الإفراط في الالتزام به، وتفريعه والتفنن في ابتكار قوالب جديدة واطر مبتكرة[٢].

كتب بديع الزمان في فصل من رسالة إلى الشيخ أبي نصر الميكالي يشكوه أحد عماله[٣]: "... أف لقولك ولفعلك، ولدهر أحوج إلى مثلك، وأنا اسأل الشيخ الجليل أن يبيض وجهي بكتاب يسود وجهه، ويعرفه قدره، ويملأ رعباً صدره، إلى أن تبين على صفحات جنبه، أثار ذنبه".

اما أبو بكر الخوارزمي - الذي لم يكن يخفي عشقه لحلية السجع، والتنويه إعجاباً به فيما كان يطلع عليه من فصول نثرية مسجعة[٤]، فإنه كان أيضاً من بلغاء الكتّاب الذين أكثروا من اتخاذ السجع أسلوباً فنياً لتزيين رسائله الإخوانية وقد افتن كثيراً في صياغته، فتارة يأتي السجع في نهاية فواصل طويلة وتارة أخرى يسوقه في

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٦٠١/٢.

(٢) ينظر: رسالة أبي بكر الخوارزمي حياته وأدبه: ٢٩٨.

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب: ٦٠٧/٢.

(٤) رسائل أبي بكر الخوارزمي، رسالته الجوابية إلى علي بن داية، ٣٦، ورسالة إلى أبي محمد العلوي، ٤٤، وغيرها في مواضع متفرقة.

فواصل أو قرائن قصيرة - وهذا الضرب هو الذي يفضله النقاد - من ذلك ما ورد في فصل من رسالة إلى أبي محمد العلوي، وقد جمع هذين اللونين من السجع[١]: "ورأيت نفسي وقد اكتنفها أربعة أشياء، ما منها شيء إلا وهو يقرب عليها مسافة الممات، ويقطع عنها علائق الحياة، خصم فاجر، وسلطان جائر وبخت عاثر وزمان غادر".

وكثيراً ما كان أبو بكر الخوارزمي يقرن حلية السجع في رسائله الإخوانية بحلي وزخارف بديعة أخرى، لعل أكثرها الطباق والمقابلة والجناس وغيرها، فكان يضفي على أسلوبه رقة وإيقاعاً، وعلى معانيه جلاء ووضوحاً.

كتب إلى تلميذ له في فصل من رسالة إخوانية وقد فوض إليه إشغاله[٢]: "كتابي، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت، وقدمت من رأيي ما أخرت، لما أمضى الفراق فينا حكمه، ولا أنفذ فينا سهمه، ولا قمنا جميعا، ولا رحلنا معا، واني لا اظلم الفراق إذ شكوته، واتعنف الدهر إذ هجوته....".

على أن أبا بكر الخوارزمي لم يسلم من التكلف أحياناً غير قليلة، في صياغة بعض حلي أسجاعه، فتظهر عليها غثاثة اللفظ وسماجته، وتبعية المعنى للفظ، وهذا ما استقبحه بعض النقاد القدامى في صياغة السجع وألوان البديع الأخرى...

كتب إلى أبي حامد الاديب بقومس فصلاً من رسالة إليه[٣] "أنا بكتاب شيخي إذا ورد علي أشد سروراً من المشتاق إلى التلاق، بعد طوال الفراق، ومن العاشق بالعناق، ومن الأسير بالاطلاق، ومن الفارك بالطلاق...".

- ب - الازدواج:

الازدواج: هو أن يراعي الأديب أو منشيء الرسالة الوزن، أو التقابل الإيقاعي في جميع كلمات القرينتين، أو في أكثرها، وهو أحسنها، وأعلاها.

وقد أعطى بعض علماء البلاغة القدامى للازدواج منزلة كبيرة في منثور الكلام، فأبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) يؤكد أهمية الازدواج فيقول[٤]: "لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من

(١) المصدر نفسه: ١٨.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٩.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٨١.

(٤) كتاب الصناعتين: ٢٦٦، ما بعدها.

الازدواج..."، ثم أشار العسكري إلى كثرة وروده في القرآن الكريم حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً عما تزاوج في الفواصل منه.

والازدواج من الحلي البديعة اللفظية التي تكسب الكلام أو النص الأدبي رواءً وإيقاعاً، وتضفي على تراكيب النص بهاءً وإشراقاً.

وتتحقق حلية الازدواج - كما اتفق علماء البلاغة. - في الكلام المنثور، ولا تكون في الوشي المنظوم، فتخلق عذوبة الإيقاع في الأسماع من خلال التوافق النغمي، والتقابل في الوزن بين كلمات القرائن في النص الأدبي.

وفي عصور الأدب العربي التي سبقت هذا القرن كان منشئو الرسائل الأدبية يتنقلون بين الوان عديدة من صور الموسيقى والإيقاع النغمي في ترسلهم والتي تتحقق من خلال براعتهم في الصياغة الفنية العالية ولعل أكثر تلك الأنغام الإيقاعية تداولاً بينهم هي السجع والازدواج والموازنة وغيرها من صور الإيقاع والوان التقطيعات الموسيقية الجميلة...

وفي القرن الرابع أصبحت حلية السجع - كما مرَّ بنا انفاً - من أكثر ألوان الإيقاع وصور الموسيقى التزاماً من لدن الأدباء ومنشئي الرسائل الأدبية، حتى غدت خصيصة واضحة من خصائص أسلوب الكثير من أولئك المترسلين(١) وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من هؤلاء الكتّاب كانوا يميلون أيضاً إلى استخدام ألوان أخرى من الإيقاعات النغمية لعل أكثرها شيوعاً الازدواج والموازنة والتجنيس وغيرها.

ولقد رأى النقاد القدامى أن كتاب الرسائل الأدبية أو الرسمية يستطيعون تحقيق أكبر قدرٍ من الموسيقى والإيقاع لتراكيبهم اللغوية، إذا لجأوا إلى هذه الحلية (الازدواج).

ومن هنا، فقد جدتْ طائفة من المترسلين وكتاب الدواوين في هذا القرن تؤثر حلية الازدواج، فضلاً عن السجع من حين إلى آخر، لعل في مقدمة هؤلاء المترسلين، أبا الفضل ابن العميد وأبا حيان التوحيدي والشريف الرضي وأبا هلال العسكري وغيرهم.

كتب أبو الفضل ابن العميد في فصل من رسالة له إلى أبي عبد الله الطبري(٢):

---

(١) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع: ١/١٣٨.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ٤/ ١١٢٠.

"وقد حرمت رؤيتك، وعدمت مشاهدتك، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع انس متشتت بلا نظام، وقد قرأت كتابك - جعلني الله تعالى فداءك - فامتلأت سروراً بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك، وما أقرظها فكلُّ خصالك مقرظ عندي، وما امدحها فكلّ أمرك ممدوح في ضميري وعقدي".

وهكذا يتضح هذا التقابل النغمي بين كثير من ألفاظ القرائن في تراكيب هذا النص الأدبي، ونظيره أيضاً ما ورد في رسالة أدبية للصاحب بن عباد في ذم قلم وقد أبدع غاية الإبداع(١): "... تستغيث الحروف من التوائه، وتستأنس السطور من استوائه، إن قلت: سر وقف، وإن حثثته بالأنامل قطف، فألفاظي في سنيه مأسورة، ومعاني في شقيه محصورة....".

ومما يزيد تراكيب النص الأدبي إيقاعاً، فضلاً عن تقابل كلمات القرائن في الوزن، تماثل الفواصل أو المقاطع في الوزن والتقفية أيضاً، وقد شاعت هذه الظاهرة الفنية كثيراً في رسائل بلغاء الكتّاب في هذا القرن.

يقول العسكري(٢): "إن أمكن أيضاً أن تكون الأجزاء متوازنة كان أجمل وينبغي أيضاً أن تكون الفواصل على زنة واحدة، وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد، فيقع التعادل والتوازن".

ومن بدائع ما ورد من نماذج الازدواج الذي تقابلت فيه الفواصل أو المقاطع في الوزن والتقفية؛ ما ورد في رسالة للعسكري في وصف كتاب(٣): ".... فتأمله، فلم ادر ما تأملت؛ أخطاً مسطوراً أم روضاً ممطوراً، أم كلاماً منثوراً؟ أم وشياً منشوراً؟ ولم ادر ما أبصرت في أثنائه: ابيات شعر؟ أم عقود در؟ ولم ادر ما حملته: أغيث حل بوادٍ ظمآن؟ أم غوث سيق إلى لهفان؟".

ويلاحظ هذا التقابل الجميل أيضاً في رسالة للوزير الصاحب، وفيها يقول(٤): "وليس ببدع أن يجود كلامه، وتعتدل أقسامه، ويتهذب بيانه، ويتسع جنانه، وقد راض العلوم حتى أعطته زمامها، ومارس الآداب حتى ملكته خطامها....".

---

(١) ديوان المعاني: ٢/٨٤.

(٢) كتاب الصناعتين: ٢٦٩.

(٣) ديوان المعاني: ٢/٨٥.

(٤) المصدر نفسه: ٢/١٠٢.

ويلحظ القارئ بوضوح هذا التقابل الوزني بين (يجود)، و (تعتدل) و (يتهذب) و(يتسع)، ويلحظ هذا التقابل أيضاً بين كلمات القرينتين الأخيرتين: (راض) و (مارس)، و (الآداب)، و (العلوم) و (أعطته)، و (ملكته)، فضلاً عن اتحاد الفواصل في الوزن والتقفية بين (كلامه) و (أقسامه)، وبين (بيانه) و (جنانه)، وبين (زمامها)، و (خطامها)، وفي هذا كله قدر كبير لا يخفى من التناسب والموسيقى والايقاع الجميل.

ومن بلغاء الكتّاب المترسلين الذين شاع في نثرهم الفني ظاهرة الازدواج في هذا القرن أيضاً: أبو حيان التوحيدي الذي نحا في هذا الجانب منحى الجاحظ، وتأثر بأسلوبه. ولعل أشهر رسالة أدبية للتوحيدي تجلت فيها حلية الازدواج؛ ما ورد في رسالته القيمة إلى صديقه أبي الوفاء المهندس يشكو حاله ويعاتبه، ويرجوه المعونة، ومما ورد فيها(١): "... حتى املك بها ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير الذي قد اشبع كل جائع، وكسا كل عارٍ، وتألف كل شارد، وأحسن إلى كل مسيء، ونوه بكل خامل، ونفق كل هزيل، واعز كل ذليل...".

وقد جمع التوحيدي أيضاً مثل كثير من بلغاء هذا القرن، بين تقابل ألفاظ القرائن في الوزن، وبين تماثل أواخر الفواصل في الحرف الأخير، مما أضفى على موسيقى تراكيبه قدراً أوفى من الإيقاع، وروعة النغم. يقول(٢): "والله إن الوزير مع أشغاله المتصلة، وأثقاله الباهظة.... يرعى القليل من الحرمة، ويعطي الجزيل من النعمة... ويزرع الخير، ويحصد الأجر، ويواظب على كسب المجد، ويثابر على اجتلاب الحمد، وينخدع للسائل، ويتهلل في وجه الآمل....".

ويلحظ القارئ بوضوح أن الكاتب قد زاوج بين ألفاظه (اشغاله) و (اثقاله)، و(القليل)، و (الجزيل)، و (يزرع)، و (يحصد) و (يواظب)، و (يثابر)، كما ماثل بين فواصل القرائن (الحرمة)، و (النعمة) و (الخير)، و (الاجر)، و (المجد)، و (الحمد)، و(السائل)، و (الآمل). وفي هذا التناسب والتقابل والتماثل ما لا يخفى من الاعتدال في الكلام، وجمال الايقاع ورقة النغم....

وتطرد حلية الازدواج كثيراً في رسائل الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير، حتى غدت أسلوباً فنياً كثيراً ما يلجأ إليه، ويأتي مقترناً مع سجعه وتجنيسه

---

(١) الامتاع والمؤانسة: ٣/٢٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٢٢٩.

اللذين كانا لازمةً من لوازم الموسيقى والإيقاع الفني في جمله وتراكيبه في جميع سائله الأدبية التي وصلت إلينا.

ومن نماذج الازدواج التي جاءت متناغمة مع حلية السجع، ما كتبه في رسالته إلى أبي الفضل ابن العميد[١]: "... فمن مر على أرجاء بحره الهياج، ونظر في لألاء بدره الوهاج، خليق بأن يكبو قلمه بأنامله، وينبو طبعه عن رسائله...".

ولا يخفى ما أضفاه تقابل القرينتين (مر، نظر) و (إرجاء ولألأ) و (بحره وبدره) في الوزن من إيقاع وتناغم، فضلاً عن تماثل لفظتي (الهياج) و (الوهاج): في الوزن والتقفية من موسيقى عذبة يقترب ... معها النص النثري إلى سحر الشعر وجمال إيقاعه، ورقة وزنه...

ونظير ذلك أيضاً ما ورد في فصل من رسالة له إلى الوزير ابن العتبي[٢]: "الشيخ يعتنقُ هذا الأمر اعتناق مجتلب مواجب الشكر، مجتنب مذاهب العذر.... فإني لا اعرضه للملامة، ولا اقرعه سن الندامة، بل اجنيه جني الوفاء، واقيه لواحق الاستحياء".

وقد اخذ كتاب الرسائل الأدبية في أواخر هذا القرن، والقرن الذي أعقبه يغالون كثيراً في تصنعهم في استخدام حلي البديع في ترسلهم، ولا سيما السجع، وكان للأزواج أيضاً نصيب في ايغال بعض الكتّاب باستخدامه في فصول رسائله وترصيع جمله بأنغام وقعه، وسحر موسيقاه....

من ذلك ما يطالعنا في رسالة أدبية (إخوانية) لأبي على الحسين بن أبي الطيب الباخرزي، وقد أكثر من تقابل كلمات القرائن في رسالته، وتماثلها في الوزن والتقفية، مما ورد فيها[٣]: "فلان ما سال بالنوال عفواً على الاخوان وقت الشراب والقيان، إلا نضب النيل المائج خفراً من إسراف صلته ونواله، ولا اختال في النزال خطواً إلى الأقران تحت الضراب والطعان، إلا هرب الفيل الهائج حذراً من إجحاف صولته ونكاله".

وهكذا تتضح قدرة هذا الأديب الكاتب، وسحر بلاغته - على الرغم مما في تضاعيف رسالته من تكلف وصنعة واضحة - وتمكنه من تقابل كلمات القرائن في

(١) كمال البلاغة: ٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٨.

(٣) دمية القصر وعصرة أهل العصر: ٣٦٩/٢ - ٣٧٠.

جميع جزئيات هذا الفصل من الرسالة، وتزاوجها في الوزن، وتماثلها في الإيقاع، مع تباعد الفواصل.

- ج - الموازنة(*):

الموازنة: هي من الحلي البديعية اللفظية أيضاً، وتقوم على تحقيق الأديب أو منشئ الرسالة الأدبية، التوافق الصوتي (او الوزني) بين فواصل العبارات في تراكيب النص الأدبي المنثور.

ويفهم من حد الموازنة عند ابن الأثير، إنها تأتي في المنثور والمنظوم، يقول[1]: "وهي أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزناً...".

وإلى ذلك أيضاً ذهب صاحب الطراز فقال[2]: "وورودها عام في المنظوم والمنثور". وتحقق الموازنة في الكلام المنثور بخاصة، طلاوة ورونقاً، لما تضفيه على النص (او التركيب) من الاعتدال. يقول ابن الأثير[3]: "وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلةً وقعت من النفس موقع الاستحسان". وقرن ابن الأثير أيضاً الموازنة بالسجع في المعادلة دون المماثلة، يقول[4]: "وهذا النوع من الكلام هو اخو السجع في المعادلة دون المماثلة؛ لأن في السجع اعتدالاً وزيادة على الاعتدال، وهو تماثل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد، وأما الموازنة ففيها الاعتدال الموجود في السجع، ولا تماثل في فواصلها، فيقال إذاً كل سجع موازنة، وليس كل موازنة سجعاً وعلى هذا فالسجع اخص من الموازنة".

وذهب أبو هلال العسكري[5] إلى أن أحسن صور الموازنة وأكملها هي التي "تتحد فيها الفواصل في الوزن وفي الحرف الأخير" واستدل العسكري على قيمتها في

(*) الموازنة: أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية، وهي قريبة من بعض أنواع السجع، غير انه مع اتفاق الأواخر، في حين لا يشترط فيها ذلك. (ينظر: فنون بلاغية: ٢٥٦/١)

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٧٨/١.

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣٨/٣، ويراجع فنون بلاغية: ٢٥٧ - ٢٥٨، حيث أورد المؤلف شواهد عديدة للموازنة في المنظوم.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٧٩/١.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧٩/١.

(٥) كتاب الصناعتين: ٢٦٧.

الكلام...، وما تحققه من جمالية في النص، وشغف أهل البيان بالموازنة، إنهم ربما غيروا الكلمة عن وجهها، طلباً للموازنة بين الألفاظ، واتباع الكلمة أخواتها[١].

وفي القرن الرابع أدرك كتاب الرسائل الأدبية وبلغاؤهم، ما لحلية الموازنة من طلاوة وحسن موقع في موسيقى تراكيبهم فاتخذها كثير منهم أسلوباً؛ لإضفاء التعادل النغمي، أو التماثل الإيقاعي بين فواصل جملهم، وتهيئة أعظم قدر من الموسيقى في تضاعيف تراكيبهم.

وحسبنا شاهد على ما ذهبنا إليه؛ إن أبا القاسم الصاحب بن عباد - الذي اشتهر بميله إلى السجع في ترسله وكلفه به - ترك اسجاعه في بعض رسائل الإخوانية الجوابية، من ذلك مثلاً ما كتبه إلى الأمير شمس المعالي قابوس جواباً عن رسالته، مقتصراً فيها على حلية الموازنة بين فواصلها، ومما ورد فيها قوله[٢]: "أيادي الأمير مولاي - ادام الله تأييده - وإن طالت باع الشكر، وبهرت ضياء الصبح، وقيل فيها: هذه أبكار المجد، واعيان المكارم الزهر، فإن كتابه الوارد آنفاً - يعزيني فيه عن فاجعة الرزء، ويهديني به لواضحة الصبر ويزيدني معه علماً بأخلاق الدهر - نعمة غراء تترك النعم ضئيلة الشخص، وتفوتها فوت السماء والأرض. فها انا مرتهن بها بقية العمر، مسلم لها مقر بالعجز، مستخف - لجلالها - ما أثقلني من أعباء الحزن....".

وتتواصل هذه الرسالة الغراء إلى نهايتها في توظيف حلية الموازنة بين نهايات فواصلها.

واشتهر أبو الفضل ابن العميد، بكثرة استخدامه لحلية الموازنة بين فواصل رسائله الإخوانية بخاصة، ونزوعه عن حلية السجع إليها كتب في إحدى فصول رسائله الإخوانية يقول[٣]: "... ولو توضحت بأنوار الربيع الزاهر وشدخت جبينك غرة البدر الباهر، واستعرت من الصباح ثوبا، وخضت اوضاح النهار خوضاً، ما كنت إلا غفلاً".

ولأبي الفضل ابن العميد أيضاً في إحدى فصول رسائله في الحكمة والعظة

---

(١) ساق أبو هلال العسكري، بعض الشواهد على ذلك منها قول الرسول (ص) وهو يعوذ الحسين (عليه السلام): "اعيذه من الهامة والسامة وكل عين لامة " وإنما أراد (ملمة) فعدل عن وجهها قصداً للموازنة وصحة التسجيع. وتنظر شواهد أخرى في كتاب الصناعتين: ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) كمال البلاغة: ٧٣/٧٤.

(٣) ديوان المعاني:: ١/ ١٨٩.

والاعتبار يقول[1]: "خير العقول ما اغناك جدّه والهاك هزله " ويتضح بجلاء في هذين المقطعين من رسالتي الوزير الأديب، تقابل المقاطع أو الفواصل: (ثوبا خوضا، غفلا) في الوزن واختلافها في التقفية، وكذا يقال في الفاصلتين (جده هزله)، وما في هذا التقابل والتوافق النغمي من إيقاع عذب مستساغ.

وشكلت حلية (الموازنة) إحدى التلاوين الإيقاعية الشائعة في فصول رسائل أبي إسحاق الصابي - ولا سيما في رسائله الإخوانية - الذي اشتهر بعنايته الفائقة بموسيقى ألفاظه وتراكيبه.

كتب الصابي في إحدى فصول رسائله إلى بعض الرؤساء يستميحه ويطلب رفده[2]: "... فهو لا يلتمس فضله إلا جزاءً، ولا يستدعي طوله إلا قضاءً؛ والأمير بكرمه الغريب، ومذهبه البديع، يؤثر أن يكون السلف له، والابتداء منه....".

فوزان الكاتب - إلى جانب التزامه حلية السجع في فواصل تراكيبه السابقة - بين مقاطع جمله وفواصله، وهي: (الغريب، البديع، له، منه) وزناً دون الالتزام فيها بالتقفية، فحققت مجتمعة مع المقاطع المسجعة السابقة ظلالاً ورافةً من البهجة، ورقة النغم..

وممن أكثر من المواءمة بين السجع والموازنة بين فواصل تراكيبه من بلغاء الكتّاب في هذا القرن أيضاً، الأديب الكاتب أبو الفرج الببغاء.

كتب في أحد فصول رسائله في التهنئة بالعود من الحج[3]: "جعل الله سعيك مشكوراً، وحجك مبرورا، ونسكك مقبولاً، واجرك مكتوباً....".

ويظهر جلياً انسياب فواصل الجمل من خلال هذا الإيقاع المتناسب الذي حققه السجع بين المقطعين (مشكورا، مبرورا)، ويتواصل هذا التوافق الإيقاعي بظلال الفاصلتين: (مقبولا، مكتوبا) اللتين اتحدتا نغماً رقيقاً منساباً مع الفواصل السابقة، لتكون نسيجاً ايقاعياً متناغماً اضفى على هذا التركيب اللغوي قدرا ملموساً من الرقة والسلاسة..

---

(١) خاص الخاص، الثعالبي: ١١.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ٩٥٩/٤.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ٣٢/٩ - ٣٣.

- د - التجنيس(*):

التجنيس من حلي البديع اللفظي المهمة التي استعان بها الكتّاب البلغاء في هذا القرن أيضاً على تحقيق التوافق النغمي والتعادل الموسيقي بين الجمل والعبارات في فصول الرسائل الأدبية.

وحقيقة الجناس وحدّه - كما أوجزه أبو هلال العسكري[١]: "أن يورد المتكلم - في الكلام القصير نحو البيت من الشعر، والجزء من الرسالة أو الخطبة - كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها....".

ورأى ابن الأثير: أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً، وذهب إلى القول[٢]: "وإنما سمي هذا النوع من الكلام مجانساً لأن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد". وعلى هذا فإنه: اللفظ المشترك، وما عداه فليس من التجنيس في شيء، ووصفه ابن الأثير أيضاً بأنه: "غرة شادخة في وجه الكلام " وأشار إلى تصرف البلغاء من أرباب هذه الصناعة فيه، واختلافهم في تبويبه وتقسيمه، وإدخالهم بعض تلك الأبواب في بعض[٣].

ولقد أولى عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) التجنيس عناية كبيرة[٤] وأوضح

(*) اطلق عليه الناقد قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) اسم المجانس، وجعل المطابق والمجانس من صفات الشعر، وهما داخلان في باب ائتلاف اللفظ والمعنى، ومعناها أن تكون في الشعر معان متغايرة، قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة. (ينظر: نقد الشعر: ١٦٣ - ١٦٤)، وسماه ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، (التجنيس)، وجعله ضروباً كثيرة. (ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/٥٠٣ - ٥١٨)، وممن فصل القول فيه أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) في كتابه الصناعتين: ٣٣٠ - ٣٤٥؛ حيث فصل القول في حده، ثم اتى إلى التجنيس في القرآن وفي كلام النبي (صلى الله عليه وسلم)، ثم في اشعار المتقدمين والمحدثين، ثم اتى إلى ضروبه، ثم ذكر بعضاً مما عيب منه، ممن فصل القول فيه أيضاً: ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) في كتابه: (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/٢٤٦ - ٢٦٣) حيث قسمه إلى سبعة اقسام، وتراجع أيضاً دراسة استاذنا الدكتور أحمد مطلوب في هذا الموضوع في: (فنون بلاغية: ٢٢٣ - ٢٣٧).

(١) كتاب الصناعتين: ٣٣٠ وما بعدها.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/٢٤٦.

(٣) المصدر نفسه: ١/٢٤٦ وما بعدها.

(٤) اسرار البلاغة: ٦/١٩، وينظر أيضاً: دلائل الاعجاز: ٤٠١ - ٤٠٣.

ميزته وتأثيره، ونوّه إلى أنه - كغيره من فنون البلاغة - لايحسن إيراده في الكلام إلا إذا اقتضاه المعنى، وتطلب وروده، قال[١]: "فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً. ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلاب وتأهب لطلبه، أوما هو لحسن ملاءمته - وإن كان مطلوباً - بهذه المنزلة...".

وقد تأثر الخطيب القزويني[٢] (ت ٧٣٩هـ) بعبد القاهر، ونحا نحوه في تعليل جمال هذا الفن البلاغي، ومدى تأثيره في نفس المتلقي حين يتطلبه المعنى ويستدعيه. ثم ما لبث التجنيس عند البلاغيين المتأخرين، إن أصبح حلية لفظية مثقلة بالزينة إذ عكف عليه الأدباء لتحسين ألفاظهم، واندفع بعض المصنفين المتأخرين، تبعاً لذلك، إلى التأليف فيه، فبالغوا في تقسيمه وتفريعه حتى أوصله بعضهم إلى ما يقارب الستين صنفاً[٣].

وفي القرن الرابع - الذي شهد انتقال النثر الفني من الأسلوب المرسل إلى اسلوب التضيع الفني الذي قام على التوسع في فنون البديع، والالتزام ببعضها كالسجع مثلاً - حيث اتيح للنثر الفني تبوّؤ فحول من الكتّاب، ملكوا أزمّة البلاغة، وناصية البيان، وعرفوا بسعة الثقافة، وثراء اللغة؛ فازدادت - تبعاً لذلك - معارفهم بفنون القول، وأسرار جماله، وبرعوا في ابتداع أساليب مبتكرة وتفتيق معان جديدة، واستلهام صور ذهنية بعيدة، أثرت البيان العربي، وامدته بنسغ جديد من أفانين الصور والاخيلة وطرائق التعبير....

وكان من بين ما حظي بعناية أولئك البلغاء والفحول من الكتّاب في هذا القرن، فن التجنيس، إذ أصبح أدراجه، مع فنون بلاغية أخرى كالسجع مثلا في ثنايا ترسلهم، من أخصّ صناعة النثر الفني، كما تجلى بوضوح مثلاً، في رسائل الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير، حتى ذهب اليزدادي إلى استخراج ما ابتدعه الأمير قابوس من

(١) اسرار البلاغة: ١.

(٢) ينظر: الإيضاح: ٣٨٤.

(٣) ينظر: كتاب جنان الجناس للصفدي، بدلالة كتاب فنون بلاغية: ٢٣٦.

أفانين البديع في رسائله - ولا سيما الجناس - فأوصلها إلى أربعة عشر لوناً[١]، وهذا ما حفزه إلى المبالغة في أن يدعي " إن هذه اللغة العربية قد عادت في نشأة أخرى بهذه الطريقة البديعة"[٢].

وممن عني بحلية التجنيس من أدباء القرن الرابع أيضاً: أبو الفتح البستي الذي افتنَّ فيه كثيراً، يقول الثعالبي منوّهاً بعناية البستي بهذه الحلية[٣]: "صاحب الطريقة الانيقة في التجنيس الانيس، البديع التأسيس، وكان يسميه (المتشابه) ويأتي فيه بكل طريقة لطيفة".

لقد أولع كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيراً بأنواع الجناس غير التام - أو ما اصطلح عليه بعض علماء[٤] البلاغة المعاصرين بالجناس الناقص - واتوا منه بأنواع عديدة في ثنايا رسائلهم، ولعل في مقدمة أولئك الكتّاب البلغاء الأمير قابوس بن وشمكير، وبديع الزمان الهمذاني وغيرهما.

ومن أنواع الجناس الناقص التي شاعت في رسائلهم مثلاً، ما كانت الألفاظ المتجانسة فيها من جنس بعضها، وقد سماه (اليزدادي) بالجناس المجانس[٥]، ومما ورد منه في رسائل الأمير قابوس، قوله من رسالة له إلى خاله الأصبهبذ يعاتبه: "وكيف يعرض عمن تعرض رفاهة العيش باعراضه، وتنقبض الارزاق بانقباضه، واضاء نجم

---

(١) ذكر عبد الرحمن اليزدادي (في كمال البلاغة: ١٩ وما بعدها) هذه الالوان، مع شرح نماذجها وهي: المجنح، المتزاوج، الممثل، المبالغة، ابداع القرائن، المجانس المتضاد، المتوأم، المخلخل، المردد، المتشابه، مشابه الصورة، المعكوس، ذو نوعين.

(٢) المصدر نفسه: ٣٠.

(٣) يتيمة الدهر: ٣٤٥/٤ - ٣٥٠، ويراجع أيضاً ما أخرجه الثعالبي من فصوله القصار، ومن ألفاظه وأمثاله وما اشتملت عليه من غرر التجنيس في أدبه (اليتيمة: ٣٤٨/٤ وما بعدها).

(٤) ينظر: مثلاً ما ذهب إليه الأستاذ د. أحمد مطلوب في (فنون بلاغية: ٢٢٤) حيث قسم الجناس بصورة عامة، إلى جناس تام (وهو الكامل أو المستوفي) وهو ما اتفقت فيه - الكلمتان في اللفظ والوزن والحركة، ولم يختلفا إلا من جهة المعنى - وهو عند ابن الأثير (المثل السائر ٢٤٦/١) ما دل على حقيقة التجنيس لأن لفظه واحد لا يختلف - وجناس ناقص: ويأتي على انحاء مختلفة - وعدا ابن الأثير من هذا القسم ستة أنواع: وصفها بأنها مشبهة بالقسم الأول، وهو التام - (ينظر المثل السائد: ٢٥٣/١وما بعدها).

(٥) يقول في (كمال البلاغة: ٢٤): "واما الجناس قسيمته به لأن اسمه مشتق من لفظ الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض".

الاقبال إذا اقبل واهلَّ هلال الجدّ إذا تهلل[١]".

وكقوله أيضاً في الرسالة نفسها: "... اين الطبع الذي هو للصدود صدود، وللتآلف ألوف ودود[٢]"، فالصدود وصدود من جنس واحد، وكذا التآلف وألوف. ومن علماء البلاغة من جعل لهذا اللون من الجناس اسماً غير الذي ذكرناه آنفاً، فأطلق عليه (جناس الاشتقاق)، ومنه ما جاء في رسالة لبديع الزمان إلى سعيد الإسماعيلي[٣]: ".... فما ترك لي من فضة إلا فضها، ولا ذهب إلا ذهب به، ولا علق إلا علقه، ولا عقار إلا عقره، ولا ضيعة إلا أضاعها ولا مال إلا مال إليه، ولا سيد إلا استبدَّ به، ولا لبد إلا لبد فيه، ولا بزة إلا بزها.....".

فقد جانس الهمذاني بين ألفاظ مختلفة المعنى غير أنها من اشتقاق واحد، وجنس واحد، ولا يخفى ما لهذا اللون من التجنيس من سحر الايقاع، وجمال النغم وما أحدثه في موسيقى التراكيب من تقابل وتماثل تستفز المتلقي، وتثير انتباهه..

ومن الوان الجناس الناقص التي تناثرت في رسائل هذا القرن أيضاً، وبخاصة في رسائل الأمير قابوس؛ ما أسماه. (اليزدادي)؛ بالجناس المتشابه[٤].

ومما ورد منه في رسائل قابوس بن وشمكير، قوله في رسالته إلى الأصبهبذ[٥]: "... وهاجر بهجره واصرَّ على صرمه، ومال إلى الملال ولم يصل نار الوصال".

فجانس بين الألفاظ (هاجر وهجره، ومال والملال، ولم يصل والوصال) ويلاحظ أن إحدى اللفظتين وقعت (فعلاً)، بينما جاءت الثانية (اسما).

ونظير ذلك أيضاً، ما ورد في رسالة أبي اسحاق الصابي إلى الوزير المهلبي[٦]: "وقد خدمت سيدنا بداوة تداوي مرض عفاته، وتدوي قلوب عداته على مرفع يؤذن بدوام رفعته، وبارتفاع النوائب عن ساحته". فجانس الكاتب بين (مرفع ورفعته وارتفاع) وبين (دواة وتداوي وتدوي)، وهي ألفاظ متجانسة في اللفظ، وهي ليست من جنس

---

(١) كمال البلاغة: ٥٤.

(٢) كمال البلاغة: ٥٣ - ٥٤.

(٣) زهر الآداب وثمر الآداب: ٥١٧/٢ - ٥١٨.

(٤) ذكر اليزدادي في سبب تسميته يقول: "فسميته به لوقوع الكلمات المتشابهة الألفاظ والحروف في القرينتين ": كمال البلاغة: ٢٥.

(٥) كمال البلاغة: ٥٧.

(٦) تحفة الوزراء: ١١٢.

اشتقاقها.

ومن ذلك أيضاً ما ورد في رسالة لأبي علي بن أبي الطيب الباخرزي(١): "لا زالت معادن المعادين بصولته مروعة، ومساكن المساكين بصلته مريعة...". فجانس بين (معادن والمعادين)، (ومساكن والمساكين)، وهي أيضاً ليست من جنس اشتقاقها، وقد أحدثت تقابلاً متناغماً، وتعادلاً لا يخفى حسنه في الكلام.

ومن ألوان التجنيس الناقص التي وظفها كتاب الرسائل الأدبية في مكاتبهم أيضاً: ما كانت فيه الألفاظ المتجانسة متساوية في الوزن والصورة، مختلفة في التركيب أو التأليف بحرف واحد لا غير(٢).

ومن نماذج هذا اللون من الجناس الناقص، ما ورد في رسالة للأمير قابوس إلى أبي عبد الله ابن ونديوه الكاتب(٣): "... إذا حالف، فأحسبه قد خالف، وإذا اعار، فأحسبه قد اغار". فجانس الكاتب بين (حالف وخالف)، وبين (أعار وأغار)، وبين (احسبه واحسبه) وجميعها جاءت في صور واحدة، وقد اختلفت في تأليفها بحرف واحد.

وكقوله أيضاً في رسالة له(٤): "التردد بين الرخاء والبأس، والرجاء واليأس" فجانس بين لفظتي (الرخاء والرجاء) و (البأس واليأس).

ومن هذا اللون من الجناس الناقص ما ورد في رسالة للصابي(٥): "وهو راتع رتعة النعم السائمة في اكلاء النعم السابغة". فجانس أبو اسحاق الصابي هنا بين لفظتي (النعم، والنعم). ومنه أيضاً ما ورد في رسالة لأبي الفضل الميكالي إلى أبيه يهنئه(٦): "اعاد عهد السرور جديداً، ورد طرف الحسود كليلا وقد كان حديداً". فجانس بين لفظتي (جديداً وحديداً).

---

(١) دمية القصر وعصرة اهل العصر: ٣٦٩/٢ - ٣٧٠.

(٢) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٢٥٤/١، وقد جعله ابن الأثير القسم الثاني من المشبه بالتجنيس، بينما سماه اليزدادي - الذي لاحظ كثرة وروده في رسائل الأمير قابوس - جناس (مشابهة الصورة)، يقول: "فسميته به لتشابه صور الكلمات في الخط " كمال البلاغة: ٢٥.

(٣) كمال البلاغة: ٥٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢١ - ٢٢.

(٥) المختار من رسائل الصابي: ١٢١.

(٦) زهر الآداب وثمر الألباب: ١٧١/١ - ١٧٢.

ومن هذا اللون من الجناس الناقص أيضاً، ما ورد في رسالة لأبي علي الحسن بن أبي الطيب الباخرزي إلى بعض السادة يعاتبه[١]: "... واني لا افارق حضرته، حتى يفارق الاس خضرته " فجانس بين (حضرته) و (خضرته).. ومثله كثير في رسائلهم..

ومن ألوان التجنيس الناقص، ما يساوي وزنه تركيبه، إلا أن حروفه تتقدم وتتأخر، وقد جعله ابن الأثير القسم السادس من المشبه بالتجنيس[٢].

ومن نماذج هذا اللون من التجنيس، ما ورد في فصل من رسالة للصابي[٣]: "لم يدع في الأرض نظيراً يدانيه، ولا قريناً يناديه...".

فجانس بين لفظتي (يدانيه و (يناديه)، إذا جاءتا على وزن واحد وتركيب حروف متشابهة، غير أنهما اختلفتا في ترتيب الحروف.

ونظيره أيضاً ما ورد في رسالة لأبي الفضل الميكالي إلى ابيه يهنئه[٤]: "... بما لم تزل الآمال تتنسم روائحه وتترقب غادي صنع الله فيه ورائحه، واثقة بأن عادة الله الكريمة عنده تسايره، وترافقه، وتلزم جنابه فلا تفارقه..."

فقد جانس أبو الفضل الميكالي في هذا الفصل من رسالته بين لفظتي. (روائحه) و (ورائحه)، وبين لفظتي (ترافقه) و (تفارقه)، فأضفى هذا التقابل الجميل على جمله ايقاعاً متناغماً، يتلمسه المتلقي بيسر عند قراءة النص أو سماعه.....

ومن الوان التجنيس الناقص التي لجأ إليها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن أيضاً ما عرف (بالجناس المعكوس)، وقد عالجه الأمير قابوس كثيراً في فصول رسائله الأدبية. يقول اليزدادي مشيراً إلى سبب تسميته[٥]: "فسميته به لانعكاس الألفاظ في القرينتين باختلاف المعنى".

ومن نماذج ما ورد من الجناس المعكوس في فصول رسائل الأمير قابوس ابن وشمكير، ما ورد في رسالته إلى ابن وندويه الكاتب[٦]: "شيمته رفع الخامل الوضيع،

---

(١) دمية القصر وعصرة أهل العصر ٣٦٩/٢.

(٢) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٦٣/١.

(٣) المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي: ١٠٤.

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب: ١٧١/١ -١٧٢.

(٥) كمال البلاغة: ٢٦.

(٦) المصدر نفسه: ٥٨.

ووضع الفاضل الرفيع....".

وكقوله أيضاً في فصل من رسالة أخرى[١]: "فاعلم انه لا يسوء في ما يسرك، ولا يسرني ما يسوءك، واني لا اكره ما تحبه، ولا أحب ما تكرهه".

ومن صور التجنيس المعكوس أيضاً ما ورد في رسالة أبي الفتح المحسن بن إبراهيم، إذ كتب في وصف يوم بارد[٢]: "هذا يوم يحمد جمره ويجمد خمره، ويخف فيه الثقيل إذا هجر، ويثقل الخفيف إذا هجم...".

فقد جانس الكاتب بعكس الألفاظ (يخف الثقيل)، و (يثقل الخفيف).

ومن نماذجه أيضاً ما ورد في فصول الأديب أبي الفتح البستي القصار التي جرت مجرى الحكم والعبر السديدة، من ذلك قوله[٣]: "عادات السادات، سادات العادات".

وقد ذكر هذا اللون من التجنيس ضياء الدين ابن الأثير، وجعله على ضربين: أحدهما - عكس الألفاظ: وهو ما مثلنا لنماذجه في الشواهد النثرية الآنفة والآخر - عكس الحروف: وهو من ضروب التجنيس النادرة[٤].

ومن ألوان التجنيس الناقص التي شاعت في رسائل بلغاء الكتّاب في هذا القرن أيضاً: ما كانت الألفاظ فيه مختلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، وقد جعله ابن الأثير القسم الثالث من أقسام المشبه بالتجنيس[٥].

من ذلك مثلاً ما ورد في رسالة للصابي يعرّض فيها بالمتنبي[٦]: "فلما صار بدير العاقول، عقلته فيها جرائره، وحجرت المنية بينه وبين الأمنية". فجانس بين لفظتي (المنية والأمنية) وقد اختلفتا وزناً وتركيباً بزيادة الهمزة.

ونظيره ما ورد في رسالة لقابوس إلى ابن العميد يعزيه:[٧]: "إذا كان كذلك فالتهالك فضل على كل هالك". فجانس بين (التهالك)، و (هالك).

---

(١) المصدر نفسه: ٢٢.

(٢) خاص الخاص: ١٣.

(٣) يتيمة الدهر: ٣٤٨/٤.

(٤) تراجع التفاصيل في: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٦٠/١ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه: ٢٥٥/١.

(٦) المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي: ٣٥.

(٧) كمال البلاغة: ٤٠.

ومن بدائع ما ورد من هذا التجنيس قول أبي الفتح البستي في بعض حكمه(١): "عسى تحظى في غدك برغدك ": فجانس بين (غدك) و (رغدك).

وكقول أبي الفضل الميكالي في بعض فصوله القصيرة(٢): "فلو استطاع قلبي سعى إليه أعناقاً، والتفت عليه عناقاً". فجانس بين (اعناقاً)، و (عناقاً).

وهذا اللون من التجنيس الناقص كثير جداً في رسائل بديع الزمان؛ من ذلك ما ورد منه في رسالته إلى الشيخ الإسفراييني(٣): "إني لا أعدم في كنفه المال، وابلغ في دولته الآمال". فجانس بين لفظتي (المال) و (الآمال).

وفي كل هذه الشواهد التي قدمناها لهذا اللون من الجناس الناقص، يتلمس القارئ ما فيها من تقابل في الإيقاع، وتناسب في النغم، مما يضفي على النص أو الكلام جمالاً ورونقاً..

اما الجناس التام(٤)فقد اختلف بعض علماء البلاغة القدامى في تسميته أو نعته، فابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) جعل التجنيس ضروباً كثيرة؛ منها (المماثلة)، وعني بها الجناس التام، والمماثلة عنده: "أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى(٥)". بينما مسماه (ابن الأثير) ت٦٣٧هـ بالتجنيس (الحقيقي)، وذكر انه ما كان اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً، ثم ذكر يقول: "وعلى هذا فإنه هو اللفظ المشترك، وما عداه فليس من التجنيس في شيء "(٦).

لقد كان الجناس التام اقل شيوعاً في رسائل بلغاء الكتّاب من قسيمه الناقص في هذا القرن، ولعل مرد ذلك إلى ما يحققه (الناقص) من إيقاع يفوق نظيره (التام)، فضلاً عما يبعثه من استفزاز المتلقي، وإثارة نشاطه وانتباهه.

---

(١) يتيمة الدهر: ٣٤٩/٤.

(٢) يتيمة الدهر: ٤١٠/٤.

(٣) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٥.

(٤) اطلق طائفة من علماء البلاغة المعاصرين هذا المصطلح على الجناس الذي تتفق فيه اللفظتان لفظاً وتختلفان معنىً. ينظر: فنون بلاغية: ٢٢٤، حيث قال المؤلف: "الجناس التام أو الكامل أو المستوفي هو أن تتفق الكلمتان في لفظهما ووزنهما وحركاتهما ولا يختلفان إلا من جهة المعنى".

(٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٥٠٣/١.

(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٤٦/١.

ولا يحسن هذا اللون من الجناس أيضاً، إلا ما جاء منه عفو الخاطر، أو ما يستدعيه المعنى وظرف المقام، من هنا فقد جاءت بعض استخداماته في رسائل الكتّاب إبان هذا القرن، سمجة أو متكلفة، يبين عليها سمة الرثاثة والغثاثة.. من ذلك مثلاً ما ورد في فصل من رسالة لأبي بكر محمد بن أحمد اليوسفي(١): "الشوق الذي اقاسي يصدع الحجر القاسي، والذي مر برأسي يهد الجبل الراسي، من نواكب أوهت المناكب، وعوارض شيبت العوارض، ومحن عظام أثرت في العظام، وللأنام دول متعاقبة، وللصبر الجميل عاقبة".

ومما اخذ على أبي إسحاق الصابي، قوله في بعض فصول رسائله(٢): "فشهرت بمدينة السلام، واعز بذلك الإسلام"(٣).

ومن صور الجناس التام، ما ورد في فصل من رسالة أبي علي الباخرزي(٤): "فالكريم مرتجى، وأن يلف بابه مرتجا، والنفس موقنة بأن ستسر بهلال طلعته، وإن استسر". ومما يستساغ من حلي هذا اللون من الجناس ما ورد في بعض فصول أبي الفتح البستي(٥): "من لزم السلم سلم". ونظيره في جمال الإيقاع؛ قول اليوسفي(٦): "أراني الله بها أهلاً، كانوا للفضل أهلاً".

وفضلاً عما تقدم، فإن كثيراً من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، لم يكن يقتصر على استخدام حلي السجع أو الازدواج أو التوازن أو التجنيس لإضفاء التناغم الجميل أو الإيقاع المناسب على موسيقى جمله وتراكيبه، وإنما لجأ كثير منهم أيضاً إلى استخدام الجمل القصيرة الموقعة، والتقطيعات الموسيقية المتقابلة والمتناسبة الطول، بحيث ظهر فيها بوضوح عنصر التناغم الذي قد يقترب معه النثر إلى سمات الشعر وعذوبته وموسيقاه.

ومن نماذج تلك التقطيعات الموسيقية الرقيقة المتقابلة، ما يطالعنا في هذا الفصل من رسالة أبي حيان إلى صديقه أبي الوفاء المهندس، ويلاحظ قصر الجمل،

(١) تتمة يتيمة الدهر: ٢١٠/٥.

(٢) ينظر: أبو إسحاق الصابي، حياته وأدبه: ٢٣٢.

(٣) المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي: ٨٢.

(٤) دمية القصر وعصرة أهل العصر: ٣٦٩/٢.

(٥) يتيمة الدهر: ٢٤٩/٤.

(٦) تتمة يتيمة الدهر: ٢١٠/٥.

وتقابل الفواصل[١]: "أيها الكريم، ارحم، والله ما يكفيني ما يصل إليّ في كل شهر من هذا الرزق المقتر الذي يرجع بعد التقتير والتيسير إلى اربعين درهماً، مع هذه المئونة الغليظة، والسفر الشاق، والأبواب المحجبة والوجوه المعطبة، والأيدي المسمرة، والنفوس الضعيفة، والأخلاق الدنيئة....".

وهكذا يتضح عمق الكاتب وبلاغته وسحر أدائه، من خلال ترادف هذه الجمل القصيرة، التي ظللتها توقيعات موسيقية عذبة، أضفت على فصل هذه الرسالة إيقاعاً جميلاً متناغماً، فضلاً عما تحقق في النص من جلاء الفكرة، وتشقيق المعنى وتوضيحه...

ونظير ذلك أيضاً، ما يطالعنا في فصل جميل لأبي الفرج الببغاء إذ يقول[٢]: "لم أر أحسن من وجه المحسن، واقبح من وجه البخيل، وأقضى للحاجات من الدرهم، وأثقل من أجرة المنزل، وأجفى من الدهر، واطيب من الانس، وآنس من الكتب، وأشد من حرب البحر".

وهكذا يصل الباحث إلى حقيقة مهمة، تلك هي: أن كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن - بما امتلكوه من سعة الثقافة، وثراء اللغة، وبما تأثروا به من روافد الحضارة وسيولها الزاخرة - قد افتنوا كثيراً في إضفاء ارق التلاوين الإيقاعية، وأعذب الحلي الموسيقية على جملهم وعباراتهم، ليجلّوا عن أفكارهم ويفصحوا عن معانيهم بأجمل الصور النغمية، وارق الأساليب التعبيرية.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢٢٧/٣.

(٢) خاص الخاص - الثعالبي: ٤١.

المبحث الثاني

خصائص المحتوى والمضمون

❖توطئة

❖ المحور الأول: المعاني والأفكار:

- أهمية المعنى في العمل الأدبيّ وأهم ملامحه الفنية:

١) الإبانة والوضوح:

❖ الطباق أو التضاد ❖ الإيضاح بعد الإبهام

❖ المبالغة والغلو

٢) الإفاضة والاستقصاء في المعاني:

❖ الترادف ❖ التكرار ❖ الاعتراض (أنواع الاعتراض)

٣) الابتكار والتجديد في المعاني:

- دواعي الابتكار والتجديد وأسبابه.

- ضربا المعاني المبتكرة

❖معان مبتكرة على مثال سابق ❖ معان مبتكرة على غير مثال سابق

المحور الثاني: الأخيلة والصور:

❖أهمية الخيال ❖ مصطلح الخيال وتطور مدلوله

❖الصورة الفنية... وصلتها بالخيال

❖أساليب بناء الصورة في الرسائل الأدبية

❖تصوير المحسوسات والمعنويات في الرسائل الأدبية في القرن الرابع...

❖الصور البلاغية (الفنية).. أنواعها وأساليب بنائها...

- التشبيه.. دلالته الفنية وأنواعه..

- المجاز الإستعاري.. دلالته الفنية وأنواعه..

- الكناية أو الإرداف.. دلالتها الفنية وتنوع أساليبها..

- المحور الثالث: الانفعال أو العاطفة الأدبية:

❖أهمية العاطفة أو الانفعال في العمل الأدبيّ

❖الانفعالات الحسيّة والمعنوية.

❖مقومات عنصر العاطفة وقيمتها في الرسائل الأدبية:

- صدق الانفعالات والمشاعر

- قوة الانفعالات وثباتها في العمل الأدبيّ

- تنوع الانفعالات وسموها...

المبحث الثاني

خصائص المحتوى والمضمون

سبقت الإشارة، في المبحث الأول من هذا الفصل، إلى أن (المضمون) هو جوهر العمل الأدبيّ، أو الأساس فيه، وطبقاً لذلك، فإن هذا الجزء الحيوي هو الذي يحفز الأديب الفنان لخلق عمله الإبداعي أو إنشائه...

وقديماً، عدَّ الفيلسوف أرسطو الموضوع، إلى جانب الدليل، أحد جزئي الكلام الأساسية، ذكر يقول(١): "الكلام يتضمن جزئيين، إذ لا بدَّ من ذكر الموضوع الذي نبحث فيه، ثم بعد ذلك نقوم بالبرهنة... ذلك أنّهُ حين نبرهن إنما نبرهن على شيء، ولا نذكر الشيء إلا من أجل البرهنة عليه".

وهكذا وضع أرسطو - وهو ينظِّر لأجزاء الكلام في الخطبة - الموضوع (المضمون) ضمن أولوية أجزاء الكلام، ولذا فإنّهُ رأى أن هذا الجزء الجوهري يجب أن يقرن بالأدلة لتوكيده وإثباته، ورأى أيضاً أنّهُ غالباً ما يمهّد له لإيضاحه، وغالباً ما يعنى أيضاً بوضع خاتمة له لإيجازه وتحديد أبعاده.

وعلى الرغم من أهمية المضمون في العمل الأدبيّ، إلا أن كثيراً من الفلاسفة والنقاد القدامى والمعاصرين - كما حلّلنا ذلك في مستهل المبحث الأول من هذا الفصل - ذهبوا إلى اتحاده وتمازجه مع سائر عناصر العمل الأدبيّ وعدم إمكانية الفصل بين المضمون - المعنى وما يُحيطُهُ من عواطف وصور تجسّد ذلك المعنى - وبين الصياغة الفنية - الأسلوب أو الشكل - أي ديباجة النصّ الفنيّ وألفاظه وتراكيبه، وما يتخلّلها من موسيقى وإيقاع.

فالشكل والمضمون هما مظهران اصطلاحيان لجوهر التجربة الأدبية ولا يمكن الفصل أو المفاضلة بينهما وفق مقياس حسابي تجريديّ، كما يبدو ذلك للوهلة الأولى(٢).

ولعلّ ما يؤكد هذه الحقيقة التي أجمع عليها الكثير من أولئك الذين وقفوا عند هذا الموضوع، أننا نرى أن (المفردة اللغوية) التي هي أصغر لبنة في لغة العمل الأدبيّ،

---

(١) الخطابة، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي: ٢٣٤.

(٢) ينظر: الشكل والمضمون في الشعر العربي المعاصر - أ. د. عناد غزوان: ٨ (بحث علمي منشور ضمن كتاب الشعر والفكر المعاصر). (سلسلة كتاب الجماهير) منشورات وزارة الإعلام - بغداد ١٩٧٤.

تبتعد عن كونها مجرد وسيلة للتعبير، وأداة للتخاطب، وإنما تكاد تصبح - إلى جانب هذا كلِّه - غاية في ذاتها، إذ يحرص الأديب على أن تكون لغته مأنوسة موحية رائعة، وتنطوي على قدر كبير من الطرافة والجمال[1].

ومن جانب آخر، فإن جدية ما يتناوله الأديب الفنان في عمله الإبداعي من قضايا مهمة وجسيمة، يجعل للمعاني والأفكار والآراء أهمية بالغة من حيث الطرافة والعمق والابتكار، جديرة بأن تعرض في صور مناسبة وألفاظ مأنوسة؛ ليحقق العمل الأدبيّ الإمتاع والتأثير.

ولما كانت التجربة الأدبية (الإبداعية) التي تمثلت بالرسائل الأدبية في هذا القرن - بوصفها مظهراً أدبياً وحضارياً ترتبط بالبيئة، وتتأثر بأحوال المجتمعات الإسلامية الخاصة، فضلاً عن أنّها تُعبِّرُ عن جمهور المتلقين، وذات الأديب الكاتب نفسه -فقد اقتضى منهج هذا البحث أن احلّل محتوى الرسائل الأدبية، وأردَّ مضامينها إلى ثلاثة محاور مهمة متصلة هي:

المحور الأول: المعاني والأفكار:

وسيتكَّفلُ الباحث في هذا المحور الكشف عن أهمية المعنى وقيمته في رسائل الكتاب أبان هذا القرن، وسيجلّي البحث هنا عن حقيقة مهمة، تلك هي أن عناية الكتاب بألفاظهم وموسيقى تراكيبهم وانكبابهم على تزويق أساليبهم كان بدافع عنايتهم بمعانيهم، وجلاء أفكارهم، فضلاً عما كانوا يسعون إليه في هذا الجانب من ابتكار المعاني والتجديد فيها وتوليدها.

المحور الثاني: الأخيلة والصور:

وسيجلّى البحث في هذا المحور أيضاً عن حقيقة مهمة - فضلاً عن قيمة الخيال، وأثره المهم في العمل الأدبيّ لكونه جزءاً من المضمون الذي يشكّل جوهر النصّ الأدبيّ - تلك هي أن كتاب هذا القرن قد برعوا كثيراً في الوصف، وافتنوا في خلق صور حسيّة وذهنية بعيدة، سعياً وراء ابتكار المعاني وتوليدها، فضلاً عن جلاء الأفكار وعرضها...

المحور الثالث: الانفعال أو العاطفة الأدبية:

وسيكشف البحث في هذا المحور عن أثر العاطفة الأدبية - بوصفها

---

(١) ينظر كتاب: ملامح النثر العباسي: ٢٨٠ - ٢٨١.

إحساساً ذاتياً - في رسائل هذا القرن، وتوجيه لغتها الأدبية، وما أضفته على أجوائها من جمال فني لا سيما حين تظَلُّ أجواء تلك النصّوص عواطف صادقة قوية تتسمُ بالعمق والشمول الإنساني، وحين تكون أيضاً متدفقة منسابة، غير متكلفّة أو مصطنعة...

***

المحور الأول: المعاني والأفكار:

المعنى: ركن مهمّ من أركان العمل الأدبيّ، وعليه يتوقف نجاح الأديب أو إخفاقه في عمله الإبداعي، فعلى قدر ما يوفّرهُ الأديب لمعانيه من عمق ووضوح وابتكار - فضلاً عن الإحاطة بالموضوع الذي يجول فيه وتوفير ما يوائمه من جزئيات المعاني - فإنّهُ يحقق لنتاجه الأدبيّ الكمال والخلود والشمول الإنساني - وكثيراً ما تخبو جذوة بعض الأعمال الأدبية، أو تفقد رونقها أو طلاوتها فلا تكتسب الشهرة والخلود لضحالة معانيها أو لافتقارها إلى الأصالة والوضوح.

وفي القرن الرابع أصبحت (المعاني) جانباً مهماً آخر مما عني به بلغاء الكتاب، إلى جانب عنايتهم بالبناء الفني، والصياغة الشكليَّة لنصوص رسائلهم الأدبية، كما مرَّ بنا آنفاً في المبحث الأول من هذا الفصل، إذ لم تقتصرْ عناية أولئك الكتاب البلغاء على الألفاظ والتراكيب، وتهذيبها، والحرص على جرسها وموسيقاها، أو رصانة بنائها، وإنما عنوا أيضاً بالمعاني والأفكار، وافتنوا كثيراً في جدتها وأصالتها ودقتها ووضوحها...

ولعلّ عناية كتاب هذا القرن بحلي السجع وألوان البديع الأخرى، وحرصهم على تزويق ألفاظهم وتراكيبهم، ومبالغتهم في تدقيق حواشيها، وصقل أطرافها، يعكس بوضوح عناية الأدباء الكتاب بالأسلوب، وصياغة الشكل؛ خدمة للمعاني؛ لأنّهم أدركوا أنّ المعاني الشريفة الجليلة قد يشوهها عرضها في معرض غير حسن، أو قد يشوبها الكدر إذا لم تُعرض في صورة جميلة.

ولعلّ أبا هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) لم يجانب الصواب حين حدَّ البلاغة - وهي فنُّ القول - بأنّهَا: "كلَّ ما تبلغ به المعنى قلب السامع... مع صورة مقبولةٍ

ومعرض حسن".[١]

وهكذا جعل هذا الناقد (حسن الصورة، وجمال المعرض) شرطاً في بلاغة القول لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة، ومعرضه خلقاً لم ينعتْ بالبلاغة...

وقد أدرك بلغاء الكتاب في هذا القرن أيضاً، أن المعاني أشرف قدراً، وأكرم موقعاً، واقرب إلى نفوس المتلقين من سواها من عناصر العمل الأدبيّ وأركانهُ، ولعلّ هذا ما يُفسِّرُ كلف الشعراء والكتاب في هذا القرن باقتناص أَبكار المعاني، وتباريهم في توليدها وابتكارها، لسحر تأثيرها في المتلقي، ومن جانب آخر، فقد عني بلغاء الكتاب بالألفاظ، وموسيقى التراكيب، لأنّهُما واجهة المعاني وعنوانهما وأنهُما الوسيلة المهمة لإظهار مقاصدها.

وقد أكد هذه الحقيقة الناقد ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) فقد ذكر في معرض تحليله للصناعة المعنوية يقول[٢]".... فالعرب إنما تحسّنُ ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها، فالألفاظ إذا خدم المعاني، والمخدوم لا شكَّ أشرف من الخادم، فاعرف ذلك وقس عليه".

وإذا كانت المعاني - كما صرّح أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) - " مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية... "[٣] فإن بلغاء الكتاب في هذا القرن، قد ملكوا أزمّتها وأدركوا غايتها، وانفسح أَمامهم - لما امتلكوه من ناصية البيان واللغة وقوة المخيلة - عوالمها الفسيحة فراحوا يحلّقون بعيداً في مدارجها ويغترفون كلَّ ما يرومونه منها دون مشقة أو عناء...

وهكذا نصلُ إلى حقيقة مهمة، تلك هي أن عنصر (المعنى) في رسائل الكتاب البلغاء. إبان هذا القرن كان من الأمور المهمة التي منحت هذا الفن الأدبيّ الأصالة والإبداع، وأضفت عليها ظلالاً وارفةً من الجمال والفن، وجعلت الرسائل الأدبية فناً

---

(١) كتاب الصناعتين: ١٠ (تحقيق الأستاذين البجاوي وأبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/ ٣٥٥ (المقالة الثانية - في الصناعة المعنوية).

(٣) البيان والتبيين: ٧٦/١ (الناشر مكتبة الخانجي - الطبعة الخامسة - مصر ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥) ومن المناسب أن نشير هنا إلى ما ذكره الناقد ابن الأثير من أن حكماء اليونان أول من قام بحصر أصول المعاني الخطابية، غير أن ذلك الحصر كان كلياً لا جزئياً ثم أشار إلى استحالة حصر جزئيات المعاني، وما يتفرع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها. (تراجع التفاصيل في: المثل السائر: ١/ ٣١٠ وما بعدها).

راقياً يستثير المتلقي ويوقظ مشاعرهُ وأحاسيسه ويستفزّهُ للانفعال مع فصوص فصولها الأنيقة.

وكان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن - إلى ذلك كلّه - ونتيجة لعنايتهم بمعانيهم، يحشدون للموضوع الواحد في رسائلهم الأدبية بخاصة ألواناً عديدة من المعاني الحسيّة والذهنية المتنوعة، وتكمن براعتهم وعبقريتهم أيضاً في إدراكهم المتميز للصلة بين الموضوع الذي يعالجونه، والمعنى الذي يشكل جوهره، فضلاً عن عمق الصلة بين المعنى واللفظ، كما المحنا إلى ذلك في دراستنا لموسيقى الألفاظ والتراكيب في المبحث السابق من هذا الفصل.

وعندما يحاول الباحث أن يستجلي معاني الأدباء الكتاب أبان هذا القرن في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية، فإنّهُ يستوقفه فيها الملامح الفنية أو الخصائص الأسلوبية الآتية:

١ - الإبانة والوضوح:

ما من ريب في أنّ الدقة والوضوح في التعبير الأدبيّ من أدق أوصاف الكلام البليغ، وقد أكد بعض النقاد، أنّهُ ليس من باب البلاغة الإغراب في اللفظ، والتعمق أو التعقيد والمعاظلة في المعاني، وعنده أَنَّ أفصح الكلام، ما أفصح عن معانيه ولم يحوج السامع إلى تفسير له[١].

وقديماً، عدَّ الفيلسوف أرسطو[٢] الوضوح من أهم مزايا الأسلوب، ورأى أنّ الكلام إذا لم يجعل المعنى واضحاً، لا يؤدي وظيفته الخاصة، ورأى كذلك أنّهُ ينبغي ألا يكون وضيعاً ولا فوق مكانة الموضوع بل مناسباً له.

وقد سبقت الإشارة إلى أَنَّ أغلب معاني كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كانت ترتبط بالموضوعات التي عالجوها في رسائلهم ارتباطاً وثيقاً، وكانت العلاقة بينهما كعلاقة الكل بأجزائه المختلفة، ومن هنا فقد التقى جلّ كتاب الرسائل الأدبية إبان هذا القرن، فيما طرقوه من المعاني الواضحة، ليوفروا على القارئ أو المتلقي إدراك فحوى ما تناثر في رسائلهم الأدبية من معان وأفكار بيسر، ودونما عناء، " لأنَّ

---

(١) ينظر: نقد النثر: ١٠٥، وذهب المؤلف إلى أن الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى، والبليغ ما بلغ المراد.

(٢) الخطابة: ١٩٦ (المقالة الثالثة).

الكلام إنما وضع ليعرف به السامع مراد القائل "[١].

لقد لجأ كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن - بوصف أنّ الرسائل تعبيراً قولياً بالألفاظ والجمل - إلى تخيّر ما يرونه في تلك الألفاظ من وضوح وقوة تأثير ليحملوها الأفكار والمعاني التي يرغبون بإيصالها إلى المتلقين؛ تحقيقاً لما يسعى إليه الكتاب البلغاء في رسائلهم الأدبية - بوصفها ضرباً من الفن - من التأثير والإمتاع، وإدراكاً منهم أيضاً أنّهُ بغير هذا الوضوح لا يستطيع المتلقي إدراك المعاني التي يبسطونها في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية. ولعلّ هذا الأمر هو الذي دفع جلّ الأدباء الكتاب في هذا القرن إلى أن يلجأوا في رسائلهم الأدبية إلى وسائل أسلوبية أو طرائق تعبيرية عديدة مختلفة، لتحقيق هذا الوضوح في معانيهم، وجلاء أفكارهم، لعل أهمها ما يأتي:

أ - الطباق أو التضاد:

الطباق: من المحسنات البديعية المعنوية، وهو من الفنون التي تؤدي إلى إيضاح المعنى وتقريب الصورة[٢]. وقد جعله الأديب الناقد ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) اللون الثالث من محاسن الكلام[٣]، بينما عدَّهُ الناقد قدامه ابن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) من نعوت المعاني وأطلق عليه تسمية (التكافؤ)[٤] وأراد به أن يصف الشاعر أي معنى كان فيأتي بمعنيين متكافئين (أي متقابلين) إما من جهة التضاد أو السلب والإيجاب، أو غيرهما من أقسام التقابل[٥].

أما ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) فقد سماه (البديع)، ورأى أن الأليق، من حيث المعنى، أن يسمى (المقابلة) وعدَّهُ أيضاً من فنون المعنى، وهو ضدّ التجنيس في اللفظ[٦].

---

(١) نقد النثر: ١٠٥.

(٢) ينظر: فنون بلاغية: ٢٧٥، وتراجع التفاصيل فيما ساقة المؤلف من اختلاف النقاد وعلماء البلاغة في حدّه، وتسميته وأقسامه: ٢٦٩ وما بعدها.

(٣) ينظر كتاب البديع: ٢٦ (ط كراتشكوفسكي - لندن ١٩٣٥م).

(٤) ينظر: نقد الشعر: ١٤٧ وما بعدها (طبعة دار الكتب العلمية - بيروت. تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي).

(٥) المصدر نفسه: ١٤٧ - ١٤٨.

(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٢٧٩/٢.

لقد عني كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيراً بالطباق إلى جانب حلي البديع والزخارف البلاغية الأخرى، ولم يكن اهتمامهم بهذا اللون البديعي لتجميل المعنى أو تحسينه فحسب، وإنما أدركوا أيضاً ما لوقعه في ترسلهم من وضوح للمعنى وتبريزه، فضلاً عن قوة الدلالة وشدة التأثير في السامع أو المتلقي لائتلاف المعاني المتضادة، وتواؤمها واجتماعها في الكلام، ولذلك قال الشاعر(١). [من الكامل]

ضدّانِ لَمّا استُجمعا حُسنا والضدُّ يظهرُ حسنهُ الضِدُّ

لقد شاع استخدام الطباق في رسائل جلّ كتاب هذا القرن حتى لا تكاد تخلو منه رسالة من رسائلهم الأدبية على كثرتها وتنوع موضوعاتها، ولعلّ أكثرهم اهتماماً به واستخداماً له في رسائلهم بخاصة،؛ أبو بكر الخوارزميّ وأبو حيان التوحيدي. يقول أحد الباحثين مؤكداً اهتمام الخوارزميّ بالطباق وشيوعه في رسائله(٢): "انصب اهتمام الخوارزميّ على الطباق أكثر من غيره من المحسنات الأخرى... ولعلّ مردّ ذلك يعود إلى رغبته في تبريز معانيه وإظهارها قوية الدلالة، شديدة التأثير، ففضيلة الكرم تستمدّ عناصر قوتها من خساسة البخل والشح، وفضيلة الشجاعة والمروءة تستمدّ عظمتها من صفة الجبن والذلة والخضوع".

وقديماً ألمح أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) إلى شيوع حليه الطباق في فصول رسائل أبي بكر الخوارزميّ واهتمامه به حين أو رد فصلاً من رسالة له تزخر بالطباق، وموشى أيضاً بفنون بديعية أخرى، فوقف متعجباً ومشيداً بأسلوبه إذ قال(٣):

"لم أقرأ في كتاب فصلاً أحسن وأظرف من قوله: (قد أراحني الشيخ ببرّه، بل أتعبني بشكره وخفّف ظهري من ثقل المحن، لا بل أثقله بأعباء المنن، وأحياني بتحقيق الرجاء، بل أماتني بفرط الحياء، فاني له رقيق، بل عتيق، وأسيرٌ بل طليق".

وهكذا يلاحظ في هذا النصّ الطريف كثرة تقابل الألفاظ المتضادة فضلاً عن ترشيح الطباق بحلية السجع مما زاده حسناً وجمالاً، فضلاً عما حقّقهُ من ترسيخ المعنى وشدة وضوحه(٤).

---

(١) ينظر: فنون بلاغية: ٢٧٥.

(٢) أبو بكر الخوارزميّ حياته وأدبه: ٣٠٢.

(٣) كتاب خاص الخاص: ١٣.

(٤) لقد ذهب بعض علماء البلاغة المتأخرين إلى وجوب ترشيح الطباق بنوع آخر من حلي البديع =

وللخوارزمي أيضاً في فصل بليغ من رسالة جوابية إلى بعض الوجهاء[١]"..... واني لأكره الودَّ يعمره التلاقي ويخربه التنائي، وابغض الصديق يضيع مقاليد البغض والحب في يدي البعد والقرب".

واشتهر أبو حيان التوحيدي أيضاً بأنهُ كان يزاوج في أسلوبه بين التلاوين العقلية، وبين الحرص على عنصر الإيقاع وحلاوة الموسيقى في كثير من فصول ترسله وفقرات نثره الفني، وكان كثيراً ما يلجأ إلى التضاد والتقابل في نثره ليس بحثاً عن الزخرف اللفظي أو سعياً وراء تزويق كلامه وإنما كان يجنح إلى التضاد وتكثيفه في فصوص فصوله سعياً إلى جلاء الفكرة وإيضاح المعنى.

كتب في رسالته الجوابية الشهيرة إلى صديقه القاضي أبي سهل علي بن محمد يبرّر فعلته بإحراق كتبه[٢].

" وأجارناً جميعاً مما يسوّدُ وجهَ عهدٍ إنْ رعيناهُ كنّا مستأنسينَ به، وإن أهملناهُ كنّا مستوحشين من أجله.. "

فطابق التوحيدي بين لفظتي (رعيناهُ وأهملناهُ) وبين لفظتي (مستأنسين ومستوحشين) وكلُّ لفظتين متضادتين من جنس واحد.

وكتب أبو حيان أيضاً في رسالته إلى صديقه أبي الوفاء المهندس[٣]:

"..... حتى أملك بهما ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير الذي قد أشبع كلَّ جائع وكسا كلَّ عار، وتألّف كلَّ شارد، وأحسن إلى كلِّ مسيء، ونوّه بكلِّ خامل، ونفّق كلَّ هزيل، واعزَّ كلَّ ذليل"، ثم يقول أيضاً[٤]: "واللهِ إن الوزير مع أشغاله المتصلة، وإثقاله الباهظة... رحيمٌ بكلِّ غادٍ ورائح، ولكلِّ صالح وطالح.... ولكنّك مقبلٌ كالمعرِض،

ليكتسب جمالاً وبهاء. يقول ابن حجة الحموي: "والذي أقوله: إن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر، ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد وهو شيء سهل، اللّهم إلا أن ترشَّح بنوع من أنواع البديع تشاركه في البهجة والرونق (ينظر: خزانة الأدب وغاية الإرب: ٧١ " ط القاهرة ١٣٠٤هـ).

(١) رسائل أبي بكر الخوارزميّ: ٢٦٠.

(٢) معجم الأدباء: ١٥/ ١٦.

(٣) الإمتاع والمؤانسة: ٣/ ٢٢٦.

(٤) الإمتاع والمؤانسة: ٣/٢٢٩.

ومقدم كالمؤخر، وموقِدٌ كالمخمِد."

وقد علل بعض الدارسين والنقاد المعاصرين شيوع ظاهرة الطباق والمقابلة في ترسل أبي حيان وبعض فصول رسائله الأدبية، فأرجعه إلى اضطراب حياته وتقلّبها بين النشاط والتكاسل، وبين القوة والضعف، وبين القدرة والعجز. ثم يقول(١): "وهو حين يكثر في أسلوبه من ألفاظ الازدواج والمقابلة إنما يكشف عن شخصية تحيا على التناقض والمفارقة، وتحاول دائما أن تجمع بين الأقطاب المتعارضة".

****

وفي فصل من رسالة لأبي الفضل ابن العميد إلى بعض لداتهِ، يتضحُ بجلاء كيف استطاع أن يوظّف التضاد والمقابلة، مع ترشيحه بحلي البديع الأخرى، فضلاً عن توازن الجمل وقصر الفقرات، لجلاء معانيه، وبناء أفكاره، حتى لتستقيم مع انتهاء الألفاظ المتقابلة بين كل قرينتين دقة الفكرة وعمقها، وسدادها، ومما ورد فيها(٢):

"قد قرُبَ - أيدك الله - محلك على تراخيه، وتصاقبَ مُستقرّك على تنائيه، لأنَّ الشوق يمثِّلكَ، والذكر يُخيلكَ، فنحن في الظاهر على افتراق، وفي الباطن على تلاق، وفي التسمية متباينون، وفي المعنى متواصلون، وإنْ تفارقتِ الأشباح، لقد تعانقت الأرواح".

وتكاد حلية الطباق تشكل - إلى جانب السجع - اللون البديعي الغالب على ترسل أبي إسحاق الصابي، حتى ليروعَ المتلقي أحياناً كثيرة، قوة جرسه، وشدّة وقعه، وقد يتهيّأ للقارئ أيضاً، انّهُ ليس في وسع هذا الكاتب البليغ أن يتخلّى عن ممارسة إدراجه في ترسله، فهو يمتزج بالنفس الموسيقي الذي كثيرا ما كان يحرصُ عليه الصابي، فضلا عن انّهُ يشكل أساس المعنى في نصّ الرسالة.

كتب في فصل من رسالة له(٣)"........ ورافعُ الحقِ ومُعليه، وقامعُ الباطل ومُرديه، ومعزّ الدين ومُديله، ومُذلّ الكفر ومزيله، المنزل رحمته على من جاهد في طاعته، المحلّ سطوته بمن جاهر بمعصيته".

ويشيعُ التضاد كثيرا في فصول رسائل أبي الفضل الميكالي أيضاً، وكثيرا ما كان

---

(١) أبو حيان التوحيدي، د. زكريا إبراهيم: ١٣٧.

(٢) خاص الخاص: ١٤.

(٣) المختار من رسائل الصابي: ٦٤ - ٦٥.

يتخذهُ أداةً لإيضاح معانية وبسطها، وجلاء أفكاره وتسلسلها، ومن نماذج التضاد التي اعتمدها أبو الفضل الميكالي لإيضاح جانب من معانيه ما ورد في فصل من رسالة له في الشكوى(١):

" إنما أشكو إليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وفجع بأكثر مما أمتع، وأوحش فوق ما آنس، وعنف في نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع، حتى جرَّعنا مرارة الفراق...".

وهكذا يمكن - من خلال استقراء ما بأيدينا من رسائل الكتاب في هذا القرن - أنْ نذهب إلى أن معاني أكثر الأدباء الكتاب، قد اتسمتْ بطابع الوضوح، واستخدام الألفاظ الرقيقة للتعبير عن تلك المعاني الواضحة، فضلا عن عنايتهم بالمحسنات البديعية التي كانت تضفي على المعاني جمالا وألقاً واضحين، في حين نتلمَّسُ في نتاج طائفة أخرى من كتاب الرسائل الأدبية، ميلا واضحاً إلى جزالة الألفاظ وقوة المعاني، ومحاولة نحت لغتهم بقوة، بحيث أنّها تدلُّ على معانٍ قوية فخمة، وهذا بلا شكّ نابع عن ميلْ أولئك الأدباء الكتاب إلى الصنعة في صياغة رسائلهم الأدبية، وهكذا كانوا يمنحون ألفاظهم وتراكيبهم انتظاما صوتيا مميزا، بشكل يكون فيه جرسُ اللفظ أقوى من صدى المعنى في تأثيره على المتلقي...

****

ب - الإيضاح بعد الإبهام:

وهو من أساليب التعبير الفني، وقوامُهُ أن يسوقَ الأديبُ أو الكاتب في خطبته أو رسالته كلاما مقتضباً، غالبا ما يكتنفهُ الغموض، فيحتاج تبعا لذلك إلى البسط والإيضاح، فيستوفيه الأديبُ بكلام واضح يزيل عن الكلام الأول اللبس والغموض، مما يؤدي إلى تمكين المعنى في نفس السامع أو المتلقي...

وقد لجا كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيراً إلى هذا الأسلوب الفني من التعبير؛ لتحقيق الإبانةَ والوضوح في معانيهم، وتمكينها من النفس ببثّ الشوق فيها، وإزالة ما علق في الكلام من إبهام أو غموض.

وقد شاع هذا اللون من التعبير الفني كثيراً في رسائل أبي بكر الخوارميّ(٢)، من

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٤/١٢٠٤.

(٢) تراجع رسائل أبي بكر الخوارزميّ، رسالته إلى أبي محمد العلوي: ١٨، ورسالته إلى حاجب =

ذلك مثلا، ما ورد في فصل من رسالة له إلى أبي محمد العلوي[1]:

"فلما رأيت بيني وبين الموت حجاباً رقيقاً، وحجزاً دقيقا، ورأيت نفسي وقد اكتنفها أربعة أشياء ما منها شيء إلا وهو يقرّب عليها مسافة الممات، ويقطع عنها علائق الحياة: خصم فاجر، وسلطان جائر، وبخت عاثر، وزمان غادر".

وقد يسوق الكاتب الإيضاح في كلامه بعد (أمّا) التفصيلية، فيكسو كلامه وضوحا ويزيد الفكرة جلاء، من ذلك ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزميّ إلى كاتب رئيس نيسابور[2]:

" ثم إِني بعد هذا كلِّه طويل الليل منذُ فارقته بل قصيرة، وقليل الأنس بعده بل كثيرهُ؛ أمّا طول ليلي: فلتذكري طول غيبته، وأمّا قصره: فلقطعي له بتمني أوبته، وأما قلة أنسي: فلبعده عني الآن، وأمّا كثرته: فلتمثيلي قربه الدان، ولتصويري طلعته في قلبي وعيني، ونظري إليه عن مرآة من هاجسي وظني ..."

ويشيع هذا اللون من التعبير الفني في نثر أبي حيان التوحيدي، من ذلك ما ورد في رسالته الشهيرة إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد جوابا عن رسالته إليه في توبيخه بإحراق كتبه[3].

"ثم اعلم - علَّمك الله الخير - أَنَّ هذه الكتب حوت من أصناف العلم سرّه وعلانيته، فأمّا ما كان سراً فلم أجد له مَنْ يتحلى بحقيقته راغبا، وأمّا ما كان علانية، فلم اصبْ من يحرص عليه طالبا..... "

****

ج - المبالغة والغلو:

وهي أيضاً من أساليب التعبير الفني التي لجأ إليها الكتاب البلغاء في هذا القرن لإيضاح معانيهم في خطبهم ورسائلهم.

وقد عدّها ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) أحد محاسن الكلام والشعر، وقد أطلق عليها

=

الوزير ابن عبّاد: ٥٣، ورسالته إلى كاتب رئيس نيسابور: ٥٦، ورسالته إلى تلميذ له: ٦٦، ورسالته إلى رئيس سرخس: ٦٨، وغيرها.

(١) رسائل أبي بكر الخوارزميّ: ١٨.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزميّ: ٥٦.

(٣) معجم الأدباء: ١٨/١٥.

تسمية (الإفراط في الصفة)[١] .

في حين جعل الناقد قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) هذا اللون من أساليب التعبير من أنواع نعوت المعاني[٢]، أما صاحب نقد النثر فقد عدَّ المبالغة شأناً خاصا بالعرب، فهي تبالغ في الوصف والذم كما مِن شأنها أن تحتضر وتوجز، وعزا ذلك إلى توسعها في الكلام واقتدارها عليه[٣].

وأشار ابن سنان الخفاجي[٤] إلى اختلاف الناس في المبالغة والغلوّ، وذهب إلى حمدها لأنَّ الشعر مبنيّ على الجواز والتسمّح لكنه رأى وجوب استعمال - كاد - وما جرى في معناها ليكون الكلام اقرب إلى حيّز الصحة، ثم أشار إلى أمر مهم جدا ذلك هو أن استعمال الغلو الخارج إلى الإحالة في النثر قليل، وإن أكثر ما يستعمل فيه (أي النثر)؛ المبالغة التي تقارب الحقيقة..

***

وقد استشرى هذا اللون من أساليب التعبير كثيراً في رسائل الكتاب أبان هذا القرن، وقد حداهم إلى ذلك نزوعهم إلى تعميق معانيهم، وإيضاحها والتجديد في أجناسها.

ولعلّ من بدائع صور المبالغة، ما ورد في رسالة أبي حيان التوحيدي الجوابية إلى القاضي أبي سهل يحتجُّ على ما أقدم عليه من إحراق كتبه[٥].

" وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برّح بي إليه... فعجبتُ من انزواء وجه العذر عنك في ذلك.....".

ثم زاد أبو حيان على هذا المعنى ما كان أوضح وأبلغ فيما قصد إليه فقال[٦]

(١) ينظر كتاب البديع: ٤٤.

(٢) ينظر: نقد الشعر: ١٤٦، وقد ذكر في تحديد هذا المصطلح البلاغي؛ أن الأديب أو الشاعر يذكر حالاً من الأحوال في شعر أو غيره، لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد.

(٣) ينظر كتاب: نقد النثر: ٧٠ - ٧١، وقد جعلها المؤلف قسمين: أحدهما في اللفظ وتجري مجرى التأكيد والأخرى في المعنى: وهي إخراج القول على أبلغ غايات معانيه.

(٤) تراجع التفاصيل في: سر الفصاحة: ٢٦٣.

(٥) معجم الأدباء: ١٥/١٧.

(٦) معجم الأدباء: ١٥/١٧ - ١٨.

"وكأنك لم تعلم أنّهُ لا ثباتَ لشيء من الدنيا، وإنْ كان شريف الجوهر، كريم العنصر، مادام مقلّبا بيد الليل والنهار، معروضا على أحداث الدهر وتعاود الأيام".

وقد شاعت صور المبالغة كثيرا جدا في رسائل أبي بكر الخوارزميّ وبديع الزمان الهمذاني، وأضرابهما من بلغاء الكتاب كأبي الفضل الميكالي وقبله الصاحب بن عبّاد وغيرهم، حتى أنّهُم كثيراً ما كانوا يجاوزون حدود ما هو مألوف في هذا اللون من أساليب التعبير الفني.

ولعلّ من أدق صور المبالغة، وبدائع التهويل في رسائل هذا القرن، ما ورد في رسالة أدبية للوزير الصاحب يمدح بعض الأصدقاء، إذ كتب يقول(١):

"وتمثّلت لي أخلاقك التي لولاها لم يسلس الماء، ولم يرقّ الهواء، ولم ترْعَ الحقوق والذمم، ولم يعرف المجد والكرم، أخلاق جُددٌ غير أخلاق، لا تأخذ الأيام جدّتها، ولا تنهج الليالي بردتها ".

ويبدو واضحا أنَّ غرض الكاتب في لجوئه إلى تلك المبالغات غير المألوفة، فضلا عما أشرنا إليه آنفاً من إيضاح القصد، تشقيق المعاني وتفريعها، سعياً للاختراع والتوليد، كما سيأتي بيانهُ وتفصيله في الصفحات الآتية...

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى الوزير الصاحب في فصل من كتاب يتشوّق إليه(٢): "كتبت كتابي وبودّي أنَّ بياض عيني طرسه، وسوادها نفسه، شوقا للألاء غرّته، وظمئاً إلى الارتشاف من مسرته.... "

ويتضح بجلاء أنَّ أبا إسحاق الصابي زاد على ما ذكره من معنى في صدر رسالته ما كان ابلغ فيما قصد إليه، وهذا يؤدي إلى وضوح المعنى، والبراعة في تحقيق الغرض، وجلاء الفكرة....

وهذا كثير شائع في رسائل كتاب هذا القرن.

وهناك طرائق تعبيرية، أو أساليب فنية أخرى لجأ إليها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن؛ لتحقيق الإبانة والوضوح في معانيهم، وجلاء الغموض عن أفكارهم، لا سيما بعدما نهلوا من معين الثقافات الوافدة التي أثرت لغتهم ومعانيهم بفيض هائل من المضامين الفلسفية والعلمية ومن تلك الطرائق أو الأساليب التعبيرية والفنية الأخرى:

---

(١) ديوان المعاني: ٢/١٩٦ - ١٩٧.

(٢) خاص الخاص: ١٢.

التشبيه والاستعارة والكناية والترادف والتكرار، غير أننا آثرنا أنْ نقف عند هذه الطرائق أو الأساليب الفنية في مواضع أخرى من هذا المبحث، لما يقتضيه منهج البحث العلمي، وتستلزمه الدراسة الفنية المتخصصة.

****

٢ - الإفاضة والاستقصاء في المعاني:

من الخصائص الفنية التي طغتْ على النثر الفني، ولا سيما الرسائل الأدبية في هذا القرن، شيوع ظاهرة الإطناب(١) والإفاضة في المعاني وتشقيقها، وما رافق ذلك من التدفق في الألفاظ والإسهاب في عرض الفكرة واستقصائها.

لقد غلب على مضامين الرسائل الأدبية لكتاب هذا القرن، الإسهاب والإفاضة في المعاني، فكانوا يطنبون في تصوير أفكارهم، ويتوسعون في عرضها، وكانوا يحشدون للفكرة الواحدة ألوانا عديدة من صور الترادف أو التكرار أو الاعتراض، أو غيرها من الأساليب الفنية لتحدد أبعادها وتوضح دقائقها، أو لتأكيدها أو ترسيخها في ذهن المتلقي أو التأثير فيه، أو إمتاعه(٢).

وقد شاعت هذه الخصيصة الأسلوبية الفنية في كتابات أكثر بلغاء الترسل في هذا القرن، وفي مقدمتهم: أبو حيان التوحيدي، وأبو بكر الخوارزميّ، وبديع الزمان الهمذاني، والصاحب بن عبّاد، وأضرابهم من مشاهير الكتاب البلغاء.

وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره محققًا كتاب (الإمتاع والمؤانسة) للتوحيدي، عن ظاهرة (الإطناب) في أسلوبه في أكثر ما وصل إلينا من نتاجه الأدبيّ والفكري، وأكد أنّهُ كان " يحبُّ الازدواج ويطيل في البيان، ويحتذي حذو الجاحظ في الإطناب

---

(١) وضع النقاد وعلماء البلاغة المتأخرون الإطناب ضمن موضوعات (علم المعاني)،، وحدّودهُ بأنّهُ: "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة " ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ٣٥١/٢ (ط دار نهضة مصر - القاهرة ١٩٦٢).

(٢) كان الفيلسوف أرسطو يرى أن العبارة " كلّما كانت أوجز كانت أشدَّ تقابلاً وألذّ وقعاً والسبب في هذا أن التقابل يزيد من فهم الفكرة، والإيجاز يجعلنا أسرع إلى فهمهما " ثم أشار أرسطو إلى شروط الإيجاز فقال: "ولا بدَّ من توافر عدة شروط منها: النظر فيمن يتوجه إليه الكلام، ومراعاة حسن الانطباق إذا شاء المرء أن يبدو كلامه صادقاً دون أن يكون مبتذلاً". (ينظر: كتاب الخطابة، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي: ٢٢٨).

والإطالة في تصوير الفكرة، وتوليد المعاني، حتى لا يدع لقائلٍ بعده قولاً[١].

وانطلاقًا من نزوع الأدباء الكتاب في هذا القرن إلى الإبانة والوضوح في ترسلهم، وبخاصة في مكاتباتهم الأدبية (الشخصية)، تحقيقا للإمتاع والتأثير في المتلقين، فقد عمدوا إلى بسط معانيهم واستقصائها، وتوسعوا في عرض أفكارهم، وعنوا بدقتها، وتنظيم أطرافها، وقد سلكوا لتحقيق ذلك أساليب عديدة، واتخذوا طرائق تعبيرية يمكن رصد أهمّها بما يأتي:

- أ - الترادف:

الترادف من الوسائل المهمة التي أسهمتْ في نماء اللغة العربية، وإثراء معجمها اللغويّ، وقد غدتْ هذه الظاهرة اللغوية خصيصة أسلوبية طغت على كتابات كثير من بلغاء الكتاب في هذا القرن، لنزوعهم إلى التدفق والإسهاب في معانيهم، واستقصاء أفكارهم، فضلا عما يحققه الترادف -كما أشرت آنفاً - من الإبانة والوضوح، والإفصاح عن المعاني والأفكار التي يروم الأدباء الكتاب إيصالها إلى المتلقين.

ولقد كانت المترادفات اللغوية في رسائل كتاب هذا القرن، تنصبُّ في تتبع المعنى واستقصائه، وقد أسعفهم في ذلك، بديهة حاضرة وحافظة نادرة، وذكاء حاد، وإحساس وقاد باللغة ومفرداتها وابنيتها، ووجوه استعمالاتها المختلفة، وهذا كلّه مظهر واضح على قدرة هؤلاء الكتاب وبلاغتهم، ومن جانب آخر، فقد ساعدهم ذلك الثراء اللغوي الذي امتلكوه على اجتلاب المفردات والتعابير التي تقترب دلالاتها من المعاني الواسعة التي عنوا بافتراعها وتوليدها.

ولعلّ الأديب المفكر أبا حيان التوحيديّ - الذي استنَّ خطى أبي عثمان الجاحظ في التعبير، وحذا حذوه في الإكثار من ظاهرة الترادف - من أشهر كتاب هذا القرن الذين التزموا أسلوب الازدواج والترادف في ترسله، ومكاتباته الأدبية...

كتب في رسالته الشهيرة إلى القاضي أبي سهل، يدافع عن صنيعه في إحراق كتبه[٢]:"..... وحتى أوحى إليَّ في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدَّ فاتر النية، وأحيا ميّت الرأي، وحثَّ على تنفيذ ما وقع في الروع، وتريَّع في الخاطر، وأنا أجود عليك الآن بالحجّة في ذلك إنْ طالبتَ، أو بالعذر إنْ استوضحتَ، لتثقَ بي فيما كان منّي،

(١) الإمتاع والمؤانسة، المقدمة: ص، ق (تحقيق الأستاذين: أحمد أمين وأحمد الزين).

(٢) معجم الأدباء: ١٥/١٧ - ١٨.

وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي...".

وتستمرُّ الرسالة في هذا التدفق، والثراء اللغوي الذي يغترف الكاتب من لججهِ الغامرة ما أعانهُ على استقصاء كلِّ ما كان يجول في خاطره، ويحتبس في أعماقه، ويثير مشاعره، يقول[١]:

".. وممّا شحذ العزمَ على ذلك ورفع الحجاب عنهُ، أني فقدتُ ولداً نجيبا، وصديقاً جيبا، وصاحباً قريبا، وتابعاً أديبا، ورئيساً منيبا، فشقَّ عليَّ أنْ أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهري وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أَجلّها....".

***

ومن الأدباء الكتاب الذين شاع في ترسلهم أسلوب الترادف الموشح بالازدواج أو الموازنة حينا، أو السجع حيناً آخر في هذا القرن: الشريف الرضيّ. ولعلّ من روائع رسائله الأدبية التي طفحتْ بهذه الظاهرة الأسلوبية، رسالته إلى صديقه الحميم أبي إسحاق الصابي يعزّيه عن نجله الأكبر أبي سعيد سنان، ومما ورد فيها[٢]:"... وانضاف إلى وجدي بمن اهتصر عوده الزمان، واختصر غصنه الحدثان، قلقي بما وجدته عليه، أيدهُ الله، من الأصحاب في عنان القلق، والانقياد بزمام الحرق، فاقتصرت على الرسم المعهود في التعزية اختصارا وحذقا وإجماماً وتخفيفاً، وانقلبت والكلام يزدحم في فمي استقصاء لها، واستكثارا منها".

ويستمر هذا التدفق في المترادفات اللغوية، والثراء اللغوي الذي استثمره الكاتب بدقة متناهية، للإفاضة في معانيه، واستقصاء أفكاره، فيقول[٣]:".. إلى كم - جعلني الله فداك -هذا الهمّ والجزع، وفيم هذا القلق والهلع؟ وأنت المرء يوصف حلمه، والجليد يُعرفُ حزمُه، والصبور على تحامل النكبات، والقوي على قراع الرزيّات،..... فكيف تستشعر الحزن والأسف، وتستبطن الكمد والغصص، وانت العارفُ بأن الإنسان وديعةٌ مسلمَّة، وعاريةٌ مسترجعة، وانّهُ مُجرٍ إلى غايةٍ لهُ دونها عثار بالنوائب، ومصادمة للنوازل، تزلزلُ مواطئ الأقدام، وتحطم المناكب في الزحام، فإن سلم من غوائلها،

(١) المصدر نفسه: ١٥/١٩.

(٢) رسائل الصابي والشريف الرضي: ٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ٦٤ - ٦٥.

ونشط عن حبائلها، وبلغ النهاية المرجوّة، وطالع الغاية المقفوّة، ونجا من موت العَبَطة، برقّبَ موت الهرم والكِبْرة......".

وهكذا تستمر هذه الرسالة القيمة، إلى نهايتها، في هذا التدفق الثرّ في سوق الألفاظ الفصيحة، والجمل المترادفة، ليفضي الكاتبُ إلى كل ما يريدُ عرضه من الأفكار التي تتصلُ بصلب موضوع الرسالة، وإدراج المعاني العميقة المؤثرة التي يحققّ الكاتب من خلال استقصائها ما يريدُ بثه في النفوس الحزينة من التخفيف من هول الفاجعة، وألم الرزيّة، بالتسليم لنوازل القدر، والإيمان بقضاء الله تعالى وتدبيره ومشيئته.....

وتشيع هذه الظاهرة الفنية في رسائل أبي بكر الخوارزميّ أيضاً، حتى لا تكاد تخلو من فيضها أيةُ رسالة أدبية من رسائله الغزيرة، وكانت تتواصلُ، غالبا جملهُ المترادفة حتى يطول الفصل أحياناً بين المتلازمات اللغوية، فيفصل مثلا بين المبتدأ والخبر، أو بين الفعل وفاعله، أو بين فعل الشرط وجوابه بعبارات طويلة مترادفة، قد تصل إلى عشرات الفواصل والفقر[١].

ومن نماذج ترادفه الغزير الذي وشحه بألوان البديع، ولا سيما الازدواج والسجع، ما ورد في رسالته إلى أبي محمد العلوي يعاتبه[٢].

"... ورد كتاب الشريف - أيدهُ الله تعالى - وهو الكتاب الشريف كاتبا، السعيد حاملا، المغبوط ناسخا، المحسود راوياً، وفيه الكلام الذي لا يبليه الزمان ولا تمجُّهُ الأذان، وقد أفرد السّيد فيه كلَّ واحد من أوليائه وشيعته بلطف، وتناوله من البر والتحفي بطرف، غيري، وما كنت أعلم أني سكّيت الحلبة، ولا أني ساقة الكتيبة، ولا أنَّ اسمي آخر الجريدة......".

ويستمرُّ الكاتب في الإسهاب، وإدراج هذه المترادفات اللغوية، فيقول -

---

(١) تراجع رسالة أبي بكر الخوارزميّ إلى كاتب صاحب الجيش: (رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢٢٥ - ٢٢٦)، حيث فصل الكاتب بين أداة الشرط وفعله (ولو كانت) وبين جواب الشرط (لقصَّر عن ذلك عنائي)، بأكثر من خمسين جملة مترادفةً، وتنظر أيضاً رسالته إلى أبي الحسن البديهي: ٢٣٥ - ٢٥٠ وهي أطول رسائله - وقد أكثر فيها أيضاً من إدراج الجمل المترادفة لبسط أفكاره، وتفريع معانيه.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزميّ: ١٢٨.

ويلاحظ الوصل بين الجمل الفعلية، والتدفق والثراء اللغوي[1].

"خرج السيد، فخبا نجم العلم، وافلتَ شمسُ الأدب، وانهُدم ركنُ السحاب، وفلَّ سيف العطاء، وغارتْ عين الأريحية، وانثلم جانب الإنسانية، وانهُزمتْ عساكر الكرم، واغبرَّ وجهُ السيف والقلم، ونَضَبَ ماءُ الحياء، وركدتْ ريحُ البهاء، وخرب بنيانُ العقل، وتضعضعَ جبلُ التوحيد والعدل، واخلقتْ ثيابُ الأفاضل والفضل، وتهافتَ نظم القول والفعل، ودُكَّ جبلُ السخاءِ والبذل....".

وهكذا يتضحُ بجلاء أنَّ الترادفَ كان أحد الوسائل المهمة التي استعان بها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، لجلاء أفكارهم واستقصائها، وعرض معانيهم وإيضاحها....

وتستشري ظاهرة الترادف كثيرا في رسائل بديع الزمان أيضاً، وكان كإضرابه من كتاب عصره، يتخذهُ وسيلةً لتشقيق معانيه، وتفصيلها، وجلاء أفكاره واستقصائها، وكان أيضاً كثيرا ما يوشّح عباراته المترادفة بافانين البديع وصور البيان الجميلة التي أضفتْ على أسلوبه بهاءً ورونقا، وتزاحما في تلك الصور الفنية المتراكمة.

ولعلّ خيرَ ما نستشهدُ بهِ في هذا الجانب، هذا الفصل البليغ من رسالته إلى أبي القاسم الكرخي، إذ كتب إليه يقول[2]:"... فإني وإنْ كنت في مقتبل السنّ والعمر، قد حلبتُ شطري الدهر، وركبتُ ظهري البرّ والبحر، ولقيتُ وفدي الخير والشرّ، وصافحتُ يدي النفعَ والضرّ، وضربتُ إبطيْ العُسْر واليسر، وبلوتُ طعميْ الحلو والمرّ، ورضعتُ ضرعي العُرْف والنكر، فما تكادُ الأيام تريني من أفعالها غريبا، وتسمعني من أحوالها عجيبا....".

ويتضحُ جلياً تقاربُ فقر هذا الفصل البليغ من رسالة الهمذاني في المعنى، فقد أراد أن يؤكد سعة خبرته، وعظيم تجربته في الحياة، فأتى بكل هذه المترادفات اللغوية البليغة، موشحةً بصور الاستعارة، وبديع الكناية، فضلاً عن فنون البديع الأخرى التي كستْ هذا النصّ الجميل إيقاعاً ورونقاً وحسن موقع..

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٩.

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٠١ - ١٠٢، ويراجع النصّ أيضاً في: زهر الآداب وثمر الألباب ٨٦٢/٣ - ٨٦٣.

- ب - التكرار:

التكرار أسلوب أدبي مألوفٌ وشائع في شتى الفنون، أو الأنواع الأدبية، وهو أحد أساليب التعبير المهمة، والذي يمكن أن يثري المعنى ويغنيه، ويرفعهُ إلى أعلى درجات التأثير والإمتاع والأصالة.

ولكي يحققَ التكرار وظيفته الفنية في النصّ الأدبيّ، ويسمو به إلى مرتبة الإبداع والحذق الفني، لا بدَّ من أن يستخدمهُ الأديب الفنان في موضعه المناسب من النصّ. ومن هذا المنطلق، فقد ذهب بعض النقاد المعاصرين إلى أنَّ " القاعدة الأولية في التكرار، أنّ اللفظ المكرّر ينبغي أن يكون وثيقَ الارتباط بالمعنى العام..... كما انّهُ لا بدَّ أن يخضع لكلّ ما يخضع لهُ (الشعر) عموما من قواعد ذوقية جمالية وبيانية "(١).

***

وقد شاع هذا اللون من أساليب التعبير كثيرا في الرسائل الأدبية لكتاب هذا القرن؛ نظرا لما شُهر به أكثرهم من ثراء لغويّ، فضلا عن عنايتهم بألفاظهم، وتدقيقهم بمواقعها واختيارها، ولإدراكهم بأثره، وشدّة وقعهِ في نفوس المتلقين. ولهذا فقد كانوا كثيراً ما يعمدون في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية إلى ضروب من التكرار، فيرددون إمّا كلمة بعينها، أو قد يكرّرون جملة، أو أسلوبا معينا، وقد ينصبُّ التكرار حينا ثالثا على حرفٍ معين....

ولم يكن هذا التكرار في رسائل كتاب هذا القرن - على اختلاف أنواعه - يأتي عفو الخاطر، وإنما كان مظهرا واضحاً من مظاهر نزعتهم الفنية؛ لأن التكرار - فضلا عما يحقّقه من إيضاح المعنى، وجلاء الفكرة، كما أشرنا آنفاً -غالبا ما يضفي على أسلوب النصّ الأدبيّ ظلالا من الجمال والبهجة والتأثير.

ومن نماذج تكرار (الكلمة) في رسائل هذا القرن؛ ما ورد في رسالة لأبي بكر الخوارزميّ إلى الحاجب أبي إسحاق لمّا نُكبَ، فقد كرَّر (كم الخبرية) في فصل لهُ من

(١) قضايا الشعر المعاصر - نازك الملائكة: ٢٣١ (دار العلم للملايين ط٥ بيروت ١٩٧٨) وكان بعض النقاد القدامى، كابن سنان الخفاجي، قد قلّل من قيمة (الترديد) فيما يضفيه من جمالية على الأثر الأدبيّ، يقول ابن سنان: "وهو أن يعلّق الشاعر لفظة في البيت بمعنى ثم يرددها فيه بعينها، و يعلقها بمعنى آخر " ثم يقول: "وهذا عندي لا تعلّقَ لهُ بالنقد؛ لأن التأليف في هذا الترديد كسائر التأليف في الألفاظ التي لا تستحقُّ بهِ حمداً ولا ذماً، ولا يكسبها حسناً ولا قبحاً.....". (ينظر كتاب: سر الفصاحة: ٢٧٧).

رسالته إليه أكثر من ثماني مرات، يقول[١].

"كم تهتكون حجب العوارف بيد الكفران، وكم تصافحون النعمَ بالبغي والعدوان، وكم تفضون ختام العافية بالغدر، وكم تسترون الخيرات بقلّة الشكر، وكم لا تبرزون الصنائع في معرضٍ من حسن الذكر، ولا تقلونها حلية من طيب النشر، وكم تتبعون الوفاء بالملق، وتنادون على الأمانة كما ينادى على الثوب الخلق، وكم تقبحون في النعم، وتحسنون في النقم، وكم تجهلون ما عرفهُ الحطيئة مع خبث مذهبِهِ، ولؤم مركبه، حيث يقول:

من يفعل الخير لا يعدم جوزايه لا يذهب العرف بين الله والناس "

فأبو بكر الخوارزميّ يكرر في هذا النصّ (كم الخبرية) متلوّةً بجملة فعلية (من الأفعال الخمسة)، وهو قوله: (كم تهتكون، وكم تصافحون، وكم تفضون.. الخ) وهو تكرار جميل يزيد المعنى وضوحا، والفكرة تثبيتا وتأكيدا، والأسلوب طلاوة.

ومن هذا الضرب من أسلوب التكرار أيضاً؛ ما ورد في رسالة أدبية طريفة لبديع الزمان الهمذاني إلى أبي نصر بن المرزبان، يصف في فصل منها بعض السلاطين في زمانهُ، وما كان عليه من بغي وتجبُّر، وقد كرَّر الهمذاني ظرف المكان (بين) أربع مرات، إذ يقول[٢]: "فمزحهُ بين القدّ والقطع، وجدّهُ بين السيف والقطع، ومراده بين الظهور والكمون، وأمره بين الكاف والنون....".

وهكذا لا يفتأ الكاتب يلحُّ على الفكرة التي يسوقها، وهي تجبّر هذا السلطان، بهذا التكرار الطريف، حتى بدتْ جليةً واضحة، وربما يكتشف الباحث أيضاً، من خلال هذا التكرار، الذي هو في حقيقته الحاحٌ على جانب مهمّ في العبارة يعنى بها الأديب أكثر من عنايته بسواها، مفتاح الفكرة المتسلطة على الأديب الكاتب، ومن هنا يستطيع الباحث أيضاً أن يصل إلى نتيجة مهمة، تلك هي أن للتكرار دلالة نفسية قيمة، تفيدُ الباحث أو الناقد الذي يدرس الأثر الأدبيّ ويحلّلهُ، أو حين يتعمقُ في تحليل نفسية منشئ العمل الأدبيّ.

***

أما الضرب الثاني من أساليب التكرار، والذي لجأ إليه كثيرا كتاب الرسائل

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٢ - ١٣.

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٥٣.

الأدبية في هذا القرن، فهو تكرار (الجملة) أو تكرار الأساليب، فقد دأب كثير من الكتاب البلغاء في هذا القرن - إدراكاً منهم بأهمية تكرار الجملة، أو الصيغ المركبة، في خلق التوازن الذي يتحكم في العبارة ويكسبها التناسب النغمي - على تكرار جمل أو تراكيب لغوية أو أساليب تعبيرية خاصة في ترسلهم أو مكاتباتهم الأدبية، وكثيراً ما كان هذا اللون من التكرار يشكِّل جزءاً حيويا من الهندسة العاطفية للتركيب اللغوي في النصّ الأدبيّ..

ومن النماذج البليغة التي تستوقفنا مثلا في تكرار الأساليب، ما ورد في فصل من رسالة أدبية لبديع الزمان إلى أبي نصر الميكالي يشكوه خليفته بهراة، إذ يقول(١):"... والماء إذا طال مكثه ظهر خبثه، وإذا سكن متنه، تحرَّكَ نتنُه، كذلك الضيف، يسمج لقاؤه، إذا طال ثواؤه، ويثقل ظله، إذا انتهى محله.... "

فكرر الكاتب في هذا الفصل من الرسالة اسم الشرط غير الجازم (إذا) مع جملة الشرط وجزائه، أربع مرات، وهو تكرار جميل، زاد المعنى ألقاً ووضوحا، كما أسهم في خلق التوازن النغمي والعاطفي في ثنايا تراكيب النصّ الأدبيّ..

ومن هذا التكرار أيضاً - تكرار أسلوب الشرط - ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزميّ الشهيرة إلى أبي الحسن البديهيّ، إذ كرّر الكاتب في بعض فصول هذه الرسالة الطويلة، حرف الشرط غير الجازم (لو) مع فعل الشرط وجوابه، أكثر من ثلاثين مرةً في سياق تعبيريّ متصل، على شاكلة قوله(٢):

"ولو سُئلْتَ عن يحيى بن زكريا لذكرت انّهُ زنى، ولو ذكرت في القائم ادّعيتَ انّهُ مضى، ولو استخبرتَ عن إبليس ذكرت انّهُ سَجَدَ لآدم، ولو نوظرتَ في عيسى نفيتهُ عن مريم، ولو انشدتَ شعر امرئ القيس لنسبته إلى الإفحام، ولو ذكرت أبو جهل حكمت له بالإسلام...".

وهكذا يتضح بجلاء، كيف استطاع أبو بكر الخوارزميّ أن يوظّف أسلوب التكرار للإفاضة في معانيه، والإسهاب المفرط في ذمّ خصمه، من خلال تكرارهِ لأسلوب الشرط.....

ومن تكرار الجمل أو الأساليب التي شاعت أيضاً في رسائل هذا القرن، تكرار

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٢ / ٩٠٧.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزميّ: ٢٣٦ - ٢٣٨.

أسلوب (النفي والاستثناء)، وهو أحد أساليب القصر في علم المعاني[١]، ومن روائع النصّوص الأدبية التي نقف عندها هنا؛ فصل من رسالة مشهورة لبديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان، يصفُ فيها الحالة التي آلت إليها أخلاق الكتاب في عصره، إذ يقول[٢]:"... ولاعلتْ قدورهم، إلاّ خلتْ بدورهم، ولا اتسعتْ دورهـم، إلاّ ضاقت صدورهم، ولا أوقدتْ نارُهـم، إلاّ انطفأ نورهم، ولا زاد مالهم، إلاّ نقص معروفهم، ولا ورمتْ أكياسهم، إلاّ ورمت انوفهم، ولا تبجلتْ عتاقهم، إلاّ فظعتْ أخلاقهم، ولا صلحتْ أحوالهم، إلاّ فسدتْ أفعالهم، ولا حسنتْ حالهم، إلاّ قبحتْ خلالهم، ولا فاض جاههم، إلاّ غاضتْ مياههم، ولا لانتْ برودُهم، إلاّ صلبتْ خدودهم، ولاعلتْ جدودهم، إلاّسفل جودهم، ولا طالتْ ايديهم، إلاّ قصرتْ أياديهم...".

وهكذا يتضح أنَّ الكاتب في هذا الفصل من رسالته، كرّر الفعل الماضي منفيا بلا النافية أكثر من عشر مرات متصلة في سياق تعبيريّ متصل، ثم اتبع هذه التراكيب بالا التي أفادتْ معنىً جديدا، هو الحصر أو القصر، وقد كرّرها أيضاً بعدد تكرار الجمل المنفية، ويتضحُ جليا أنَّ الكاتب كان يرمي إلى معنى جديد هو تخصيص أمر بآخر بطريقة مخصوصة، فخصَّ ضيق صدورهم باتساع دورهم، وخصَّ ورم أنوفهم بورم أكياسهم، وهكذا في بقية الجمل المكررة...

أما اللون الثالث من التكرار الذي شاع في رسائل الكتاب إبّان هذا القرن، فهو تكرار الحرف، وكان الكتاب، غالبا، يرمون من هذا التكرار إلى تقرير المعنى وتثبيته في النفس....

كتب أبو بكر الخوارزميّ في فصل من رسالة أدبية إلى أبي سمكة بقم، ويلاحظ تكرار حرف الجر (من) وتوالي حروف الجر الأخرى[٣]:

"وليس يردُّ كتاب شيخي على من هو أضمن مني به، ولا أرغبُ مني فيه، ولا أروى مني لهُ، ولا أشكر مني عليه، ولا أتوق مني إليه..... "

وهكذا يستمرُّ الكاتب يلحُّ على المعنى بتكرار حرف الجر (من)، وما يتبعه من توالي حروف الجر وغيرها التي اقتضاها سياق التعبير في النصّ حتى يبدو المعنى

---

(١) يراجع كتاب: علم المعاني للدكتور قصي سالم علوان: ١٤٠ وما بعدها.

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٤٥ - ١٤٦.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزميّ: ١٨٦.

واضحا جليّا.....

وقريب من هذا اللون من التكرار أيضاً، ما ورد في رسالة أبي حيان التوحيدي في رسالته الشهيرة إلى صديقه أبي الوفاء المهندس، يشكو إليه حاله، فقد أضفى تكراره لحرفي الجر (من) و (الباء)، ظلالا كثيفة من الوضوح، وتقرير المعنى وتأكيده في نفس المخاطب، كتب يقول[1]: "خلِّصني أيّها الرجلّ من التكفّف، انقذني من أنس الفقر، أطلقني من قيد الضرّ، اشترني بالإحسان، اعتبدني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح.....".

وهذا اللون من التكرار باب واسع في رسائل الأدباء الكتاب في هذا القرن، وهو يكشف بجلاء عن إحساس هؤلاء الكتاب البلغاء بفنهم، إحساساً يجعلهم يتوخّون مواطن الجمال التي تضفي على أساليبهم الجمال والرونق الذي كانوا يتوخونه في ترسلهم أو في مكاتباتهم الأدبية والشخصية....

- ج - الاعتراض:

وهو من أنواع الإطناب، وأحدُ أساليبه المهمة، ويلجأ إليه الأديبُ أو المتكلم لبسط فكرته، والإسهاب في عرض معانيه وتفريعها، لغرض أو فائدة يتوخاها في كلامه أو أدبه.

وقد شاع أسلوب الاعتراض كثيرا في رسائل كتاب هذا القرن، لعنايتهم بمعانيهم، ونزوعهم إلى الإفاضة في عرضها، أو استقصاء الموضوع الذي يلمّون بهِ، وتحديد جوانبه.

ومن جانب آخر، فقد اقتضى مقام إنشاء كثير من المكاتبات الأدبية (الإخوانية) بين كتاب هذا القرن - إمّا بدواعي المجاملة والتزلف، وإمّا بدواعي الودّ وأواصر الصداقة الحميمة بينهم - إلى الإكثار من الجمل الاعتراضية في فصول رسائلهم، لأغراض ومقاصد عديدة متباينة، سنلمُّ بإيضاحها في الصفحات التالية...

ولقد شُهر عدد من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن - وفي مقدمتهم الصاحب بن عبّاد، وأبو بكر الخوارزميّ، وبديع الزمان الهمذاني وأضرابهم - بإمعانهم في استخدام الاعتراض بين فقرات ترسلهم، حتى طغتْ على أساليب بعضهم ظاهرة طول الفواصل بين المتلازمات في الكلام، كالفصل، مثلا بين المبتدأ والخبر، أو الفعل

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢٢٦/٣.

ومفعوله، أو بين الشرط وجوابه، وما إلى ذلك مما قد يُسبب الغموض أو التعاظل في معاني النصّ الأدبيّ[١].

من ذلك مثلا ما ورد في فصل من رسالة للوزير الصاحب بن عبّاد في الأخبار بفتح، وقد فصل بين الفعل (أعلمناك)، وبين مفعوليه الثاني والثالث (المصدر المؤول)، بجملة اعتراضية طويلة بلغت حوالي خمسة أسطر، كتب يقول[٢]: "وقد كنّا أعلمناك - عند ذكرنا حال إبراهيم بن المرزبان..... أنَّ وهسوذان بن محمد قد طالتْ للدولة العالية مداجاته... "

وقديما ذكر أبو حيّان التوحيدي - في معرض ما ذكره في الليلة الرابعة من كتابه الإمتاع والمؤانسة عن عيوب الوزير الصاحب وغيره، في أسلوب ترسله ومكاتباته - أنّ الصاحب بن عبّاد كان يعاظل بالاعتراض[٣].

وقد تتراكم الجمل الاعتراضية أحياناً في فصل قصير من بعض رسائله، وهذا دليل واضح على كثرة استخدام الاعتراض في ترسله، من ذلك مثلا، ما ورد في إحدى رسائله إذ كتب يقول[٤]:

" وصل كتابك فأنستُ لوقوع الطرف عليه... على أنهُ خارج بعد أيام، وواصل - إن شاء الله - قبل مفارقتك أصبهان... و استدعيت مهماتي، فخذ - إنْ لم يكن وفاؤك ظهرْيّا وعَرْضكَ سابريّا - للشيخ المرشد - أدام الله عزّه - شرح كذا من الفقه، وقد رأيتُ جلّه عندي، إذ ذكرتُ موقعه من كتبي، ولكنه بين هجنتين: من اختلاف الخط والتقطيع، وسُبتين: من فقدِ التصحيح والتتميم، فارتدْ - إذا عدت لي - نسخة تجمعُ التمام والحسن والصحة".

---

(١) تراجع على سبيل المثال في رسائل الوزير الصاحب: رسالته في الإخبار بفتح: ١٥ - ١٦، إذ فصل بين إنّ واسمها المؤخر بجملة طويلة بلغت ثلاثة أسطر، وتراجع أيضاً: رسالته في الباب الثالث عشر في تحذير العامة: ١٧٥، حيث فصل بين جملة الشرط وجوابه بجملة اعتراضية بلغتْ سبعة أسطر، وهذه الظاهرة شائعة أيضاً في رسائل الخوارزميّ والهمذاني في مواضع كثيرة في مجموع رسائلهما وقد أشرنا إلى بعضها في دراستنا وتحليلنا لظاهرة التكرار.

(٢) رسائل الصاحب بن عبّاد: ١٥.

(٣) تراجع التفاصيل في: الإمتاع والمؤانسة (الليلة الرابعة): ١/٦٤ وما بعدها.

(٤) رسائل الصاحب بن عبّاد (الباب العشرون - في الكتب الشوارد): ٢٤٠، والعرض السابريّ: أراد به العرض الرخيص الثمن الذي يشترى بثمن بخس.

أما أنواع الاعتراض، ومقاصدهُ الفنية لرسائل الكتاب في هذا القرن فهي عديدة، لعل أكثرها شيوعا في رسائلهم الأدبية ما يأتي:

- ١ - الدعاء:

وقد شاع الاعتراض في الدعاء في كثير من أغراض الرسائل الإخوانية، من ذلك ما ورد في رسالة الشريف الرضيّ إلى بعض أصدقائه يعاتبه[(١)]: "كتابي - أطال اللهُ بقاء مولاي ورئيسي، وأدام عزّه وتأييده وكفايته ونعمته - عن شوق إليه يقيم ويقعد....".

وقد شاع هذا اللون من الاعتراض كثيراً، في رسائل الأمير قابوس بن وشمكير[(٢)] وأبي بكر الخوارزميّ، من ذلك ما ورد في رسالته الشهيرة إلى شيعة نيسابور[(٣)]:

"سمعتُ -أرشد الله سعيكم، وجمع على التقوى أمركم - ما تكلم به السلطان الذي لا يتحامل إلاّ على العدل....".

ومن ذلك أيضاً، ما ورد في رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى الأمير قابوس[(٤)]:

"لم تزل الآمال - أطال الله بقاء الأمير السيد شمس المعالي، وأدام سلطانهُ - تعد هذا اليوم... وقد صرت - أطال الله بقاء الأمير مولانا - بين انياب النوائب....".

- ٢ - التنزيه:

ومن مقاصد الاعتراض أيضاً، التنزيه، وغالبا ما كان يدرجه الكتاب في رسائلهم بعد ذكر لفظ الجلالة، وذكر الرسول وآل بيته (عليهم السلام)، من ذلك مثلا، ما ورد في رسالة الأمير قابوس الفلسفية في خلق العالم أو تكونه[(٥)]، "... وإذا قلنا إنّهُ ظهر من الباري فقد انتفى عنه - جلّ جلاله - معنى الجسمية والطبيعية".

(١) رسائل الصابي والشريف الرضي: ١٠٣ وتراجع أيضاً مواضع أخرى لهذا اللون من الاعتراض في الرسائل المتبادلة بين الرضي والصابي في مواضع عديدة متفرقة ص ٦٣، ٧١، ٧٧، ٨٠، ٨٥، وغيرها.

(٢) تراجع فصول رسائل قابوس التي زخرت بالدعاء في كمال البلاغة ص٣٦، ٣٩ - ٤٢ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٨ - ٦٦ - ٧٤، ومواضع أخرى غيرها.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزميّ: ١٦٠، وتراجع مواضع أخرى في ديوان رسائله.

(٤) زهر الآداب: ٤١٧/٢، وتراجع رسائل بديع الزمان في مواضع كثيرة متفرقة.

(٥) كمال البلاغة: ٨٦، كما ورد اعتراض التنزيه في رسائل أخرى متبادلة بين قابوس والصاحب في مواضع متفرقة من هذا المصدر.

وقد شاع هذا اللون من الاعتراض في رسائل أبي بكر الخوارزميّ وبخاصة بعد ذكره لأئمة آل البيت (ع) من ذلك مثلا ما ورد في فصل من رسالته المذكورة إلى جماعة الشيعة بنيسابور[١].

".... غُصِبتْ سيّدتنا فاطمة - صلوات الله عليها وعلى آلها - ميراث أبيها - صلوات الله عليه وعلى آله - يوم السقيفة".

- ٣ - الاحتراس:

وهو من أنواع الاعتراض ومقاصده المهمة، وسماه ابن سنان الخفاجي (التحرّز)[٢] وأطلق عليه بعض الباحثين في البلاغة (التكميل)[٣]، اما صاحبُ كتاب الأيضاح فقد ذكر حدَّهُ اصطلاحا " وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود مما يدفعه"[٤].

ومن نماذج الاحتراس التي وردتْ في مكاتبات هذا القرن؛ ما جاء في رسالة الأمير قابوس إلى أبي الفتح ابن العميد يعزّيه[٥].

"حشو هذا الدهر الخؤون أحزان وهموم، وصفوهُ - من غير كدر - معدوم " ونظيره أيضاً، ما ورد في رسالته الأدبية إلى الوزير الصاحب يعزّيه[٦]"... ومن رام تعريفه ما ليس عنده، وأراد - مما لم يسمعه - مزيده ".

ومن الاحتراس البديع أيضاً، ما ورد في رسالة الصاحب بن عبّاد الجوابية إلى الأمير قابوس يثني على بليغ ترسله واعجابه بنثره[٧].

".... أنا مرتهنْ بها (يعني رسالة قابوس إليه) بقية العمر، مسلّم لها، مُقرّ بالعجز، مستخفّ - لجلالها - ما أثقلني من أعباءِ الحزن.... ".

---

(١) رسائل أبي بكر الخوارزميّ: ١٦١.

(٢) ذكر ابن سنان حدّه فقال: "وأما التحرُّز مما يوجبُ الطعن، فإن يأتي بكلام لو استمرَّ عليه لكان فيه طعنٌ، فيأتي بما يُتحرَّز من ذلك الطعن " ينظر: سر الفصاحة: ٢٦٥.

(٣) يراجع كتاب: علم المعاني - د. قصي سالم علوان: ١٨١ - ١٨٢.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٠٣/١ (تحقيق لجنة من أساتذة الأزهر مطبعة السنة المحمدية - القاهرة د. ت)، وجعله القزويني على ضربين، ضرب يتوسط الكلام وضرب يقع في آخرهِ.

(٥) كمال البلاغة: ٦٢.

(٦) المصدر نفسه: ٧٤.

(٧) كمال البلاغة: ٧٤.

فقد احترس الوزير الصاحب بقوله (لجلالها) مما قد يوهم خلاف المقصود مما يدفعه في الكلام.

- ٤ - الإيضاح وتأكيد المعنى:

ومن مقاصد الاعتراض أيضاً: الإيضاح وتأكيد المعنى، وفي هذا اللون من الاعتراض يظهر بجلاء حشو الألفاظ، وزيادتها على المعنى لإيضاحه وتأكيده لشعور المتكلم بأهمية كلامه وخطورته...

ومن نماذج هذا اللون من الاعتراض؛ ما ورد في رسالة الأمير قابوس في ذكر النفس الناطقة، كتب يقول[١]: "فإنَّ ما سواه - على كثرة أصنافه من الحيوان - في حدِّ النقصان، وبتّوا الحكم به...... ثم ما كانت معرفته - من ابتداء كونه إلى انتهاء سنّه - معرفة غريزية".

ونظير هذا الضرب من الاعتراض أيضاً؛ ما ورد في رسالة الوزير الصاحب بن عبّاد الجوابية إلى الأمير قابوس بن شمكير[٢]: "قرأتْ للأمير مولاي خطابا تحمل قرعا وغمزا، وإنْ كان الغرض منه إذكاراً وهزّا، ولم أكنْ - يعلمُ اللهُ - مستوجبا لمثله، ولا متصديا - بقصور فعل - لسبيله "

وهناك أغراض ومقاصد أخرى خرج إليها الاعتراض، أضرب صفحا عن ذكرها، والتمثيل لها، توخيا للإيجاز....

- ٣ - الابتكار والتجديد في المعاني:

لم يصرفْ بلغاءُ الكتاب وجهابذتهم في القرن الرابع غاية جهدهم أو عنايتهم على الصياغة والأسلوب، أو الاهتمام ببناء رسائلهم الأدبية، أو العناية بجرس ألفاظهم، وموسيقى تراكيبهم فحسب، وإنما وفَّروا عنايتهم أيضاً إلى مضامين نتاجهم الأدبيّ، وبخاصة تجويدهم للمعاني، وافتنانهُم في تفريعها، والوقوع على أبكارها، لأنهم أدركوا أن الصياغة والشكل ليسا إلاّ وسيلة لإبراز المعاني وخدمتها. وإن الألفاظ والتراكيب في العمل الأدبيّ ليسا إلا إطاراً خارجياً لتجسيد محتوى التجربة الأدبية.

ومن هنا يتضحُ أنَّ المعاني كانت عندهم أشرفُ قدرا، وأكرم عليها، وأقرب إلى نفوسها من اللفظ أو الشكل والصياغة، لانّهُم رأوا أنَّ الألفاظ والتراكيب هي واجهة

---

(١) المصدر نفسه: ٩٦ - ٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ٦٧.

المعاني وعنوانُها، ووسيلتها إلى إظهار مقاصدها، وتبيَّن لهم أيضاً، أَنَّ المعاني الجليلة، والصور الجميلة، قد تشوّه حين تعرضُ في معرض غير مناسب، كأنْ تركّب في عبارة رثة، أو تصاغ بألفاظ غثّة، ولذلك فقد عني الكتاب البلغاء بزخرفة ألفاظهم، وحرصوا على زينتها، وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع في نفس المتلقي، وأدق في الدلالة على ما يرومُ التعبير عما يجولُ في خاطره من أفكار، ويعتمل في وجدانهُ من مشاعر وأحاسيس مختلفة......

وقد أكد بعضُ النقاد القدامى هذه الحقيقة المهمة، فالناقد قدامة بن جعفر البغدادي (ت٣٣٧هـ)مثلا، أشار إلى أنَّ المكاتبات التي كانت في هذا القرن، تأتي على قرائن أو حروف مسجعة، تتقاربُ فيها الأوزان والمباني، وتتناسبُ فيها الوجوه والمعاني، كانت أيضاً وسيلةً لاتساع طرائق التعبير والخطاب، وتنفسحُ معها بلاغةُ الكتاب[١].

وأكدّ ابنُ الأثير أيضاً في الفصل الذي عقدهُ للصناعة المعنوية، أنّ عناية العرب بالألفاظ وتحسينها، إنما كانت خدمةً لمعانيها، ذكر يقول[٢].

"فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسّنوها، ورقَّقوا حواشيها، وصقلوا أطرافها، فلا تظنُّ أنَّ العناية إذ ذاك إنما هي بألفاظ فقط، بل هي خدمة منهم للمعاني.....".

دواعي الابتكار في المعاني وأسبابهُ في هذا القرن:

لقد كان ما أعان الأدباء الكتاب في هذا القرن على الابتكار في معانيهم، وبراعتهم في اقتناص أبكارها، وافتراع كلَّ ما هو جديد منها؛ أمور عديدة لعلَّ أهمها:

١ - اتساع الملك، وتعدّد البيئات وتنوعها في المشرق الإسلامي، وما رافق ذلك من تدفق الأدباء على تلك الممالك الجديدة، وآثاره الايجابية على خصب ثقافة الأدباء، وشحذ طاقاتهم، واتساع تجاربهم، واطلاعهم على مشاهد وأمور جديدة، وسّعتْ آفاقهم، وشحذت خيالهم.

يقول ابنُ الأثير مشيرا إلى سبب براعة المحدثين في اختراع المعاني، في

---

(١) ينظر كتاب: جواهر الألفاظ - المقدمة.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٣٥٢/١ - ٣٥٣.

معرض ردّه على مَنْ زعم من معاصريه أنَّ المتأخرين هم السابقون إلى المعاني المبتكرة[١] "ولو قال إنَّ المحدثين أكثر ابتداعا للمعاني، والطف مأخذا، وأدق نظرا، لكان قوله صوابا، لأنَّ المحدثين عَظم الملكُ الإسلامي في زمانهُم، ورأوا ما لم يرهُ المتقدمون، وقد قيل: إنّ اللُّها تفتحُ اللَّها، وهو كذلك فإنَّ نفاق السوق جلاب. "

٢ - خصب خيال الأدباء الكتاب واغرابهم فيه:

لقد شهر الأدباء الكتاب في هذا القرن ببراعتهم في الوصف لخصب مخيلتهم وافتنانهُم في خلق صور حسّية وذهنية غريبة ونادرة سعيا وراء ابتكار المعاني الجديدة وتوليدها.

والابتكار أو الإبداع - كما يرى ابن الأثير - " إنما يقع في معنى غريب لم يطرقْ ولا يكون ذلك إلا في أمر غريب لم يأت مثله، وحينئذ إذا كتب فيه كتابا، أو نظـم فيه شعرّ، فإن الكاتب والشاعر يعثران على مظنّة الإبداع فيه[٢].

وكان ابن سنان الخفاجي قبله (ت ٤٦٦هـ) قد أكدّ هذه الحقيقة أيضاً في رِدِّهِ على منْ ينتقصُ الكلام لما فيه من فحش في المعنى، فقال[٣]:

"وليس الأمر عندي على ذلك، لأنَّ صناعة التأليف في المعنى الفاحش مثل الصناعة في المعنى الجميل، ويُطلبُ في كلِّ واحد منهما صحّةُ الغرض، وسلامة الألفاظ على حدّ واحد، وليس لكون المعنى في نفسه فاحشا أو جميلا تأثير في الصناعة، ولهذا ذهب قومٌ إلى استحسان المعنى الغريب[٤] وليس للاختراع في المعنى نفسه تأثير إلا كما للمتداول".

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/٣٥١.

(٢) المصدر نفسه: ١/٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣) سرّ الفصاحة: ٢٧٦.

(٤) ذهب قديماً الفيلسوف أرسطو - في كلامه على صفات الأسلوب -إلى تحبيذ طابع الغرابة على لغة الأسلوب لما يضفيه ذلك من إعجاب السامع وإمتاعه يقول: "في هذا المجال، يشعر الناس نحو الأسلوب بما يشعرون به نحو الغرباء والمواطنين، ولهذا ينبغي أن نضفي على لغتنا طابع الغرابة، لأن الناس تعجب بما هو بعيد، وما يثير الإعجاب يسرُ ويمتع " (ينظر كتاب الخطابة - ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي: ١٩٦).

- ٣ - العامل الحضاري:

إنّ ما شهده هذا القرن من تطور حضاريّ وفكريّ، وما نجم عن ذلك من سعة ثقافة الأدباء ولا سيما الكتاب، وما طرأ على الحياة الاجتماعية من تنوع وتجديد، تمثل في بعض جوانبه بشيوع وسائل الترف والبذخ واللهو - ولا سيما بين أوساط الطبقة الخاصة والأثرياء - كان له آثاره على النثر الفني، وبخاصة الرسائل الأدبية، إذ كانت الرسائل وثائق أدبية وتاريخية مهمة تأثرت بكل تلك الظروف وصوّرتْ تداعياتها المختلفة.

ولعلّ هذه الملابسات الجديدة التي بدأتْ إفرازاتها واضحة على الثقافة والأدب هي التي دفعتْ بالعديد من الأدباء والكتاب إلى التصرّف في لغة الكتابة، وتطويعها للتعبير عما استجدَّ في حياتهم، فراحوا يدققّون في أوصافهم، وينوعون في موسيقى تراكيبهم، كي تتجانس مع طبيعة الموضوعات الجديدة التي بدأوا يطرقونها وكانتْ تلتصق بحياتهم الاجتماعية والفكرية المتنوعة، وتعبر عن مستجداتها.

وهكذا كان لتلك البيئات الجديدة في أقاليم المشرق الإسلامي، وما شهدته من نهضة حضارية وفكرية وفنية متنوعة، وما أسبغه الأدباء على نتاجهم الفني من صدق وواقعية لمجاراة حياتهم الجديدة، كان لكل ذلك آثاره الواضحة فيما طرأ على النثر الفني، ولا سيما الرسائل الأدبية من نضج وتطور، وما طغى عليه من طابع الجدة والابتكار في الأسلوب والمضامين، وبخاصة نزوعهم إلى الابتكار في المعاني وتفريعها للتعبير عن مناحي الحياة المتطورة في مفاصلها العديدة المختلفة.

إنّ ابتكار المعاني الجديدة أمر بالغ الصعوبة، وهو لم يتأتَ إلا للأفذاذ الموهوبين من الأدباء الذين لم يجدْ بهم الزمن دائما، ولا يتواجدون إلا في حقبٍ متطاولة. وقد علل ابن الأثير وجهاً مهما لتلك الصعوبة في خلق المعاني وابتكارها إذ قال(١):

" إنّ المعاني المخترعة لا يمكن أن تقيّد بقيد، أو يُفتح إليها طريق يسلك إليها، فهي تأتي من فيض الهيّ بغير تعلم، ولهذا اختصَّ بها بعض الناثرين والناظمين دون بعض.... "

ومن هنا نصل إلى قيمة ما ابتكره الأدباء الكتاب في هذا القرن من معانٍ جديدة

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١/٣٤٥.

نادرة في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية، كما نستدل بصنيعهم هذا على براعتهم في صناعة الترسل، وما تمتعوا به من موهبة نادرة، ومخيلة وقادة، وثقافة غزيرة واسعة.

***

أما المعاني المبتكرة التي افتن الأدباء الكتاب في هذا القرن في اختراعها فيمكن أن تردَّ إلى ضربين متباينين هما:

(الضرب الأول): معانٍ ابتكرها كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن، احتذوا فيها على مثال سابق، ومنهج مطروق، وهذا الضرب من المعاني المبتكرة هو الأكثر شيوعا فيما استعمله الأدباء من الشعراء وكتاب الرسائل في هذا القرن. ذكر أبو هلال العسكري مشيرا إلى استعانة الأدباء بمعاني من تقدّمهم: "ليس لأحدٍ من أصناف القائلين غنىً عن تناول المعاني ممّن تقدمهم، والصبّ على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم - إذا أخذوها - أنْ يكسوها ألفاظاً من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى ويزيدوها في حسن تأليفها، وجودة تركيبها، وكمال حيلتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحقُّ بها ممن سبق إليها"[١].

وقد تقدمتِ الإشارة في المبحث الأول من الفصل الثالث من هذه الدراسة، إلى ظاهرة حلّ المنظوم من الشعر القديم والمحدث في رسائل صدور الكتاب وبلغائهم في هذا القرن، وعرضنا شواهد لصنيع أولئك الكتاب، كالصاحب بن عبّاد،أبي إسحاق الصابي وأبي بكر الخوارزميّ وأضرابهم وأشرنا إلى اندفاعهم في هذه الطريق بلوغا إلى اختراع المعاني الجديدة مقتفين خطى من تقدّمهم من أدباء العربية في العصور الغابرة.

وقد عقد أبو منصور الثعالبي في التيمية[٢] فصلا موجزا تتبع فيه حلَّ بعض بلغاء الكتاب ومشاهيرهم في هذا القرن لمعاني أبي الطيب المتنبي وغيره من أدباء العربية، إعجابا بمعانيهم، وبلوغا لافتراع بعض إبكار المعاني التي اهتدوا إليها بهدي من تقدمهم من أولئك الأدباء الأفذاذ.

والذي لا شكَّ فيه أنَّ كثيرا من تلك المعاني المبتكرة التي اهتدى إليها بلغاء الكتاب في هذا القرن، مستعينين بهدي منْ سبقهم من أدباء العربية جاءت جميلة وقد

---

(١) كتاب الصناعتين: ٢٠٢.

(٢) يراجع كتاب: يتيمة الدهر ١/١٥٣ - ١٥٩.

سلمت معانيهم غالبا من سماجة التقليد والتكرار[١]، وحقا ما ذكره بعض النقاد القدامى في هذا الباب إذ قال: "وعلى الحقيقة فإنَّ في زوايا الأفكار خبايا وفي أبكار الخواطر سبايا"[٢].

***

(الضرب الثاني): معانٍ ابتكرها الأدباء الكتاب على غير مثال سابق:

وهذا الضرب من المعاني المبتكرة التي لم يقتف فيها الأدباء الكتاب من سبقهم من الأدباء أو من عاصرهم من المحدثين، تستنبط عادة من شاهد الحال الحاضرة، وتقع أيضاً عند الحوادث المتجدّدة، ويتنبهُ إليها الأدباء الأفذاذ الموهوبون عند الأمور الطارئة......

ذكر الأديب الناقد ضياء الدين ابن الأثير يصف هذا الضرب من المعاني المبتكرة[٣]:"..... والخاطر في مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلّفة.....".

ومن نماذج هذا الضرب من المعاني المبتكرة ما ورد في فصل من رسالة للصاحب بن عبّاد يهنئ فيها الأمير البويهيّ عضد الدولة، وقد ولد له ابنان توأمان[٤]: "وصل كتاب الأمير بالبشرى التي أبتْ النعمة بها أنْ تقع مفردة، وامتنعت العارفة بها أن تسنح موحدة، حتى تيسَّرت منحتان في موطن، وانتظمتْ موهبتان في قرن، وطلع من النجيبين أبي القاسم وأبي كاليجار - أدام الله عزهما - طالعا ملك، ونجما سعد، وشهابا عزّ، وكوكبا مجدٍ، فتأهَّلتْ بهما رباع المحاسن، ووطئت لهما اكناف المكارم، واستشرف إليهما صدور الأسّرةِ والمنابر.... "

(١) قد نستثني من ذلك كثيراً مما ورد للثعالبي في رسائلهِ المصنوعة التي ضمّها كتابه الشهير (نثر النظم وحل العقد) الذي ألفه لأبي العباس خوارزم شاه، وحلّ فيه العقد من مختار الشعر الذي اشتمل عليه كتاب "مؤنس الأدباء"، فقد ضمت تلك الرسائل المنثورة كثيراً من المعاني التي استقاها من منظوم الشعراء القدماء والمحدثين وجاءتْ متكلفة مصنوعة. وكذا يقال عما ورد للعسكري من معان متكلفة قد استقاها من شعر الشعراء في "رسائل مصنوعة له في كتابهِ الشهير "ديوان المعاني ".

(٢) ينظر كتاب: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٣٤٧/١.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٣١٢/١.

(٤) ديوان المعاني: ٩٨/١.

وهذه معانٍ مخترعة لم يسبق إليها الوزير الأديب، وبعضها معان دقيقة اقتضاها مقام الحادثة الطارئة، وشاهد الحال الحاضرة، وهي ولادة الأميرين التوأمين...

ومن تلك المعاني المخترعة التي لم تقع على مثال سابق، وجاءتْ موافقة لشاهد الحال الحاضرة، ما ورد في فصل من رسالة لأبي إسحاق الصابي إلى بعض وزراء عصره في إهداء الدواة والمرفع، وقد ذكر الثعالبيّ انّهُ لم يسمع في إهداء الدواة والمرفع أحسن وأظرف مما كتبه الصابي[١]: "قد خدمتْ مجلس سيدنا الوزير بدواةٍ تداوي مرض عفاته، وتدوي قلوب عداته، على مرفعٍ يؤذنُ برفعته، وارتفاع النوائب عن ساحته".

ويبدو بجلاء أنَّ أبا إسحاق الصابي قد زاد في المعنى بأبلغ ممّا قصد إليه في مستهلّ فصل رسالته إلى المرسل إليه....

ومن المعاني المخترعة التي لم يقتفِ فيها الكتاب خطى من سبقهم أيضاً: ما وقع في أمر غريب الوقوع، وهذا الضرب من المعاني المبتكرة عكس ما يبتكرُ من المعاني التي تستخرج بشاهد الحال الحاضرة.

وهذا الضرب من المعاني المبتكرة أصعب منالا من سواها من المعاني المبتكرة، وقد أكد هذه الحقيقة الناقد ابن الأثير إذ قال[٢]:".... ولأمرٍ ما كان لأبكارها سرّ لا يهجم على مكامنه إلاّ جنان الشهم ولا يفوز بمحاسنهِ إلا منْ دقَّ فهمهُ حتى جلّ عن دقة الفهم، وللهجوم على عذارى المغاني المحميّة بحجب البواتر أيسرُ من الهجوم على عذارى المعاني المحمية بحجب الخواطر".

ومن نماذج هذا اللون من المعاني المبتكرة، والتي يتوصل إليها الكاتب غالبا باستخدام صور المجاز وغيره من أساليب الخيال، ما ورد في فصل من رسالة الأمير شمس المعالي قابوس إلى خاله الأصبهبذ يعاتبه ويفخر بفتوته:[٣]

".... فإني لو علمت أَنَّ الأرض لا تسفّ تراب قدمي، لما وضعت عليها جانبا، وأنَّ السماء لا تتوق إلى تقبيل هامتي لما رفعتُ إليها طرفا، ولكني أكره أن يعرى نحره من قلادة الحمد، ويجنب جنبيه إكليل المجد، ويظلّ وجه الوفاء بقبضه على يده

(١) خاص الخاص: ١٢.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٣٢١/١.

(٣) ديوان المعاني: ٨٧/١.

مسودا، وركن الإخاء بفتّهِ في عضده منهدا، ولا يعجبني أنْ يكسو ضوء مكارمه كلفُ الخمول، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول.....".

ومن المعاني المبتكرة ما تقع في أمر غير غريب الوقوع، ولم تأت على مثال سابق، ولم يتفطن إليها الكاتب بالمشاهدة، من ذلك ما ورد في فصل من رسالة بليغة للوزير الصاحب بن عبّاد يهنئ بعض الوجهاء بالوزارة، وقد أشار العسكري إلى أنّهُا من المعاني القليلة النظير(١)". انا أهنئ - أطال الله بقاءَ سيدنا - الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها، وبلوغها في ظلّه إرادتها، وانحيازها إلى ذراه واضحة المجد والفخر، وتوشحها من كفايته بغرّةٍ سائلة على وجه الدهر... ولاغروَ فهي وليدة ذراه، قد آلتْ لا تخطتْ خطته، وعاهدتْ لا برحتْ ساحته... "

فالتهنئة بتسلّم منصب الوزارة أمرٌ شائع ومألوف ولكن الوزير الأديب أتى بمعنى مبتكر لم يُسبق إليه إذ جعل الوزارة هي التي تشرف بانقيادها إلى الممدوح، وهي التي تنقاد إليه طائعة متشوقة بعد أن لم يوفها حقّها منْ تسلّمها قبله... ويتضح بجلاء روعة التشخيص الذي ألقى بظلالهِ الجميلة على المعنى، ولا يخفى ما حقّقهُ هذا التشخيص من تشويق وإثارة انتباه المتلقي.

وتندرج بعض المعاني المبتكرة التي تقع في أمرٍ غير غريب فيما يتصل بالألغاز أو الأحاجي التي يلجأ إليها الكاتب أحياناً لإثارة شوق المتلقي؛ من ذلك مثلا ما ورد في رسالة لأبي الفضل ابن العميد إذ يقول(٢):"... وصلةُ ينذر بصدّهِ، وقربه يؤذن ببعده، يدني عندما ينزح، ويأسو مثل ما يجرْح، محالته أحوال، وحلته خلال وحكمه سجال، الحسن في عوارفهِ والجمال من منائحه، والبهاء من أصوله وصفاته، والسناء من نعوته وسماته، اسمه مطابق لمعناه، وفحواهُ موافق لنجواه، يتشابه حالاه، ويتضارع قطراه، من حيث تلقاه يستنير، ومن حيث تنساه يستدير".

وهكذا يتضح بجلاء ما تحققه المعاني المبتكرة في هذا النصّ الطريف الذي انصبَّ على وصف القمر، وهو أمر مألوف وغير غريب، إلاّ أنَّ ما قصد إليه الأديب الكاتب من رمز وتعمية، قد أثار فضول القارئ واستفزّهُ لمتابعة هذه الأمور النادرة، وخلق في نفسه عنصر الشوق لمعرفة هذا المجهول غير الغريب.

(١) ديوان المعاني: ٩٦/١.

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ١٠٦٥/٤ - ١٠٦٦

وكثيرا ما يقود اختراع المعاني الجديدة، ونزوع الأدباء الكتاب إلى طلب أبكارها، إلى المبالغة أو الغلو في المعنى، وقد حبّذها -كما مرّ بنا آنفاً - بعض النقاد[١] ولا سيما ما يرد منها في الشعر لكونه مبنيا على الجواز والتسمّح، أما في النثر فحبَّذ استعمال (كاد) ونحوها ليكون الكلام أقرب إلى الصحة[٢].

ومن نماذج المعاني المبتكرة التي اتشحتْ بالمبالغة والغلو؛ ما ورد في رسالة للوزير الصاحب بن عبّاد في التهنئة بالنيروز[٣].

" قد أقبل النوروز إلى الأستاذ ناشراً حللهُ التي استعارها من شيمته، ومبديا حليّهُ التي أخذها من سجيته ومستصحباً من أنواره ما اكتساه من محاسن أيامه، ومن أمطاره ما اقتبسه من جودهِ وانعامه.....".

ونظير ذلك أيضاً ما ورد في فصل من رسالة إخوانية للأمير الأديب أبي الفضل الميكالي في باب المديح والثناء إذ يقول[٤]: "لازالت الأيام تزيد رتبته ارتفاعا، وباعه اتساعا، وعزّته غلبة وامتناعا، فلا يبقى مجد إلاّ شيدته معاليه ومكارمه، ولا ملك إلا افترعتهُ صرائمه وصوارمه".

وهذه معانٍ حسنة مخترعة إلا أنّها ترشحت بحلةٍ من المبالغة والغلو مما أضفى عليها ظلالا من شحوب العاطفة التي غالباً ما تنأى بالنصّ الأدبيّ - لكونه ضرباً من الفنّ الذي يسعى للإمتاع والتأثير - عن مصاف الأعمال الأدبية الخالدة...

المحور الثاني: الأخيلة والصور:

يشكل الخيال المحور الثاني من محاور المضمون الذي يعدُّ جوهر العمل الأدبيّ وأساسه، إذ إنَّ للخيال قيمة كبيرة، وأثراً فاعلاً في إثراء محتوى العمل الأدبيّ، وإغناء التجربة الأدبية....

ومن هنا فقد ذهب كثير من النقاد المعاصرين[٥] إلى أَنَّ نوعية الخيال، وإمكانياته، وفاعليته هي ما تميّز الفنان المبدع عن غيره، لما تغرسهُ فيه من إمكانية

---

(١) يراجع ما ذهب إليه ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة: ٢٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢٦٣ وما بعدها.

(٣) ديوان المعاني: ١/٩٧.

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب: ٤/١٠٢٣.

(٥) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: ١٧ - ١٨.

التوفيق بين العناصر المتباعدة، والأجزاء المتنافرة، مما يتيحُ لهُ القدرة على الخلق والإبداع، وهكذا تصبحُ قوةُ المخيلة عند الأديب، وملكة الخيال، في نظر الكثير منهم، هي مصدر الإلهام والأصالة.

وتأكيداً لهذا كلهِ، فقد عدَّتِ النظرية النقدية المعاصرة المخيلة جزءا من الطبقة الأسلوبية، وعدَّتِ الخيال جزءا لا يتجزأ من مجموع العمل الأدبيّ، يقول مؤلفا كتاب (نظرية الأدب)[١]:

" إنَّ المخيلة كالوزن هي أحدى مكونات بنية القصيدة، وهي..... جزءٌ من الطبقة الأسلوبية أو المختصة بتركيب الكلام، فيجب أخيراً ألا تدرس في عزلة عن الطبقات الأخرى، بل كعنصر وجزء لا يتجزأ من مجموع العمل الأدبيّ".

وتعميقاً لهذا الوعي النقديّ المعاصر - فضلا عما قدَّمهُ النقد العربي القديم من خلال التحليل البلاغي لنصوص القرآن والشعر من مفاهيم قيمة ودقيقة أوضحتْ تصوّر النقاد القدامى للصورة الفنية، وملكة الخيال بوصفهِ المصدر الأسمى لتلك الصور - فسيحاولُ البحث أن يقف أولا عند دراسة الخيال وقفةً سريعة بوصفه الملكة التي تنتج الصور الفنية، فضلا عن أنّهُ هو القوة النفسية التي تصور لنا الحقائق وتجسدها وتعرضها على المتلقي بأسلوب فنّي يثيرُ فيه مكامن الشوق أو الإشفاق، أو غير ذلك من العواطف[٢]، ويعيد تشكيل تلك الصور أو يصل مع بعضها في عمل فنّي تتجلّى في تضاعيفه عناصرُ الابتكار والأصالة والإبداع...

وسيقف البحث بعد ذلك، وقفةً مركزة عند طبيعة الصورة الفنية، بوصفها نتاجاً لملكة الخيال، ونسيجاً متميزاً من العلاقات اللغوية يقدّم المعنى تقديماً فنياً متميزاً. ثم سيقف البحث عند تصوير المحسوسات والمعنويات في رسائل هذا القرن، ثم يردف ذلك دراسة أهم الوسائل التي يعتمدها الأدباء للتعبير عن آفاق خيالهم، تلك الوسائل التي تفرزها اللغة وتضعها في متناول الأديب، وتشمل التشبيه والمجاز الاستعاري والكناية، وغيرها من الأساليب التي تتيح للخيال متسعا من التحليق والإبداع.....

مصطلح الخيال وتطور مدلوله:

لم يتسع مفهوم مصطلح (الخيال) ولم تتعمَّقْ دلالاتهُ في النقد العربي القديم كما

(١) نظرية الأدب - رينيه ويليك وأوستن وارين: ٢٧٣.

(٢) ينظر: أصول النقد الأدبيّ: ٢١١.

هو شأنهُ في النظرية النقدية المعاصرة[١] أو كما ستنظر له بعضُ المذاهب الأدبية كالرومانتيكية مثلا، فدلالة الخيال في تلك الدراسات النقدية القديمة كانت " تشير إلى الشكل والهيئة والظل، كما تشير إلى الطيف أو الصورة التي تتمثل لنا في النوم أو أحلام اليقظة، أو في لحظات التأمل عندما نفكر في شيء أو شخص[٢]".

ومن هنا نلمسُ أنّ دلالة هذا المصطلح قديما، لم تكنْ تؤمئ - كما تطور إليها في الدراسات النقدية المعاصرة - إلى القدرة على تكوين صور ذهنية، أو تلقي صور المحسوسات وإعادة تشكيلها بعد غيابها عن متناول الحسّ.

لقد بدا استعمال مصطلح (التخيل) وبعض ما يرادفه (كالتوهم)، (والتمثل) في دائرة البحث الفلسفي[٣]، ثم طفق استعمال هذا المصطلح ينتقل إلى مجال الدرس النقدي والبلاغي، فقد حاول أبو نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) أَنْ يوحِّدَ ما بين الفكر الفلسفي والتفكير الأدبيّ، وجعل نظرية الشعر قسما من أقسام تفكيره الفلسفي العام، وقد تجلّى ذلك واضحا من خلال فهمه الدقيق لملكة (التخيل) عند الشاعر، وطبيعة الإثارة التخيلية التي يحدثها الشعر في المتلقي[٤].

وما من شك في أنَّ أبا نصر الفارابي قد أفاد من نظرية (المحاكاة)[٥].

الأرسطية، إلاّ أنّهُ وجهها على أساس نفسيّ واضح حين كشف - وهذا ما لم

---

(١) ذهب النقاد المعاصرون إلى صعوبة حدّ هذا المصطلح النقدي، حتى قال (رسكن) "إنَّ حقيقة الخيال غامضة صعبة التفسير، وينبغي أن يفهم في آثارهِ فحسب".
(ينظر كتاب: أصول النقد الأدبيّ للأستاذ أحمد الشايب: ٢١٢).

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: ١٩ وما بعدها.

(٣) تراجع التفاصيل فيما تناوله الفيلسوف الكندي في رسالته الشهيرة " في حدود الأشياء ورسومها " لمصطلح التخيّل والتوهم بوصفهما قوة نفسانية مدركة للصور الحسية مع غيبة طينتها.... (رسائل الكندي ١/١٦٧).

(٤) تراجع التفاصيل في كتاب الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: ٢٧ - ٢٨.

(٥) تقوم نظرية المحاكاة عند أرسطو على ثلاثة أركان: ما يحاكى به (أي وسيلة المحاكاة)، ما يُحاكى (أي موضوع المحاكاة)، وطريقة المحاكاة (أي تحديد الأنواع الأدبية)، وتقوم النظرية عند أرسطو - خلاف أستاذه أفلاطون الذي رأى أن المحاكاة تشويه للطبيعة، أي أن الشاعر عندما يحاكي فإنّهُ يشوّه صورة المثال الذي يحاكيه في شعره - على أنَّ المحاكاة هي نقل الطبيعة بلاحرفية، أي نقلاً ينطوي على الإبداع والخلق لا النقل الحرفي. (ينظر كتاب: في الشعر - أرسطو ترجمة وشرح د. محمد شكري عيّاد / دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧م).

يفعله أرسطو في كتابه فنّ الشعر - عن الدور الذي تلعبهُ ملكة (التخيل) في إبداع الشعر، وما تحدثهُ الإثارة التخيلية للشعر في المتلقي.

وفي الدراسات النقدية المعاصرة تعاظمت العناية بعنصر الخيال، بوصفه الملكة التي تتمُّ بها عملية التأليف بين الصور وإعادة تشكيلها وأصبح مصطلح الخيال (Imagination) يعني " القدرة على إيجاد التناغم والتوافق بين العناصر المتباعدة والمتنافرة داخل التجربة "(١).

وطفقتْ بعضُ المذاهب الأدبية - وبخاصة المذهب الرومانتيكيّ - تعنى بالتنظير النقدي للخيال - بوصفه المصدر الرئيس من مصادر الصورة الفنية - فأطالوا الوقوف عند حدّه، وماهيته، وفصّلوا في أنواعه ومكانته، وهكذا " ميَّزوه وأفردوه، وبقي أثر فلسفتهم فيهِ حيّا لدى المذاهب والاتجاهات الأدبية التي تلتهم(٢)".

ولعلّ الناقد (كولردج) من أشهر أعلام الرومانسية الذين عنوا بعنصر الخيال وفصّلوا في أقسامه وأهميته في العمل الفني، فقد حدَّد الخيال بأنه:

" الملكة التي تُحيلُ الكثرة إلى الوحدة، وميَّزه من التوهم، وهو القدرة التي تمكنّنا من الجمع والتكديس(٣)".

وكما عني الناقد (كولردج) بأثر الخيال وأهميته في وحدة العمل الفني، فقد فصّل في أنواعه وأقسامه(٤). وهكذا يتضحُ بجلاء أنَّ المصطلح الغربي (Imagination) يبرز العلاقة بين (الخيال) و (الصورة الفنية)، إذ إنّ الصورة هي أداة الخيال ووسيلته ومادته المهمة التي يمارسُ فيها ومن خلالها فاعليته ونشاطه(٥).

الصورة الفنية وصلتها بالخيال:

مرَّ بنا آنفاً، أَنَّ الخيال هو الملكة التي تشكل صور العمل الأدبيّ، وتصل ما

---

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: ١٧ وما بعدها.

(٢) الصورة الشعرية في النقد الأدبيّ الحديث: ٤٥.

(٣) كولردج - د. محمد مصطفى بدوي: ٥٩ (ط القاهرة ١٩٥٨).

(٤) قسّم كولردج الخيال إلى (الخيال الأولي) وأبان عن أهميته في عمليات الإدراك كلها، كما فصَّل في (الخيال الثانوي) وهو الخيال الفني أو الشعري، وعدَّهُ صدى للأول، إلاّ أنّهُ أسمى منه لأنّهُ يحلّل وينشر ويجزّئ لكي يخلق من جديد. تراجع التفاصيل في (النظرية الرومانتيكية في الشعر - د. عبد الحكيم حسان: ٢٤١ وما بعدها).

(٥) تراجع التفاصيل في كتاب: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: ١٩.

بينها، ومن هنا فإنَّ النظرية النقدية المعاصرة - التي تنظرُ إلى الصورة بوصفها معياراً نقدياً، فضلا عن أنّها شكل فني محض - تنظرُ إلى (الصورة) بوصفها نتاج ملكة الخيال، ونسيجا متميزا من العلاقات اللغوية، يقدم المعنى تقديما ماديا محسوسا[١].

وعلى الرغم من بروز مصطلح الصورة (Image) في العقود الأخيرة من القرن الماضي، إلا أنَّ النقاد والباحثين المعاصرين قد اختلفوا في فهمه وتباينوا في تحديد دلالاته النقدية، وقد تمثَّل هذا التباين بينهم واضحا " في استعمال الصورة معيارا نقديا حينا، أو مظهراً بلاغياً حينا ثانيا، أو شكلاً فنيا محضا حينا ثالثا، أو دالة شعائرية حيناً رابعا[٢].

ومع حداثة هذا المصطلح (Image) في النقد الغربي، إلا انَّهُ وردتْ ومضات نقدية قديمة للفيلسوف أرسطو، تؤمئ إلى تأكيده أهمية الصور في العمل الفني، وصلتها الوثيقة بالمجاز. يقول أرسطو[٣]:

"أما الصور فإنّها - كما قلنا من قبل - مجازات مرموقة جدا وتتألف دائما من حدّين مثل الاستعارة التمثيلية.......".

ثم يقول أرسطو، بعد أن ساق شواهد عديدة من تلك الصور[٤]:

" والصور تجمل إذا تضمّنتْ مجازاً.... وكل هذه التعبيرات صورٌ، والصور - كما قلنا - مجازات".

---

(١) لقد تباينتْ آراء النقاد المعاصرين في هذا الجانب، والذي لا شكَّ فيه أنّ أساس أية صورة فنية أو مصدرها في أيّ نصّ أدبيّ، هو خيال الأديب، أو قوة مخيلته، وهذا الخيال يتفاعل مع أحاسيسه ليعطي الصورة إيحاءها، ومن هنا يرى بعض النقاد المعاصرين أن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان، أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع (ينظر: الشعر العربي المعاصر - عز الدين إسماعيل: ١٢٧)، في حين يرى نقاد آخرون أن الصورة تشكيل لغوي يكوّنه خيال الفنان مع معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها (تراجع التفاصيل في: الصورة في الشعر العربي - د. علي البطل: ٣٢)، وينظر أيضاً: الشعر كيف نفهمه ونتذوقه: ١٢٥ (اليزابيث دور - ترجمة: محمد إبراهيم الشوش، وينظر الأدب وفنونه - مندور ١٣٨ وما بعدها، حيث ذهبوا إلى أن التجربة الشعرية - في أساسها - هي تجربة لغوية).

(٢) الصورة في القصيدة العراقية الحديثة - أ. د. عناد غزوان - مجلّة الأقلام: ٨٣ (ينظر العددان ١١، ١٢ لعام ١٩٨٧ م).

(٣) الخطابة: ٢٢٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢٢٩.

وقدّم الموروث النقدي العربي القديم تصوراً واضحاً للصورة الفنية من خلال التحليل البلاغي للصورة في القرآن والشعر، بوصفها من القضايا الثابتة في الشعر، وإحدى أهمّ خصائصه النوعية.

وعلى الرغم من تقييم بعض الباحثين والنقاد المعاصرين للتجربة الشعرية القديمة، وما تختزنهُ من صور فنية بذائقة نقدية معاصرة[١] حتى راح بعضهم يصمُ تلك الصور بأنّها جزئية لم تتعدَّ حدود البيت أو البيتين من القصيدة، ووصم بعضهم الآخر محاولة النقد القديم لدراستها بأنّها فلسفية تنظيرية[٢] إلاّ أنَّ النقد العربي القديم قدَّم مفاهيم قيمة ودقيقة للصورة الفنية تتناسبُ مع طبيعة تلك المرحلة التاريخية والحضارية، وما أتيحَ لها من وسائل مناسبة....

ولعلّ في طليعة تلك الجذور القديمة لدراسة الصورة الفنية في التراث النقدي القديم، ما نظَّره الجاحظ[٣] من أسس راسخة لمصطلح الصورة، حتى عدَّها بعض النقاد المعاصرين تمهيداً لاستقرار هذا المصطلح في النقد القديم[٤].

ويقف الناقد قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) بين النقاد الذين كشفوا عن تصورهم الخاص لطبيعة الصورة الفنية، وأهميتها ووظيفتها، وقد أفاد في تكوين هذه المفاهيم النقدية من ثقافته الإسلامية فضلا عن الموروث اليوناني القديم.

إنَّ مفهوم الصورة عند قدامة هو الشكل الفني الجديد الذي يصاغ من مادة الشعر، أي من المعاني، فالشعر هو الصورة وبذلك قرَّر أنَّ مقياس جودة الشعر ورداءته

---

(١) ينظر ما ذهب إليه الدكتور عز الدين إسماعيل من أنّ النمط الذي غلب على الصورة الشعرية القديمة مرتبط بدلالتها الحسّية والجزئية: الأدب وفنونه: ١١٦ وما بعدها، وينظر: الشعر العربي المعاصر: ١٤٦، وإلى هذا أيضاً ذهب الدكتور نعيم اليافي في كتابه: مقدمة لدراسة الصورة الفنية: ٥٢.

(٢) يراجع كتاب: الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث: ١٠٩ وما بعدها.

(٣) يراجع رأي الجاحظ في المعاني: كتاب الحيوان ٣/ ١٣١ - ١٣٢، ويراجع أيضاً ما قرّرهُ في البيان والتبيين ٦٦/١ - ٦٧ عن أهمية السبك والوحدة التلاحمية في القصيدة، إذ لمّح الجاحظ إلى عناصر الصورة، فأشار إلى قدرة الشاعر على التصوير، وبراعته الخيالية في رسم صورهِ، وتفرّده في ذلك الخيال، فضلاً عن عناصر الشعر الأخرى كالوزن وصحة إقامته، والطبع والصناعة اللفظية البارعة وغيرها.

(٤) يراجع ما ذهب إليه الدكتور عناد غزوان في بحثه المنشور في مجلّة الأقلام العددان ١١، ١٢ بعنوان (الصورة في القصيدة العراقية الحديثة: ٨٣ - ٨٤).

تكون وفق جودة الصورة عند الشاعر ورداءتها[١].

وممن وقف عند موضوع الصورة، ودورها في التعبير الشعري، من النقاد القدامى أيضاً، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) لقد كان الجرجاني يرى أنَّ الصياغة والتصوير هما سبيلا الكلام الفني، وأنَّ المعنى مادة الصورة والصياغة من الناحية الفنية. يقول[٢] "ومعلومٌ أنَّ سبيل الكلام سبيلُ التصوير والصياغة وأنَّ سبيل المعنى الذي يُعبر عنه سبيل الشيء الذي يقعُ التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار".

وطبقاً لما قرَّره عبد القاهر في نظريته المشهورة في النظم وتأليف الكلم، فإنَّ الصورة عنده تعني جوهر تلك العلاقة التركيبية الدلالية في قدرة الشاعر على تصوير المعنى وصوغه، أي أنَّ هذا الشكل الجديد هو (صورة) جديدة لمادة معروفة تؤلف الجانب العام من المهارة الفنية.

وفي (أسرار البلاغة) أبان الجرجاني عن مفهوم آخر للصورة، وجلّى عن قيمتها في التعبير الشعري بخاصة، وكشف عن دلالة الصورة على التجسيم وتقديم المعنى تقديما حسيّا ملموسا، يقول[٣]: "إِنك ترى بها الجماد ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفيّة بادية جليّة، إِنْ شئتَ أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقول كأنّها جُسِّمتْ حتى رأتها العيون "

وهكذا يستشفُّ الباحث من حصيلة ما طرحه الموروث النقدي القديم في موضوع الصورة، أنّها العنصر الفني للتعبير اللغوي الذي تمثلهُ اللغة الشعرية، فالصورة الشعرية إذاً تعكس " قدرة الشاعر في استعمال اللغة استعمالا فنيا يدلُّ على مهارته الإبداعية، ومن ثمّ يجسّدُ شاعريته في خلق الاستجابة والتأثير في المتلقي، فالصورة هي الوعاء الفني للغة الشعرية شكلاً ومضمونا[٤].

***

(١) ينظر: نقد الشعر: ٦٥ (ط دار الكتب العلمية - بيروت بتحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي).

(٢) دلائل الإعجاز: ١٧٥.

(٣) أسرار البلاغة: ٤١.

(٤) الصورة في القصيدة العراقية الحديثة: ٨٣.

أَساليب بناء الصورة في الرسائل الأدبية:

سيحاول البحثْ في هذا الجانب أنْ يتجه إلى دراسة الصورة الفنية في رسائل بلغاء الكتاب في هذا القرن، وتحليلها من خلال تفاعل الشكل والمضمون.

وعلاقتهما الكليّة في التعبير عن التجربة الفنية لهؤلاء الأدباء الكتاب المبدعين، أي التعبير عن ذواتهم وأحاسيسهم، فضلا عن التعبير عن جميع معطيات واقعهم الموضوعي، بجانبيه الحسّي والذهني، مع الحرص على علاقة الصورة الجدلية بالسياق وتواؤمها فيه وتلاحمها مع جزئياته المتعددة....

ولعلّ من القضايا المهمة المُسَلَّم بها في الدرس النقديّ، أَنَّ الأثر الأدبيّ غالبا ما يكتسب الأصالة وصفة الشمول الإنساني، حين يصور بدقة وصدق المرحلة التاريخية التي عاصرها، وطبقاً لذلك فإن المضمون الاجتماعي والفكري للرسائل الأدبية في هذا القرن واقترابها من حركة الواقع ودقة تصويره أحد أهم أسباب أصالتها وعمقها وصدق محتواها....

لقد جسّدَ كثير من نماذج الرسائل الأدبية في هذا القرن مشكلات إنسانية عامة، وبدا واضحا أنَّ الهمَّ الاجتماعي الذي عالجه الأدباء الكتاب لم يعدْ ذلك الهمَّ الذي يخصّهُ وحده، وإنما أصبح هما إنسانياً عاما. وكان وعي الأدباء الكتاب في هذا القرن لحركة الواقع الاجتماعي، وإدراكهم أبعاد هذا الواقع، وتحولاته وتفاعلاته المختلفة، دفع الكثير من أولئك الكتاب إلى القبض على المحاور الأساسية التي تحكم تلك العلاقات. وكان هذا الوعي هو ما دفع بلغاء الكتاب إلى محاولة تسجيل تلك الجوانب الخطيرة في المجتمع الإسلامي ورصده، ممّا طبع صور كثير منهم بطابع التقريريه إذ كانت كثيراً ما تحمل طابعا تسجيليا غلب عليها صفة الإخبار، وإيصال الموقف إلى المتلقي مباشرة، ومن هنا فقد اعتمدت أسلوب السرد حينا أو الوصف والتسجيل حينا آخر.

وفضلا عن ذلك فقد لجأ كثير من أولئك الأدباء الكتاب في أحيان أخرى إلى تخطّي تلك التقريرية أو المباشرة في التصوير، ومن هنا فقد غلب على بعض صورهم عنصر الخيال فمالتْ تلك الصور إلى التجسيد والتشخيص اللذين يقومان على مبدأ إعادة تشكيل الواقع وتقديمه في هيئة جديدة تختلف كثيرا عن أساسها المادي المألوف.

لقد كانت الأشكال البلاغية أهمَّ أشكال التصوير الفنيّ الأساسية في مختلف

الآداب العالمية، وعبرَ أكثر عصورها الأدبية، وقد تنبّه قديماً الفيلسوف أرسطو إلى قيمة هذه الأشكال الفنية في العمل الأدبي.

ولقد كانت هذه الأشكال البلاغية أهمَّ الأسس التي اعتمد عليها كثير من الكتاب البلغاء في بناء صورهم الفنية، ومنها التشبيه والمجاز الاستعاري والكناية والرمز وغيرها من الأساليب الفنية الأخرى....

وقبل أن اشرع في دراسة هذه الأشكال الفنية البلاغية التي اتكأتْ عليها الصورة قديما في رسائل كتاب هذا القرن، لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ أولئك الكتاب لجأوا إلى أساليب أخرى اعتمدوها في بناء صورهم الفنية ومنها:

(ا) اعتماد كثير من كتاب هذا القرن في بناء صورهم الفنية على المقابلة بين شيئين متضادين كالقوة والضعف والشباب والشيخوخة والنشاط والفتور أو الحلاوة والمرارة وما إلى ذلك.

وقد عرضنا لدراسة التضاد (الطباق) آنفاً، وأوضحنا قيمته الفنية في إجلاء المعنى وإيضاحه وتأكيد الفكرة وتعميقها فضلا عما يحقّقه استخدام هذا التضاد من تلوين الصورة، وخلق عنصر التشويق وإثارة انتباه المتلقي وتحفيزه لمتابعة العمل الأدبيّ، وتلقي جزئياته ومتابعتها.

(ب) ومن الأساليب الفنية التي اعتمدها بعض الكتاب البلغاء في بناء صورهم الفنية أيضاً: اعتمادهم على رسم المشهد واستقصاء الجزئيات والإلحاح على الصورة.

ولعلّ وقوفنا عند ظاهرة الإطناب واستقصاء المعاني، ولجوء الكتاب في هذا القرن إلى استقصائها وتشقيقها، ما جلّى بعض جوانب هذه الظاهرة الفنية في رسائل هذا القرن.

(ج) ومن أساليب بناء الصورة في رسائل كتاب هذا القرن أيضاً: لجوؤهم إلى ظاهرتي (التكثيف) و (التفصيل) وفق ما يتطلّبه الموقف الذي عبَّر عنهُ الكاتب أو مراعاة مقام إنشاء الرسالة الأدبية وظرفها الخاص..

وفي هذا الجانب، يستوقفُ الباحث المتأمل في رسائل بلغاء الكتاب في هذا القرن، تميّز الكثير من ألفاظهم بالإيحاء، وتنوّع الظلال أو الشيات المتعددة فضلا عما تميّزتْ بهِ تراكيبهم من تماسك وتلاحم تفاوتتْ بين السلاسة والجزالة والوضوح والغرابة، وصولاً إلى الإحاطة بجوهر الموقف أو التعبير عن التجربة

الإبداعية بصدقٍ وفاعلية.

(د) ومن أساليب بناء الصورة الفنية عند بعض كتاب هذا القرن أيضاً: اتباع أسلوب التصوير القصصي، والاتكاء على الحدث أو تصوير الشخصية وقد برع في هذا اللون من أنماط التصوير الفني، بديع الزمان الهمذاني بخاصة كما تجلّى في بعض نماذج رسائله التي مرَّ عرضها في المباحث المتقدمة....

تصوير المحسوسات والمعنويات في الرسائل النثرية:

لقد حظي فنّ التصوير في الأدب - شعراً ونثراً - بين الأدباء والنقاد منذُ القدم، وعلى تباين ثقافتهم، واختلاف لغاتهم، حظي بمنزلةٍ رفيعة ربما لم يتطلّعْ إلى مراقيهِ الشامخة أيٌّ من أدوات التعبير الأخرى، فقد شاع في الدرس النقدي مثلا، أنَّ الفيلسوف (أرسطو) كان يميز التعبير بالاستعارة - لما فيها من جمال التصوير - على بقية الأساليب، أو أنماط التعبير الأخرى، وكان يعدّه آية الموهبة[1].

وقد ذهب بعضُ النقاد إلى أَنَّ " أول خطوة في خلق الصور هو أن يقرنَ الشاعرُ نفسه إلى الأشياء التي تستهوي حواسَّه[2]".

ولفرطِ عناية الأدباء الكتاب في هذا القرن، بالمعاني، فضلا عن كلفهم بالصياغة اللفظية، وزخارف البديع والسجع، ودأبهم المتواصل على الإتيان منها بكل ما هو جديد، أو مستطرف، وغير متداول، فقد حرصوا على تصوير ما يقعُ تحت حواسّهم، أو يجولُ في خواطرهم، و يعتملُ في وجدانهُم، ولذلك فقد برعوا في توليف صور حسيّة نادرة، و صياغة تشكيلات وصور معنوية عمادها التشخيص أو التجريد، بلوغاً إلى تمثّل المعاني الجديدة التي يجرون وراءها تمثلا دقيقاً ومبتكراً.

وهكذا لجأ الأدباء الكتاب في هذا القرن إلى استخدام صيغ إيحائية تأخذُ مدياتها التعبيرية مما تشعّهُ من دلالات على التجسيم أو التجريد، أو عدم تقديم المعنى تقديما سطحيا أو مباشرا، وتقديم نمطها الحسيّ (المادي) على اختلاف أنواعه، على نحو خاص، وبهذا يرينا الكاتب، عبر استخدامه لأساليب التصوير الفني في النصّ الأدبيّ،

---

(١) تراجع التفاصيل في كتاب: في الشعر - ترجمة الدكتور محمد شكري عياد: ١٢٨ (ط دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٧م).

(٢) الصورة الشعرية - سيسل دي لويس: ٧٦.

كما عبَّر عن ذلك من قبلُ الناقد عبد القاهر الجرجاني[١]، يرينا الجماد ناطقا، والأعجمَ فصيحا، والمعنى الخفيّ باديا وجلّيا.

وقد تتسعُ مديات استخدام التصوير الفني في الأدب، شعرا ونثرا، لتشمل مثلا، تحويل غير المرئي (العقلي المجرَّد) إلى المحسوس، أو تقديم الغائب (غير المنظور) في صورة الحاضر (المشاهد)، الأمر الذي يغذيّ المعنى الأدبيّ بفرادته المخصوصة لدى المتلقي، إذ تنحرفُ الألفاظ في التشكيل الصوري عن دلالتها المعجمية إلى دلالة خطابية جديدة.

ولعلّ من روائع التصوير الفني في هذا الباب، ما شاع من استخدام أدباء هذا القرن في باب المديح، من ذلك مثلا، قولهم[٢]: "فلانٌ مسترضعٌ ندى المجد مفترشٌ حجر الفضل.

- ينابيعُ الجود تتفجَّرُ من أنامله، وربيع السماء يضحكُ من فواضله". وكقولهم أيضاً في ذكر النعاس ووصفه[٣]: "- شرب كأس النعاس، وانتشى من خمر الكرى.

- غرق في لجةِ الكرى، وتمايل في سكرة النوم. "

ونظيرُ هذا أيضاً قولهم في وصف الثلج والبرد[٤] "القى الشتاء كلكله، وأَحلَّ بنا أثقاله.

- ضربَ الشتاءُ بجرانهِ، واستقلَّ بأركانهُ، وأناخَ بنوازله، وأرسى بكلاكله، وكلَّح بوجهه، وكشَّر عن أنيابه.

- قد عادتْ هاماتُ الجبال شيباً، ولبستْ من الثلج بُرْدا قشيبا".

***

وهكذا يتجلّى بوضوح كيف برع أدباء هذا القرن في توظيف الخيال - بوصفه الملكة التي تخلق الصور الفنية وتبثّها - لخدمة الأفكار التي المّوا بها في ترسلهم، والسموّ بمعانيهم إلى آفاق رحبةٍ من الابتكار والتجديد، ولا ريب في أَنّ الصور - كما

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة: ٤٠ (تحقيق: هـ. ريتر - مطبعة وزارة المعارف - ١٩٥٤).

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب: ٦٣٥/٣ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه: ٨٠٥/٣.

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب: ٤/ ٩٤٠.

ذهب إلى ذلك بعضُ النقاد المعاصرين -[١] تخدم الأفكار على خير وجهٍ إنْ كانتْ مرتبةً بصورة تختفي فيها جميع الأصداء عدا الضرورية منها، وقد تستعمل الصور لتوكيد الأفكار العامة وتوضيحها....

وقد تتسعُ عمليةُ استخدام التصوير الفني في الأدب أيضاً، من خلال اشتراك أكثر من حاسة في تكوين الصورة الفنية الجديدة في النصّ الأدبيّ، وهذا ما يُعرف عند النقاد المعاصرين بالصورة المتكاملة (Unified Image)[٢] .

ولعلّ من روائع ما يستوقف الباحث في هذا الاتجاه من الرسائل الوصفية لأدباء هذا القرن، ما ورد في فصل من رسالة أدبية لأبي بكر الخوارزميّ، يصفُ كتاباً بليغاً وصل إليه من بعض لداته[٣] "كتاب هو المسكُ ذكيّا، والزهرُ جنيّا، والماءُ مريّا، والعيشُ هنيّا، والسحرُ بابليّا...".

ويتضحُ جلّيا أنّهُ قد اشتركتْ في هذا الوصف أكثر من حاسة في إبداع هذه الصورة الفنية وخلقها، وهي على التوالي حاسةُ الشمّ، وحاسة البصر، فحاسةُ الذوق، فضلا عما مازجها من تلاوين ذهنية مجرّدة أخرى....

ونظيرُ هذا أيضاً، ما ذكرهُ الحُصْريّ فيما ينُسبُ لأدباء هذا القرن أيضاً، مما يجري في باب المدح مجرى الأمثال، لحسن استعاراتها وبراعة تشبيهاتها[٤] "- لهُ صورةٌ تستنطقُ الأفواهَ بالتسبيح، ويترقرقُ فيها ماءُ الكرم، وتقرأ فيها صحيفة حسن البشر، تحيا القلوبُ بلقائه، قبل أنْ يميتَ الفقرَ بعطائه".

فقد جمع الكاتب في هذا الفصل من الرسالة بين الصورة المرئية (صورة تستنطق الافواه بالتسبيح)، وبين الصورة السمعيّة (يترقرقُ فيها ماءُ الكرم) في توليفٍ معنوي متناغم جميل، مع ما في الصورة الثانية من تجريد، ضاعف من حسنه وبهائه، وتناسب جزئياته، ائتلاف التضاد بين (احياء الممدوح للقلوب بلقائه) قبل أنْ (يُميتَ الفقرَ بسخاءِ عطائه).

وفضلا عما تقدم، فقد كان كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيرا ما يصورون

(١) ينظر كتاب: الصورة الشعرية - لويس: ٩٣.

(٢) تراجع التفاصيل في كتاب: الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث: ١٠٦.

(٣) من غاب عنه المطرب: ١٧.

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣/٦٣٥.

المحسوسات (الأمور المادية) بإطار ذهنّي مجرّد، وكثيرا ما كانوا يشبّهون الذوات المحسوسة بالصفات والمعاني الذهنية المجرّدة، إمعاناً في طلب معانٍ جديدة مبتكرة، من خلال تلك الصور المعنوية النادرة... فأورادُ البستان توحي بأخلاق الممدوح، وجدولهُ السابح يقرنُ بطبعه، وزهرهُ الجنيّ يوميء إلى قربه! يقول أبو القاسم الصاحبُ بنُ عبّاد في أحد فصول رسائله في الاستزارة[١]: "أنا على طرف بستانٍ، اذكرني وردُهُ بخلقك، وجدولهُ السابحُ بطبعك، وزهرُهُ الجنيّ بقربك".

والماءُ في زرقتهِ يُشبّهُ بصفاءِ الودّ، ورقة القول في العتاب!! يقول الوزير الصاحبُ أيضاً في فصل من رسالة لهُ[٢]: "علقتُ هذهِ الأحرفَ، وأنا على حافةِ حوض ذي ماءٍ أزرق كصفاء ودّي لك، ورقة قولي في عتابك...".

ونظيرُ ذلك أيضاً ما جاء في أوصاف أهل هذا القرن في صفات الثقلاء[٣]: "كأنّ وجههُ أيام المصائب، وليالي النوائب... "

وكقولهم أيضاً في وصف السكاكين[٤] "سكينٌ كأنَّ القدرَ سائقها أو الأجلّ سابقها.... كأَنَّ المنيّة تبرقُ من حدِّها، والأجلّ يلمعُ من متنها.... "

لقد أفاض كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كثيرا في عرض تلك الصور الفنية، وشغفوا بالإكثار منها في ترسلهم، ومن هنا فقد لجأ أكثرهم إلى الترادف حيناً، أو التكرار حيناً آخر، لملء الصورة، وإكمال جزئياتها، والدقة في رسمها، والبراعة في عرض الجزئيات، ولم يقتصرْ هذا الأمرُ على المعنويات، أو تصوير المعاني المجرَّدة، وإنما نتلمَّسهُ أيضاً في صورهم الحسيّة الجميلة...

يقول الوزير الصاحب بن عبّاد في فصل لهُ من رسالة[٥]: "وقد قابلتنيِ شقائق كالزنوج تجارحتْ فسالتْ دماؤها، وضعُفتْ فبقي ذماؤها، وسامتني اشجارٌ كأنّ الحور أعارتها أثوابها، وكستها أبرادها، وحضرتني نارنجاتٌ ككراتٍ من سفنٍ ذُهِّبتْ، أو ثدي أبكارٍ خلقت... "

---

(١) يتيمة الدهر: ٣/٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٣/٢٨٧.

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب: ٢/ ٤٨٩ - ٤٩٠.

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب: ٢/ ٤٩٤.

(٥) يتيمة الدهر: ٣ / ٢٨٨.

ولا يخفى ما في هذه الصور الحسيّة البصرية التي دبّجها الكاتب، وأبدعها خيالهُ الخصب من طرافة، وما تنبضُ بهِ من حركة وحياة، وما تشعّهُ في نفس المتلقي من نشوة حين يسري بخياله إلى آفاق الحور التي أعارتْ أثوابها، أو ما تبثه في خلدهِ تلك النارنجات المذهبّة التي تذكر بثدي كاعب بكر خجول...

ومن تلك الصور الحسيّة الجميلة أيضاً، ما ورد في ألفاظ كتاب هذا القرن في صفات الفواكه والثمار[1]: "سفرجلٌ يجمع طيبا، ومنظراً حسناً عجيبا، كأنه زئير الخزّ الأغبر، على الديباج الأصفر.

- تفاحٌ نفّاح، يجمعُ وصف العاشق الوجل، والمعشوق الخجل، لهُ نسيم العبير وطعم السكر، رسول المحبّ، وشبيه الحبيب.

- تين كأنه سُفُرٌ مضمومة على عسل.

- مشمش كأنه الشهدُ في بيادق الذهب ".

***

وهكذا نتلمسُ من خلال هذه الشواهد اليسيرة قوة الأديب في هذا القرن في تصوير المحسوسات والمعنويات وتجسيد المعاني الذهنية المجرّدة، والأمور المادية المحسوسة على حدّ سواء، ونتلمَّسُ أيضاً ذلك التفصيل في الوصف واستقصاء الجزئيات بأسلوب لم يُسبقْ إليه كتاب العربية في العصور السالفة...

الصور البلاغية (الفنية) أنواعها وأساليب بنائها:

سبقتِ الإشارة إلى أَنَّ قوّة المخيلة وحدتها عند الأديب تتيحُ لهُ، عن طريق استخدام الوسائل التي تهيئها لهُ أداة التعبير وهي اللغة وتضعها في متناوله، أَنْ يعبِّر عن أحاسيسه وتطلعاته بحرية واسعة، تتخطى حدود واقعه، فأمام الأديب الفنان ثراء لغوي متدفق يتيحُ لهُ بيسر أنْ يرسمَ ما توحيه إليه مخيلتهُ من أبعاد خياليةٍ متنوعة، تتمثَّلُ في التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية، وما إليها من الأساليب البيانية التي تتيحُ للخيال متسعا وانطلاقا...

فأسلوب التشبيه مثلاً، يمكِّنُ الأديب الكاتب أن يظهرَ أَنَّ أشياءَ معينة، عن طريق اشتراكها في صفة أو أكثر، أشدّ وضوحا، وأبهى موقعا، وأعظم صفة، وأجمل أو أقبح منظراً، وما إلى ذلك مما سنبينهُ لاحقا....

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٢/٣٤٩.

وأسلوب المجاز والاستعارة هما أيضاً لا يعبران عن العلاقات الموضوعية للأشياء، وإنما يعبران عنها وفق ما تتخيلها ذاتُ الأديب، أو كما ترتسمُ في مخيلته، فهي طبقاً لذلك، لغة تخيلية تعتمدُ التعبير بالصورة أساسا، وهي بهذا لا تعتمدُ التسجيل أو الإخبار أو الوصف، وإنما تعتمدُ الإيحاء أو الإشارة....

ومن هنا كانت غايةُ المجاز والاستعارة بخاصة تكثير الدلالة، وتفخيمها، بإخراج اللفظ الحقيقي من مواصفاته الأصلية إلى حالةٍ جديدة، قوامُها التخييل، وجواز الحقائق الشائعة عرفاً واتفاقا.

أما أهمّ تلك الأساليب أو الأشكال البلاغية (الفنية) التي استعان بها الأدباء الكتاب في رسم صورهم، وتجسيد أفكارهم في هذا القرن، فهي كما يأتي:

- أ - التشبيه:

التشبيه: أحد أساليب التعبير المهمة، ومن فنون الكلام الذي شاع تداوله في مختلف الآداب الإنسانية منذ القدم....

وقد عدَّهُ الفيلسوف (أرسطو) قديما، ضربا من المجاز، وأشار إلى أهميته في الكلام المنثور، إلاّ أنه أوصى بوجوب التقليل من استعماله في النثر لغلبة الطابع الشعري فيه يقول[١].

"والتشبيه نافعٌ أيضاً في النثر، لكن ينبغي التقليل من استعماله في النثر، لأن فيه طابعا شعريا، ويجبُ استعمال التشبيهات مثل المجازات وهما لا يفترقان إلا في طريقة الصياغة".

والتشبيه أيضاً من فنون الكلام الذي شاع في لغة العرب وأدبها منذ عصر ما قبل الإسلام، وقد عدَّهُ صاحبُ (نقد النثر)، أشرفَ كلام العرب ودليلا على فطنتهم في فنّ القول، وبراعتهم وحذقهم في الشعر، يقول[٢].

"واما التشبيه فهو من اشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلّما كان المشبِّه منهم في تشبيههِ ألطف، كان بالشعر أعرف، وكلّما كان المعنى أسبق، كان بالحذق أليق.... "

وذكر أبو العباس المبرّد (ت٢٨٥ هـ) أنّ التشبيه جارٍ كثير في كلام العرب، حتى

---

(١) كتاب الخطابة -ترجمة د. عبد الرحمن بدوي: ٢٠٤ (المقالة الثالثة / في صفات الأسلوب).

(٢) نقد النثر: ٥٨.

لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد[١].

وقد أشار العسكريّ إلى أهميته، وشيوع استعماله عند سائر المتكلمين فقال[٢]: "والتشبيه يزيد المعنى وضوحا، ويكسبهُ تأكيدا، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغنِ أحد منهم عنه " وقد أكد جلّ الأدباء والنقاد القدامى أهميته وحسنه في الكلام، فقد جعل الأديب الناقد ابن المعتز (ت٢٩٦ هـ) في كتابه (البديع)[٣]، حسن التشبيه الفنّ الحادي عشر من محاسن الكلام، بينما جعل ضياءُ الدين ابن الأثير (فن التشبيه) النوع الثاني من الصناعة المعنوية، وعدَّهُ فنا مستوعر المذهب، ومن مقاتل البلاغة. يقول ابن الأثير[٤]:

"فالتشبيه إذا يجمع صفات ثلاثة، هي: المبالغة والبيان والإيجاز.... إلاّ أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب، وهو مقتل من مقاتل البلاغة، وسببُ ذلك إنّ حمل الشيء على الشيء بالمماثلة إما صورة وإما معنىً يعزّ صوابهُ، وتعسرُ الإجادةُ فيه....".

وفنُّ التشبيه وسيلة مهمة من وسائل الخيال، ودعامة أساسية من دعائم تثبيت الصورة في نفس المتلقي، وامتاعه واستثارة مكامن أشواقه، ولعلَّ هذا ما يفسِّرُ إطباق جميع المتكلمين والأدباء البلغاء على استعماله في شعرهم وخطبهم وترسلهم....

وقد أكَّد هذه الحقيقة المهمة الناقد ابن الأثير، فذكر يقول مشيرا إلى فائدة التشبيه وعلاقته بالخيال[٥]: "وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثّلتَ الشيء بالشيء، فإنما تقصدُ بهِ إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكدُ في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه، ألا ترى أنك إذا شبَّهتَ صورةً بصورة هي أحسن منها، كان ذلك مثبتا في النفس خيالا حسنا يدعو إلى الترغيب فيها، وكذلك إذا

---

(١) الكامل في اللغة والأدب: ٦٩/٢ (مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٩٦١م)، وذكر في حدّه يقول: "واعلم أن للتشبيه حدّاً، فالأشياء تتشابه من وجوه، وتتباين من وجوه، وإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع". وقسمه إلى أربعة أضرب هي: المفرط، المصيب، المقارب والبعيد، يراجع كتاب الكامل، ج٣/٦٠ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).

(٢) كتاب الصناعتين: ٢٤٩.

(٣) يراجع كتاب البديع: ٦٨.

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١ /٣٨٨ - ٣٩٤.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ٣٩٤.

شبَّهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتا في النفس خيالا قبيحا يدعو إلى التنفير عنها، وهذا لا نزاعَ فيه".

***

وقد فطن الأدباءُ والكتاب البلغاء في هذا القرن للتشبيه بوصفه أحد طرائق التعبير والبيان، ووسيلة مهمة من وسائل الخيال، وتنبهوا إلى ما يحققهُ أيضاً من استثارة المتلقي وامتاعه، وإثارة تشويقه للعمل الأدبي، ولِما لهُ من تأثير كبير في ابتكار المعاني، والتحليق في آفاقها، أو الإغراب فيها ولِما لهُ أيضاً من تأثير فاعل في إيضاحها، وجلاء الأفكار وتعميقها، فضلاً عما ينطوي عليه من مزايا فنية أخرى يمكن أن تساعد الأديب الفنان في تحقيق ما يقصدهُ من أغراضٍ ومرامٍ تقتضيها العملية الإبداعية...

ولعلَّ أكثر ألوان التشبيه التي شاعتْ في أشعار الشعراء ورسائل الكتاب البلغاء في هذا القرن، تشبيه الأمور المحسوسة بالأمور المعنوية أو العقلية، أو ما تدركُ بالذهن، وربما كان إمعان الأدباء في هذا اللون من التشبيه، ولهثهم وراءه، وطلبهم لهُ، سعياً وراء الاغراب في الخيال، والتحليق في آفاقه السحيقة، لخلق صور ذهنية بعيدة، أو غير مألوفة، وقد كان نزوعهم إلى التجديد في المعاني، والابتكار فيها، ما حفزهم لهذه المرامي الفنية التي شاعتْ في أدبهم...

فالماءُ في زرقته مثلا يشبه بصفاء الودّ، ورقة القول في العتاب، كما مرَّ بنا في فصل(١) من رسالة للصاحب بن عباد، ومن صور تشبيه المحسوس بالمعقول أيضاً، ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أبي حامد الأديب بقومس جوابا عن كتابه إليه، ومما ورد فيه(٢): "ورد عليّ كتاب الشيخ، وهو اعزّ كتاب عليَّ إلاّ أنّه كان صغيراً كأيام لقائي لهُ، قصيرا كمدة أنسي به... "

ونظير هذا اللون من التشبيه أيضاً، ما جاء في أوصاف أهل هذا القرن في صفات الثقلاء(٣): "فلان... يحكي ثقلَ الحديث المعاد، ويمشي في القلوب والأكباد، ولا ادري كيف لم تحمل الأمانة أرض حملته؟! وكيف احتاجتْ إلى الجبال بعدما أقلتهُ.

- كأنَّ وجههُ أيام المصائب، وليالي النوائب.... "

---

(١) ينظر: يتيمة الدهر: ٣ / ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٨٠.

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب ٢: /٤٨٩ - ٤٩٠.

وقد تباينتْ آراء النقاد القدامى في هذا الضرب من التشبيه، فقد استهجنهُ بعضهم كأبي هلال العسكري، ذكر يقول(١): "وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه ما يرى بالعيان بما ينال بالفكر، وهو رديء وإن كان بعض الناس يستحسنهُ لما فيه من اللطافة والدقة... "

أما ابنُ الأثير فقد جعل تشبيه المحسوس بالمعنوي القسم الرابع من أقسام التشبيه وقد استحسنه كثيراً، ذكر يقول(٢):"..... تشبيه المحسوس بالمعنوي: وهذا القسم ألطف الأقسام الأربعة لأنهُ نقل صورة إلى غير صورة ".

أما تشبيه المعنى بالصورة - كما نعته ابن الأثير(٣) -أو تشبيه المعنوي بالحسيّ، كما مثّل لهُ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ ...﴾ فقد جعله ابن الأثير القسم الثالث من أقسام التشبيه الأربعة، وقد عدَّهُ ابلغ الأقسام الأربعة يقول(٤):"... وهذا القسمُ ابلغ الأقسام الأربعة، لتمثيلهِ المعاني الموهومة بالصورة المشاهدة".

ومن نماذج ما ورد من هذا اللون من التشبيه في رسائل هذا القرن، ما كتبهُ أبو إسحاق الصابي في فصل من رسالة له(٥): "إذا كان لا بدَّ للأسلاف أنْ تمضي، والأخلاف أن تنمو، كالشجر الذي يُغرسُ لدِنا، فيصير عظيماً، والنبات الذي ينجم رطبا، فيعود هشيما.... "

ونظيرُ ذلك أيضاً، ما ورد في رسالته إلى محمد بن عباس يعزّيه عن طفل وقد شبّه الدنيا وصروفها ونوازلها بالسهام التي تثبتُ في الأغراض يقول(٦): "الدنيا - أطال الله بقاءَ الرئيس - اقدارٌ تردُ في أوقاتها..... فهي كالسهام التي تثبتُ في الأغراض، ولا ترجع بالاعتراض... "

ومن صور تشبيه المعقول (المعنوي) بالمحسوس أيضاً، ما جاء في فصل من رسالة لأبي بكر الخوارزمي إذ يقول(٧): "واقلّ ما عنده أنّ عطاياهُ قد صيَّرتِ المفحمَ

---

(١) كتاب الصناعتين: ٢٤٨.
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١/ ٣٩٨.
(٣) المصدر نفسه: ١/ ٣٩٧.
(٤) المصدر نفسه: ١/ ٣٩٧.
(٥) يتيمة الدهر: ٢/ ٢٥٤.
(٦) زهر الآداب وثمر الألباب: ٤/ ٩٥٧ - ٩٥٨.
(٧) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢١٧.

شاعرا، وجعلتِ العفيف سائلا، كالمنهل يقصرُ رشاؤه، ويعذبُ ماؤه، فيشرب منه العطشان نهلا، والرّيان عللا، وكالطعام يحسنُ في العين، ويطيبُ في البطن، ويخفُّ على القلب، فيأكله الجائعُ تغذيا، والشبعان تفكّها.... ".

ونظير ذلك أيضاً ما ورد في فصل من رسالة لأبي الفضل الميكالي إلى أبي عمرو البحتري(١)".... وظهرتْ محاسنه كالنجوم الثواقب، واختطفتهُ يدُ المقدار، ومُحيَ أثرهُ بينَ الآثار... "

وقد عدَّ أبو هلال العسكريّ هذا اللون من التشبيه أحد أربعة أنواع تميّزتْ بالجودة، وسمّاهُ " إخراج ما لا تقعُ عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة"، وجعلهُ القسم الأول من تلك الأقسام الأربعة(٢).

أما ابن سنان الخفاجي(٣) فقد جعل حسنَ هذا اللون من الشبيه مقرونا بإيضاح المعنى وبيان المراد. يقول: "والأصلُ من حسن التشبيه أنْ يمثّلَ الغائبَ الخفيّ الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد".

***

ومن ألوان التشبيه التي شاعتْ شيوعا مطردا في رسائل بلغاء الكتاب في هذا القرن أيضاً، ما سماهُ ابنُ الأثير " التشبيه بالمصدر يقول(٤): "واعلم أنَّ محاسن التشبيه أن يجيء مصدريا، كقولنا: قدم إقدام الأسد، وفاضَ فيضَ البحر وهو أحسنُ ما استعمل في باب التشبيه".

ومن نماذج ما ورد من هذا اللون من التشبيه بالمصدر، ما كتبهُ أبو إسحاق الصابي في فصل بليغ من رسالة له(٥):"... وحمل عليها حملة الحوت الملتقم والثعبان الملتهم، والليث الهاصر، والعقاب الكاسر... "

ومن صور التشبيه البليغ بالمصدر، ما ورد في رسالة أدبية للوزير الصاحب بن عباد في الاستزارة والدعوة إلى مجلس شراب(٦)"... وأحبُّ أن تطير إلينا طيرانَ السهم،

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ١١٤١/٤.

(٢) كتاب الصناعتين: ٢٤٦.

(٣) سرّ الفصاحة: ٢٣٧.

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٣٩٥/١.

(٥) رسائل الصابي (مخطوط ص ١٢١ أ) بدلالة رسالة: أبو إسحاق الصابي حياته وأدبه: ٢٢٧.

(٦) من غاب عنه المطرب: ١٢٠ - ١٢١.

أو تطلع علينا طلوعَ النجم ".

ونظيره أيضاً، ما ورد في فصل من رسالة أدبية لأبي هلال العسكريّ في الشكر[١] "وأنا معترفٌ بذلك اعترافَ الروض بحقوق الأنواء، وقائل به كما أقول بفضل الوفاء".

وهكذا نلحظ من خلال صور التشبيه الآنفة الذكر، اتساع مديات التصوير الفني في مكاتبات هذا القرن، حتى شملتْ تحويل غير المرئي (العقلي المجرّد) إلى المحسوس المألوف، الأمر الذي يغذّي المعنى الأدبي بفرادتهِ المخصوصة لدى المتلقي، إذ تتحولُ الألفاظ في هذه الصور التشبيهية عن دلالاتها الوضعية (المعجمية) إلى دلالات خطابية جديدة رائقة....

***

- ب - المجاز الاستعاري:

لقد ميّز الفيلسوف (أرسطو) قديما الاستعارة - بوصفها ضربا من المجاز - على بقيّة الأساليب، وأنماط التعبير الأخرى، لِما فيها من جمال التصوير وكان يعدُّها آية الموهبة[٢].

والاستعارة ضربٌ من المجاز اللغوي، وقد شاع تداولها في كلام العرب منذُ القدم على سبيل التوسع في التعبير، وقد علّل صاحب كتاب " نقد النثر "[٣].

شيوع استعمالها في أدب العرب، وحاجتهم إليها في لغتهم لكثرة ألفاظهم على معانيهم - وليس هذا في لغة غير لغة العرب - ومن هنا فقد كان العربُ يعبِّرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة، ربما كانت بعضها مخصصة لهُ، وبعضها الآخر مشتركة بينه وبين غيره. ثم يقول[٤]: "وربما استعاروا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز "والاستعارة عند أبي هلال العسكري - طبقا لذلك - " نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض[٥]".

---

(١) ديوان المعاني: ٢/١٠٤.

(٢) في الشعر -أرسطو - ترجمة وشرح د. محمد شكري عياد: ١٢٨ (ط دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٧).

(٣) نقد النثر (المنسوب إلى قدامة): ٦٤ - ٦٥ (تحقيق د. طه حسين، د. عبد الحميد العبادي).

(٤) المصدر نفسه: ٦٥.

(٥) كتاب الصناعتين: ٢٧٤.

ثم أتى على ذكر ما تحققهُ الاستعارة (المصيبة) من مقاصد بلاغية فذكر أربعةً منها هي: شرح المعنى والإبانة عنه، وتأكيده والمبالغة فيه، والإيجاز، وأخيرا تحسين المعرض الذي تبرز فيه المعاني[١].

وفي القرن الرابع تنبّه الأدباء والكتاب البلغاء إلى التعبير بالاستعارة، بوصفهِ وسيلةً مهمة من وسائل التصوير الفني، وأداة فاعلة لملكة الخيال. ومن هنا فقد عكفوا على الإكثار من استخدامه في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية، وقد برعوا في استخدام هذا اللون من أفانين التعبير ايّما براعة، حتى أنَّ المتتبع لآثار أولئك الكتاب البلغاء لتأخذه الدهشة لقرائحهم الوقادة وطباعهم النفاذة، التي هيّأت لهم القدرة على التحليق في وصف العوالم المحسوسة، واستكناه ما يستتر في خبايا الوجدان، وخفايا الأذهان، بأسلوب بلغ الغاية في الفنّ وجمال الأداء...

ولعل بديع الزمان الهمذاني، وأبا بكر الخوارزميّ قد بلغا الذروة في استخدام المجاز الاستعاري، وتوظيفه في أدبهما ومكاتباتهما الأدبية، حتى أنهما بزّا فيه سواهما من كتاب هذا القرن كثرةً وأداءً، فبرعا ايمّا براعة في تجسيد كثير من المعاني الذهنية أو الأفكار المجرّدة، فصاغاها في صور حسيّة بارعة كما افتنّا في تصوير كثير من الأمور الحسيّة المألوفة، بمقارنتها بأمور معنوية مجرّدة، أو مواءمتها بقضايا ذهنية بعيدة عن متناول الحسّ، رغبةً في الإبداع والإغراب، وصولا إلى ابتكار معان جديدة وطريفة، تستثير المتلقي، وتبعث فيه النشوة والمتعة الفنية التي هي قوام الفن وغايته...

ومن صور التعبير الاستعاري النادرة التي تطالعنا في رسائل بديع الزمان ما صاغه في بعض فصول رسائله الأدبية إلى أبي العباس الإسفراييني يعاتبه، وقد برع في توظيف الاستعارة التمثيلية (المركبة) لخلق هذه الصورة الرائعة[٢]:

" كتابي، والثمرةُ - أدام اللهُ عزّ الشيخ الجليل - تخرجُ من أكمامها، فتكون مرَّةً قبل تمامها، ثم تصير مزّةً كثيراً من أيامها، ثم تكون فجّةً عصفةً ثم لا يزال الليلُ والنهارُ ينضجانها حتى تصبح رطبا جنيا، وتؤكل حلوا هنيّا، وقد تصوّرني الشيخ الجلّيل حجرا لا يؤثر فيَّ الماء والنار، ولا ينضجني الليلُ والنهار، وللشباب نزْقةُ طَيْشٍ ثم يربعون، إذا جاء الأربعون، وينزعون، وإنْ كانوا لا يوزعون".

(١) كتاب الصناعتين: ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٢.

وهكذا استعار الكاتبُ الثمرة وأحوالها المتتابعة، في عتابهِ على الشيخ الإسفراييني، وانكاره عليه تصّوره حجرا لا يؤثر فيه الماء والنار، فالإنسان - يعني نفسه - لا يبلغ الحلم، ولا يدركَ الرشد إلاّ بعد أنْ تمرَّ عليه أطوار وأطوار، فهو كالثمرة، لا يُدركَ جناها، ولا يبدو صلاحها إلاّ بعد أن تختلف عليها تلك الأحوال والصروف...

ويتواصل تأكيد بديع الزمان - في معرض عتابه على الشيخ الإسفراييني - جلَدَهُ وطول مراسه في تحملّ صروف الدهر، بما قطعهُ من مسيرة الحياة المضنية وتأهّبه لتوديع الشباب فيقول(١):

"ولقد نظرتُ في المرآة فوجدت الشيب يتلّهبُ وينهب، والشباب يتأهب ويذهب، وما أسرجُ هذا الأشهبَ إلاّ لسيرٍ، وأسألُ الله خاتمة خير.... "

وهكذا يوظف الأديب الكاتب المجاز اللغوي الاستعاري مرة أخرى ليظلل به لوحته الفنية الجميلة فيستعير صورة الفرس الأشهب، وهو الأبيض المشرب بحمرة للشيب الذي بدا يلوح في تلافيف مفرقة، وقد رشّح الكاتب هذه الاستعارة الجميلة بالسير والإسراج التي هي من صفات المستعار (الفرس الأشهب) فهي بهذا استعارة تصريحية مرشحة.

ويفتنُّ الهمذاني كثيراً في بناء صورهِ الفنية بتوظيفه " الاستعارة المكنية " لتجسيد المعاني الذهنية المجردة في صور مادية محسوسة، نزوعا إلى إيضاح المعنى وجلاء الفكرة واضفاء طابع المبالغة فيما يريد إسباغه على الممدوح من صفة الكرم، والتفرّد في العطاء والنوال....

يقول في فصل من رسالته إلى أبي الطيب سهل بن محمد(٢): "فليس إلاّ أن يلبسَ مكارمهُ ضافيةً بالغة، ويردَ مشارعه صافية سائغة " فقد شبّه الكاتب مكارم الممدوح بالحلل القشيبة التي ترتدى ثم حذف المشبّه به، وأبقى بعض لوازمه أو صفاته ثم استعار أيضاً المشارع الصافية الماء السائغة الشراب للدلالة على كرم الممدوح وعظيم نواله.

---

(١) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٢.

(٢) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١٣١، الضافية: الساترة، البالغة: الكافية، المشارع جمع مشرع وهي موارد الماء السائغة: العذبة السهلة في الحلق من ساغ الشراب إذا سهل شربهُ. يراجع لسان العرب (مادة ضفي، بلغ، شرع، سوغ).

وفي رسالة بديع الزمان أيضاً إلى أبي جعفر الميكالي كتب يقول[١]".. وبقي أن أقرصه بأنامل العتب، وأجمشه بألحاظ العذل.. " فقد شبه الهمذاني (العتب) بإنسان لهُ أنامل، واستعارهُ لهُ على سبيل الاستعارة المكنية...

وهذا الضربُ من التصوير بالاستعارة المكنية كثير في رسائل الهمذاني.

***

ومن صور التعبير الاستعاري الجميلة التي تطالعنا في رسائل الخوارزمي - ولا سيما الاستعارة بالكناية - ما كتبه في رسالته إلى قاضي القضاة يصفُ فيها ما عاناهُ من علّةٍ المَّتْ به، وشفائه منها[٢] "ثم أراد الله تعالى أن يري عبدَهُ رحمته، بعدما أراه قدرته فأقامه من صرعته واستلّهُ من مخلب علّته، وأزال عنه يدَ المنية بعدما اشتبكتْ به.... "

ففي هذا الفصل من الرسالة صورتان معنويتان، جسَّدهما الكاتب بأسلوب الاستعارة المكنية ففي الصورة الأولى شبّه (العلة) التي أصابته بالحيوان المفترس ثم حذف المستعار منه واستعار لازمة من لوازمهِ وهي المخلب وقرنها بالمستعار له (العلّة) على طريقة التخييل...

وهكذا يقال في الصورة الثانية، إذ شبّه المنيّة التي اقترب منها بإنسان أراد انتزاع الحياة منه بقبضة يده! ثم حذف المستعار منه واستعار لازمة من لوازمه فنسبها على سبيل التخييل إلى المستعار له...

ومن صور التعبير الاستعاري في رسائل الخوارزمي أيضاً ما ورد في فصل من رسالته إلى صديق له على ديوان الخراج ويلاحظ براعة الصور وتكثيف الاستعارات يقول[٣]:"..... وجديرٌ بمنْ هطلتْ عليه سحائب عنايتك ورفرفتْ حوله أجنحة رعايتك، أن ينبوَ عنه سيفُ الزمان مفلولاً ويرجع عن ساحته عسكر الزمان مهزوما... "

ومن روائع الصور الفنية في أدب الخوارزمي أيضاً، ما يطالعنا في هذا الفصل من رسالته إلى كاتب خوارزم شاه وقد نكب، فقد تلطف الكاتب كثيرا في التصوير إذ شبّه صديقه الذي نُكب بالطائر الكبير واستعار القفص الصغير (للمنصب الذي كان

(١) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٩٩.

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢١٠.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢١٤ - ٢١٥.

يشغله) ثم جعله أيضاً - زيادة في التلطف والمواساة لصديقه - درّة يتيمة ومثّل منصبه الذي عُزل عنه بالصدفة فكتب إليه يقول[١]:".. وما للطائر والقفص الصغير، وما بال الدرة اليتيمة ترضى بالصدفة اللئيمة، وإنما الأدب جناح فهلا طرتَ به من الوكر الصغير إلى الوكر الكبير ".

ويتضح بجلاء ما حققته الاستعارة التصريحية (التمثيلية) من جمال تصوير كما لا يخفى أيضاً ما تضمنته الصورة من رمز جميل أضفى على جزئيات الصورة قدراً كبيراً من البهاء والإشراق...

ونظير هذه الصورة الفنية التي اعتمد الكاتب في بنائها على المجاز الاستعاري كثير جدا في رسائل أبي بكر الخوارزمي بخاصة، وغيره من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن كأبي إسحاق الصابي والصاحب بن عباد واضرابهما من الكتاب البلغاء الذين شُهروا بالبراعة وخصب الخيال.

- ج - الكناية أو الإرداف:

وهي إحدى فنون (علم البيان) الذي يختصُ بالتعبير عن المعنى الواحد بطرائق مختلفة في وضوح الدلالة عليه[٢]، والكناية إحدى فنون التعبير الفني التي تضفي على الكلام جمالا وتشويقا، وتزيده جلاء ووضوحا.

أمّا حدُّها فهو أن يريد الأديب الدلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدلّ على معنى هو ردفه وتابع له[٣].

وقد لجأ الكتاب البلغاء في هذا القرن كثيرا إلى استخدام الكناية، بوصفها وسيلة مهمة من وسائل الإيضاح والمبالغة وتأكيد المعنى، فعبد القاهر الجرجاني يرى أنَّ الأديب حين يكنّي عن المعنى فإنّه يزيد في إثباته فيجعله أبلغ وآكد وأثبت[٤].

وقد تتحقق الإبانة وزيادة الوضوح فضلاً عن جمال التصوير في التعبير الأدبي عن طريق الكناية بتأكيد وجود الصفة وذلك بإثبات ما يدلُّ عليها (أي لازمها) وايجابها

---

(١) المصدر نفسه: ٢٥٥.

(٢) تراجع التفاصيل في علم البيان وحدّه ومقاصده وفي الكناية وأقسامها: علم البيان للدكتور بدوي طبانة: ١٧٣ - ٢٠٨.

(٣) ينظر: نقد الشعر: ١٥٧، العمدة١/ ٤٧٧ - ٤٩٢.

(٤) دلائل الاعجاز: ٥٨.

بما هو شاهد في وجودها أكثر توكيداً وأعظم بلاغة في الدعوى من أنْ يجيء بها الأديب فيثبتها هكذا ساذجا غفلا[١].

وقد أكَّد الناقد قدامة بن جعفر أيضاً ما تفيده الكناية من جمال تصوير ووضوح حين قال[٢]: "فإذا دلّ على التابع أبان عن المتبوع ".

لقد شاع أسلوب التعبير بالكناية شيوعا واسعا في رسائل الهمذاني أكثر من سواه من كتاب عصره حتى لتطالعنا أحياناً في الرسالة الواحدة عدة كنايات متناثرة[٣].

ومن ريق تعابيره بالكناية التي أضفت على معانيه الإشراق والوضوح ما ورد في فصل من رسالته إلى أبي العباس الإسفراييني يشكوه عمال الخراج[٤].

".. والشيخ الجليل بحمد الله مليء القلب، ثابت القدم، وافر الأعوان والخدم، مخيّل بالظفر، والسلاح يعض ويكلم، ويهذُّ ويهدم.... ".

فكنّى في هذا الفصل من الرسالة بثبات القدم عن رسوخ الممدوح وثباته وعدم تزحزحه عند مقارعة المحن أو الخطوب وكنّى عن التحام الحرب واشتدادها بقيام (الحرب على ساق) فزاد المعنى جلاءً وتشويقاً، وشحذ انتباه المتلقي ترقباً وزاد في جمال المشهد ظلالا جديدة بما حقّقه التعبير بالكناية من روعة التصوير.

وفي فصل آخر من رسالة لبديع الزمان إلى أبي جعفر الميكالي كتب يقول[٥]:

"... لا جرم إني اليومَ أبيض وجه العهد، واضح حجة الودّ، طويل لسان القول، رفيع حكم العذر، وقد حمَّلتُ فلاناً من الرسالة ما تجافى القلم عنه ".

فكنّى ببياض وجه العهد عن الوفاء به، والمحافظة عليه، ورمز بالبياض إلى النقاء والطهر من دنس الخيانة كما كنّى بـ (تجافي القلم) - وهي كناية بعيدة لا يفطن إليها إلاّ اللبيب الفطن - عن أنَّه لا يستطيع التباعد ووضع ما يكتبه في بطون الأوراق.

---

(١) ينظر: علم البيان: ٢٠٦.

(٢) نقد الشعر: ١٥٧.

(٣) تراجع رسالة الهمذاني إلى الإسفراييني: ص١١، ورسالة أخرى إليه: ص٢٧ - ٢٨ ورسالته إلى أبي جعفر الميكالي: ص٩٨، ورسالته إلى أبي القاسم الكرخي: زهر الآداب ٣/ ٨٦٢ - ٨٦٣، ورسالته إلى أبي علي إسماعيل في الاعتذار: زهر الآداب: ٢/ ٦١٢ ورسائل أخرى غيرها كثيرة.

(٤) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ١١.

(٥) المصدر نفسه: ٩٨.

وكتب أيضاً في فصل من رسالة بليغة إلى أبي القاسم الكرخي[١].

" فإني -أطال الله بقاء الشيخ مولاي - وإن كنت في مقتبل السنّ والعمر، فقد حلبت شطري الدهر " وهذه كناية جميلة عن صفة، إذ كنّى عن سعة تجربته وعظيم اختباره بمن يمازجهم ويعاشرهم على الرغم من حداثة سنّهِ بقوله: (حلبت شطري الدهر) وفي هذا التعبير الفني قدرٌ لا يخفى من الإيجاز وجمال التصوير، فضلا عن التلطف في مخاطبة المرسل إليه.

وفي فصل من رسالة للعسكري في الاعتذار، ويظهر فيها عظيم عنايته بمعانيه[٢] "وقد خفضت لك جناح الذلّ في التنصّل مما فرط، فتفضَّلْ عليَّ بالقبول لئلاّ يلحقني هجنتان: هجنة تذللي لك، وأخرى ردّك لي " فكنّى عن خضوعه له واعتذاره إليه بقوله: (خفضت لك جناح الذلّ) وهو اقتباس للآية الكريمة ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ مع تغيير طفيف في النصّ[٣]، ثم كلَّل معانيه جلالاً ووضوحاً باستخدام أسلوب الإيضاح بعد الإبهام، وهو من أساليب الإطناب التي اقتضاها ظرف إنشاء الرسالة وهو الاعتذار...

ومن كنايات الصابي التي حازتْ إعجاب بعض النقاد القدامى ولفتتْ انتباههم ما كتبه عن عزّ الدولة بختيار إلى أبي تغلب الحمداني عند إرسال ابنته التي زوّجها إليه[٤] "وقد توجه.. نحوك يا سيدي بالوديعة، وإنما نُقِلتْ من وطن إلى سكن ".

فكنّى الصابي عن ابنة بختيار (بالوديعة) وهي كناية عن موصوف، وقد عدَّ ابن سنان الخفاجي كتاب الصابي هذا من جيد الكلام، وكنايته من أحاسن الكنايات[٥].

وقد تحقق الكناية في التعبير الأدبي - فضلا عن جمال التصوير والوضوح - التلطف في إيراد المعنى بما لا يؤذي السامع أو المتلقي، أو يخدش مشاعره أو يثير إحساسه.

ذكر الثعالبي، مشيراً إلى هذا المعنى الخفيّ في مقاصد الكناية[٦].

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣/ ٨٦٢ - ٨٦٣.

(٢) ديوان المعاني: ١/ ٢٢٠.

(٣) الآية (٢٤) من سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ...﴾.

(٤) النهاية في الكناية: ١٨٩، الكناية والتعريض: ٦.

(٥) ينظر: سرّ الفصاحة: ١٥٥ - ١٥٦.

(٦) الكناية والتعريض: ٥٢.

" وقد يكنّى عن العزل بالصرف، وعن المصادرة بالموافقة، وعن الهزيمة بالتراجع، كما كتب أبو إسحاق، عن بختيار، إلى صاحب طرْفٍ بإزاء عدوّ: "وإنْ حزبك أمر يجب الاحتراس منه، عملت إلى التحيّز إلى الحضرة، فإنّها ممهّدة لك، غير نائية عنك.... " فكنّى عما يخزي ويشين كالفرار أو الهزيمة، بالتحيّز إلى الحضرة، تلطفاً بالسامع وعدم المساس بأحاسيسه أو تجريحه.

***

المحور الثالث: الانفعال أو العاطفة الأدبية:

أهمية العاطفة أو الانفعال في العمل الأدبي:

العاطفة أو الانفعال - كما هو شائع في الدراسات المتخصصة في علم النفس - هي ظاهرة وجدانية تتصل بالنفس الإنسانية وهي إحدى أهم المحاور الأساسية التي تؤلف محتوى العمل الأدبي أو مضمونهِ فهي الميزة المهمة التي تكسب النصّ صفته الأدبية...

ومن هنا فقد غدت العاطفة الأدبية أهمَّ العناصر الأساسية التي طبعت (الأدب) عموما بطابعه الفني إذ كثيراً ما تكون العاطفة هي الغاية الأساسية في بعث الأدب، والحافز المباشر لنشأته أو خلقهِ كما قد تكون أيضاً وسيلة لنشر الحقائق[١].

ولعلّ ما يؤكِّد ميزة هذا العنصر الفني - فضلا عما تقّدم - على بقية عناصر الأدب الأخرى انه الباعث الأسمى الذي يكسب العمل الأدبي الخلود والشمول الإنساني؛ وذلك لسحر ما يمتلكه الأدب الخالص - لقيامه على العاطفة أو الانفعال - من قدرة على إيقاظ المشاعر الإنسانية المختلفة وتأجيجها، مهما ران عليها من ضعف أو فتور وهكذا يثير فينا الأدب الخالد اللذة وقوة التأثير فيكتسب البقاء والشهرة على مرّ الحقب والدهور....

وانطلاقا من هذه الحقيقة ونظرا لأهمية العاطفة الأدبية وقيمتها - فضلا عن عناصر الأدب الأخرى كالخيال الذي يساعد على إيقاظ العواطف والفكرة التي تعدُّ أيضاً عنصراً مهماً في النص الأدبي وغاية من غاياته - في تشكيل مادة الأدب الخالد فإنَّ النظرية النقدية القديمة عموماً أولت العاطفة الأدبية - بوصفها إحدى أهم محاور العمل الأدبي والباعث الرئيس لإبداعه - اهتماماً كبيراً وكان موقف النقاد القدامى في

---

(١) أصول النقد الأدبي: ٣١.

ذلك على مذهبين:

(**المذهب الأول**): ربط العواطف الأدبية أو الانفعالات بالأديب المنشئ وهذا المذهب النقدي يجعل العواطف الأدبية هي التي تنتج الفنون الأدبية وتوجهها ولعل ما شاع في أوساط هذه الفئة من النقاد فيما ذهبوا إليه من أنَّ "قواعد الشعر أربعة: الرغبة وتنتج المدح والشكر، والرهبة وتنتج الاعتذار والاستعطاف، والطرب، وينتج الشوق ورقة النسيب، والغضب، وينتج الهجاء والتوعد والعتاب".[١] خير ما يجلّي هذا المنزع أو الاتجاه في النقد القديم، وموقفه من محور العواطف الأدبية.

(**المذهب الثاني**): ربط الانفعالات والعواطف الأدبية بالفن الأدبي، وأثر تلك الفنون الأدبية فيما يصدر عنها من انفعالات مختلفة: فعاطفة الحزن مثلا، قد تصدر عن موضوع الرثاء، وهكذا تكون عاطفة الحزن في كلِّ فصل من فصول رسالة الرثاء مثلا، متأثرة بهذا الفنّ الأدبي، مسوقة في تيّارِهِ، وكذا يقال عن عاطفة الشوق التي تصدر عن قطعة النسيب، وعاطفة الإعجاب التي تنبعث عن الوصف، وما يشتمل عليه من دقة التصوير، وروعة الخيال اللذين يعضدان العاطفة الأدبية ويشدان آزرها ويعملان على قوتها أو ثباتها[٢]:

وهكذا نصل إلى حقيقة مهمة تلك هي: أنَّ العاطفة الأدبية - بوصفها المحفز الأول في خلق العمل الأدبي وإبداعه - كثيراً ما تؤثر في المستوى الفني للغة النصّ، فضلا عن أنها تسهمُ كثيراً في وحدة العمل الأدبي، إذ إنَّ النصّ الذي تشمله عاطفة موحّدة غالباً ما يتسمُ بتساوق فصوله وأجزائه في وحدةٍ منتظمة متكاملة.

ومن هنا، فإنّنا نتلَّمس في كثير من المكاتبات الأدبية -ولا سيما الرسائل الإخوانية والوصفية - أنها كثيرا ما تتأثر بمستوى العاطفة التي تنبعث عنها، وحفزت على خلقها وإبداعها معاً، فالرسائل الإخوانية مثلا التي تصدر عن أحاسيس قوية صادقة ومشاعر عميقة ثابتة، نجدها خالية من التكلّف والصنعة على الرغم من تحلية كثير من فصولها ببعض الوان البديع كالسجع والجناس والطباق والتورية، وما إلى ذلك من ضروب الصياغة اللفظية والمعنوية المتنوعة....

---

(١) ينظر كتاب: الأسلوب: ٦٠ وما بعدها.

(٢) ينظر: أصول النقد الأدبي: ١٩٨.

وعلى النقيض من ذلك فاننا نجد في بعض الرسائل الإخوانية كرسائل التأبين والعزاء مثلا، التي كُتبتْ إلى بعض رموز الطبقة الخاصة من الرؤساء والوزراء وأضرابهم، والتي لم تصدر عن أحاسيس صادقة وانفعالات وجدانية عميقة، فإنّها غالباً ما تأتي مصنوعة تطبع بالتكلّف والسطحية وشحوب العاطفة..

الانفعالات أو العواطف الأدبية الحسية والمعنوية:

ما من ريب في أنَّ ما يحققه النص الأدبي من إمتاع وإثارة في المتلقي يعتمد على ما يزخر به من قوة العاطفة وسموها أو صدقها وعمق تأثيرها...

ولكي تتحقق تلك المقاييس أو المقومات الفنية للعاطفة في أيّ نصّ أدبي لا بدَّ من توافر أمرين متلازمين لا انفصام بينهما:

(الأول): اعتماد العاطفة - لكونها الحافز الأول للخلق والإبداع الأدبي - على ما يقوّمها من الأفكار السديدة، والمعاني الدقيقة التي تسعى العاطفة لتحقيق الاستجابة في المتلقي لتلك الأفكار والمعاني والانفعال بها أو التأثر بمستوياتها.

(الثاني) اعتماد العاطفة في قوتها وإيقاظها ودوام تأثيرها على عنصر الخيال وما يقدّمه - عن طريق وسائل التخييل المتنوعة - من عرض للأمور المحسوسة أو الذهنية المجرّدة عرضا مجسّماً، فيجلّي للمتلقي الشيات والألوان ويكشف له عن الصفات أو المعاني المجرّدة أو الملامح البعيدة فتبدو مجسّدة مألوفة فتوقظ مشاعره وتؤثر في أحاسيسه.

وقد مرّ بنا آنفاً أنَّ اللغة - بوصفها أداة التعبير في الأدب - التي وضعت للتعبير عن الأمور الحسية والحقائق المعنوية أو الذهنية المجرّدة لا تفي وحدها في تمكين الأديب الفنان للتعبير عن الأحاسيس الوجدانية أو الانفعالات النفسية المتدفقة وكثيراً ما تكون تلك اللغة المعجميّة قاصرة في التعبير عما يجول في نفسه من زخم العاطفة وحرارة الشعور....

ومن هنا دأب الأدباء - مستعينين بقوة مخيلتهم ورهافة حسهم - على اصطناع لغة فنية أخرى تسمو إلى مستوى مشاعرهم المتّقدة وأحاسيسهم المتدفقة، وهكذا يلجأ الأديب إلى التصوير الفنيّ ليتمكّن في تجسيد معانيه وأفكاره والتعبير عن أحاسيسه وتطلعاته فينتقل بها عبر الصور الفنية المتنوعة إلى درجة أسمى لتزداد جمالا وقوة وألقاً وتأثيرا.

وقديما، أشار الفيلسوف (أرسطو) إلى ما تحقّقهُ الأقوال الأنيقة التي تؤخذ من

(المجاز) المتناسب من الحضور الفعال (أي شدة التأثير) وأنها أكثر إحداثا للانفعالات واستثارة العواطف المختلفة من سواها، ثم ساق أمثلة عديدة على ما يحدثه المجاز من قوة التأثير فقال[١].

" كذلك حين يستخدم هوميروس المجاز يجعل الجماد يتكلم وكأنه حيوان وجاذبيته هي في خلق هذا الحضور الفعّال في مثل هذه الأحوال، كما في الأمثلة التالية: (وعادت الصخرة التي لا ترحم تنحدر إلى السهل)، (طار السهم)، (والسهم متعطش للطيران نحو الحشد) (وأسرع سنّ الرمح بشغف في حنايا صدره) ذلك لأنَّ في كل هذه الشواهد مظهراً على الحضور الفعّال لأن الأشياء تصور على أنها حيّة (الصخرة التي لا ترحم)، (سنّ الرمح الشغوف) وسائرها..... "

وهكذا يؤكد أرسطو على ما يحدثه التصوير الفني من خلال استخدام المجاز المناسب من قوة التأثير في المتلقي، وما يبعثه فيه من تأمل لإدراك جمال الأشياء والصلة بينها، يقول[٢]: "وكما قلنا من قبل: ينبغي استمداد المجازات من الموضوعات الملائمة للموضوع ولكن دون الافراط في الوضوح مثلما في الفلسفة لا بدَّ من حصافة لإدراك التشابه بين الأشياء المنفصل بعضها عن بعض... "

ويتفق الكثير من النقاد وبعض علماء الجمال على أنَّ هناك انفعالاً ينشأ عن طريق الحواس الظاهرة - كحاسة البصر أو السمع أو غيرهما - فيثير في مخيلة الأديب الفنان وذاكرته لذةً حسية لا يتعدى حدودها، وأنَّ هناك انفعالاً آخر يتجاوز هذه الحواس إلى الإيحاء أو إثارة معانٍ تتصل بهذه المشاهد، وهذا اللون من الانفعالات أسمى، لأنها تفيض غالبا على نفوسنا ظلالا من الجمال والبهاء فضلا عما تحققه من حمل المتلقي على التفكير العميق وما تفيضه عليه من الإعجاب القوي والتأمل العميق[٣].

ومن هذا المنطلق، فقد نزع كثير من النقاد إلى أنَّ العواطف أو الانفعالات التي تثيرها المعاني، هي أسمى من العواطف الحسية أو التي تثيرها الصياغة اللفظية المزوّقة

(١) الخطابة - ترجمة د. عبد الرحمن بدوي: ٢٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢٤.

(٣) تراجع التفاصيل في: أصول النقد الأدبي: ٢٠٤ وما بعدها.

أو التي تبعثها المحسنات البديعية[١]، لأن العواطف التي تصدر عن المعاني تتناول الحق والفضيلة والأعمال المجيدة وهي أنبل من الأدب الذي يُعنى بالجمال الحسيّ...

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه آنفاً من أَنَّ العاطفة الأدبية تعتمد على المعاني والأفكار السديدة في ثباتها وقوتها وشدة تأثيرها في المتلقي، لأنَّ المعاني والأفكار هي جوهر العمل الأدبي، وهي ما ينتظره المتلقي من الأديب، وما يؤثر فيه على الرغم من قيمة الصياغة اللفظية أو ما يقترن بها من خواص موسيقية لها أهميتها في العمل الأدبي.

على أنَّ من النقاد القدامى - كقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) وابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) وأضرابهما - من لم يربط صدور العاطفة عن المعاني النبيلة فحسب وإنما ذهبوا إلى جواز انبعاث الانفعالات والعواطف الأدبية - التي هي قوام الأدب الخالص - عن المعاني الفاحشة أيضاً. يقول الناقد قدامة بن جعفر[٢]:

" وعلى الشاعر إذا شرع في أيِّ معنى - كان - من الرفعة والضعة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة، أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة ".

ثم يقَرِّر الناقد قدامة - بعد أنْ ساق بيتين مشهورين للشاعر امرئ القيس من معلقته عابها عليه بعض النقاد لفحشها - خلاصة مذهبه في القضية فيقول[٣]: "وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلا، رداءته في ذاته ".

وقد ذهب الناقد ابن سنان الخفاجي هذا المذهب أيضاً، ذكر يقول ردّا على من عاب شعر ابن الحجّاج بما تضمنه من فحش المعاني[٤].

"وليس الأمر عندي على ذلك، لأنَّ صناعة التأليف في المعنى الفاحش مثل

---

(١) جعل أرسطو - في موضع آخر من كتابه الخطابة ص١٩٤ - ١٩٥ - تأثير الأسلوب أكثر من المعاني في الإلقاء عند الخطب المكتوبة يقول: "وحينما يصبح الإلقاء شائعاً محبوباً فسيكون له نفس التأثير مثل التمثيل.... ولهذا فإن الذين يبرزون فيه يظفرون بجوائز مثلما يظفر الخطباء الذين يبرزون في الإلقاء، ذلك لأن الخطب المكتوبة تدين بتأثيرها للأسلوب أكثر من أن تدين به للمعاني".

(٢) نقد الشعر: ٦٥ - ٦٦.

(٣) نقد الشعر: ٦٦.

(٤) سرّ الفصاحة: ٢٧٦.

الصناعة في المعنى الجميل، ويطلب في كل واحد منهما صحة الغرض، وسلامة الألفاظ، على حدّ واحد، وليس لكون المعنى في نفسه فاحشاً أو جميلا تأثير في الصناعة.. ".

***

وفي القرن الرابع للهجرة ألمَّ كتاب الرسائل الأدبية بخاصة - كما مرّ بنا في دراسة موضوعات الرسائل آنفاً - بكلِّ ما تعمّق حواسهم المرهفة من مظاهر الحياة المختلفة في بيئاتهم الفسيحة الفينانة، من خير وشر، وأفراح وأتراح، وكانوا كثيراً ما ينزعون في تصويرهم لتلك المظاهر المتنوعة عن مشاعر عميقة صادقة تثيرها مشاعر الإعجاب واللهفة بما وقعتْ عليه أبصارهم أو وعته نفوسهم أو ملأ أسماعهم، أو ما بهرهم من مشاهد خلاّبة من تلك الربوع الجميلة والمغاني الساحرة، وكان بعضها ينبعث أيضاً عن مشاعر الحسرة والألم، لانقضاء الأيام الجميلة الحافلة بالانس والنعيم، والليالي الساحرة المفعمة بالمرح واللذة والسرور.

وهكذا راحوا يدققون في كثير من المشاهد الحسية، مما ألفوهُ في حياتهم الناعمة المترفة مما فرزته انفعالاتهم المتدفقة وأحاسيسهم الرقيقة المتقدة فأنتجوا - كما مرَّ بنا آنفاً - لوحات فنية رائعة تنبض بالحياة والإحساس والحركة وتعبِّرُ عن مظاهر البهجة والسرور حينا، أو مشاهد القنوط والنفور أو الحسرة حيناً آخر...

ومن هنا، كانت تلك المشاعر والانفعالات المتباينة حافزاً مهما لإبداع أولئك الكتاب البلغاء، وبراعتهم في نتاجهم الأدبي، وما خطّته أناملهم المبدعة من تلك الصحائف الأنيقة التي تحاكي ثغور الرياض عبقاً وألقاً وبهجة، والتي جسدت بعمق أحاسيسهم وصوَّرت مشاعرهم بأمانة وصدق.

ومن غرر تلك الرسائل الأدبية المفعمة بالأحاسيس الرقيقة، والتي صدرت عن مشاعر الحسرة والأسى، ما جسَّده أبو الفضل ابن العميد في وصفه لسرعة انقضاء الأيام الخالية وانحسار الليالي الملاح، والساعات الحافلة بدفء النعيم، ووصال الأحبة الذي يحفّهُ مسارقة النظر، ويحيطه مخالسة القبل يقول(١).

" أيامنا التي جازتْ أيام الشباب حسناً ورقةً، وفاقتْ أعلام المطارف ليناً ودقةً، ولياليها التي تخجلّ خدود الرياض، وتفضح حواشي الحلل، وساعاتنا التي هي ألطف

(١) من غاب عنه المطرب -الثعالبي: ١٢٢.

من مسارقة النظر، ومخالسة القبل، ونعسة الرقيب.... "

وكتب الصاحب بن عبّاد أيضاً في فصل من رسالة طريفة له في التأسي على الأيام السالفة:(١) "تذكرتُ أيامنا، فتذكرت سحراً وسيما، وعيشا جسمياً، وراحا وريحانا ونعميا، وخيرا عميماً وابتهاجا مقيماً، أيام حسنت فكانها أعراس، وقصرت فكأنها أنفاس ".

ومن عيون الرسائل الأدبية الأنيقة التي صدرت عن انفعالات رقيقة من خزين حواسهم المرهفة أيضاً، ما جسّده أبو إسحاق الصابي لمشهد بزاة الصيد الجارحة، وهي تطارد قُبّرا بمشاعرَ تفيض إعجاباً ودهشة لجزئيات هذا الحدث المليء بالحركة والحياة يقول(٢): "وكم من قُبَّرٍ أطلقنا عليه بازياً فعرج إلى السماء عروجاً، ولجَّج في أثره تلجيجاً، فكان ذلك يعتصم منه بالخالق، وكان هذا يستطعمه من خالق، حتى غابا عن النظار، واحتجبا عن الأبصار، وصارا كالغيب المرجم، والظن المتوهم، ثمَّ خطفهُ ووقع به وهما كهيئة الطائر الواحد فأعجبنا أمرهما، وأطربنا منظرهما".

وتفيض رسائل الكتاب الوصفية في هذا القرن بمشاعر الإعجاب والغبطة التي تنبعث عن مشاهداتهم لمظاهر الجمال والبهجة، أو ما بهرهم من مفاتن الطبيعة في تلك المغاني الساحرة، والربوع الفسيحة العامرة، وهذا ما تلمسناهُ واضحاً فيما صدر عن أبي الفضل الميكالي في تجسيد إعجابه بربوع (فيروز آباد) الجميلة الساحرة(٣)، وما صوّرة الأديب أبو الفتح البستيْ أيضاً، وهو يعبِّر عن إعجابه الشارد بما في قرية (الزُّخج) وقد خرج إليها في فصل الربيع، من مروج خضراء مترامية، وما حفَّها من أزهار ذكيّة متناسقة إذ قال(٤):

"وكنتُ أدلجتُ ذاتَ ليلةٍ وذلك في فصل الربيع،....... ففتح ضياءُ الشروق طرفي على قريةٍ ذات يمنة محفوفة بالخضرةٍ، معمورة بالنور والزهر، وأمامها أرض، كأنها قد فُرشتْ ببساطٍ من الزبرجد منضَّد بالدرّ والمرجان مرصَّع بالعقيق والعُقيان،

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٢، وتراجع نظير هذه المعاني الزاخرة بالعواطف الرقيقة أيضاً ما ورد في رسالة أبي بكر الخوارزمي إلى أبي عبد الله النحوي بالري: رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٩٧ وما بعدها.

(٢) يتيمة الدهر: ٢/ ٣٠٢.

(٣) يراجع هذا النص في: زهر الآداب وثمر الألباب: ١٧٤/١.

(٤) يتيمة الدهر: ٤/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

ينسابُ بينها أنهار كبطون الحيّات في صفاء ماء الحياة.... ".

وهكذا نتلمّس مشاعرَ الإعجاب والسرور والدهشة التي انبعثت عن أحاسيسهِ المرهفة، ومشاهداته الدقيقة، وما تلقَّفهُ من أريج الزهر، وعبق رائحته، ما بعث فيه نشوة الانشراح وحفزهُ لإبداع هذه التحفة الأدبية النادرة...

ومن غرر الرسائل الأدبية المشربة بعاطفة الإعجاب والغبطة التي تبعثها الحواس الظاهرة أيضاً، ما كتبهُ أبو إسحاق الصابي في فصل من رسالة أدبية يصف فيها بقعةَ أرضٍ نضرة تخلَّلها بستان ظليل، تكللتْ أرجاؤه بالأشجار الفارغة التي تضوع بالأرج وعبق رائحته، يقول[1]: "قد تضوَّعتْ بالأرج أرجاؤها، وتجمَّلتْ بظلِّ الغمام صحراؤها، وتفاوضتْ بضرائب المنطق أطيارها، بستانٌ كأنه أنموذج الجنة... به أشجارٌ كأَنَّ الحورَ العين أعارتها ثيابَها، وكستها برودَها، وحلّتها عقودها ".

وهكـذا نـتلّمس بوضـوح، تراسـل الحـواس فـي إبـداع الـصور الحـسية فـي هـذه الـتحفة الأدبـية، وانـبعاث عاطفـة الإعجـاب والدهـشة التـي كـان صـدورها إحساس الأديـب بسرِ الجمال الكـامن وراء هـذه الـصور التـي تكافلـتْ مجتمعةً لهـذا الخلق الفنّي، فحاسـة الـشم التي أرقت بمـا يـضوعهُ عطر الأرج، وحاسةُ البـصر، ومـا اعتراها من سحر طلِّ الغمام الذي كسا صحراء هـذه الأرض، بثوب الخضرة الداكنة، وحاسة السمع وما جلَّلها من ريق منطقِ الأطيار العذب الشجيّ، تضافرتْ كل تلك الصور الحسيّة لانبعاث تلك الانفعالات الرقيقة، التي حفزت الأديب لإبداع هذا العمل الأدبي النادر....

وقد يكون انبعاث العاطفة الأدبية التي تشكل عنصرا أساسياً في خلق العمل الأدبي وإبداعه، صادراً عن المعاني الذهنية أو المدركات العقلية المجرَّدة، وقد مرّ بنا في المبحث الثاني من الفصل الرابع من هذه الدراسة، افتنان الكثير من كتاب الرسائل الأدبية في هذا القرن بالوقوف عند المعاني الذهنية المجرّدة، وتحليل أدقّ المدركات العقلية في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية.

لقد تعمّق كتاب هذا القرن - كما مرَّ بنا آنفاً - في تحليل أهواء النفس البشرية، وما انطوتْ عليه من نزعاتٍ متباينةٍ، وأمزجة متقلّبة، وراحوا يصفون الشوقَ والهيام والوجد، وطفقوا يحلّلون تباريحَ الفراق، وآلامه، وأشجانه، ونشوة اللقاء، وأنغامه، كما

(١) من غاب عنه المطرب: ٢٤٠.

وقفوا عند تحليل معاني الحبّ والبغض والحسد وأجادوا في تصوير كثير من المعاني العقلية المجرّدة كالسماحة والكرم والمهابة، وغيرها من المدركات الذهنية غير المحسوسة....

ومن نماذج صدور العاطفة الأدبية وانبعاثها عن المعاني العقلية في ترسل أدباء هذا القرن، ما ورد في رسالة أدبية لأبي بكرٍ الخوارزميّ إلى حاكم نيسابور ويلاحظ قوة العاطفة في سخطه على الدهر وحنقه عليه، ويتضح أيضاً التشخيص والتجريد الذي تجلّى في استخدام (المجاز العقلي) يقول الكاتب[1]:

"وردتُ - أيَّد اللهُ تعالى الحاكم - من الوزير على رجل يستطيل اليوم إذا بعدتُ عنه، ويستقصر الدهر إذا قربت منه.... وأنَّ الدهر أوفانا كيل المسرّةِ، كما أوفانا كيلَ المضرّة، وتحمَّل إلينا من الخير، مقدار ما تحامل علينا في المكر، ومهَّد لنا أيام اليسر، عدد ما مدَّ لنا من أيام العسر، وقد أنصف وهو ظلوم، وتكرَّم وهو لئيم".

وقد لاحظتُ - من خلال استقرائي لرسائل هذا الأديب الكاتب -صدور الانفعالات أو العواطف الأدبية في بعض رسائله من معانٍ عقلية وحسيّة متشابكة، ولعلّ هذه الظاهرة الفنية تشكل ذروة ما يبلغهُ الأديب من المهارة الفنية والإبداع المهاريّ.

ولعلّ ما يعضد رأينا هذا، ما ذهب إليه بعض النقاد المعاصرين من أن الصورة الفنية هي " ذلك الشيء الذي يقدّم تشابكاً عقلياً وشعورياً في لحظة من الزمن"[2].

ومما ورد من نماذج انبعاث العاطفة الأدبية من المعاني والحواس في تشابك فنيّ متميّز، قولهُ من رسالة لهُ إلى الوزير بالحضرة[3]:

" ولقد اشترى من الشكر سلعة قليلة الطلاب، فيا ليت اللئيمَ يشمُّ رائحة أفعاله، أو يلاحظ شخص خصاله...... "

فالأفعال - وهي من الأمور المعنوية غير المحسوسة - لا تشمُّ رائحتها،

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٩١ - ١٩٢.

(٢) ينظر: مقالة في طبيعة الشعر (ت. س. إليوت الشاعر الناقد) - ف. أ ماثيسن ترجمة: د. إحسان عباس: ١٢٩، الأرض اليباب - ت. س. إليوت (الشاعر والقصيدة) دراسة وترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة: ٢٨.

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ١٩٠.

والخصال -وهي أيضاً من الأمور الذهنية المجرّدة - لا تبصرُ شخوصها... وهي صورة فنية قلَّ نظيرها في رسائل هذا القرن.

ومن نصوص الرسائل الأدبية النادرة التي تجلّتْ فيها سوْرة العاطفة وانبعاثها عن المعاني الذهنية المجرّدة أيضاً، ما ورد في فصل من رسالة لبديع الزمان الهمذاني إلى الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير، إذ يقول"..... والأيام تمطلني بألسنة صروفها.... وقد صرتُ بين أنياب النوائب، وتجشمتُ هولَ الموارد، وركبتُ أكناف المكاره، ورضعتُ أخلافَ العوائق، ومسحتُ أطراف المراحل"(١).

ولا يخفى ما في هذا الفصل من الرسالة من قوة العاطفة، وتدفقها وعمقها، مع روعة التصوير، وجمال التشخيص، فضلاً عن قوة الإيحاء الذي تثيرهُ تلك الانفعالات المعنوية المشبوبة.

***

وهكذا يتضحُ - من خلال عرض هذه الشواهد النثرية البليغة - سموَّ الانفعالات أو العواطف الأدبية التي تثيرها المعاني العقلية، وما تشتمل عليه من قوة الإيحاء، وما تبثهُ في خلد المتلقي من ترقّب، وما تثيرهُ فيه من نشوة فنية، تحفزه لمتابعة الحدث الأدبي وتأمل فصوله المتتالية....

- مقومات عنصر العاطفة وقيمتها في الرسائل الأدبية:

سبقتِ الإشارة إلى أنّ العاطفة الأدبية أهمّ الدعائم الأساسية في تكوين العمل الأدبي، وأنها المقياس الفني الرئيس الذي غالباً ما يتخذهُ النقاد للحكم عليه قوةً أو ضعفا، فضلاً عن أنها تشكل في بعض الأنواع الأدبية - ولا سيما الشعر والرسائل الأدبية - غايتها المثلى، وأنها كثيراً ما تتحكم بالمستوى الفني لتلك الأعمال الإبداعية....

أما أهمُّ تلك المقومات الفنية للانفعالات أو العواطف الأدبية التي شكّلتْ جوهر المضامين في تلك الرسائل الأدبية، وتأثيرها الواضح فيها، فيمكن ذكر أهمها كما يأتي:

-١ - صدق الانفعالات أو المشاعر:

ما من ريب في أنَّ أول دعامة لنجاح العمل الأدبي، هي ما يبثهُ في خلد المتلقين من الانفعالات السامية المؤثرة، أو المشاعر النبيلة الصادقة التي تسهمُ في تمكينهم من

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٤١٧/٢.

إدراك أسرار مواطن الجمال في العمل الأدبي، فتخلق في أسارير المتلقين النشوة والامتاع، فضلاً عما تحقّقهُ من خلوده، ودوام تأثيره كلّما داعب أحاسيسهم أو لامس وجدانهم...

وليس غريباً أو مصادفة ما حظيتْ بهِ كثير من الرسائل الأدبية في هذا القرن، من شهرة وخلود على مرّ الحقب والدهور، وما ذلك إلاّ لصدورها عن أحاسيس مفعمة بالصدق، ومترعة بمشاعر حقيقية غير زائفةٍ ولا مصطنعة...

لقد أُلهم كثيرٌ من أولئك الأدباء الكتاب في هذا القرن، بموهبةٍ نادرة، مكّنتهم من إدراك ما في المشاهد أو الحوادث التي تعرضُ لهم، من أسباب الجمال أو الطرافة والغرابة، أو غير ذلك، فعمدوا إلى تصويرها - مستعينين بمخيلتهم المتقدة - مجسَّدةً واضحة، وهكذا ننفعلُ بسحرها وطرافتها أو غرابتها على حدّ موازٍ لانفعال الأديب نفسه بتلك المواقف أو المشاهد النادرة أو المؤثرة.

فعاطفةُ الحزن الحقيقية ومشاعر الأسى الممضّة التي ألمّتْ بالأديب أبي بكر الخوارزميّ على ما آل إليه مصير أكثر أئمة آل البيت الأطهار - عليهم السلام - وما جسَّده بعمق في تصوير مصارعهم، وإحساسه العميق بتلك المآسي التي بثّها في فصول رسالته الطويلة إلى جماعة الشيعة بنيسابور[١]، هي ما أسهم في خلود هذا العمل الإبداعي الذي يُعدُّ آية في البلاغة والإبداع.

وهكذا يُقال عن كثير من فصول الرسائل الأدبية لصدور الكتاب البلغاء وجهابذتهم في هذا القرن، كأبي الفضل ابن العميد، والصاحب بن عبّاد، وأبي إسحاق الصابي، وأبي حيان التوحيدي، وبديع الزمان الهمذاني وسواهم من فحول الكتاب البلغاء.

وعلى النقيض من ذلك، فمتى كان الباعث لإنشاء العمل الإبداعي تافهاً، أو غير حقيقيّ، أو زائفاً، كان ذلك النتاج الأدبي سطحيّاً، ولا يكتسبُ الخلود، لأنه لا يهيجُ انفعالات المتلقين، ولا يبعثُ في نفوسهم ما يحفزهم لمتابعة قراءته، أو الاستمتاع بجوهر مضمونه...

وهكذا تطالعنا كثير من رسائل هذا القرن، مما أثمرتها حاجاتُ العيش اليومية، أو أغراض السياسة، أو غير ذلك، وهي تطفحُ، غالباً بالمجاملات الزائفة والمبالغات

(١) تراجع فصول هذه الرسالة المهمة في: رسائل الخوارزمي: ١٦٠ - ١٧٢.

الفجّة الثقيلة، مما طبع تلك المكاتبات بالتكلّف، وسماجة المعاني، وبرود العواطف وشحوبها، وهذا ما نراه شاخصاً بوضوح في كثير من رسائل المدح والثناء لأصحاب السلطة والجاه من أمراء الممالك الإسلامية ووزرائهم، وفي المراثي أيضاً لذويهم من رموز الطبقة الخاصة أو غيرهم...

-٢- قوة الانفعالات واستمرارها أو ثباتها في العمل الإبداعي:

إنّ قوة الانفعالات، فضلاً عن حرارة المشاعر وصدقها، تكسبُ العمل الأدبي القوة والجلال، وقد ترقى بهِ إلى درجة الكمال.

ويرى بعضُ الباحثين والنقاد صعوبة وضع مقياس فنيّ دقيق لضبط قوّة الانفعالات في العمل الأدبي، ويعزو ذلك إلى الاختلاف الظاهر بين طبائع العواطف الأدبية في درجة قوتها. يقول الأستاذ أحمد الشايب موضّحاً هذا الجانب[١].

".. فعاطفة حنان، وإشفاق، وعاطفة إجلال وحبّ، وعاطفة إعجاب، وعاطفة حزن وأسف، وهذه منها الحاد الايجابي، ومنها العميق، فكيف نجدُ مقياساً واحداً دقيقاً مشتركا؟؟.... "

والذي أميل إليه في هذا الأمر، أنَّ منشأ القوة في الانفعالات أو العواطف الأدبية يكمنُ في الأديب أو منشئ العمل الإبداعي نفسه، إذْ إنَّ الأديب الذي ينفعل بصدق في تجربته الأدبية، ويوظّف ذلك الانفعال في أسلوبه بصدق وعمق فإنّه سيبعثُ في عمله الإبداعي القوة والحياة والخلود، ومن ثمَّ تسري هالةُ تلك المشاعر العميقة الجارفة إلى نفوس المتلقين بلا استئذان، لأنّ ما خرج من القلب والوجدان ينفذ إليهما أيضاً بانسياب وتدفق...

وتقترنُ حرارة العاطفة الأدبية وقوتها، باستمرار تدفقها وثباتها في العمل الأدبي فقد طالعتنا بعضُ رسائل هذا القرن، قويّةَ العاطفة، متدفقة المشاعر، إلاّ أنها سرعان ما تخمدُ جذوتها، وتنعدمُ فورتها، أو قد تخفُّ حدّتُها، وهنا نلمسُ بوضوح التفاوت الصارخ في أسلوب الأديب الكاتب، والتباين الواضح بين فصول الرسالة الواحدة، وهذا ما تلمسّناه بوضوح في بعض فصول رسالة أبي بكر الخوارزميّ مثلاً في التهكم بأبي الحسن البديهيّ[٢]، إذْ جنح الكاتب في بعض فصولها إلى السباب البذيء، والطعن

---

(١) أصول النقد الأدبي: ١٩٤.

(٢) تراجع فصول هذه الرسالة في: رسائل الخوارزمي: ٢٣٥ - ٢٥٠.

الفاحش، بأسلوب مباشر نأى فيه عن السخرية الفنية اللاذعة، أو التهكم الهادف...

ومن هنا، فقد ذهب كثير من النقاد المعاصرين إلى أنَّ ثباتَ العاطفة الأدبية، واستمرار تدفقها في نفس الأديب، أو منشئ العمل الإبداعي، من شأنهِ أن يشيع قوة العاطفة وثباتها في العمل الأدبي نفسه، وبهذا يشعرُ المتلقي ببقاء المستوى العاطفي، وتدفقه في النصّ الأدبي، ويعمل ذلك أيضاً على وحدته وتواؤم أجزائه...

٣ - تنوع الانفعالات أو العواطف الأدبية وسموّها:

لعلَّ أعظم ما يمكن أن نسجلّه لبلغاء الكتاب والمترسلين في هذا القرن، قدرتهم الفائقة على إثارة الانفعالات المختلفة، أو العواطف الأدبية المتباينة في نفوس معاصريهم، أو متلقي ترسلهم أو نتاجهم الأدبي الرفيع الذي اتسم كثير منه بالعمق والأصالة والبراعة الفنية ولعل ذلك يعودُ - كما مرَّ بنا آنفاً - إلى سعة تجاربهم، وعمق خبراتهم، على الرغم من تقادم الحقب، وتطاول القرون.

فلقد استطاع كثيرٌ من أولئك الكتاب البلغاء - لما امتلكوهُ من موهبة نادرة، وثقافة أدبية ولغوية غزيرة، فضلاً عن الالمام الواسع بكثير من العلوم ومعارف العصر - استثارة مشاعر الإعجاب أو الشوق والجلال في نفوس متلقيهم، لِما شُهروا بهِ من براعة متميزة في الوصف وتصوير المشاهد الحسّية، والقدرة على تحليل الانفعالات الوجدانية والعقلية...

وهذا ما تجلّى بوضوح في كثير من فصول رسائل ابن العميد، والصاحب ابن عبّاد، وأبي بكر الخوارزميّ، وبديع الزمان الهمذاني، وأضرابهم من بلغاء الكتاب، ولا سيما في رسائلهم الوصفية.

ولقد هيأت العلاقات الاجتماعية الوطيدة، وأواصر الصداقة المتينة بين كثير من أدباء هذا القرن - كما مرَّ بنا في دراسة الرسائل الإخوانية - تبادل عواطف الودّ وبثّ الأشواق أو الحزن والأسى لِما قد يحلُّ بينهم من مصاب أو حادث جلل.. وقد تتقد بينهم أيضاً مشاعر الحنق والكراهية، أو الحسد لتقلّب الأحوال، وتغيّر صروف الزمن، كالذي شُهر وقوعُهُ من بغضاء وتقال بين كثير من مشاهير الأدباء في هذا القرن....

إنَّ مقدرة بلغاء الكتاب في هذا القرن على إثارة انفعالات عديدة متباينة في

نفوس المتلقين، أمرٌ كبير الأهمية، وهو دليلٌ على ما بلغهُ أولئك الكتاب من نضج الملكة الأدبية، واتساع الأفق الثقافي اللذين ساعدا هؤلاء الكتاب العظام على الخوض في تحليل مسارب النفس الإنسانية، وما تنطوي عليه من طبائع وأمزجة متباينة، وهذه الظاهرة الفنية لا تتأتى إلاّ للأدباء العظام الذين تفرَّدوا بامتلاك ناصية اللغة والبيان، والموهبة النادرة، والملكة الأدبية التي أسعفتهم كثيراً في إدراك دخائل النفوس، وأهوائها، واستكناه أسرارها ومساربها المختلفة....

لقد بثَّ بعضُ جهابذة الكتاب المبدعين في هذا القرن، من خلال فصول رسائلهم الأدبية البليغة أقباساً من تلك الانفعالات والعواطف الإنسانية المتأججة.... ففي رسالة أبي حيان التوحيدي الجوابية الشهيرة التي بعثها إلى القاضي أبي سهل عليّ بن محمد، في تبرير فعلته بإحراق كتبه وصحائف علمه، مشاعرُ متأججة ومتباينة، كالشفقة بما صوَّرهُ من ملامح بؤسه وعوزه، والقناعة، بما عرضهُ من الرضا بالقليل الميسور المقدَّر، فضلاً عن عاطفة الحنق والغضب، بما أبرزهُ من جنوح الناس عنه وإعراضهم عن صحبته ومواصلته...

وفي رسالة أبي بكر الخوارزمي الشهيرة إلى جماعة الشيعة في نيسابور أيضاً، تلتقي مشاعر السخط والغضب على السلطان الجائر، بعاطفة الحزن والأسى لمصارع آل البيت - عليهم السلام - وغيرها من مشاعر الحماسة، واستثارة الهمم لمقارعة ظلم الوالي الجديد عليهم..

وفي رسائل الصاحب بن عبّاد تزدحم أيضاً مشاعر عديدة متباينة، منها ما صدر عن الحواس الظاهرة، وأخرُ انبعثتْ من المعاني الذهنية الدقيقة... فمشاعر المدح والإعجاب والسرور - كما تلوح في رسائل الوصف والاستزارة مثلاً - تقابلها مشاعر الرهبة والجلال والخشوع في رسائله التأبينية الشهيرة، كرسالته في رثاء أبي محمد العلويّ، وما عرض فيها لتأبين بعض الشخصيات العظيمة، كشخصية الرسول الأعظم (ص) وشخصية الإمام عليّ (ع) وغيرهما.

وما جسَّدهُ بديع الزمان الهمذاني أيضاً في فصول رسائله الأدبية المختلفة المقاصد والنوازع، من عواطف إنسانية، ومشاعر متباينة، كالسخط والغضب على بعض

الولاة والقضاة وعمال الخراج لظلمهم وتجبرهم، أو استباحتهم للحرم، وكعاطفة الجلال والرهبة لما عرض له في وصف حروب الغزنويين وتصوير انتصاراتهم وهزائم أعدائهم، فضلاً عما ضمَّنهُ من مشاعر أخرى مختلفة لم يخلُ كثيرٌ منها من ملامح الملق والتكلّف.

ولعلَّ كل هذه الملامح الظاهرة لمشاعر الأدباء الكتاب وانفعالاتهم في هذا القرن، وازدحامها في رسائلهم الأدبية - بوصفها الحافز الرئيس في الإبداع والخلق الفنّي - خيرُ شاهد على ما بلغوه في صناعة الترسل من اقتدار وعبقرية، وما تميّز به تراثهم الأدبي من شهرة وصدق أضفى عليه سمةَ الخلود والشمول الإنساني...

خاتمة

خلاصة البحث وأهمّ نتائجه:

حاولنا في الصفحات السابقة أن نرصد - بروح علميّة تتصف بالحيدة والموضوعية - الدور الرائد الذي بلغهُ النثر الفنيّ وبخاصة الرسائل الأدبية، في التعبير عن نوازع الأدباء وتطلعاتهم وأحاسيسهم وتصوير آفاق الحياة العامة بجوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية، وقد وضح لنا من مطافنا الطويل في ثنايا تلك المكاتبات الأدبية، كيف تضافرتْ جهودُ أولئك الأدباء الكتّاب في هذا القرن، لبناء صرح النثر الفني العربي، حتى غدا، إلى جانب الشعر، وثائق تاريخيّة وأدبيّة مهمة في الكشفِ عن أدقّ خفايا هذا القرن، ومساربهِ الدقيقة المختلفة...

وتتبعنا في فصول هذه الدراسة ومباحثها المتصلة عيون الرسائل الأدبية لكتّاب هذا القرن لنكشف عن النزعة الفنية في تلك الرسائل وكيف استطاع كتّاب هذا القرن أن يخضعوا الموضوعات العلمية والمنطقية، وبعض مشكلات الفلسفة للأسلوب الأدبي، ثم نكشف بعد ذلك عن مظاهر التجديد التي أضفاها الأدباء الكتّاب في هذا القرن على فصول هذا الفنّ الأدبيّ.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ البحث حاول أن يقف عند دراستهِ لنصوص الرسائل الأدبية على نظرات النقد القديم، وبعض جوانب النظرية النقدية المعاصرة، والمزج بينهما في تحليل بعض فصول تلك الرسائل ونقدها مع الأخذ بنظر الاعتبار طبيعة ذلك النتاج الأدبي القديم، وظروفه الخاصة المتشابكة...

لقد كشف البحثُ من خلال التوطئة المسهبة كيف تأثر هذا اللون الأدبيّ بمقوّمات عديدة (ذاتية) تتصلُ بالأديب نفسه، ونوازعه المتباينة، وخارجية (موضوعية) تتمثل بمؤثرات المكان (البيئة)، والزمان (الأطوار الفنية المختلفة التي تكوّن تاريخ الأدب العام) فضلاً عن المؤثرات الروحية وغيرها، مما كان لكلّ ذلك تأثيره العميق في تنوع موضوعاته، وتشكيل بنائهِ وتلوين أساليبه ومضامينه....

ومن هنا، كان لزاما على الباحث، وهو يدرس هذه النصوص الأدبية، أنْ يردَّها إلى عناصرها (الذاتية) و (الموضوعية) تلك؛ وصولا إلى إدراك جمالها الفني، ورصد

قيمتها الأدبية والتاريخية، وفضلا عن ذلك، فإنَّ الإلمام بدراسة الأحوال العامة، السياسية والاجتماعية والثقافية، في هذا القرن، يمكن أنْ يعين الباحث على تحليل وتفسير كثير من الظواهر الأدبية، والملامح الفنية التي استجدَّت إبّان هذا القرن في بيئة العراق وأقاليم المشرق الإسلامي...

ثم عمد البحث - قبل اعتماده تلك النصوص الأدبية، وما يتصل بها من روايات أدبية وتاريخية مختلفة - إلى التوثق من صحّتها؛ ليتجنَّب ما قد يقع فيه من مزالق، وليطمئن على ما يصدره من أحكام نقدية على تلك النصوص، أو ما يحيط بها من روايات متباينة، فكان الفصل الأول الذي ألم بدراسة ثلاث قضايا مهمة، وقف عندها في ثلاثة مباحث مركَّزة، هي: ضياع الرسائل، وأهمّ مظاهر ذلك الضياع وأسبابه ثم ظاهرة الانتحال في رسائل هذا القرن، ثم ظاهرة تدوين الرسائل، وأهمَّ المجاميع النثرية التي وصلت إلينا، وما لم يُحقَّق أو يُنشر منها...

وتعقّبنا في الفصل الثاني ظاهرة ازدهار الرسائل الأدبية وشيوعها في هذا القرن، بمبحثين متصلين، شمل المبحث الأول: دراسة شيوع هذا اللون من الأدب، ثم عرضنا لأسباب هذا التطور أو الازدهار، بينما شمل المبحث الثاني: دراسة طبقات كتّاب الرسائل الأدبية وأثرهم في تطور الحركة الأدبية ولا سيما ازدهار هذا اللون الأدبي ونضجه، وقد وقفنا عند عشر قمم شامخة من قمم أولئك الكتّاب البلغاء، توزَّعوا على ثلاث طبقات مهمة هي: طبقة الوزراء والأمراء، فوقفنا عند أشهر مبرّزيهم وهم: أبو الفضل ابن العميد، والصاحب بن عبّاد، والأمير قابوس بن وشمكير، والأمير أبو الفضل الميكالي. ثم طبقة كتّاب الدواوين، وأشهرهم: أبو إسحاق الصابي، وعبد العزيز بن يوسف، وأبو القاسم الإسكافي، وأخيراً طبقة الكتّاب الجوّالين المتكسّبين، وأشهرهم: أبو بكر الخوارزميّ، وبديع الزمان، وأبو الفرج الببّغاء.

ثم الممنا في الفصل الثالث من هذا البحث، بدراسة مصادر ثقافة الكتّاب، وأصول الرسائل الأدبية في هذا القرن في مبحثين متصلين أيضاً، شمل المبحث الأول دراسة أصول الثقافة العربية الإسلامية، واستلهامها في الرسائل الأدبية، بينما ضمَّ المبحث الثاني دراسة أصول الثقافة الأجنبية، (اليونانية والفارسية)، وأثرهما في رسائل هذا القرن.

وقد توصّل البحث إلى أنَّ كثيراً من كتّاب هذا القرن كانوا ينهلون في ترسلهم أقباسا مضيئة من معارف وثقافات الأجناس والشعوب الأجنبية، وأنَّ الإطلال الواسع على معارف الأمم الأجنبية، وثقافاتها المختلفة كان أبرز ما ميَّز الحياة الثقافية في هذا القرن، مما كان لذلك كلّه آثاره الواضحة على الأدب العربي وبخاصة النثر الفني، وما تميّز به من عمق ونضج وازدهار.

ثم تتبَّع البحث في الفصل الرابع، دراسة موضوعات الرسائل الأدبية في هذا القرن، وقد توزّعت تلك الدراسة على ثلاثة مباحث مفصلة، شمل الأول دراسة الرسائل الإخوانية، بينما ضمَّ المبحث الثاني دراسة الرسائل الوصفية، بينما شمل المبحث الثالث دراسة الرسائل الهزْلية، والمفاكهات الأدبية.

وقد توصّل البحث إلى أنَّ المكاتبات الإخوانية كانت وثائق مهمة صوّرت علاقات الأدباء مع بعضهم، وعلاقة الأديب بمجتمعه، ومن هنا، فقد انصبَّتْ تلك الرسائل على تصوير معاني الاعتذار والثناء والعتاب والشكوى والتهاني والتعازي، وما إلى ذلك من المعاني الأخرى التي جسّدت في أكثر نماذجها الصادقة، الوشائج الإنسانية بكلّ ألوانها، كما كشف البحث أيضاً عن براعة الكتّاب في فنّ الوصف، وقدرتهم على تجسيد المعاني، وتصوير المحسوسات والمعنويات، كما أبان البحث في هذا الجانب أيضاً، عن نزوع الكتّاب إلى المرح والفكاهة، والسخرية والتندر في مكاتباتهم الأدبية، وأنَّ ذلك كان مظهراً واضحاً من مظاهر نزعتهم الفنية التي خامرت طبيعتهم المرحة..

وقد عرض البحث أخيراً، في أوعب فصوله، إلى دراسة الخصائص الفنية والأسلوبية للمكاتبات الأدبية في هذا القرن، وقد ضمّتْ هذه الدراسة المفصّلة مبحثين كبيرين، انصبّ الأول منهما على دراسة الخصائص البنائية والشكلية، بينما شمل المبحث الثاني دراسة خصائص المحتوى أوالمضمون لرسائل هذا القرن.

* * *

لقد تناول هذا البحث دراسة جانب مهمّ من جوانب أدبنا العربيّ الأصيل، في مرحلة زمنية تُعدُّ من أخطر المراحل في تاريخ الأمة الإسلامية، وأزهاها حضارةً وثقافةً، فبحثنا موضوع الرسائل الأدبية بروح علميّة وموضوعية، وعرضنا كثيراً من

نصوص فصولها عرضاً جديداً، وقد جلّى هذا البحث من خلال هذا الأسلوب في الطرح والدراسة، حقائق علميّة خطيرة، وتوصل إلى نتائج مهمة، كشفت عن كثير من أسرار الواقع الثقافي والأدبي في هذا القرن المزدهر..

ولعل أبرز تلك النتائج التي توصّل إليها هذا البحث ما يأتي:

١) إنَّ نصوص الرسائل الأدبية - بوصفها نماذج فنية راقية - تأثّرتْ بمقومات ذاتية وموضوعية، استلهم منها الأدباء الكتّاب صورهم، ومرتكزات وجودهم، ودعائم أحاسيسهم.. وقد كان لهذه المؤثرات جميعاً آثارها المهمة في توجيه الأدب عموما، ولا سيما الرسائل الأدبية، إذ إنَّ تلك المؤثرات كلها وشائج عميقة انعكست على حياة الأدباء، فكان لها تأثيرها المباشر في تنوع موضوعاته وتشكيل أساليبه، وإثراء مضامينه.

وهكذا جلّى البحث عن حقيقة مهمة، تلك هي: إنَّ نصوص الرسائل الأدبية في هذا القرن، لم تكن منبتة الجذور عمّا يحيطها من مؤثرات المكان والزمان والمؤثرات الروحية والحضارية وغيرها، وصولاً لربط تلك النصوص بجذورها الاجتماعية، ووضعها في أجوائها التاريخية المناسبة.

٢) توصل البحث من خلال الاستقراء الواسع، والاستنتاج الدقيق، إلى أنَّ كثيراً من مجاميع الرسائل لأدباء هذا القرن، قد ضاعت، وسقطت من يد الزمن، كما تفرّق ما سلم من الضياع منها في مدارج دور الكتب والمكتبات العالمية، وتشتّت بعضها الآخر في مظان الأدب والتاريخ وكتب التراجم، كما أحاط بعض الأخبار والروايات التاريخية التي تتصل بنصوص الرسائل الأدبية أو أعلام المترسلين، اضطراب واضح، فضلا عما شاب بعض مجاميع الرسائل المنشورة من الاضطراب، لما يعوزها من دقة في الضبط، أو التنظيم في العرض أو التبويب، أو الشرح والتعليق والتحليل..

وتبعا لهذا فقد جاء الفصل الأول من هذه الدراسة، بمباحثه الثلاثة، لدراسة ظاهرة ضياع الرسائل، وظاهرة الانتحال، وتوثيق صحة ما وصل إلينا منها، بعد دراسة وتحليل مجاميع الرسائل التي سلمت من الضياع، لتكون هذه الدراسة دقيقة، وغير مبنية على أساس واهٍ أو ضعيف..

وهكذا جاء هذا الفصل، بمباحثه الثلاثة، جديدا في عرضه وطرح أفكاره، ونتائجه التي وصل إليها..

٣) وخلص الفصل الثاني من هذه الدراسة إلى نتائج مهمة لعل أبرزها:

أ - لقد بلغ كتّاب الرسائل الأدبية بخاصة، شأواً بعيداً بنثرهم وتنميقه، إلى حدّ أنه اخذ يداني الشعر في رقته وموسيقاه، وأصبح ترسل أكثرهم - كما عبّر عنه بعض الباحثين: ((نثراً منظوما)) - فكان ترسلهم يعتمد كثيراً على الإيقاع والموسيقى؛ موسيقى السجع والازدواج والتوازن، فضلا عن زخارف البديع الأخرى. وقد بالغ بعض الكتّاب في ذلك حتى تحولت رسائلهم إلى ما يشبه الوشي الخالص، إلاّ أنَّ مواهبهم المتقدة، وملكتهم اللغوية الحادة، حالت دون أنْ يقعوا في الاسفاف أو التكلف المقيت - إلاّ نادرا - كالذي وقع فيه كتّاب العصور اللاحقة بعدهم.

ب - على الرغم مما شاع عن كتّاب هذا القرن من عناية واضحة بالوشي وزخارف الألفاظ، وحلي البديع، ولا سيما السجع - كما مر آنفاً - وعنايتهم أيضاً بجرس الألفاظ، وصياغة الأسلوب، حتى غدا ذلك يُعدُّ نموذجا لذوق أهل هذا القرن، إلاّ أنَّ أولئك الأدباء الكتّاب البلغاء، استطاعوا - لسعة ثقافتهم، وقوة ملكتهم، وندرة مواهبهم - أن يبثوا في النثر الفني - وبخاصة الرسائل الأدبية - قيماً فنية جديدة؛ تمثّلت بطرافة التفكير، وعمق المعاني وجدّتها، ورقة التعبير، فضلاً عن عنايتهم الفائقة بالتصوير، وبراعتهم في الوصف، و قدرتهم على تحليل أدقّ المعاني، وتصوير المشاعر الإنسانية، وتجسيدها بكلّ براعة وعمق وإبداع.

أ- نظراً لظهور الإمارات والدول المستقلة الجديدة في هذا القرن، وتشجيع أكثر رؤسائها وأمرائها لتراثهم، وآدابهم القومية -و بخاصة الأمراء الفرس في أقاليم المشرق الإسلامي - فقد غدت (الفارسية)، بعد أنْ عادت إلى الظهور منذ منتصف القرن الرابع، شريكة للعربية في

تجسيد معالم النهضة الحضارية التي شهدها هذا القرن الذي يُعدُّ بحق أزهى عصور الإسلام في الحضارة والثقافة وحركة التدوين.

٤) وجلّى الفصل الثالث من هذا البحث عن حقائق علميّة ونتائج أبرزها:

ج - استلهام كثير من مظاهر التراث العربي والإسلامي في الرسائل الأدبية؛ كتضمين الشعر وحلّه في المكاتبات النثرية، فضلا عن الاقتباس من القرآن، وتضمين الأمثال السائرة، والحكم البليغة السديدة، وتوظيف الحكاية الشعبية، و اعتماد ذلك في صناعة الترسل، حتى غدت دعامة مهمة وأساسية في البناء الفني للرسائل الأدبية في هذا القرن.

أ- الإطلال الواسع والاستشراف العميق على معارف بعض الأمم والأجناس الأجنبية، وثقافاتها المختلفة - كاليونان والفرس - فانبثَّتْ في ترسل الكتّاب، وشكّلت رافداً مهماً للثقافة الإسلامية في هذا القرن، وعملت على نضج النتاج الأدبي والعلمي، وعمقه وإثرائه، وهذا ما تجلّى واضحاً في رسائل أعلام الكتّاب المشهورين كابن العميد والصاحب، وأبي حيان، وأبي بكر الخوارزمي، وابن مسكويه والأمير قابوس واضرابهم من بلغاء الكتاب.

وهكذا توصل البحث إلى أنَّ آثار هذه الثقافات الأجنبية مجتمعةً كانت واضحة على نتاج الكتّاب في هذا القرن، مما كان لها تأثيرها الواضح على أساليبهم، وطرائق تعبيرهم، فضلاً عما تميّزت به مضامين رسائلهم من العمق والثراء، ودقة الأفكار، على الرغم من اتشاح رسائلهم بأفانين البديع، وألوان الزخارف اللفظية الأخرى..

٥) أما الفصل الرابع - الذي انصبَّ على دراسة موضوعات الرسائل الأدبية في هذا القرن - فقد جاء كثير من مسالكه جديداً في العرض وطرح الأفكار، فضلا عن الوقوف على طائفة كبيرة من نصوص الرسائل الأدبية التي لم تقع عليها أقلام الباحثين بالدراسة والنقد والتحليل..

وقد جلّى هذا الفصل عن النتائج المهمة الآتية:

أ- رصد المبحث الأول من هذا الفصل تطور (الرسائل الإخوانية) في هذا القرن، على الرغم من ظهورها وشيوعها في العصور السابقة، وقد وقف البحث عند ثمانية أغراض من الإخوانيات، حلّل في كلّ منها فلسفة كلّ غرض، وما طرأ عليها من تطور، ثم شرع يحلّل نماذج فنية نادرة لتلك الأغراض تحليلا نقديا مركزا..

ب - كشف المبحث الثاني من هذا الفصل عن شغف كتّاب الرسائل الأدبية بخاصة، في (فن الوصف)؛ وصف المحسوسات والمعنويات، واندفاعهم في تصوير كلّ ما يلمّون به في ترسلهم، واستقصاء جوانبه المختلفة، وتحليل أطرافه وجزئياته، سواء أكان منه ما يتصل بالأمور المحسوسة أم فيما يتصل بأمور الوجدان والخواطر، وغيرها من الأمور المعنوية المجرّدة..

ج - وقد جلّى المبحث الثالث من هذا الفصل عن حقيقة مهمة تلك هي: إنّ نزوع كتّاب الرسائل في هذا القرن إلى الفكاهة والمرح، أو السخرية والتندر، إنما كان مظهراً من مظاهر نزعتهم الفنية التي خامرت طبيعتهم المرحة، وانبثقت عن رغبتهم الجامحة في الجنوح إلى هذا اللون من النثر الفني الفكه.

(٦) وقد جلّى البحث في الفصل الخامس عن حقائق علمية ونتائج مهمة أبرزها:

أ - لقد شخصت بوضوح - لا سيما في الرسائل الأدبية الطويلة - أبرز جزئيات البناء الفني للنص الأدبي، وبخاصة (الاستهلال) و(الخاتمة) و (حسن الانتقال) أو فصل الخطاب إلى الغرض الرئيس (عرض الرسالة).

وقد غدت تلك الرسائل الأدبية الشهيرة نماذج شامخة، وشواهد مهمة لأصالة النثر العربي في أزهى عصوره الأدبية...

ب - توصل البحث إلى أنّ جل الكتّاب في هذا القرن - على

الرغم من غلبة الصنعة على أساليب أكثرهم - كانوا يستخدمون في ترسلهم ومكاتباتهم الأدبية لغة سهلة مأنوسة، تميّزت بجمال الأداء، ورقة العبارة، وعذوبة الجرس، وحلاوة الإيقاع، مع عدم ميلهم إلى الغريب من الألفاظ والتراكيب، وعدم التماسه في ترسلهم إلاّ لماما، كما عمدوا كثيراً إلى لغة المجاز، نزوعاً إلى التجديد والابتكار في المعاني، فضلا عما كانت تشعه من إيحاءات متنوعة لها وقعها الفني والجمالي في النص الأدبي..

ج - توصل البحث إلى عناية الكتاب في هذا القرن، بالشكل والمضمون في كثير من نصوص رسائلهم الأدبية، فالألفاظ والتراكيب - بوصفهما جزءاً من شكل العمل الأدبي - وسيلة مهمة لنقل المعنى وصياغته، وانه لا قيمة للشكل والصياغة إلاّ بالمعنى، كما أنَّ محتوى العمل الأدبي لا يحيا إلاّ بحسن الصورة، وجمال الصياغة، ورشاقة الأسلوب..

د - كشف المحور الأول من هذا الفصل عن أهميّة المعنى، وقيمته في رسائل هذا القرن، وجلّى عن حقيقة مهمة تلك هي: إنَّ عناية الكتّاب بألفاظهم، وموسيقى تراكيبهم، وانكبابهم على تزويق أساليبهم، إنمّا كان بدافع عنايتهم بمعانيهم، وجلاء أفكارهم، فضلاً عما كانوا يسعون إليه في هذا الجانب من ابتكار المعاني والتجديد فيها وتوليدها..

هـ - أبان المحور الثاني من المبحث الثاني من هذا الفصل - فضلاً عن قيمة الخيال وأثره المهم في العمل الأدبي؛ لكونه جزءاً من المضمون الذي يشكّل جوهر النص الأدبي - عن حقيقة مهمة تلك هي: إنَّ كتّاب هذا القرن قد برعوا كثيراً في الوصف، وافتنوا كثيراً في خلق صور حسيّة نادرة، وذهنية مجرّدة، سعياً وراء ابتكار المعاني الجديدة وتوليدها، فضلاً عن جلاء الأفكار وإيضاحها..

و- وكشف المحور الثالث من المبحث الثاني من هذا الفصل عن أثر العاطفة الأدبية أو الانفعال - بوصفها إحساساً ذاتيا - في رسائل

هذا القرن، وقيمتها في توجيه لغتها الأدبية، وما أضفته على أجوائها من جمال فني، لا سيما حين تظلل أجواء تلك النصوص الأدبية عواطف صادقة، قوية، تتسم بالعمق والشمول الإنساني، وحين تكون أيضا، متدفقة، منسابة، غير متكلّفة أو مصطنعة..

* * *

وختاما أزجي إلى أستاذي المشرف الدكتور يونس أحمد السامرائي أخلص تقدير، وأجلّ ثناء، على ما أولاني به من حسن التوجيه، وكرم الرعاية، إذ لم يألُ جهداً في المتابعة المخلصة لكلّ جزئيات هذا البحث.

جزاه الله تعالى عن العلم وطلبته، و أثابه كلَّ الخير والرضوان.

﴿ ((رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ...))

وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربّ العالمين

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن العميد - خليل مردم (سلسلة أئمة الأدب -٣ -) نشر مكتبة عرفة. مطبعة الاعتدال - دمشق ١٩٣١ م.
- أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء - د. زكريا إبراهيم - (سلسلة الأعلام -٢ -) الطبعة الثانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م.
- أبو حيان التوحيدي - د. إحسان عباس، ط. دار بيروت للطباعة والنشر -بيروت ١٩٥٦م.
- أبو حيان التوحيدي - د. أحمد محمد الحوفي. (الطبعة الثانية) - القاهرة ١٩٦٤م.
- أبو حيان التوحيدي.... سيرته وآثاره -د. د. عبد الرزاق محيي الدين، ط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر - (الطبعة الثانية) ١٩٧٩م.
- أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم - إبراهيم محمود. ط. الدائرة المتحدة للنشر - بيروت ١٩٧٤ م.
- الآثار الباقية عن القرون الخالية - البيروني -أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠ هـ) ط. مؤسسة الخانجي بمصر -القاهرة (د. ت) (طبعة أخرى): نشره: سخاو -ليبزج ١٨٧٨م.
- أخبار الراضي والمتقي (من كتاب الأوراق) - أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥ هـ). تحقيق ج. هيورث دن - القاهرة ١٩٣٥م.
- أخلاق الوزيرين - أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد ت بعد عام ٤٠٠هـ) تحقيق محمد بن تاويت الطنجي - مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق - المطبعة الهاشمية ١٩٦٥م.
- إخوان الصفاء - د. جبور عبد النور (سلسلة نوابغ الفكر العربي -٧ -) ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦١ م.
- الأدب في ظل بني بويه - د. محمود غناوي الزهيري - مطبعة الأمانة - مصر - القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.

• أدب الكاتب - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ت ٢٧٦هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - الطبعة الرابعة - مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٦٣ م.

• أدب الكتّاب - أبو بكر الصولي (ت ٣٣٥ هـ) تحقيق محمد بهجة الأثري - المطبعة السلفية بمصر - القاهرة ١٣٤٢ هـ.

• الأدب وفنونه - د. عز الدين إسماعيل - ط. مطبعة السعادة بمصر القاهرة ١٩٧٦ م.

• الأدب وفنونه - د. محمد مندور - الناشر: معهد الدراسات العربية العالية - دار نهضة مصر للطباعة والنشر- القاهرة (د. ت).

• الأرض اليباب - ت. س. إليوت: الشاعر والقصيدة - دراسة وترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) الطبعة الأولى - بيروت ١٩٨٠ م.

• أساليب بلاغية - د. أحمد مطلوب - ط. وكالة المطبوعات الكويت ١٩٨٠ م.

• أسرار البلاغة - عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ) تحقيق: هـ ريتر - مطبعة وزارة المعارف - اسطنبول ١٩٥٤ م.

• الأسلوب - أحمد الشايب - ط. مكتبة النهضة المصرية. الطبعة السابعة - القاهرة ١٩٧٦ م.

• الاشتقاق - ابن دريد (محمد بن الحسن الأزدي ت ٣٢١ هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون - القاهرة ١٩٥٨ م.

• الإصابة في تمييز الصحابة - شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني المشهور ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) - الطبعة الأولى. مطبعة السعادة - مصر ١٣٢٣ هـ. (طبعة بالاوفسيت).

• أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيان التوحيدي، نور الدين بن بلقاسم، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان -طرابلس (الجماهيرية العربية الليبية) الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/١٩٨٤م.

• إصلاح المنطق - ابن السكيت (يعقوب بن إسحاق ت ٢٤٤ هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون. الطبعة الثانية - ط. دار المعارف بمصر

١٩٥٦ م.

- أصول النقد الأدبي - أحمد الشايب - الناشر: مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الثالثة - مطبعة الاعتماد - مصر - القاهرة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م.
- الأعلام - خير الدين الزركلي - ط كوستا تسوماس وشركاه. القاهرة ١٩٥٦ م.
- أعيان الشيعة - محسن الأمين العاملي - الطبعة الرابعة مطبعة الإنصاف - بيروت ١٩٦٠ م.
- الأغاني - أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ). ط. دار الكتب المصرية (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر) - مطابع كوستا تسوماس - القاهرة (د. ت).
- الألفاظ الكتابية - عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (ت ٣٢٠ هـ). عني بضبطه وطبعة: لويس شيخو اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٨٨٥ م.
- أمالي الزجاجي - أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون - ملتزم الطبع والنشر: المؤسسة العربية الحديثة - الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٨٢ هـ.
- الامتاع والمؤانسة - أبو حيّان التوحيدي - تحقيق الأستاذين: أحمد أمين - أحمد الزين - الناشر: المكتبة العصرية - بيروت ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م.
- أمراء البيان - محمد كرد علي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م.
- الأنساب - أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي - الطبعة الأولى. مطبعة دار المعارف الإسلامية ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م.
- أهل المدينة الفاضلة - أبو نصر الفارابي (محمد بن محمد بن طرخان (ت ٣٣٩ هـ) ط. دار العراق - بيروت ١٩٥٥ م.
- الإيضاح في علوم البلاغة - جلال الدين محمد بن عبد الرحمن المشهور

بالخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) (وهو شرح تلخيصه لكتاب المفتاح للسكاكي)مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده - القاهرة ١٩٧١ م.

- البخلاء - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ). تحقيق: د. طه الحاجري - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٤٨ م.
- البخلاء - الجاحظ - تحقيق د. طه الحاجري (طبعة أخرى). (سلسلة ذخائر العرب - ٢٣ -) ط. دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م.
- البديع - عبد الله بن المعتز بن المتوكل (ت ٢٩٦ هـ) ط. أغناطيوس كراتشكوفسكي - لندن ١٩٣٥ م.
- بديع الزمان الهمذاني - رائد القصة العربية والمقالة الصحفية. د. مصطفى الشكعة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٥ م.
- بديعات الزمان (بحث تاريخي تحليلي في مقامات الهمذاني) - فيكتور الكك. تقديم: فؤاد أفرام البستاني - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦١ م.
- البرهان في وجوه البيان - ابن وهب - أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب. تحقيق: د. أحمد مطلوب - د. خديجة الحديثي - بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م.
- البصائر والذخائر - أبو حيان التوحيدي - تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني. مطبعة الإنشاء - دمشق ١٩٦٤ م. الناشر: مكتبة أطلس.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس - أحمد بن يحيى الضبي (ت ٥٩٩ هـ). تحقيق: مطيع روخس - مطبعة مدريد ١٨٨٥ م.
- بلدان الخلافة الشرقية - كي. لستر نج. ترجمة: بشير فرنسيس - وكوركيس عواد - مطبعة الرابطة - بغداد ١٩٥٤ م.
- بناء القصيدة في النقد العربي القديم - د. يوسف حسين بكار. الطبعة الثانية - ط. دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع لبنان - بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.
- البيان والتبيين - أبو عثمان الجاحظ - تحقيق: عبد السلام محمد هارون. مطبعة المدني - القاهرة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م - الطبعة الخامسة. الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة.

- تاريخ أبي الفداء - المسمى (المختصر في إخبار البشر) - عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن علي (ت ٧٣٢ هـ). علق عليه ووضع حواشيه: محمود ديوب. الطبعة الأولى - منشورات: محمد علي بيضون. دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.
- تاريخ الأدب العربي - المستشرق الألماني كارل بروكلمان - نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار. الطبعة الثالثة ط. دار المعارف بمصر (د. ت) - ج ٤، ج ٥، نقلها إلى العربية: د. السيد يعقوب بكر - ود. رمضان عبد التواب. ط. دار المعارف بمصر ١٩٧٥م.
- تاريخ الأدب العربي (٤) - العصر العباسي الثاني - د. شوقي ضيف. ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧٣ م.
- تاريخ الأدب في إيران (من الفردوسي إلى السعدي) - المستشرق ادوارد جرانفيل براون - نقله إلى العربية: د. إبراهيم أمين الشواربي. الطبعة الأولى - الناشر: مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م (طبعة أخرى): مطبعة السعادة بمصر - القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - حسن إبراهيم حسن - مطبعة الاعتماد - مصر - (د. ت). الناشر: مكتبة النهضة المصرية.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - حسن إبراهيم حسن (طبعة أخرى) مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٦٤ م الطبعة السابعة.
- تاريخ إيران - د. فاروق عمر - د. مرتضى حسن النقيب مطبعة التعليم العالي والبحث العلمي - بغداد ١٩٨٩ م. (منشورات بيت الحكمة).
- تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي) ط ١ مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٤٩ هـ /١٩٣١ م.
- تاريخ الرسل والملوك - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٩ م. (سلسلة ذخائر العرب) ١٠ مجلدات.

• تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء - حمزة الأصفهاني ط٣. دار الحياة -بيروت (د. ت).

• تاريخ الشعوب الإسلامية - المستشرق كارل بروكلمان. ترجمة: نبيه أمين فارس - ومنير بعلبكي - بيروت ١٩٦٥ م.

• تاريخ العتبي -أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي (ت ٤٣٢ هـ). طبع على هامش شرح الشيخ المنيني المسمى (الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي) مطبعة جمعية المعارف - مصر - القاهرة (د. ت).

• التاريخ اليميني (طبعة أخرى) -أبو النصر العتبي (ت ٤٣٢ هـ). شرح الشيخ أحمد المنيني. مصر. القاهرة ١٢٨٦ هـ (طبع في جزئين).

• تاريخ الفلسفة في الإسلام - ت ج - دي بور. نقله إلى العربية وقدم له: د. محمد عبد الهادي أبو ريده. (الطبعة الرابعة). ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٧ م.

• تاريخ مختصر الدول - ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس). نشر وتقديم: أنطوان صالحاني اليسوعي. بيروت ١٩٥٨ م.

• تاريخ اليعقوبي - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢ هـ)ط. دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م.

• تاريخ اليعقوبي (طبعة أخرى) - أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢ هـ) نشر المكتبة الحيدرية ومطبعتها - النجف الاشرف ١٩٦٤ م.

• التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن - ابن الزملكاني (عبد الواحد بن عبد الكريم). تحقيق: د. أحمد مطلوب - د. خديجة الحديثي. مطبعة العاني - بغداد ١٩٦٤ م.

• تتمة صوان الحكمة - البيهقي (ظهر الدين أبو الحسن علي بن أبي القاسم زيد البيهقي) (ت ٥٦٥ هـ) - لاهور - حيدر اباد -الدكن ١٣٥١ هـ.

• تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء - هلال بن المحسن الصابي. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج - مصر - القاهرة ١٩٥١ م.

• تحفة الوزراء - المنسوب إلى أبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) - تحقيق: حبيب علي الراوي - د. ابتسام مرهون الصفار. مطبعة العاني - بغداد ١٩٧٧ م. (سلسلة إحياء التراث الإسلامي - وزارة الأوقاف - جمهورية العراق - ٢٤).

• التحليل النقدي والجمالي للأدب - د. عنان غزوان إسماعيل. دار آفاق عربية للطباعة والنشر - بغداد ١٩٨٥م.

• تذكرة الحفاظ - شمس الدين الذهبي - ط. حيدر آباد - الدكن ١٩٥٧ م.

• تذكرة الحفاظ - (طبعة أخرى) - الذهبي - الطبعة الرابعة. ط. دار إحياء التراث العربي. (د. ت).

• تذكرة الشعراء - دولتشاه السمرقندي (بالفارسية) مطبعة لندن ١٨١٣ هجري قمري. (الكتاب في مجلدين).

• التربيع والتدوير - أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) عني بنشره: شارل بلات - المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ١٩٥٥م.

• تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي -أنيس المقدسي. الطبعة الثالثة - ط. دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٥ م.

• التمثيل والمحاضرة - أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ). تحقيق: عبد الفتاح الحلو. ط. دار إحياء. الكتب العربية مصر - القاهرة ١٩٦١ م.

• التنبيه والأشراف - أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٥ هـ). ط. ليدن ١٨٩٣م.

• تهذيب التهذيب - ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢ هـ) ط. حيدر آباد - الدكن ١٣٢٥ هـ.

• الثعالبي ناقداً وأديباً - د. محمود عبد الله الجادر منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع (الطبعة الأولى) بيروت (١٤١١هـ/١٩٩١م).

• ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي - عني بتحقيقها ونشرها: د. إبراهيم الكيلاني - المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٥١ م (الناشر المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية).

• ثمار القلوب في المضاف والمنسوب - أبو منصور الثعالبي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م.

• ثمرات الأوراق - ابن حجة الحموي (أبو بكر علي بن حجة) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط مصر -القاهرة ١٩٧١م.

• ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد - أحمد علي - ط. دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦١ م.

• جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (الملقب بدستور العلماء) للقاضي عبد النبي ابن عبد الرسول الأحمد نكري. ط٢ (منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٣٩٥ هـ /١٩٧٥ م.

• الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور - ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) تحقيق: د. مصطفى جواد - د. جميل سعيد. مطبوعات المجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٥٦ م.

• جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب - د. ماهر مهدي هلال - ط دار الحرية للطباعة والنشر - بغداد ١٩٨٠ م.

• جمهورية أفلاطون - ترجمة: حنّا خبّاز - ط. دار القلم. بيروت ١٩٨٠ ط٢.

• جهار مقالة (المقالات الأربع في الكتابة والشعر والنجوم والطب) - النظامي العروضي أحمد بن عمر بن علي السمرقندي (٥٠٠هـ - ٥٥٢هـ) وفيه حواشي وخلاصة العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني. نقله إلى العربية: عبد الوهاب عزام - ويحيى الخشاب. الطبعة الأولى. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م.

• الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (أو عصر النهضة في الإسلام). الأستاذ آدم متز - نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريده. الناشر: دار الكتاب العربي / بيروت - الطبعة الرابعة. ط. مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧ م.

• حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي - د. محمد رجب النجار. ط.

الكويت ١٩٨١ م.

• الحيوان - أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون - الطبعة الأولى ط. مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٥٦ هـ /١٩٣١ م.

• خزانة الأدب وغاية الأرب - أبو بكر علي بن حجة الحموي. طبع ونشر القاهرة ١٣٠٤ هـ.

• خزانة الأدب وغاية الأرب -ابن حجة الحموري (طبعة أخرى) ط. دار القاموس الحديث - بيروت (د. ت).

• الخطابة - ارسطاطاليس - ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي. طبع على مطابع الرسالة ١٩٨٠ م. الناشر: دار الرشيد للنشر (سلسلة الكتب المترجمة - ١٤ - وزارة الثقافة والأعلام - جمهورية العراق - بغداد).

• الخيال الرومانسي - موريس بورا - ترجمة: إبراهيم الصيرفي. ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٧ م.

• دائرة المعارف الإسلامية - نقلها إلى العربية لفيف من المستشرقين المشتغلين بالعلوم والآداب (د. ت).

• دراسات في العصور العباسية المتأخرة -د. عبد العزيز الدوري أُرِّختْ المقدمة في تموز ١٩٤٥ (دار المعلمين العالمية -بغداد).

• دراسات في علم النفس - د. حامد عبد القادر. ط. المطبعة النموذجية ١٩٥٤ م.

• دلائل الإعجاز - عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١ هـ). تحقيق: محمد رشيد رضا - الطبعة الخامسة. ط. دار المنار - القاهرة ١٣٧٢ هـ. (طبعة أخرى: تحقيق: محمود محمد شاكر -مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٨٤م).

• دمية القصر وعصرة أهل العصر - أبو الحسن علي بن الحسن ابن أبي الطيب الباخرزي (ت ٤٦٧ هـ). تحقيق: د. سامي مكي العاني (الطبعة الثانية). الناشر: مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع - الكويت ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

• ديوان أبي الطيب المتنبي - شرح أبي البقاء العكبري المسى بالتبيان في شرح الديوان - ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا - إبراهيم الابياري -

عبد الحفيظ شلبي. ط. مصطفى البابي الحلبي - مصر ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م.

• ديوان الحطيئة - (جرول بن أوس العبسي). ط. المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت (د. ت).

• ديوان طرفة بن العبد - تقديم: كرم البستاني. ط. دار صادر -دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت ١٣٨٠هـ/١٩٦١م.

• ديوان المعاني - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت ٣٩٥ هـ). عني بنشره: مكتبة القدسي - القاهرة ١٣٥٢ هـ.

• ديوان النابغة الذبياني - (أبو أمامة زياد بن معاوية). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. (الطبعة الثانية) ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٨٥ م.

• ذيل تجارب الأمم - أبو شجاع محمد بن الحسين الملقب ظهير الدين الروذراوري (ت ٤٨٨ هـ). تحقيق: هـ. ف. امدروز ١٣٣٤مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر - القاهرة هـ / ١٩١٦ م.

• الرثاء - د. شوقي ضيف (سلسلة فنون الأدب العربي - الفن الغنائي ٢ -). ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٥ م. (الطبعة الثانية).

• رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء - تحقيق: بطرس البستاني ط. دار بيروت - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ١٩٥٦.

• رسائل البلغاء - الأستاذ محمد كرد علي (الطبعة الثالثة). مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٣٦٥ هـ - / ١٩٤٦ م.

• رسائل أبي بكر الخوارزمي - تقديم وتحقيق: نسيب وهيبة الخازن. طبع بمطابع دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧٠ م. (منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت).

• رسائل الصابي والشريف الرضي - تحقيق: د. محمد يوسف نجم. مطبعة حكومة الكويت - الكويت ١٩٦١م. (التراث العربي - سلسلة تصدرها دائرة المطبوعات والنشر في الكويت).

• رسائل الصاحب بن عبّاد (أبو القاسم: إسماعيل بن عبّاد ت ٣٨٥ هـ). صححها

وقدم لها: د. عبد الوهاب عزام - د. شوقي ضيف. (الطبعة الأولى). مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م.
(الناشر: دار الفكر العربي).

• رسالة الصداقة والصديق - أبو حيان التوحيدي. تحقيق: د. إبراهيم الكيلاني - دار الفكر - دمشق ١٩٦٤ م.

• الرسالة العذراء - إبراهيم بن المدبّر (ت ٢٧٩ هـ) تحقيق: د. زكي مبارك - (الطبعة الثانية). مطبعة دار الكتب المصرية / القاهرة ١٩٧٤ م.

• رسائل فلسفية - د. ناجي التكريتي - د. صالح الشماع. ط. دار الشؤون الثقافية العامة - وزارة الثقافة والأعلام. بغداد ١٩٨٩ م.

• الرسائل الفنية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الأموي - غانم جواد رضا - ط. مطبعة اسعد - بغداد ١٩٧٨م. الناشر: مكتبة دار التربية - بغداد.

• رسائل الكندي الفلسفية - أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت ٢٥٢ هـ). تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة. مطبعة الاعتماد بمصر - القاهرة ١٩٥٠ م. (الناشر دار الفكر العربي).

• رسالة في ثمرات العلوم -التوحيدي -نشر أحمد فارس الشدياق (ملحقة برسالة الصداقة والصديق في كتاب (رسالتان للعلاقة الشهير أبي حيان التوحيدي) ط مطبعة الجوانب - القاهرة ١٣١٠ هـ - ١٨٨٤ م.

• رسوم دار الخلافة - أبو الحسين هلال بن المحسن الصابي (ت ٣٥٩ هـ) - ٤٤٨ هـ) تحقيق: ميخائيل عواد - مطبعة العاني بغداد ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م.

• زهر الآداب وثمر الألباب - أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري (ت ٤٥٣ هـ). تحقيق: د. زكي مبارك. ط. دار الجبل للنشر والتوزيع والطباعة - بيروت ١٩٧٢. (الطبعة الرابعة) الناشر: مكتبة المحتسب - عمان.

• السجع وأطوار استعماله في أدب العرب - عبد الستار فوزي. ط. الشركة المركزية للطباعة والإعلان - بغداد ١٩٦٦ م.

• سحر البلاغة وسر البراعة - أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) وقف على طبعه:

أحمد عبيد (الطبعة الأولى). مطبعة الترقي - دمشق ١٢٥٠ هـ.

• سر الفصاحة - أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) تحقيق: عبد المتعال الصعيدي - مطبعة محمد علي صبيح القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.

• سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون - جمال الدين محمد بن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ). (الطبعة الأولى). مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م (سلسلة تراث العرب).

• سهل بن هارون - د. منجي الكعبي. (الطبعة الأولى). مطبعة الشركة التونسية - تونس ١٩٨٠ م.

• السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية - المستشرق فان فلوتن - ترجمة: د. حسن ابراهيم - ومحمد زكي إبراهيم - ط. مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٣٤ م.

• شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات - أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (٢٧١ هـ - ٣٢٨ هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون (الطبعة الرابعة). ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.

• شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦ هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي ١٩٦٥ م. (الطبعة الثانية).

• شرح هاشميات الكميت بن زيد الاسدي (بتفسير أبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي). تحقيق: د. داود سلوم -د. نوري حمودي القيسي - (الطبعة الأولى). الناشر: عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية. بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

• الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه - د. يحيى الجبوري - طبع لبنان ١٩٧٢ م. الناشر: مكتبة دار التربية - بغداد.

• الشعر العربي المعاصر.. قضاياه وظواهره الفنية - د. عز الدين إسماعيل. ط. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ م.

• الشعر كيف نفهمه ونتذوقه - اليزابيث درو. ترجمة: محمد إبراهيم الشوش - منشورات فرانكلين / نيويورك ١٩٦١ م.

• الشعر والشعراء - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) ط. عالم الكتب - بيروت (قسطنطينية) ١٢٨٢ هـ. (الطبعة الأولى).

• الشعر والفكر المعاصر - (سلسلة كتاب الجماهير). منشورات وزارة الأعلام - بغداد ١٩٧٤ م.

• صبح الأعشى في صناعة الإنشا - أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م.). نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية - وزارة الثقافة والإرشاد القومي / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - مطابع كوستا تسوماس - القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م.

• صحيح البخاري -للامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) طبعة محققة على عدة نسخ، وعن نسخة (فتح الباري) التي حقق اصولها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: المكتبة التوفيقية - مصر - القاهرة (د. ت).

• الصورة الشعرية - سيسيل دي لويس. ترجمة: د. أحمد نصيف الجنابي وزميليه - راجعه: د. عنان غزوان إسماعيل. دار الرشيد للنشر - بغداد ١٩٨٢ م.
(سلسلة الكتب المترجمة - ١٢١ -).

• الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي - الولي محمد. الناشر: المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء ١٩٩٠ م. (الطبعة الأولى).

• الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث - د. بشرى موسى صالح. الناشر: المركز الثقافي العربي - بيروت - الدار البيضاء ١٩٩٤ (الطبعة الأولى).

• الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي - د. جابر أحمد عصفور. الطبعة الأولى - نشر وطبع: دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٤ م.

• الصورة الفنية في قصيدة الرؤيا - د. عبد الله عساف. الطبعة الأولى - الناشر: دار دجلة - سوريا - القامشلي ١٩٦٦ م.

• الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري - د. علي البطل. (الطبعة

الثانية) - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

- طبقات الشافعية الكبرى - تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي (٧٢٧ هـ - ٧٧١ هـ). تحقيق: محمود محمد الطناحي - عبد الفتاح محمد الحلو. (الطبقة الأولى). ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م.
- طبقات الشعراء - عبد الله بن المعتز بن المتوكل (ت٢٩٦ هـ). تحقيق: عبد الستار أحمد فراج - ط. دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥ هـ) مطبعة المقتطف - القاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م.
- ظهر الإسلام - الأستاذ أحمد أمين. الناشر: مكتبة النهضة المصرية (د. ت).
- العجّاج ودوره في تطوير الأرجوزه في العصر الأموي - غانم جواد رضا - مطبعة جامعة الموصل ١٩٨٦ (الطبعة الأولى). الناشر: مركز دراسات الخليج العربي - جامعة البصرة.
- العربية (دراسات في اللغة واللهجات والأساليب) - للمستشرق الألماني يوهان فك. ترجمة: د. عبد الحليم النجار ط. مصر - القاهرة ١٩٥١ م.
- علم البيان - د. بدوي طبانة. (دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية) ملتزم الطبع والنشر: مكتبة الانجلو المصرية ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م.
- علم المعاني - د. درويش الجندي. ط. دار نهضة مصر - القاهرة. (د. ت).
- علم المعاني - د. عبد العزيز عتيق. ط. دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٩٧٤ م.
- علم المعاني - د. قصي سالم علوان - مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٥ م (الطبعة الأولى).
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ) تقديم وشرح: د. صلاح الدين الهواري - أ. هدى عودة. (الطبعة الأولى). الناشر: مكتبة الهلال للطباعة والنشر - بيروت ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
- عيار الشعر - محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ). تحقيق: د. طه

الحاجري - د. محمد زغلول سلام. المكتبة التجارية - القاهرة ١٩٥٦ م.

- عيون الأخبار - ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ). نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. (د. ت).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء - ابن أبي اصيبعة. ط. دار الفكر - بيروت ١٩٥٧م.
- الغيث المسجم في شرح لامية العجم - صلاح الدين الصفدي. ط. المطبعة الأزهرية - مصر - القاهرة ١٣٠٥ هـ.
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية - محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت٧٠٩ هـ). دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦م.
- الفرج بعد الشده - القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي (ت ٣٨٤ هـ). تحقيق: عبود الشالجي المحامي - ط. دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٨ م.
- فقه اللغة وسر العربية - أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩ هـ). الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - تحقيق: أحمد يوسف علي. مطبعة الاستقامة - القاهرة. (د. ت).
- الفلك الدائر على المثل السائر - عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦ هـ). تحقيق: بدوي طبانة - أحمد محمد الحوفي. (الطبعة الخامسة). ط. دار المعارف بمصر - القاهرة (د. ت).
- الفن ومذاهبه في النثر العربي -د. شوقي طيف (الطبعة الخامسة)ط. دار المعارف بمصر -القاهرة (د. ت).
- فنون بلاغية - د. أحمد مطلوب - (الطبعة الأولى). الناشر: دار البحوث العلمية - الكويت ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.
- الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم - أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المشهور بابن النديم (ت٣٨٥ هـ). تحقيق: رضا تجدد. مطبعة دانشكاه - طهران ١٣٠٩ هـ / ١٩٧١ م.
- الفهرست - ابن النديم (طبعة أخرى). المطبعة الرحمانية -مصر - القاهرة ١٣٤٨ هـ.

- فوات الوفيات - محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - مكتبة النهضة المصرية. (د. ت).
- فوات الوفيات - الكتبي (طبعة أخرى). تحقيق: د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت (د. ت).
- في أدب الفرس وحضارتهم - د. محمد عبد السلام كفاني. الناشر: دار النهضة للطباعة والنشر ١٩٧١ م.
- في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة - أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨م). ط. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد - الدكن ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م.

(صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس).

مجموعة شيفر رقم (٦٠٨٠)، بإعانة وزارة المعارف للحكومة الهندية.

- في الشعر - ارسطاطاليس - نقله إلى العربية متى بن يونس القنائي. ترجمة وشرح: د. محمد شكري عياد. ط. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ م.
- في الميزان الجديد - د. محمد مندور. (الطبعة الثالثة) - ط. القاهرة د. ت.
- في النقد الأدبي - د. شوقي ضيف. ط. دار المعارف بمصر. القاهرة ١٩٦٦ م.
- القرامطة، أصلهم، تاريخهم، حروبهم - عارف ثامر. ط. دار الكتاب العربي - بيروت (د. ت).
- قضايا الشعر المعاصر - نازك الملائكة. (الطبعة الثانية). مطبعة دار التضامن - بغداد ١٩٦٥ م. منشورات مكتبة النهضة.
- قواعد الشعر - أحمد بن يحيى (ثعلب) ت ٢٩١ هـ. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي. (الطبعة الأولى). مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - القاهرة ١٩٤٨ م.
- الكامل في التاريخ - عز الدين أبو الحسن علي أبي الكرم (ابن الأثير ت ٦٣٠). ط. دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٣٨٦ هـ - / ١٩٦٦ م.
- الكامل في اللغة والأدب - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد.
- (ت ٢٨٥ هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - والسيد شحاتة. ط. دار نهضة

مصر للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م.

• كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي - (الطبعة الثانية).. طبع في مدينة ليدن - مطبعة بريل سنة ١٩٠٩ م. الناشر: دار الفكر - بيروت.

• كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء - الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي (ت ٦٤٦ هـ). الناشر: دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت (د. ت).

• كتاب خاص الخاص - أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩ هـ). قدم له: حسن الأمين - منشورات دار مكتبة الحياة - لبنان - بيروت ١٩٦٦ م.

• كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) - أبو هلال الحسن بن عبد الله ابن سهل العسكري (٣٩٥ هـ): تحقيق علي محمد البجاوي - ومحمد أبو الفضل إبراهيم - (الطبعة الثانية). مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٧١ م.

• كتاب غرر البلاغة في النظم والنثر -أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) تحقيق د. قحطان رشيد صالح (سلسلة خزانة التراث). ط. دار الشؤون الثقافية العامة -بغداد ١٩٩٨م.

• كتاب الكتاب - لابن درستويه - (عبد الله بن جعفر بن درستويه الفسوي الفارسي (٢٥٨ - ٣٤٧ هـ). تحقيق: د. إبراهيم السامرائي - د. عبد الحسين الفتلي. (الطبعة الأولى). الناشر: مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م.

• كتاب الموسيقى الكبير - أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي (ت ٣٣٩ هـ). تحقيق: غطاس عبد الملك. ط. دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٦٧ م.

• كتاب النمر والثعلب - سهل بن هارون الدستميساني الكاتب (ت ٢١٥ هـ). تقديم وتحقيق: د. منجي الكعبي - تونس (الطبعة الأولى). مطبعة الشركة التونسية -تونس ١٩٨٠ م.

• كشاف اصطلاحات الفنون - محمد علي الفاروقي التهانوي. تحقيق: لطفي عبد البديع - (ترجم النصوص الفارسية: د. عبد المنعم حسنين). الناشر: الهيئة

المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م.

• الكشف عن مساوئ شعر المتنبي - أبو القاسم الصاحب بن عباد (ت٣٨٥ هـ) تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين - ط. مكتبة النهضة - بغداد ١٩٦٥ م.

• الكشف عن مساوي شعر المتنبي (ضمن كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي) للصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ). ط. دار المعارف بمصر. (د. ت).

• كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان - شرح وتحقيق الشيخ إبراهيم أفندي الأحدب الطرابلسي. (جمع الرسائل: الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست) - ط. دار التراث - بيروت (د. ت).

• كمال البلاغة (رسائل الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير الزياري ت ٤٠٣ هـ) - جمع وتصنيف عبد الرحمن بن علي اليزدادي. طبع على نفقة المكتبة العربية ببغداد (لصاحبها نعمان الاعظمي). ط. المطبعة السلفية - بمصر - القاهرة ١٣٤١ هـ.

• الكناية والتعريض (ويسمى الكفاية في الكناية) للثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) مطبعة دار صعب - بيروت (د. ت). وأشار الأستاذ الباحث محمود عبد الله الجادر في كتابه (الثعالبي ناقداً وأديباً ص٨٦ - والكتاب رسالة ماجستير نوقشت عام ١٩٧٤ م - أشار إلى أن كتاب (النهاية في الكناية) - الذي طبع في مطبعة الجوانب عام ١٣٠١ هـ - هو نفسه كتاب الكناية والتعريض الذي نحن بصدد ذكره.

• كنوز الأجداد - الأستاذ محمد كرد علي. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق - مطبعة الترقي دمشق ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م.

• كولردج - د. محمد مصطفى بدوي. ط. القاهرة ١٩٥٨.

• اللباب في تهذيب الأنساب - عز الدين ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ). الناشر: مكتبة المثنى - بغداد - (د. ت).

• لحن العامة - علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩ هـ). تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي - طبع في مصر ١٣٤٤ هـ.

• لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ). ط. دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م.

• لطائف المعاني - أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) تحقيق: إبراهيم الابياري - حسن كامل الصيرفي - دار إحياء الكتب العربية. مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م.

• لغة الشعر الحديث في العراق -د. عدنان حسين العوادي ط. دار الحرية للطباعة والنشر - بغداد ١٩٨٥ م. (دار الشؤون الثقافية العامة) وزارة الثقافة والأعلام.

• المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م.

• مجالس العلماء - أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت٣٤٠ هـ). تحقيق: عبد السلام محمد هارون - الكويت ١٩٦٢ م.

• مجمع الأمثال - أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت ٥١٨هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السنة المحمدية. القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م.

• مجمع الأمثال - الميداني (طبعة أخرى). (الطبعة الثانية) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط. دار الجيل ١٩٨٧ م.

• المحاسن والمساوئ - إبراهيم بن محمد البيهقي (ت ٣٢٠ هـ) ط. دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م.

• مختار الصماح - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ) (الطبعة الأولى) الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٧٩ م.

• المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي - جمع وتحقيق: الأمير شكيب أرسلان - لبنان - باعبده ١٨٩٨ م.

• المدخل إلى علم النفس الحديث - ركس نايت - ومرجريت نايت - تعريب: د. عبد علي الجسماني - مطبعة الخلود بغداد ١٩٨٤ ط٣.

• مروج الذهب ومعادن الجوهر - أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٥ هـ). تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. (الطبعة الخامسة) مطبعة السعادة

- مصر ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م.

- مصطلحات بلاغية - د. أحمد مطلوب. مطبعة العاني - بغداد ١٩٧٢ م.
- المعارف - ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) - طبعة غوتنجن ١٨٥٠ م.
- معالم الحضارة الإسلامية - د. مصطفى الشكعة، (الطبعة الثالثة) - دار العلم للملايين -بيروت، ١٩٧٨م.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) -شهاب الدين أبو عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦ هـ)، تقديم وتحقيق: أحمد فريد رفاعي (سلسلة الموسوعات العربية)، مطبوعات دار المأمون - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر ١٩٣٦م.
- معجم الأدباء -ياقوت الحموي (طبعة أخرى) عني بتصحيحه وضبطه: المستشرق مرجليوت - مطبعة هندية بالموسكي القاهرة ١٩٢٣م.
- المعجم الأدبي -د. جبور عبد النور - ط. دار العلم للملايين -بيروت ١٩٧٩م (الطبعة الأولى).
- معجم البلدان -ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، ط. دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر -بيروت ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.
- معجم البلدان -ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) (طبعة أخرى)تحقيق: فرديناند وستنفيلد - ط - ليبزك ١٨٦٦م (منشورات مكتبة الأسدي) ١٩٦٥م (ط بالأفست)..
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب -مجدي وهبة - وكامل المهندس - منشورات مكتبة لبنان -بيروت ١٩٧٩م.
- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي -رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين - نشره: أ. ي. ونسنك - ليدن ١٩٤٣م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم -وضعه محمد فؤاد عبد الباقي -ط - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م (الناشر: دار الفكر - بيروت).
- مفتاح العلوم -السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (ت ٦٢٦هـ) - مطبعة مصطفى البابي الحلبي -القاهرة ١٩٣٧م. ط١.

- المقابسات -أبو حيان التوحيدي (ت بعد سنة ٤٠٠هـ) تحقيق: حسن السندوبي (الطبعة الأولى) مصر -القاهرة ١٩٢٩م.
- مقاتل الطالبيين -أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر - مصر -القاهرة ١٩٤٩م.
- مقالة في طبيعة الشعر (ت. س. إليوت: الشاعر الناقد) - ف. أ. ماثيسن - ترجمة د. إحسان عباس. مطبوعات المكتبة العصرية - بغداد ١٩٦٥م.
- المكتبة -د. سامي مكي العاني - د. عبد الوهاب العدواني ط. دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- ملامح النثر العباسي -د. عمر الدقاق دار الشرق العربي -بيروت (د. ت).
- الملل والنحل -أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت) تحقيق: محمد بن فتح الله بدران -مطبعة الأزهر -مصر ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م. (الطبعة الأولى).
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)مطبعة دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد - الدكن ١٣٥٨هـ.
- من حيث الشعر والنثر -د. طه حسين. (الطبعة العاشرة) ط. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٣٦م.
- من غاب عنه المطرب -أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان (الطبعة الأولى) مطبعة المدني -المؤسسة السعودية بمصر -القاهرة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م. الناشر: مكتبة الخانجي -مصر.
- منهج البحث الأدبي -د. علي جواد الطاهر (الطبعة السابعة) مطبعة الديواني -بغداد ١٩٨٦م. نشر وتوزيع: المكتبة العالمية.
- منهج البحث في تاريخ الآداب -لانسون -ترجمة: د. محمد مندور (نشر ضمن كتاب النقد المنهجي عند العرب)ط - دار نهضة مصر للطباعة والنشر -القاهرة (د. ت).
- موسيقى الشعر -د. إبراهيم أنيس (الطبعة الثالثة) مطبعة لجنة البيان العربي -القاهرة ١٩٦٥م (ملتزم الطبع والنشر: مكتبة الأنجلو المصرية).

• النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي - د. فائز طه عمر دار الشؤون الثقافية العامة - وزارة الأعلام (الطبعة الأولى)بغداد ٢٠٠٠م.

• النثر الفني في القرن الرابع -د. زكي مبارك. ط. دار الجيل -بيروت ١٩٧٥م.

• نثر النظم وحلّ العقد -أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ط. دار الرائد العربي - لبنان -بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م "سلسلة اللغة والأدب -٤ - ".

• النثر الفني وأثر الجاحظ فيه -د. عبد الحكيم بلبع مطبعة الرسالة - القاهرة ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥م.

• النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة -أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي (ت هـ) الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية -القاهرة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.

• نزهة الألباء في طبقات الأدباء -أبو البركات عبد الرحمن بن محمد ابن الأنباري (ت٥٧٧ هـ)تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم -ط. دار نهضة مصر القاهرة ت - مطبعة المدني (د. ت).

• نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة -القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي (ت٣٨٤هـ). تحقيق: عبود الشالجي المحامي، ط. دار صادر للطباعة والنشر -بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

• نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب -د. أمجد الطرابلسي (الطبعة الثالثة). نشر وتوزيع المكتبة العربية بحلب، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

• نظرية الأدب -أوستن وارين -رينيه ويليك، ترجمة: محيي الدين صبحي -مراجعة د. حسام الخطيب، مطبعة خالد الطرابيشي ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م (الطبعة الثالثة).

• نظرية البنائية في النقد الأدبي -د. صلاح فضل دار الشؤون الثقافية العامة -بغداد ١٩٨٧م. (الطبعة الثالثة).

• النقد الأدبي -وليم فان أوكونور -ترجمة: صلاح أحمد إبراهيم دار صادر -دار بيروت للطباعة والنشر -بغداد ١٩٦٠م.

• النقد التاريخي - المدخل إلى الدراسات التاريخية -لآنجلوا -وسينوبوس - ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي. الطبعة الرابعة، الناشر: وكالة المطبوعات -

الكويت ١٩٨١م.

- نقد الشعر -أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي (ت٣٣٧هـ) تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي -دار الكتب العلمية -بيروت (د. ت).
- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري - د. نعمة رحيم العزاوي - دار الحرية للطباعة والنشر - بغداد ١٩٧٨م.
- نقد النثر - المنسوب إلى قدامة بن جعفر - تحقيق د. طه حسين - ود. عبد الحميد العبادي - مطبعة مصر - القاهرة ١٩٣٨م (الكتاب جزء من كتاب البرهان).
- النكت في إعجاز القرآن -للرماني (أبو الحسن علي بن عيسى (ت٣٨٦هـ)) وهو ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تحقيق محمد خلف الله - ومحمد زغلول سلاّم، ط. دار المعارف بمصر - القاهرة (د. ت).
- نهاية الأرب في فنون الأدب - أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ) الأجزاء الثمانية عشر الأولى مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.
- - الجزء التاسع عشر حققه محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٧٦م.
- - الجزء العشرون بتحقيق رفعت فتح الله -القاهرة ١٩٧٥م.
- الهوامل والشوامل -أبو حيان التوحيدي -وأبو علي مسكويه تحقيق الأستاذين: أحمد أمين -والسيد أحمد صقر، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر -القاهرة ١٩٥١م.
- وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي - د. حياة جاسم - مطبعة الجمهورية - بغداد ١٩٧٢م.
- وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان -أبو العباس محمد بن محمد ابن أبي بكر ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) تحقيق: د. إحسان عباس. ط. دار الثقافة -بيروت - مطابع دار صادر ١٩٧٢.
- وفيات الأعيان - ابن خلكان (طبعة أخرى) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد -مصر -القاهرة ١٩٤٨م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر -أبو منصور الثعالبي تحقيق وشرح: د. مفيد محمد قميحة، ط. دار الكتب العلمية -لبنان -بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

(الطبعة الأولى).

- الرسائل الجامعية والبحوث المنشورة في الدوريات:.
- أبو إسحاق الصابي.. حياته وأدبه - مهدي صالح البدري، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد - كانون الثاني ١٩٧٦م.
- أبو بكر الخوارزمي ... حياته وأدبه - محمود صالح الضمور، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد، كانون الأول ١٩٧٦م.
- أبو بكر الصولي ناقداً - صبحي ناصر حسين رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد كانون الأول ١٩٧٤م.
- الثعالبي ناقداً وأديباً - محمود عبد الله الجادر رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد أيلول ١٩٧٤م.
- الشعر والشعراء في البصرة في القرن الثالث - أحمد جاسم النجدي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة بغداد تشرين الثاني ١٩٧٢م.
- عبد الحميد الكاتب ...حياته وأدبه - مريم عبد الحسين مجبل التميمي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية للبنات - جامعة الكوفة أيلول ١٩٩٨م.
- سهل بن هارون بين الترجمة والتأليف (بحث) غانم جواد رضا مجلة اللسانيات العدد ٢ السنة الثانية ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- شعر الببغاء - جمع وتحقيق: هلال ناجي - مجلة المجمع العلمي العراقي الجزء الثاني / المجلد الرابع والثلاثون. جمادى الآخرة ١٤٠٣هـ/نيسان ١٩٨٣م.
- الصورة الفنية في القصيدة العراقية الحديثة - (بحث) د. عناد غزوان. مجلة الأقلام - العددان ١١، ١٢، بغداد١٩٨٧م.

فهرس المحتويات

أ علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

THE PROSAIC LITERARY PAPERS IN THE FOURTH CENTURY OF THE HEGIRA

In Iraq and The Islamic Neareast

by

Dr. Ǧānim Jawād Riḍā al-Ḥasan

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

هذا الكتاب

الرسائل الأدبيّة النثريّة في القرن الرابع للهجرة

إنّ ميزة هذا البحث « الرسائل الأدبيّة النثرية في القرن الرابع » تتجلّى في الطريقة التي سلكها، وفي الغاية التي يهدف إليها..

أمّا طريقة البحث فهي ذات طابع علمي ترتكز أساساً على الوصف والتحليل، وتنتهج الاستقراء والمقارنة والاستنتاج، أي أنّها تقوم على تتبع الخصائص الفنية لفصول الرسائل الأدبية، كما تقوم على التعليل لها، والحكم عليها، حكماً لم يَشُبْهُ أدنى تحامل عليها، أو تعصب لها، نزوعاً إلى البحث العلميّ الصادق الرزين.

كما ترتكز هذه الدراسة أيضاً على الوقوف على المصادر القديمة التي عاصرت موضوع البحث، أو القريبة منه، فضلاً عن المراجع العلمية الرصينة التي أضاءت السبيل إلى شتات تلك الرسائل الأدبية، مع الحرص على دقة الاستنباط، في حيدة تامة، بعيداً عن الأهواء الشخصية والنزعات الذاتية الضّيقة.

وطبقاً لهذا المنزع في البحث، فإن الباحث غالباً ما يورد الآراء المتباينة، أو الاتجاهات المتعارضة في مكانها المناسب، وكثيراً ما يستوقفه بعضها، فيبيّن قيمتها أو دقتها، وقد يوحي أحياناً برأيه معقّباً أو محلّلاً، وقد يكتفي أحياناً أخرى بعرض تلك الآراء، دون التعقيب عليها، ليحيط بها القارئ، وليختار أيها شاء..

وأما الغاية التي توخاها الباحث، فهي بلوغ الحقيقة التي هي ضالة كلّ بحث علمي قويم، أيّا كانت تلك الحقيقة، من غير أن يجعل من الرسائل الأدبية التي يدرسها، أو كتّابها الذين يقف عند تحليل شخصياتهم وأساليبهم، نماذج مثاليّة، أو يضفي عليهم بحقّ أو من غير حقّ، مزايا مصطنعة، أو ثناءً متكلّفا، يطمس معالم الحقيقة التي ينشدها.

ISBN 2-7451-6254-3
9 782745 162540 90000
Designed & Printed by: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban
هاتف +961 5 804810/11/12
فاكس +961 5 804813
ص.ب 9424 - 11 بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت 2290 1107
e-mail: sales@al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com
www.al-ilmiyah.com DKi
دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah